

رئيس الفريق العلمي

أ. د. حمد بن ناصر بن عبد الرحمن العمار

رعاية ودعم

صاحب السمو الملكي

الأمير بندر بن عبد العزيز آل سعود

أجزل الله مثوبته

المجلد التاسع عشر



دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

كنوز رياض الصالحين

١٩

ح دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، ١٤٣٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العمار، حمد ناصر

كنوز رياض الصالحين/ حمد ناصر العمار - الرياض ١٤٣٠هـ، ٢٢ مج.

٦٤٨ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٢-٩٤-٨٠١١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٧-١٣-٨٠٥٥-٦٠٣-٩٧٨ (ج١٩)

١- الحديث - جوامع الفنون ٢- الحديث - شرح أ- العنوان

ديوي ٢٣٧,٣ ١٤٣٠/٤٢٨٨

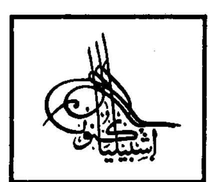
رقم الإيداع: ١٤٣٠/٤٢٨٨

ردمك: ٢-٩٤-٨٠١١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٧-١٣-٨٠٥٥-٦٠٣-٩٧٨ (ج١٩)

الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م



دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية ص.ب ٢٧٢٦١ الرياض ١١٤١٧

هاتف: ٤٧٤٢٤٥٨ـ ٤٧٧٣٩٥٩ ـ ٤٧٩٤٣٥٤ فاكس: ٤٧٨٧١٤٠

E-mail: eshbelia@hotmail.com

٢٧٨- باب النهي عن المنِّ بالعطية ونحوها

قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾[البقرة: ٢٦٤]، وقال تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلاَ أَذىً﴾[البقرة: ٢٦٢].

الحديث رقم (١٥٩٠)

١٥٩٠- وعن أَبي ذر رضي الله عنه، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: ((**ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَليمٌ**)) قَالَ: فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ثلاثَ مِرارٍ: قَالَ أَبُو ذرٍ: خَابُوا وخَسِرُوا مَنْ هُمْ يَا رسول الله؟ قَالَ: ((**المُسْبِلُ، والمَنَّانُ، وَالمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بالحَلِفِ الكَاذِبِ**)). رواه مسلم[1].

وفي روايةٍ لَهُ[2]: ((**المُسْبِلُ إزَارَهُ**)) يَعْنِي: المُسْبِلُ إزَارَهُ وَثَوْبَهُ أسْفَلَ مِنَ الكَعْبَيْنِ لِلخُيَلاَءِ.

ترجمة الراوي:

أبو ذر الغفاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦١).

غريب الألفاظ:

يُزكِّيهم: يطهرهم[3].

المنّان: الفَخُور على من أعطى حتى يُفسد عطاءه[4].

المنفق سلعة: المُروِّج لها[5].

الشرح الأدبي

بدأ الحديث بأسلوب التوشيع في قوله صلى الله عليه وسلم: (ثلاثة لا يكلمهم الله، ...)، ولهذا الأسلوب أثر ينسحب على السياق كله فيحقق اليقظة، والترقب، والاستشراف إلى بقية

---

(١) برقم (١٠٦/١٧١). أورده المنذري في ترغيبه (٣٠١١).

(٢) بعد حديث رقم (١٠٦/١٧١، بدون رقم). وقد تقدم برقم ٧٩٤، أورده المنذري في ترغيبه (٣٠١١).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ز ك و).

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (م ن ن).

(٥) لسان العرب، ابن منظور في (ن ف ق).

الخبر؛ فإن أسلوب التوشيع فيه نوع من الإبهام يتبعه توضيح يزيل غموضه فالمخاطب إذا سمع قول الرسول ﷺ (ثلاثة...) وهو لفظ نكرة مبهم يحتاج إلى تفسير استشرفت نفسه، وتطلعت إلى معرفة حقيقته، فإذا جاء التفسير تمكّن في النفس فضل تمكّن؛ لأنه صادف نفساً مهيأة، وتنكير كلمة (ثلاثة) بغرض التحقير إلى درجة الحرمان من كل خير.، والمتأمل لأسلوب الفصل، والوصل بين الجمل الثلاث التي وصفت بها النكرة في قوله: (لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم) يجد أن الجمل الثلاث الأولى جاءت بالسلب منفية بـ (لا) تُجرِّد النكرة من أجر الثواب، وصالح العمل.، ثم تُقرر الجملة الاسمية الأخيرة (ولهم عذاب أليم) وهي للدوام والثبوت المفاد من اسميتها تقرر بتقديم المسند وهو الجار والمجرور على المسند إليه، ثم بوصف المسند إليه وصفاً على المبالغة قَطْعَ كل وهم يستبقي لهم شيئاً قليلاً من الأمل.، والجمل الثلاث يلزم بعضها بعضاً من جهة المعنى، فكل مفهوم يؤكد ما سبقه، فالمحروم من رحمة كلام الله ومتعة إقباله عليه محروم -لا أشك- من نظره إليه، ومن لا يكلمه الله ولا ينظر إليه غضباً لا يكون محل تزكيته، ثم من كان كذلك كله ليس له إلا العذاب الأليم، والجمل الثلاث وصلت بالواو للتناسب، وعدم المانع، وإذا كان العطف يقتضي المغايرة، فهي حاصلة بالتنويع، لأنها ألوان ما بين الألم النفسي والمعنوي والحسي، ثم جاء التكرار لهذه الجمل ثلاثاً كما -حكى الصحابي- فصعَّد الوعيد والإنذار، وبلغ به أعظم درجة في أنفس المخاطبين، وقرر المعنى تقريراً لا يترك للمخاطب تعلة أو تحلة، يتحلل بها من تبعات ما ألقي إليه، أو يتعلل بها حين تكون استجابته غير متكافئة لما عليه موقف الرسول ﷺ من عناية واهتمام، فهذا التكرار بهذه الجمل الثلاث ارتقى بإحساس المتلقين لدرجة الخطر المحدق بكل متكبر أو منان أو كذاب، وصوَّر فعالهم شبحاً يطارد في النفوس الإحساس بالعجب، أو الرغبة في المن، أو الجرأة على الحلف كذباً مما يقوِّم الخطأ ويصلح النفوس، نضيف إلى ذلك الامتزاج بين التكرار المعنوي المطبق لألوان الحرمان من كلام الله، ثم نظره، ثم تزكيته، ثم المآل إلى العذاب الأليم مع التكرار اللفظي الذي يصفع هؤلاء المخطئين، ويزلزل بنيان الرغبة في الشر، ويزيله من نفوسهم.

وقوله (المسبل) المرسل لإزاره وثوبه' وهو كناية عن موصوف وهو المتكبر المختال المتعالي على الناس، وهذه الكناية تبيّن موضع الخطأ، وتدلل عليه وتوضح سبب الطرد من النعم، وأنه يرجع إلى تعالي هذا المتكبر، واختياله وتدلل الكناية على ذلك بأنه يجر ثوبه خيلاءً وزهواً على غيره، وقوله: (المنان) المن القطع، واستخدام لفظ المنان بمعنى القاطع للذي يفسد ما أعطى، ويبطله بالحديث عنه تيهاً وعجباً وإيذاءً لمشاعر المحتاجين، والفقراء على سبيل الاستعارة فقد استعار (المن) الذي هو القطع الذي يتعلق بالأمور الحسية لمن يضيع ثوابه بالحديث عنه عجباً وفخراً بجامع فعل ما يمنع الخير في كلٍ على سبيل الاستعارة التصريحية.

والمتأمل لأسلوب الرسول ﷺ البلاغي في تقويم هذه الأخطار، ومقاومة هذه النماذج السيئة في المجتمع المسلم يرى أنه لم يواجه هؤلاء بالعقاب دفعة واحدة، وإنما استخدم أسلوب التدرج تصعيداً للهول، وارتقاءً به في مسارب النفوس حتى يتغلغل فيها فيطرد شبح الكبر والخيلاء والتعالي على الناس بالمن والإيذاء، أو التجرؤ على الكذب والحلف عليه خداعاً للغافلين[1].

المضامين الدعوية[2]

(١) انظر: بلاغة الرسول ﷺ في تقويم أخطاء الناس وإصلاح المجتمع، دراسة في الصحيحين، د. ناصر راضي الزهري إبراهيم، ١٦٠ .

(٢) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٧٩٤).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية على اجتناب المخالفات الشرعية:

إن التربية الإيمانية تهيب بالمؤمنين وبالقائمين على أمور التربية والتوجيه ضرورة اجتناب المخالفات الشرعية، وهذا ما يستفاد من حديث الباب، حيث التربية على اجتناب الإسبال لما فيه من كبر، واجتناب المنّ لما فيه من عجب ورياء، واجتناب إنفاق السلعة بالحلف الكاذب، وذلك في قوله ﷺ: «ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلاَ يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ..إلخ».

وقد بدأ الحديث بتوجيه همم المربين إلى تربية النشء على اجتناب الإسبال لما فيه من كبر.

"والكبر من أخطر أمراض النفوس الباطنة، والتي تدل على ضعف تدين المتربي، مما يورثه اختلالاً في صحته النفسية"[1].

وهذا ما أكده ابن الجوزي في قوله: "إن الكبر تعظيم شأن النفس واحتقار الغير، وذلك يكون بسبب الترفع على ما هو دونه، إما في النسب أو المال أو العلم أو العبادة، أو غير ذلك، وعلامة الكبر الأنفة ممن يتكبر عليه، والاحتيال والفخر ومحبة تعظيم الناس له"[2]، ولما كان الإسبال طريق ذلك وجب تربية النشء على اجتنابه، وحتى يتسنى لدعاة التربية والتوجيه علاج ما كان من كبر في نفوس المتربين لما بهم من إسبال، وجب عليهم علاج ذلك بأمرين:

الأول: وينقسم إلى نوعين: علمي وعملي: فالعلمي: في الأدلة السمعية والعقلية على رذائل الكبر، وأما العملي فصحبة المتواضعين وسماع أخبارهم، وأما الثاني: فإنه ينظر إلى رذائل النفس، وأن يعلم أن من يتكبر به، إن كان مالاً فهو مأخوذ منه عن قريب، والفضل إنما يكون في الغنى عن الشيء لا به، لأن الغني بالشيء فقير إليه، وإن كان

---

(١) التدين والصحة النفسية، د. صالح بن إبراهيم الصنيع، ٢١٦.

(٢) ذم الهوى، ابن الجوزي، ص٣١.

علمًا فقد سبقه خلق كثير أعلم منه، ثم علمه ينهاه عن حالته، فهو حجة عليه، كذلك إن كان عملاً تم رؤيته للعمل بعين التمام نقيصه....إلخ[١].

أما المنُّ بالعطية فهو سقط أخلاقي في تربية النفس، وشجٌ حسي في شعور الآخرين، وقد صدَّر له الإمام النووي باب الحديث في النهي عن المن بالعطية، لإرشاد المربين والمعلمين إلى أهمية وضرورة اجتنابه في سلوكيات المتربين، لاشتمال المنِّ بالعطية ضمنًا على التغافل عن الاعتراف بمالك العطية بداءة وهو الله، لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾[٢]. وقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣].

وقد ورد في حديث الباب أن المنان، له عقوبة مثل عقوبة المسبل إزاره، وثوبه أسفل من الكعبين للخيلاء، ومثل عقوبة المروج لسلعته بالحلف الكاذب[٤]، وهذا مما يدفع بأهل التربية إلى الاهتمام بتوجيه المتربين إلى اجتناب المن بالعطية، لما يحوي في طياته معنى الرياء والعجب والبخل كما قال القرطبي:

إن المن غالبًا يقع من البخيل والمعجب، فالبخيل تعظم في نفسه العطية وإن كانت حقيرة في نفسها، والمعجب يحمله العجب على النظر لنفسه بعين العظمة وأنه منعم بماله على المعطي، وإن كان أفضل منه في نفس الأمر، وموجب ذلك كله الجهل، ونسيان نعمة الله فيما أنعم به عليه، ولو نظر مصيره لعلم أن المنة للآخذ لما يترتب من فوائد[٥].

أما ترويج السلعة بالحلف الكاذب، فهي الكبيرة الثالثة، والتي يجب على دعاة التربية غرس اجتناب ارتكابها، في نفوس المتربين، لما في ارتكابها من وأد حرارة الإيمان في القلوب، وتكون التربية في ذلك بغرس عظمة الله في القلوب، بذكر أسمائه الحسنى، وصفاته العلا، ليس ذلك فحسب بل وإقامتها في النفوس مقامًا فعليًا، وذلك

---

(١) المرجع السابق، ص٤٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ٩٤.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.

(٤) الأخلاق في الإسلام، د. عبداللطيف محمد العبد، ٢٦٨.

(٥) فتح الباري، ابن حجر، ٣/٢٩٩.

بجعلها منهج حياة للمتربي، فإن أراد أن يعصى أو يحلف كاذبًا تذكر أن الله هو السميع العليم الرقيب المجازى على الأفعال والأقوال، إن كان خيرًا فخير، وإن كان شرًا فشر.

ثانيًا: التربية بالترهيب:

لقد بلغ الترهيب كأسلوب تربوي في حديث الباب مبلغًا عظيمًا، يؤكد أهميته في التربية، حيث رهب النبي ﷺ في الحديث من الإسبال والمن وإنفاق السلعة بالحلف الكاذب، وذلك في قوله: «ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلاَ يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»..إلخ.

والترهيب كأسلوب تربوي يعني تهديد بالعقاب على عمل قبيح قولاً كان أو فعلاً، وهو أسلوب يتفق والطبيعة النفسية للمتربي، حيث التأثر بما يثير الخوف في نفسه مما يدفعه إلى اجتناب التهديد[1].



(١) تربية الطفل في الإسلام، د. أحمد محمود الحمد، ٢١٨، ٢١٩.

٢٧٩- باب النهي عن الافتخار والبغي

قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾[النجم: ٣٢]، وقال تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[الشورى: ٤٢].

الحديث رقم (١٥٩١)

١٥٩١- وعن عياضِ بن حِمَارٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: **((إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلاَ يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ))** رواه مسلم[1]. قال أهل اللغة: البغي: التعدي والاستطالة.

ترجمة الراوي:

عياض بن حِمار: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦٠٢).

الشرح الأدبي

قول الرسول ﷺ (إن الله أوحى إلي) يشير إلى أنه أمر علوي يستلزم مزيد عناية به لأن مباشرة الملك لأمر من الأمور له دلالة تشير إلى أهميته، ثم إن توكيد الخبر تنبيه على فضله، والعناية به يدعم هذا المعنى الذي غفل الناس عنه، وهو عظيم الأثر في علاقة العبد بربه، وبالناس فالمتكبر المتفاخر مبغوض من الله، ومبغوض من الناس، والتواضع تفاعل يشير إلى إشتراك أكثر من واحد في الفعل، وهو الخضوع، والتذلل، وخفض الجناح، وهي أمور تحقق التحابب، والتقارب بين المسلمين وقد جعل غاية هذا التواضع ترك الفخر، ورد الحقوق، وعدم البغي؛ لأن الكبر بطر الحق وغمط الناس، والتواضع ضده، وقوله (لاَ يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلاَ يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ) أسلوب نفي

---

(١) برقم (٦٤/٢٧٦٥)، واللفظ لأبي داود (٤٨٩٥). وتقدم برقم ٦٠٢، أورده المنذري في ترغيبه (٤٢٦٥) وعزاه لمسلم وأبي داود، وابن ماجه، واكتفى المؤلف بذكر مسلم، ولم ينتبه أن اللفظ لأبي داود.

يشير إلى غاية الوحي بالتواضع، وتنكير (أحد) في الموضعين، وتكرارها تعميم للحكم يجمع الأمة تحت مظلته.

المضامين الدعوية[1]

(١) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٦٠٢).

الحديث رقم (١٥٩٢)

١٥٩٢- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ، قَالَ: ((**إِذَا قَالَ الرجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ، فَهُوَ أهْلَكُهُمْ**)) رواه مسلم[١].

الرواية المشهورة: ((أهْلَكُهُمْ)) بِرَفعِ الكاف وروي بنصبها[٢]: وذلكَ النهيُ لِمنْ قَالَ ذَلِكَ عُجْبًا بِنَفْسِهِ، وتَصَاغُرًا للنَّاسِ، وارْتِفاعًا عَلَيهِمْ، فَهَذَا هُوَ الحَرامُ، وَأمَّا مَنْ قَالَهُ لِما يَرَى فِي النَّاسِ مِنْ نَقْصٍ فِي أمرِ دِينِهم، وقَالَهُ تَحَزُّنًا عَلَيْهِمْ، وعَلَى الدِّينِ، فَلاَ بَأسَ بِهِ. هكَذَا فَسَّرَهُ العُلَماءُ وفَصَّلُوهُ، وَمِمَّنْ قَالَهُ مِنَ الأئِمَّةِ الأعْلامِ: مالِكُ بن أنس[٣]، وَالخَطَّابيُّ[٤]، والحُميدي[٥] وآخرونَ، وَقَدْ أوْضَحْتُهُ فِي كتاب: " الأذْكار "[٦].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

أهلكهم: أشدهم هلاكًا[٧].

الشرح الأدبي

إن من سمات المسلم التواضع، وتجنب الافتخار والبغي، وعدم المبالغة في العُجب والزهو بالنفس، وهذا الحديث يرسي قاعدة من قواعد المنهج الإسلامي في سلوك المسلم وموقفه من الآخر، والحديث في بنائه اللغوي يتكون من جملة واحدة: وهي جملة شرطية تتكون من مقدمة ونتيجة، فالمقدمة هي فعل الشرط وأداة الشرط: "إذا قال

(١) برقم (١٣٩/٢٦٢٣). أورده المنذري في ترغيبه (٤٣٦٣).

(٢) قال مسلم عقب الحديث: قال أبو إسحاق: لا أدري (أَهْلَكَهُم) بالنَّصب، أو، : (أَهْلَكُهُم) بالرَّفع.

(٣) انظر: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر (٢٤٢/٢١).

(٤) معالم السنن (١٢٢/٤).

(٥) الجمع بين الصحيحين (٢٨٧/٣).

(٦) (ص: ٥٦٣).

(٧) شرح مسلم، النووي ١٥٦٠.

الرجل: هلك الناس، والنتيجة: جواب الشرط: فهو أهلكهم، وأداة الشرط: "إذا"، تعلن عن أن القول واقع حقيقة وليس افتراضًا لأن "إذا" تفيد التحقق: فلا بد أن يصدر القول من الرجل: ومقول القول: جملة: هلك الناس.. ودلالة هذه الجملة. أي: فسد الناس وفسقوا، وابتعدوا عن جادة الصواب، حسب رأي القائل، والعقوبة التي تترتب على هذا القول مصدرها الدافع إلى هذا القول، فإذا كان بدافع الإعجاب بالنفس، واحتقار الآخرين، وازدرائهم فهذا سلوك مرفوض، وقول ممقوت.. وجزاؤه أن هذا القائل هو أكثر الناس هلاكًا.. وابتعادًا عن النهج الصحيح، لأنه لا يدري سر الله تعالى في خلقه،ولكن إذا قال ذلك - كما يقول مالك - تحزنًا عليهم لما يرى في الناس من نقص في أمر دينهم من الابتعاد عن النهج الصحيح، فلا بأس.. أي أنه لا يستحق العقوبة.

وجواب الشرط: فهو أهلكهم، يتمم جملة الحديث، وقد اقترن الجواب بالفاء لأنه جملة اسمية.

واسميةُ الجملة هنا يوحي بثبات هذا العذاب وتحققه في ضوء نية القائل وتوجيه قوله، وأفعل التفضيل في قوله: "أهلكهم"، يوحي بشدة عقاب من يفتخر بنفسه، فهو أسوأ حالاً منهم بما يلحقه من الإثم في عيبهم والوقيعة فيهم، قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الشرط.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحث على التواضع وترك الافتخار على الناس.

ثالثًا: من واجبات الداعية: تحذير المدعوين من الألفاظ الخاطئة.

أولاً - من أساليب الدعوة: الشرط:

الشرط: حيث جاء في الحديث: "إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم"، وأسلوب الشرط من أساليب الدعوة التي تشد انتباه المدعو، وتبين له مدى ارتباط الشرط

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٢.

بـالجزاء، فـالجزاء مـن جـنس العمـل، ومـن صـور اسـتعمال القـرآن الكـريم لأسـلوب الشرط، قوله تعالى: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾[١].

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: الحث على التواضع وترك الافتخار على الناس:

حيث جاء في الحديث قوله: "إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم"، قال النووي: (قال الخطابي معناه لا يزال الرجل يعيب الناس ويذكر مساويهم ويقول فسد الناس وهلكوا ونحو ذلك، فإذا فعل ذلك فهو أهلكهم أي أسوأ حالاً منهم بما يلحقه من الإثم في عيبهم والوقيعة فيهم، وربما أداه ذلك إلى العجب بنفسه ورؤيته أنه خير منهم)[٢].

وقال المازري: (محمل هذا عند بعض العلماء: على أن القائل قال ذلك ازدراءً بالناس واحتقارًا لهم وإعجابًا بنفسه؛ فأما قوله على جهة الإشفاق والتفجع لذهاب الصالحين، وتفضيل من مضى من الأولين، فإنه خارج عن هذا، والقصد يغير أحكام اللفظ، والأول عنوان الكبر والاستهزاء بالناس وهو مذموم، والثاني عنوان الإشفاق والتقصير بالنفس، وتعظيم السلف، وذلك لا يكون مذمومًا)[٣].

وقال القاضي عياض: (وقيل هذا في الغالين والمبتدعين الذين يقولون: هلك الناس استوجبوا الخلود في النار بمعاصيهم، والذين يؤيسون الناس من رحمة الله)[٤].

وقال النووي: (اتفق العلماء على أن الذم في قوله: "هلك الناس" إنما هو فيمن قاله على سبيل الازدراء على الناس واحتقارهم، وتفضيل نفسه عليهم وتقبيح أحوالهم، لأنه لا يعلم سر الله في خلقه)[٥].

هذا وقد دلت النصوص الشرعية على فضل التواضع، وخطورة الافتخار على الناس قال الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٧.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ١٥٦٠.

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم المسمى، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٣٨٤/٢ - ٣٨٥.

(٤) المرجع السابق ١٠٤/٨.

(٥) شرح صحيح مسلم، النووي ١٥٦٠.

حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾[١]، وقال سبحانه: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢]، وقال ﷺ: "وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله"[٣]، وكان ﷺ يقول في دعائه "اللهم أحيني مسكينًا، وأمتني مسكينًا واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة"[٤]، وقال ابن القيم: قال ابراهيم بن شيبان: الشرف في التواضع، والعز في التقوى، والحرية في القناعة. وسئل الفضيل بن عياض رحمه الله عن التواضع؟ فقال: يخضع للحق وينقاد له ويقبله ممن قاله، ولو سمعه من صبي قبله ولو سمعه من أجهل الناس قبله، وقال الجنيد بن محمد: التواضع هو خفض الجناح ولين الجانب[٥].

وقال السعدي: "والتواضع هو أصل الدين وروحه والتكبر منافٍ للدين، والتواضع أعظم نعمة أنعم الله بها على العبد، فعلى الإنسان أن يتواضع لعباد الله ويلين لهم، ويحب لجميعهم الخير، وينصح لهم في كل حالة من أحوالهم، ويحترم الكبير ويحنو على الصغير، فطوبى للمتواضعين، وويل للمتكبرين المتجبرين"[٦].

جاء في موسوعة فقه القلوب: والتواضع أن يخضع العبد للحق، وينقاد له، ويقبله ممن قاله، ويتلقى سلطان الحق بالخضوع له، والانقياد له، والدخول تحت رقه، بحيث يكون الحق متصرفًا فيه تصرف المالك في مملوكه.

وبهذا يحصل للعبد خلق التواضع.

وحقيقة التواضع: خضوع العبد لصوله الحق، وانقياده لها، وخفض الجناح، ولين الجانب.

والتواضع خلق جميل ينشأ من معرفة جلال الرب وعظمته، ومعرفة نعمه وإحسانه، ومعرفة نقص الإنسان، فيتولد التواضع من الإنسان الضعيف الناقص لربه ذي الجلال والإكرام.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٢) سورة الحجر، آية: ٨٨.

(٣) أخرجه مسلم ٢٥٨٨.

(٤) أخرجه الترمذي ٢٣٥٢، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٩١٧).

(٥) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/٣٤٢.

(٦) الرياض الناضرة ص ١٠٨.

والتواضع على ثلاث درجات:

الأولى: التواضع للدين، وهو الانقياد والتسليم والإذعان لكل ما جاء به الرسول ﷺ، فلا يعارض شيئًا مما جاء به، ولا يتهم دليلاً من أدلة الدين، بحيث يظنه ناقص الدلالة أو غيره كان أولى منه.

ومن عرض له شيء من ذلك فليتهم نفسه، وليعلم أن الآفة منه لا من الدليل.

وإذا رأى العبد من أدلة الدين ما يشكل عليه فليعلم أنه لعظمته وشرفه لم يدرك معناه، وأن تحته كنزًا من كنوز العلم لم يؤت مفتاحه.

ويقدم نصوص الكتاب والسنة على آراء الرجال، ولا يجد إلى خلاف النص سبيلاً ألبتة لا بباطنه ولا بلسانه، ولا بفعله ولا بحاله.

الثانية: أن ترضى بما رضي الحق به لنفسه عبدًا من المسلمين أخًا، وأن لا ترد عن عدوك حقًا، وأن تقبل من المعتذر معاذيره.

فإذا كان الله رضي أخاك المسلم لنفسه عبدًا، أفلا ترضى أنت به أخًا؟

فإن عدم رضاك به وقد رضيه سيدك الذي أنت عبده هو عين الكبر.

وأي قبيح أقبح من تكبر العبد على عبد مثله لا يرضى بأخوته، وسيده راض بعبوديته؟.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[1]. وقال النبي ﷺ: «ألا أُخبِرُكم بأهل الجنَّة؟ كلُّ ضعيفٍ مُتضعِّف لو أقسَمَ على الله لأبرَّه. ألا أخبرُكم بأهل النار؟ كلُّ عُتُلٍّ جَوّاظٍ مُستكبِرٍ»[2].

وكذلك تقبل الحق ممن تحب وممن لا تحب، فتقبله من عدوك كما تقبله من وليك، فلا تمنعك عداوته من قبول حقه، ولا من إيتائه إياه.

ومن أساء إليك ثم جاء يعتذر من إساءته، فإن التواضع يوجب عليك قبول معذرته حقًا كان أو باطلاً، وتكل سريرته إلى الله تعالى.

---

(١) سورة لقمان، آية: ١٨.

(٢) أخرجه البخاري ٦٠٧٢ واللفظ له، ومسلم ٢٨٥٣.

وعلامة الكريم أنه إذا رأى الخلل في عذره لا يوثقه عليه ولا يحاجه، بل يصفح عن المعتذر فورًا، ويقول: يمكن أن يكون الأمر كما تقول، ولو قضي شيء لكان، والمقدر لابدَّ واقع ونحو ذلك.

الثالثة: أن تتواضع للحق سبحانه، وتعبده بما أمرك به على مقتضى أمره، لا على ما تراه من رأيك.

ولا يكون باعثه لك على عبادته داعي العادة كما هو باعث من لا بصيرة له، بل يكون باعثه على العبودية لربه مجرد الأمر، ولا ترى لنفسك حقًا على الله لأجل عملك؛ بل تكون مع الله بالعبودية والفقر المحض، والذل والانكسار. فمتى رأى لنفسه على ربه حقًا صارت معلولة، وخيف منها المقت، وخشي عليها الطرد والإبعاد.

ولا ينافي هذا ما أحقه الله وأوجبه على نفسه من إثابة عابديه وإكرامهم، فإن ذلك حق أحقه على نفسه بمحض كرمه وبره، وجوده وإحسانه، لا باستحقاق العبيد، فلا يدخل أحد الجنة بعمله أبدًا، ولا ينجيه من النار كما قال رسول الله ﷺ: «لاَ يُدْخِلُ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ. وَلاَ يُجِيرُهُ مِنَ النَّارِ، وَلاَ أَنَا. إِلاَّ بِرَحْمَةٍ مِنَ اللّهِ»[١][٢].

ثالثًا - من واجبات الداعية: تحذير المدعوين من الألفاظ الخاطئة:

حيث جاء في الحديث: "إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم"، حيث حذر المسلم من قول: "هلك الناس"، قال النووي: والمراد أشدهم هلاكًا وذلك إذا قال ذلك على سبيل الاحتقار للناس، قال الخطابي: لا يزال يعيب الناس ويذكر مساويهم، ويقول: فسد الناس وهلكوا، فإذا فعل ذلك فهو أهلكهم أي أسوأ حالاً منهم بما يلحقه من الإثم في عيبهم، وربما أداه ذلك إلى العجب بنفسه وأنه خير منهم فيهلك. وقال مالك: إذا قال ذلك تحزنًا لما يرى في الناس من نقص في أمر دينهم فلا أرى به بأسًا، وإذا قال ذلك عجبًا بنفسه وتصاغرًا للناس فهو المكروه الذي ينهى عنه. قلت: أي النووي: وهو أحسن ما قيل في معناه وأوجز"[٣].

---

(١) أخرجه مسلم ٢٨١٧.

(٢) موسوعة فقه القلوب، محمد بن إبراهيم التويجري ٢/١٩٧٣-١٩٧٥.

(٣) الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، تحقيق: محيي الدين مستو ٢٩٨-٢٩٩.

ومما يدل على حرص النبي ﷺ على توجيه المدعوين إلى مجانبة الألفاظ الخاطئة ما جاء عن جابر بن عبدالله : «أنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ دَخَلَ عَلَى أُمِّ السَّائِبِ، أَوْ أُمِّ الْمُسَيَّبِ. فَقَالَ: «مَا لَكِ؟ يَا أُمَّ السَّائِبِ أَوْ يَا أُمَّ الْمُسَيَّبِ تُزَفْزِفِينَ؟» قَالَتِ: الْحُمَّى. لاَ بَارَكَ اللّهُ فِيهَا. فَقَالَ «لاَ تَسُبِّي الْحُمَّى. فَإِنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ. كَمَا يُذْهِبُ الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ»[١].

ومما يدل على ذلك أيضًا ما جاء عن عمران بن حصين قال: «بَيْنَمَا رَسُولُ اللّهَ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، وَامْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ عَلَى نَاقَةٍ. فَضَجِرَتْ فَلَعَنَتْهَا. فَسَمِعَ ذٰلِكَ رَسُولُ اللّهَ ﷺ فَقَالَ: «خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَدَعُوهَا. فَإِنَّهَا مَلْعُونَةٌ»[٢]. وفي رواية: «لا تصاحبنا ناقة عليها لعنة»[٣].

وعن زيد بن أسلم «أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ بَعَثَ إِلَى أُمِّ الدَّرْدَاءِ بِأَنْجَادٍ مِنْ عِنْدِهِ. فَلَمَّا أَنْ كَانَ ذَاتَ لَيْلَةٍ، قَامَ عَبْدُ الْمَلِكِ مِنَ اللَّيْلِ، فَدَعَا خَادِمَهُ، فَكَأَنَّهُ أَبْطَأَ عَلَيْهِ، فَلَعَنَهُ. فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَتْ لَهُ أُمُّ الدَّرْدَاءِ: سَمِعْتُكَ، اللَّيْلَةَ، لَعَنْتَ خَادِمَكَ حِينَ دَعَوْتَهُ. فَقَالَتْ: سَمِعْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «لاَ يَكُونُ اللَّعَّانُونَ شُفَعَاءَ وَلاَ شُهَدَاءَ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٤].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أنَّ النبيَّ ﷺ دَخلَ على أعرابيٍ يَعودهُ، قال: وكان النبيُّ ﷺ إذا دخلَ على مَريضٍ يعودُهُ قال: لا بأسَ، طَهورٌ إن شاء الله. فقال له: لا بأسَ، طَهورٌ إن شاءَ الله. قال: قُلْتَ: طَهورٌ؟ كلا، بل هي حُمى تفُور - أو تَثور على شيخ كبير، تُزيرُه القُبور. فقال النبيُّ ﷺ: فنعم إذًا»[٥].

ومن خلال هذه النصوص والتوجيهات يتبين حرص النبي ﷺ على توجيه المدعوين إلى ترك الألفاظ الخاطئة، وفي هذا ينبغي أن يقتدى الدعاة الهداة بإمامهم ونبيهم ﷺ، وأن يحرصوا على إرشاد المدعوين إلى ترك الألفاظ الخاطئة ويحذروهم من ذلك.

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٧٥.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٩٥.

(٣) أخرجه مسلم ٢٥٩٦.

(٤) أخرجه مسلم ٢٥٩٨.

(٥) أخرجه البخاري، ٣٦١٦.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: غرس خلق التواضع في نفوس المتربين:

لقد جاء الإسلام ليجعل الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح، ولهذا فقد أمر النبي ﷺ بالتواضع، ونهى عن الكبر، يقول ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا ...»، وذلك أن النبي ﷺ أراد للأمة أن تكون متآخية، لا مكان بين أفرادها للأحقاد التي تنشأ عن تكبر بعض الناس على بعض.

وخلق التواضع يحرص عليه كل نبيل وعظيم، لأن المرء كلما علت نفسه رآها صغيرة، ورأى الآخرين خيرًا منه، فعرف أقدارهم، بعكس المتكبر الذي يحلله التربويون بأن كبره عبارة عن خلق باطني لديه، حيث يرى نفسه فوق من يتكبر عليه، بحيث يكون هذا مبدأ عنده، ومن ثم يظهر في الواقع الخارجي من خلال الأعمال التي تصدر عن جوارحها[(١)].

والتواضع يجلب لصاحبه ما لا يجلبه المال وإن كثر، ويحقق مالا يقدر بثمن، ألا وهو محبة الناس، وما ذلك إلا لأن البشر ينفرون من المتكبر، ويفرون من لقائه، لأنه يطمس معالم الإنسانية ويتجاوز حدود اللياقة الاجتماعية، فيبغضه الناس ويكرهون لقاءه، بخلاف المتواضع الذي يحترمهم، ويقدر مشاعرهم ويوطئ أكنافه لهم، ويتيح لهم سبل الإفصاح عن إنسانيتهم، والإعراب عن وجودهم، لذلك تراهم يقبلون عليه ويحبونه، ويرفعون من شأنه، وينشرون ذكره[(٢)].

ثانيًا: التربية بالتوجيه المباشر:

وذلك في قوله ﷺ: «إذا قال الرجل هَلَكَ النَّاسُ، فَهُوَ أَهْلَكَهُمْ» فذلك توضيح للحقيقة مباشرة للمتلقين، فالذي يسم الناس بالحقارة والفساد تعاليًا عليهم، فهو

---

(١) الشخصية، د. ناصر بن عبدالله التركي، ص٤٤٤.

(٢) موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية، د. مرزوق بن صنيتان بن تبناك وآخرون ١٩/١٦.

أكثرهم دنوًا وحقارة؛ لأنه ما قال هذه الكلمة إلا كبرًا وتعاليًا على الآخرين، فحق له أن يبوء بمثل ما رمى به إخوانه، بل إنه سيكون أقلهم قدرًا، وأوضعهم مكانًا.

ويعتمد أسلوب التوجيه المباشر على توجيه الكلام إلى الفرد المستهدف بالتربية عن طريق الخطاب المباشر، فيقوم بتلقين الفرد المراد تغيير سلوكه أو تقويمه أو تعزيزه تلقينًا مباشرًا، فيلقى الكلام إلى السامع مباشرة بصورة جلية[1].



---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. أمين أبو لاوي، ص١٥٤، ١٥٥ بتصرف.

٢٨٠- باب تحريم الهجران بين المسلمين فوق ثلاثة أيام

إلاّ لبدعة في المهجور، أو تظاهر بفسق أو نحو ذلك

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[الحجرات: ١٠]، وقال تَعَالَى: ﴿وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالعُدْوَانِ﴾[المائدة: ٢].

الحديث رقم (١٥٩٣)

١٥٩٣- وعن أنس رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: **((لا تَقَاطَعُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَحَاسَدُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، وَلاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَث))** متفق عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

لا تدابروا: لا يُعط كلُّ واحد منكم أخاه دُبره وقفاه فيُعرض عنه ويهجره [2].

الشرح الأدبي

من أكثر الصفات التي حاربها الإسلام بتعاليمه صفة الفرقة، والقطيعة التي كانت تمزق المجتمع الجاهلي قبل الإسلام، وقد جاء الإسلام، ليوحد أهل الأرض تحت كلمة واحدة، وهي كلمة التوحيد، ولا يمكن أن يتم ذلك في ظل القطيعة، والفرقة، والبغضاء والحسد، وأمراض القلوب، وإنما يتم ذلك إذا كان المؤمن نقي القلب طاهر

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٥)، ومسلم (٢٥٥٩)، واللفظ للترمذي (١٩٣٥)، تبع المؤلف فيه المنذري في ترغيبه (٤٠٦٤)، وتقدم برقم (٢٣٥).

تنبيه: هذا الحديث تقدم برقم (٢٣٥) وكان بلفظ مسلم، وكرره المؤلف هنا وهذا لفظ الترمذي، وبنحوه عندهما. ولذلك جرى التنبيه عليه.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (د ب ر).

النفس مشغولاً بطاعة الله لا بمشاحنة الناس لذلك جاء نهيه ﷺ عن مثل هذه الأخلاق الرديئة حفاظاً على حال الفرد والجماعة، وأولها قوله (لا تَقَاطَعُوا) نهيا عن القطيعة التي تمنع الصلة المحققة لوصل الله للعبد، وقوله: (ولا تدابروا) والتدابر كناية عن صفة القطيعة والإعراض والهجران وأصل التدابر أن يعرض كل شخص عن أخيه بوجهه ويوليه ظهره فاستخدم للمتهاجرين وسمى الإعراض الذي هو لازم التدابر تدابراً كناية عن صفة الإعراض والهجر وفائدة الكناية أنه أثبتت الفعل بدليله وبينته وهي التدابر، وقوله : (ولا تباغضوا) نهيا يقوِّم خطأ التباغض، وهو تفاعل من البغض، وهو الكراهية التي تترتب على القطيعة والتدابر، وقد نهى عنهما أولاً وهما يمنعان الصلة الحسية، والبغضاء تمنع الصلة القلبية، أيضاً ورد النهي في قوله: (ولا تحاسدوا) تقويماً لمرض نفسي خطير وتحصيناً للمؤمنين من شره؛لأن الحسد تمني زوال نعمة الغير ولا يصدر عن طهارة نفس أو سلامة قلب بل هو قرين نفس خبيثة وإنسان حقود، ، وقوله (وكونوا عباد الله إخوانا) تتميم حيث أتبع الرسول ﷺ نواهيه بما يتمم معناها، ويضيف إليها فيما ورد في الجملة بعدها، فأكدت دلالة سابقتها وأفادت ضرورة التآخي بكل من يستوجبه هذا المعنى من اجتناب ما سبق النهي عنه من سيء الأخلاق والتخلق ما يجب وفاءً بحقوق الأخوة، وقوله : (وَلاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثٍ) والتعبير بالفعل المضارع المنفي بـ لا (لا يحل) اطراد للحكم مع اطراد الحياة يفيد التجدد والاستمرار كلما جد هجر جدت حرمة، وهذا أدعى لتدبر الهاجر.، وقوله (لمسلم) قيَّد الحكم بالمسلم تعريضاً بنفي الإسلام عن الهاجرين بنفي الإسلام عن المتصفين بتلك الصفة المحرمة على أهله، وتنكير كلمة (مسلم) لإفادة التعميم لأن استغراق المفرد أعم أنواع الاستغراق، وقد جاء المسند إليه مصدراً مؤولاً من الحرف المصدري والفعل المنصوب به، (أن يهجر) هي هجر، وكان من الممكن أن يكون مكانه المصدر الصريح فيقال: (هجر أخيه)؛ لأن صيغة المضارع باقية مع التأويل بالمصدر دالة في ذاتها على التجدد والحدوث، دالة على استحضار الصورة في الحال، ومعنى هذا أن يتصور المسلم كل فعل من الهجران يتجدد أمراً لا يحل.وقد جاء المفعول

بلفظ مشع يضيء حوالك النفس وقت الخصومة ويكشف ظلام القلب ساعة الغضب (أخاه) والمقصود الأخوة في الصفة السابقة، صفة الإسلام التي تفضل في الرحمة والإشفاق أخوة الأصلاب؛ لأنها تجعل المؤمنين أعضاء جسد واحد يسهر ويحم جميعه بواحدٍ منها كما مر في الحديث قريباً.، وقوله (فوق ثلاث ليال) اختبار العدد (ثلاث) رعاية لحال النفس الغاضبة حتى تهدأ وتعود النفس اللوامة التي تراجع صاحبها، ولأن الهاجر غضبان والغضب يعمي العين يصم الأذن فاحتاج لفترة سكون[1] والتعبير بـ (ليال) دون أيام لأن الليالي أدعى لتوفير السكون والهدوء الذي يجعل النفوس تراجع أصحابها بعد سكون الغضب وهي السبيل للتخلص من التعب النفسي والجسدي المانع من سلامة التفكير وتدبر معاني السلوك الديني.، واستخدام الظرف (فوق) يصور الهاجر بعد هذا الحد (ثلاث ليال) متعالياً متكبراً تأخذه العزة بالإثم[2].

فقه الحديث

تشير الأحاديث إلى عدة أحكام منها:

١- تحريم الهجر: قال العلماء: في هذا الحديث تحريم الهجر بين المسلمين، وخاصة في أمر لا تعلق له بالدين، فأما الهجران لمصلحة دينية من معصية أو بدعة فلا مانع منه[3].

---

(١) ينظر: الحديث النبوى من الوجهة البلاغية / صـ ٣٣٥.

(٢) ينظر بلاغة الرسول ﷺ في تقويم الأخطاء د ناصر راضي الزهري ص ٥٠.

(٣) غمز العيون ١/٩٧-٩٨، وحاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، علي بن أحمد الصعيدي ٤٢٨/٢، والمنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي ٢١٥/٧، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري ٢٦٦/٤، والأشباه والنظائر في قواعد وفروع الشافعية، جلال الدين السيوطي ص ١٢، وأحكام القرآن، الشافعي ١١٧/٢، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعمر القيام ٢٤٢/١، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ٩٧/٨-٩٨، وشرح صحيح مسلم، النووي ١١٧/١٦، وسبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، محمد بن إسماعيل الصنعاني ٢٩٠/٤، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٣٤٦/٥.

٢- حكم هجرة الكافر: يجوز للمسلم أن يهجر الكافر وهو كذلك فإنه لا موالاة ولا مناصرة بينه وبينه[1].

٣- هل تنقطع الهجرة بمجرد إلقاء السلام؟ ذهب جمهور الفقهاء إلى أن السلام يقطع الهجرة وتزول بمجرد سلامه[2].

وقال الإمام أحمد لا تنقطع الهجرة بمجرد السلام بل لابد من أن يعود معه إلى الحال التي كان عليها من الكلام والإقبال[3].

وقال ابن القاسم وأحمد بن حنبل إن كان يؤذيه لم يقطع السلام هجرته[4].

ومن الجدير بالذكر أن ابن تيمية وابن حجر قد عدّا هجر المسلم أخاه فوق ثلاث من الكبائر، لما فيه من التقاطع والإيذاء والفساد، وثبوت الوعيد عليه في الآخرة[5].

المضامين الدعوية[6]

---

(١) طرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ٩٩/٨، وفتح الباري، ابن حجر ٥٩٧/١٠.

(٢) المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي ٢١٥/٧، وحاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، علي بن أحمد الصعيدي ٢٤٨/٢-٢٤٩، وشرح صحيح مسلم، النووي ١١٧/١٦، وفتح الباري، ابن حجر ٥٩٧/١٠، وسبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، محمد بن إسماعيل الصنعاني ٢٩١/٤، والآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعمر القيام ٢٤٤/١.

(٣) الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعمر القيام ٢٥٤/١.

(٤) المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي ٢١٥/٧، وطرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ٩٨/٨، وشرح صحيح مسلم، النووي ١١٧/١٦، وفتح الباري، ابن حجر ٥٩٧/١٠، وسبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، محمد بن إسماعيل الصنعاني ٢٩١/٤.

(٥) الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح ٣١٤/١، والزواجر عن اقتراف الكبائر، أبو العباس الهيتمي ٤٢/٢ - ٤٤، وانظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٦٥/٤٢.

(٦) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٢٣٥).

الحديث رقم (١٥٩٤)

١٥٩٤- وعن أَبي أيوبَ ﷺ : أنَّ رسول الله ﷺ قَالَ: ((لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أنْ يَهْجُرَ أخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثِ لَيَالٍ: يَلْتَقِيَانِ، فَيُعْرِضُ هَذَا، وَيُعْرِضُ هَذَا، وخَيْرُهُما الَّذِي يَبْدَأُ بالسَّلاَمِ)) متفق عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أبو ايوب الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٣١).

الشرح الأدبي

حين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف، نجدها تبوح بالمعاني والدلالات التي يشع بها هذا الحديث الذي يرغب في إصلاح ذات البين، ويحرم الهجران بين المسلمين فوق ثلاثة أيام، ويبدأ الحديث بأسلوب النفي، وهو نفي يتضمن معنى النهي: ويثبت حرمة هجران المسلم للمسلم، حيث يقول: "لا يحل" وصيغة المضارع هنا تعلن عن ضرورة استمرار إقلاع المؤمن عن هذا السلوك وهو الهجر، إذا كان لله تعالى، والعدول عن لفظ مسلم، إلى قوله "مؤمن"، وتكرار اللفظ في العبارة نفسها يبين أفضلية صفة الإيمان، حثًا للمسلم على أن يظل في منطقة الطاعة والتصديق القلبي؛ لأن الإيمان تصديق بالجنان وإقرار باللسان وعمل بالأركان.

والهجر: هو القطيعة والخصام لعتب ومَوْجدة.. وهذا ليس من سمات الشخصية المسلمة، ولنتأمل تكرار أسلوب الشرط في الحديث: إنه يفصل مراحل الصلح ومعالمه، وأسلوب الشرط بمكوناته: "الأداء" والشرط والجواب يفصح عن مجاهدة النفس ومقاومة رغباتها ونزعاتها في سبيل إصلاح ذات البين، وتكرار أداة الشرط: "إن"، في الجمل الثلاث يوحي بالتشكك في هذا السلوك المشين الذي يؤدي إلى القطيعة بين المؤمن وأخيه المؤمن، فشأنهما التحاب والتزاور لا التباغض والتنافر.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٣٧)، ومسلم (٢٥/٢٥٦٠). أورده المنذري في ترغيبه (٤٠٦٥).

وجملة الشرط الأولى يأتي جوابها مجزومًا في جواب الأمر: "فليلقه" و"ليسلم عليه"، وهذه الصيغة في الجواب ترشد إلى وجوب الصلح عن طريق التلاقي والمصافحة والمسالمة والعفو والتسامح، والجملة الثانية: "فإن رد عليه السلام فقد اشتركا في الأجر"، تعرض الصورة المضيئة للمصالحة ولذلك صُدر الجواب بـ "قد"، وهي للتحقيق والتأكيد.. حيث يفوز كلاهما بالأجر، وهو ثواب بدء السلام وثواب إجابته، وقيل: يثاب الأول مثل ثواب الثاني لأنه كان السبب فيه.

والجملة الشرطية الثالثة: تعرض الصورة السلبية التي نهى عنها رسول الله ﷺ، وهي عدم استجابة الطرف الثاني للمصالحة. حيث لم يرد السلام، والسلام هنا هو تحية الإسلام التي تتضمن الأمان والرحمة والبركة، سلام الله ورحمته وبركاته، وأي أمان أشمل من هذا، وأي صلح أصدق وأعظم وأجمل من هذا الإيقاع الجميل الذي يغمرنا في ظلال تحية الإسلام الطيبة المباركة، وتأكيد جواب الشرط في قوله: "فقد باء بالإثم"، لمزيد من الوعيد والتهديد للذي يحرص على فساد ذات البين، ولا يستجيب لدواعي الصلح ومبادرات السلام؛ وقوله: "باء بالإثم": أي: رجع به، وفي ذلك مزيد من التحقير والسخرية لأن هذا المعرض عن الصلح لا يجني إلا الخسران والآثام والهلاك، أما المسلم وهو الم،ستجيب للصلح والمبادر بالسلام، فهو الفائز بنعيم الله تعالى ورضوانه، وجنته وغفرانه. والله أعلم.

المضامين الدعوية(١)

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: النهي عن هجر المسلم لأخيه المسلم.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: تحقيق الأخوة بين المسلمين.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث - ١٥٩٤ - مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٥٩٧، ١٥٩٨).

أولاً - من أساليب الدعوة: النهي:

حيث ورد في قوله ﷺ: "لا يحل لمسلم..." وأسلوب النهي من الأساليب الدعوية المهمة حيث يشعر المدعو بأهمية المنهي عنه وضرورة اجتنابه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ﴾[1] ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب النهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[2] وقوله جل شأنه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ﴾[3].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: النهي عن هجر المسلم لأخيه المسلم:

حيث في قوله ﷺ: "لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال..." قال النووي: (قال العلماء: في هذا الحديث تحريم الهجر بين المسلمين أكثر من ثلاث ليال وإباحتها في الثلاث الأول، قالوا: وإنما عفي عنها في الثلاث لأن الآدمي مجبول على الغضب وسوء الخلق ونحو ذلك، فعفي عن الهجرة في الثلاثة ليذهب ذلك العارض)[4].

وقال ابن حجر: (قال أكثر العلماء: وتزول الهجرة بالسلام ورده، وقال أحمد: لا يبرأ من الهجرة إلا بعودته إلى الحال التي كان عليها أولاً. والتقيد في الحديث بالأخوة دال على أنه للمسلم أن يهجر الكافر من غير تقييد، واستدل بهذه الأحاديث على أن من أعرض عن أخيه المسلم وامتنع من مكالمته والسلام عليه أثم بذلك، لأن نفي الحل يستلزم التحريم، ومرتكب الحرام آثم. وقال ابن عبدالبر: أجمعوا على أنه لا يجوز الهجران فوق ثلاث إلا لمن خاف من مكالمته ما يفسد عليه دينه، أو يدخل منه على نفسه أو دنياه مضرة، فإن كان كذلك جاز، ورب هجر جميل خير من مخالطة مؤذية)[5].

---

(١) سورة الحشر، آية: ٧.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٣٢.

(٣) سورة لقمان، آية: ١٨.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي، ١٥٣٦.

(٥) فتح الباري، ابن حجر ٥١١/١٠.

وقال القاضي عياض: (وقوله: "لا هجرة بعد ثلاث"، "ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث": مقتضاه من دليل الخطاب أن الهجرة في الثلاث معفو عنها، وإنما الحرج فيما بعد ثلاث؛ إذ لابد للبشر من مغاضبة، وسوء خلق، ووجد لأمر يقع بينهم، فعفي عن الثلاث. وقد يحتمل السكوت عن حكمها، لتتلطف في الشرع والنهي على ما وراءها، وهذا على من لا يقول بدليل الخطاب من الأصوليين.

وقوله: "وخيرهما الذي يبدأ بالسلام": يحتج به من يرى أن السلام يقطع الهجرة، ويزيل الحرج، وإن لم يكلمه. وهو قول مالك وغيره. وقال أحمد بن حنبل وابن القاسم: إن كان يؤذيه فلا يقطع السلام هجرته. وعندنا أنه إذا اعتزل كلامه لم تقبل شهادته عليه وإن سلم عليه. ومعنى قوله: "وخيرهما الذي يبدأ بالسلام": أي أفضلهما وأكثرهما ثوابًا.

وقوله: "يصد هذا ويصد هذا" مثل قوله: "يعرض هذا ويعرض هذا"، وأصله أن يولي كل واحد منهما الآخر عرضه، وهو جانبه. والصد أيضًا: الجانب والناحية[1].

وجاء في فتح الملهم: (وقوله: "لا يحل لمسلم أن يهجر" الهجر والهجران في اللغة بمعنى الترك، وفي العرف بمعنى ترك الشخص مكالمة الآخر إذا تلاقيا، ثم اختلفوا في حد الهجران الممنوع بهذا الحديث، فقال أكثر العلماء هو ترك السلام، فمن بدأ بالسلام خرج من إثم الهجران، كما دل عليه قوله ﷺ في آخرالحديث: "وخيرهما الذي يبدأ بالسلام" وهذا في الابتداء بالسلام. أما رد السلام، فهو واجب على كل حال، فمن تركه، ولو لليلة واحدة، كان آثمًا. أما ترك الابتداء بالسلام بقصد الهجران فليس إثمًا ما لم يدم ثلاثة أيام. وقيل: لايخرج عن إثم الهجران بمجرد السلام، حتى يعود على ما كان عليه، وهذا القول مروي عن الإمام أحمد بن حنبل، وابن القاسم والقاضي عياض.

والذي يظهر أن الهجران الممنوع هو ترك السلام والكلام جميعًا، فلو سلم ثم اهتمّ بترك الكلام معه، حتى في مواضع الضرورة، أو لم يجبه حينما خاطبه بشيء، كان ذلك من الهجران الممنوع، ومجرد الاكتفاء بالسلام لا يخرجه من الهجران، لأن

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم المسمى، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٢٦/٨ – ٢٧.

الاهتمام بترك الكلام بعد السلام مما يؤذي صاحبه، ومقصود الحديث التجنب عن إيذائه. أما قوله ﷺ: "وخيرهما الذي يبدأ بالسلام" فإنه ليس معناه الاقتصار على السلام، وإنما خرج الحديث مخرج العادة، فإن المسلمين يفتتحون مكالمتهم بالسلام، فالمقصود أن خيرهما من يبدأ بالكلام ويسلم على الآخر كفاتحة لكلامه معه، لا أنه يسلم عليه، ثم يعرض عنه، لأنه حين ذلك يدخل في قوله ﷺ: "يلتقيان، فيعرض هذا ويعرض هذا".

نعم! لا يلزم من ترك الهجران ان ينبسط له انبساطه للأصدقاء، فإن الانبساط من الأمور التي هي خارجة عن اختيار الإنسان، فلو كلمه عند الحاجة، ولو مع الانقباض، خرج من إثم الهجران إن شاء الله تعالى.

قوله: "فوق ثلاث ليال" قال أكمل الدين من الحنفية: "في الحديث دلالة على حرمة هجران الأخ المسلم فوق ثلاثة أيام. وأما جواز هجرانه في ثلاثة أيام فمفهوم منه لا منطوق، فمن قال بحجية المفهوم كالشافعية، جاز له أن يقول بإباحته، ومن لا فلا".

لكن تعقبه الشيخ علي القاري في المرقاة (٩: ٢٦٢) فقال: (فيه أن الأصل في الأشياء الإباحة، والشارع إنما حرم المهاجرة المقيدة لا المطلقة، مع أن في إطلاقها حرجًا عظيمًا، حيث يلزم منه أن مطلق الغضب المؤدي إلى مطلق الهجران يكون حرامًا).

وهذا كلام وجيه يتلخص منه أن الهجران لأقل من ثلاثة أيام جائز، عند من يقول بالمفهوم ومن لا يقول به جميعًا.

ثم إن الهجران الممنوع إنما هو ما كان لسبب دنيوي. أما إذا كان بسبب فسق المرء وعصيانه، فأكثر العلماء على جوازه. قال الخطابي: (رخص للمسلم أن يغضب على أخيه ثلاث ليال لقلته، ولا يجوز فوقها إلا إذا كان الهجران في حق من حقوق الله تعالى، فيجوز فوق ذلك) وفي حاشية السيوطي على الموطأ: (قال ابن عبدالبر: هذا مخصوص بحديث كعب بن مالك ورفيقيه، حيث أمر ﷺ أصحابه بهجرهم" يعني: زيادة على ثلاث إلى أن بلغ خمسين يومًا. قال: (وأجمع العلماء على أن من خاف من مكالمة أحد وصلته ما يفسد عليه دينه، أو يدخل مضرة في دنياه يجوز له مجانبته وبعده).

نقل علي القاري جميع هذه الأقوال في المرقاة، ثم قال: (قلت: الأظهر أن يحمل نحو هذا الحديث على المتآخين، أو المتساويين، بخلاف الوالد مع الولد، والأستاذ مع تلميذه، وعليه يحمل ما وقع من السلف والخلف لبعض الخلف).

وحاصل ذلك: أن الهجران إنما يحرم إذا كان من جهة غضب نفساني. أما إذا كان على وجه التغليظ على المعصية والفسق، أو على وجه التأديب كما وقع مع كعب بن مالك وصاحبيه، أو كما وقع لرسول الله ﷺ مع أزواجه، أو لعائشة مع ابن الزبير رضي الله عنهما، فإنه ليس من الهجران الممنوع، والله سبحانه أعلم[١].

وقال القاضي أبوبكر بن العربي: (إن الله عز وجل خلق الخلق أشتاتًا في الأهواء؛ لأنه خلقهم من أشتات في الابتداء، ثم دعاهم إلى التآلف، وذلك ضد ما جبلهم عليه؛ لأن الله تعالى هو الداعي، وهو الميسر، وهو الخالق لكل شيء، المقدر له، فإذا يسرك لما أمرك فقد أدركت، وإذا حال بينك وبينه فقد فات، وكل ذلك علامة على الهلكة أو النجاة، ولأجل هذا ما جعل الله في الهجرة ثلاثًا؛ لأن المرء في ابتداء الغضب مغلوب، فرُخص له في التمادي على حاله حتى يسكن غضبه بالاغتسال كما جاء في الحديث، أو بالفتور مع التمادي كما جرى في العادة)[٢].

وقال ابن عبدالبر: (أما قوله "فيعرض هذا ويعرض هذا" فمعناه يدير هذا عن هذا بوجهه وذلك عنه أيضًا كذلك، ولهذا نهى رسول الله ﷺ عن التدابر والإعراض، قال الشاعر:

إذا أبصرتني أعرضت عني ... كأن الشمس من قِبَلي تدور

وقد رُوي عن النبي ﷺ في الهجرة آثارٌ شداد فيها تغليظ، منها حديث أبي حازم، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((من هجر فوق ثلاث دخل النار))[٣]. ومنها حديث أبي خراش السلمي، عن النبي ﷺ أنه قال: ((من هجر أخاه سنة فهو كسفك

(١) تكملة فتح الملهم، الشيخ محمد تقي العثماني، ١١/٢٧٤-٢٧٥.

(٢) القبس، ضمن موسوعة شروح الموطأ، ٢٢/٨٥.

(٣) أخرجه أبو داود ٤٩١٤ وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤١٠٦).

دمه))[١]. وحسبك بحديث أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول ﷺ قال: ((إنه يغفر في كل خميس واثنين لكل عبد لا يشرك بالله شيئًا، إلا من كان بينه وبين أخيه شحناء، فيقول: أنظروا هذين حتى يصطلحا))[٢].

وهذه الآثار كلها قد وردت في التحاب والمؤاخاة، والتآلف والعفو، وبهذا بعث محمد ﷺ، وفقنا الله لما يحب ويرضى، برحمته ولطف صنعه[٣].

وقال أيضًا: (وأجمع العلماء على أنه لا يجوز للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، إلا أن يكون يخاف من مكالمته وصلته ما يفسد عليه دينه، أو يولِّد به على نفسه مضرة في دينه أو دنياه، فإن كان ذلك فقد رخص له في مجانبته وبعده، ورب صَرْمٍ جميل خيرٌ من مخالطة مؤذية، قال الشاعر:

إذا ما تقضَّى الودُّ إلا تكاشرًا فهجرٌ جميلٌ للفريقين صالحُ

واختلفوا في المتهاجرين يسلم أحدهما على صاحبه، أيُخرجه ذلك من الهجرة أم لا؟ فروى ابن وهب، عن مالك أنه قال: إذا سلّم عليه فقد قطع الهجرة. وكأنه، والله أعلم، أخذ هذا من قوله ﷺ: ((وخيرهما الذي يبدأ بالسلام))[٤]. أومن قول من قال: يجزئ من الصَّرْم السلام. وقال أبوبكر الأثرم: قلت لأحمد بن حنبل: إذا سلم عليه، هل يجزئه ذلك من كلامه إياه؟ فقال: يُنْظَر في ذلك إلى ما كان عليه قبل أن يهجره؛ فإن كان قد عُلم منه مكالمته والإقبال عليه، فلا يخرجه من الهجرة إلا سلام ليس معه إعراض ولا إدبارٌ. وقد روي هذا المعنى عن مالك أيضًا؛ قيل لمالك: الرجل يهجر أخاه، ثم يبدو له فيسلم عليه من غير أن يكلمه؟ فقال: إن لم يكن مؤذيًا له لم يخرج من الشحناء حتى يكلمه، ويُسقِط ما كان من هجرانه إياه. وقد ذكرنا في باب ابن شهاب، عن عطاء بن يزيد، من كتابنا هذا، زيادة من الأثر المرفوع في معنى هذا الباب، وذكرنا في هذا

---

(١) أخرجه أبو داود ٤٩١٥ وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤١٠٧).

(٢) أخرجه أبو داود ٤٩١٦ وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤١٠٨).

(٣) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ٢٢/٨٧-٨٩.

(٤) أخرجه البخاري ٦٠٧٧، ومسلم ٢٥٦٠.

الباب قوله: ((ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم))[(١)]. وفي ذلك دليل على فضل السلام؛ لما فيه من رفع التباغض، وتوريث الود، ولقد أحسن القائل:

قد يمكث الناس دهرًا ليس بينهمُ ودٌّ فيزرعه التسليمُ واللطفُ[(٢)]

ومما ينبغي التنبيه عليه أن هذا الهجر الممنوع قد يكون في بعض الأحوال مشروعًا، فإن ترك السلام والكلام الممنوع في الشرع هو ما كان بين الأخوة في الدين، فمن لم يكن كذلك جاز هجرهُ، وبسبب التقصير في الحقوق أو لوجود عيب في المهجور أو موجدة عند الهاجر، ولا يكون هذا العيب شديدًا، بحيث يبدّع صاحبه، أو يكون من المنكرات المخالفة للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، وإلا فيجوز هجرانُ من يظهر المنكرات حتى يتوب منها[(٣)]، وهجران من ترك الواجبات وفعل المحرمات والبدع.

وبناء على هذا فإن الهجر من حيث الحكم الشرعي ينقسم إلى نوعين:

الأول: الهجر الممنوع أو الهجر السلبي.

والآخر: الهجر المشروع، وهو قسمان:

أحدهما: بمعنى الترك للمنكرات، أو: وقائي مانع، وهو: الذي يتّقي الهاجر به شرٌّ المهجور أو الافتتان به.

والآخر: بمعنى العقوبة على المنكرات، أو: إيجابي زاجر، وهو يحصل ممن له حقٌّ الزّجر والتأديب، إما بسلطة مادية، كالحاكم، والزوج، والأب. أو سلطة معنوية، كالعالم المقتدى به، والصالح المطاع لفضله[(٤)].

---

(١) أخرجه أحمد ٤٤٢/٢ حديث رقم ٩٧٠٩، وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم، ٤٤٣/١٥.

(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ٢٢/١٠٧-١٠٨.

(٣) بعد نهيه وإسداء النصيحة له. وكان مذهب عمر وأبي الدرداء والنخعي وجماعة: أنّهم لا يهجرون عند الذنب. وكان أبو الدرداء يقول: إذا تغيّر أخوك واعوجّ، فلا تتركه، لأجل ذلك، فإن الأخ يعوج مرة، ويستقيم أخرى. وكان رجل على حال حسنة، فأحدث -أو أذنب ذنباً- فرفضه أصحابه ونبذوه، فبلغ إبراهيم النخعي ذلك، فقال: تداركوه وعظوه ولا تدعوه. أخرجه أبو نعيم في "الحلية" ٢٣٢/٤-٢٣٣.

(٤) الهجر في الكتاب والسنة، الشيخ مشهور حسن محمود سلمان ص ١٠٢-١٠٣.

ثالثًا - من أهداف الدعوة: تحقيق الأخوة بين المسلمين:

حيث جاء في الحديث "لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث"، وقوله ﷺ: "من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه" قال ابن علان: (وفي التعبير بلفظ "أخاه" إيماء إلى الحث على التواصل والتحذير من التقاطع) [١] ولاشك أن من أهم أهداف الدعوة تحقيق الأخوة الإسلامية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [٢]. وعن عروة رضي الله عنه: ((أن النبيَّ ﷺ خطبَ عائشة إلى أبي بكر، فقال له أبو بكر: إنما أنا أخوكَ، فقال له: أنت أخي في دين الله وكتابه، وهي لي حَلال)) [٣]. وقال الماوردي في فضل الأخوة: (لقد آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه، لتزيد ألفتهم، ويقوى تضافرهم وتناصرهم. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لقاء الإخوان جلاء للأحزان وقال خالد بن صفوان: إن أعجز الناس من قصر في طلب الإخوان، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم. وقال علي رضي الله عنه لابنه الحسن: يا بني الغريب من ليس له حبيب) [٤].

وما من شك في أن هجر المسلم لأخيه المسلم فيه مساوئ وأضرار من انقطاع النصح والتناصح، وغياب روح الأخوة والتحاب والتآلف والتوادد، ولذا رهّب النبي ﷺ من الهجر فقال: "من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه".

(ومن مساوئ الهجر وأضراره وآثاره: أنَّ الهجر يعطّل طاقة الخير في المتهاجرين، بالنسبة إلى بعضهما، فلا يتعاونان على فعل برّ، ولا يجتمعان على مصلحةٍ.

ومنها: أن الهجر يقضي بقبض يد المساعدة عن المهجور، وهو عقوق إن كان المهجورُ أحد الوالدين، وقطيعة رحم إن كان أحد الأقارب، والعاقّ والقاطع لا يدخلان الجنة.

ومنها: أن الهجر يعطّل حقوق المسلم بين المتهاجرين، فلا يسلّم أحدُهما على الآخر، ولا يرد سلامه، ولا يعوده إذا مرض، ولا يشيّع جنازته إذا مات.

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٦٤٠.

(٢) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٣) اخرجه البخاري ٥٠٨١.

(٤) ادب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ١٦٢.

ومنها: أن الهاجر يفرح إذا أصابت المهجور مصيبة، كما يحزن إذا أصابته نعمة، وهذا مناقض لروح الإسلام، غاية التناقض.

ومنها: أن المتهاجرين محرومان مما يفيض الله على المسلمين في مواسم الخير، فصلاتهما لا ترفع، وعملهما موقوف، حتى يصطلحا.

ولو لم يكن من قبائح الهجر، إلا هذا، لكان كافيًا في الابتعاد عنه.

قال الباجي: (اعلم أنه يصفح في هذين اليومين -أي الاثنين والخميس- عن الذنوب العظيمة، ويثبت فيها لكثير من الناس الدرجة الرفيعة، فتكون بمنزلة فتح أبوابها. وقد يعبّر بفتح الأبواب عن الإقبال على الأمر والإنعام، فيقال: فتح فلانٌ باب طعامه، وباب عطائه، فلا يغلقه عن أحد، ويقال في مشاهدة حرب العدو: قد فتحت أبواب الجنة، معناه -والله أعلم- وجدت أسباب دخولها، وغفران الذنوب المانعة منها.

ومنها: أن الهجر انعزالٌ وانخزالٌ، والإسلام ينهى عنهما، ويحضُّ على الجماعة، ويجعل المنعزل المنخزل، سهل الإنقياد للشيطان، لخروجه عن عامة المؤمنين، وضرب له مثلاً بالشاة المنفردة عن الغنم، يسهل للذئب اختطافها)[1].

وقال ابن حبان البستي: (لا يحل التباغض ولا التنافس ولا التحاسد ولا التدابر بين المسلمين، والواجب عليهم أن يكونوا إخوانًا كما أمرهم الله ورسوله، فإذا تألم واحد منهم تألم الآخر بألمه، وإذا فرح فرح بفرحه، ينفي الغش والدَّغل، مع استسلام الأنفس لله عز وجل، مع الرضا بما يوجب القضاء في الأحكام كلها، ولا يجب الهجران بين المسلمين عند وجود زلة من أحدهما، بل يجب عليهما صرفها إلى الإحسان والعطف عليه بالإشفاق، وترك الهجران.

أنشدني محمد بن الحسن بن قتيبة أنشدني حميد بن عياش:

ولا تك في حب الأخلاء مفرطا ... فإن أنت أبغضت البغيض فأجملِ

فإنك لا تدري متى أنت مبغض ... حبيبك أو تهوى البغيض فأعقل

---

(١) الهجر في الكتاب والسنة، الشيخ مشهور حسن محمود سلمان، ص ١٤٢-١٤٣.

ولا يجب للمرء أن يدخل في جملة العوام والهمج بإحداث الود لإخوانه، وتكديره لهم بالخروج بالسبب الذي يؤدي إلى الهجران الذي نهى المصطفى ﷺ عنه بينهم، بل يقصد قصده الإغضاء عن ورود الزلات، ويتحرى ترك المناقشة على الهفوات، ولا سيما إذا قيل في أحدهم الشيء الذي يحتمل أن يكون حقًا وباطلاً معًا، فإن الناس ليس يخلو وَصلُهم من رش أسهم العذال فيه.

ولقد سمعت محمد بن عثمان العقبي يقول: سمعت عبدالعزيز بن عبدالله يقول: قال محمد بن حميد:

ومن ذا من عيوب الناس ناجٍ	بحقٍ قيل فيهن أو قراف
قبيح بي إذا خاللتُ خلا	ولازم خُلتي أن لا أكافي
وكلٌ مودة لا خير فيها	إذا لم تحتمل حقَّ المُصافي
فأما في الكلام فكم وفيٌ	ولكن في الشدائد لا يوافي
إذا أحببتُ لم أنقض إخائي	ولم أبْن الإخاء على اعتساف
ولكن أمنحُ الكرماء وُدًّا	ولا أدعو اللئام إلى العطاف
متى تقطعْ صديقك بعد وصل	ولا تثبت، فعهدك غير واف
إذا ما المرء أدبر لم تُطِقْه	وصار المستقيم إلى خلاف

سمعت محمد بن المنذر يقول: سمعت محمد بن عبدالرحمن يقول: سمعت أبا عمار الحسين بن حريث يقول: قيل لرجل: ألك عيوب؟ قال: لا، قيل له: فلك من يلتمسها؟ قال: نعم، قال: فما أكثر عيوبك!

قال أبو حاتم: السبب المؤدي إلى الهجران بين المسلمين ثلاثة أشياء: إما وجود الزلة من أخيه - ولا محالة يزل- فلا يغضى عنها ولا يطلب لها ضدها، وإبلاغ واشٍ يقدح فيه، ومشي عاذل بثلب له فيقبله ولا يطلب لتكذيبه سببًا ولا لأخيه عذرًا، وورود ملل يدخل على أحدهما، فإن الملالة تورث القطع ولا يكون لملول صديق.

قال أبو حاتم: لا يحل لمسلم ان يهجر أخاه المسلم فوق ثلاثة أيام: فمن فعل ذلك كان مرتكبًا لنهي النبي ﷺ، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام، والسابق بالسلام يكون

السابق إلى الجنة، ومن هجر أخاه سنة كان كسفك دمه، ومن مات وهو مهاجرٌ أخاه دخل النار، إن لم يتفضل الله عليه بعفو منه ورحمة، وغاية ما أبيح من الهجران بين المسلمين ثلاثة أيام.

ولقد أنشدني عبيد الله بن محمد الأنماطي قال: أنشدني محمد بن الحسن:

يا سيدي عندك لي مظلمة	فاستفت فيها ابن أبي خيثمه
فإنه يرويه عن شيخه	قال: روى الضحاك عن عكرمه
عن ابن عباس عن المصطفى	نبينا المبعوث بالمرحمة
إن صدود الخل عن خِلِّهِ	فوق ثلاثٍ رَبُّنَا حرمه[1]

رابعًا - من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب:

حيث جاء في الحديث "وخيرهما الذي يبدأ بالسلام"، حيث رغب في البدء بالسلام، بأن من يبدأ أخاه المسلم في حال الخصام هو الأفضل. وأسلوب الترغيب من أساليب الدعوة التي تحبب المدعو في فعل الخير، وتشجعه عليه (إن النفوس البشرية مختلفة الطباع، منها ما يجلبه الترغيب، ومنها ما يخيفه الترهيب، ولهذا جاء القرآن والسنة بالأسلوبين، والدعاة مطالبون بانتهاج الأسلوبين مع الناس كل حسب ما يناسبه)[2].

وأما أسلوب الترهيب فقد جاء في الحديث الثاني في قوله: "فمن هجر فوق ثلاث فمات دخل النار" وقوله في الحديث الثالث: "من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه" قال شرف الحق العظيم آبادي: (وإذا مات على تلك الحالة من الهجر من غير توبة استوجب دخول النار، وفائدة التعبير التغليظ. وأما قوله "من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه" أي هجر أخاه في الدين فهو كإراقة دمه في استحقاق مزيد الإثم لا في قدره)[3]. ولاشك أن هذا ترهيب من هجر المسلم لأخيه المسلم، وأسلوب الترهيب مما يؤثر في نفس المدعو

---

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ٢٠٤-٢٠٧.

(٢) فقه الدعوة، د. بسام العموش ٨٦.

(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٢١١٧.

ويردعه عن فعل المحظورات الشرعية (والترهيب هو التخويف والتوعد، والترهيب في الشريعة يأتي حسب الأحوال والنفوس والمواقف، ويأتي علاجًا وردعًا، فمن الناس من يلهث وراء الشهوات ويجري وراء المادة ويشغف بالمنكر، فهذا يقرعه الترهيب ويوقفه الإنذار، ويوقظه التخويف من عواقب ما هو فيه)[1].

ومن صوراستعمال القرآن الكريم لأسلوب الترهيب قوله تعالى ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾[2] وقوله سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾[3].

---

(١) الدعوة إلى الله: الرسالة -الوسيلة- الهدف، د. توفيق الواعي، ١٩٩، ٢٠٠.

(٢) سورة النبأ، آية: ٢١، ٢٢.

(٣) سورة المطففين، آية:٧.

الحديث رقم (١٥٩٥)

١٥٩٥- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((**تُعْرَضُ الأَعْمَالُ فِي كلِّ اثْنَيْنِ وَخَمْيسٍ، فَيَغْفِرُ اللهُ لِكُلِّ امْرِئٍ لا يُشْرِكُ بـاللهِ شَيْئًا، إلاَّ امْرَءًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيقُولُ: اتْرُكُوا هذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا**)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

ابو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

شحناء: عداوة [2].

الشرح الأدبي

يحرص الإسلام على إصلاح ذات البين، وعلى أن يظل المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، وتشع ألفاظ وكلمات هذا الحديث النبوي الشريف بهذا السلوك الإيماني السديد، ويبدأ الحديث بإشاعة عنصر الترغيب وتنبيه المسلمين إلى المراقبة الدائمة من الله عز وجل لهم، وهذا الترغيب تنطق به الجملة الأولى: **تُعرض الأعمال في كل اثنين وخميس.**

وبناء الفعل للمجهول في قوله: تعرض ليس للجهل بالفاعل إنما للعلم به وهم الملائكة الذين يتعاقبون بالليل والنهار، والجمع في قوله: "الأعمال" لإفادة الكثرة والعموم، والله سبحانه وتعالى يغفر للعبد إذا تاب واستغفر، والفعل يغفر ينبئ عن هذا الكرم الإلهي والعفو الرباني، والاثنان والخميس من الأيام المباركة التي كان رسول الله ﷺ يكثر من صومهما ﷺ.

---

(١) برقم (٢٥٦٥/٣٦). وقد تقدم برقم ١٥٧٠. تنبيه: هذا الحديث بهذا اللفظ أورده المنذري في ترغيبه (٤٠٧٦) وقال: رواه مالك، ومسلم واللفظ له، هذا مما جعل النووي يطمئن إلى أنَّ اللفظ لمسلم كما صرَّح بذلك المنذري، وبالمقارنة بين هذا اللفظ ولفظ مسلم، تبيّن أن هذا الحديث بهذا السياق للحميدي في جمعه (٢٨٢/٣، رقم ٢٦٤٠)، فتبع النوويُّ فيه المنذريَّ، كما تبع المنذريُّ فيه الحميديَّ في جمعه.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ش ح ن).

وفي رواية أخرى تجيء البشارة صريحة، والوعد بالمغفرة يُقرن بدخول الجنة، حيث يصرح النص بذلك، إذ يقول النص رواية عن أبي هريرة ﷺ أيضًا: تُفتح أبواب الجنة يوم الاثنين والخميس.. إلخ.

والعطف بالفاء في قوله: "فيغفر الله لكل امرئ لا يشرك بالله شيئًا" يوحي بالإسراع في المغفرة، والترغيب الشديد في التوبة والاستغفار.. ومداومة العمل الصالح ،وجملة: "لا يشرك بالله شيئًا": وصف للمسلم الذي فاز بالمغفرة وهو قوله: "امرئ"؛ ولنتأمل أسلوب الاستثناء في قوله: "إلا امرأ كانت بينه وبين أخيه شحناء": إن هذين المتباغضين لا يفوزان بالمغفرة.. ولا تُفتح لهما أبواب الجنة حتى يصطلحا.. وقوله: "اتركوا هذين": أي المتباغضين، أي: لا تدخلوهما الجنة، وقوله: "حتى يصطلحا".. لمزيد من الترغيب وإعطاء البشارة والأمل في المغفرة، إذا نزعا ما بينهما من أسباب الشقاق ونسجا معًا ثوب الوفاق، وقال العلماء: إن هذا الوعيد من الله يتوجه إلى هؤلاء الذين يتباغضون مدفوعين بالأطماع الدنيوية، والحظوظ النفسية، والدوافع الشخصية الذاتية.

أما إذا كان البغض في الله وبدافع الغيرة على الدين، فذلك لا يمنع من المغفرة تأسيًا واقتداءً بقول رسول الله ﷺ: ((أفْضَلُ الأعْمَالِ الْحُبُّ فِي اللهِ وَالْبُغْضُ فِي اللهِ))[1].

المضامين الدعوية[2]

---

(١) أخرجه أبو داود، ٥٤٩٩، وضعفه الألباني (ضعيف سنن أبي داود، ٩٩٨).

(٢) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (١٥٧٠).

الحديث رقم (١٥٩٦)

١٥٩٦- وعن جابر رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقولُ: ((إنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ[١] أنْ يَعْبُدَهُ المُصَلُّونَ في جَزِيرَةِ العَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ)) رواه مسلم[٢].

(التَّحْرِيشُ): الإفْسَادُ وتَغييرُ قُلُوبِهِمْ وتَقَاطُعُهُم[٣].

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

التحريش: الإفساد وتغيير قلوبهم وتقاطعهم[٤]، قال ابن الأثير: والمعنى هنا في حملهم على الفتن والحروب[٥].

الشرح الأدبي

قول الراوي رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يؤكد الخبر ؛ لأن السماع من أقوى طرق العلم التي لا تحتمل شكا فيما يروي، والحديث يبدأ بأسلوب خبري مؤكد بعدة مؤكدات تعظيما للخبر وإشارة إلى خطره، والبداية بلفظ الشيطان تجذب السمع، وتحقق الترقب لأنه علم على الشر، وذكره يستلزم الحذر، ويوحي بشر يجب أن يتقى، والتعبير بالفعل الماضي المؤكد بقد يفيد مزيد تحقيق للمعنى، والتعبير باليأس يوحي بفقدان الأمل في النفس المظلمة التي انعدم فيها شعاع النور فراحت تتنقل من باب من أبواب الشر إلى باب، وتخصيص جزيرة العرب ؛ لأن الدين يومئذ لم يتعد عنها وقيل لأنها معدن العبادة، ومهبط الوحي، وقوله (في التحريش) فيه إيجاز بالحذف لأنه خبر

---

(١) لفظ مسلم في المطبوع: (أيس) بلفظ الماضي، والمثبت لفظ المنذري في ترغيبه. وتبع فيه الحميدي في جمعه (٤١٤/٢، رقم ١٧٢٨).

(٢) برقم (٢٨١٢/٦٥). أورده المنذري في ترغيبه (٤٠٧٣).

(٣) الترغيب (٤٥٠/٣).

(٤) رياض الصالحين ص ٥٥٢.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح ر ش).

لمبتدأ محذوف أي هو في التحريش أو ظرف لمقدر أي يسعى في التحريش بينهم أي في إغراء بعضهم على بعض والتحريض بالشر بين الناس من قتل وخصومة، وأصل التحريش الإغراء على الشيء بنوع من الخداع من حرش الضب الصياد خدعه وهو ما يتناسب مع فعل الشيطان، وما له من دقائق الوسواس التي لا يفهمها إلا البصراء، والمعنى: لكن الشيطان غير آيس من إغراء المؤمنين وحملهم على الفتن بل له مطمع في ذلك قيل ولعله أخبر عما يجري فيما بعده من التحريش الذي وقع بين أصحابه أي أيس الشيطان أن يعبد فيها لكن طمع في التحريش بين ساكنيها وكان كما أخبر فكان معجزة له عليه الصلاة والسلام.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل عقيدة التوحيد.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: بيان عداوة الشيطان وتحريشه بين المسلمين.

أولاً - من أساليب الدعوة: التوكيد:

حيث جاء في الحديث "إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون...". فأكد يأس الشيطان من أن يعبده المصلون في جزيرة العرب.

وأسلوب التوكيد من أساليب الدعوة التي تقنع المدعو، وتبين له مدى صدق الداعية فيما يقول، ومن صور استعمال القرآن لأسلوب التوكيد قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾[1] وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾[2].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل عقيدة التوحيد:

حيث جاء في الحديث "إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب" قال أبو العباس القرطبي: ("إن الشيطان قد يئس من أن يعبده المصلون في جزيرة العرب" يعني

---

(١) سورة فصلت، آية: ٣٠.

(٢) سورة النبأ، آية: ٣١.

-والله أعلم- أن المسلمين في جزيرة العرب أقاموا الصلاة فيها وأظهروها، لم يظهر فيها طائفة يرتدون عن الإسلام إلى عبادة الطواغيت والأوثان)[١].

وقال ابن رجب الحنبلي: (ولم يعظم على إبليس شيء أكبر من بعثة محمد ﷺ، وانتشار دعوته في مشارق الأرض ومغاربها؛ فإنه يئس أن تعود أمته إلى الشرك الأكبر)[٢].

ولا شك أن هذا يدل على فضل عقيدة التوحيد، وأن العبادة لن تكون إلا لله (إن العقيدة هي الأساس الذي يقوم عليه بنيان الأمم، فصلاح كل أمة ورقيها مربوط بسلامة عقيدتها وسلامة أفكارها، ومن ثم جاءت رسالات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تنادي بإصلاح العقيدة، فكل رسول يقول لقومه أول ما يدعوهم ما جاء في قوله تعالى: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[٣] وهذا التوحيد أصيل في العالم والشرك طارئ عليه ودخيل فيه، وأول ما حدث الشرك في قوم نوح حين غلوا في الصالحين واستكبروا من دعوة نبيهم)[٤]. وفي فضل عقيدة التوحيد قال الدكتور يوسف القرضاوي: (لقد كانت مصيبة البشرية أن ناسًا منهم جعلوا من أنفسهم، أو جعل منهم قوم آخرون آلهة في الأرض أو أنصاف آلهة، لهم يخضع الناس ويخشعون، ولهم يركعون ويسجدون، ولهم ينقادون ويسلمون، لكن عقيدة التوحيد سمت بأنفس المؤمنين، فلم يعد عندهم بشر إله، ولا نصف إله، أو ثلث إله، أو ابن إله، أو محل حلَّ فيه الإله، ولم يعد بشر يسجد لبشر أو ينحني لبشر أو يقبل الأرض بين يدي بشر، وهذا أصل الأخوة الإنسانية الحقة. لقد كانت عقيدة التوحيد تحريرًا للإنسان من عبودية الإنسان والطبيعة، وكل من خلق الله وما خلق الله، وكانت ثورة على كل الأصنام والآلهة المزعومة من دون الله، سواء كانت شجرًا أم حجرًا أم بشرًا)[٥].

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٢١٠/٧.

(٢) لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: ياسين محمد السواس ٢٣٣.

(٣) سورة الأعراف، آية: ٥٩.

(٤) محاضرات في العقيدة والدعوة، د. صالح الفوزان ص ٩/١، ١٠.

(٥) الإيمان والحياة ٢٥.

قال محمد جميل زينو: (إن التوحيد هو إفراد الله بالعبادة التي خلق الله العالم لأجلها. قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] أي يوحدوني في العبادة ويفردوني في الدعاء.

وأنواع التوحيد الآتية مأخوذة من القرآن الكريم:

١- توحيد الرب: هو الاعتراف بأن الله هو الرب والخالق، وقد اعترف بهذا الكفار، ولم يدخلهم ذلك في الإسلام، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[2].

وقد أنكر الشيوعيون وجود الرب، فكانوا أشد كفرًا من كفار الجاهلية.

٢- توحيد الإله: هو توحيد الله بأنواع العبادات المشروعة، كالدعاء والاستعانة والطواف والذبح والنذر وغيرها، وهذا النوع الذي جحده الكفار، وكانت فيه الخصومة بين الأمم ورسلهم منذ نوح عليه السلام إلى محمد ﷺ، وقد حث القرآن الكريم في أكثر من سوره عليه، وعلى دعاء الله وحده، ففي سورة الفاتحة نقرأ قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[3] ومعناه نخصك بالعبادة، فندعوك وحدك، ولا نستعين بغيرك؛ وتوحيد الإله يشمل إفراده في دعائه، والحكم بقرآنه، والاحتكام إلى شرعه، وكله داخل في قوله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي﴾[4].

٣- توحيد الأسماء والصفات: هو الإيمان بكل ما ورد في القرآن الكريم والحديث الصحيح، من صفات الله التي وصف بها نفسه، أو وصفه بها رسوله ﷺ على الحقيقة من غير تحريف ولا تكييف ولا تفويض، كالاستواء والنزول، واليد والمجيء، وغيرها من الصفات، نفسرها بما ورد عن السلف[5].

---

(١) سورة الذاريات، آية: ٥٦.

(٢) سورة الزخرف، آية: ٨٧.

(٣) سورة الفاتحة، آية: ٥.

(٤) سورة طه، آية: ١٤.

(٥) مجموعة رسائل التوجيهات الإسلامية، ص ١٦٤-١٦٥.

وقال الشيخ محمد الغزالي: (والحق أن التوحيد روح الإسلام، وجوهر عقيدته، ومحور عباداته المنوعة، ومبدأ التوحيد يسري في تعاليمه كافة سريان الماء في النبات، أو الأعصاب في البدن.

وقد وضح القرآن الكريم حقيقته وبسط فكرته، وناقش ما قد يعرض له أو يعارضه، حتى ليعتبر التوحيد الإسلامي أصرح وأكمل ما أسسه دين في قلوب بنيه، ودمغ البشر جميعًا بطابع العبودية لله وحده، وانتزاع كل شعور يتجه بالمرء إلى تقديس كائن ما -هنا أو هناك- كل ذلك من عناوين الإسلام الأولى وليس من إشاراته الثانوية أبدًا. قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[1].

والله -وحده- هو الضار النافع، الخافض الرافع؛ الذي يخذل أو ينصر، ويعطي أو يمنع.

وليس لأحد بعده تعقيب على حكمه، وليس من شأن ملك في السماء أو نبي في الأرض التدخل في مشيئة الله.

فهي التي تحكم أبدًا، وإليها يُحتكم أولاً وآخرًا.

وأولياء الله أو أعداؤه لا يفرضون رغباتهم على الإرادة العليا.

ولذلك فإن من إخلاص التوحيد أن نكل ما فوق قدرتنا وإرادتنا إلى الله وحده، وأن نربط خوفنا ورجاءنا به.

قال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ﴾[2] وقال جل شأنه: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[3].

---

(١) سورة المائدة، آية: ٧٢.

(٢) سورة الزمر، آية: ٣٦.

(٣) سورة الزمر، آية: ٣٨.

إن للمؤمن قبلة واحدة يوليها وجهه، ويهب لها فؤاده، ويبثها نجواه وشكواه، ويعرف على أشعتها طريقه في ظلمات الحياة.

للمؤمن صلة عليا بالله، يحدد - على أساسها- علاقاته بالناس.

وله عواطف تجيش بالأمن والقلق، والسخط والرضاء والحب والبغض، والوحشة والأنس.

ومهما اضطربت في نفسه هذه المشاعر المعتادة، فإن ضوابط اليقين تحكمها، وعرفانه بربه هو الذي ينقضها أو يبرمها.

وإذا رأيت المرء يحب غير الله أكثر مما يحب الله، ويخاف العبد أكثر مما يخاف الرب، ويتعلق قلبه بالناس أكثر مما يتعلق برب الناس، ويصدر عمله ابتغاء رضاهم أكثر مما يطلب ثواب الآخرة.

فإذا نزلت به نكبة كان تفكيره في فلان قبل تفكيره في الله، وإذا أصابه خير كان حمده لفلان أسبق من شكره لله. فاعلم أن هذا الشخص قد أشرك.

ولئن كان بعض العلماء يقول: إن الشرك في العمل غير الشرك في الاعتقاد، وأن هذا شرك أصغر وذاك شرك أكبر. والحقيقة أن المسألة أصعب مما يتصورون، وذاك شرك أكبر.

فالشرك عين حمئة قذرة، إذا انفجرت في قلب وبدأت تسيل قطرات راشحة، توشك أن تتحول سيلاً كاسحًا، ويومئذٍ لا يبقى في القلب إيمان حق، ويتحول ما يسمونه شركًا أصغر إلى عين الشرك، الذي يعده الإسلام أقبح الكبائر.

والإسلام يوم حارب اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، لم يحاربها لذواتها، ولم تكن بينه وبينها عداوة شخصية، إنما حاربها لأنها احتلت من قلوب الملتفين بها مكانة السيد المتصرف من عبيده الأذلين[1].

وقال د. محيي الدين القره داغي: (إن التوحيد الخالص هو شريعة كل الرسل والأديان السماوية، ومنهجهم المشترك منذ أن جعل الله تعالى الإنسان خليفته في الأرض،

---

(١) عقيدة المسلم، ص ٦١-٦٢ بتصرف.

وبعث منهم رسلاً مبشرين ومنذرين قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾(١) ثم يبين الله تعالى أنهم ما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيًا بينهم، ثم يدعو رسوله بقوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ﴾(٢).

هذا هو منهج "لا إله إلا الله" في العبادة والتوحيد، والسلوك والعمل والأخلاق والآداب.

فالتوحيد والعبودية لله تعالى وحده، هي القاعدة الأساسية للانطلاق بتحريك الإيمان من القلب إلى الأعضاء ثم إلى المجتمع ممن حوله، فما الصلاة والصوم والزكاة والحج، ثم الحدود والتعاذير، والحل والحرمة، والمعاملات والتشريعات والتوجيهات الإسلامية إلا وتنطلق من هذه القاعدة، التي لا تقوم حياة للأمة الإسلامية قبل أن تقوم، ولا يتحقق الوجود الإسلامي إلا إذا قام على منهج "لا إله إلا الله" قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾(٣).

فالمجتمع الإسلامي أول شعاره "لا إله إلا الله" ويتمثل هذا الشعار في عقيدته أولاً وفي الشعائر التعبدية ثانيًا، فلا يتحقق الإيمان ولا الإسلام إلا مع الاعتقاد بوجود الله وحده، ومع الاعتقاد بأن شعائره التعبدية لله تعالى لا يشركه في ذلك أحدًا، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾(٤) فالله تعالى أغنى الشركاء فلا يقبل إلا ما هو خالص لوجهه.

---

(١) سورة الشورى، آية: ١٣.

(٢) سورة الشورى، آية: ١٥.

(٣) سورة يوسف، آية: ٤٠.

(٤) سورة الأنعام، آية: ١٦١-١٦٣.

كما لا يتحقق مقتضى هذه الكلمة إلا بأن يتلقى الأوامر والنواهي من الله تعالى وعن طريق رسله الذين بلغونا الإسلام، وآخرهم وخاتمهم محمد رسول الله ﷺ قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾[1].

فالمؤمن بعد ما أعطى قلبه لله تعالى فامتلأ بالإيمان والتوحيد لابد وأن يكيف إدراكه على ضوء ما يؤمر به، ثم يكيف على أساس هذه العقيدة الحقة تعامله مع ربه، ومع نفسه ومع غيره تحقيقًا لعبوديته التي لابد وأن تشمل جميع حياته ونشاطه[2].

ثالثًا - من موضوعات الدعوة: بيان عداوة الشيطان وتحريشه بين المسلمين:

حيث جاء في الحديث "ولكن في التحريش بينهم".

قال النووي: (هذا الحديث من معجزات النبوة ومعناه: أيس أن يعبده أهل جزيرة العرب، ولكنه سعى في التحريش بينهم بالخصومات والشحناء، والحروب والفتن ونحوها)[3].

وقال الطيبي: (قال القاضي البيضاوي: ومعنى الحديث: الشيطان أيس أن يعود أحد من المؤمنين إلى عبادة الصنم، ويرتد إلى شركه في جزيرة العرب، ولا يرد على هذا ارتداد أصحاب مسيلمة، ومانعي الزكاة، وغيرهم ممن ارتدوا بعد رسول الله ﷺ؛ لأنهم لم يعبدوا الصنم و"جزيرة العرب" من جفر أبي موسى الأشعري إلى أقصى اليمن طولاً، ومن رمل يرين إلى منقطع السماوة - وهي بادية في طريق الشام - عرضًا، هكذا ذكره أبو عبيدة معمر بن المثنى؛ وإنما سميت جزيرة العرب لأنها واقعة بين بحر فارس، والروم، ونيل، ودجلة، وفرات، وقال مالك بن أنس: جزيرة العرب مكة والمدينة، واليمن وقال: التوربشتي: (وإنما خص جزيرة العرب بالذكر؛ لأن الدين يومئذ لم يتعد عنها".

---

(١) سورة الشورى، آية: ٢١.

(٢) من مقدمة تحقيق وتعليق الدكتور علي محي الدين القره داغي على كتاب: معنى لا إله إلا الله للإمام بدر الدين الزركشي، ص ٤٠-٤١.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ١٦٤٨.

أقول: -القائل الطيبي- ولعله ﷺ أخبر عما يجري فيها بعده من التحريش الذي وقع بين أصحابه ﵃، أي أيس أن يعبد فيها، لكن طمع في التحريش بين ساكنيها، وكان كما أخبر، وكان معجزة، والتحريش: الإغراء على الشيء بنوع من الخداع، من حرش الصياد الصيد إذا خدعه، أي يخدعهم ويغري بعضهم على بعض.

أقول: - أي الطيبي - لما ذكر العبادة سماهم المصلين تعظيمًا لهم، وحيث ذكر الفتنة أخرجه مخرج التحريش - وهو الإغراء بين الكلاب - توهينًا وتحقيرًا لهم)[1].

هذا وقد حذر الله في القرآن الكريم من عداوة الشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ﴾[2] قال النسفي: (إن الشيطان ظاهر العداوة فعل بأبيكم ما فعل، وأنتم تعاملونه معاملة من لا علم له بأحواله، فاتخذوه عدوًا في عقائدكم وأفعالكم، ولا يوجدنَّ منكم إلا ما يدل على معاداته في سركم وجهركم، ثم لخص سر أمره وخطأ من اتبعه، بأن غرضه الذي يؤمه في دعوة شيعته، هو أن يوردهم مورد الهلاك)[3]. ولهذا وجب الحث على الاتحاد والبعد عن التفرق، قال الإمام الغزالي: (إن الألفة ثمرة حسن الخلق، والتفرق ثمرة سوء الخلق؛ فحسن الخلق يوجب التحاب والتآلف والتوافق، وسوء الخلق يثمر التباغض والتحاسد والتدابر. وقال بعضهم:

وجدت مصيبات الزمان جميعه ... سوى فرقة الأحباب هينة الخطب[4]

وفي الحث والتحذير من عداوة الشيطان جاء في الحديث عن أنس بن مالك ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: ((لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانًا ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث))[5].

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٢٠٩/١.

(٢) سورة فاطر، آية: ٦.

(٣) مدارك التنزيل وحقائق التأويل ٩٧١.

(٤) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ١٧١/٢.

(٥) أخرجه البخاري ٦٠٦٥، ومسلم ٢٥٥٩.

قال القاضي أبوبكر بن العربي: (وقوله "لا تباغضوا" فالبغض هو كراهية المرء أو صفاته، وأما الحسد، فهو تمني نقل النعمة من غيرك إليك، وأما التدابر، فهو اختلاف الأهواء والمقاصد؛ وهي الحالقة، فإن صلاح ذات البين بها تقوم شعائر الإسلام من الصلاة والحج، وبها تحمى البيضة بالجهاد والنصرة، وبها تجمع حقوق الفقراء من أيدي الأغنياء.

وفي قول مالك: لا أحسب التدابر إلا الإعراض.

وأصل الفساد البغض، فنهى النبي ﷺ عنه، وينشأ عن البغض الإعراض؛ وهو أول درجات التدابر، ويترتب على الإعراض اختلاف الأهواء ومروج الأمور[١]، ففسره مالك بالإعراض، وهو الأصل، حتى إذا اجتنبت وكان الإقبال، يترتب عليه اتفاق الأهواء. وأما الظن، فهو حديث في النفس عما يتوهمه المرء، فإن كان عن دليل فالعمل عليه واجب، وإن كان مسترسلاً أو عن شهوة فهو أكذب الحديث. وأما التحسس، فهو تطلب الأخبار على الناس في الجملة، وذلك لا يجوز إلا للإمام الذي رتب لمصالحهم، وأُلقي إليه زمام حفظهم، فأما عُرْض الناس[٢]، فلا يجوز ذلك لهم إلا لغرض؛ من مصاهرة، أو جوار، أو رفاقة[٣] في السفر، أو معاملة، أو ما أشبه ذلك من أسباب الامتزاج. وأما التجسس، فهو طلب الخبر الغائب للشخص، وذلك لا يجوز لا للإمام ولا لسواه. وأما التنافس، فهو التحاسد في الجملة، إلا أنه يتميز عنه بأنه سببه، وكأنه قيل له: لا ترى نفسك خيرًا من أحد، حتى يحملك ذلك على الحقد والحسد.

وأما المصافحة، فلم يرها مالك في السلام؛ لأنه لم يسمع حديثها، وقد اجتمع مع سفيان، فصافحه سفيان وقال له: كذلك صافح النبي ﷺ لجعفر حين قدم من أرض الحبشة. وقال البراء: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا))[٤].

---

(١) مروج الأمور: أي اختلاطها. انظر: القاموس المحيط، مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي (م ر ج).

(٢) يقال: هو من عُرْض الناس: أي من العامة. القاموس المحيط، مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي (ع ر ض).

(٣) الرفاقة: الجماعة ترافقهم. القاموس المحيط، مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي (ر. ف. ق).

(٤) أخرجه أبو داود ٥٢١٢ وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٣٤٣).

وأما المحبة فقد قال جماعة من العلماء: إن المحبة هي الإيثار، ألا ترى إلى امرأة العزيز لما تناهت قالت: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾[1] ففدته بنفسها، ولما دخل الصديق مع النبي ﷺ الغار، أرادت الحية أن تخرج من الجحر، فسده برجله، ففداه بنفسه، وكما ترس عنه طلحة ببدنه، وكما نام علي بن أبي طالب على الفراش في البرد الحضرمي بدلاً منه. وأما الهدية، فإنها من أسباب التواد لعلاقة الأمل بالمال، فترى النفس أن كل من أعانها على مصالحها يحبها، فتجازيه بالمحبة أيضًا)[2].

وقال ابن عبدالبر: (وفي هذا الحديث من الفقه أنه لا يحل التباغض؛ لأن التباغض مفسدة للدين، حالقة له، ولهذا أمر رسول الله ﷺ بالتواد والتحاب، حتى قال: ((تهادوا تحابوا))[3]. وروى مالك، عن يحيى بن سعيد، قال: سمعت سعيد ابن المسيب يقول: ألا أخبركم بخير من كثير من الصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى، قال: صلاح ذات البين، وإياكم والبغضة، فإنها هي الحالقة. وكذلك لا يحل التدابر، والتدابر الإعراض وترك الكلام والسلام[4] ونحو هذا. وإنما قيل للإعراض: تدابر؛ لأن من أبغضته أعرضت عنه، ومن أعرضت عنه وليته دبرك، وكذلك يصنع هو بك، ومن أحببته أقبلت عليه وواجهته، لتسُرَّه ويسرك. فمعنى "تدابروا"، و"تقاطعوا"، و"تباغضوا"، معنى متداخل متقارب، كالمعنى الواحد في الندب إلى التواخي والتحاب، فبذلك أمر رسول الله ﷺ في معنى هذا الحديث وغيره، وأمر رسول الله ﷺ على الوجوب حتى يأتي دليل يخرجه إلى معنى الندب[5].

---

(١) سورة يوسف، آية: ٥١.

(٢) القبس، ضمن موسوعة شروح الموطأ، ٢٢/٩٤-٩٧.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ ١٧٥٠. وقال ابن عبدالبر: وهذا يتصل من وجوه شتى حسان كلها. انظر: موسوعة شروح الموطأ، ١٤٤/٢٢. وأخرجه البخاري في الأدب المفرد برقم ٥٩٤ وحسنه الألباني (صحيح الأدب المفرد ٤٦٢).

(٤) أخرجه أبو داود ٤٩١٩، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤١١١).

(٥) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ٢٢/٩٧-٩٨.

قال السيد سابق: (جاء الإسلام ليجمع القلب إلى القلب، ويضم الصف إلى الصف، مستهدفًا إقامة كيان موحد، ومتقيًا عوامل الفرقة والضعف، وأسباب الفشل والهزيمة، ليكون لهذا الكيان الموحد القدرة على تحقيق الغايات السامية والمقاصد النبيلة، والأهداف الصالحة التي جاءت بها رسالته العظمى: من عبادة الله وإعلاء كلمته وإقامة الحق وفعل الخير والجهاد من أجل استقرار المبادئ التي يعيش الناس في ظلها آمنين، فهو لهذا كله يقوي الروابط والصلات بين أفراد المجتمع، لتخلق هذا الكيان وتدعمه، ومن أهم هذه الروابط رباط الإخاء وهو أوثقها، وأمامه تزول جميع الفوارق من نسب عريق، ومال وفير، وجاه عريض، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1] وهذا الإخاء يقتضي تبعات وحقوقًا، فليس هو إخاء عقيمًا لا ثمرة له في الواقع، ولا أثر له في الحياة العملية، فهو يقتضي أن يهتم كل أخ بأمر أخيه، وأن يعنى بشأنه والدفاع عنه، والذياد عن حوضه، والعمل الدائب على ترقية حاضره)[2].

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٢) عناصر القوة في الإسلام ١١٥ - ١١٧.

الحديث رقم (١٥٩٧)

١٥٩٧- وعن أَبي هريرة ﷺ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: **((لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أنْ يَهْجُرَ أخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثٍ، فَمَنْ هَجَرَ فَوْقَ ثَلاَثٍ فَمَاتَ، دَخَلَ النَّارَ))**. رواه أَبُو داود[1] بإسناد عَلَى شرط البخاري ومسلم.

ترجمة الراوي:

ابو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي[2]

المضامين الدعوية[3]

---

(١) برقم (٤٩١٤). أورده المنذري في ترغيبه (٤٠٦٦) وقال: رواه أبو داود والنسائي بإسناد على شرط البخاري ومسلم. وقال العراقي في تخريج الإحياء (٢٠٨٦): إسناده صحيح.

(٢) تقدم ذكره في شرح الحديث رقم (١٥٩٤).

(٣) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (١٥٩٤).

الحديث رقم (١٥٩٨)

١٥٩٨- وعن أَبي خِراشٍ حَدْرَدِ بنِ أَبي حَدْرَدٍ الأسلميِّ. ويقالُ: السُّلميّ الصحابي رضي الله عنه: أنَّه سمع النبيَّ ﷺ، يقولُ: ((مَنْ هَجَرَ أخَاهُ سَنَةً فَهُوَ كَسَفْكِ دَمِهِ)). رواه أَبُو داود[١] بإسناد صحيح.

ترجمة الراوي:

حدرد بن أبي حدرد الأسلمي: وهو سلامة بن عمير الأسلمي، ويكنى أبا خِرَاش. روى عن النبي ﷺ حديثًا واحدًا في الهَجْر، وماله غيره[٢].

غريب الألفاظ:

كسفك دمه: كإراقته[٣]. أي: كقتله.

الشرح الأدبي[٤]

المضامين الدعوية[٥]

---

(١) برقم (٤٩١٥). قال العراقي في تخريج الإحياء (٢٠٨٨): إسناده صحيح. أورده المنذري في ترغيبه (٤٠٧٢).

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (١٩٠-١٩١)، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٧٠١/١)، الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (٢٦١)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٧٢/٢)، تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٣٣٦/١).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (س ف ك).

(٤) تقدم ذكره في شرح الحديث رقم (١٥٩٤).

(٥) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (١٥٩٤).

الحديث رقم (١٥٩٩)

١٥٩٩- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه : أنَّ رسول الله ﷺ ، قَالَ: ((لاَ يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أنْ يَهْجُرَ مُؤْمِنًا فَوقَ ثَلاَثٍ، فإنْ مَرَّتْ بِهِ ثَلاَثٌ، فَلْيَلْقَهُ فَلْيُسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَإنْ رَدَّ عَلَيْهِ السَّلامَ فَقَدِ اشْتَرَكَا فِي الأجْرِ، وَإنْ لَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ فَقَدْ بَاءَ بالإثْمِ، وَخَرَجَ المُسَلِّمُ مِنَ الهِجْرَةِ[١])). رواه أَبُو داود[٢] بإسناد حسن.

قَالَ أَبُو داود : ((إِذَا كَانَتْ الهِجْرَةُ للهِ تَعَالَى فَليسَ مِنْ هَذَا فِي شَيْءٍ))[٣].

ترجمة الراوي:

ابو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

باء بالإثم: التزمه ورجع به[٤].

الهجرة: الهجران[٥].

الشرح الأدبي

التعبير بالفعل المضارع المنفي بـ لا (لا يحل) اطراد للحكم مع اطراد الحياة يفيد التجدد والاستمرار كلما جد هجر جدت حرمة، وهذا أدعى لتدبر الهاجر، وقوله (لمؤمن) قيّد الحكم بالمؤمن تعريضاً بنفي الإيمان عن الهاجرين بنفي الإيمان عن المتصفين بتلك الصفة المحرمة على أهله، وتنكير كلمة (مؤمن) لإفادة التعميم لأن استغراق المفرد أعم أنواع الاستغراق، وقد جاء المسند إليه مصدراً مؤولاً من الحرف المصدري والفعل المنصوب به، (أن يهجر) هي هجر، وكان من الممكن أن يكون

---

(١) قوله: (وخرج المسلم من الهجرة) من زيادة أحمد بن سعيد السرخسي، كما نبّه عليه أبوداود.

(٢) برقم (٤٩١٢). أورده المنذري عقيب الحديث رقم (٤٠٦٦).

(٣) قول أبي داود هذا بعد حديث رقم (٤٩١٦).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب و ا).

(٥) لسان العرب، ابن منظور في (هـ ج ر).

مكانه المصدر الصريح فيقال: (هجر المؤمن)؛ لأن صيغة المضارع باقية مع التأويل بالمصدر دالة في ذاتها على التجدد والحدوث، دالة على استحضار الصورة في الحال، ومعنى هذا أن يتصور المؤمن كل فعل من الهجران يتجدد أمراً لا يحل. وقد جاء المفعول بلفظ مشع بتلك الصفة الجامعة تحت مظلة العبودية لله الموجبة للتقارب، والاتصال بشعاع اليقين، والتي تجعل المؤمنين أعضاء جسد واحد يسهر ويحم جميعه بواحدٍ منها، وقوله (فوق ثلاث) اختيار العدد (ثلاث) رعاية لحال النفس الغاضبة حتى تهدأ، وفي العبارة إيجاز بالحذف، أي ثلاث ليال، واستخدام الظرف (فوق) يصور الهاجر بعد هذا الحد (ثلاث) متعالياً متكبراً تأخذه العزة بالإثم.

وقد تبعه بأسلوب شرط يربط مرور الثلاث بالأمر باللقاء، والسلام (فَإِنْ مَرَّتْ بِهِ ثَلَاثٌ، فَلْيَلْقَهُ فَلْيُسَلِّمْ عَلَيْهِ) واستخدم (إن) كأداة شرط يشير إلى عدم توقع حدوث الشرط، وهو مرور ثلاث دون صلح بين المؤمنين لأن الإيمان محرك سريع في قلوبهم نحو الصلح، والأمر باللقاء والسلام قاطع لمادة الخلاف مزيل لصفة الهجر، ووجَّه الأمر المباشر باللقاء، والسلام ؛ لأنه يعول على صفة الإيمان الحاملة على الطاعة، والاستجابة، والتعالي على رغبات النفس في الاستمرار في القطيعة، وقوله : (فَإِنْ رَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ فَقَدِ اشْتَرَكَا فِي الأَجْرِ) ترغيب يداعب قلوب المؤمنين بما تسعى إليه من الأجر المقرب للغاية برضا الله، والجنة، ثم يتبع الترغيب في السلام، بالترهيب من ضده بتحمل الإثم كما هي عادة القرآن، وعادة الرسول ﷺ في شفع الترغيب بالترهيب في قوله: (وَإِنْ لَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ فَقَدْ بَاءَ بِالإِثْمِ) والتعبير بالفعل (باء) يشير إلى إحاطته به واستحقاقه له بما يمهد لبراءة الذي سلَّم من الإثم، والذي قرره بالخبر الصريح في قوله (وَخَرَجَ الْمُسَلِّمُ مِنَ الهِجْرَةِ)، والتعبير بالخروج يشير إلى مفارقته للإثم بعد سبق تلبسه به .

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: التحذير من هجر المسلم لأخيه المسلم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل إلقاء السلام.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

أولاً - من أساليب الدعوة: النهي:

حيث جاء في الحديث "لا يحل لمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث..." وأسلوب النهي من أساليب الدعوة التي تشعر بخطورة المنهي عنه وضرورة اجتنابه، فواجب الدعاة استعمال هذا الأسلوب من خلال ما جاء في القرآن والسنة من صور النهي لتحذير المدعوين منها ومن صور استعمال القرآن لأسلوب النهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾[1] وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ﴾[2].

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: التحذير من هجر المسلم لأخيه المسلم:

يتضح هذا من قوله في الحديث "لا يحل لمؤمن أن يهجر مؤمنًا فوق ثلاث" ولاشك أن هذا يدل على خطورة هجر المسلم والتحذير منه، قال الشيخ ابن عثيمين: (وإذا كان في هجر مَنْ فعل معصية، كترك واجب أو فعل محرم، فائدة، يُهْجر حتى تتحقق الفائدة، وأما من كان هجره لا يفيد شيئًا، بل لا يزيد الأمر إلا شدة وبعدًا عن أهل الخير، فلا يهجر؛ لأن الشرع جاء بالمصالح وليس بالمفاسد، فإذا علمنا أننا لو هجرنا هذا العاصي لم يزدد إلا شرًا وكراهة لنا، وكراهة ما معنا من الخير، فإننا لا نهجره، نسلم عليه ونرد عليه السلام، لأنه وإن عصى الله، فإن المؤمن لا يهجر فوق ثلاث)[3].

وجاء في موسوعة نضرة النعيم: (وإن تعلق الهجر بالمسلم فإنه يعد كبيرة، شريطة أن يكون فوق ثلاث، وليس بغرض شرعي، لما في ذلك من التقاطع والإيذاء والفساد، ويستثنى من تحريم هذا الهجر مسائل حاصلها أنه متى عاد الهجر إلى صلاح دين الهاجر والمهجور جاز وإلا فلا)[4].

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٣٧.

(٢) سورة لقمان، آية: ١٨.

(٣) شرح رياض الصالحين ٢/١٦٨٥.

(٤) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين، ٥٦٨٢/١١.

وقال د. الحسيني هاشم: (من عادى أخاه وترك السلام عليه، وما إلى ذلك فوق ثلاثة أيام بلياليها، وأصر على الاستمرار على هذا الهجر والخصام، دخل النار لغلبة شهوته على إيمانه ويقينه، وعصيانه لله ورسوله ﷺ بهذا الهجران. فإن في الهجران قتلاً معنويًا لا يقل أثرًا وإثمًا عن القتل المادي المحسوس. وقطع التهاجر يكون بإلقاء السلام، فإن تجاوب الآخر ورد السلام، ذهب عنهما الوزر، وإن لم يرد انفرد بالوزر، وتخلص الثاني من وعيد القطيعة لأدائه ما عليه)[١].

وقال ابن مفلح: (فأما هجر المسلم العدل في اعتقاده وأفعاله، فقال ابن عقيل: يكره. وكلام الأصحاب خلافه.

ولهذا قال تقي الدين: اقتصاره في الهجرة على الكراهة، ليس بجيد، بل من الكبائر على نص أحمد: الكبيرة ما فيه حدٌّ في الدنيا، أو وعيد في الآخرة)[٢].

إن الإسلام يبني علاقات أفراده على الحب والتواصل لا التقاطع والتدابر (إن الأصل في الهجر بين المسلمين الحرمة، بل جعله الشرع من الكبائر، الموجبة للنار، ولم يرخص للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، ووقع التصريح أن المسلم إذا مات مهاجرًا يدخل النار - والعياذ بالله تعالى.

مما يدل على أن الهجر كبيرة، لهذا قال الهيتمي[٣] متعقبًا قول صاحب "العدة": "إن هجر المسلم فوق ثلاث صغيرة" ما نصه: "بعيدٌ جدًا، وإن سكت عليه الشيخان"[٤] ثم قال: ثم رأيت بعضهم جزم بأن الهجرة المذكورة كبيرة، ولم يلتفتُ إلى مقالة صاحب "العدة" والزركشي، وقال: ما ذكره من كون هجر المسلم فوق ثلاثة أيام من الصغائر فيه نظر، والأشبه أنه كبيرة، لما فيه من التقاطع والإيذاء والفساد، إلا أن يقال: مجيء ذلك من الإصرار عليها.

---

(١) شرح رياض الصالحين ٧٤٦-٧٤٧.

(٢) الآداب الشرعية ١/٢٧٣.

(٣) الزواجر عن اقتراف الكبائر، أبو العباس الهيتمي ٢/٤٤.

(٤) أي الرافعي والنووي -رحمهما الله تعالى-.

وتعقّب هذا القول أيضًا، فقال: وقوله: إلا أن يقال مجيء ذلك من الإصرار عليها، فيه نظرٌ، ولئن سلمناه فهو لا ينافي ما قلناه، إذ غاية الأمر أن معنى كون ذلك كبيرة، هل هو ما فيه مما ذكر، أو الإصرار عليه في مدة الثلاثة أيام، والوجه الأول، إذ الثلاثة قيد لأصل الحرمة، لأن بمضيها يتحقق الإفساد والتقاطع، بخلافه قبلها، فلا إصرار هنا)[1].

ثالثًا – من موضوعات الدعوة: فضل إلقاء السلام:

حيث جاء في الحديث "فإن مرت به ثلاث فليلقه فليسلم عليه" فقد أرشد النبي ﷺ إلى وسيلة إنهاء الهجر بإلقاء السلام، قال شرف الحق العظيم آبادي: (وقوله "اشتركا في الأجر" أي في أجر السلام أو في أجر ترك الهجر أو فيهما "فقد باء بالإثم" أي رجع بإثم الهجران وقال القاري: الأظهر أنه باء بإثم الهجر وبإثم ترك السلام)[2]. وفي فضل السلام جاء عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما: ((أنَّ رَجُلاً سأل النبيَّ ﷺ: أيُّ الإسلامِ خَيْرٌ؟ قال: تُطْعِمُ الطَّعامَ، وتَقْرأُ السَّلامَ عَلَى مَن عَرَفْتَ ومَن لم تَعْرَف))[3] وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((إنَّ أَوْلَى النَّاسِ باللهِ تَعَالَى مَنْ بَدَأَهُمْ بالسَّلامِ))[4].

قال السيد سابق: (شرع الإسلام التحية عند اللقاء وعند المفارقة كمظهر من مظاهر المدنية الصحيحة، إذ أن التحية من شأنها أن تؤلف القلوب وتقوي الصلات، وتربط الإنسان بأخيه الإنسان، وقد قيل: ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار. وقد قال الله سبحانه ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗۚ﴾[5] أي ليقل بعضكم لبعض: السلام عليكم، وهذا السلام تحية شرعها الله لكم، وكلها الخير والطيبة والبركة، لما فيها

(١) الهجر في الكتاب والسنة، الشيخ مشهور حسن محمود آل سلمان، ١٣٣-١٣٥.

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٢١١٦.

(٣) أخرجه البخاري ٦٦.

(٤) أخرجه أبو داود ٥١٩٧، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٣٢٨).

(٥) سورة النور، آية: ٦١.

من جلب المحبة، وتقوية عرى المودة، وإنما جعلت تحية المسلمين بهذا اللفظ، وهو لفظ السلام، للإشعار بأن دينهم دين السلام والأمان، وأنهم أهل السلم ومحبو السلام، وإنما كانت هذه الصيغة أتم؛ لما فيها من مزيد الثواب)[١].

قال الطيبي: (السلام مصدر، نعت به، والمعنى ذو السلامة من كل آفة ونقيصة، أي الذي يسلم ذاته عن الحدوث والعيب، وصفاته عن النقص، وأفعاله عن الشر المحض، فإن ما تراه من الشرور فهي مقضية، لا لأنها كذلك، بل لما يتضمنه من الخير الغالب الذي يؤدي تركه إلى شرٍ عظيم، فالمقضى والمفعول بالذات هو الخير، والشر داخل تحت القضاء، وعلى هذا يكون من أسماء التنزيه.

ووظيفة العارف: أن يتخلق به، حيث يسلم قلبه عن الحقد والحسد، وإرادة الشر، وقصد الخيانة، وجوارحه عن ارتكاب المحظورات، واقتراف الآثام، ويكون سلمًا لأهل الإسلام ساعيًا في ذب المضار ودفع المعاطب عنهم، ومسلمًا على كل من يراه عرفه أو لم يعرفه. وعن بعض الصالحين: السليم من العباد من سلم عن المخالفات سرًا وعلنًا، وبرئ من العيوب ظاهرًا وباطنًا، قال الشيخ أبو القاسم: ومن آداب من تحقق بهذا الاسم أن يعود إلى مولاه بقلب سليم، والقلب السليم هو الخالص من الغل، والحقد، والحسد، فلا يضمر للمسلمين إلا كل خيرونصح، فيحسن الظن بكافتهم، ويسيء الظن بنفسه، فإذا رأى من هو أكثر سنًا منه قال: هو خير مني؛ لأنه أكثر مني طاعة، وإذا رأى من هو دونه في السن قال: إنه خير مني؛ لأنه أقل معصية. وقال المشايخ: إذا ظهر لك من أخيك عيب، فلتطلب له سبعين بابًا من العذر، فإن اتضح لك عذره، وإلا عد على نفسك باللوم، وقل: بئس الرجل أنت، حيث لم تقبل سبعين عذرًا من أخيك)[٢].

وجاء في موسوعة فقه القلوب: (ومن أسمائه الحسنى عز وجل: السلام. قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٣].

---

(١) إسلامنا ٢٥٨، ٢٥٩.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٥/١٦-١٧.

(٣) سورة الحشر، آية: ٢٣.

وقال النبي ﷺ: (إن الله هو السلام، فإذا قعد أحدكم في الصلاة فليقل: التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإذا قالها أصابت كل عبد لله صالح، في السماء والأرض، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ثم يتخير من المسألة ما شاء)[1].

الله تبارك وتعالى هو السلام، الذي سلم من كل عيب، وبرئ من كل نقص، لكماله في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

وهو سبحانه أحق بهذا الاسم من كل ما سواه، لأنه السالم من كل آفة وعيب، ونقص وذم، وله الكمال المطلق من كل الوجوه، وكماله سبحانه من لوازم ذاته: فالسلام يتضمن إثبات جميع الكمالات له، وسلب جميع النقائص عنه.

والسلام يتضمن سلامة ذاته من كل نقص وعيب، وسلامة أسمائه من كل ذم، وسلامة صفاته من مشابهة صفات المخلوقين، وسلامة أفعاله من العبث والظلم، وخلاف الحكمة.

فالله جل جلاله هو الحي الذي سلمت حياته من الموت والسنة والنوم والتغير. وهو القادر الذي سلمت قدرته من اللغوب والتعب، والإعياء والعجز.

وهو العليم الذي سلم علمه من النقص، فلا يعزب عنه مثقال ذرة، أو يغيب عنه قدر ذرة. وهو سبحانه السلام الذي سلم الخلق من ظلمه فلا يظلم أحدًا.

وهو سبحانه السلام الذي خلق الجنة دار السلام من الموت والمرض وسائر الآفات كما قال سبحانه عن المؤمنين: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[2].

وهو سبحانه السلام الذي يسلم على عباده في الجنة كما قال سبحانه: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾[3].

---

(١) أخرجه البخاري ٨٣١، ومسلم ٤٠٢ واللفظ له.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٢٧.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٤٤.

وهو سبحانه السلام، المسلم على أنبيائه ورسله، لإيمانهم وإحسانهم، وطاعتهم له، وتحملهم في سبيله أعظم الشدائد، فيؤمنهم فلا يخافون ولا يفزعون كما قال سبحانه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[١]. وقال سبحانه: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٢].

وقد أمر النبي ﷺ بإفشاء هذا الاسم، وأخبر أن ذلك سبب للمحبة، ودخول الجنة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم))[٣].

والله سبحانه هو السلام، فكل سلام ورحمة منه وله، وهو مالكها ومعطيها، فالسلام منه بدأ، وإليه يعود، فالسلام اسمه ووصفه وفعله، والتلفظ به ذكر له فـ((اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت ذا الجلال والإكرام))[٤]. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٥])[٦].

رابعًا - من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب:

يتضح هذا من سياق الحديث، حيث رغب رسول الله ﷺ في إلقاء السلام من المسلم على أخيه المسلم إذا لقيه وكان بينهما هجر، وبإلقاء السلام يخرج من الهجر، ورهّب من عدم رد السلام، بأن من لم يرد سوف يبوء بالذنب.

---

(١) سورة الصافات، آية: ٧٩.

(٢) سورة النمل، آية: ٥٩.

(٣) أخرجه مسلم ٥٤.

(٤) أخرجه مسلم ٥٩٢.

(٥) سورة الصافات، آية: ١٨٠-١٨٢.

(٦) موسوعة فقه القلوب ١٤٨/١، ١٤٩.

وأسلوب الترغيب والترهيب من أساليب الدعوة التي لها أثر في نفوس المدعوين، وحثهم على الطاعة، وترك المخالفات الشرعية: (إن النفوس البشرية مختلفة الطباع منها ما يجلبه الترغيب ومنها ما يخيفه الترهيب، ولهذا جاء القرآن والسنة بالأسلوبين، والدعاة مطالبون بانتهاج الأسلوبين مع الناس كل حسب ما يناسبه)[1]. ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب الترغيب والترهيب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾[3].

وعلى الدعاة الهداة الموازنة بين الترغيب والترهيب، واستعمال كل في موضعه، مع مراعاة ظروف المدعوين وأحوالهم.

---

(١) فقه الدعوة، د. بسام العموش ٨٦.

(٢) سورة الانفطار، آية: ١٣، ١٤.

(٣) سورة محمد، آية: ١٢.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية على غرس روح الأخوة بين المسلمين:

إن الأخوة رابطة نفسية تورث الشعور العميق بالعاطفة والمحبة والاحترام... مع كل من تربطه وإياه من أواصر العقيدة الإسلامية، ووشائج الإيمان والتقوى.... فهذا الشعور الأخوي الصادق يولد في نفس المسلم أصدق العواطف النبيلة في اتخاذ مواقف سلبية من الابتعاد عن كل ما يضر بالناس في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم والمساس بكرامتهم[1]؛ لذا كان من الواجب على دعاة التربية والتوجيه غرس وتوثيق رابطة الأخوة بين المسلمين فلا تقاطع ولا تدابر ولا تباغض ولا حسد ... وهذا ما أكده حديث الباب في قوله ﷺ: «لا تقاطعوا، ولا تدابروا ... إلخ».

ولقد اشتد تعظيم الإسلام كمنهج تربوي في الحفاظ على تماسك الأخوة وعدم قطع أواصرها، فحرم الهجر بين المسلمين، وجعل الأصل في ذلك المنع[2]، وهذا ما أكدته أحاديث الباب، وهو ما يجب غرسه في نفوس المتربين، وحتى يتسنى للقائمين على التربية والتوجيه القيام بذلك وجب بيان مساوئ الهجر للمتربين، ليدركوا عظم مخاطر الهجر، ويلتمسوا اجتنابها، بل ويعملوا على الحفاظ على وشائجها وإنزالها منازل الأخوة بالدم، ولبيان مساوئ الهجر نقول: إن الهجر يعطل كافة صور الخير في المتهاجرين، بالنسبة إلى بعضهما، فلا يتعاونان على فعل بر، ولا يجتمعان على مصلحة ومنها: أن الهجر يقضي بقبض يد المساعدة عن المهجور، وهو عقوق إن كان المهجور أحد الوالدين، وقطيعة رحم إن كان أحد الأقارب، والعاق والقاطع لا يدخلان الجنة.

ومن ذلك أن الهجر يعطل حقوق المسلم بين المتهاجرين، فلا يسلّم أحدهما على الآخر، ولا يرد سلامه، ولا يعوده إذا مرض، ولا يشيع جنازته إذا مات.

---

(١) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ٣٦٢/١.

(٢) الهجر في الكتاب والسنة، مشهور حسن محمود، ١١٩.

ومن الهجر أن المتهاجرين محرومان مما يفيض الله على المسلمين في مواسم الخير، فصلاتهما لا ترفع، وعملهما موقوف، حتى يصطلحا، ولو لم يكن من قبائح الهجر إلا هذا، لكن كافيًا في الابتعاد عنه[1].

وبهذا يتسنى لدعاة التربية والتوجيه غرس روح الأخوة بين المسلمين وجعلها في سياج منيع عن القطع والهجر.

ثانيًا: التربية بالترهيب:

لقد بلغ الترهيب كأسلوب تربوي في النهي عن الهجر بين المسلمين أوج بلوغه، حتى لا يتغافل عنه دعاة التربية في استخدامه، عند وقوع الهجر بين المسلمين، فبدأ الترهيب بعدم المغفرة للمتهاجرين، وذلك في قوله ﷺ: «... فيغفر الله لكل امرئ لا يشرك بالله شيئًا، إلا امرءًا كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقول: اتركوا هذين حتى يصطلحا».

ثم ثنى هذا الأسلوب التربوي النبوي ببيان سوء العاقبة وعظم الجرم وذلك في قوله ﷺ: «... فمات دخل النار»، وقوله ﷺ: «من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه»، وقوله ﷺ: «... فقد باء بالإثم ...إلخ».

ونجاح الترهيب كأسلوب تربوي فعّال في علاج ما كان من أخطاء يرجع إلى فطرة نفس المتربي على كره الشر والشقاء، ولولا هذه الخاصية الفطرية لما كان لهذا الأسلوب أثره التربوي في زجر نفس المتربي، بل وتربيتها على اجتناب ما هو محظور[2].

ثالثًا: التربية الوقائية:

إن التربية الوقائية تعتبر سياجًا للمتربي من الوقوع في الرذائل الخلقية، وهذا ما بدا جليًا في حديث الباب من قوله ﷺ: ((إنَّ الشَّيْطانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ المُصَلُّونَ فِي جزيرة العرب، وَلكِنْ فِي التَّحْرِيش بَيْنَهُمْ))، والأسرة والمجتمع لهما أكبر الدور في تنشئة

---

(١) الهجر في الكتاب والسنة، مشهور حسن محمود، ١٤٢.

(٢) أصول التربية الإسلامية، سعيد إسماعيل القاضي، ١٨٦، تربية الطفل في الإسلام، أحمد محمود الحمد، ١٢٧، أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ٣٩٤، ٣٩٥.

المرتبين على تطبيق التوجيهات الإسلامية حتى يكونوا في الجانب الوقائي من الرذائل الخلقية التي انحل زمامها في الكثير من بلدان العالم، فأصبحوا في أوكارها جاثمين وبمجونها فرحين مسرورين، وما تذكروا قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾[1][2].

وأن النبي ﷺ أراد أن يربي المسلمين تربية وقائية تجعلهم على حذر من كيد الشيطان ووسوسته وتحريشه ونزغه بينهم، حتى يكون المسلم على بينة من الأمر، فيعمل على سد الثغرات التي يمكن أن ينفذ الشيطان من خلالها لتمزيق أواصر المحبة والمودة بين المسلمين.



(١) سورة الغاشية، الآيات: ٢-٦.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ٦٠، ٦٩.

٢٨١- باب النهي عن تناجي اثنين دون الثالث بغير إذنه إلاّ لحاجةٍ وَهُوَ أن يتحدثا سرًا بحيث لا يسمعهما وفي معناه مَا إذَا تحدثا بلسان لا يفهمه

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ﴾[المجادلة: ١٠]

الحديث رقم (١٦٠٠)

١٦٠٠ - وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **((إِذَا كَانُوا ثَلاثَةً، فَلاَ يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الثَّالِثِ))** متفق عَلَيْهِ[1].

ورواه أَبُو داود[2] وزاد: قَالَ أَبُو صالح: قُلْتُ لابنِ عُمرَ: فَأَرْبَعَةٌ؟ قَالَ: لا يَضُرُّكَ.

ورواه مالك في الموطأ[3]: عن عبد الله بن دينارٍ، قَالَ: كُنْتُ أنَا وابْنُ عُمَرَ عِنْدَ دَارِ خَالِدِ بنُ عُقْبَةَ الَّتي في السُّوقِ، فَجَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أنْ يُنَاجِيَهُ، وَلَيْسَ مَعَ ابْنِ عُمَرَ أحَدٌ غَيْرِي[4]، فَدَعَا ابْنُ عُمَرَ رَجُلاً آخَرَ حَتَّى كُنَّا أرْبَعَةً، فَقَالَ لِي وَلِلرَّجُلِ الثَّالِثِ الَّذِي دَعَا[5]: اسْتَأْخِرَا شَيْئًا، فَإنِّي سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقُولُ: **((لا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ وَاحِدٍ))**.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

الشرح الأدبي

إن تعاليم الإسلام لا تُعنى بالأعراض دون الجواهر، ولا بالقشور دون اللباب، حتى تظل علاقة المؤمن بربه نابعة من القلب، ناضحة بالمشاعر، نابضة بالأحاسيس،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٨٨) واللفظ له، ومسلم (٢١٨٣/٣٦).

(٢) عقب الحديث رقم (٤٨٥٢).

(٣) (٩٨٨/٢) رواية يحيى بن يحيى الليثي.

(٤) عند مالك زيادة: (وغير الرجل الذي يريد أن يناجيه).

(٥) لفظ مالك: (دعاه).

وكذلك تظل العلاقة بين أفراد الأمة الإسلامية قائمة على أسس من التصافي والإخاء، والبعد عن التجافي والعداء.

وهذا الحديث الشريف يلفت نظر المسلمين في كل زمان وفي كل مكان إلى حقيقة نفسية شعورية، لا بد أن يفطن لها كل مسلم وكل مسلمة؛ وهي اتقاء الشبهات، والابتعاد عن الظنون والريب، ومراعاة مشاعر وأحاسيس الآخرين.

وصياغة الحديث تؤكد الحرص على ذلك؛ حيث يجيء الحديث في قالب الشرط والجواب،وهو قالب إخباري، ولكنه كما قال العلماء: خبر في لفظه، طلب في معناه.

فالمراد: النهي عن انفراد اثنين بالتناجي والتحادث في همس، وثالثهم حاضر؛ ولكنهما يتعمدان إخفاء الحديث عنه، والتقدير: لا يتناجى اثنان دون الثالث،وهذا المطلب لا بد من تحققه لأن أداة الشرط "إذا"، تفيد التحقق.

وفعل الشرط: "كانوا"، فيه إشارة إلى هؤلاء الثلاثة من غير تخصيص، والفاعل هنا: "واو الجماعة"، ضمير رفع متصل، يعني العموم واستمرار هذا النهي عن هذا السلوك الذي يفسد العلاقات السوية بين أفراد المجتمع.

وفي الحديث بلاغة الحذف: لأن التقدير: إذا كان المجتمعون ثلاثة أشخاص من المسلمين، وغير المسلمين مطالبون بذلك لأن هذا سلوك إنساني، وانضباط اجتماعي.

والمسلمون أولى من غيرهم في الحرص على عدم إيذاء الآخرين شعوريًا ونفسيًا واجتماعيًا.

وفي اللغة: النجوى والنجِّي: السر،والنجو: السر بين اثنين، يقال: نجوته نجوًا: أي ساررته، وقال أبو إسحاق: معنى النجوى في الكلام: ما يفرد به الجماعة والاثنان سرًا كان أو ظاهرًا،وجواب الشرط في الحديث يؤكد النهي عن مناجاة اثنين دون الثالث، حيث يقترن جواب الشرط بالفاء لأنه فعل طلبي منهي عنه، حيث يقول رسول الله ﷺ في صيغة النهي الصريح: "فلا يتناجى اثنان دون الثالث".

اللهم ارزقنا محبتك ومحبة رسولك نبينا محمد ﷺ، واجعلنا اللهم مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء.

المضامين الدعوية[1]

أولاً: من أساليب الدعوة: الشرط.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: آداب التناجي في الإسلام.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على التأسي بالنبي ﷺ.

أولاً- من أساليب الدعوة: الشرط:

حيث جاء في الحديث "إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى" وأسلوب الشرط له أثر في نفوس المدعوين، من حيث إنه يلفت انتباه المدعو ويشده إلى معرفة الجواب، ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب الشرط قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾[2].

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: آداب التناجي في الإسلام:

حيث جاء في الحديث الأول قوله ﷺ: "فلا يتناجى اثنان دون الثالث" وفي الحديث الثاني قوله "إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن ذلك يحزنه" وهذا يبين أدب الحديث والتناجي في الإسلام، قال الإمام النووي: (وفي هذه الأحاديث النهي عن تناجي اثنين بحضرة ثالث، وكذا ثلاثة وأكثر بحضرة واحد، وهو نهي تحريم فيحرم على الجماعة المناجاة دون واحد منهم إلا أن يأذن، وجماهير العلماء: أن النهي عام في كل الأزمان وفي الحضر والسفر، وكان المنافقون يفعلون ذلك بحضرة المؤمنين ليحزنوهم، أما إذا كانوا أربعة فتناجى اثنان دون اثنين فلا بأس بالإجماع)[3].

وقال ابن حجر: (قال الخطابي: وإنما قال يحزنه لأنه قد يتوهم أن نجواهما إنما هي لسوء رأيهما فيه أو لدسيسة غائلة له، ونقل ابن بطال عن أشهب عن مالك قال: لا

---

(١) تم دمج المضامين لهذا الحديث -١٦٠٠- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٠١).

(٢) سورة النساء، آية: ١٠١.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي، ١٣٦٥، ١٣٦٦.

يتناجى ثلاثة دون واحد ولا عشرة، لأنه قد نهى أن يترك واحدًا، قال: لأن المعنى في ترك الجماعة للواحد كترك الاثنين للواحد، وهذا من حسن الأدب لئلا يتباغضوا ويتقاطعوا)[1].

قال القاضي أبوبكر بن العربي: (وأما مناجاة بعض الناس دون بعض فاختلف فيه على أربعة أقوال، الأول: أن ذلك في السفر؛ لأنه موضع التُّقاةِ ومكان الحذر. الثاني: أنه مخافة أن يحزن صاحبه، وكذلك جاء في الحديث: "كراهية أن يحزنه". فإن كان من قول النبي ﷺ فقد انحسم التأويل، وإن كان من قول الراوي فهو أولى من تأويل غيره. الثالث: أن ذلك من سوء الأدب. الرابع، ويرتبط بالثالث: أنه خلاف ما يقتضيه عقد المجالسة، فإنهما إنما يتجالسان بالصحبة والألفة والأنسة، فإذا انخذل عنه إلى السر فقد نقض هذا الميثاق، وفِعْلُ عبدالله بن عمر مع عبدالله بن دينار يدل على أن الحضَرَ في ذلك كالسفر، لكنَّ المعنى في السفر أوفى منه في الحضر، وقد تتزايد العِلَّةُ الشرعيةُ، ويبقى الحُكم على حاله، وهذا المنع اختلف فيه الناس؛ هل يزولُ بالإذن أم لا؟ والصحيح أنه يزولُ؛ لأن الحق له، فإذا أسقطه سقَط. وقال ابنُ القاسم: سمعتُ مالكًا يقول: لا يَتَنَاجَ أربعة دون واحد. وصدَقا؛ لأن العلة أكثرُ، والتقيَّة أعظم. هذا في تناجي الجماعة دون الواحد، وأما تناجي الجماعة دون الجماعة، فإنه أيضًا مكروهٌ أو محرمٌ، وقد نص الله تعالى عليه، فقال سبحانه: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[2])[3].

وقال ابن عبدالبر: (التناجي التسار، وذلك مكالمة الرجل أخاه عند أذنه بما يسره من غيره. والنهي إنما ورد كما ترى إذا كانوا ثلاثة، وأما إذا كانوا أربعة فما فوقهم، فلا بأس به.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٨٦/١١.

(٢) سورة النساء، آية: ١١٤.

(٣) القبس، ضمن موسوعة شروح الموطأ، ٤٥٤/٢٣-٤٥٥.

وقد جاء عن ابن شهاب، أن رسول الله ﷺ قال: ((إذا كان ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث، لا تدعوا صاحبكم نجيًا للشيطان))[١]. قال ابن شهاب: وقال سعيد بن المسيب: إلا أن يستأذناه.

وقوله: "نجيًا للشيطان". يريد: لأنه يوسوس في صدره من جهتهما ما يحزنه. والله أعلم.

وقد أتى في الحديث أن النهي عن ذلك إنما ورد لئلا يحزن الثالث ويسوء ظنه، ونحو ذلك. وعن نافع، عن ابن عمر أنه كان يقول: هؤلاء لا يُبالون بسفك الدماء بينهم، وقال رسول الله ﷺ لعظم حرمة المؤمن: "إذا كان ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون واحد". قال نافع: فربما كان لعبد الله حاجة - ومعه رجلان - إلى أحدهما، فلا يُكلمه حتى يأتي رابع، فإذا جاء قال: شأنك وصاحبك، فإن لي إلى صاحبي هذا حاجة.

قال أبو عمر: هذا لئلا يظن به أنه ينال منه، أو يتكلم فيه، وهو معنى حديث ابن مسعود: "فإن ذلك يحزنه". قال الشاعر:

يروعه السرار بكل أمر مخافةَ أن يكونَ به السرارُ[٢]

قال القرطبي: (قوله: "إذا كان ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون واحدٍ" "كان" هنا: تامَّة بمعنى: وُجد، ووقع. و"ثلاثة": فاعل بها، بخلاف الرواية الأخرى؛ التي قال فيها: "إذا كنتم ثلاثة" فإنها فيها ناقصة. بمعنى: صرتم ثلاثة.

وقوله: "فلا يتناجى اثنان" الرواية المشهورة فيها: "يتناجى" بالألف مقصورة ثابتة في الخط، غير أنها تسقط في اللفظ لالتقاء الساكنين؛ فإذًا: هو خبرٌ عن نفي المشروعية، ويتضمن النهي عن ذلك. وقد وقع في بعض النسخ: "فلا يتناج" بغير ألف، على النهي. وهي واضحةٌ. والتناجي: التحادث سرًا. وقد زاد في الرواية الأخرى زيادةً حسنةً، فقال: "حتى يختلطوا بالناس"، فبين غاية المنع، وهو أن يجد الثالثُ من يتحدث معه، كما فعل ابن عمر، وذلك: أنه كان يتحدَّث مع رجلٍ، فجاء آخر يريد أن يناجيه، فلم يناجه

---

(١) قوله: ((لا تدعوا صاحبكم نجيا للشيطان))، لم أعثر عليه فيما تحت أيدينا من كتب الحديث.

(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ٢٣/٤٥٦-٤٥٨.

حتى دعا رابعًا، فقال له وللأول: تأخرًا، وناجى الرجل الطالب للمناجاة. وقد نبَّه في هذه الزيادة على التعليل بقوله: "فإن ذلك يحزنه" أي: يقع في نفسه ما يحزن لأجله، بأن يقدِّر في نفسه: أن الحديث عنه بما يكره، أو أنَّهم لم يروه أهلاً ليشركوه في حديثهم، إلى غير ذلك من ألقيات الشيطان، وأحاديث النفس. وحصل ذلك كلُّه من بقائه وحده، فإذا كان معه غيره أمن ذلك، وعلى هذا: يستوي في ذلك كلُّ الأعداد، فلا يتناجى أربعة دون واحد، ولا عشرة، ولا ألفٌ مثلاً؛ لوجود ذلك المعنى في حقه، بل وجوده في العدد الكثير أمكن، وأوقع، فيكون بالمنع أولى. وإنما خصَّ الثلاثة بالذكر لأنه أوَّل عدد يتأتى فيه ذلك المعنى. وظاهرُ هذا الحديث يعمُّ جميع الأزمان والأحوال. وإليه ذهب ابنُ عمر، ومالكٌ، والجمهور. وقد ذهب بعضُ الناس: إلى أن ذلك كان في أول الإسلام، لأن ذلك كان حال المنافقين، فتناجى المنافقون دون المؤمنين، فلما فشا الإسلام؛ سقط ذلك. وقال بعضهم: ذلك خاصٌّ بالسفر، وفي المواضع التي لا يأمن الرجلُ فيها صاحبه؛ فأما في الحضر، وبين العمارة: فلا.

قلتُ: وكلُّ ذلك تحكُّم، وتخصيص لا دليل عليه. والصحيح: ما صار إليه الجمهور. والله تعالى أعلم[1].

وقد نهى الله عن النجوى وبين أن ذلك من الشيطان قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[2] قال قتادة: (كان المنافقون يتناجون بينهم وكان ذلك يغيظ المؤمنين ويكبر عليهم)[3]. وقال ابن كثير: (وقد وردت السنة بالنهي عن التناجي حيث يكون في ذلك تأذٍ على مؤمن)[4].

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٥/٥٢٤-٥٢٥.

(٢) سورة المجادلة، آية: ١٠.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٨/١٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٨/٤٤.

قال القاسمي: (قال القاشاني: إنما نهوا عن النجوى لأن التناجي اتصال واتحاد بين اثنين في أمر يختص بهما، لا يشاركهما فيه ثالث. وللنفوس عند الاجتماع والاتصال تعاضد وتظاهر، يتقوى ويتأيد بعضها بالبعض فيما هو سبب الاجتماع لخاصية الهيأة الاجتماعية التي لا توجد في الأفراد، فإذا كانت شريرة يتناجون في الشر، ويزداد فيهم الشر، ويقوى فيهم المعنى الذي يتناجون به بالاتصال والاجتماع، ولهذا ورد بعد النهي قوله: "ويتناجون بالإثم" الذي هو رذيلة القوى البهيمية "والعدوان" الذي هو رذيلة القوى الغضبية، "ومعصيت الرسول" التي هي رذيلة القوة النطقية، بالجهل وغلبة الشيطنة. ألا ترى كيف نهى المؤمنين بعد هذه الآية عن التناجي بهذه الرذائل المذكورة، وأمرهم بالتناجي بالخيرات، ليتقووا بالهيأة الاجتماعية، ويزدادوا فيها فقال: "وتناجوا بالبر" أي: الفضائل التي هي أضداد تلك الرذائل، من الصالحات والحسنات المخصوصة بكل واحدة من القوى الثلاث، "والتقوى" أي: الاجتناب عن أجناس الرذائل المذكورة)[1].

وجاء في موسوعة نضرة النعيم: (والنجوى من رجل الشيطان وخيله ليحزن المؤمنين، وهي من عمل المنافقين وأعداء المسلمين من يهود وغيرهم، والنجوى يمقتها الله عز وجل وينهى أن تكون بين المجتمع المسلم، وهي تشكل جيوب الغمز واللمز ثم التفرقة والتمزق)[2].

وقال ابن عثيمين: (ومن الآداب التي حث عليها الإسلام ورغب فيها النهي عن تناجي اثنين دون الثالث، والتناجي من الشيطان، وكان أعداء المؤمنين من المنافقين والكافرين يحرصون على التناجي ليحزنوا المؤمنين، وهذا هو ما يريده الشيطان من أعداء الله، يريد أن يحزن المؤمنين على كل حال، ولذا كان من الآداب الإسلامية النهي عن التناجي)[3].

---

(١) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ٧٧/١٦.

(٢) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين، ٥٦٠٣/١١.

(٣) شرح رياض الصالحين ١٦٨٦/٢.

ثالثًا - من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة ﷺ على التأسي بالنبي ﷺ:

حيث جاء في الحديث أن رجلاً أراد أن يناجي ابن عمر وليس معهما رابع فدعا ابن عمر رجلاً آخر وقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لا يتناجى اثنان دون واحد" وهذا يدل على مدى حرص الصحابة ﷺ على التأسي بأقوال رسول الله ﷺ ذلك لأنه الأسوة الحسنة للمؤمنين قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ﴾[1].

قال د. صالح بن حميد: (ومن دقيق المعنى في هذه الآية أن الله سبحانه جعل الأسوة في رسول الله ﷺ ،ولم يحصره في وصف خاص من أوصافه، أو خلق من أخلاقه، أو عمل من أعماله الكريمة، وما ذلك إلا من أجل أن يشمل الاقتداء بأقواله عليه الصلاة والسلام وأفعاله وسيرته كلها، فيقتدى به ﷺ بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، ويقتدى بأفعاله وسلوكه من الصبر والشجاعة والثبات والأدب وسائر أخلاقه، كما يشمل الاقتداء بأنواع درجات الاقتداء من الواجب والمستحب وغير ذلك مما هو محل الاقتداء)[2]. ولاشك أنه في اتباعه والتأسي به ﷺ الهدى والفلاح، قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾[3] وقال جل شأنه ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[4].

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٢) معالم في منهج الدعوة ٦١.

(٣) سورة النور، آية: ٥٤.

(٤) سورة الأعراف، آية: ١٥٨.

الحديث رقم (١٦٠١)

١٦٠١- وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أنَّ رسول اللهِ ﷺ قَالَ: ((إذَا كُنْتُمْ ثَلاَثَةً، فَلاَ يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الآخَرِ حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ، مِنْ أجْلِ أنَّ (ذَلِكَ) [1] يُحْزِنُهُ)). متفق عَلَيْهِ[2].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

الشرح الأدبي

إن تعاليم الإسلام لا تُعنى بالأعراض دون الجواهر، ولا بالقشور دون اللباب حتى تظل علاقة المؤمن بربه نابعة من القلب، ناضحة بالمشاعر، نابضة بالأحاسيس وكذلك تظل العلاقة بين أفراد الأمة الإسلامية قائمة على أسس من التصافي والإخاء، والبعد عن التجافي والعداء.

وهذا الحديث الشريف يلفت نظر المسلمين في كل زمان وفي كل مكان إلى حقيقة نفسية شعورية لا بد أن يفطن لها كل مسلم وكل مسلمة وهي اتقاء الشبهات، والابتعاد عن الظنون والريب، ومراعاة مشاعر وأحاسيس الآخرين.

وصياغة الحديث تؤكد الحرص على ذلك حيث يجيء الحديث في قالب الشرط والجواب،وهو قالب إخباري، ولكنه كما قال العلماء خبر في لفظه، طلب في معناه.

فالمراد: النهي عن انفراد اثنين بالتناجي والتحادث في همس، وثالثهم حاضر ولكنهما يتعمدان إخفاء الحديث عنه، والتقدير: لا يتناجى اثنان دون الثالث،وهذا المطلب لا بد من تحققه لأن أداة الشرط "إذا"، تفيد التحقق.

وفعل الشرط: "كانوا"، فيه إشارة إلى هؤلاء الثلاثة من غير تخصيص، والفاعل هنا: "واو الجماعة"، ضمير رفع متصل، يعني العموم واستمرار هذا النهي عن هذا السلوك الذي يفسد العلاقات السوية بين أفراد المجتمع.

---

(١) قوله: (ذلك) ليست عند مسلم في هذه الرواية، وإنما عند برقم (٢١٨٤/٣٨) بلفظ: ((فإنَّ ذلك يحزنه)).

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٩٠)، ومسلم (٢١٨٤/٣٧) واللفظ له.

وفي الحديث بلاغة الحذف: لأن التقدير: إذا كان المجتمعون ثلاثة أشخاص من المسلمين، وغير المسلمين مطالبون بذلك لأن هذا سلوك إنساني، وانضباط اجتماعي.

والمسلمون أولى من غيرهم في الحرص على عدم إيذاء الآخرين شعوريًا ونفسيًا واجتماعيًا.

وفي اللغة: النجوى والنجيّ: السر، والنجو: السر بين اثنين، يقال: نجوته نجْوًا: أي ساررته، وقال أبو إسحاق: معنى النجوى في الكلام: ما يفرد به الجماعة والاثنان سرًّا كان أو ظاهرًا، وجواب الشرط في الحديث يؤكد النهي عن مناجاة اثنين دون الثالث حيث يقترن جواب الشرط بالفاء لأنه فعل طلبي منهي عنه، حيث يقول رسول الله ﷺ في صيغة النهي الصريح: "فلا يتناجى اثنان دون الثالث".

اللهم ارزقنا محبتك ومحبة رسولك نبينا محمد ﷺ واجعلنا اللهم مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء.

المضامين الدعوية[1]

---

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية بالتوجيه:

هذا ما يستنبط من أحاديث الباب، حيث ربى النبي ﷺ المسلمين على أدب النجوى في عدم تسارّ اثنين إن كان المجلس يضم ثلاثة، وقد تجلى في أحاديث الباب أن التوجيه قد سبقه موقف دعا إليه، وذلك في قول عبدالله بن دينار: «كُنْتُ أَنَا وَابْنُ عُمَرَ عِنْدَ دَارِ خَالِدِ بْنِ عُقْبَةَ الَّتِي فِي السُّوقِ ... إلخ».

لذا وجب على دعاة التربية والتوجيه اختيار المواقف واغتنام فرصها والأوقات المناسبة للتوجيه حتى تسهل العملية التربوية، مما يساعد على تحقيق الأهداف وغرس الفضائل، فإذا ظهر موقف خاطئ من شخص ووُضح له ما وقع فيه من خطأ، وفي نفس الوقت وجه التوجيه الإيجابي الحسن الذي كان المفروض أن يسلكه؛ فإن لذلك وقع على النفس وتأثير في السلوك، لأنه يرى النتائج أمامه ويعيشها في نفس اللحظة، وهذا ما يذهب إليه المهتمون بالتربية[1]، وبالمثال يتضح المقال: فعن كلدة بن حنبل: «أن صفوان بن أمية بعثه إلى النبي ﷺ في الفتح بلبن وجداية وضغابيس قال أبو عاصم: "يعني البقل"، والنبي ﷺ بأعلى الوادي، ولم أسلم ولم أستأذن، فقال ارجع، فقل: السلام عليكم أأدخل؟ وذلك بعد ما أسلم صفوان»[2].

فهذا التوجيه النبوي كان مع وقوع الحدث؛ مما يُثْبت ذلك النصح في ذهن المنصوح، وبالتالي ينشأ على تلك الخصائص الحميدة؛ التي وجِّه إليها، خاصة وأنها ارتبطت بموقف معين، ...، لذا كان اغتنام المواقف في التوجيه التربوي من أفضل طرقها وأساليبها، وأظهرها، لأنها تعالج خللاً في الحال، وصورته لازالت عالقة في الذهن، ونتائجه ظاهره، أو سوف تظهر فيما بعد، وكثير ما يغفل الإنسان ولا يدرك فداحة الأمر إلا بعد فواته، فهذا الأساس مما ينبغي ملاحظته واغتنام فرصته[3].

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ٢٧٨.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، ١٠٨١، وصححه الألباني (صحيح الأدب المفرد، ٨٢٥).

(٣) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ٢٧٩. وأصول التربية الإسلامية، محمد شحات الخطيب، ٢٧٨.

ثانيًا: التربية على مراعاة شعور الآخرين:

اهتمت التربية الإسلامية اهتمامًا كبيرًا بتربية المؤمن على مراعاة شعور الآخرين والعمل على عدم إيذائها، ومن الشواهد على ذلك من أحاديث الباب قوله ﷺ: «إِذَا كُنْتُمْ ثَلاَثَةً فَلاَ يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الآخَرِ. حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ. مِنْ أَجْلِ ذلك أَنْ يُحْزِنَهُ».

وهذا دليل على تميز التربية الإسلامية في التعامل مع الآخرين ومراعاة شعورهم وكرامتهم وعدم جرحها بأي سلوك من السلوكيات المشينة التي تنم عن عدم التخلق بأخلاق الإسلام.

فالأصل في المؤمن أن يكون مرهف الحس يقظ المشاعر تجاه إخوانه، فلا يقع منه ما يكدر إحساسهم، أو يغيظ قلوبهم وقد راعى النبي ﷺ في ذلك مشاعر أصحابه حتى رسم ﷺ أبلغ وأرقى ما يجب أن تتربى عليه الناشئة.

فعن الصعب بن جثامة الليثي، أنه أهدى إلى رسول الله ﷺ حمارًا وحشيًا وهو بالأبواء (أو بودّان) فرده عليه رسول الله ﷺ قال: فلما رأى رسول الله ﷺ ما في وجهي قال: «إِنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكَ إِلاَّ أَنَّا حُرُمٌ»[1].

قال النووي: "وفي الحديث أنه يستحب لمن امتنع من قبول هدية ونحوها لعذر أن يعتذر بذلك إلى المهدى تطييبًا لقلبه"[2].

لذا وجب على المربين غرس قيمة مراعاة شعور الآخرين في نفوس المتربين، فلا يتسارّ اثنان إن كان المجلس يضم ثلاثة مراعاة لشعور الثالث حتى لا يحزن.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه البخاري، ١٨٢٥، ومسلم، ١١٩٣.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي، ٧٤٤.

٢٨٢- باب النهي عن تعذيب العبد والدابة

والمرأة والولد بغير سبب شرعي أو زائد على قدر الأدب

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَبِالوَالِدَيْنِ إحْسانًا وَبِذِي القُرْبَى واليَتَامَى وَالمَسَاكِينِ وَالجَارِ ذِي القُرْبَى وَالجَارِ الجُنُبِ والصَّاحِبِ بالجَنْبِ وابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ إنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتالاً فَخُورًا﴾[النساء الآية: ٣٦].

الحديث رقم (١٦٠٢)

١٦٠٢ - وعن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أنَّ رسول الله، قَالَ: ((عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لاَ هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا، إذْ حَبَسَتْهَا، وَلاَ هِيَ تَرَكَتْهَا تَأكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ)). متفق عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

هرة: قطة[2].

خَشاش الأرضُ: هوامّها، وحشراتها[3].

الشرح الأدبي

إن الإسلام دين الرحمة والعطف والمحبة، والمسلم الحق يتأمل دائمًا مظاهر قدرة الله عز وجل، وكل ما خلق الله من كائنات يجب أن يرتبط بها المسلم، وأن يتأمل أحوالها، وان يكون رفيقًا بها، إذا كانت لا تلحق به الأذى، وهذا الحديث الشريف شاهد على هذه الدعوة إلى الرفق بالحيوان، وإلى انتزاع القسوة من قلب الإنسان، حيث

(١) أخرجه البخاري (٣٤٨٢)، ومسلم (٢٢٤٢/١٥١) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٣٣٥٥).

(٢) المعجم الوسيط، محمع اللغة العربية في (هـ ر ر).

(٣) رياض الصالحين، النووي ٥٥٤.

يبدأ الحديث بقوله: "عذبت امرأة"، وبناء الفعل للمجهول يدل على أن العذاب ليس له إلا مصدر واحد، وهو الله عز وجل، فالفاعل حذف للعلم به، وصيغة النكرة في قوله: "امرأة"، لإفادة أن المقصود ليس امرأة محدودة، ولكن المطلوب هو النهي عن هذا السلوك القاسي، والنهي عن تعذيب العبد والدابة والمرأة والولد بغير سبب شرعي، أو زائد على قدر الأدب.

وقوله: "في هرة": يفيد السببية أي بسبب هرة، ولكن التعبير بـ"في" أبلغ: لأنها تفيد الظرفية، كأن المرأة غرقت في هذا الجرم، وقوله: "حتى ماتت" يومئ إلى قسوة هذه المرأة لأن الهرة حبست مدة طويلة.. والمرأة لا ترق لها، والعطف بالفاء في قوله.. "فدخلت فيها النار" يرشد إلى سرعة العقاب الإلهي الذي يلحق بهذه المرأة وأمثالها، والتعبير بالفعل الماضي هنا، يفصح عن أن هذا التعذيب واقع بالفعل، لأن هذا هو حكم الله، وأمر الله نافذ لا محالة، وتكرار قوله "فيها" الذي يفيد السببية لمزيد من التأكيد على شناعة هذا الجرم المخالف للطبيعة الإنسانية السوية.

ولنتأمل هذا التكرار كذلك في قوله: "لا هي"، "ولا هي"، وهو صيغة أسلوبية لمزيد من التأثير في نفوس المسلمين، ولمزيد من تحديد الأسباب التي من أجلها وقع العذاب، وكذلك لتأكيد الجرم الذي ارتكبته المرأة، وهو منسوب إليها.

ولنتأمل كذلك الإيقاع الصوتي المؤثر في هذه الأفعال المتوالية التي تثبت وقائع هذه القسوة الظالمة "ولا هي أطعمتها وسقتها، حبستها، تركتها"، وهذا التوافق الصوتي المؤثر نشأ من الجمع بين "تاء" التأنيث التي تدل على "المرأة" القاسية، وضمير الغائب الدال على "الهرة" المعذبة حيث تكرر هذا الإيقاع وذلك التوافق: خمس مرات في الحديث الشريف، وذلك لتأكيد العذاب، وإقامة الحجة على هذه المرأة، وقوله: خشاش الأرض: أي: هوامها وحشراتها؛ وصدق الله العظيم إذ يقول مخاطبًا رحمته المهداة، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

المضامين الدعوية[1]

أولاً: من موضوعات الدعوة: الرفق والرحمة بالحيوان.

ثانيًا: من مهام الداعية: إنكار المنكر.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الرفق والرحمة بالحيوان:

حيث جاء في الحديث "عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار" وقوله: "لعن رسول الله من اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا" وقوله "نهى رسول الله ﷺ أن تصبر البهائم" ومما لا شك أن الشريعة الإسلامية جاءت بالرحمة لكل شيء حتى الحيوان. قال النووي: (وفي الحديث دليل لتحريم قتل الهرة وتحريم حبسها بغير طعام أو شراب، وأما دخولها النار بسببها فظاهر الحديث أنها كانت مسلمة ودخلت النار بسبب الهرة)[2]. (إن الرحمة لدى المسلم لا تقتصر على أهله وذوي أرحامه، ولا على إخوانه في دينه من المؤمنين، ولا على جنسه من البشر، بل تتعدى ذلك كله لتشمل جميع خلق الله حتى الحيوان)[3]. هذا وقد دلت توجيهات السنة النبوية على أهمية الرحمة والرفق بالحيوان، فعن سهل بن الحنظلية قال: ((مَرَّ رَسُولُ اللَّه ﷺ بِبَعِيرٍ قَدْ لَحِقَ ظَهْرُهُ بِبَطْنِهِ فقَالَ اتَّقُوا اللَّه فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ الْمُعْجَمَةِ فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً وَكُلُوهَا صَالِحَةً))[4]. قال شرف الحق العظيم آبادي: (والمعنى خافوا الله في هذه البهائم التي لا تتكلم فتسأل ما بها من الجوع والعطش والتعب والمشقة، وكلوها صالحة أي حال كونها صالحة للأكل أي سمينة)[5].

---

(١) تم دمج المضامين لهذا الحديث -١٦٠٢- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٠٣، ١٦٠٤).

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ١٣٩٧.

(٣) أخلاقنا، د. محمد ربيع جوهري، ١٣٧.

(٤) أخرجه أبو داود ٢٥٤٨، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود، ٢٢٢١).

(٥) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١١٠٤.

وعن عبدالله بن جعفر قال: ((أردفني رسول الله ﷺ خلفه ذات يوم، فأسرَّ إليَّ حديثًا لا أُحدِّث به أحدًا من الناس، وكان أحبُّ ما استتَر به رسول الله ﷺ لحاجته هدفًا أو حائش نَخلٍ، قال: فدخل حائطًا لرجل من الأنصار، فإذا جمل، فلما رأى النبي ﷺ حَنَّ وذَرَفَت عيناه، فأتاه النبيُّ ﷺ فمسح ذِفْراه فسكت، فقال: من ربُّ هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟ فجاء فتى من الأنصار، فقال: لي يا رسول الله، قال: أفلا تتقي اللهَ في هذه البهيمة التي ملَّكك الله إياها؟ فإنه شكا إليَّ أنك تُجيعه وتُدْئِبُه))[1].

وعن عبدالرحمن بن عبدالله عن أبيه قال: ((كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ فانْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ، فَرَأَيْنَا حُمَّرَةً مَعَهَا فَرْخَانِ فأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا فَجَاءَتْ الْحُمَّرَةُ فَجَعَلَتْ تَفْرُشُ[2] فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فقَالَ: مَنْ فَجَّعَ هذِهِ بِوَلَدِهَا، رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا))[3].

قال محمد الغزالي: (ومن الرحمة المطلوبة الرفق بالحيوان. رأى عمر ؓ رجلاً يسحب شاة برجلها ليذبحها، فقال: ويلك قدها إلى الموت قودًا جميلاً.

والإسلام شديد المؤاخذة لمن تقسوا قلوبهم على الحيوان ويستهينون بآلامه، وقد بين أن الإنسان على عظم قدره يدخل النار في إساءة يرتكبها مع دابة عجماء.

قال رسول الله ﷺ: ((دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض))[4].

كما بين أن كبائر المعاصي تمحوها نزعة رحمة تغمر القلب، ولو بإزاء كلب!

قال رسول الله ﷺ: ((بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئرًا فنزل فيها فشرب ثم خرج، وإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش. فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني! فنزل البئر فملأ خفه ماء، ثم

---

(١) أخرجه أبو داود ٢٥٤٩، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٢٢٢).

(٢) يقال: فرش: فرش الطائر جناحيه: رفرف بهما ويسطهما. انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية مادة: فرش.

(٣) أخرجه أبو داود ٢٦٧٥، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٣٢٩).

(٤) أخرجه البخاري ٣٣١٨، ومسلم ٢٢٤٢.

أمسكه بفيه حتى رقي فسقي الكلب، فشكر الله تعالى له فغفر له، قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم لأجرًا؟ قال: وفي كل كبد رطبة أجر))[١].

وفي رواية: ((أن امرأة بغيًا رأت كلبًا في يوم حار يطيف ببئر، قدأدلع لسانه من العطش، فنزعت له موقها فغفر لها به))[٢].

لئن كانت الرحمة بكلب تغفر ذنوب البغايا، فإن الرحم بالبشر تصنع العجائب[٣].

ويعلق محمد عبدالعزيز الخولي على أحاديث الرحمة بالحيوان والرفق به فيقول: (يقص علينا رسول الله ﷺ قصة رجل مؤمن كان يمشي بطريق أو بادية فعطش عطشًا شديدًا فنزل بئرًا شرب منها حتى روي، ثم خرج منها فإذا به يجد كلبًا قد أخرجه لسانه من شدة الظمأ يلحس به الأرض الندية لعلَّ في رطوبتها ما يقلِّل من حرارة العطش.

فقال في نفسه أو بلسانه: لقد بلغ هذا الحيوان الدرجة التي بلغتها في العطش، وآلمه منه ما آلمني، فنزل إلى البئر ثانية وملأ خفه بالماء، وأمسكه بفمه لتخلص له يداه ويمسك بهما في جدران البئر عند الصعود ثم صعد فسقى الكلب من خفه. فشكر الله هذا الصنيع. وما شُكره إلا عفوه عن ذنوبه السالفة. بل من شُكْره المنَّ بنعمه على المحسنين من عباده.

فسأل الحاضرون رسول الله ﷺ: هل لنا في البهائم إذا دفعنا عنها الأذى، وأحسنًا إليها أجر وثواب؟ فقال النبي ﷺ: "في كل كبد رطبة أجر"، وهذه الجملة تعم كل حيوان من كلب أو قط أو جمل أو بقرة أو شاة... إلخ، وتشمل دفع أنواع الأذى عنه من عطش، أو جوع أو مرض أوحر، أو برد، أو حمل ثقيل، أو عمل شديد، أو غير ذلك مما يتأذى به الحيوان، وتشمل إيصال ضروب النفع له من تقديم الطعام والشراب والسكن له وإزالة الدرن عن جسمه. بل الكبد الرطبة تشمل الإنسان والحيوان، فكل عمل تعمله تزيل به ضرًا، أو تجلب به نفعًا لإنسان أو حيوان لك أجر فيه.

---

(١) أخرجه البخاري ١٧٣، ومسلم ٢٢٤٤.

(٢) أخرجه البخاري ٣٤٦٧، ومسلم ٢٢٤٥.

(٣) خلق المسلم ٢١١، ٢١٢.

ولا تستكثر الشكر من الله والمغفرة لهذا الذي أنقذ الكلب من ظمئه، فإنه نزل البئر له خاصة ليسقيه، وملأ خفه بالماء. وذلك مما يضر بجلده، وأمسكه بفمه وذلك مما يعافه المتكبرون. وعانى ما عانى من النزول والصعود مثل ما عاني لنفسه، كل ذلك تجشمه في سبيل رأفته بالحيوان الظمآن، وهل ترى نفسًا تبلغ منها الرحمة بالحيوان هذا المبلغ لا تكون رحمتها بالناس أشد؟ إن هذا العمل ليدلُّ على شعور راقٍ. ورحمة فياضة سكنت تلك النفس العالية. فكانت لا ريب خليقة بهذا الجزاء. والراحمون يرحمهم الرحمن، ولعلك عرفت من هذا الحديث تربية الشدائد للنفوس. وأنها تدعوها للخير، وتلفتها إلى مثل ما حل بها. فتعمل على دفعه كما عملت لنفسه. ومن ذاق الآلام المريرة شعر بآلام الناس. وتلك حكمة من حكم الصيام أنه يزكي في الناس الشعور بحال البائسين فيمدون أيديهم بالإحسان إليهم.

فالحديث يحث على الرأفة بالحيوان ودفع الضر عنه، ويحبذ النصب في سبيله ويعظم الأجر على ذلك. وهذا الحديث أصل في إنشاء جمعيات الرفق بالحيوان. ويشكر للذين يقيمون حياضًا في الطرق ليشرب منها الحيوان.

يذكر الرسول ﷺ أن امرأة حبست هرة في حجرة أو ربطتها حتى ماتت جوعًا، فلا هي قدمت لها طعامًا وشرابًا، ولا هي أطلقتها تأكل من هوام الأرض وحشراتها فعذبها الله لذلك.

وفي هذا دلالة واضحة على أن تعذيب الحيوان بلا سبب معصية تستوجب العقاب، وكذلك قتله إذا لم يكن مؤذيًا. وهذا يدخل في عموم قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[1]، وفيه إشارة إلى جواز اتخاذ الهرة وربطها إذا لم يهمل طعامها وشرابها.

ولا يدل الحديث على إحباط عمل صالح، إن كان لهذه المرأة بإماتتها الهرة جوعًا، بل لكل حسنة ثوابها، ولكل جريمة عقابها، فإن كان لها من الحسنات ما يغمر

---

(١) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧، ٨.

الجريمة شملها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[١]، وإذا كان هذا جزاء من يعذب الحيوان الأعجم، فما بالك بمن يصب على الناس وابلاً من شروره وآثامه، بل ما ظنك بمن يؤذي إخوانه الذين تربطه بهم رابطة الدين أو القرابة أو المصاهرة أو الجوار أو الاتحاد في العمل أو غيرها من الروابط؟

فالحديث يتوعد بالعذاب الشديد من يؤذي الحيوان، ويوجب علينا الإنفاق عليه أو تركه يسعى في رزقه[٢].

وقال د. يوسف القرضاوي: (والرحمة تتجاوز الإنسان الناطق إلى الحيوان الأعجم، فالمؤمن يرحمه ويتقي الله فيه، ويعلم أنه مسؤول أمام ربه عن هذه العجماوات. وقد أعلن النبي ﷺ لأصحابه أن الجنة فتحت أبوابها لبغي سقت كلبًا فغفر الله لها. وأن النار فتحت أبوابها لامرأة حبست هرة حتى ماتت، فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض. فإذا كان هذا عقاب من حبس هرة بغير ذنب، فماذا يكون عقاب الذين يحبسون عشرات الألوف من بني الإنسان بغير حق إلا أن يقولوا: ربنا الله؟!

ويروي المؤرخون أن عمرو بن العاص في فتح مصر نزلت حمامة بفسطاطه - خيمته - فاتخذت من أعلاه عشًا، وحين أراد عمرو الرحيل رآها، فلم يشأ أن يهيجها بتقويضه، فتركه وتكاثر العمران من حوله، فكانت مدينة "الفسطاط".

ويروي ابن الحكم في سيرة الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز أنه نهى عن ركض الفرس إلا لحاجة. وأنه كتب إلى صاحب السكك: أن لا يحملوا أحدًا بلجام ثقيل، ولا ينخس بمقرعة في أسفلها حديدة. وكتب إلى واليه بمصر: أنه بلغني أن بمصر إبلاً نقالات يحمل على البعير منها ألف رطل، فإذا أتاك كتابي هذا، فلا أعرفن أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل.

هذه الرحمة الدافقة الشاملة أثر من آثار الإيمان بالله والآخرة، ذلك الإيمان الذي يرقق بنفحاته القلوب الغليظة، ويلين الأفئدة القاسية.

---

(١) سورة هود، آية: ١١٤.

(٢) الأدب النبوي ٤١-٤٣.

أرأيت إلى عمر -وقد كان معروفًا بالشدة والقسوة في جاهليته- كيف صنع الإيمان به، ففجر ينابيع الرحمة والرقة في قلبه. لقد قالوا: وأد بنتًا له في الجاهلية، فلما ولي إمارة المؤمنين كان يرى نفسه مسؤولاً أمام الله عن بغلة تعثر بأقصى البلدان.

كما برز أثر ذلك الخلق العظيم في العلاقات الاجتماعية الداخلية، فرأينا المجتمع المسلم تسوده عواطف كريمة، ومشاعر نبيلة، كلها تفيض بالرفق والمرحمة، وتتدفق بالبر والخير، وتجلت هذه المشاعر والعواطف فيما عرف بنظام "الوقف الخيري" عند المسلمين.

فقد أوقف المواسون من المؤمنين -بدافع الرحمة التي قذفها الإيمان في قلوبهم، والرغبة في مثوبة الله لهم، وألا ينقطع عملهم بعد موتهم- أموالهم كلها أو بعضها على إطعام الجائع، وسقاية الظمآن، وكسوة العريان وإيواء الغريب، وعلاج المريض، وتعليم الجاهل، ودفن الميت، وكفالة اليتيم، وإعانة المحروم، وعلى كل غرض إنساني شريف، بل لقد أشركوا في برهم الحيوان مع الإنسان.

ولقد تأخذ أحدنا الدهشة وهو يستعرض حجج الواقفين ليرى القوم في نبل نفوسهم، ويقظة ضمائرهم، وعلو إنسانيتهم، بل سلطان دينهم عليهم، وهم يتخيرون الأغراض الشريفة التي يقفون لها أموالهم، ويرجون أن تنفق في سبيل تحقيقها هذه الأموال.

وربما استشرفت النفوس إلى أمثلة من هذاالبر يعين ذكرها على تفصيل هذا الإجمال، فإلى هذه النفوس المستشرفة أسوق هذه الأمثلة:

وقف الزبادي: وقف تشتري منه صحاف الخزف الصيني، فكل خادم كسرت آنيته، وتعرض لغضب مخدومه، له أن يذهب إلى إدارة الوقف فيترك الإناء المكسور، ويأخذ إناء صحيحًا بدلاً منه، وبهذا ينجو من غضب مخدومه عليه.

وقف الكلاب الضالة: وقف في عدة جهات ينفق من ريعه على إطعام الكلاب التي ليس لها صاحب استنقاذًا لها من عذاب الجوع، حتى تستريح بالموت او الاقتناء.

وقف الأعراس: وقف لإعارة الحلى والزينة في الأعراس والأفراح، يستعير الفقراء منه ما يلزمهم في أفراحهم وأعراسهم، ثم يعيدون ما استعاروه إلى مكانه. وبهذا يتيسر

للفقير أن يبرز يوم عرسه بحلة لائقة، ولعروسه أن تجلى في حلة رائقة، حتى يكتمل الشعور بالفرح، وتتجبر الخواطر المكسورة)[١].

ثانيًا- من مهام الداعية: إنكار المنكر:

حيث جاء في الحديث "فقال ابن عمر: من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا إن رسول الله ﷺ لعن من اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا" قال الإمام النووي: (والمعنى لا تتخذوا الحيوان الحي غرضًا ترمون إليه، وهذا النهي للتحريم، لأنه تعذيب للحيوان وإتلاف لنفسه وتضييع لماليته، وتفويت لذكاته إن كان مذكى، ولمنفعته إن لم يكن مذكى)[٢]. هذا ومن فقه الداعية أن ينهى عن المنكر إذا رآه كما فعل ابن عمر رضي الله عنهما قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٣] وقال ﷺ: ((مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ. وَذَٰلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ))[٤]. قال الإمام ابن رجب: (من شهد الخطيئة فكرهها بقلبه، كان كمن لم يشهدها إذا عجز عن إنكارها بلسانه ويده، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها وقدر على إنكارها ولم ينكرها، لأن الرضا بالخطيئة من أقبح المحرمات، ويفوت به إنكار الخطيئة بالقلب، وهو فرض على كل مسلم لا يسقط عن أحد في حال من الأحوال)[٥].

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

حيث جاء في الحديث "عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار" وقوله "إن رسول الله لعن من اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا" وأسلوب الترهيب من أساليب الدعوة التي تردع المدعو عن ارتكاب المخالفات الشرعية (والترهيب هو كل ما يخيف

---

(١) الإيمان والحياة ٢٨٩-٢٩٢ بتصرف.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ١٢٤٣.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٤) أخرجه مسلم ٤٩.

(٥) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢/٢٤٥.

المدعو ويحذره من عدم الاستجابة أو رفض الحق أو عدم الثبات عليه بعد قبوله ويكون الترهيب بالتخويف من غضب الله وعذابه في الآخرة)[١]. ومن صور استعمال القرآن لأسلوب الترهيب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾[٢] وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾[٣].

(١) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ٤٣٧.

(٢) سورة النساء، آية: ١٤٥.

(٣) سورة الزخرف، الآيتان: ٧٤، ٧٥.

الحديث رقم (١٦٠٣)

١٦٠٣ - وَعَنْهُ: أنَّهُ مَرَّ بِفِتْيَانٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَدْ نَصَبُوا طَيرًا وَهُمْ يَرْمُونَهُ، وَقَدْ جَعَلُوا لِصَاحِبِ الطَّيْرِ كُلَّ خَاطِئَةٍ مِنْ نَبْلِهِمْ، فَلَمَّا رَأَوْا ابْنَ عُمَرَ تَفَرَّقُوا، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: مَنْ فَعَلَ هَذَا؟ لَعَنَ اللهُ مَنْ فَعَلَ هَذَا، إنَّ رسولَ الله ﷺ لَعَنَ مَنِ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا. متفق عَلَيْهِ[1]. "الغَرَضُ" بفتح الغين المعجمة والراء، وهو الهدف، والشيء الذي يرمي إليه.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

الغَرَضُ: الهدف والشيء الذي يُرمى إليه[2].

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث ينقل مشهدًا واقعيًا يجسد قسوة الإنسان في تعامله مع الطير والحيوان، وهذا المشهد جزء من سلوكيات وأخلاقيات الجاهلية، وجزء من عاداتهم ولهوهم، وترجمان على هذه القسوة التي غلفت قلوبهم وحجرت مشاعرهم، وبقيت أصداء من هذه السلوكيات والعادات الجاهلية سيطرت على عقول بعض فتيان قريش الذين شهدهم ابن عمر رضي الله عنهما وهم يرمون الطير بنبلهم، حيث اتخذوه وسيلة للعب واللهو والتدريب على الرمي، فأنكر عليهم ذلك، وهذا المشهد الواقعي اتسم في صياغته اللغوية، وفي أسلوبه بعدة مظاهر تعلن عن رفض هذا السلوك المخالف لفطرة الإنسان ولطبيعة الإيمان، فقوله: "قدْ نصبوا"، يفيد تأكيد الحديث: لأن قد للتأكيد والتحقيق، وقوله: "وهم يرمونه" جملة حالية، لإثبات هذا الفعل المؤذي، وإلحاقه بهؤلاء الفتية، وقوله "طيرًا" يفيد الجمع والإفراد: لأن الطير جمع طائر، ويمكن أن يكونوا

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥١٥)، ومسلم (بعد حديث رقم ١٩٥٨/٥٩، بدون رقم) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٣٣٥٠).

(٢) رياض الصالحين، النووي ٥٥٤.

قد نصبوا طيرًا أي عددًا كثيرًا وهذا أشنع وأقسى وتكرار "قد" يفيد إصرار هؤلاء الفتية على هذا السلوك الشائن، وقد هنا تؤكد مشاركة صاحب الطير في هذا المشهد القاسي الذي يعد من الكبائر.

ولنتأمل هذه الهيبة التي اتسم بها ابن عمر رضي الله عنهما: حيث كانت لا تأخذه في الله لومة لائم، وحينما رآه الفتيان تفرقوا.

والاستفهام في قوله: "من فعل هذا؟" توبيخ وتقريع لهؤلاء الفتيان الأغرار، وتكرار "هذا" في قوله "لعن الله من فعل هذا": مع الدعاء عليهم باللعن: جاء لمزيد من التقريع والتبكيت، حتى يرتدعوا: ويرتدع غيرهم والفعل: لعن: يفيد الطرد من رحمة الله: لأن اللعن هو الإبعاد، وقوله: "لعن الله من فعل هذا": أي: طرده الله من رحمته، لأنه لم يرحم هذا الطير الأخرس البريء.

وكرر هذا الوعيد بالعذاب والطرد من رحمة الله، وجاء هذا التكرار مصحوبًا بالتأكيد في نهاية الحديث حيث قال: "إن رسول الله ﷺ لعن من اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا". فعلى رسول الرحمة أفضل الصلاة وأزكى السلام.

فقه الحديث

تشير أحاديث الباب إلى عدة أحكام منها:

١- تحريم قتل أي حيوان صبرًا[(١)].

٢- حكم ضرب الوجه ووسمه: اتفق الفقهاء على حرمة الضرب في الوجه، والوسم في كل حيوان ولكنه في الآدمي أشد[(٢)]. واستدلوا بأحاديث الباب التي تنهى عن ذلك،

---

(١) بريقة محمودية ٢/٤، فتح الباري، ابن حجر ٧٧٢/٩، سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، محمد بن إسماعيل الصنعاني ١٥٦/٤، نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٨٨/٨.

(٢) درر الحكام شرح غرر الأحكام ٣١٩/١، بريقة محمودية ١٢٦/٤، الفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم بن مهنا النفراوي المصري ٣٤٥/٢، حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، علي بن أحمد الصعيدي ٤٩٦/٢، المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي ٢٤٩/٧، حاشيتا قليوبي وعميرة ٢٠٤/٣، المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٥٣/٦، مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، مصطفى السيوطي ٦٦٣/٥-٦٦٤، كشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٤٩٤/٥، شرح النووي على مسلم ٩٧/١٤، نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٨٩/٨.

ولأن الضرب في الوجه والوسم من أفعال الجاهلية[1].

٣- حكم الوسم في الوجه للمداواة: اتفق الفقهاء على جواز الوسم والكي في الوجه للمداواة، وأنه مستثنى من النهي للحاجة[2].

٤- حكم وسم البهائم في غير الوجه: ذهب جمهور الفقهاء إلى جواز وسم البهائم في غير الوجه كالأعناق والأفخاذ. وذهب أبو حنيفة إلى كراهة ذلك لأنه تعذيب للحيوان وهو منهي عنه[3].

والراجح هو رأي جمهور الفقهاء.

٥- النهي عن جعل الحيوان هدفًا يرمى إليه والنهي يقتضي التحريم[4].

٦- تحريم تعذيب الحيوان الآدمي وغيره[5].

٧- الرفق بالمماليك وحسن صحبتهم وكف الأذى عنهم[6].

٨- أجمع المسلمون على أنه يستحب للسيد إذا ضرب عبده أن يعتقه رجاء كفارة ذنبه[7].

المضامين الدعوية[8]

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٥٣/٦.

(٢) غرر الحكام ٣١٩/١، حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، علي بن أحمد الصعيدي ٤٩٦/٢، المجموع شرح المذهب ١٥٤/٦-١٥٥، شرح منتهى الإرادات، منصور بن يوسف البهوتي ٢٤٨/٣، كشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٤٩٤/٥.

(٣) المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي ٢٤٩/٧، الفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم بن مهنا النفراوي المصري ٣٤٥/٢، حاشيتا قليوبي وعميرة ٢٠٤/٣، المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٥٣/٦، شرح منتهى الإرادات، منصور بن يوسف البهوتي ٢٤٨/٣، الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعمر القيام ١٤١/٣- ١٤٢، شرح صحيح مسلم، النووي ٩٧/١٤.

(٤) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، محمد بن إسماعيل الصنعاني ١٥٣/٤.

(٥) فتح الباري، ابن حجر ٧٧٣/٩.

(٦) شرح صحيح ١٣٧/١١.

(٧) شرح صحيح مسلم، النووي ١٣٧/١١.

(٨) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٦٠٤)

١٦٠٤ - وعن أنس ﷺ قَالَ: نهى رسُولُ الله ﷺ أن تُصْبَرَ البَهَائِمُ. متفق عَلَيْهِ[١].

ومعناه: تُحْبَسُ للقتل.

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

ما أرق قلب رسول الله ﷺ، وما أجمل شمائله، وما أحسن صفاته، وتاج هذه الشمائل وأم تلك الصفات والسجايا، يتضوأ في آفاق الرحمة التي جعلها الله هدية للعالمين، ومنارًا للقاصدين، وعنوانًا للعارفين، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[٢].

وهذا الحديث برهان ساطع على ذلك السلوك الإسلامي الرشيد، فالراوي: أنس بن مالك يقول في صيغة حاسمة: "نهى رسول الله ﷺ: أن تصبر البهائم".

والفعل: نهى يفيد التحريم استجابة لقول الله عز وجل: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[٣].

وقوله: أن تصبر البهائم، أي: تحبس للقتل، وقيل معناه كما قال العلقمي: "هو أن يمسك الحي ثم يُرمى بشيء حتى يموت".

وحين نتأمل مدلول "الصبر" في اللغة ندرك عظمة البيان النبوي، فمعنى "صبره" أي: حبسه.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥١٣)، ومسلم (١٩٥٦/٥٨) واللفظ له.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ١٠٧.

(٣) سورة الحشر، آية: ٧.

ومن مشتقات هذه المادة ما يفيد القسوة والغلظة، "فالصبرة" الحجارة الغليظة المجتمعة، وكأن هذا الفعل الذي فيه: تصبر البهائم حتى تموت. أقسى من الحجارة أو أشد قسوة وقيل أم صبَّار وأم صبور أي: الحرّ، والداهية، والحرب الشديدة، وكلها دلالات تجسد القسوة والعنف وعدم الرحمة، وهذا ما نهى عنه رسول الله ﷺ في سياق هذا الحديث الشريف.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مضامين الحديث رقم (١٦٠٢).

الحديث رقم (١٦٠٥)

١٦٠٥ - وعن أَبي عليٍّ سويدِ بن مُقَرِّنٍ ﵁ قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مِنْ بَنِي مُقَرِّنٍ مَا لَنَا خَادِمٌ إِلاَّ وَاحِدَةٌ لَطَمَهَا أَصْغَرُنَا فَأَمَرَنَا رسولُ الله ﷺ أَنْ نُعْتِقَهَا. رواه مسلم[1].

وفي روايةٍ[2]: ((سَابِعَ إِخْوَةٍ لِي)).

ترجمة الراوي:

ابو علي سويد بن مقرن: هو سُوَيْد بن مُقَرِّن بن عائذ المُزَني، يكنى أبا عائذ، ويقال: أبو عديٍّ، ويقال: أبو عمرو.

روى عن النبي ﷺ وروى حديثه مسلم وأصحاب السنن ويقال إنه نزل الكوفة[3].

غريب الألفاظ:

لطمها: ضرب خَدَّها[4].

الشرح الأدبي

إن صحابة رسول الله ﷺ، كالنجوم في الهداية، بأيهم اقتديتم اهتديتم، كما يقول المصطفى ﷺ ومن أجل الصفات التي وصف محمد رسول الله والذين معه أنهم رحماء بينهم أشداء على الكفار، تراهم ركعًا سجدًا.

---

(١) برقم (١٦٥٨/٣٢).

(٢) برقم (١٦٥٨/٣٣).

(٣) الطبقات الكبرى، ابن سعد (١٩/٦)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (٣١٧)، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٦٠٠/٢، ٦٠١)، الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (٥٦٢)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٣٤٢/٣)، السندي (٤٧٢/٢٤).

(٤) لسان العرب، ابن منظور في (ل ط م).

وهذا الحديث الشريف برهان صادق على رسوخ صفة الرحمة في قلوب المسلمين، والحديث على لسان أبي علي سويد بن مقرن رضي الله عنه اتباعًا لأمر رسول الله ﷺ.

ويبدأ الحديث بالتأكيد الذي يشعر بالقسم، وذلك في قوله: "لقد" أي والله لقد، وهذا التأكيد لإثبات هذه الحالة التي وقعت، وهي لطم الجارية، وبسبب هذه القسوة أمر رسول الله أن تعتق هذه الجارية عوضًا لها عما لحقها من أذى، إن هذه هي صورة الإسلام في أجل مظاهرها رحمة وبرًا، وتكافلاً ومساواة، وإخاءًا وتعاونًا، ورفقًا ومحبة.

وقوله "رأيتني" يفيد دلالتين، فرأى هنا إما بمعنى علم، أو بمعنى أبصر: فهي إما علمية أو بصرية.

وكلا الدلالتين يفيد تأكيد الخبر، وإقرار الواقع المثير للتأمل والتساؤل: فهم سبعة، وليس لهم خادم إلا واحدة، والمسكوت عنه في هذا الإقرار الذي جاء في أسلوب القصر للتحديد والحصر، هو أن هذه "الجارية" تخدم سبعة أشخاص، وليس شخصًا واحدًا.

فهي تتحمل المشاق، وتقوم على خدمتهم خير قيام، ومع ذلك تجازى جزاء به قسوة، ويلطمها أصغرهم، فإذا برسول الله "الرحمة المهداة" يعاقب هؤلاء السبعة رغم أنهم كلهم من الصحابة المهاجرين ولم يشاركهم أحد في مجموع ذلك، كما قاله ابن عبدالبر وغيره، وبرغم ذلك يعاقبهم رسول الله ﷺ، فيأمرهم بعتق الجارية وقوله: "فأمرنا" يفيد الإلزام والوجوب، وتنفيذ الأمر، ليكون إعتاق الجارية كفارة لضربها، وقيل فيه غلظ تعذيب المملوك والاعتداء عليه.

إنها مكافأة من رسول الله لهذه الجارية التي أهانها أخو سويد بن مقرن.

وما أجمل قول الشاعر أحمد شوقي في إشادته بصفة الرحمة التي تحلى بها رسول الله ﷺ:

وإذا رحِمـت فأنـت أُمٌّ، أو أَبٌ   هـذان في الدنيا هما الرُّحماءُ[1]

(١) انظر: الشوقيات ٣٦/١.

المضامين الدعوية[١]

أولاً: من موضوعات الدعوة: أهمية الإحسان والرفق في معاملة المملوك والخدم.

ثانيًا: من واجبات الداعية: النصح والبيان.

ثالثًا: من آداب المدعو: الاستجابة لتوجيهات الشرع.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الشرط، والترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: أهمية الإحسان والرفق في معاملة المملوك والخدم:

يتضح هذا من مجمل الأحاديث، وهي تدل بمجموعها على أهمية وفضل الإحسان والرفق في معاملة المملوك والخدم، قال ابن علان: (وفي الأحاديث غلظ تعذيب المملوك والاعتداء عليه، وقوله في الحديث "فإن كفارته أن يعتقه" أي محو ذلك الإثم عنه بإعتاقه، قال القاضي عياض: أجمعوا على أن الإعتاق غير واجب وإنما هو مندوب، لكن أجر هذا الإعتاق لا يبلغ أجر الاعتاق شرعًا، وفي الحديث الرفق بالمماليك إذا لم يذنبوا، أما إذا أذنبوا فقد رخص ﷺ بتأديبهم بقدر إثمهم، ومتى زادوا يؤاخذوا بقدر الزيادة)[٢].

ولقد كان من هدي النبي ﷺ أن يحسن معاملة الخدم، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ((خَدمتُ النبيَّ ﷺ عشر سنينَ، فما قال لي أُفّ، ولا: لمَ صَنعتَ؟ ولا ألا صنعت))[٣] قال السعدي: (لقد أوصى الله ورسوله بالمماليك من الآدميين، وأن يقام بكفايتهم ومصالحهم، وأن لا يكلفوا من العمل ما لا يطيقون، ففي هذا رحمة للمماليك، ورحمة للملاك والسادة وذلك من وجهين:

أحدهما: أن الملاك إذا احتسبوا في نفقاتهم على ما يملكون، ونووا القيام بالواجب ورحمة المملوك، أثابهم الله وكفر به من سيئاتهم وزاد في حسناتهم، وأنزل لهم البركة في هذه المماليك فإن كل شيء دخلته النية الصالحة، والتقرب إلى الله، لابد أن تحل

---

(١) تم دمج المضامين لهذا الحديث -١٦٠٥- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٠٦، ١٦٠٧).

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٦٤٧، ١٦٤٨.

(٣) أخرجه البخاري ٦٠٣٨، ومسلم ٢٣٠٩.

فيه البركة، كما أن من أهمل مماليكه، وترك القيام بحقهم، استحق العقاب، ومن جملة مايعاقب به نزع البركة منها، فكما حبس وقطع رزق من يملكه، قطع الله عنه من الرزق جزاءً على عمله.

ثانيهما: أن قيامهم بما يملكون هو عين مصلحتهم، ونفعه عائد عليهم، فإنهم إذا قصروا عاد النقص والضرر الدنيوي على الملاك، ولكن المصلحة الدنيوية وخوف الضرر على أنفسهم ألجأتهم إلى ذلك رحمة من الله وجودًا وكرمًا)[1]. إن الإسلام حث على حسن معاملة الخدم؛ لأن الناس في الإسلام سواسية (لقد نهانا رسول الله ﷺ أن نكلف الخدم والعمال من الأعمال ما يشق عليهم، ويهد من قوتهم، أو يستفرغ جهدهم بل أمر بالتكليف بالسهل المستطاع الذي لا يسأمه الخادم، فإن كلفناهم بالشاق وجب علينا أن نعينهم بنفوسنا، أو بخدم إلى خدمنا، وفي هذا رفع لمستواهم وتنبيه لهم إلى حقوقهم قبل ساداتهم، وإرشاد لأرباب البيوت أن يقفو منهم موقف العدالة، ولا يتناسوا رابطة الأخوة، ولا تبادل المنافع)[2]. وما من شك في أن الخادم أو العامل قد تصدر منه بعض الهنات والزلات، وهنا يوجه الإسلام إلى ضرورة العفو والصفح والتجاوز.

(إن العفو والصفح ومقابلة الإساءة بالإحسان سبب لعلو المنزلة، ورفعة الدرجة، وفيه من الطمأنينة والسكينة، والحلاوة، وشرف النفس، وعزها، وترفعها عن تشفيها بالانتقام - ما ليس شيء منه في المقابلة والانتقام.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا))[3].

وقال عمر بن عبدالعزيز: (أحب الأمور إلى الله ثلاثة: العفو عند المقدرة، والقصد في الجدة، والرفق بالعبدة).

وعن داود بن الزبرقان قال: قال أيوب: لا ينبل الرجل حتى يكون فيه خصلتان: العفة عما في أيدي الناس، والتجاوز عنهم[4].

---

(١) الرياض الناضرة ٥٤، ٥٥.

(٢) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ٧٥، ٧٦.

(٣) أخرجه مسلم ٢٥٨٨.

(٤) روضة العقلاء ١٣١.

وقال الشافعي:

لما عفوت ولم أحقد على أحدٍ أرحت نفسي من ظلم العداوات[١]

ومن جميل ما يذكر في هذا قول المقنع الكندي:

وإن الذي بيني وبين أبي وبين بني عمي لمختلف جدا

إذا قدحوا لي نار حربٍ بزَنْدهِم قدحت لهم في كل مكرمةٍ زندا

وإن أكلوا لحمي وَفَرْت لحومهم وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا

ولا أَحْمِلُ الحِقْدَ القديمَ عليهم وليس رئيسُ القوم من يحمل الحقدا[٢]

وعن عبدالملك أو قيس بن عبدالملك قال: (قام عمر بن عبدالعزيز إلى قائلته، وعرض له رجل بيده طومار[٣]، فظن القوم أنه يريد أمير المؤمنين، فخاف أن يحبس دونه، فرماه بالطومار، فالتفت عمر، فوقع في وجهه فشجَّه.

قال: فنظرت إلى الدماء تسيل على وجهه وهو قائم في الشمس، فلم يبرح حتى قرأ الطومار، وأمر له بحاجته، وخلّى سبيله)[٤].

وقال ابن القيم متحدثًا عن حسن الخلق والعفو، والإحسان إلى من أساء: (وما رأيت أحدًا أجمع لهذه الخصال من ابن تيمية.

وكان بعض أصحابه الأكابر يقول: وددت أني لأصحابي مثله لأعدائه.

وما رأيته يدعو على أحدٍ منهم قط، وكان يدعو لهم.

وجئت يومًا مبشرًا له بموت أكبر أعدائه، وأشدهم عداوة وأذى له - فنهرني، وتنكر لي، واسترجع، ثم قام من فوره إلى بيت أهله، فعزاهم، وقال: إني لكم مكانه، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه، ونحو هذا من الكلام.

---

(١) ديوان الشافعي ص ٨٢.

(٢) روضة العقلاء، ص ١٧٣-١٧٤، وانظر: بهجة المجالس ٢/٧٨٤-٧٨٥.

(٣) الطومار: صحيفة مطوية.

(٤) الكتاب الجامع ٢/٤٢٣-٤٢٤.

فَسُرُّوا به، ودعوا له، وعظموا هذه الحال منه، فرحمه الله ورضي عنه)[١].

فإذا كان الأمر كذلك فإنه يجدر بالعاقل -كما قال ابن حبان-: (توطين نفسه على لزوم العفو عن الناس كافة، وترك الخروج لمجازاة الإساءة؛ إذ لا سبب لتسكين الإساءة أحسن من الإحسان، ولا سبب لنماء الإساءة وتهييجها أشد من الاستعمال بمثلها)[٢].

وقد يظن ظانٌّ أن العفو عن المسيء، والإحسان إليه مع القدرة عليه موجب للذلة والمهانة، وأنه قد يجر إلى تطاول السفهاء.

وهذا خطأ؛ ذلك أن العفو والحلم لا يشتبه بالذلة بحال؛ فإن الذلة احتمال الأذى على وجه يذهب بالكرامة.

أما الحلم فهو إغضاء الرجل عن المكروه، حيث يزيده الإغضاء في أعين الناس رفعة ومهابة.

سياسة الحلم لا بطش يكدرها فهو المهيب ولا تخشى بوادره[٣]

فالعفوا إسقاط حقك جودًا، وكرمًا، وإحسانًا مع قدرتك على الانتقام، فتؤثر الترك؛ رغبة في الإحسان ومكارم الأخلاق.

بخلاف الذل؛ فإن صاحبه يترك الانتقام عجزًا، وخوفًا، ومهانة نفس، فهذا غير محمود، بل لعل المنتقم بالحق أحسنُ حالاً منه[٤].

ثانيًا- من واجبات الداعية: النصح والبيان:

حيث جاء في الحديث "اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام" وقوله "فأمر رسول الله ﷺ أن نعتقها" قال الشيخ ابن عثيمين: (وقد ذكر النبي ﷺ أبا مسعود أن الله أقدر عليه من قدرته على هذا العبد، وعندئذ سقطت العصا من يده

---

(١) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٣٢٨/٢- ٣٢٩.

(٢) روضة العقلاء ١٣١.

(٣) انظر: رسائل الإصلاح ١٨٦/١.

(٤) سوء الخلق مظاهره - أسبابه - علاجه، محمد بن إبراهيم الحمد، ١١٠-١١٢.

هيبة لرسول الله ﷺ ثم أعتق العبد، وهذا من حسن فهمه رضي الله عنه لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[١] فبدلاً من أنه أساء إلى هذا العبد أحسن إليه بالعتق، لهذا أرشد النبي ﷺ إلى هذا بأن من ضرب عبده أو لطمه، فإن كفارة ذلك أن يعتقه لأن الحسنات يذهبن السيئات)[٢]. ومن خلال هذا يتضح أن من أهم واجبات الداعية النصح للمدعو، وأن يبين له الأحكام والأمور، قال الله تعالى ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٣].

وقد دلت الأحاديث النبوية على فضل النصح والبيان، فعن جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال: ((بايَعْتُ رسولَ اللّهِ ﷺ على إقامِ الصلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، والنُصْحِ لِكلِّ مُسْلم))[٤]. وعن تميم الداري رضي الله عنه قال: ((إنَّ النَّبيَّ قَالَ: الدِّينُ النَّصِيحَةُ قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: لله وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ))[٥]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: ((الْمُؤمِنُ مِرآةُ الْمُؤمِنِ، وَالْمُؤمِنُ أَخُو الْمُؤمِنِ يَكُفُّ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ وَيَحُوطُهُ مِنْ وَرَائِهِ))[٦]. وبهذا يلزم الداعية أن يحرص على النصح لكل مسلم إذا رآه على مخالفة، وأن يبين له ويرشده إلى ما هو خير، فإن من شأن الداعية أنه حريص على المدعوين، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٧].

ثالثًا- من آداب المدعو: الاستجابة لتوجيهات الشرع:

حيث جاء في الحديث "فقلت: لا أضرب مملوكًا بعده أبدًا" وهذا يدل على مدى الاستجابة لتوجيهات الرسول ﷺ وذلك لأن في الاستجابة لهديه الحياة الحقيقية، قال

---

(١) سورة هود، آية: ١١٤.

(٢) شرح رياض الصالحين ٢/١٦٩١.

(٣) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٤) أخرجه البخاري ١٤٠١، ومسلم ٥٦.

(٥) أخرجه مسلم ٨٨.

(٦) أخرجه أبو داود ٤٩١٨، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤١١٠).

(٧) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ ﴾[1]. وفي اتباعه وطاعته الهداية والرشاد، قال تعالى: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ ﴾[2] وقال سبحانه: ﴿ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾[3].

ومن أبرز الأمثلة على الاستجابة والطاعة لأمر رسول الله ﷺ ما جاء عن أبي برزة الاسلمي رضي الله عنه: أن جليبيبًا كان امرًا يدخل على النساء يمر بهن ويلاعبهن، فقلت لامرأتي: لا تدخلن عليكم جليبيبًا، إن دخل عليكم لأفعلن ولأفعلن.

قال: وكانت الأنصار إذا كان لأحدهم أيم لم يزوجها حتى يعلم: هل للنبي ﷺ فيها حاجة أم لا؟ فقال النبي ﷺ لرجل من الأنصار: "زوجني ابنتك". فقال: نعم وكرامة يا رسول الله ونعمة عين. قال: "إني لست أريدها لنفسي". قال: فلمن يا رسول الله؟ قال: "لجليبيب". قال: يا رسول الله أشاور أمها.

فأتى أمها فقال: إن رسول الله ﷺ يخطب ابنتك. قالت: نعم ونعمة عين. قال: إنه ليس يخطبها لنفسه إنما يخطبها لجليبيب، قالت: ألجليبيب إنيه! ألجليبيب إنيه! لا لعمر الله لا نزوجه.

فلما أراد أن يقوم ليأتي النبي ﷺ ليخبره بما قالت أمها، قالت الجارية: من خطبني إليكم؟ فأخبرتها أمها، فقالت: أتردون على رسول الله ﷺ أمره؟ ادفعوني إليه فإنه لن يضيعني.

فانطلق أبوها إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: شأنك بها، فزوجها جليبيبًا.

قال: فخرج رسول الله ﷺ في غزاة له، قال: فلما أفاء الله عز وجل قال: "هل تفقدون من أحد؟" قالوا: لا. قال: "لكني أفقد جليبيبًا".

قال: "فاطلبوه في القتلى"، فطلبوه فوجدوه إلى جنب سبعة قتلهم ثم قتلوه، فقالوا: يا رسول الله ها هو ذا إلى جنب سبعة قتلهم ثم قتلوه.

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

(٢) سورة النور، آية: ٥٤.

(٣) سورة الأعراف، آية: ١٥٨.

فأتاه النبي ﷺ فقال: "قتل سبعة ثم قتلوه، هذا مني وأنا منه مرتين أو ثلاثًا".

ثم وضعه رسول الله ﷺ على ساعديه، وحفر له ما له سرير إلا ساعدا النبي ﷺ، ثم وضعه في قبره ولم يذكر أنه غسله.

قال ثابت: فما كان في الأنصار أيم أنفق منها.

وحدث إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة ثابتًا قال: هل تعلم ما دعا لها رسول الله ﷺ؟ قال: (اللهم صُبَّ عليها الخير صبًا، ولا تجعل عيشها كَدًّا كَدًّا) قال: فما كان في الأنصار أيم أنفق منها[1].

وعن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال: خرجت أنا وأبي نطلب العلم في هذا الحي من الأنصار قبل أن يهلكوا، فكان أول من لقينا أبا اليسر صاحب النبي ﷺ ومعه غلام له، وعلى أبي اليسر بردة ومعافريٌّ، وعلى غلامه بردة ومعافريٌّ، فقلت له: يا عميَ! لو أخذت بردة غلامك وأعطيته مَعَافِرِيَّك وأخذت معافِرِيَّه وأعطيته بردتك كانت عليك حلة وعليه حلة! فمسح رأسي وقال: اللهم بارك فيه، يا ابن أخي؛ بَصَرُ عَيْنَيَّ هَاتَيْن، وسَمْعُ أُذنيَّ هاتين ووعاه قلبي هذا - وأشار إلى مناط قلبه- النبي ﷺ وهو يقول: ((أطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، وكان أن أعْطَيْتُهُ من متاع الدنيا أهونُ عَليَّ من أن يأخذ من حسناتي يوم القيامة))[2].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: ((سَرَّحَتْني أمي إلى رسول الله ﷺ فأتيته وقعدت فاستقبلني، وقال: من استغنى أغناه الله عز وجل، ومن استعف أعفه الله عز وجل، ومن استكفى كفاه الله عز وجل، ومن سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف. فقلت: ناقتي الياقوتة خير من أوقية فرجعت ولم أسأله))[3].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٤٢٢/٤ رقم ١٩٧٨٤ واللفظ له، وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم، ٣٠/٣٣، وأخرجه مسلم ٢٤٧٢ خاليًا عن الخطبة والتزويج.

(٢) أخرجه مسلم ٣٠٠٧.

(٣) أخرجه النسائي ٢٥٩٦، وقال الألباني: حسن صحيح (صحيح سنن النسائي ٢٤٣٢).

رابعًا- من أساليب الدعوة: الشرط، والترهيب:

١- الشرط: حيث جاء في الحديث "من ضرب غلامًا له" وأسلوب الشرط من أساليب الدعوة التي لها أثر في نفس المدعو، حيث يشد انتباهه إلى معرفة جواب الشرط وما يترتب عليه، ومن صور استعمال القرآن لأسلوب الشرط قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[1].

٢- الترهيب: حيث جاء في الحديث "أما لو لم تفعل للفحتك النار أو لمستك النار" وأسلوب الترهيب من أساليب الدعوة النافعة، حيث إن النفس البشرية بطبيعتها تخاف العقاب والوعيد (والترهيب هو التخويف والتوعد بعذاب الله والنار، والترغيب والترهيب يأتي في الشريعة حسب الأحوال والنفوس والمواقف، يأتي علاجًا وردعًا، ويأتي بشيرًا ونذيرًا)[2].

---

(١) سورة الكهف، آية: ١١٠.

(٢) الدعوة إلى الله الرسالة: الوسيلة، الهدف، د. توفيق الواعي، ص ١٩٩.

الحديث رقم (١٦٠٦)

١٦٠٦ - وعن أَبي مسعودٍ البدْرِيِّ ﷺ قَالَ: كُنْتُ أضْرِبُ غُلامًا لِي بالسَّوْطِ، فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي: ((اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ)) فَلَمْ أفْهَمِ الصَّوْتَ مِنَ الغَضَبِ، فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إذَا هُوَ رسولُ الله ﷺ، فإذا هُوَ يَقُولُ[١]: ((اعْلَمْ أبَا مَسْعُودٍ أنَّ اللهَ أقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الغُلامِ)). فَقُلْتُ: لا أضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا[٢].

وَفِي روايةٍ[٣]: فَسَقَطَ السَّوْطُ مِنْ يَدِي مِنْ هَيْبَتِهِ.

وفي روايةٍ[٤]: فَقُلْتُ: يَا رسولَ الله، هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللهِ تَعَالَى، فَقَالَ: ((أمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ، لَلَفَحَتْكَ النَّارُ، أَوْ لَمَسَّتْكَ النَّارُ)). رواه مسلم بهذه الروايات[٥].

ترجمة الراوي:

أبو مسعود البدري الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١٠).

غريب الألفاظ:

السوط: ما يضرب به من جلد سواءً أكان مضفورًا أم لم يكن[٦].

هيبته: مخافته[٧].

للفحتك النار: أصابتك بحرها ووهجها[٨].

الشرح الأدبي

إن الرحمة تاج أخلاق المسلم، وهي تسري في سلوكياته وحياته مسرى الدم في عروقه.

---

(١) عند مسلم زيادة: (اعلم أبا مسعود، اعلم أبا مسعود، قال: فألقيت السوط من يدي).

(٢) أخرجه مسلم (١٦٥٩/٣٤).

(٣) برقم (١٦٥٩/٣٤) من حديث جرير، ولفظه: (فسقط من يدي السوط من هيبته).

(٤) برقم (١٦٥٩/٣٥) من حديث أبي معاوية.

(٥) انظر: الجمع للحميدي (٤٩٦/١ - ٤٩٧، رقم ٧٩٨).

(٦) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (س و ط).

(٧) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (هـ ي ب).

(٨) المرجع السابق في (ل ف ح).

والحديث مشهد من مشاهد الواقع في عهد النبوة، وهو مشهد يجمع بين جموح السلوك البشري، وتهذيب هذا السلوك في ضوء التعليمات النبوية، والاقتداء بأخلاق الرسول الكريم، والحديث في نسقه اللغوي، وتكوينه الأسلوبي... يتكون من موقفين: وكلاهما مرتبط بالآخر موقف التعذيب والإيذاء؛ وموقف العظة والاهتداء.

فأما الموقف الأول فهو على نسق الحديث السابق، حيث يحكي الراوي عن نفسه ليقدم القدوة الصالحة في الاقتداء برسول الله ﷺ، واتباع تعاليمه، وهذا الموقف يتمثل في ضرب الغلام بالسوط، وأما الموقف الثاني فهو: زجر الرسول له ونهيه عن ذلك.

ونلاحظ أن الحديث يبدأ بالفعل "كنت"، وهو فعل ماض ناقص من الأفعال الناسخة، وفي ذلك إيحاء بأن هذا الموقف انتهى، ونسخ، وتبقى منه الموعظة والرحمة التي انبثقت من هذا الحدث المخالف لأخلاق المسلم؛ ووقائع هذا الحديث متلاحقة، والربط بين الجمل بحرف العطف "الفاء" يجسد هذا التلاحق إيحاءً بضرورة تخليص هذا العبد من ذاك العذاب: ولنتأمل هذه الأفعال، (فسمعت صوتًا - فلم أفهم الصوت- فلما دنا مني، فإذا هو يقول: فقلت لا أضرب مملوكًا أبدًا)، إن هذا التتابع يضفي على صياغة الحديث طابع القصة القصيرة التي تتلاحق وقائعها، وتكرار إذا الفجائية مع الضمير العائد على رسول الله مرتين، يرشد إلى إحساس هذا الصحابي بهيبة رسول الله ﷺ وسرعة استجابته لتوجيهاته.

وتوجيه رسول الله ﷺ صيغ في إطار أسلوبين: هما الأسلوب الإنشائي، والأسلوب الخبري، فأما الإنشاء فقد جمع بين الأمر والنداء، لمزيد من الحث والاهتمام والتنبيه في قوله: "اعلم أبا مسعود"، وحذف حرف النداء: للإيجاز وللإيحاء بالسرعة في الكف عن تعذيب هذا المملوك.

وأما الخبر: فقد جاء محصنًا بالتوكيد، وأفعل التفصيل، والطباق بين عليك، ومنك فقال: إن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام.

وتأتي الجملة الأخيرة إقرارًا واستجابة لتوجيه رسول الله : فيقول: أبو مسعود: "لا أضرب مملوكًا بعده أبدًا، وفي رواية قال: هو حر لوجه الله".

المضامين الدعوية[1]

---

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٦٠٧)

١٦٠٧ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ النَّبيَّ ﷺ، قَالَ: ((**مَنْ ضَرَبَ غُلاَمًا لَهُ حَدًّا لَمْ يَأتِهِ، أوْ لَطَمَهُ، فإنَّ كَفَارَتَهُ أنْ يُعْتِقَهُ**)). رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

حَدًّا: الحَدُّ: الذنب الموجب للعقوبة[٢].

لطَمَه: ضرَب خَدَّه[٣].

كفَارتُه: الكفَّارةُ: العمل الذي يستر الذنب ويمحوه[٤].

الشرح الأدبي

إن الإسلام أعطى لكل ذي حق حقه، ولا يرى الإسلام قيمة للحياة بدون الحرية، والحرية في اللغة تطلق على الخلوص من العبودية، فيقال هو "حر" أي غير مسترق ولا مملوك، وتطلق على الخلوص من القيد، فيقال هو حر أي غير أسير، وعلى الخلوص من كل شيء دخيل، فيقال فرس حر أي عتيق الأصل، ليس في نسبة هجنه، وتطلق بمعنى: الشرف والطيب والجودة: فيقال هو حر أي كريم شريف طيب الأصل، ويقال: هو من حرية القوم أي أشرافهم، والحر من كل شيء: أحسنه وأطيبه وأعتقه[٥].

وفي ضوء هذه الدلالات التي تتضوأ بها كلمة "الحرية" التي تناقض العبودية، نستبطن بعض أسرار لغة هذا الحديث الشريف الذي يحث على احترام الإنسان، ويرشد

---

(١) برقم (١٦٥٧/٣٠).

(٢) النهاي في (ح د د).

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ل ط م).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ك ف ر).

(٥) انظر: التكافل الاجتماعي في الإسلام، د. عبدالعال أحمد عبدالعال، وانظر: لسان العرب، ابن منظور.

إلى البعد عن تعذيب "العبد أو الغلام أو الخادم أو الأجير" أو كل من يقوم بعمل مقابل أجر، فالإنسان في ظل الإسلام له كرامته وحريته.

والحديث في بنائه اللغوي يتكون من جملة واحدة موجزة، ولكنها دالة هادفة: تشخص الداء وتصف الدواء، وهي جملة صيغت في قالب الشرط والجزاء، وهو قالب لغوي يناسب المعنى المراد في هذا الحديث: وهو أن لكل مخالفة كفارة، ولكل ذنب عقوبة.

ولذلك يتمثل الشرط في الجزء الأول من الحديث حيث قال رسول الله "من ضرب غلامًا له حدًّا لم يأته أو لطمه" أي من أقام الحد على غلام ظلمًا وهو لم يرتكب ذنبًا يوجب ذلك، وقوله: "حدًّا" مفعول به أي: من أجل إقامة الحد كان الضرب، وحتى إذا لم يضرب الضرب المقيم للحد بل لطم العبد فقط، فذلك ذنب يوجب الكفارة، والكفارة هي أن يحصل العبد على حريته، حيث يعتقه مالكه، وهذه أعظم مكافأة يكافئ بها الإسلام كل مملوك يتعرض لظلم مالكه.

وجاء جواب الشرط مؤكدًا في جملة اسمية تبدأ بـ"إن" المؤكدة، وخبرها مصدر مؤول: أن يعتقه.

ومصطلح "الكفارة" من مظاهر تطور اللغة في ظل الإسلام، فالكفارة في الفقه الإسلامي، ما يفعله الإنسان من عمل صالح، أو صدقة طيبة، ليغفر الله له سيئة اقترفها، أو عملاً غير صالح عمله، أو يمينًا حلف به، وقد وردت هذه الكلمة في القرآن في أربع آيات كلها في سورة المائدة، وهي آخر سورة نزلت في القرآن الكريم لتبين للناس كثيرًا من أحكام هذا الدين[1].

المضامين الدعوية[2]

(١) انظر: التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن، د. عودة خليل أبو عودة ص٢٩٢.

(٢) تم دمجها مع المضامين الدعوية الحديث رقم (١٦٠٥).

الحديث رقم (١٦٠٨)

١٦٠٨- وعن هِشام بن حكيمِ بن حِزَامٍ رضي الله عنهما: أنَّه مَرَّ بالشَّامِ عَلَى أُنَاسٍ مِنَ الأَنْبَاطِ، وَقَدْ أُقيمُوا فِي الشَّمْسِ، وَصُبَّ عَلَى رُؤُوسِهِمُ الزَّيْتُ ! فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قيل: يُعَذَّبُونَ فِي الخَرَاجِ[1].

وفي رواية: حُبِسُوا فِي الجِزْيَةِ. فَقَالَ هِشَامٌ: أشهدُ لَسَمِعْتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، يقولُ: ((**إنَّ اللهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ النَّاس فِي الدُّنْيَا**))[2].

فَدَخَلَ عَلَى الأمِيرِ، فَحَدَّثَهُ، فَأَمَرَ بِهِمْ فَخُلُّوا. رواه مسلم[3]. "الأَنْبَاط": الفلاحون من العجم.

ترجمة الراوي:

هشام بن حكيم بن حزام: هو هشام بن حكيم بن حزام بن خويلد القرشي الأسدي، عمة أبيه السيدة خديجة زوج النبي صلى الله عليه وسلم. أسلم هو وأبوه يوم فتح مكة.

كان من فضلاء الصحابة وخيارهم، كان صلبًا في الحق مهيبًا قوّامًا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يكن وحده يفعل ذلك، بل كان معه رجال يقومون بالإصلاح والنصح، والترغيب في الخير، والزجر عن الشر، حسبةً لله تعالى، ليس لأحد عليهم إمارة ولا سلطة. بلغ من شهرته في الصدع بالحق والأمر بالخير والنهي عن الشر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا رأى منكرًا أو سمع بشيء من الباطل يراد أن يفعل أو ذُكر له - قال: لا يفعل هذا ما بقيت أنا وهشام بن حكيم. وبلغ من شغفه بهذا الأمر أنه عاش كالسائح لم يتخذ أهلاً ولا كان له ولد.

كان كل الناس عنده سواء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا فرق عنده بين حاكم ومحكوم أو رئيس ومرؤوس أو علية القوم وعامتهم.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦١٣/١١٧) من حديث حفص بن غياث.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦١٣/١١٨) من حديث أبي أسامة.

(٣) بعد حديث (٢٦١٣/١١٨، بدون رقم) من حديث جرير. تنبيه: أورده المنذري في ترغيبه (٣٣٧٢) هكذا جمعًا بين الطرق الثلاثة للحديث. وتبعه عليه المؤلف.

كان يدخل على الولاة بالشام، فإذا وجد أحدهم يعمل -أو يريد أن يعمل- أمرًا مخالفًا، يتوعده ويقول له: لأكتبن إلى أمير المؤمنين بهذا. فيرتدع الوالي- ويقوم إليه يتشبث به- ويرجع عما فعل أو أراد أن يفعل.

وله قصة مع عمر بن الخطاب في قراءة القرآن، قال عمر: سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها، وكان رسول الله ﷺ أقرأنيها وكدت أن أعجل عليه ثم أمهلته حتى انصرف ثم لبَّبْتُه بردائه[١] فجئت به رسول الله ﷺ فقلت: إني سمعت هذا يقرأ على غير ما أقرأتنيها فقال لي: أرسله. ثم قال له: اقرأ. فقرأ. قال: هكذا أنزلت. ثم قال لي: اقرأ فقرأت: فقال: هكذا أنزلت، إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرءوا منه ما تيسر[٢].

قال ابن سعد: توفي في أول خلافة معاوية[٣].

غريب الألفاظ:

الأنباط: الفَلاحون من العَجم[٤].

الخَراج: ما يُفرض على الأرض المفتوحة من الضرائب[٥].

الجزية: ما يُفرض على أهل الذمَّةِ[٦].

---

(١) أي أخذت بمجامع ردائه في عنقه وجررته به. شرح مسلم للنووي (٣/٨٦- ٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤١٩)، ومسلم (٢٧٠- ٨١٨) من حديث عمر بن الخطاب.

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٧٤١، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٥/٣٧٢) والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٣٥٩، والسير (٣/٥٢) وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٧/٤٠٠) وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٤/٢٦٩)، والأعلام، خير الدين الزركلي (٨/٨٥)، وموسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (٣/١٩٣٧).

(٤) رياض الصالحين ٥٥٥.

(٥) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ١٧٢.

(٦) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ١٤٣.

خُلُّوا: تُركوا وأُخلِي سبيلُهم[١].

الشرح الأدبي

يحكي الراوي عن هشام بن حكيم رضي الله عنه في هذا الحديث ما رآه من مظاهر تعذيب ولاة الأمر لعامة الناس، ويصور مظاهر ذلك التعذيب وهو تصوير مفزع ينشر الهلع في النفوس، ويزرع الخوف في القلوب، ويسجل انطباعًا غير صحيح عن الإسلام في نفوس الآخرين.

فهؤلاء المعذبون: من الأنباط، وهم فلاحون من العجم، وقيل هم قوم من العرب دخلوا في العجم والروم، واختلطت أنسابهم وفسدت ألسنتهم، وقد سموا بذلك لمعرفتهم بأنباط الماء واستخراجه من الأرض- لكثرة معالجتهم الفلاحة، فهم من الزراع.

وتصوير العذاب ورد في جملتين وقعتا موقع "الحال" فحالهم في الواقع: هو حالهم في النسق اللغوي: حيث أقيموا في الشمس تلفح وجوههم، وتكوي أجسادهم، ولم يكتف الأمير بذلك بل غالى في تعذيبهم وأمر أن يُصب الزيت على رءوسهم، وذلك من أقسى صور العذاب.

وبناء الفعل للمجهول في قوله: "أقيموا"، يرشد بأنهم أكرهوا على ذلك، وليس لهم اختيار في هذا الأمر، وكذلك بناء الفعل "صُبَّ"، للمجهول يوحي بأن الفاعل معلوم، وهو الوالي لأنه هو الذي أمر بذلك: لأنهم لم يقوموا بأداء الجزية أو الخراج.

والجزية شُرعت مقابل أن لا يهدم لأهل الكتاب بيعة، ولا يخرج لهم قس، ولا يفتنوا عن دينهم، بشرط أن يلتزموا بأحكام الإسلام، والخراج: هو ما يوضع من الضرائب على الأرض الزراعية أو محصولاتها، وهو يختلف باختلاف البلاد وما تصلح الأرض له، وتسقى به.

ولنتأمل أسلوب التوكيد الذي ورد في إطاره كلام المصطفى صلى الله عليه وسلم، والذي سمعه منه هشام بن حكيم، حيث يقول: "إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا".

---

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (خ ل و).

وختام الحديث يُعد ثمرة نافعة من ثمار هذا الوعيد بالعذاب: وقد أسرع الأمير فخلى سبيل هؤلاء الأنباط المعذبين، وتتجلى السرعة في هذا النسق اللغوي الذي يفيد التتابع وسرعة التنفيذ رهبة وخشية وخوفًا من عذاب الله، وتوالت الأفعال معطوفة بالفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب والسرعة في هذه الجمل القصيرة المتوالية في ختام الحديث، في قوله: "فدخل على الأمير، فحدثه، فأمر بهم، فخلوا": أي أطلق سراحهم، وأقلع عن تعذيبهم، استجابة لما بلغه عن رسول الله ﷺ.

المضامين الدعوية

أولاً: من واجبات الداعية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثالثًا: من مصادر الدعوة: السنة النبوية.

رابعًا: من أساليب الدعوة: التوكيد، والترهيب.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: بيان عاقبة من يعذب الناس في الدنيا.

أولاً- من واجبات الداعية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

حيث جاء في الحديث "أنه مر بالشام على أناس من الأنباط وقد أقيموا في الشمس وصب على رؤوسهم الزيت" وقوله "فدخل على الأمير فحدثه فأمر بهم فخلوا" والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم واجبات الداعية- وقد قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1]. وجاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ. وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ))[2]. قال الإمام ابن رجب الحنبلي: (ودلت الأحاديث كلها

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٢) أخرجه مسلم ٤٩.

على وجوب إنكار المنكر بحسب القدرة عليه، وأن إنكاره بالقلب لابد منه، فمن لم ينكر قلبه المنكر دلَّ على ذهاب الإيمان من قلبه وقد روى عن أبي جحيفة قال: قال علي رضي الله عنه: (إن أول ما تغلبون عليه من الجهاد: الجهاد بأيديكم ثم الجهاد بألسنتكم ثم الجهاد بقلوبكم، فمن لم ينكر قلبه المنكر، ويعرف قلبه المعروف- نكس فجعل أعلاه أسفله، وأما الإنكار باللسان واليد فإنما يجب بحسب الطاقة)[1]. قال الإمام عبدالرحمن بن داود الدمشقي: (والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف من أخص أوصاف المنافقين- قال الله تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ﴾[2].

بين سبحانه أن ذكور المنافقين وإناثهم ليسوا من المؤمنين. كما قال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾[3] بل بعضهم من بعض في الحكم والمنزلة والنفاق وقيل: أمرهم واحد بالاجتماع على النفاق. فهم على دين واحد متشابهون في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف.

وليس المعنى على التبعيض حقيقة، لأن ذلك معلوم فالمؤمن بالمؤمن يتقوى، والمنافق بالمنافق يتعاضد. والمنافق (لصاحبه) أُسٌّ به قوامه وأصل به قيامه، يعينه على فساده، ويغمي عليه طريقة رشاده، وصفهم سبحانه بخلاف أوصاف المؤمنين، وأنهم يأمرون بالمنكر وهو الكفر والمعاصي، وينهون عن المعروف وهو الإيمان والطاعات.

قوله: "ويقبضون أيديهم" عبارة عن عدم الإنفاق في سبيل الله تعالى قاله الحسن.

وقيل: تركوا أمره حتى صار كالمنسي، فصيرهم بمنزلة المنسي من ثوابه.

وقيل: عن الجهاد. وقال سفيان: عن رفع الأيدي في الدعاء، و"النسيان" هنا الترك قال قتادة تركوا طاعة الله ورسوله. ونسيهم أي تركهم من الخير. وأما من الشر فلم ينسهم.

---

(١) جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي ٢/٢٤٥.

(٢) سورة التوبة، آية: ٦٧.

(٣) سورة التوبة، آية: ٥٦.

وقوله: "إن المنافقين هم الفاسقون" أي هم الكاملون في الفسق الذي هو: التمرد في الكفر والانسلاخ من كل خير.

وللمنافق خمس خصال بنص القرآن: يأمر بالمنكر، وينهى عن المعروف، ولا يقوم إلى الصلاة إلا وهو كسلان، ويبخل بالزكاة، ويتخلف عن الجهاد إذا أمره الله، ويثبط غيره.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أخص أوصاف المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾[1].

لما ذكر الله تعالى المنافقين والمنافقات، وما هم عليه من الأوصاف القبيحة والأعمال الفاسدة، ذكر المؤمنين والمؤمنات، فقال في أولئك: "بعضهم من بعض" وفي هؤلاء: "بعضهم أولياء بعض" في الدين، واتفاق الكلمة، والعون، والنصرة، إذ لا ولاية بين المنافقين ولا شفاعة لهم "ولا يدعو" بعضهم لبعض "فكأن المراد - هنا- أن الولاية في الله خاصة، وثبت في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدبعضه بعضًا))[2].

أي يعين بعضهم بعضًا على الطاعات، ويتواصون بترك المحظورات، فتحابهم "في الله" وقيامهم بحق الله، وصحبتهم لله، وعداوتهم لأجل الله، تركوا حظوظهم لحق الله، وآثروا - على هواهم - رضا الله.

أولئك الذين عصمهم في الحال، ويرحمهم في المآل.

ولما وصف المؤمنين بكون بعضهم أولياء بعض، ذكر بعده ما جرى كالتفسير والشرح له، وهي الخمسة التي يتميز بها المؤمن على المنافق في الآية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والجهاد، وهو المراد في هذه الآية

---

(١) سورة التوبة، آية: ٧١.

(٢) أخرجه البخاري ٤٨١، ومسلم ٢٥٨٥.

بقوله: "ويطيعون الله ورسوله"، فإن هذه الكلمة جامعة للمندوبات وأقواها دلالة على صحة عقيدتهم وسلامة سريرتهم.

وأخص أوصاف المؤمنين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لتقدمه على بقية الأوصاف، فالذي هجر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خارج عن هؤلاء المؤمنين المنعوتين في الآية، فيثبت بذلك أن أخص أوصاف المؤمنين وأقواها دلالة على صحة عقيدتهم وسلامة سريرتهم، هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قوله: "أولئك سيرحمهم الله" يعني الموصوفين بهذه الأوصاف الجميلة.

قال الزمخشري: السين مفيدة وجوب الرحمة لا محالة، فهي تؤكد الوعد والوعيد.

ولما كانت الرحمة - هنا - عبارة عما يترتب على تلك الأعمال الصالحة من الثواب في الآخرة، أتي بالسين التي تدل على الاستقبال.

"إن الله عزيز" أي غالب على كل شيء قادر عليه.

"حكيم" واضع كلاً موضعه. والله أعلم)[1].

والواجب على الداعية أن يحرص على إقامة هذه الشعيرة استجابة لأمر الله عز وجل ورسوله ﷺ.

(ومن لم تكن له همة في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فليخش على نفسه النفاق وعلى قلبه من الزيغ، وَلْيَسْعَ في نجاة نفسه -بالقيام بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر-، قبل أن يصيبه الله بقارعة لا تخطر له على بال، أو أن ينسيه الله نفسه فيهيم في أودية الضلال، فيكون ممن زُيِّنَ له سوء عمله فرآه حسنًا. فيكون من الأخسرين أعمالاً كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾[2].

---

(١) الكنز الأكبر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عبدالرحمن بن أبي بكر بن داود الدمشقي الصالحي، ص ٥١-٥٣.

(٢) سورة الكهف، الآيات: ١٠٣- ١٠٦.

ومن أمارة هذا الصنف أنك تجده يكره الآمرين بالمعروف، والناهين عن المنكر، لقيامهم بذلك، ويفرح ويسر بما يصيبهم من الأذى وأنواع الابتلاء، ويسخر بما قد يقع من بعضهم من الأخطاء، أو ينسب إلى أحد منهم شيئًا على وجه الكذب والافتراء، وكان الأولى به أن يبكي على نفسه، ويأخذ بأسباب نجاتها مما توعد الله به أمثاله من سوء الحساب، وشديد العقاب، ما دام يمكنه المتاب، والسير في طريق الصواب.

فإن في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، من جليل الفوائد، وكريم العوائد وعظيم المصالح الخاصة والعامة، ودرء المفاسد والشرور عن الأمة كافة، ما يدعو كل عاقل إلى الاهتمام به، والحرص على أن يكون من أهله المتحلين به المسارعين إليه، ومحبة القائمين به وإعانتهم عليه، لتحصيل ما وعد الله به القائمين بتلك الفريضة العظيمة، والشعيرة الجليلة، من الخير في العاجل والآجل ومن ذلك:

أن الأمر والنهي من الهدي الذي جاءت به الرسل عليهم السلام: فأسعد الناس في الدنيا والآخرة أكملهم حظًا عنده، فإن الله سبحانه وتعالى إنما أرسل جميع رسله:

بالأمر بالمعروف: الذي أصله وأساسه توحيد الله، وتصديق الرسول، وفروعه الأقوال والأعمال الصالحة.

والنهي عن المنكر: الذي أساسه الشرك والبدع، وفروعه أنواع الفسوق والعصيان.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾[2]. ولهذا تجد كل رسول أول ما يدعو قومه إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة من سواه. ثم ينهاهم عن أعظم المنكرات من الأعمال - كبخس الكيل والوزن والبغي والظلم ونحو ذلك.

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٢٥.

(٢) سورة النحل، آية: ٣٦.

ولقد وصف الله خاتم الأنبياء محمد ﷺ، بالقيام بهذا الأمر كله على أكمل الوجوه وأحسنها، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾(١).

وبين أن أهدى الناس سبيلاً، وأسعدهم في الدنيا والآخرة أكملهم قيامًا وعناية به. قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾(٣).

ولا يكون الإنسان مهتديًا حقًا إلا إذا كان آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾(٤). يعني: أمرتم بالمعروف، ونهيتم عن المنكر.

والأمر والنهي آية صدق الإيمان، وبشارة بحسن الخاتمة: وصف الله أولياءه، المؤمنين الصالحين السابقين واللاحقين بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فقال سبحانه في السابقين: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾(٥).

ووصف الله به المؤمنين المجاهدين من هذه الأمة، فقال: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٥٧.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٥٧.

(٣) سورة النساء، آية: ٦٩.

(٤) سورة المائدة، آية: ١٠٥.

(٥) سورة آل عمران، الآيتان: ١١٣، ١١٤.

وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[(١)]. وقال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ ﴾[(٢)].

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، آية الإيمان، وبرهان الصلاح، وأهله القائمون به هم خير الناس وأحبهم إلى الله تعالى، فيا بشراهم بما أعد الله لهم من الأجر العظيم، والنعيم المقيم، قال الله سبحانه: ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[(٣)].

وبالأمر والنهي يتمكن الدين ويعم الصلاح: قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ ﴾[(٤)].

وللأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، دلالة على الخير وترغيب فيه، وتنبيه على الشر وزجر عنه، فيتحقق بالقيام به تنمية الخير وتقويته وتكثير أهله، وإضعاف الشر وتقليله أو القضاء عليه وقطع أسبابه.

وفي تكرار الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في كل زمان ومكان ومناسبة، تعليم وتربية للأمة بأكملها، حيث يتحقق البيان الحازم للناس على الدوام، فيتعلم الجاهلين ويتذكر الغافل، وينشط المتكاسل)[(٥)].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

حيث جاء في الحديث "فقال: ما هذا؟ قيل: يعذبون في الخراج" وأسلوب السؤال والجواب من أساليب الدعوة التي تفتح حوارًا بين الداعية والمدعو، وفي مجال الدعوة إلى

---

(١) سورة التوبة، آية: ١١٢.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

(٣) سورة التوبة، الآيتان: ٢١، ٢٢.

(٤) سورة النور، آية: ٥٥.

(٥) تذكرة أولي الأمر بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عبدالله بن صالح القصير، ص ٧٦-٧٧ بتصرف.

الله تبدو أهمية المشاركة والمناقشة والسؤال (إن الناس يحتاجون إلى إقناع بضرورة تعلم المراجعة والمشاركة في عملية التعلم والتفهم للموضوعات المطروحة، ومن هنا وجب على الدعاة تشجيع الناس على طرح الأسئلة وإبداء الرأي حول مختلف القضايا، لأن ذلك يبني نفسية المشاركة وتحمل المسؤولية، وهو من الطرق الفعالة في إحداث القناعة بالرسالة الدعوية)[١].

ثالثًا- من مصادر الدعوة: السنة النبوية:

حيث جاء في الحديث "أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول" ومما لاشك فيه أن السنة النبوية المصدر الثاني للدعوة الإسلامية بعد القرآن الكريم (إن الرسول ﷺ ليس مجرد واعظ يلقي كلمته لتذهب في الهواء، ذلك أن الدين منهج حياة واقعية بأشكالها وتنظيماتها وأوضاعها وقيمها وأخلاقها وآدابها وعباداتها وشعائرها، ولذا وجب التحاكم إلى منهج الله القرآن والسنة)[٢]. (إن السنة المطهرة هي المصدر الثاني للداعية بعد القرآن الكريم، وهي شارحة للقرآن ومبينة له ومفصلة لما أجمل منه، كما أنها قصة كفاح، وخلاصة تجارب لأعظم داعية وأكرم عقل في الوجود، كما أنها توجيهات ربانية لفهم القرآن ورسم الطريق المستقيم)[٣].

رابعًا- من أساليب الدعوة: التوكيد، والترهيب:

١- التوكيد: حيث جاء في الحديث "إن الله يعذب" وأسلوب التوكيد من أساليب الدعوة التي تبين للمدعو مدى صدق الداعية فيما يقول وتحقق وقوعه، ومن صور استعمال أسلوب التوكيد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾[٤].

٢- الترهيب: حيث جاء في الحديث: "إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا" وأسلوب الترهيب من أساليب الدعوة التي ترهب المدعو وتحذره من الوقوع في المحظورات

---

(١) مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، د. عبدالكريم البكار، مرجع سابق ١٥٥.

(٢) دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه، د. محمد مصطفى الأعظمي، مطابع جامعة الرياض، ١٣٧٧هـ، ص ١٣.

(٣) الخطابة وإعداد الخطيب، د. توفيق الواعي، ١٢٧.

(٤) سورة النبأ، آية: ٣١.

والمخالفات الشرعية، ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب الترهيب قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾[١]. يقول الدكتور عبدالكريم زيدان: (والترهيب هو كل ما يخيف ويحذر المدعو من عدم الاستجابة أو رفض الحق أو عدم الثبات عليه بعد قبوله، ويكون بالتخويف من غضب الله وعذابه في الآخرة)[٢].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: بيان عاقبة من يعذب الناس في الدنيا:

حيث جاء في الحديث "إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا" قال الإمام النووي: (وهذا الوعيد الشديد محمول على التعذيب بغير حق، فلا يدخل فيه التعذيب بحق كالقصاص والحدود والتعزير وغير ذلك)[٣]. وهذا التعذيب مناف للرحمة التي أراد الله أن تكون بين العباد، فعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ((الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمنُ ارْحَمُوا أَهْلَ الأَرْضِ يَرْحَمْكُم مَنْ فِي السَّمَاءِ))[٤] وعن جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: ((لا يَرحمُ اللَّهُ مَن لا يَرحم النَاسَ))[٥].

قال محمد الغزالي: (للرحمة كمال في الطبيعة يجعل المرء يرق لآلام الخلق ويسعى لإزالتها، ويأسى لأخطائهم فيتمنى لهم الهدى. هي كمال في الطبيعة؛ لأن تبلد الحس يهوي بالإنسان إلى منزلة الحيوان ويسلبه أفضل ما فيه، وهو العاطفة الحية النابضة بالحب والرأفة. بل إن الحيوان قد تجيش فيه مشاعر مبهمة تعطفه على ذراريه، ومن ثمَّ كانت القسوة ارتكاسًا بالفطرة إلى منزلة البهائم، بل إلى منازل الجماد الذي لا يعي ولا يهتز.

والرحمة في أفقها الأعلى وامتدادها المطلق صفة المولى تباركت أسماؤه، فإن رحمته شملت الوجود وعمت الملكوت. فحيثما أشرق شعاع من علمه المحيط بكل شيء

---

(١) سورة النبأ، آية: ٢١-٢٣.

(٢) أصول الدعوة ٤٣٧.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ١٥٥٧.

(٤) أخرجه أبو داود ٤٩٤١، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤١٣٢).

(٥) أخرجه البخاري ٧٣٧٦، ومسلم ٢٣١٩.

أشرق معه شعاع للرحمة الغامرة. ولذلك كان من صلاة الملائكة له: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾(١).

وعن عمر بن الخطاب ﷺ: قُدم على رسول بسبي فإذا امرأة من السبي تسعى تَحْلُبُ ثَدْيَها. إذا وجدت صبيًا في السبي أخذته فألزقته ببطنها فأرضعته. فقال رسول الله ﷺ: أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا والله -وهي تقدر على أن لا تطرحه!- قال: فالله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها(٢).

وكثير من أسماء الله الحسنى ينبع من معاني الرحمة والكرم والفضل والعفو. وقد جاء في الحديث القدسي عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((قال الله عز وجل: إن رحمتي تغلب غضبي))(٣)، أي أن تجاوزه عن خطايا البشر يسبق اقتصاصه منهم وسخطه عليهم، وبذلك كان أفضل الرحماء: ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾(٤).

وما ترى في الأرض من تواد وبشاشة وتعاطف وبر أثر من رحمة الله التي أودع جزءًا منها في قلوب الخلائق؛ فأرقُّ الناس أفئدة أوفرهم نصيبًا من هذه الرحمة وأرهفهم إحساسًا بحياة الضعفاء.

أما غلاظ الأكباد من الجبارين والكازِّين والمستكبرين فَهُمْ في الدرك الأسفل من النار. وكان رسول الله ﷺ يعد جمود العين واستغلاق القلب من الشقاء.

ولقد أراد الله أن يمتن على العالم برجل يمسح آلامه، ويخفف أحزانه، ويرثي لخطاياه، ويستميت في هدايته، ويأخذ بناصر الضعيف، ويقاتل دونه قتال الأم عن صغارها. ويخضد شوكة القوي حتى يرده إنسانًا سليم الفطرة لا يضرى ولا يطغى..

---

(١) سورة غافر، آية: ٧.

(٢) أخرجه البخاري ٥٩٩٩، ومسلم ٢٧٥٤.

(٣) أخرجه البخاري ٧٥٥٣، ومسلم ٢٧٥١.

(٤) سورة المؤمنون، آية: ١١٨.

فأرسل "محمدًا" ﷺ. وسكب في قلبه من العلم والحلم، وفي خلقه من الإيناس والبر، وفي طبعه من السهولة والرفق، وفي يده من السخاوة والندى. ما جعله أزكى عباد الله رحمة، وأوسعهم عاطفة، وأرحبهم صدرًا.

ولذلك قال الله تعالى فيه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾(١).

وقد لازمته هذه الفضائل العذبة في أعصب الساعات عندما حاول المشركون في "أحد" اغتياله، وألجأوه إلى حفرة ليكبَّ فيها، ونظر إلى زهرة أصحابه فوجدهم مضرجين بدمائهم على الثرى. ونظر إليه بقية أصحابه فإذا خده قد شق وسنه قد سقطت. وفي هذه الأزمة قيل له: ادع على المشركين؛ فغلبه رفقه وجعلت نفسه العالية تستميح لأعدائه العذر، فكان دعاؤه: "اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون".

إن القلوب الكبيرة قلما تستجيشها دوافع القسوة، فهي أبدًا إلى الصفح والحنان أدنى منها إلى الحفيظة والاضطغان.

إن القسوة في خلق إنسان دليل نقص كبير، وفي تاريخ أمة دليل فساد خطير. فلا عجب إذا حذر الإسلام منها واعتبرها علة الفسق عن أمر الله وسر الشرود عن صراطه المستقيم: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾(٢).

وقد أمر الإسلام بالتراحم العام. وجعله من دلائل الإيمان الكامل، فالمسلم يلقى الناس قاطبة وفي قلبه لهم عطف مذخور وبر مكنون، فهو يوسع لهم ويخفف عنهم جهد ما يستطيع.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٢) سورة الحديد، آية: ١٦.

أجل، فإن الرجل قد يهش لأصدقائه حين يلقاهم، وقد يرق لأولاده حين يراهم. وذلك أمر يشيع بين الكثير. بيد أن المفروض في المؤمن أن تكون دائرة رحمته أوسع، فهو يبدي بشاشته، ويظهر مودته ورحمته لعامة من يلقى.

وقد جاءت الأحاديث تترى حاثة على هذه الرحمة الشاملة[١].

---

(١) خلق المسلم ٢٠٢-٢٠٥.

الحديث رقم (١٦٠٩)

١٦٠٩ - وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قَالَ: رأى رسولُ الله ﷺ حِمَارًا مَوْسُومَ الوَجْهِ، فَأَنْكَرَ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: ((واللهِ لا اسِمُهُ إلاّ[1] أقْصَى شَيْءٍ مِنَ الوَجْهِ)) وأمَرَ بِحِمَارِهِ[2] فَكُوِيَ فِي جَاعِرَتَيْهِ، فَهُوَ أوَّلُ مَنْ كَوَى الجَاعِرَتَيْنِ. رواه مسلم[3].

(الجَاعِرَتَانِ): نَاحِيَتا الوَرِكَيْنِ حَوْلَ الدُّبُرِ.

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

الشرح الأدبي

إن الرفق بالحيوان سمة من سمات الخلق الإسلامي، وهذا الرفق نابع من طبيعة التراحم التي تميز تعامل الإنسان المسلم مع ما يحيط به من ظواهر الطبيعة النباتية، والحيوانية... لأنها من مخلوقات الله، ومن دلائل قدرته، ولذلك جعل الله البيت الحرام مثابة للناس وأمنًا، وكل شيء آمن حتى الطير، والحيوان، والنبات، في البلد الأمين تشعر بالأمن، وفي ذلك تدريب للمؤمن على تعميق علاقة التعاطف والمحبة بينه وبين ما حوله من المخلوقات غير العاقلة: لأنها نفوس لها خصائصها: فهناك النفس النباتية، والنفس الحيوانية، وأعلا النفوس درجة هي النفس الإنسانية، وفي ظل ذلك التصور نستضيء ونسترشد بقول الله عز وجل: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾[4].

وفي ضوء هذا المفهوم... نقرأ دلالات هذا الحديث الشريف الذي يروي ابن عباس حكايته، وهي تدعو للتأمل والتفكر والتدبر، لأن الرسول ﷺ وجه اهتمامه إلى الحيوان، واهتم حتى بهيئته، وأنكر تشويه وجه هذا الحيوان: حيث رأى حمارًا موسوم

---

(١) عند مسلم زيادة: (في).

(٢) لفظ مسلم: (بحمار له)، والمثبت لفظ الحميدي في جمعه (٢/١٣٠، رقم ١٢٢٥).

(٣) برقم (١٠٨/٢١١٨).

(٤) سورة النعام، الآية: ٣٨.

الوجه: أي قام صاحبه بكيه في وجهه، وذلك تعذيب وتشويه، وبعد هذا الإنكار يحدد ابن عباس موقفه في حسم: ويجيء الموقف مغلفًا بأسلوب القصر، وفي ذلك تأكيد للموقف الذي اقتدى فيه برسول الله، واتبع تعليماته، فقال: "والله لا أسمه إلا أقصى شيء من الوجه".

وأسرع ابن عباس رضي الله عنهما إلى التغيير، وجاء التغيير في صيغة الأمر الفعلي، وليس الأمر القولي وأمر بحماره فكوي في جاعرتيه، أي في حرف الوركين المشرفين على الفخذين، فأي رحمة تعدل هذه الرحمة، وأي ملة تفوق ملة الإسلام في هذا الجانب المشرق من جوانب السلوك الإنساني تجاه الحيوان، والطير والنبات، وكل ما يدب على الأرض، أو يطير في الجو، أو يسبح في قلب المحيطات، وكلها من النعم التي سخرها الله للإنسان، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[1].

المضامين الدعوية[2]

أولاً: من واجبات الداعية: إنكار المنكر.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: بيان خطر وسم الحيوان في وجهه.

أولاً- من واجبات الداعية: إنكار المنكر:

حيث جاء في الحديث "رأى رسول الله ﷺ حمارًا موسوم الوجه فأنكر ذلك؟ وقوله "مر عليه حمار قد وسم في وجهه فقال لعن الله الذي وسمه" ولاشك أن من أهم واجبات الداعية إنكار المنكر قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[3] ولعن الله الذين لا ينكرون المنكر من بني إسرائيل قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤ .

(٢) تم دمج المضامين لهذا الحديث -١٦٠٩- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦١٠).

(٣) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾[1]، قال الإمام ابن رجب الحنبلي: (واعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تارة يحمل عليه رجاء ثوابه، وتارة خوف العقاب في تركه، وتارة الغضب لله على انتهاك محارمه، وتارة النصيحة للمؤمنين، والرحمة لهم، ورجاء إنقاذهم مما أوقعوا فيه أنفسهم من التعرض لغضب الله وعقوبته في الدنيا والآخرة، وتارة يحمل عليه إجلال الله وإعظامه ومحبته، وأنه أهل أن يُطاع فلا يُعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، وأن يفتدى من انتهاك محارمه بالنفوس والأموال كما قال بعض السلف، وددت أن الخلق كلهم أطاعوا الله وإنَّ لحمي قرض بالمقاريض، ومن لحظ هذا المقام هان عليه كل ما يلقى من الأذى في الله تعالى، وربما دعا لمن آذاه، وبكل حال يتعين الرفق في الإنكار، قال سفيان الثوري: لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فيه ثلاث خصال: رفيق بما يأمر، رفيق بما ينهى، عدل بما يأمر، عدل بما ينهى، عالم بما يأمر، عالم بما ينهى)[2].

قال أبو حامد الغزالي: (وآداب المحتسب مصدرها ثلاث صفات في المحتسب: العلم والورع وحسن الخلق.

أما العلم: فليعلم مواقع الحسبة وحدودها ومجاريها وموانعها ليقتصر على حد الشرع فيه.

والورع: ليردعه عن مخالفة معلومة، فما كل من علم عمل بعلمه. بل ربما يعلم أنه مسرف في الحسبة وزائد على الحد المأذون فيه شرعًا، ولكن يحمله عليه غرض من الأغراض. وليكن كلامه ووعظه مقبولاً، فإن الفاسق يهزأ به إذا احتسب، ويورث ذلك جراءة عليه.

وأما حسن الخلق: فليتمكن به من اللطف والرفق وهو أصل الباب وأسبابه. والعلم والورع لا يكفيان فيه. فإن الغضب إذا هاج لم يكف مجرد العلم والورع في قمعه مالم

(١) سورة المائدة، آية: ٧٨، ٧٩.

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢/٢٥٥، ٢٥٦.

يكن في الطبع قبوله بحسن الخلق. وعلى التحقيق فلا يتم الورع إلا مع حسن الخلق والقدرة على ضبط الشهوة والغضب، وبه يصبر المحتسب على ما أصابه في دين الله. وإلا فإذا أصيب عرضه أو ماله أو نفسه بشتم أو ضرب نسي الحسبة، وغفل عن دين الله، واشتغل بنفسه، بل ربما يقدم عليه ابتداء لطلب الجاه والاسم.

فهذه الصفات الثلاث بها تصير الحسبة من القربات وبها تندفع المنكرات وإن فقدت لم يندفع المنكر. بل ربما كانت الحسبة أيضًا منكرة لمجاوزة حد الشرع فيها.

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: إذا كنت ممن يأمر بالمعروف فكن أول الناس أخذًا به وإلاهلكت وقد قيل:

لا تلم المرء على فعله ... وأنت منسوب إلى مثله

من ذم شيئًا وأتى مثله ... فإنما يزرى على عقله

ولسنا نعني بهذا أن الأمر بالمعروف يصير ممنوعًا بالفسق، ولكن يسقط أثره عن القلوب بظهور فسقه للناس.

وأوصى بعض السلف بنيه فقال: إن أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف فليوطن نفسه على الصبر، وليثق بالثواب من الله، فمن وثق بالثواب من الله لم يجد مس الأذى، فإذن من آداب الحسبة توطين النفس على الصبر. ولذلك قرن الله تعالى الصبر بالأمر بالمعروف. فقال سبحانه حاكيًا عن لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾[1])[2].

قال ابن قدامة: (واعلم أن الحسبة لها خمس مراتب: التعريف، والوعظ بالكلام اللطيف.

الثالثة: السب والتعنيف، ولسنا نعني بالسب الفاحشة، بل نقول له: يا جاهل يا أحمق، ألا تخاف من الله تعالى! ونحو ذلك.

---

(١) سورة لقمان، آية: ١٧.

(٢) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أبو حامد الغزالي، تحقيق: سيد إبراهيم، ص ٥٠، ٥١.

والرابعة: المنع بالقهر. ككسر الملاهي وإراقة الخمر.

والخامسة: التخويف والتهديد بالضرب، أو مباشرة الضرب له حتى يمتنع عما هو عليه، فهذه المرتبة تحتاج إلى الإمام دون ما قبلها، لأنه ربما جر إلى فتنة.

واستمرار عادات السلف على الحسبة على الولاة قاطع بإجماعهم على الاستغناء عن التفويض.

فإن قيل: فهل تثبت الحسبة للولد على الوالد، والعبد على السيد، والزوجة على الزوج والرعية على الوالي؟

قلنا: أصل الولاية ثابت للكل، وقد رتبنا للحسبة خمس مراتب:

فللولد من ذلك الحسبة بالتعريف، ثم بالوعظ والنصح باللطف.

وله من الرتبة الخامسة: أن يكسر العود، ويريق الخمر، ونحو ذلك، وهذا الترتيب ينبغي أن يجري في العبد والزوجة.

وأما الرعية مع السلطان، فالأمر فيه أشد من الولد، فليس معه إلا التعريف والنصح.

ويشترط كون المنكر قادرًا على الإنكار، فأما العاجز، فليس عليه إنكار إلا بقلبه، ولا يقف سقوط الوجوب على العجز الحسي، بل يلتحق به خوف مكروه يناله، فذلك في معنى العجز.

ومن آداب المحتسب: تقليل العلائق، وقطع الطمع عن الخلق لتزول المداهنة، فإن من لم يقطع الطمع من الناس من شيئين لم يقدر على الإنكار عليهم.

أحدهما: من لطف ينالونه به.

والثاني: من رضاهم عنه وثنائهم عليه.

وأما الرفق في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمتعين، قال الله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[1].

---

(١) سورة طه، آية: ٤٤.

وروي أن أبا الدرداء ﵁ مرّ على رجل قد أصاب ذنبًا والناس يسبونه، فقال: أرأيتم لو وجدتموه في قليب، ألم تكونوا مستخرجيه؟

قالوا: بلى، قال: فلا تسبوا أخاكم، واحمدوا الله الذي عافاكم. فقالوا: أفلا تبغضه؟ فقال: إنما أبغض عمله، فإذا تركه، فهو أخي.

ومر فتى يجر ثوبه، فهمَّ أصحاب صلة بن أشيم أن يأخذوه بألسنتهم أخذًا شديدًا، فقال صلة: دعوني أكفكم أمره، ثم قال: يا ابن أخي، إن لي إليك حاجة.

قال: ما هي؟

قال: أحب أن ترفع إزارك، قال: نعم ونعمى عين[1]، فرفع إزاره، فقال صلة لأصحابه: هذا كان أمثل مما أردتم، فإنكم لو شتمتموه وآذيتموه لشتمكم.

ودعي الحسين إلى عرس، فجيء بجام من فضة فيه خبيص، فتناوله وقلبه على رغيف، فأصاب منه، فقال رجل: هذا نهي في سكوت)[2].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

حيث جاء في الحديث "لعن الله الذي وسمه" وأسلوب الترهيب يكف النفس عن الوقوع في المحظورات الشرعية، لأن النفس البشرية بطبيعتها وفطرتها تخاف العقاب والوعيد (إن النفس البشرية بقدر ميلها لأساليب الترغيب لحرصها على ما ينفعها، فإنها بحاجة إلى الترهيب لردعها عن غيها وانحرافها عن الطريق المستقيم، لأن الترهيب فيه تخويف يحمل النفس وصاحبها على ترك المعاصي والآثام، واجتناب الجرائم والذنوب، وإذا ما أحسن الداعية إيراد شواهد القرآن والسنة في الترهيب، فإنه بلا شك سيؤثر في المتلقين أكبر التأثير وأعظمه)[3].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: بيان خطر وسم الحيوان في وجهه:

حيث جاء في الحديث "لعن الله الذي وسمه" وقوله "نهى رسول الله ﷺ عن الضرب في الوجه وعن الوسم في الوجه" قال الإمام النووي: (وأما الضرب في الوجه

---

(١) أي قرة عين، يعني: أقر عينك بطاعتك واتباع أمرك.

(٢) مختصر منهاج القاصدين ١٣٣، ١٣٨- ١٣٩.

(٣) قواعد الدعوة الإسلامية، د. حمدان الهجاري، ٥١٥.

فمنهي عنه في كل الحيوان المحترم من الآدمي والحمير والخيل والإبل والبغال والغنم وغيرها، لكنه في الآدمي أشد؛ لأنه مجمع المحاسن مع أنه لطيف؛ لأنه يظهر فيه أثر الضرب وربما شانه، وربما آذى بعض الحواس، وأما الوسم في الوجه فمنهي عنه بالإجماع فأما الآدمي فوسمه حرام لكرامته، ولأنه لا حاجة إليه فلا يجوز تعذيبه، وأما غير الآدمي فالأظهر تحريمه، وأما وسم غير الوجه من غير الآدمي فجائز بلا خلاف)[1].

قال في النهاية: (والوسم العلامة في الشيء يقال وسمه يسمه سمة ووسمًا إذا أثر فيه بكي، ويسم الإبل يُعَلِّم عليها بالكي والميسم: الحديدة التي يكون بها)[2].

قال المازري: (وقوله "نهى رسول الله ﷺ عن الضرب في الوجه، وعن الوسم في الوجه. قال عبدالوهاب: تكره السمة في الوجه ولا تكره في غيره؛ لأنه ﷺ نهى عن السمة في الوجه، وأرخص فيها في الأذن. قال: ويجوز في غيره؛ لأن بالناس حاجة إلى علامات يعرفون بها بهائمهم)[3].

وقال القاضي عياض: (وقوله: "نهى عن الضرب في الوجه وعن الوسم في الوجه" وأنه لعن فاعله الذي وسم حمارًا في وجهه، وقوله في حديث ابن عباس: قال: فلا والله لا أسمه إلا في أقصى شيء من الوجه، فكوى حماره في جاعرتيه، فهو أول من كوى الجاعرتين: قائل هذا هو العباس والده لا ابنه عبدالله صاحب الحديث، وهو في كتاب مسلم مشكل ليس فيه ذكر لقائله، وتوهم أنه من قول النبي ﷺ وبيانه ما تقدم.

وكذا ضبطنا هذا الحرف -الوسم- بالسين المهملة، وبعضهم يقول: فيه الوجهين السين والشين، وبعضهم فرق فقال: بالمهملة في الوجه، وبالمعجمة في سائر الجسد. والجاعرتان حرفا الورك المشرفان مما يلي الدبر.

وأما نهيه عن الضرب في الوجه، فإن فيه المحاسن، وأقل أثر فيه يشينه، وربما آذى البصر أو أذهبه، مع إهانة الصورة التي اختص الله بها بني آدم وكرمهم بها، ونبه في الحديث الآخر على إكرامها بخلق نبيه آدم أبي البشر عليها.

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي، ١٣٣٥.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (و س م).

(٣) المعلم بفوائد مسلم ٢/٢٣٩.

وما ذكره مسلم أن النبي ﷺ وسم غنمًا، وذكر في آذانها: يدل على ما ذكر وعلى جواز الوسم بالقطع والشق؛ لأنه الذي يمكن في الأذن)[١].

قال الدكتور الحسيني هاشم: (في الأحاديث النهي عن تعليم الحيوان في وجهه بحرق أو قطع أو ما إلى ذلك، لأن الوجه لطيف يجمع المحاسن، وأعضاؤه نفيسة لطيفة وأكثر الإدراك بها، وقد يبطلها أو ينقصها ضرب الوجه. ففيها الرفق بالحيوان، وعدم إيذائه في وجهه لشدة حساسيته)[٢].

وجاء في الموسوعة الفقهية: (قال الشافعية: يكون الوسم في موضع صلب ظاهر لا يكثر شعره. والأولى في الغنم الآذان، وفي الإبل والبقر الأفخاذ، وكذا الخيل، والبغال والحمير، والفيلة.

وقالوا: ينبغي أن يكون وسم الغنم ألطف، وفوقه الحمير، وفوقه البقر والبغال، وفوقه الإبل، وفوقه الفيلة.

أما الوسم على الوجه فهو حرام على الأصح عند الشافعية لحديث جابر رضي الله عنه: ((أن النبي ﷺ مَرَّ عليه حمار قد وسم في وجهه، فقال: لعن الله الذي وسمه))[٣].

وذهب المالكية والشافعية في مقابل الأصح عندهم وبعض الحنابلة إلى أن الوسم في وجه الحيوان مكروه.

وهذا في غير الآدمي. أما الآدمي فوسمه حرام إجماعًا، لأن وسم الآدمي مُثْلة، وهي منهي عنها إلا إذا كان للتداوي)[٤].

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم المسمى، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٦/٦٤٤- ٦٤٥.

(٢) شرح رياض الصالحين ٧٥٠، ٧٥١.

(٣) أخرجه مسلم ٢١١٧.

(٤) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٤٣/١٤٥- ١٤٦.

الحديث رقم (١٦١٠)

١٦١٠- وعنه(١): أنَّ النبيَّ ﷺ مَرَّ عَلَيْهِ حِمَارٌ قَدْ وُسِمَ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ: ((لَعَنَ اللهُ الَّذِي وَسَمَهُ)) رواه مسلم(٢).

وفي رواية لمسلم(٣) أيضًا: نهى رسول الله ﷺ عَنِ الضَّرْبِ فِي الوَجْهِ، وَعَنِ الوَسْمِ فِي الوَجْهِ.

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

موسوم الوجه: مُعلَّم عليه بالكيِّ(٤).

الشرح الأدبي

لقد أنعم الله على الإنسان بنعم كثيرة لا تعد ولا تحصى، ومنها نعمة تسخير الحيوان له، وتذليل أضخم الحيوانات لخدمته في قضاء مآربه: قال تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٥).

---

(١) إيراد المؤلف بهذه الصورة يشير إلى أنه من حديث ابن عباس، وليس كذلك، بل هو من حديث جابر كما في مسلم، وأورده الحميدي في جمعه (٢/٣٩٥، رقم ١٦٦١) في مسند جابر، لكن المؤلف تبع فيه المنذري في ترغيبه (٣٣٨٤) حيث قال عن ابن عباس.

(٢) أخرجه مسلم (٢١١٧/١٠٧) من حديث جابر، وليس من حديث عبد الله بن عباس، كما في الجمع للحميدي (٢/٣٩٥، رقم ١٦٦١). تنبيه: هذا الحديث أورده المنذري في ترغيبه (٣٣٨٤) من حديث ابن عباس، فتبعه عليه المؤلف، وكذا الحافظ ابن حجر في تهذيبه (٩٢٢).

(٣) برقم (٢١١٦/١٠٦) من حديث جابر. كما في الجمع للحميدي.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (و س م).

(٥) سورة النحل، الآيات: ٥-٧ .

والمصطفى ﷺ في هذا الحديث ينبه كل مسلم، وكل إنسان إلى الرفق بالحيوان، وعدم تشويه ملامح وجهه، وما أعظم هذا التعاطف الإنساني مع ذلك الحيوان الأبكم الذي لا يبين، والحديث في غاية الإيجاز، ولكنه عميق في معناه، بليغ في مبناه، وهذه الجملة الحديثية جاءت في صيغة دعائية، حيث دعا الرسول ﷺ على من أحدث هذا الوسم في وجه الحمار بالطرد من رحمة الله. لأن اللعن هو البعد والطرد من رحمة الله عز وجل.

والتعبير بقول الراوي: "مر عليه حمار" يدل على أن الحمار لم يكن يركبه أحد، ولا يعرف صاحبه، وقوله: "قد وسم في وجهه" يثبت أن الوسم محقق، ولذلك سبق الفعل "وسم" بالحرف "قد"، وهي للتحقيق والتأكيد، وبُني الفعل وسم للمجهول: لأن الفاعل مجهول، ولذلك لم يحدد الرسول ﷺ الشخص الذي وسمه، وقال متوعدًا من أقدم على هذا الفعل، الخبيث "لعن الله الذي وسمه" وعبر عنه باسم الموصول لمزيد من التحديد نظرًا لفداحة هذا الصنيع الذي تنبه له رسول الله ﷺ... بينما يغفل عن مثل هذه الصور والسلوكيات الكثيرون، وهم في غفلتهم ساهون، وفي غيهم سادرون.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: من أهداف التربية: الرفق بالحيوان:

إن الرفق هدف تربوي، يجب غرسه في نفوس الناشئة، ولا يتوقف الرفق على البشر فقط، بل يشمل كل حيوان ودابة عجماء، وقد شدد الإسلام على من تقسو قلوبهم على الحيوان ويستهينون بآلامه، بل وبين أن الإنسان على عظم قدره قد يدخل النار في إساءة يرتكبها مع دابة عجماء[1].

وهذا ما ظهر جليًا في أحاديث الباب من قوله ﷺ: «عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّىٰ مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ ...إلخ».

وقد بين ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم في أحاديث الباب أن من افتقر في تربيته إلى الرفق بالحيوان عوقب باللعن، وذلك في قول ابن عمر رضي الله عنهما، «إنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَعَنَ مَنِ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ، غَرَضًا»، وقول ابن عباس رضي الله عنهما: «إنَّ النَّبِيَّ ﷺ عِنْدَما مَرَّ عَلَيْهِ حِمَارٌ قَدْ وُسِمَ فِي وَجْهِهِ . فَقَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ الَّذِي وَسَمَهُ». وفي هذا دلالة واضحة على أن تعذيب الحيوان بلا سبب معصية تستوجب العقاب[2]؛ لذا وجب على دعاة التربية غرس خلق الرفق بالحيوان في نفوس المتربين.

ومما لاشك فيه أن تحقيق ذلك يعكس نتيجة تربوية في تنشئة المتربي، حيث رقة الشعور وفيض الرحمة على من حوله.

ثانيًا: التربية على معاملة الخدم بالرحمة واللين:

إن مما يجدر القيام بغرسه في قلوب المتربين، معرفة أن الخدم لهم نفوس كنفوس المخدومين، ولهم عواطف تتأثر بالإساءة إليهم كما تتأثر نفوس المخدومين إن أُسيء إليها، وما جعلهم الله تحت أيدي المخدومين إلا ليساعدوهم في أعمالهم، فوجب عليهم ألا يغلظوا لهم في القول، ولا يكلفوهم من الأعمال فوق طاقتهم، وإن كلفوهم

---

(١) خلق المسلم، محمد الغزالي، ٢١١.

(٢) الأدب النبوي، محمد الخولي، ٤٣.

فيعينوهم لأنهم لم يخلقوا حجارة أو حديدًا، ولكنهم بشر تتألم أجسامهم بالأعمال الشاقة، وتُجرح مشاعرهم بسيء القول، والكلام البذيء.

والإسلام لا يرضى بقول الشاعر:

لا تَشْتَرِ العَبْدَ إلاّ وَالعَصَا مَعَهُ ... إنّ العَبِيدَ لأنْجَاسٌ مَنَاكِيدُ

ولا يؤمن بقول الآخر:

العَبْدُ يُضْرَبُ بالعَصا ... والحُرُّ تَكفِيهِ الإشَارَة[1]

لذا وجب على دعاة التربية والتوجيه الحث على معاملة الخدم بالرحمة واللين، وهذا ما ترائى جليًا في نهي النبي ﷺ عن ضرب الخدم وإهانتهم، وذلك في قول أبي علي سويد بن مقرن رضي الله عنه: «لَقَدْ رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مِنْ بَنِي مُقَرِّنٍ، مَا لَنَا خَادِمٌ إِلاَّ وَاحِدَةٌ، لَطَمَهَا أَصْغَرُنَا، فَأَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نُعْتِقَهَا»، وقوله ﷺ: «...اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ...»، وقوله ﷺ: «من ضرب غلامًا......إلخ».

ثالثًا: الرفق في تربية النشء:

لقد صدَّر النووي أحاديث الباب بعنوان: "النهي عن تعذيب العبد والدابة والمرأة والولد بغير سبب شرعي؛ لذا كان من الواجب الإشارة إلى ضرورة الرفق في تربية النشء.

لاعتقاد كثير من الآباء أن تربية الأطفال وتعليمهم يتناسب مع مقدار الشدة عليهم، فكلما أكثرنا من عقوبتهم حسنت تربيتهم وتهذبت نفوسهم! وتظهر هذه من وصايا الآباء للمعلمين: «اللحم لكم والعظم لنا!»، وقد يظن الكثير أن هذه الشدة والقسوة على هؤلاء الأطفال إذا لم تنفع فإنها لا تضر وتذهب بذهاب أيام الطفولة... وهذا خطأ كبير فإن كل شدة على الطفل تؤثر في نفسيته وعقله، فإذا لم تظهر سريعًا فإنها تبقى مكبوتة مختبئة في النفس، لا تلبث أن تظهر بشكل ثورة أو جنون بل ربما أدت إلى الموت السريع.

---

(١) إصلاح المجتمع، محمد سالم الكدادي البيحاني، ٢٤٨ بتصرف.

فقد روي أن دارًا تضم شابًا تظهر عليه علامات الجنون، فسئل عن قصته؟ فقيل: إنه ارتكب ذنبًا منذ سنوات، فأراد والده تربيته! فأحضر سكينًا وتظاهر بأنه يريد أن يذبحه فوضعها على عنقه فخاف الفتى، وفي الصباح جُنَّ، وبقي هذا عدة سنوات ثم التزم السكوت إلى وقتنا هذا...، وقد روي أيضًا أن ابنة سرقت من دارها قليلاً من المال، فعلم أبوها بالأمر، فأراد أن يربيها! فأحضر قلمًا أحمر مساء، وعلم به على يديها بدائرة حول معصمها، وقال لها في الصباح: سأقطع يدك الجانية. فباتت ساخنة طوال الليل، وأصيبت بالحمى، ثم فارقت الحياة بعد أيام[1].

لذا وجب على دعاة التربية والتوجيه الرفق في تربية النشء المسلم بما لا يخل بضوابط الشرع في ذلك.

رابعًا: التربية على الرفق بالنساء:

إن من أهم أوجه التربية الاجتماعية التي يجدر بدعاة التربية والتوجيه غرسها وإقامتها في بنيان الأسرة المسلمة، الرفق بالنساء؛ لذا صدر النووي في هذا الباب نهيه عن تعذيب المرأة بغير سبب شرعي، حتى يَعْلَم المتربون والمتعلمون أهمية الرفق في معاملة النساء.

ولقد سمع كثير منا بقصص رجال يسيئون إلى زوجاتهم كأنهن عبيد لدى سيد جبار، فنراهم يتفنَّنون في تعذيبهن وشتمهن حتى يصل الأمر في كثير من الأحيان إلى الضرب، مما يجعل البيت جحيمًا لا يطاق، وكل ذلك ليس من صفات الرجال الصالحين، وقد نهى الإسلام - نصير المرأة - عن مثل هذا السلوك، وكان من آخر وصايا الرسول ﷺ في حجة الوداع: «...ألاَ واسْتَوْصُوا بالنِّسَاءِ خَيْرًا!»[2][3].

وحتى يتسنى لدعاة التربية والتوجيه غرس الرفق في معاملة النساء كان عليهم مراعاة الآتي في توجيه المتربين والمتعلمين:

---

(١) نحو أسرة مسلمة، محمود مهدي الاستانبولي ص٩٢.

(٢) أخرجه الترمذي، ١١٦٣، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي، ٩٢٩).

(٣) نحو أسرة مسلمة، محمود مهدي الاستانبولي، ١١٩.

١ - تفهُم حقيقة أنوثة المرأة، لقوله ﷺ: «... فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، إِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ»، وفي رواية: «إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَىٰ طَرِيقَةٍ، فَإِنْ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ وَبِهَا عِوَجٌ»[1].

وفي هذا توجيه الرجل إلى الصبر على ما يصدر من المرأة من سلوك مبعثه هذا "العوج" وليتذكر أنها لا تتعمد هذا السلوك لمضايقته وإحراجه، إنما هو نتيجة ما قدره الله على المرأة من طبيعة خاصة، تتميز بسرعة الانفعال وشدته، فليصبر، وليكن سمحًا كريمًا، وليعلم أن هذه الخاصية من خصائص المرأة يمكن أن يكون لها أثر طيب، في إقدارها على أداء مهمتها الأساسية من حمل وإرضاع وحضانة، إذ تحتاج إلى عاطفة بالغة وحساسية مرهفة[2].

٢ - على المتربي الرجل ألا يطلب الكمال، بل يطلب أحسن الموجود! وهلا فكر في نفسه فيما إذا كان كاملاً خاليًا من العيوب؟!، فلا داعي لطلب الكمال من غيرنا ونحن في العيوب غارقون إلى الأذهان منتهزين فرصة ضعف المرأة وفقرها، فإن كنا أقوياء عليها فإن الله أقوى منا علينا: جاء في الحديث الشريف: «لاَ يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً. إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ»[3][4].

٣ - بيان أن المرأة ربة البيت، ومن كان هذا شأنه كان جديرًا بالاحترام ومنحه السلطة اللازمة لتنفيذ أوامره حتى يستطيع تأدية مهمته، فعلى الأب ألا يغفل عن هذه الناحية الخطيرة وعليه أن يحترم امرأته ولا يهينها، وخاصة أمام أولادها كيلا تصغر تجاههم، وتضعف شخصيتها، فلا تقدر على تنفيذ ما ينبغي تنفيذه لتأمين نظام البيت

---

(١) أخرجه مسلم، ١٨٧، ١٨٨.

(٢) استراتيجيات التربية الأسرية في الإسلام، لجنة البحوث والدراسات، إشراف د. توفيق يوسف الواعي، ٢٥٥/١.

(٣) أخرجه مسلم، ١٨٦.

(٤) نحو أسرة مسلمة، محمود مهدي استانبولي، ١٢٠.

ومصالحه، زد على ذلك أن المرأة الحقيرة لا تستطيع أن تنجب وتربي أولادًا أعزة أقوياء الشخصية، فالعبد لا يلد إلا العبد!، فواجب الأب أن ينتبه إلى ذلك كله، ويسعى جهده لاحترام زوجته وإعطائها الصلاحيات اللازمة والسلطات الكافية لتنجب له أولادًا أعزة وأكفاء.

وإهانة المرأة ربما أثار فيها الضغينة والنقمة فتنشئ أولادها على بغض أبيهم واحتقاره والثورة عليه[1].

رابعًا: التربية بالترهيب:

إن النبي ﷺ لم يغفل عن أي طريقة أو أسلوب يوجه الإنسان ويرشده إلى السلوك الذي تصلح به حياته الدنيوية والأخروية، وكان الترهيب من أمثل الأساليب التربوية التي أشار إليها النبي ﷺ في تربية النفس، حيث إنه يمثل القوة الصادة عن الانحراف إلى سبيل الشر، التي ينهى عنها الإسلام، وذلك لأن إثارة المخاوف من سلوك سبيل ما، أو القيام بعمل ما، من شأنها أن تقلل من اندفاع الإنسان نحو ذلك السبيل أو ذلك العمل، وأن تضعف من قوته، وتجعله قلقًا حذرًا، وهذا ما ظهر جليًا في أحاديث الباب، حيث الترهيب من تعذيب العبد والدابة والمرأة والولد بغير سبب شرعي، وقد شمل الترهيب في ذلك أوج الوعيد والتهديد بسوء العقوبة، كما في قوله ﷺ: «... فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ ... إلخ». وقول ابن عمر رضي الله عنهما: «لعن الله من فعل هذا»، «إنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَعَنَ مَنِ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ، غَرَضًا»، وقوله ﷺ: «... اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَـٰذَا الْغُلَامِ...»، وقوله: «أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ، لَلَفَحَتْكَ النَّارُ، أَوْ لَمَسَّتْكَ النَّارُ»، وقوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا»، وقوله ﷺ: «لَعَنَ اللَّهُ الَّذِي وَسَمَهُ».

۞ ۞ ۞

---

(١) نحو أسرة مسلمة، محمود مهدي استانبولي، ١٩.

٢٨٣- باب تحريم التعذيب بالنار في كل حيوان حتّى النملة ونحوها

الحديث رقم (١٦١١)

١٦١١- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعثنا رسولُ الله ﷺ في بَعْثٍ، فقال: ((إنْ وَجَدتُمْ فُلاناً وفُلاناً)) (لِرَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ سَمَّاهُمَا) [١] ((فأحْرِقُوهُمَا بالنَّارِ)) ثُمَّ قَالَ رسولُ الله ﷺ حِينَ أرَدْنَا الخُرُوجَ: ((إنِّي كُنْتُ أمَرْتُكُمْ أنْ تُحْرِقُوا فُلاناً وفُلاناً، وإنَّ النَّارَ لا يُعَذِّبُ بِهَا إلاَّ الله، فإنْ وَجَدْتُمُوهُما فاقْتُلُوهُما)) رواه البخاري[٢].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

الشرح الأدبي

لقد نوع الإسلام نوع العقوبة، وجعل منها "تفويضية" بحسب ما يراه الحاكم في كل زمان ومكان وحال، وأخرى "نصية" لايجوز تعديلها ولا اعتراض عليها، ليشمل بتشريعه كل أنواع الجريمة، ولتكفل العقوبات عليها راحة المجتمع وسعادته بقدر الإمكان[٣].

وحين نتأمل آفاق المعنى في هذا الحديث الشريف، ونرصد جماليات الأداء الأسلوبي في تقديم المراد من الحديث، نجد أن هذين الرجلين استحقا عقوبة القتل -في ضوء ما حددته الشريعة، ولكن كيف يكون قتلهما؟ وبأي وسيلة، والحديث يتكون من قسمين، القسم الأول يصور ملابسات الحكم بالقتل، ويحدد وسيلة القتل، فالرجلان

---

(١) هذه الزيادة لا توجد عند البخاري في هذه الرواية، وإنما عنده برقم (٢٩٥٤).

(٢) برقم (٣٠١٦).

(٣) التكافل الاجتماعي في الإسلام، د. عبدالعال أحمد عبدالعال، ص٢٨٨.

من الأعداء الذين يكيدون للإسلام، ومعنى في بعث، أي في جيش مبعوث به للجهاد، فقتلهما بأمر من رسول الله ﷺ، وجاء الإذن بالقتل في صيغة الشرط والجزاء، وهذا المبنى اللغوي مناسب للحدث المعبر عنه، لأن الرجلين ارتكبا جريمة عقوبتها القتل حدًّا والجزاء من جنس العمل، ولكن أداة الشرط "إن" مهَّدت لهذا التراجع الذي أعلنه الرسول ﷺ: فهي ليست يقينية مثل "إذا" ولذلك قال: "إن وجدتم فلاناً وفلاناً فأحرقوهما بالنار".

والقسم الثاني يبدأ بحرف العطف "ثم" وهي توحي بالتمهل والمراجعة والتفكير، ولذلك تراجع الرسول ﷺ عن وسيلة العقوبة وهي القتل بالنار، وبدأ كلامه في الموقف الثاني بالتأكيد وفعل الكينونة الدال على الحدث الماضي "إني كنت أمرتكم..." ثم جاء بالعلة التي من أجلها كان تراجعه، وهذه العلة بدأت كذلك بالتأكيد ثم أسلوب القصر الذي يحدد من يعذب بالنار: حيث يقول رسول الله ﷺ "وإن النار لا يعذب بها إلا الله"، وهذه الجملة إما مستأنفة أو حالية، وحتى لا يقع في الظن أن الرسول ألغى عقوبة القتل أعاد الرسول ﷺ الحكم مرة ثانية في صيغة الجواب والشرط: وأداة الشرط "إن" واستخدامها هنا يوحي بأن هؤلاء الخارجين في بعث للقتال يمكن أن لا يجدوا هذين الرجلين: قال عليه الصلاة والسلام: "فإن وجدتموهما فاقتلوهما"، وهذا الأمر لا يتنافى مع الرحمة التي وصف بها رسول الله ﷺ لأن هذين الرجلين ارتكبا من الجرائم والكبائر ما يستحقان عليه هذا الجزاء الصارم الحكيم، حتى يكونا عبرة لغيرهما.

فقه الحديث

يشتمل هذا الحديث على الأحكام الفقهية الآتية:

١- حكم التحريق بالنار: اختلف الفقهاء في هذه المسألة على رأيين:

الرأي الأول: وهو مروي عن بعض الصحابة كعمر بن الخطاب رضي الله عنه وعبدالله بن عباس رضي الله عنهما وحاصله أن التحريق مكروه مطلقاً، سواء أكان ذلك بسبب كفر أم في حال مقاتلة، أم كان قصاصاً[1].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٦/١٧٤.

واستدلوا على ذلك: بحديث الباب، فقد جاء فيه: "... إن النار لا يعذب بها إلا الله".

الرأي الثاني: وهو ما ذهب إليه الحنفية[١]، والشافعية[٢]، والحنابلة[٣]، ويرون جواز التحريق وممن قال بذلك: خالد بن الوليد، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما والثوري والأوزاعي[٤].

وقد استدلوا على ذلك بما يأتي:

أ- إن رسول الله ﷺ قد سَمَلَ أعينَ العرنيين بالحديد المحمى[٥]، وفعله ﷺ دليل الجواز.

ب- إن أبا بكر رضي الله عنه قد حرق البغاة بالنار بحضرة الصحابة.

ج- إن خالداً رضي الله عنه قد حرق ناساً من أهل الردة[٦].

الترجيح:

ولعل الراجح في المسألة أن ذلك لا يجوز اللجوء إليه إلا لضرورة كما لو تعين ذلك طريقاً للظفر بالعدو.

أما قصة العرنيين فلعلها كانت قصاصاً، أو منسوخة[٧]، وأما تجويز بعض الصحابة للتحريق فمعارض بمنع البعض الآخر[٨].

---

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين بن مسعود الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ١٤٩/٧، الهداية للمرغيناني ١٣٦/٢، المكتبة الإسلامية.

(٢) مغني المحتاج إلى معرفة معاني الفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٢٧٩/٤.

(٣) الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ١٢٨/٤.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ١٧٤/٦.

(٥) الحديث أخرجه البخاري ٣٠١٨، ومسلم ١٦٧١.

(٦) فتح الباري، ابن حجر ١٧٤/٦، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٢٣٩/٧.

(٧) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي، والهداية شرح بداية المبتدي ٢٣٧/٢، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٨٣/٥، فإن قيل: إن دعوى النسخ تثبت حيث علم التاريخ، وهو هنا غير معلوم، نقول: إنه -في هذه الحالة- يكون قد تعارض دليل محرم، مع دليل مبيح، فيقدم المحرم. انظر: رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين ١٣١/٤.

(٨) فتح الباري، ابن حجر ١٧٤/٦، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٢٣٩/٧.

المسألة الثانية: إن هذا الحديث يدل على جواز الحكم بالشيء اجتهاداً، ثم الرجوع عنه.

المسألة الثالثة: استحباب ذكر الدليل عند الحكم لرفع الإتلباس، لأن رسول الله ﷺ علل عدوله عن الحكم الأول بأن "النار لا يعذب بها إلا الله"[١].

المسألة الرابعة: جواز الاستتابة في الحدود ونحوها[٢].

المسألة الخامسة: جواز نسخ الحكم قبل العمل به، أو قبل التمكن من العمل به، وهو محل اتفاق إلا عن بعض المعتزلة[٣].

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: البعوث.

ثانياً: من أساليب الدعوة: الشرط.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: بيان حرمة التعذيب بالنار.

رابعاً: من فقه الداعية: مراجعة أقواله عند ظهور الأصح.

أولاً- من وسائل الدعوة: البعوث:

حيث جاء في الحديث "بعثنا رسول الله ﷺ في بعث" ولاشك أن هذه البعوث وسيلة من وسائل الدعوة، يقول محمد الغزالي: (والحكمة من توجيه السرايا والبعوث أمران: أولهما: إشعار مشركي يثرب ويهودها وأعراب البادية الضاربين حولها بأن المسلمين أقوياء، وأنهم تخلصوا من ضعفهم القديم، والأمر الآخر: إنذار قريش عقبى طيشها، فقد حاربت الإسلام وكانت لا تزال تحاربه، ونكلت بالمسلمين في مكة، ثم ظلت ماضية في غيها، لا تسمح لأحد من أهل مكة أن يدخل في دين الله، ولا تسمح لهذا

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ١٧٥/٦.

(٢) الهداية شرح بداية المبتدي ٩٨/٢، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم بن مهنا النفراوي المصري ٢٠٩/٢، والتنبيه، الشيرازي ٢٤٢، زاد المستقنع لموسى بن أحمد سالم المقدسي أبي النجا، ص ١٠٠.

(٣) الإبهاج في شرح المنهاج لعلي بن عبدالكافي السبكي ٢٣٤/٢، وإحكام الإحكام، ابن حزم ٥٠٠/٤.

الدين أن يجد قراراً في بقعة أخرى من الأرض، فأحب الرسول ﷺ أن يشعر حكام مكة بأن هذه الخطة الجائرة ستلحق بهم الأضرار الفادحة، وأنه قد مضى - إلى غير عودة- ذلك العصر الذي كانوا يعتدون فيه على المؤمنين وهم بمأمن من القصاص)[١].

إن هذه البعوث والسرايا تظهر قوة المسلمين كما قال الله تعالى: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾[٢] وهي وسيلة مهمة من وسائل الدعوة.

ومن التطبيقات العملية لإيفاد البعوث والسرايا لنشر الدعوة:

(بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة داعياً إلى الإسلام، ولم يبعثه مقاتلاً، فلما رآه القوم أخذوا السلاح، فقال لهم خالد: ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا، فقام رجل منهم يسمى: جحدراً فقال: ويلكم يا بني جذيمة إنه خالد؛ والله ما بعد وضع السلاح إلا الإسار، وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق، والله لا أضع سلاحي أبداً فلم يزالوا به حتى وضع سلاحه.

فلما وضع السلاح أمر بهم خالد فكتفوا، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا، وخالد يأخذ فيهم أسراً وقتلاً، فأنكر عليه بعض أصحابه ذلك، ثم دفع الأسرى إلى من كان معه، حتى إذا أصبح يوماً أمر خالد أن يقتل كل واحد أسيره، فامتثل البعض، وامتنع عبدالله بن عمر وامتنع معه آخرون من قتل أسراهم، فلما قدموا على رسول الله أخبروه، فغضب ورفع يديه إلى السماء قائلاً: "اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد" مرتين.

وقد أنكر على خالد الصحابي الجليل عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه، وقال له: عملت بأمر الجاهلية في الإسلام، وكانت بينهما ملاحاة قال له فيها عبدالرحمن: إنك ثأرت لعمك الفاكه بن المغيرة، وكان بعض بني جذيمة قتلوه في الجاهلية[٣] وكذلك أنكر على خالد بعض كتاب السير والتاريخ، ورموه بما رماه به ابن عوف.

---

(١) فقه السيرة ٢١٣، ٢١٤.

(٢) سورة الأنفال، آية:٦٠.

(٣) السيرة لابن هشام ٤٣١/٢.

والظن بمثل خالد رضي الله عنه أنه إنما أراد نصرة الإسلام، وأنه اجتهد في أمر وتأوّل فأخطأ، ففهم من كلامهم صبأنا أنهم يتبرأون من الإسلام، لا أنهم يريدون الإسلام. ولعل هذا هو السبب في أن النبي صلى الله عليه وسلم عذره ولم يعزله، وإن كان تبرأ من فعله إلى الله، وما كان رسول الله يداهن، أو يخاف في الحق لومة لائم.

وبعض من يعذر خالداً وينتصر له يزعم أن خالداً قال: ما قاتلت حتى أمرني بذلك عبدالله بن حذافة السهمي، وقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمرك أن تقاتلهم لامتناعهم عن الإسلام، وليس من شك في أن لخالد من المواقف المشهودة، والتضحية بالنفس، ما يغفر له مثل هذه الهنات، والله يغفر لهم جميعاً.

ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب وقال له: "يا علي، اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم. واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك".

فخرج حتى جاءهم ومعه مال قد بعث به رسول الله معه، فودَى لهم الدماء وما أصيب لهم من مال حتى ميلغة الكلب[1]، وبقيت معه بقية من المال فقال لهم: هل بقي لكم دم أو مال لم يؤدَّ لكم؟ قالوا: لا، قال: فإني أعطيتكم هذه البقية احتياطاً لرسول الله مما لا يعلم ولا تعلمون، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما صنع فقال له: "أصبت، أحسنت".

وبهذا التصرف النبوي الحكيم واسى النبي صلى الله عليه وسلم بني جذيمة، وأزال ما في نفوسهم من أسىً وحزن.

ومن البعوث في العهد النبوي: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد رضي الله عنه في ثلاثين فارساً لهدم العزى، وهي هيكل بنخلة تعظمه قريش وكنانة ومضر؛ وكان ذلك لخمس بقين من رمضان، فذهب إليها وهدمها وهو يقول:

يا عُزّ كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك

وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص رضي الله عنه لهدم سُواع، وهو أعظم صنم لهذيل على ثلاثة أميال من مكة، فذهب إليه وهدمه.

---

(١) الميلغة: إناء من خشب كان يعد لشرب الكلب.

وبعث سعد بن زيد الأشهلي في عشرين فارساً لهدم مناة، وهي صنم لكلب وخزاعة، وهيكلها بالمشلل، وهو جبل على ساحل البحر يهبط منه إلى قُدَيد، فتوجهوا إليها وهدموها.

وبهذا الفتح المبين وسقوط دولة الأصنام والهياكل أصبح توحيد الله على كل لسان، وأضحت الكعبة منارة التوحيد في الأرض، وعادت كما كانت على عهد الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام[١].

ثانياً- من أساليب الدعوة: الشرط:

حيث جاء في الحديث "إن وجدتم فلاناً وفلاناً لرجلين من قريش سماهما" فأحرقوهما بالنار، وأسلوب الشرط من أساليب الدعوة التي لها تأثير على المدعو، إذ تلفت انتباهه إلى الربط بين الشرط وجوابه، ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب الشرط قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[٢] وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[٣].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: بيان حرمة التعذيب بالنار:

حيث جاء في الحديث "وإن النار لا يعذب بها إلا الله" وهذا يبين حرمة التعذيب بالنار. قال الإمام ابن حجر: (والحكم في هذه المسألة واضح لوضوح دليله، ومحله إذا لم يتعين التحريق طريقاً إلى الغلبة على الكفار حال الحرب، وهذا الحديث ظاهر النهي فيه التحريم، وهو نسخ لأمره المتقدم سواء كان بوحي إليه أو باجتهاد منه، وهو محمول على من قصد إلى ذلك في شخص بعينه)[٤]. وقال الشيخ ابن عثيمين: (ومعنى تحريم التعذيب بالنار: أنه لا يحل لإنسان أن يعذب أحداً بالإحراق، لأنه يمكن التعذيب بدونه، ويمكن إقامة الحدود بدون ذلك، فيكون الإحراق زيادة تعذيب لا حاجة لها)[٥].

(١) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، ص ٤٦٤- ٤٦٦ بتصرف.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٧.

(٣) سورة الإسراء، آية: ١٩.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ١٧٥/٦.

(٥) شرح رياض الصالحين ١٦٩٢/٢.

جاء في الموسوعة الفقهية: (وأما الإحراق في الحرب، فإذا قُدر على العدو بالتغلب عليه، فلا يجوز تحريقه بالنار من غير خلاف يعلم، لما جاء عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: ((بعثنا رسول الله ﷺ في بعث فقال: إن وجدتم فلاناً وفلاناً فأحرقوهما بالنار. ثم قال رسول الله ﷺ حين أردنا الخروج: إني أمرتكم أن تحرقوا فلاناً وفلاناً، وإن النار لا يعذب بها إلا الله، فإن وجدتموهما فاقتلوهما))[1].

فأما رميهم بالنار قبل القدرة عليهم مع إمكان أخذهم بغير التحريق لا يجوز، لأنهم حينئذ في حكم المقدور عليهم. وأما عند العجز عنهم بغير التحريق فجائز في قول أكثر أهل العلم، لفعل الصحابة والتابعين في غزواتهم.

هذا وإن تترس العدو في الحرب ببعض المسلمين، فإن اضطررنا إلى رميهم بالنار فهو جائز عند الجمهور. ومرجع ذلك إلى تقدير المصلحة العامة.

والحكم في البغاة والمرتدين في هذه المسألة كالكفار في حال القتال.

وأما إحراق أشجار الكفار في الحرب: إذا كان في ذلك نكاية بالعدو، ولم يرج حصولها للمسلمين، فالإحراق جائز اتفاقاً. بل ذهب المالكية إلى تعيُّن الإحراق. أما إذا رجي حصولها للمسلمين، ولم يكن في إحراقها نكاية، فإنه محظور وصرح المالكية بحرمته.

وأما إذا كان في إحراقها نكاية، ويرجى حصولها للمسلمين، فذهب الحنفية والشافعية إلى كراهة ذلك. بل صرح الشافعية بندب الإبقاء حفظاً لحق الفاتحين. وذهب المالكية إلى وجوب الإبقاء.

وإذا كان لا نكاية في إحراقها، ولا يرجى حصولها للمسلمين، فذهب الحنفية والمالكية إلى جوازه. ومقتضى مذهب الشافعية الكراهة لأنه الأصل عندهم.

أما الحنابلة فالأصل عندهم في هذه المسألة المعاملة بالمثل، ومراعاة مصلحة المسلمين في القتال)[2].

---

(١) أخرجه البخاري ٣٠١٦.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٢٥/٢.

رابعاً- من فقه الداعية: مراجعة أقواله عند ظهور الأصح:

حيث جاء في الحديث "إني كنت أمرتكم أن تحرقوا فلاناً وفلاناً وإن النار لا يعذب بها إلا الله فإن وجدتموها فاقتلوهما" قال ابن حجر: (وفي الحديث جواز الحكم بالشيء اجتهاداً ثم الرجوع عنه، واستحباب ذكر الدليل عند الحكم لرفع الإلباس)[1]. وعلى هذا يجب أن يكون ديدن الدعاة إلى الله الرجوع إلى الحق إذا ظهر وتبين دليله. قال ابن مفلح: (قال الشعبي: لا أدري نصف العلم، وقال الثوري: لا نزال نتعلم ما وجدنا من يعلمنا، وقال أحمد: نحن إلى الساعة نتعلم، وقال أبو عبدالله إنما ينبغي أن يأمر الناس على الأمر البين الذي لا شك فيه، وليت الناس إذا أمروا بالشيء الصحيح أن لا يجاوزوه)[2].

وقال الخطيب البغدادي: (وأول أوصاف المفتي الذي يلزم قبول فتواه: أن يكون بالغاً؛ لأن الصبي لا حكم لقوله.

ثم يكون عاقلاً؛ لأن القلم مرفوع عن المجنون لعدم عقله.

ثم يكون عدلاً ثقة، لأن علماء المسلمين لم يختلفوا في أن الفاسق غير مقبول الفتوى في أحكام الدين، وإن كان بصيراً بها، وسواء كان حراً أو عبداً، فإن الحرية ليست شرطاً في صحة الفتوى.

ثم يكون عالماً بالأحكام الشرعية، وعلمه بها يشتملُ على معرفته بأصولها وارتياضٍ بفروعها.

وأصول الأحكام في الشرع أربعة:

أحدها: العلم بكتاب الله، على الوجه الذي تصح به معرفة ما تضمنه من الأحكام: محكماً ومتشابهاً، وعموماً وخصوصاً، ومجملاً ومفسراً، وناسخاً ومنسوخاً.

والثاني: العلم بسنة رسول الله ﷺ الثابتة من أقواله وأفعاله، وطرق مجيئها في التواتر والآحاد، والصحة والفساد، وما كان منها على سبب أو إطلاق.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ١٧٥/٦.

(٢) الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعمر القيام ٦٢/٢، ٦٣.

والثالث: العلم بأقاويل السلف فيما أجمعوا عليه، واختلفوا فيه، ليتبع الإجماع ويجتهد في الرأي مع الاختلاف.

والرابع: العلم بالقياس الموجب، لرد الفروع المسكوت عنها إلى الأصول المنطوق بها، والمجمع عليها، حتى يجد المفتي طريقاً إلى العلم بأحكام النوازل، وتمييز الحق من الباطل، فهذا ما لا مندوحة للمفتي عنه، ولا يجوز له الإخلال بشيء منه.

وقال الشافعي: (لا يحل لأحد يفتي في دين الله إلا رجلاً عارفاً بكتاب الله: بناسخه ومنسوخه، وبمحكمه ومتشابهه، وتأويله وتنزيله، ومكيه ومدنيه، وما أُريد به، وفيما أنزل، ثم يكون بعد ذلك بصيراً بحديث رسول الله ﷺ، وبالناسخ والمنسوخ، ويعرف من الحديث مثل ما عرف من القرآن، ويكون بصيراً باللغة، بصيراً بالشعر، وما يحتاج إليه للعلم والقرآن، ويستعمل مع هذا الإنصاف، وقلة الكلام، ويكون بعد هذا مشرفاً على اختلاف أهل الأمصار، ويكون له قريحة بعد هذا، فإذا كان هذا هكذا فله أن يتكلم ويفتي في الحلال والحرام، وإذا لم يكن هكذا فله أن يتكلم في العلم ولا يفتي).

وعن محمد بن علي، قال: حدثنا صالح - يعني: ابن أحمد بن حنبل -، أنه قال لأبيه: ما تقول في الرجل يسأل عن الشيء فيجيب بما في الحديث، وليس بعالم بالفتيا؟ قال: (ينبغي للرجل إذا حمل نفسه على الفتيا أن يكون عالماً بالسنن، عالماً بوجوه القرآن، عالماً بالأسانيد الصحيحة، وإنما جاء خلافُ من خالف لقلة معرفتهم بما جاء عن النبي ﷺ في السنة، وقلة معرفتهم بصحيحها من سقيمها).

وعن ابن المبارك قال: قيل له: متى يفتي الرجل؟ قال: (إذا كان عالماً بالأثر، بصيراً بالرأي).

قلت: وينبغي أن يكون: قوي الاستنباط جيد الملاحظة، رصين الفكر، صحيح الاعتبار، صاحب أناة وتؤدة، وأخا استثبات، وترك عجلة، بصيراً بما فيه المصلحة، مستوقفاً بالمشاورة، حافظاً لدينه، مشفقاً على أهل ملته، مواظباً على مروءته، حريصاً على استطابة مأكله؛ فإن ذلك أول أسباب التوفيق، متورعاً عن الشبهات، صادفاً عن

فاسد التأويلات، صليباً في الحق، دائم الاشتغال بمعادن الفتوى، وطرق الاجتهاد، ولا يكون ممن غلبت عليه الغفلة، واعتوره دوام السهر، ولا موصوفاً بقلة الضبط، منعوتاً بنقص الفهم، معروفاً بالاختلال، يجيب بما لا يسنح له، ويُفتي بما يخفى عليه، وتجوز فتواه فتاوى أهل الأهواء، ومن لم تخرجه بدعته إلى فسق، فأما الشراةُ والرافضة الذين يشتمون الصحابة، ويسبون السلف الصالح، فإن فتاويهم مرذولة، وأقاويلهم غير مقبولة.

وفي معرفة من يصلح أن يُفتي تنبيه على من لا تجوز فتواه)[١].

وفي بيان ضرور اعتماد المفتي على الكتاب والسنة في فتواه، ولا يطلق الفتوى اعتماداً على رأيه وهواه قال أيضاً: (لقي ابن عمر جابر بن زيد وهو يطوف بالكعبة، فقال: يا جابر إنك من فقهاء البصرة، وإنك تستفتى، فلا تفتين إلا بقرآن ناطق، أو سنة ماضية، فإنك إن فعلت ذلك وإلا فقد هلكت وأهلكت).

(وقدم أبو سلمة - وهو ابن عبدالرحمن- فنزل دار أبي بشير، فأتيت الحسن، فقلت: إن أبا سلمة قدم وهو قاضي المدينة وفقيههم انطلق بنا إليه، فأتيناه، فلما رأى الحسن، قال: من أنت؟ قال: أنا الحسن بن أبي الحسن، قال: ماكان بهذا المصر أحد أحب إلي أن ألقاه منك، وذلك أنه بلغني أنك تفتي الناس، فاتق الله يا حسن، وأفت الناس بما أقول لك: أفتهم بشيء من القرآن قد علمته، أو سنة ماضية قد سنها الصالحون والخلفاء، وانظر رأيك الذي هو رأيك فألقه).

قلت: ولن يقدر المفتي على هذا، إلا أن يكون قد أكثر من كتابة الأثر، وسماع الحديث[٢].

وقال ابن القيم: (فإن كان المفتي ظهر له الخطأ قطعاً لكونه خالف نص الكتاب أو السنة التي لا معارض لها، أو خالف إجماع الأمة، فعليه إعلام المستفتي، وإن كان إنما ظهر له أنه خالف مجرد مذهبه أو نص إمامه، لم يجب عليه إعلام المستفتي.

---

(١) الفقيه والمتفقه ٢/٢٣٠-٢٣٣.

(٢) الفقيه والمتفقه ٢/٣٤٤-٣٤٥.

وعلى هذا تخرج قصة ابن مسعود رضي الله عنه فإنه لما ناظر الصحابة في أمهات الزوجات، بينوا له أن صريح الكتاب يحرمها لكون الله تعالى أبهمها فقال: تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ وظن عبدالله أن قوله: ﴿ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾[1]، راجع إلى الأول والثاني، فبينوا له أنه إنما يرجع إلى أمهات الربائب خاصة، فعرف أنه الحق، وأن القول بحلها خلاف كتاب الله تعالى، ففرق بين الزوجين، ولم يفرق بينهما بكونه تبين له أن ذلك خلاف قول زيد أو عمرو، والله تعالى أعلم[2].

وقال بدر الدين العزي: (ومن آداب المفتي - وهو من أهمها - الانقياد إلى الحق بالرجوع إليه عند الهفوة، ولو ظهر على يد أصغر الطلبة، فهو من بركة العلم، والرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل)[3].

---

(١) سورة النساء، آية: ٢٣.

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة ٩٠٨.

(٣) الدر النضيد في أدب المفيد والمستفيد، بدر الدين محمد بن محمد الغزن ١٠٣.

الحديث رقم (١٦١٢)

١٦١٢ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه قَالَ: كنَّا مَعَ رسول الله ﷺ في سَفَرٍ، فانْطَلَقَ لحَاجَتِهِ، فرَأَيْنَا حُمَّرَةً مَعَهَا فرْخَانِ، فأَخَذْنَا فرْخَيْهَا، فجَاءتِ الحُمَّرَةُ فَجَعَلَتْ تَعْرِشُ فَجَاءَ النَّبيُّ ﷺ فَقَالَ: ((مَنْ فَجَعَ هذِهِ بِوَلَدِهَا؟ رُدُّوا وَلَدَهَا إلَيْها)).

ورأى قَرْيَةَ نَمْلٍ قَدْ حَرَّقْنَاهَا، فَقَالَ: ((مَنْ حَرَّقَ هذِهِ؟)) قُلْنَا: نَحْنُ قَالَ: ((**إنَّهُ لا يَنْبَغِي أنْ يُعَذِّبَ بالنَّارِ إلاَّ رَبُّ النَّارِ**)). رواه أَبُو داود[1] بإسناد صحيح. قوله: "قرية نمل" معناه: موضع النمل مع النمل.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

الحُمَّرة: طائر صغير كالعصفور[2].

تَعْرِش: ترتفع وتظلل بجناحيها على من تحتها[3].

قرية نمل: موضع النَّمْل مع النَّمْلِ[4].

الشرح الأدبي

هذا الحديث خير برهان على قيمة الرحمة في الإسلام، وعلى إحساس المسلم الصادق الرقيق بطبيعة الكائنات الأخرى من الطيور والنباتات والحيوانات، والمصطفى ﷺ أُرسل رحمة للعالمين، عالم الإنس وعالم الطير، وعالم الحيوان، وعالم الجن، وكل الكائنات التي خلقها الله عز وجل.

---

(١) برقم (٢٦٧٥). أورده المنذري في ترغيبه (٣٣٥١). تنبيه: عند المنذري عن أبي مسعود، وهو خطأ، وكذا بتحقيق الألباني (٢/٨٧٤، رقم ٣٢٩٤) وإشراف مشهور حسن سلمان.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح م ر).

(٣) المرجع السابق في (ع ر ش).

(٤) الترغيب للمنذري ١٥٣/٣.

فأي عاطفة أسمى وأرق من هذه العاطفة الإسلامية التي تحرص على مشاعر هذا الطائر الصغير "الحمرة؟" إنها عاطفة ليست رومانسية، ولا سريالية، ولكنها تنبع من حقيقة كونية تتمثل في علاقة المسلم القلبية والنفسية والشعورية بكل الكائنات التي سخرها الله لخدمة الإنسان، والحديث يصور الدليل الواقعي على تعامل المسلم مع مظاهر الطبيعة ومنها هنا: الطيور والنمل، وأسلوب الحديث يجسد اللهفة والسرعة في الحدث الذي أنكره رسول الله ﷺ، ثم قام الصحابة بإعادة الفرخين إلى أمهما "الحمرة" لأنها فقدتهما فظلت "تعرش" أي: تتحرك في قلق وحيرة وترتفع وتهبط وتظلل بجناحيها على من تحتها، فأدرك رسول الله ﷺ طبيعة ألمها، وسر حيرتها فقال مستنكراً ما حدث: "من فجع هذه بولدها"، ثم أمر برد ولدها إليها: لأنها أم تشعر ويعتصر الألم قلبها، والعطف بالفاء في تعاقب جمل الحديث المصورة لهذا الحدث يرشد إلى السرعة واللهفة بدافع من الخوف على هذا الطائر الحائر، ولنتأمل هذا التوالي السريع للأفعال" فانطلق -فرأينا- فأخذنا- فجاءت - فجعلت تعرش - فجاء النبي ﷺ فقال: إن اللغة تنبئ عن طبيعة الحدث والموقف.

والموقف الثاني كان تعاطفاً مع النمل: وهو عالم عجيب دقيق منظم، والحوار كان بين رسول الله ﷺ ومن معه من الذين حرقوا مساكن النمل، وقد أنكر الرسول عليهم ذلك وعلمهم درساً في الرحمة والحكمة والامتثال، وختم الحديث بما ختم به الحديث السابق بأسلوب التوكيد، وصيغة القصر ... لترسيخ هذا المفهوم الذي تدفق كالضوء من هذا البيان النبوي الحكيم: "إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار".

وهذا الإحساس العميق بالطير وعوالمه الحرة الطليقة يصوره الشاعر محبوب الشرتوني قائلاً:

ليتني كنت في الحياة هزازاً ... ناعم البال في فسيح فضائه

مطلق الجناحين فيه بعيداً ... عن أذى المرء عن كثير جفائه

ليس يلهيه والحدائق ملأى ... طلب القوت عن لذيذ غنائه

يرتـــدي مـــن صـــنيع باريـــه ثوبـــاً   مـــا ارتـــداه ابـــن آدم في رخائـــه !!!

فقه الحديث

يشتمل هذا الحديث على الأحكام الآتية:

١- كراهة أن يفجع الإنسان الطائر في ولده، بقتله، أو أخذه، أو أخذ بيضه.

٢- عدم جواز إحراق النمل بالنار لقوله ﷺ: "لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار".

وقد سئل ابن تيمية هل يجوز إحراق بيوت النمل بالنار؟ فقال: يدفع ضرره بغير تحريق[١].

وإن كان المالكية قد ذكروا أنه لا بأس بقتل النمل بالنار إذا آذت ولم يقدر على تركها[٢].

أما قتل النمل بغير النار، فقد كرهه المالكية[٣]، والحنابلة في وجه[٤] وحرمه الشافعية[٥]، والحنابلة[٦] في الوجه الآخر.

والمراد بالنمل هنا النمل الكبير طويل الأرجل، المسمى بالسليماني، لعدم أذيته، أما النمل الصغير، وهو المسمى بالذر، فإنه يحل قتله لكونه مؤذياً بل وحرقه إن تعين طريقاً لدفعه[٧].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال.

---

(١) الفروع، ابن مفلح ٣٢٥/٣.

(٢) الفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم بن مهنا النفراوي المصري ٣٥٢/٢.

(٣) المرجع السابق، الموضع نفسه.

(٤) الفروع، ابن مفلح ٣٢٥/٣، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٤٣٩/٢.

(٥) مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٢٠٣/٤، وحاشية البجيرمي ٣٠٦/٤ وفيه: "ويحرم قتل النمل لصحة النهي عن قتله".

(٦) الفروع، ابن مفلح ٣٢٥/٣ وفيه "ولأصحابنا وجهان في نمل وغيره، والتحريم أظهر".

(٧) الفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم بن مهنا النفراوي المصري ٣٥٢/٢، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٢٠٣/٤، وحاشية البجيرمي ٣٠٦/٤، والفروع، ابن مفلح ٣٢٥/٣، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٤٣٩/٢.

ثانياً: من فقه الداعية: إنكار المنكر على فاعليه.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: الرحمة بالطيور.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: حرمة التعذيب بالنار.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال:

حيث جاء في الحديث "من فجع هذه بولدها؟" وقوله "من حرَّق هذه" وأسلوب السؤال من أساليب الدعوة التي توحي بتثبت الداعية من الأمور، والاستقصاء عن المسائل، وقد أرشد الله تعالى إلى السؤال كأسلوب من أساليب الدعوة، فقال سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾[1] وقوله جل شأنه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[2].

ثانياً- من فقه الداعية: إنكار المنكر على فاعليه:

حيث جاء في الحديث "من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها" وقوله "من حرق هذه قلنا: نحن قال: إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار" وإنكار المنكر على فاعليه من فقه الداعية، وقد أمر الله بذلك في القرآن فقال سبحانه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[3] وذم الله تاركيه فقال سبحانه: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[4].

(والداعية الذي يقوم بإنكار المنكر له مكانة وفضل عند الله تعالى، فهو منفذ لأمر الله وأمر رسوله ﷺ وهذا فضل عظيم، وهو من المفلحين وهو سبب من أسباب خيرية هذه الأمة، حيث إن الأمم الأخرى تفتقد ذلك، وهو محاصر للشر في المجتمع، وسبب من أسباب نقائه، وسبب في منع العقوبات الربانية التي تصيب المسلمين إذا سكتوا عن المنكر)[5].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٢٢.

(٢) سورة الأنفال، آية: ١.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٤) سورة المائدة، آية: ٧٨، ٧٩.

(٥) فقه الدعوة، د. بسام العموش، ١٦٠، ١٦١.

وإذا كان من فقه الداعية إنكار المنكر على فاعليه، فإنه ينبغي أن يراعي توفر شروطه قبل إنكاره.

(الأمر بالمعروف ليس له شروط خاصة، لأن الأمر بالمعروف نصيحة وإرشاد وتعليم، وكل ذلك جائز في كل وقت وفي كل مناسبة فعن تميم الداري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((الدين النصيحة، قلنا لمن يا رسول الله، قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم))[1].

أما النهي عن المنكر وتغييره فله شروط خاصة يجب توفرها لوجوب النهي أو التغيير وهذه الشروط هي:

١- وجود منكر، والمنكر كل معصية حرمتها الشريعة الإسلامية، وهو كل ما كان محذور الوقوع في الشرع، ويستوي أن يكون فاعل المنكر مكلفاً أو غير مكلف، فمن رأى صبياً أو مجنوناً يشرب الخمر فعليه أن ينكر عليه، وكذا إن رأى مجنوناً يزني بمجنونة أو يأتي بهيمة فعليه أن يمنعه.

٢- أن يكون المنكر موجوداً في الحال: بمعنى أن تكون المعصية راهنة، وصاحبها مباشراً لها وقت النهي أو التغيير، كشرب الخمر وخلوته بأجنبية، فإذا فرغ من المعصية فليس ثمة مكان للنهي عن المنكر أو تغييره، وإنما هناك محل عقاب على المعصية والعقاب من حق السلطات العامة وليس للأفراد. وقد أشار الإمام الغزالي إلى هذا الحكم بقوله: المعصية لها ثلاثة أحوال: أحدها أن تكون منصرمة فالعقوبة على ما تصرم منها حد أو تعزير، وهو إلى الولاة لا إلى الآحاد، الثانية أن تكون المعصية راهنة، وصاحبها مباشر لها كلبسه الحرير وإمساكه العود والخمر، فإبطال هذه المعصية، واجب بكل ما يمكن ما لم تؤد إلى معصية أفحش منها أو مثلها، وذلك يثبت للآحاد والرعية، والثالثة أن يكون المنكر متوقعاً كالذي يستعد بكنس المجلس وتزيينه وجمع الرياحين لشرب الخمر، وبعد لم يحضر الخمر، فهذا مشكوك فيه، إذ ربما

---

(١) أخرجه مسلم ٥٥.

يعوق عنه عائق، فلا يثبت للآحاد سلطة على العازم على الشرب إلا بطريقة الوعظ والنصح، فأما التعنيف والضرب فلا يجوز للآحاد وللسلطات، إلا إذا كانت تلك المعصية علمت منه بالعادة المستمرة، وقد أقدم على السبب المؤدي إليها، ولم يبق لحصول المعصية إلا ما ليس له فيه إلا الانتظار.

وقال ابن نجيم في التعزير: (لكل مسلم إقامته حال مباشرة المعصية، وأما بعد الفراغ فليس ذلك لغير الحاكم)[١].

وعُلل ذلك في كتب الفقه: (لو عزره حال كونه مشغولاً بالفاحشة فله ذلك، وأنه حسن؛ لأن ذلك نهي عن المنكر، وكل واحد مأمور به، وبعد الفراغ ليس بنهى عن المنكر؛ لأن النهي عما مضى لا يتصور فيتمحص تعزيراً وذلك إلى الإمام).

٣- أن يكون ظاهراً، فلو كان مستتراً فلا يجوز التجسس عليه؛ لأن الله حرم التجسس قال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾[٢]؛ وقيل لعبد الله بن مسعود إن فلاناً تتقطر لحيته خمراً فقال: (إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن أن يظهر لنا شيء نأخذ به).

والأصل أن من أغلق باب داره وتستر بحيطانه، فلا يجوز الدخول عليه بغير إذنه لتعرف المعصية، إلا أن يظهر في الدار ظهوراً يعرفه من هو خارج الدار، كظهور رائحة الخمر وأصوات السكارى، أو أخبر ابتداءً من غير استخبار شخصان أو شخص واحد على رأي بأن فلاناً يرتكب المعاصي في بيته، جاز دخول البيت دون إذن.

مما سبق تتضح لنا أهم الشروط الواجب توافرها في الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، فإذا توفرت شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان واجباً، وإذا اختل شرط من شروط الوجوب السابقة، سقط الوجوب وبقي الحكم دائراً بين الاستحباب أو الحرمة[٣].

---

(١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٤٢/٥.

(٢) سورة الحجرات، آية: ١٢.

(٣) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ضوء كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، د. سليمان بن عبدالرحمن الحقيل ص ٧٨-٨١ بتصرف.

وما من شك في أن تحقيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحقق السعادة للمجتمع.

(إن من مهام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إرساء قواعد الأمن في المجتمع، وقطع دابر الجريمة، واستئصال المنكرات والمعاصي، وتوجيه المجتمع الوجهة المفيدة والمثمرة له في دنياه وآخرته.

ولكن حينما يغيب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو تضعف كلمته، وتقل شوكته، فإنه بلا شك سوف تكثر المفاسد والمناكير، وتعم الجريمة، ويظهر المجرمون والمنحرفون، وبذلك يختل ميزان الأمن الاجتماعي، وتتقوّض عراه.

والمتأمل في حال المجتمعات غير الإسلامية، أو بعض المجتمعات الإسلامية التي لا يتحقق فيها مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بشكله المطلوب، فإنه يتضح بما لا يدع مجالاً للشك مدى ما يعم تلك المجتمعات من انهيار في أمنها الاجتماعي،وعدم التماسك بين أفرادها وجماعاتها.

والحقيقة أن مردّ ذلك إلى فشوّ الخوف، وعدم الثقة بين الناس، وانتشار الجريمة بمعناها الواسع، وبروز المنظمات الإجرامية التي عاثت في الأرض فساداً، دون رادع أو وازع.

وهكذا حينما يضعف الإيمان، وتقل الأعمال الصالحة، ويترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تكون الحالة الأمنية سيئة جداً، بل قد يستعصي حلها، والحق أنه لا مخرج من كل ذلك إلا بالرجوع إلى الله تبارك وتعالى والتمسّك بحبله المتين، وصراطه المستقيم، والاهتداء بسنة نبيه الأمين ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾[1])[2].

---

(١) سورة النور، آية: ٥٥.

(٢) الأصول العلمية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، د. عبدالرحيم المغذوي ص ٢٦٢، ٢٦٣.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: الرحمة بالطيور:

حيث جاء في الحديث "فجاءت الحُمَّرة فجعلت تعرش فجاء النبي ﷺ فقال: من فجع هذه بولدها ردوا ولدها إليها" فهذا دليل على عموم الرحمة التي جاءت بها الشريعة الإسلامية، حتى بالطيور والبهائم، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه دخل دار الحكم بن أيوب فرأى غلماناً أو فتياناً – نصبوا دجاجة يرمونها، فقال أنس: نهى النبي ﷺ أن تصبر البهائم[1]، وحث رسول الله ﷺ على الرحمة بالحيوان حتى في الذبح، فعن شداد بن أوس رضي الله عنه أنه قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ قال: ((إنَّ اللّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ. فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ. وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ. وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ. فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ))[2]. والرحمة بالحيوان سبب للمغفرة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((بينما كلبٌ يُطيفُ بركيَّةٍ كادَ يَقتلهُ العطشُ إذ رأته بَغيٌّ من بغايا بني إسرائيلَ، فنزَعَتْ مُوقَها فسقَتْه، فغُفِرَ لها به))[3].

قال محمد الغزالي: (من الرحمة المطلوبة الرفق بالحيوان، رأى عمر رضي الله عنه رجلاً يسحب شاة من رجلها ليذبحها فقال له: ويلك قدها إلى الموت قوداً جميلاً، والإسلام شديد المؤاخذة لمن تقسو قلوبهم على الحيوان ويستهينون بآلامه، وقد بين أن الإنسان على عظم قدره يدخل النار في إساءة يرتكبها مع دابة عجماء، وكبائر المعاصي تمحوها نزعة رحمة تغمر القلب، ولو بإزاء كلب، ولئن كانت الرحمة بكلب تغفر ذنوب البغايا فإن الرحمة بالبشر تصنع العجائب)[4].

إن الإسلام يحث المسلم على الرحمة بجميع المخلوقات والرفق بها. ولقد بلغ من اهتمام الإسلام بالرفق أنه لم يقصره فقط بالإنسان، وإنما تعدى نفعه حتى إلى الحيوان.

ولئن افتخرت بعض الدول الأجنبية باهتمامها بالرفق بالحيوان وأقامت الجمعيات والمؤسسات لهذا الأمر، فإن الإسلام بتعاليمه وتوجيهاته وإرشاداته قد سبقهم بهذا

---

(١) أخرجه البخاري ٥٥١٣، ومسلم ١٩٥٩.

(٢) أخرجه مسلم ١٩٥٥.

(٣) أخرجه البخاري ٣٤٦٧، ومسلم ٢٢٤٥.

(٤) خلق المسلم ٢١١-٢١٢.

الاهتمام، فعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الراحمون يرحمهم الرحمن، أرحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء))[١].

وعن عائشة رضي الله عنها ((أنها كانت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر على بعير فكانت فيه صعوبة فجعلت تصرفه يميناً وشمالاً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عائشة عليك بالرفق فإنه لا يدخل في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه))[٢]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((بينما رجل يمشي فاشتد عليه العطش، فنزل بئراً فشرب منها ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ بهذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خفه ثم أمسكه بفيه، ثم رقى فسقى الكلب فشكر الله فغفر له، قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجراً؟ قال: في كل كبد رطبة أجر))[٣].

هكذا يربي الإسلام أتباعه المؤمنين على الأخلاق الفاضلة، ويعودهم على العادات الحسنة، ويحثهم على الصفات الحميدة، ومن هذه الأخلاق التي تمسك بها المسلمون الرفق الذي لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينتزع من شيء إلا شانه، من تمسك به حصل على الخير الكثير، ومن حرمه فقد الأجر الكبير[٤].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: حرمة التعذيب بالنار:

حيث جاء في الحديث "إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار" قال شرف الحق العظيم آبادي: (قال الخطابي في الحديث دلالة على أن تحريق بيوت الزنابير مكروهة، وأما النمل فالعذر فيه أقل، وذلك أن ضرره قد يزول من غير إحراق)[٥]. وقال الشيخ ابن عثيمين: (ونهى صلى الله عليه وسلم عن التعذيب بالنار، وعلى هذا إذا كان عندك نمل فإنك لا تحرقها بالنار، وإنما تصنع شيئاً يطردها، وإذا لم يمكن اتقاء شرها إلا بمبيد يقتلها

---

(١) اخرجه أبو داود ٤٩٤١ وصححه الألباني (صحيح سنن ابي داود ٤١٣٢).

(٢) اخرجه مسلم ٢٥٩٤.

(٣) اخرجه البخاري ٢٣٦٣، ومسلم ٢٢٤٤.

(٤) أخلاق المسلم وآدابه، د. بدر عبدالرزاق الماص، ٩١، ٩٢.

(٥) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١١٤٠.

نهائياً فلا بأس لأن هذا دفع لأذاها ، وإلا فالنمل مما نهى النبي ﷺ عن قتله بالنار وإذا لم يندفع إلا بالقتل أو بغيره فلا بأس)[1].

قال د. الحسيني هاشم: (وفي الحديث النهي عن الإحراق، والاكتفاء بالقتل كأقصى درجات التأديب والقصاص، وفيه النهي عن تعذيب العصافير والنمل وغيرها من الطيور والحشرات بالنار، وعدم تعذيب الطيور الصغار)[2].

---

(١) شرح رياض الصالحين ٢/١٦٩٣.

(٢) شرح رياض الصالحين ٧٥١.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية على الأدب مع الله تعالى:

إن من أسس الإيمان الجلية التي يجب أن يتربى عليها النشء المؤمن، هي الأدب مع الله تعالى، فلا اجتراء ولا منازعة لله تعالى في ملكه ولا عباده.

وهذا ما ترائى جليًا من نص الحديث، حيث إن النبي ﷺ رغم عظم مكانته عند الله تعالى إلا أنه ﷺ وقف عند حد عبوديته، ولم يجترئ على الله فيما خصه لنفسه جل وعلا، فالله هو الخالق من عدم، وهو المتفرد سبحانه بحساب الخلائق إما أن يعذبهم وإما أن يتوب عليهم، ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]؛ لذا حرم النبي ﷺ التعذيب بالنار، وذلك في قوله: «إنِّي كُنْتُ أمَرْتُكُمْ أنْ تحرقُوا فُلانًا وفلانًا بالنَّارِ، وإنَّ النَّارَ لا يُعَذِّبُ بها إلاَّ اللهُ، ....إلخ»، وقوله ﷺ: «لاَ يَنْبَغِي أنْ يُعَذِّبَ بالنَّارِ إلاَّ رَبُّ النَّارِ».

فلا حكم إلا الله، فالكون مخلوق لله ومملوك له، فليس لأحد غيره تعالى أن يتصرف بشيء منه إلا بإذنه، ونحن البشر جزء من هذا الملك، لما كان الأمر كذلك: فإنه ليس من حق أي أحد -غير الله- أن يتصرف في ملك الله بشيء مهما يكن ذلك الشيء إلا أن يأذن الله له بذلك التصرف ...، فنحن إذن ملزمون بالأدب مع الله تعالى، لأننا عبيد له سبحانه، وليس لنا أن نتجاوز الحدود، ولا أن نتعداها، وإلا كنا عصاة معتدين على حق ملك المالك الخالق القادر، والمعتدي يعرض نفسه للعقوبة[2].

لذا وجب على دعاة التربية والتوجيه الاقتداء بالنبي ﷺ في توجيه المتربين والمتعلمين على الوقوف عند حد العبودية، وعدم منازعة الله في حكمه على العباد، والأدب معه سبحانه، فالملك ملكه والعباد عباده والأمر كله لله.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٢٩.

(٢) انظر: العقيدة الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حبنكة، ٢٥٣، ٢٥٤.

ثانيًا: من وسائل التربية: العقوبة:

إن العقاب من الوسائل التربوية التي لا يمكن الاستغناء عنها بأي حال من الأحوال، ذلك أن طباع البشر تختلف في درجة الاستجابة للمؤثرات والوسائل التربوية، فالبعض يتأثر بالموعظة، أو بالترغيب، أو بالترهيب، أو بالحوادث، والعبر التي يشاهدها أو يسمعها، والبعض لا يستجيب لتلك المؤثرات التربوية، ولا ينفع معه إلا الألم الذي يباشر بدنه[1].

ومن الشواهد على التربية بالعقوبة، ما جاء في قول النبي ﷺ: «... فإن وجَدْتموهما فاقتُلوهما»، وعلى دعاة التربية والتوجيه أن يعوا أن الهدف من العقاب ليس الانتقام ولكنه التأديب على ما صدر من سلوك معيب، فلا ينبغي أن يُشعر المربي المتربي عند العقوبة بعدوانيته أو قسوته، بل ينبغي أن يشعره بأن هذا العقاب ليس إلا لتعديل سلوكه، وعدم الوقوع في الخطأ مرة أخرى، مع ظهور شفقته عليه ورحمته به[2]، وقد كان النبي ﷺ أمثل قدوة لدعاة التربية والتوجيه عند إقامة العقوبة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: «أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أُتِيَ بِرَجُلٍ قَدْ شَرِبَ فقَالَ اضْرِبُوهُ. قالَ: فمِنَّا الضَّارِبُ بِيَدِهِ والضَّارِبُ بِنَعْلِهِ وَالضَّارِبُ بِثَوْبِهِ فَلَمَّا انْصَرَفَ قالَ بَعْضُ الْقَوْمِ أَخْزَاكَ اللهُ، فقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لا تَقُولُوا هكَذَا، لاَ تُعِينُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانَ، ولَكِنْ قُولُوا: رَحِمَكَ اللهُ»[3].

وحتى تتحقق ثمرة العقاب كوسيلة تربوية يجدر بدعاة التربية أمران: الأول: هو التدرج في العقوبة، فقبل أن يلجأ المربي إلى العقاب البدني فينبغي أن تكون هناك مراحل قد مر بها في محاولة تقويم المتربي والمتعلم، وقد بينها الغزالي في قوله: فإن وقع الخطأ بداءة ولأول مرة من المتربي كان ينبغي التغافل عنه، ولا يهتك ستره، ولا يكاشفه، ولا يُظهر له أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثله، ولاسيما إذا ستره المتربي واجتهد في إخفائه، فإن إظهار ذلك عليه ربما يفيده جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة،

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ٤٠٢.

(٢) نحو تربية إسلامية راشدة، محمد شاكر الشريف، ٩٥.

(٣) أخرجه البخاري، ٦٢٧٩، وأحمد، ٧٦٤٥.

فعند ذلك إن عاد ثانية، فينبغي أن يعاتب سرًا، ويعظم الأمر فيه، ويقال له: إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا وأن يُطلّع عليك في مثل هذا فتفتضح بين الناس، ولا تكثر القول عليه بالعتاب في كل حين، فإنه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح، ويسقط وقوع الكلام من قلبه، وليكن الأب حافظًا هيبة الكلام معه، فلا يوبخه إلا أحيانًا، والأم تخوفه بالأب وتزجره عن القبائح[1].

فإن قرر المربي العقاب البدني لرؤية مناسبته لواقع الخطأ، فعليه أن يدرك أن العقاب البدني قد يكون فيه نوع من الإيلام، حتى يحدث الأثر المرجو منه، لكن لا ينبغي أن يكون مضرًا، كأن يترتب عليه كسر أو جرح أو نحو ذلك بحجة التربية[2].

والأمر الثاني الواجب اتباعه في تربية النشء المسلم عند استخدام وسيلة العقوبة، هو عدم القيام بمصالحة المخطئ فور توقيع العقاب، فقد يعطي المربي المتربي المخطئ بعض المال أو يشتري للطفل بعض قطع الحلوى أو ما شابه ذلك، مما يضيع الثمرة المرجوة من العقاب[3].

ثالثا: التربية بالسؤال والحوار:

يجب على القائمين على التربية الإفادة من السؤال والحوار مع المتربين والمتعلمين لتحقيق ثمرة التربية في كل ما غاب عن المتربين، وهم في ذلك قد اقتدوا بسيد المربين وإمام المعلمين محمد ﷺ كما ورد في نص الحديث، من قوله ﷺ: «مَنْ فَجَّعَ هذِهِ بِوَلَدِهَا، رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا، ... مَنْ حَرَّقَ هذِهِ؟ قُلْنَا: نَحْنُ، قال ... إلخ».

ومما لا شك فيه أن المتربي والمتعلم له طاقات معينة وبالتالي فإن معارفه محدودة، ولن يحيط بكل شيء. ومن عرف أشياء غابت عنه أشياء أخرى كثيرة. ولذا تراه يبحث عن إجابات لما يجهل، ومن ضمن وسائل الكشف عن المجهول السؤال والحوار[4].

۞ ۞ ۞

---

(١) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ٧٣/٣ بتصرف.

(٢) نحو تربية إسلامية راشدة، محمد شاكر الشريف، ٩٤، ٩٥.

(٣) المرجع السابق، ٩٥.

(٤) التربية الذاتية من الكتاب والسنة، هاشم علي أحمد، ١٢٣.

٢٨٤- باب تحريم مطل الغني بحقٍّ طلبه صاحبه

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ إنَّ اللهَ يَأمُرُكُمْ أنْ تُؤَدُّوا الأمَانَاتِ إلَى أهْلِهَا ﴾[النساء: ٥٨]، وقال تَعَالَى: ﴿ فَإن أمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أمَانَتَهُ ﴾[البقرة: ٢٨٣].

الحديث رقم (١٦١٣)

١٦١٣ - وعن أَبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنَّ رسول الله ﷺ، قَالَ: ((**مَطْلُ الغَنِيِّ ظُلْمٌ، وَإِذَا أُتْبِعَ أحَدُكُمْ عَلَى مَلِيءٍ فَلْيَتْبَع**)) متفق عَلَيْهِ[1]. معنى "أُتْبِعَ": أُحيلَ.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

مطل الغني: تأخير ما استحق أداؤه بغير عذر[2].

أتبع: أحيل[3].

مليء: غني[4].

الشرح الأدبي

لقد حرص الإسلام على رد الحقوق لأصحابها، وجاء الأمر الإلهي بذلك، والأمر للوجوب، والحديث في منطوقه يدين كل من يماطل أو يسوف في رد الأمانة، وهذا المطل يمكن أن يؤدي بالإنسان إلى الخيانة، والوجه الآخر للحديث وهو المفهوم الذي يهدف إلى توصيله لكل مسلم، ولكل إنسان، هو أداء الحقوق في وقتها، وعدم خيانة الأمانة حرصاً على صونها وحرمتها.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٨٧)، ومسلم (١٥٦٤/٣٣) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٢٧٠٧).

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٥٤٢/٤.

(٣) رياض الصالحين، النووي ٥٥٧.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ٥٤٢/٤.

ولغة الحديث تنزع إلى القصد والخلوص والاستيفاء، والقصد هو الإيجاز مع الإفهام والوضوح مع فتح آفاق التفسير والإفهام.

ويتضمن الحديث جملتين قصيرتين: الأولى تعد قاعدة ثابتة وحكمًا صارماً على كل من المطل وهو قادر على أداء الحق، ورد الأمانة: حيث يقول الصادق الأمين، مطل الغني ظلم.

ولكل كلمة دلالة في هذه الجملة الاسمية المكونة من مبتدأ "مصدر مضاف إلى فاعله"، وخبر وهو مصدر كذلك: "مطل الغني ظلم"، والمطل في اللغة: التسويف بالعِدَة والدين، والمطال من معانيه الحسية التي تفسر طبيعة المماطل في أداء الدين أو الأمانة، من معانيه: مد الحبل، ومد الحديد وسبكه وطبعه وصوغه، وكأن المماطل في تأخير الموعد، وإخلافة، ونقضه للعهد: يشبه الحديد في انصهاره، وذوبانه وشدة ناره، وتشكله أشكالاً جديدة، وكم يعاني صاحب الحق في ظل هذا التسويف الحارق الملتهب، وجاء لفظ "الغنى" مضافاً إلى "المطل" إيحاءً بارتباط المصدر بفاعله: وكذلك للإيجاز وكأن الإيجاز هنا قيمة بلاغية تصل بنا إلى ضرورة إيجاد القيمة السلوكية، وهي سرعة أداء الحقوق، وكذلك لفظ "الغني" فيه إيحاء بان ذلك المماطل ليس لديه عذر في التأخير لأنه ليس فقيراً.

ووصفه المطل بالظلم يتمم المعنى فكلمة "ظلم" خبر المبتدأ والخبر تتم به الفائدة، وقال السبكي تسمية المطل ظلماً يشعر بكونه كبيرة كالغصْب، والظلم هو مجاوزة الحد، والميل عن الحق في التصرفات.

وقد ذُكر الظلم ومشتقاته في القرآن، في مائتين وأربع وثمانين آية، حتى يتنبه الناس إلى أخطاره.

وأما الجملة الثانية فقد جاءت في قالب: الشرط والجواب، وأن الجملة الأولى توطئة وعلة لقبول "الحوالة" في الجملة الثانية: لأن معنى: "إذا أُتْبع" أي إذا أحيل أحدكم: أي صاحب الدين، "على مليء" أي غني، يحفظ له حقه: فليقبل من يحال بدينه عليه: حرصاً على حقه، وضماناً لرد ماله، وعدم ضياعه، وأداة الشرط هنا إذا: وهي

للتحقق، وذلك إيحاء بأن القبول يجب أن يتم، وقوله: "فليتبع": جواب الشرط، وهو أمر يجب اتباعه، حتى لا تضيع الحقوق، وتمزق العلاقات، وتنشأ العداوات، والإسلام دين المحبة والتراحم، والأمانة والتسامح.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الترهيب.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: التحذير من تأخير الغني الدين الذي عليه.

ثالثاً: من مهام الداعية: إيجاد الحلول لما يستعصى من الأمور.

أولاً- من أساليب الدعوة: الترهيب:

حيث جاء في الحديث "مطل الغني ظلم" وأسلوب الترهيب من أساليب الدعوة النافعة التي تدفع المدعو عن مقارفة المحظورات، وتخوفه من مغبة فعل المنكرات، ذلك أن النفس البشرية بطبيعتها تخاف الوعيد، وترعوي عند الزجر (والترهيب هو كل ما يخيف المدعو ويحذره من عدم الاستجابة أو رفض الحق أو عدم الثبات عليه بعد قبوله، ويكون الترهيب بالتخويف من غضب الله وعذابه في الآخرة)[1]. وقال د. توفيق الواعي: (إن الترغيب والترهيب في الشريعة يأتي حسب الأحوال والنفوس والمواقف، يأتي علاجاً وردعاً، يأتي بشيراً ونذيراً، فمن الناس من يلهث وراء الشهوات، ويجري وراء المادة، ويشغف بالمنكر، فهذا يقرعه الترهيب، ويوقفه الإنذار، ويوقظه التخويف من عواقب ما هو فيه)[2].

ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب الترهيب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾[3] وقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ﴾[4].

---

(١) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ٤٣٧.

(٢) الدعوة إلى الله الرسالة - الوسيلة - الهدف، د. توفيق الواعي، ٢٠٠.

(٣) سورة النساء، آية: ٥٦.

(٤) سورة فاطر، آية: ٣٦.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: التحذير من تأخير الغني الدين الذي عليه:

حيث جاء في الحديث "مطل الغني ظلم" وهذا تحذير للغني من تأخير الدين الذي عليه، لأنه بذلك في عداد الظالمين. قال النووي: (قال القاضي وغيره: المطل منع قضاء ما استحق أداؤه، فمطل الغني ظلم وحرام، ومطل غير الغني ليس بظلم ولا حرام، لأنه معذور، ولو كان غنياً ولكنه ليس متمكناً من الأداء لغيبة المال أو لغير ذلك، جاز له التأخير إلى الإمكان، وهذا خصوص من مطل الغني، أو يقال: المراد بالغني المتمكن من الأداء فلا يدخل هذا فيه)[1].

وقال ابن حجر: (والمعنى أن مطل الغني من الظلم، وأطلق ذلك للمبالغة في التنفير عن المطل، والمراد بالمطل تأخير ما استحق أداؤه بغير عذر، ولذا فيحرم على الغني القادر أن يمطل بالدين بعد استحقاقه بخلاف العاجز، وفي الحديث الزجر عن المطل، والإرشاد إلى ترك الأسباب القاطعة لاجتماع القلوب، لأنه زجر عن المماطلة وهي تؤدي إلى ذلك)[2].

قال القاضي عياض: (وقوله ﷺ "مطل الغني ظلم": المطل: منع قضاء ما استحق أداؤه. وفيه دليل على أن مطل غير الغني ليس بظلم، وإن كان مضطراً يجوز. وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾[3]، وإنما فصل بمطله من النظرة إلى ميسرة، مما يوجب الحكم وأمر به الله تعالى. وفيه حجة لمالك والشافعي وعامة العلماء، أنه إذا كان معسراً فلا يلزم سجنه[4] ولا ملازمته، ولا مطالبته حتى يكتسب مالاً؛ إذ قد أنظر إلى الميسرة، فكأنه من عليه دين إلى أجل وقد تقدم هذا. وإذا كان واجداً ومنع صاحب الحق استعمال حقه لغير عذر فهو ظالم له.

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ٩٩٦.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٥٤٣/٤، ٥٤٤.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٨٠.

(٤) لأن الحبس إما أن يكون لإثبات عثرته أو لقضاء دينه، وعثرته ثابتة والقضاء متعذر، فلا فائدة في الحبس. راجع: المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٥٨٥/٦.

وقد اختلف أصحابنا وغيرهم في أن المماطل هل يفسق وترد شهادته بمطله مرة واحدة، أم لا ترد شهادته حتى يتكرر ذلك منه ويصير عادة مستمرة، ومقتضى مذهبنا اشتراط التكرار، وجاء في الحديث الآخر في غير مسلم: "لَيُّ الواجد يُحل عرضه وعقوبته"](١). قال سفيان: عِرْضُه(٢) أن يقول: مطلني، وعقوبته الحبس. وهذا الحديث يدل على أن المراد بمطل الغني ظلم ما تقدم، وهو ظاهر، وتأويل كافة العلماء، خلافاً لما ذهب إليه بعضهم من أن المراد أن الغني هو الممطول، وأنه وإن كان غنياً فمطله ظلم. وهو تعسف في التأويل من قائله(٣).

وقوله: "وإذا أتبع أحدكم على مليء فليتبع": معناه: إذا أحيل على مليء فَلْيَحْتَل، هذا هو أُتبع، و"فليتبع" ساكنة التاء فيهما، وبعض المحدثين يشددها في الحديث الآخر. والوجه إسكانها، يقال من ذلك: تبعت الرجل، بمعنى أتبعه تباعة: إذا طلبته به، فإذا له تبيع قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾(٤) ومعظم شيوخنا حملوا قوله "فليتبع" على الندب، وقد ذهب بعضهم إلى أنه على الإباحة وأنه ليس على الندب، وحكى الداودي أنه قيل: إنه غرم، وفي قوله "مطل الغني ظلم" قيل: هذا دليل على أن الحوالة لاتصح إلا عن دين حال، إذ لا يكون ظالماً ولا مطولاً من لم يحل عليه الدين)(٥).

قال القرطبي: (وقوله: "مطل الغني ظلم"، المطل: منع قضاء ما استحقَّ أدواؤه مع التمكن من ذلك، وطلب المستحق حقه. وهو الذي قال فيه في الحديث الآخر ((لَيُّ الواجدِ يُحِلُّ عِرْضه وعقوبَتَهُ))(٦). أي: مطل الموسر المتمكن إذا طولب بالأداء ظلم

---

(١) نقلها النووي عن القاضي، وهي في الأصل مضطربة، والمثبت مما نقله النووي عن القاضي.

(٢) أي إباحة عرضه.

(٣) لأنه يلزم أن يكون المصدر مبنياً للمفعول، وفيه خلاف.

(٤) سورة الإسراء، آية: ٦٩.

(٥) إكمال المعلم بفوائد مسلم المسمى، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٥/٢٣٣-٢٣٤.

(٦) أخرجه أحمد في مسنده ٤/٢٢٢ رقم ١٧٩٤٦ وقال محققو المسند: إسناده محتمل للتحسين، ٢٩/٤٦٥. وأخرجه أبو داود ٣٦٢٨ وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٠٨٦).

للمستحق، يبيحُ من عرضه أن يقال فيه: فلانٌ يمطل الناس، ويحبس حقوقهم. ويبيح للإمام أدبه وتعزيره حتى يرتدع عن ذلك. حُكى معناه عن سفيان. و"الظلم": وضعُ الشيء في غير موضعه في أصل اللغة. وهو في الشرع محرَّمٌ مذمومٌ. ووجهه هنا: أنَّه وضع المنع موضع ما يجبُ عليه من البذل، فحاق به الذمُّ والعقاب. والغنيُّ الذي أضيف المطلُ إليه هو الذي عليه الحق؛ بدليل قوله: "ليُّ الواجد..." وهو الظاهرُ من الحديث والمراد منه، ولا يلتفت لقول من قال: إنه صاحب الحق، لبعد المعنى، وعدم ما يدلُّ عليه.

وقوله: "وإذا أُتْبِعَ أحدكم على مليء فليتبع". أُتْبِعَ -بضم الهمزة، وتخفيف التاء، وكسر الياء- مبنياً لما لم يسمَّ فاعلُه عن الجميع. فأما "فليتبع" فبعضهم قيده بتشديد التاء، وكذلك قيدته على من يوثَقُ به. وقد روي بتخفيفها وهو الأجودُ؛ لأن العرب تقول: تبعتُ الرجل بحقي، أتبعه، تباعةً: إذا طلبته به، فأنا له تبيعٌ -كل ذلك بالتخفيف- ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾(1). ومعناه: إذا أحيل أحدكم فليحتل. وهذا الأمرُ عند الجمهور محمولٌ على النَّدب؛ لأنه من باب المعروف والتيسير على المعسر، وقد حمله داود على الوجه تمسُّكاً بظاهر الأمر. وهذا ليس بصحيح؛ لأن ملك الذمم كملك الأموال. وقد أجمعت الأمة: على أن الإنسان لا يُجبر على المعاوضة بشيء من ملكه بملك غيره، فكذلك الذمم، وأيضاً: فإن نقل الحق من ذمة إلى ذمة تيسير على المعسر، وتنفيسٌ عنه، فلا يجب، وإنما هو من باب المعروف بالاتفاق. وإذا تقرر ذلك فالحوالة معناها: تحويلُ الدين من ذمة إلى ذمة. وهي مستثناةٌ من بيع الدين بالدين لما فيها من الرفق، والمعروف. ولها شروط:

فمنها: أن تكون بدينٍ، فإن لم تكن بدينٍ لم تكن حوالة، لاستحالة حقيقتها إذ ذاك، وإنما تكونُ حمالة.

ومنها: رضا المحيل والمحال دون المحال عليه. وهو قولُ الجمهور، خلافاً للإصطخري؛ فإنه اعتبره. وإطلاقُ الحديث حجَّة عليه. وقد اعتبره مالك إن قصد المحيل بذلك الإضرار بالمحال عليه. وهذا من باب دفع الضرر.

---

(1) سورة الإسراء، آية: ٦٩.

ومنها: أن يكون الدين المحال به حالاً، لقوله ﷺ: "مطلُ الغنيِّ ظلم". ولا يصحُّ المطل، ولا يصدق الظلم إلا في حق من وجب عليه الأداء، فيمطل. ثم قال بعده: "فإذا أتبع أحدكم فليتَّبع" فأفاد ذلك: أنَّ الدين المحالَ به لابُدَّ أن يكون حالاً؛ لأنَّه إن لم يكن حالاً كثُر الغَرَرُ بتأجيل الدينين.

ومنها: أن يكون الدينُ المحالُ عليه من جنس المحال به؛ لأنه إن خالفه في نوعه خرجَ من باب المعروف إلى باب المبايعة، والمكايسة، فيكون بيعُ الدَّين بالدَّين المنهيِّ عنه.

فإذا كملت شروطها برئت ذمةُ المحيل بانتقال الحقِّ الذي كان عليه إلى ذمة المحال عليه. فلا يكون للمحال الرُّجوع على المحيل؛ وإن أفلس المحال عليه؛ أو مات. وهذا قولُ الجمهور. وقد ذهب أبو حنيفة إلى رجوعه عليه إن تعذر أخذه الدين من المحال عليه. والأول الصحيح؛ لأنَّ الحوالة عقدُ معاوضة، فلا يرجع بطلب أحد العوضين بعد التسليم، كسائر عقود المعاوضات، ولأن ذمة المحيل قد برئت من الحقِّ المحال به بنفس الحوالة، فلا تعود مشتغلةً به إلا بعقدٍ آخر، ولا عقد، فلا شغل. غير أنَّ مالكاً قال: إنْ غرَّ المحيل المحال بذمَّة المحال عليه كان له الرُّجوع على المحيل. وهذا لا ينبغي أن يختلف فيه؛ لوضوحه[1].

وجاء في فتح الملهم: (قوله: "مطل الغني ظلم". وأصل المطل: المد. قال ابن فارس: مطلت الحديدة أمطلها مطلاً: إذا مددتها لتطول، وقال الأزهري: المطل المدافعة. وقال ابن سيدة في المحكم: المطل التسويف بالعِدَة والدين ويستعمل من باب نصر وباب المفاعلة جميعاً والمراد هنا تأخير ما استحق أداؤه بغير عذر.

و"مطل الغني" من قبيل إضافة المصدر إلى فاعله، والمعنى: أنه يحرم على الغني القادر أن يمطل بالدين بعد استحقاقه، بخلاف العاجز. وقيل: هو من قبيل إضافة المصدر إلى مفعوله، والمعنى أنه يجب وفاء الدين ولا يجوز تأخيره، ولو كان الدائن

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٤/٤٣٨-٤٤٠.

غنياً، ويؤخذ منه حكم الدائن الفقير بالطريق الأولى، ولكن لا يخفى ما في هذا التفسير من تكلف، فالأول أولى.

وبالجملة، فمراد الحديث أن المديون إذا كان غنياً فلا يسوغ له التأخير والتسويف في أداء دينه، والمراد من الغني ههنا: من قدر على أداء دينه، ولو كان في نفسه فقيراً، واختلفوا: هل يعد الرجل غنياً إذا لم يكن عنده شيء، ولكنه يقدر على الاكتساب؟ فقيل: يعد غنياً، وقيل: لا، وجمع بعضهم بين القولين، فقال: إن كان قد استقرض لسبب هو معصية فالواجب عليه الاكتساب للأداء، فيعد غنياً عند قدرة الاكتساب، ولو كان فقيراً، وإن كان استقرض لحاجة مباحة عرضت له فلا يعد غنياً حتى يكون عنده ما يؤديه.

ثم جعل الحديث مطل الغني ظلماً، للمبالغة في التنفير عن المطل، وبه استنبط سحنون من المالكية أن الغني المماطل لا تقبل شهادته، لكون الحديث نص على أنه ظالم.

ثم إن الغني المماطل يدخل فيه كل من لزمه حق يستطيع أداؤه كالزوج لزوجته، والسيد لعبده، والحاكم لرعيته، وسواء كان الحق مالياً أو غيره، ويجوز للحاكم أن يعزر مثله)[1].

ثالثاً- من مهام الداعية: إيجاد الحلول لما يستعصى من الأمور:

حيث جاء في الحديث "وإذا أتبع أحدكم على مليء فليتبع" وقد أرشد النبي ﷺ الدائن عند مماطلة المدين الغني أن يقبل الحوالة، قال ابن حجر: (والحوالة عند الفقهاء نقل دين من ذمة إلى ذمة ومناسبة قوله "فإذا أتبع أحدكم على مليء فليتبع" للتي قبلها أنه لما دلَّ على أن مطل الغني ظلم، عقبه بأنه ينبغي قبول الحوالة على المليء لما في قبولها من دفع الظلم الحاصل بالمطل، فإنه قد تكون مطالبة المحال عليه سهلة على المحتال دون المحيل، ففي قبول الحوالة إعانة على كفه عن الظلم)[2]. ولقد أمر الرسول ﷺ

(١) تكملة فتح الملهم، محمد تقي العثماني، ٧/٤٤٧-٤٧٨.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٤/٥٤٤.

الدائن إذا أحاله المدين على غني مليء موسر قادر أن يقبل الحوالة، وأن يتبع الذي أحيل عليه بالمطالبة حتى يستوفي حقه (وإنما أمر الرسول ﷺ بالاتباع إذا أتبع تنجية للمدين من الظلم، أو الإشراف عليه بالمماطلة، وتعجيلاً لاستيفاء حقه بلا مساومة، ولقد قال أكثر الحنابلة، وأبو ثور وابن جرير وأهل الظاهر إنه يجب على الدائن قبول الإحالة على الملئ عملاً بهذا الأمر)[1].

والإسلام مع وضعه الحلول لمسألة الديون، إلا أنه لا يحب للمسلم أن يثقل كاهله بالدين، وهو لا يستطيع الوفاء، ولا القضاء، فإن الدين مسؤولية خطيرة، وأمانة جسيمة لاسيما إذا كان الإنسان قادراً على السداد وهو يماطل في أداء الحقوق، ورد الديون لأصحابها.

(إن الناظر إلى أحوال الناس اليوم يجد أن أكثرهم قد طوقته الديون وعظمت عليه الحقوق، حتى أصبحت لا تكاد ترى رجلاً إلا وهو مدين، وإن أكثر الناس اليوم في مظاهر الأغنياء، ويتزيون بزي الأثرياء، ولكنهم فقراء؛ فالمنزل أقام بنيانه بالدين، والسيارة التي يركبها بالدين، بل وصل الحال ببعضهم إلى أن أصبح إبريق الشاي وثلاجة القهوة والبتوجاز بالدين عن طريق مؤسسات التقسيط، وهذا خطر عظيم، ومغامرة رهيبة، إن الإنسان بذلك يعرض حياته للذلة والنكد، والتجريح والإهانات، والسجون والشكايات، وأعظم من ذلك كله يتعرض للعقوبة العظمى من الله تعالى لو مات وحقوق الناس وأموالهم برقبته.

وكان ﷺ يؤتى بالرجل المتوفى وعليه الدين، فيسأل: هل ترك لدينه من قضاء؟ فإن حدث أنه ترك وفاء صلى عليه، وإلا قال: صلوا على صاحبكم، وهذا كان في أول أمر الإسلام، فلما فتح الله عليه الفتوح قال: ((أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن توفي وعليه دين فعليّ قضاؤه))[2].

---

(١) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ٤٧.

(٢) أخرجه البخاري ٢٢٩٨، ومسلم ١٦١٩.

ونفس المؤمن معلقة بدينه حتى يُقضى عنه، فعن محمد بن جحش رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((والذي نفسي بيده لو أن رجلاً قتل في سبيل الله ثم أحيي ثم قتل في سبيل الله، ثم عاش ثم قتل في سبيل الله، ما دخل الجنة حتى يقضي دينه))[1].

فلماذا يتهاون الناس بهذه المسألة، ويتجرؤون على الإغراق في الدين والإثقال على النفس، والتحمل لما لا يطاق؟!

قنعت بالقوت من زماني ... وصُنت نفسي عن الهوان
خوفاً من الناس أن يقولوا ... فَضْلُ فلان على فلان
من كنت عن ماله غنياً ... فلا أبالي إذا جفاني

إن كثيراً من الناس قد أثقل نفسه بالدين لغير حاجة، وتحمل الحمالات العظيمة بدون ضرورة، وكثيراً من الناس يؤمل فيه الخير، ويتوقع منه الأداء فيثق فيه الناس، ويقرضونه أموالهم ثم يتنكر لهم، ويتمرد عليهم، ويمكر بهم؛ كثر غرماؤه، وتعدد خصماؤه، فلا معروف يرد، ولا دين يقضي.

يقول أحدهم وقد كثر غرماؤه:

ولو علقتموني كل يوم ... برجلي أو يدي في المنجنيق
لما أعطيتكم إلا تراباً ... يُطيَّر في الخياشم والحلوق

وأما الآخر فقد تحمل ديوناً كثيرة فكلما هجم عليه غرماؤه فرّ منهم وقال:

فلو كنت الحديد لكسَّروني ... ولكني أشدُّ من الحديد

ويكفي وعيداً لمن يأخذ أموال الناس، ويقترض من ذوي الفضل؛ ثم لا ينوي أداء الحق وإعادة الدين، يكفيه وعيداً ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله))[2].

إن لكثرة الديون على الناس أسباباً عديدةً، وهذا الأمر يحتاج إلى كثير عناية، وإلى عظيم دراسة، ولكنني أجمل بعض الأسباب التي تجعل كثيراً من الناس مسترقين برقِّ الدين، ومنها:

---

(١) أخرجه النسائي ٤٦٨٤، وحسنه الألباني (صحيح سنن النسائي ٤٣٦٧).

(٢) أخرجه البخاري ٢٣٨٧.

١- محق البركة في الرزق، بحيث أصبح الإنسان له راتب طيب أو دخل مناسب ولكنه ممحوق البركة، ولذلك أسباب عديدة منها: الربا، الذي هو حرب على الله ورسوله، والذي درهم منه أشد من ست وثلاثين زنية، ومنها عدم الإخلاص في العمل أو الوظيفة، فقليل من الناس اليوم من يأخذ راتبه حلالاً زلالاً قد أدى عمله على أتم وجه، بل تجد التمرد والإهمال، والغياب، والكسل، والتأخر، إلى غير ذلك من التفريط في حق العمل. ومنها عدم أداء الزكاة التي هي مطهرة للمال والرزق ونماءٌ له وبركة فيه، ومنها عدم صدق النية في البيع والشراء، فإن صدق البيعان وبيّنا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا فعسى أن يربحا ربحاً ويُمْحقا بركة بيعهما.

٢- غياب الصدق بين الشركاء، وإنفاق السلعة بالحلف الكاذب.

٣- التورط في مشاريع دون دراسة: لابد للإنسان قبل أن يقدم على أي مشروع صغير كان أو كبير أن يدرسه دراسة وافية من جميع جوانبه حتى لا يزج بنفسه في أمر لا تحمد عواقبه، وبتجارة لا تفلح فكرتها؛ فلابد من دراسة الجدوى، ومعرفة الثمرة، وحساب النتيجة.

٤- عدم التفكير وإعمال الذهن، وإيقاد القريحة: فالتجارة تحتاج إلى همة عالية، وذهن متوقد، وترقب للفرص، وذكاء في العرض، وتريث في الطلب. وحسن النية وحده لا يكفي في التجارة.

٥- استعجال الربح: فبعض الناس يبدأ بمحل تجاري، ويظن أن الأرباح ستنكب عليه من أول شهر أو شهرين، فإذا لم يجد شيئاً أغلق متجره وأنشأ متجراً آخر، وهكذا حتى يورط نفسه، وكان الأولى له الصبر والتريث، فإن الأمر يحتاج إلى زمن. والإنسان لكي يؤسس محلاً وعلاقات وزبائن يحتاج إلى سنوات وليس إلى أشهر.

٦- التورط في مسألة التقسيط: ظناً من الناس أنها حل ومخرج من الورطات، وهي في الحقيقة عناءٌ إلى عناء وهم إلى هم، ويجب أن لا يلجأ إليها إلا في الضرورة القصوى إذا بارت الحيل.

٧- الإغراق في الكماليات التي لا ضرورة لها: والواجب على المسلم أن يقتصد في الإنفاق، ولا يشتري إلا ما تدعو إليه الضرورة، فإن الرضا بالقليل خير من العيش وأنت ذليل[1].

---

(١) نسيم الحجاز من مسجد ابن باز، د. ناصر بن مسفر الزهراني، ص ٢٢٨-٢٣٣.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية على أداء الحقوق وعدم هضمها:

إن التربية الإسلامية تعمل على ترسيخ الوفاء بالحقوق في النفوس، وتهيب بالمسلم أن يسارع إلى أداء ما عليه وعدم المماطلة في ذلك، لأن الدين المعاملة، وأنه لابد للإنسان في هذه الحياة أن يكون آخذًا أو معطيًا، فإن كان آخذا متصدقًا عليه، شكر ودعا لصاحب المعروف، وكافأه على ذلك بما يستطيع، وإن كان الإنسان مقترضًا رد لصاحبه ما أخذ منه عند حلول أجله مثنيًا عليه، مظهرًا إحسانه إليه.

وعلى القائمين على التربية والتوجيه بيان أن مطل الغنى ظلم، ومن أخر حقًا عليه مع القدرة على تسليمه فهو البغيض الظلوم، والممقوت الملوم[1].

وهذا ما ترائى جليًا في حديث الباب من قوله ﷺ: «مطل الغنى ظلم...إلخ».

فالإسلام كمنهج تربوي يرقب في متربيه ومتعلميه أن يكونوا ذا ضمير يقظ، تصان به حقوق الناس من خبث التلكؤ والتأخر مع المقدرة على الأداء في ذلك[2]؛ لذا وجب على دعاة التربية والتوجيه غرس التربية على أداء الحقوق في نفوس المتربين، وبيان سوء عاقبة هضمها.

ثانيًا: التربية بالترهيب:

إن المماطلة في أداء الحقوق مع القدرة على إيفائها، مما يهدم الثقة بين الناس ويساعد على ضياع الأمانة التي طالما حافظ عليها الإسلام، كما أن المماطلة في أداء الحقوق تعمل على إيغار الصدور وتقطيع أواصر الود، ومن ثمَّ تفكيك المجتمع وسلخه من الترابط بين أفراده.

لذا ورد الترهيب من المماطلة في أداء الحقوق مع القدرة على إيفائها، بأشد أنواع الترهيب، وهي بيان أن ذلك ظلم، وهذا ما ورد في حديث الباب من قوله ﷺ: «مطل الغنى ظلم».

---

(١) انظر: إصلاح المجتمع، محمد سالم الكدادي البيحاني، ١٧٨، ١٧٩ بتصرف يسير.

(٢) خلق المسلم، محمد الغزالي، ٤٥ بتصرف.

وللظلم ظلمات يوم القيامة، وقد حرمه الله على نفسه، وجعله بين عباده محرمًا، وذلك في قوله جل وعلا -من الحديث القدسي-: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي. وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا. فَلاَ تَظَالَمُوا ... إلخ»[١].

وهذا مما يربي ويغرس في المتربي والمتعلم الترهيب من المماطلة في أداء الحقوق مع القدرة على إيفائها.

والترهيب كأسلوب تربوي يعني التخويف من ترك فعل، وهو يتناسب مع ما فطر عليه الإنسان من الإحساس بالألم، لذا كان له عظيم الأثر في تربية الإنسان وتوجيهه وسلوكه[٢].

ثالثا: التربية بالتوجيه المباشر:

إن النبي ﷺ وجه أمته في نص الحديث إلى أن من دفعته الضرورة والحاجة إلى الاستدانة، ثم تعسر عن الوفاء، فأحال الأداء في ذلك إلى غنى يدفع عنه حقه غير مدافع ولا ممانع، فعلى صاحب الحق أن يقبل أخذ حقه حيث كان وتقاضيه من أي إنسان، وذلك في قوله ﷺ: «... وإذا أتبع أحدكم على مليء فليتبع»، وهذا توجيه مباشر من النبي ﷺ إلى طيب التقاضي الذي هو من مكارم الأخلاق[٣].

وبذلك تتربى الأنفس على التيسير وعدم التعسير في أخذ الحق، وبذلك تصفو القلوب، وتترسخ الأخوة في مجتمع دلَّل بتربيته على مكارم الأخلاق.

وفي ضوء ما سبق يتضح أن التوجيه المباشر وسيلة من وسائل العادة التعليمية التطبيقية، وهو يعني طلب المربي المباشر والصريح من طلابه القيام بعمل معين[٤].

وذلك بهدف تحقيق الأهداف الكريمة، وغرس الفضائل العظيمة[٥]، لذا وجب على القائمين على التربية والتوجيه، عدم التغافل عن استخدام وسيلة التوجيه المباشر كلما تراءت الأهمية في ذلك.

۞ ۞ ۞

---

(١) أخرجه مسلم، ٦٥٧٢.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ٣٩٣.

(٣) إصلاح المجتمع، محمد سالم البيحاني، ١٧٩، ١٨٠ باختصار شديد.

(٤) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني، ٢٨٤.

(٥) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ٢٧٨.

٢٨٥- باب كراهة عود الإنسان في هبة لَمْ يُسلِّمها

إلَى الموهوب لَهُ وفي هبة وهبها لولده وسلمها أوْ لَمْ يسلمها وكراهة شرائه شَيْئاً تصدّق بِهِ من الّذِي تصدق عَلَيْهِ أوْ أخرجه عن زكاة أوْ كفارة ونحوها وَلاَ بأس بشرائه من شخص آخر قَدْ انتقل إلَيْهِ

الحديث رقم (١٦١٤)

١٦١٤ - عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ، قَالَ: ((الَّذِي يَعُودُ فِي هِبَتِهِ كَالكَلْبِ يَرْجِعُ فِي قَيْئِهِ))[1]. متفق عَلَيْهِ.

وفي رواية[2]: ((مَثَلُ الَّذِي يَرْجِعُ فِي صَدَقَتِهِ، كَمَثَلِ الكَلْبِ يَقِيءُ، ثُمَّ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ فَيَأكُلُهُ)).

وفي روايةٍ[3]: ((العائِدُ فِي هِبَتِهِ كالعائِدِ فِي قَيْئِهِ)).

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

الشرح الأدبي

إن التصوير البياني في الحديث النبوي يجمع بين الترغيب والترهيب، فهو يرغب المسلم في الإقدام على الخير وكل ما هو صالح عن طريق التشبيه والتمثيل، والربط بين السلوك الخير ومشاهد الطبيعة الخيرة الجميلة، وأما الترهيب فيكون عن طريق ربط الأفعال القبيحة بمظاهر حسية قبيحة منفرة في مشاهد الحياة، ومفردات البيئة.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٨٧) من حديث أيّوب، عن عكرمة. أورده المنذري في ترغيبه (٣٨٥٦).

(٢) أخرجها مسلم (١٦٢٢/٥). أورده المنذري في ترغيبه (٣٨٥٦).

(٣) أخرجها مسلم (١٦٢٢/٧). تنبيه: هذه الرواية عزاها المنذري في ترغيبه (٣٨٥٦) إلى أبي داود، وهي عند مسلم كما ذكرنا.

وهذا الحديث يجمع بين خاصيتي الإيجاز والتصوير البياني عن طريق التشبيه التمثيلي، والإيجاز في الأسلوب يتمثل في أن الحديث جملة واحدة مكونة من مبتدأ وخبر، ولكنه يصور سلوكاً بشرياً مرفوضاً يتكرر في كل عصر وفي كل مكان وهو الرجوع في الصدقة أو الهبة.

وهذا السلوك يعد من الأعمال القبيحة التي لا تليق بالمسلم، ولذلك قدم رسول الله ﷺ هذا السلوك الشائن في صورة بيانية منفرة، حتى لا يقدم عليه الناس، وحتى يرتدع كل من يفكر في سلب الهبة أو الصدقة من صاحبها، لأن ذلك عمل قبيح.

وللقبح وتصويره مرحلتان في نص هذا الحديث: الأولى في مشهد تقيؤ الكلب، والثانية في أكل القيء، وهاهنا: إشباع فكرة القبح المقزز، ومن القبح البارز أن المشهد نادر في الوجود، وندرته تكسر المألوف، وغرابته تشد الانتباه، وكأن العائد في هبته خرج على موازين الحياة السوية والطبيعية الصحيحة[1].

وقال ابن دقيق العيد، وقع التشديد في التشبيه من وجهين: أحدهما تشبيه الراجع بالكلب، والثاني تشبيه المرجوع فيه بالقيء، وذلك لمزيد من التنفير من هذا السلوك الشائن.

فقه الحديث

في هذين الحديثين[2] مسألة حكم الرجوع في الهبة[3]، أو العود فيها، والفقهاء عندما تكلموا عن هذه المسألة فرقوا بين حكم الرجوع في الهبة قبل قبض الموهوب له الشيء الموهوب وبين حكم الرجوع فيها بعد قبضه إياه:

أولاً: حكم الرجوع في الهبة قبل القبض: اختلف الفقهاء في حكم الرجوع في الهبة قبل القبض على رأيين:

---

(١) انظر: الصورة الفنية في الحديث النبوي، د. أحمد ياسوف.

(٢) الحديث رقم (١٦١٤)، (١٦١٥).

(٣) الهبة: هي "تمليك عين بلا عوض حال الحياة تطوعاً" انظر: مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٢/٢٩٦-٢٩٧.

الرأي الأول: وهو ما ذهب إليه الحنفية[١]، والشافعية[٢]، والحنابلة[٣]، ويرون جواز الرجوع في الهبة قبل القبض.

الرأي الثاني: وهو ما ذهب إليه المالكية[٤]، والظاهرية[٥]، ويرون عدم جواز الرجوع في الهبة قبل القبض.

الأدلة:

أولاً: دليل الرأي الأول: استدل أصحاب الرأي الأول على جواز الرجوع في الهبة قبل القبض بالأثر، والمعقول:

١- من الأثر: ما روي عن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر رضي الله عنه نحلها جذاذاً عشرين وسقاً من ماله بالعالية، فلما مرض قال: يا بنية ما أحد أحب إلي غنى بعدي منك، ولا أحد أعز عليَّ فقراً منك، وكنت نحلتك جذاذاً عشرين وسقاً وودت أنك حزيتيه، أو قبضتيه، وهو اليوم مال الوارث أخوك، وأختاك فاقتسموه على كتاب الله عز وجل[٦].

فهذا الأثر يدل - صراحة- على جواز الرجوع في الهبة قبل القبض.

٢- من المعقول: أما من المعقول: فقياس الهبة على القرض بجامع أن كلاً منهما عقد إرفاق، والقرض لا يملك إلا بالقبض، فكذا الهبة[٧].

ثانياً: دليل الرأي الثاني: استدل أصحاب هذا الرأي على عدم جواز الرجوع في الهبة قبل القبض بالنصوص الآمرة بالوفاء بالعقود لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾[٨].

---

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين بن مسعود الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ١١٥/٦.

(٢) حاشية البجيرمي على الخطيب، المسماة: تحفة الحبيب على شرح الخطيب، سليمان بن عمر الشافعي ٢٢١/٣.

(٣) المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٢٥١/٦.

(٤) بداية المجتهد ونهاية المقتصد، الوليد بن رشيد القرطبي ٣٢٩/٢.

(٥) المحلى، ابن حزم ١٢٠/٩.

(٦) موطأ مالك شرح الزرقاني ٤٧٧/٤.

(٧) حاشية البجيرمي على الخطيب، المسماة: تحفة الحبيب على شرح الخطيب، سليمان بن عمر الشافعي ٢٢/٣.

(٨) سورة المائدة، آية: ١.

فالهبة إذا تمت باللفظ كان الوفاء بها لازماً دونما توقف على قبض[1] وبالتالي لا يجوز الرجوع فيها قبله.

مناقشة هذا الدليل: وقد نوقش الاستدلال بهذه الآية، بأن المراد بالعقود التي يجب الوفاء بها - في الآية الكريمة- هي العقود اللازمة، والهبة لا تلزم قبل القبض، فلا تتناولها الآية[2].

الترجيح:

بعد عرض آراء الفقهاء في هذه المسألة، وأدلتهم ومناقشة ما استدل به أصحاب الرأي الثاني، أرى - والله أعلم - أن الراجح هو ما ذهب إليه أصحاب الرأي الأول من جواز الرجوع في الهبة قبل القبض، وذلك حتى يعطي الواهب فرصة للاطمئنان ومراجعة النفس قبل إقباض الهبة، حتى إذا قام بتسليمها إلى الموهوب له، كان ذلك دليلاً على حرصه على إتمامها.

ثانياً: حكم الرجوع في الهبة بعد القبض: أما حكم الرجوع في الهبة بعد قبضها فقد اختلف الفقهاء فيه على رأيين:

الرأي الأول: وهو ما ذهب إليه جمهور الفقهاء من المالكية[3]، والشافعية[4]، والحنابلة[5]، والظاهرية[6]، ويرون عدم جواز الرجوع في الهبة بعد قبضها، باستثناء الوالد فيما وهبه لولده.

واستدلوا: على عدم الجواز بحديث الباب.

كما استدلوا على استثناء هبة الوالد لولده بما روي عن ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "لا يحل للرجل أن يعطي عطية ثم يرجع

---

(١) المحلى، ابن حزم ١٢٠/٩-١٢١.

(٢) الحاوي الكبير للماوردي ٥٣٦/٧.

(٣) شرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني ١١٣/٥، الاستذكار لابن عبدالبر ٣١٢/٢٢.

(٤) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٦٤/٦.

(٥) الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ١٤٥/٧.

(٦) أخرجه أحمد ٣٣٧/١ رقم ٢١١٩، وقال محققو المسند: إسناده حسن ٢٦/٤.

فيها إلا الوالد فيما يعطي ولده، ومثل الذي يعطي العطية ثم يرجع فيها كمثل الكلب أكل حتى إذا شبع قاء، ثم عاد في قيئه".

كما أن الأب لا يهتم في رجوعه، لأنه لا يرجع إلا لضرورة، أو إصلاح حال الولد كما أن الولد وماله لأبيه، ومن ثم فإن رجوع الأب لا يسمى رجوعاً في الحقيقة، وإن كان رجوعاً في الظاهر[١].

الرأي الثاني: وهو ما ذهب إليه الحنفية[٢]، ويرون جواز الرجوع في الهبة بشرط عدم وجود مانع.

الترجيح:

والراجح هو عدم جواز الرجوع في الهبة بعد القبض باستثناء الوالد فيما وهب لولده، وذلك للنصوص الدالة على وجوب الوفاء بالعقود، والشروط، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾[٣] وقوله ﷺ ((المُسْلِمُونَ عندَ شُرُوطِهِمْ، إلاَّ شرطاً حَرَّمَ حلالاً أَوْ شرطاً أَحَلَّ حراماً))[٤]، ولاشك أن وجوب الوفاء يتنافى مع جواز الرجوع.

المضامين الدعوية[٥]

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحث على العطية والهبة.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: التحذير من الرجوع في الهبة.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: التشبيه والتمثيل.

---

(١) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٦/٦٤، وإعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة ٢/٣٤٦.

(٢) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين بن مسعود الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٦/١٢٧.

(٣) سورة المائدة، آية: ١.

(٤) أخرجه الترمذي ١٣٥ من حديث عمرو بن عوف وله شاهد من حديث أبي هريرة عند ابن حبان ٥٠٩١، يتقوى به، وانظر: مسند أحمد ١٤/٨٧٨٤.

(٥) تم دمج المضامين لهذا الحديث -١٦١٤- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦١٥).

رابعاً: من أساليب الدعوة: النهي.

خامساً: من آداب المدعو: السؤال عما أشكل وخفي عليه.

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحث على العطية والهبة

هذا ما يستفاد من سياق الحديث، والهبة لغة: (إعطاء الشيء إلى الغير بلا عوض سواء كان مالاً أو غير مال، فيقال: وهب له مالاً وهباً وهبة، كما يقال: وهب الله فلاناً ولداً صالحاً)[١]، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي ﴾[٢]، واصطلاحاً: (تمليك المال بلا عوض في الحال، والهبة مشروعة في الكتاب والسنة والإجماع.

فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾[٣] ومن السنة قوله ﷺ: ((تهادوا تحابوا))[٤] والهدية هي الهبة، وقوله ﷺ: ((لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة))[٥] والفرسن الظلف، وقبول النبي ﷺ هدية المقوقس وهو كافر، كما قبل هدية النجاشي وهو مسلم وتصرف بها وهداه أيضاً، أما الإجماع فقد انعقد على جوازها ومشروعيتها، بل على استحبابها بجميع أنواعها، لما فيها من التعاون على البر والتقوى وإشاعة الحب والتواد بين الناس)[٦]. وهذا ما أظهره صفوان بن أمية رضي الله عنه في قوله: ((وَاللّهِ لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ اللّهِ مَا أَعْطَانِي، وَإِنَّهُ لأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ. فَمَا بَرِحَ يُعْطِينِي حَتَّىٰ إِنَّهُ لأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ))[٧]، (فما أعظم التحول الذي أوجده تعالى بسبب الإعطاء في قلب صفوان رضي الله عنه ومما لاشك فيه أن الداعي إذا أعطى صار أحب الناس إلى المدعو فإن كلامه يُسمع، وأمره ينفَّذ، ونهيه يُحترم)[٨].

---

(١) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الرافعي أحمد بن محمد الفيومي ٨٤٢.

(٢) سورة مريم، الآيتان: ٥-٦.

(٣) سورة النساء، آية: ٤.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٥٩٤، وصححه الألباني (صحيح الأدب المفرد ٤٦٢).

(٥) أخرجه البخاري ٢٥٦٦، ومسلم ١٠٣٠.

(٦) انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ومصادرها، ٤٢/١٢١-١٢٢.

(٧) أخرجه مسلم ٢٣١٣.

(٨) ركائز الدعوة إلى الله، د. فصل إلهي، ٢٣٦.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: التحذير من الرجوع في الهبة:

هذا ما أشار إليه نص الحديث في قوله ﷺ "الذي يعود في هبته كالكلب يرجع في قيئه" وقوله "فإن العائد في صدقته كالعائد في قيئه"، وقد حث النبي ﷺ على عدم الرجوع في الهبة فقال: ((ليسَ لنا مَثَل السَّوْء، الذي يَعودُ في هِبَتِه كالكلب يَرجِع في قَيئِهِ))[1]. قال ابن حجر في قوله ﷺ: ("ليس لنا مثل السوء" أي: لا ينبغي لنا معشر المؤمنين أن نتصف بصفة ذميمة يشابهنا فيها أخس الحيوانات في أخس أحوالها، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ﴾[2] ولعل هذا أبلغ في الزجر عن ذلك مما لو قال مثلاً: لا تعودوا في الهبة)[3]، وقال ابن عثيمين: (لا يحل لك أن ترجع فيما أعطيت من هبة، سواء كان قليلاً أم كثيراً، لأن النبي ﷺ شبه العائد في هبته بالكلب، الذي يقيء ما في بطنه ثم يعود فيأكله، وهذا تشبيه قبيح، شبه النبي ﷺ العائد في هبته بهذا تقبيحاً له وتنفيراً منه)[4].

ثالثاً- من أساليب الدعوة: التشبيه والتمثيل:

هذا ما ورد في الحديث من تشبيهه ﷺ لمن يرجع في هبته بالكلب الذي يقيء ثم يعود في قيئه فيأكله (فالتشبيه والتمثيل من الأساليب الدعوية المهمة في تقريب المعنى إلى الأفهام؛ فقد ألف الناس تشبيه الأمور المجردة بالأشياء الحسية، ليستطيعوا فهم تلك الأمور المعنوية، أو الغيبية، فضلاً عن تربية العقل على التفكير الصحيح والقياس المنطقي السليم، فالأمثال نموذجات الحكمة لما غاب عن الأسماع والأبصار لتهتدي النفوس بما أدركت عياناً)[5]، وقد أكثر القرآن من ذكرها، كما قال تعالى:

---

(١) هذه رواية عند البخاري ٢٦٢٢.

(٢) سورة النحل، آية: ٦٠.

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٢٧٨/٥.

(٤) شرح رياض الصالحين ١٦٩٥.

(٥) انظر: التربية على منهاج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد، ٣٣١-٣٣٥.

﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[1] وقال جل ذكره: ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾[2] وقال: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾[3].

رابعاً- من أساليب الدعوة: النهي:

قد ورد النهي كأسلوب دعوي في الحديث من قوله ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه "لا تشتره، ولا تعد في صدقتك" والنهي من الأساليب الدعوية المهمة في إرشاد المدعو وحمله على اجتناب ما نهى عنه الشارع، لما في الاجتناب من خير وصلاح في الدنيا والآخرة.

حيث أفاد النهي في نص الحديث عدم الرجوع في الهبة، لأن ببذلها يكون إشاعة الحب والتواد وحصول الألفة بين الناس، وفي الرجوع عنها شجٌ فيما كان من حسن الصلات وجميل الفعال.

خامساً- من آداب المدعو: السؤال عما أشكل وخفي عليه:

هذا ما ورد في الحديث من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك؟ أي: عن شراء ما تصدق به ممّن تُصُدِّق عليه، فعلى المدعو أن يسأل عن كل ما أشكل وخفي عليه من أمر دينه ودنياه، حتى يكون على بينة من ذلك، فيعبد الله على علم وبصيرة، وقد أمر الحق تبارك وتعالى بذلك فقال: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[4] قال السعدي: (فهذه الآية وإن كان سببها خاصاً بالسؤال عن حالة الرسل المتقدمين من أهل الذكر، وهم أهل العلم، فإنها عامة في كل مسألة من مسائل الدين، أصوله وفروعه، إذا لم يكن عند الإنسان علم منها أن يسأل من يعلمها، ففيه الأمر بالتعليم والسؤال لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم إلا لأنه يجب عليهم التعليم،

---

(١) سورة النور، آية: ٣٥.

(٢) سورة إبراهيم، آية: ٤٥.

(٣) سورة العنكبوت، آية: ٤٣.

(٤) سورة الأنبياء، آية: ٧.

والإجابة عما علموا، وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم نهي عن سؤال المعروف بالجهل، وعدم العلم، ونهي له أن يتصدى لذلك)[١]، فعلى المدعو أن يمتثل لأمر الله تعالى في السؤال عما أُشكل وخفي عليه مقتدياً في ذلك بقوله ﷺ ((فإنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ))[٢].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٤٦٨.

(٢) أخرجه أبو داود ٣٣٦، وقال الألباني حديث حسن (صحيح سنن أبي داود ٣٢٥).

الحديث رقم (١٦١٥)

١٦١٥ - وعن عمر بن الخطاب ﵁ قَالَ: حَمَلْتُ عَلَى فَرَسٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَضَاعَهُ الَّذِي كَانَ عِنْدَهُ، فَأَرَدْتُ أن أشْتَرِيَهُ، وَظَنَنْتُ أنَّهُ يَبِيعُهُ بِرُخْصٍ، فَسَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: ((**لاَ تَشْتَرِهِ وَلاَ تَعُدْ فِي صَدَقَتِكَ وإنْ أعْطَاكَهُ بِدِرْهَمٍ؛ فَإنَّ العَائِدَ فِي صَدَقَتِهِ كَالعَائِدِ فِي قَيْئِهِ**)) متفق عَلَيْهِ[1]. قوله: "حملت على فرس في سبيل الله" معناه: تصدقت به على بعض المجاهدين.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١).

الشرح الأدبي

هذا الحديث تطبيق عملي واقعي للقاعدة التي أرساها رسول الله ﷺ في الحديث السابق: وهي عدم الرجوع في الصدقة أو الهبة، والحديث يرويه الفاروق عمر ﵁، ويحكي مشهداً واقعياً حدث له، وحواراً دار بينه وبين رسول الله حول هذا الحكم: وهو عدم الرجوع في الصدقة.

وفي الحديث الشريف: لفظان يحتاجان إلى تأمل الدلالة فيهما: حيث عدل بهما عن معناهما المألوف إلى معنى جديد مرتبط بالسياق فقوله: "حملت على فرس في سبيل الله" لا يراد به أن عمر هو الذي جاهد في في سبيل الله، ولكن المراد هنا أنه تصدق به على المجاهدين: أي أعطى رجلاً فرساً ليجاهد الكفار عليه، وقيل إن هذا الفرس: اسمه الورد، وكان لتميم الداري: فأهداه للنبي ﷺ: فأعطاه النبي لعمر بن الخطاب ﵁، وقوله: "فأضاعه الذي كان عنده" يتجاوز الدلالة المألوفة ويعدل عنها، وذلك ما يسميه النقاد الأسلوبيون، الانزياح أو العدول أو الانحراف عن النمط المألوف في التعبير، والمراد

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٩٠) واللفظ له، ومسلم (١٦٢٠/١). أورده المنذري في ترغيبه (٣٨٥٧).

هنا ليس ضياع الفرس بمعنى فقدانه، ولكن المراد أنه: لم يكرمه بالإطعام والعناية فهزل وضعف.

ومن الظواهر الأسلوبية في الحديث: العطف بالفاء في رصد تتابع الأفعال، ووقائع هذا الحدث لنقل سرعة الحركة والحرص على معرفة الحكم الصحيح في هذه القضية: ولنتأمل سرعة الحركة ووثبات الإيقاع التي تكون قصة محكمة بالغة الدقة والإيجاز على هذا النسق التعبيري البليغ "حملت على فرس، فأضاعه الذي كان عنده، فأردت أن أشتريه، فسألت النبي: فقال لا تشتره".

وتكرار النهي في إجابة رسول الله ﷺ حيث يقول: "لا تشتره ولا تعد في صدقتك": يؤكد صرامة الحكم، وترسيخ هذه القاعدة الشرعية الاجتماعية التي تحفظ للمسلم كرامته وهيبته، وتصون سيرته وحرمته.

ومن بلاغة الحديث: الإيجاز حيث حذف جواب الشرط في قوله: "وإن إعطاكه بدرهم"، والتقدير بعد ذلك: فلا تشتره، ولا تعد في صدقتك، لأن الجواب المحذوف فُسِّر بما قبله.

والتأكيد في تعليل الحكم، وكذلك التشبيه المنفر، من بلاغة الحديث، ومن مظاهر الترهيب من ذلك السلوك الشائن، وصورة الإنسان الذي يأكل القيء من أكثر الصور غرابة وتنفيراً، وأقبح منها صورة الكلب الذي يعود في قيئه فيأكله، كما جاء في الحديث السابق، وهذا الحوار الصريح بين رسول الله ﷺ وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يعد أنموذجاً لكل مسلم يحرص على التعلم، ومعرفة الأحكام الصحيحة من مصدرها الصحيح، ومن أهل الاختصاص: استجابة لقول الله عز وجل: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

المضامين الدعوية[2]

---

(١) سورة النحل، آية: ٤٣.

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية على دعم الأواصر الاجتماعية:

إن من مرذول الأخلاق اللئيمة، والتي يجب على أهل التربية والتوجيه نزعها من نفوس المتربين، دناءة الخلق والرجوع في الهبة أو الصدقة. لما لهذا الخلق المستقذر من تمزيق وتقطيع للأواصر الاجتماعية بين أفراد المجتمع الواحد.

فالأواصر الاجتماعية لا تنمو وتنبت في مجتمع ساد فيه لؤم الطبع ودناءته، بل تقوي في مجتمع كان سمح النفس طيب المقصد، والعائد في هبته قد دللَّ بسوء فعله على أن قلبه قد تعلق بما أخرج من هبة أو صدقة، فهو لم يعط لله، بل أعطى لهوى في نفسه، ولمصلحة مشروطة بنتيجة إن تحققت أمضى هبته وصدقته وإن لم تتحقق عاد في هبته وصدقته، وقد رسم في ذلك صورة نفعية، لا تقيم لميزان الأخلاق وزنًا، ولا تدعم لوشائج المجتمع الإسلامي رابطه.

لذا ربى المعلم الأول ﷺ أمته أفرادًا وجماعات على عدم الرجوع في الهبة أو الصدقة، بعد أن ضرب في ذلك أبشع الأمثلة في الخسة والاستقذار، وذلك بقوله ﷺ: « الذي يَعودُ في هِبَتِه كالكلب يَرجِع في قَيئهِ»، وقوله: «مثل الذي يرجع في صدقته...إلخ»، وقوله: «....فإن العائد في صدقته...إلخ».

ثانيًا: التربية بالتنفير:

إن الإسلام كمنهج تربوي يُنفِّر المتربين والمتعلمين، أن يعود أحدهم في هِبَة وَهَبَها، أو صدقة تصدق بها، سواء سلمها أم لم يسلمها، لما في ذلك من خرق لأواصر المجتمع، ورجوع عن الكلمة والعهد، وقد صورت أحاديث الباب هذا الأسلوب التربوي، حال من يعود في هبته، بصورة تنفُر منها النفوس الكريمة، ولا ترضى أن تقف هذا الموقف أبدًا[1].

وذلك في قوله ﷺ: «.... كالكلب يَرجِع في قَيئهِ».

---

(١) الأخلاق في الإسلام، د. عبداللطيف محمد العبد، ٢٦٨ بتصرف.

ومن هنا كانت التربية بالتنفير من أبرز الأساليب التربوية في إبعاد نفس المتربي عن كل مشين في الأخلاق وسيئ في الأعمال.

ثالثًا: التربية بضرب المثل والتشبيه:

لقد استعمل النبي ﷺ المثل والتشبيه -في أحاديث الباب- وسيلة من وسائل التربية، حيث مثّل وشبّه العائد في هبته بالكلب الذي يرجع في قيئه، وبذلك يوقظ ﷺ النفوس على بشاعة وخسة هذا الفعل، فتُقلع الأنفس عن هذا الخلق اللئيم[1]، وتتم بذلك التربية الأخلاقية والاجتماعية على نحو صحيح مثمر في بناء المجتمع على أواصر الحب والود.

رابعًا: من الأساليب التربوية السؤال والاستفهام:

إن المتعلم والمتربي العاقل هو الذي لا يتردد في السؤال والسكوت على الجهل حتى لا يحدث ما لا تحمد عقباه، سواء في القريب العاجل أو البعيد الآجل[2].

وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه مثالاً فذًا وقدوة طيبة لجيل المتربين والمتعلمين في السؤال والاستفهام، وهذا ما أكده حديث الباب من سؤاله رضي الله عنه لإمام المربين وسيد المرسلين محمد ﷺ، في قوله: "....فسألت النبي ﷺ فالسؤال والاستفهام من الأساليب التي لا يستغنى عنها المتربي الذي منحه الله القدرة على النطق والتفكير. فهو في حياته اليومية يجد نفسه في حوار أو سؤال.... لذا يكون في بحث دائم عن إجابات لما يجهل، فكان السؤال والاستفهام هو محض تربيته، خاصة إذا كان المسئول من أهل الخبرة والاختصاص.

قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[3][4].

۞ ۞ ۞

---

(١) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني، ٤٢٢ بتصرف.

(٢) التربية الذاتية، هاشم علي أحمد، ١٢٤.

(٣) سورة النحل، الآية: ٤٣، سورة الأنبياء، الآية: ٧.

(٤) التربية الذاتية، هاشم علي أحمد، ١٢٣ باختصار.

٢٨٦- باب تأكيد تحريم مال اليتيم

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿إنَّ الَّذينَ يَأكُلُونَ أمْوَالَ اليَتَامَى ظُلْماً إنَّمَا يَأكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَونَ سَعِيراً﴾[النساء: ١٠]، وقال تَعَالَى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ اليَتِيمِ إلاَّ بالَّتِي هِيَ أحْسَنُ﴾[الأنعام: ١٥٢]، وقال تَعَالَى: ﴿وَيَسْألُونَكَ عَنِ اليَتَامَى قُلْ إصْلاَحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإخْوَانُكُمْ واللهُ يَعْلَمُ المُفْسِدَ مِنَ المُصْلِحِ﴾[البقرة: ٢٢٠].

الحديث رقم (١٦١٦)

١٦١٦- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، قَالَ: **((اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ!))** قالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: **((الشِّرْكُ باللهِ، والسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بالحَقِّ، وأكْلُ الرِّبَا، وأكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، والتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ))** متفق عَلَيْهِ[1]. "الموبقات": المهلكات.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

الموبقات: المهلكات[2].

التولي يوم الزحف: الفرار من الجهاد ولقاء العدو في الحرب، والزّحف: الجيش يزحفون إلى العدو أي يمشون[3].

قذف المحصنات المؤمنات الغافلات: المحصنات أي العفائف والغافلات: الغافلات عن الفواحش وما قذفن به[4]، وقذفهن: رَمْيُهُنَّ واتهامهنَّ بالزنا[5].

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له (٢٧٦٦)، ومسلم (١٤٥/٨٩). أورده المنذري في ترغيبه (٣٥٨٦).

(٢) رياض الصالحين، النووي ٥٥٨.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ز ح ف).

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي ١٥٠.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ق ذ ف).

الشرح الأدبي

ما أجمل هذه الصورة التي يقدمها رسول الله ﷺ للمجتمع المسلم الذي يخلو من هذه الموبقات المهلكات، وما أجمل النفس الإنسانية التي تسمو بصاحبها حين يستجيب لأمر المصطفى ﷺ ويجتنب هذه الموبقات التي تهوي بالإنسان إلى الدرك الأسفل من الحياة، وتقوده إلى جهنم وبئس المصير.

ولغة الحديث الشريف تفصح عن مقاصده، وأداؤه الأسلوبي يتسم بالإيجاز والإحكام ودقة الإفهام، ولذلك يبدأ الحديث بفعل الأمر لمن حضر مجلسه من الصحابة، وكذلك لكل المسلمين في كل زمان وفي كل مكان: حيث يقول: "اجتنبوا السبع الموبقات"، وقيل: قد أبهمها الرسول ﷺ ووصفها بما يشوق إلى معرفتها ليحذرها المسلم، ولذلك سأل الصحابة: "ما هن"، والموبقات، معناها: المهلكات: وهي جمع موبقة من أوبق أي أهلك، وسميت بذلك لأنها سبب في هلاك مرتكبيها.

ونلاحظ أن السبع الموبقات وردت كلها في صيغة "المصدر" وفي ذلك إيحاء بأن هذه السبع مصدر كل هلاك، وكل فساد، والشرك بالله جاء في صدارة هذه المهلكات، لأنه مصدر كل فساد، وأسُّ كل رذيلة، وليس بعد الكفر ذنب، ويليه السحر وهو لغة: صرف الشيء عن وجهه، وكل ما لطف ودق مأخذه فهو سحر، ومنه سحر البيان: وهو السحر الحلال، وقيل إن السحر تخييل فقط ولا حقيقة له والصحيح أن له حقيقة وتأثيراً على المسحور، وتعلم السحر وتعليمه من الكبائر، وبلاغة البيان النبوي تكمن في أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال كلمة واحدة، وهي: "السحر" ولكنها تشمل دلالات وتفسيرات متعددة كثيرة، والإيجاز البليغ يكمن في قوله: "وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق"، فالمراد من القتل : إزهاق الروح وحصول الموت بأي وسيلة كانت، وحذف مفعول حرم، وهو "قتلها" لبشاعة الفعل، لأن القتل شديد وذكره يؤلم النفس المؤمنة، والباء للملابسة في قوله: "إلا بالحق"، والاستثناء من عموم الأحوال، وقوله "أكل الربا": المراد منه التعامل بالربا: وهو الزيادة غير الشرعية في القروض، وسمي أكلاً لتأكيد أن الكسب عن طريق الربا يقود إلى الأكل الحرام، وآكل الربا

لا يقوم إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس، وكذلك: "أكل مال اليتيم"، المراد منه: أخذ مال اليتيم والاستيلاء عليه: فكأنه ألقاه في جوفه، وهو مثل النار، في البطون، وقوله "قذف المحصنات الغافلات": ينطوي على تصوير بليغ، وبيان قوي التأثير، فأصل القذف الرمي البعيد بالسِّهام وغيرها من آلات القتال ووسائله القديمة والحديثة، واستعير ذلك للشتم والعيب والبهتان على سبيل الاستعارة التصريحية، وفي هذه الصورة تنفير من هذا السلوك القبيح وهو من السبع المهلكات، ولفظ "المحصنات" يوحي بالمنعة والحفظ، وكأنهن في حصون منيعة من العفاف والطهر.

والغافلات: كناية عن البريئات: لأن البريء غافل عما بهت به[1]، وهو لا يفطن لذلك ولا يتوقعه، ولكن الله يحفظه، وعلى المؤمن اجتناب هذه السبع، حتى لا يكون مصيره الهلاك، وبئس المصير.

فقه الحديث

١- معنى الموبقات: المهلكات: وسميت بذلك لأنها سبب لإهلاك مرتكبيها. والمراد بالموبقة هنا: الكبيرة.

وقد ضبط بعض العلماء الكبيرة بأنها: كل ذنب قرن به وعيد، أو لعن.

وقال ابن الصلاح: لها أمارات منها: إيجاب الحد، ومنها: الإيعاد عليها بالعذاب بالنار ونحوها في الكتاب والسنة، ومنها وصف صاحبها بالفسق، ومنها: اللعن.

وقال الحسن البصري: كل ذنب نسبه الله تعالى إلى النار فهو كبيرة. وقيل غير ذلك[2].

٢- والشرك بالله تعالى أعظم الموبقات، وأكبر الكبائر، فقد وصفه الله تعالى بالظلم العظيم قال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[3] ويكفي للتدليل على خطره أن الله لا

---

(١) انظر: المنهل العذب الفرات في شرح الأحاديث الأمهات، د. عبدالعال أحمد عبدالعال ٣.

(٢) فتح الباري، ابن حجر، ٤١١/١٠، ١٨٢/١٢، شرح صحيح مسلم، النووي ٨٦/٢.

(٣) سورة لقمان، آية: ١٣.

يغفره، ويغفر ما دونه لمن يشاء، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾[١].

كن كيف شئت فإن الله ذو كرم لا تجزعن فما في ذاك من باسِ
إلا اثنتان فلا تقربهما أبداً الشرك بالله والإضرار بالناس[٢]

٣-والسحر حرام من الكبائر فعله، وتعلمه، وتعليمه، وقال بعض الشافعية: إن تعلمه ليس حراماً، بل يجوز ليعرف ويرد على صاحبه، ويميز عن كرامات الأولياء وقد حملوا الحديث على فعل السحر[٣].

٤-وقتل الآدمي عمداً بغير حق من أكبر الكبائر بعد الكفر، فقد سئل النبي ﷺ قال: ((أَيُّ الذنبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟ قَالَ: أَنْ تَجْعَلَ لله نِدّا وَهُوَ خَلَقَكَ قَالَ قُلْتُ لَهُ: إِنَّ ذلِكَ لَعَظِيمٌ. قَالَ قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مِنْكَ))[٤].

٥- والربا محرم بنص الحديث، وبالقرآن الكريم، وبالإجماع فمن القرآن الكريم قوله الله تعالى: ﴿وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ﴾[٥]، وقد أجمعت الأمة على تحريمه[٦].

٦- وأكل مال اليتيم من الكبائر للحديث، والنصوص الدالة على ذلك، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[٧] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[٨].

---

(١) سورة النساء، آية: ١١٦.

(٢) شرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني ٤١٢/٣.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ٨٨/٢.

(٤) أخرجه البخاري ٤٤٧٧، ومسلم ٨٦.

(٥) سورة البقرة، آية: ٢٧٥.

(٦) المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٢٥/٤.

(٧) سورة الأنعام، آية: ١٥٢، وأيضاً: سورة الإسراء، آية: ٣٤.

(٨) سورة النساء، آية: ١٠.

٧- والتولي يوم الزحف من الكبائر، والمراد به الفرار من العدو في المعركة، وذلك لقول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾[1].

وشرط حرمة الفرار ألا يزيد عدد الكفار عن مثلي عدد المسلمين، لقوله تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ﴾[2].

وألا يكونوا متحرفين لقتال، أو متحيزين إلى فئة، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[3].

ومعنى التحرف لقتال: أن ينحاز إلى موضع يكون القتال فيه أمكن.

ومعنى التحيز إلى فئة: أن يصير إلى قوم من المسلمين فيكون معهم، فيقوى بهم[4].

٨- وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات: وهو الرمي بالزنا، وهو من الكبائر[5]، للحديث، ولقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْغَـٰفِلَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[6]. وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَـٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَـٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾[7].

---

(١) سورة الأنفال، آية: ١٥.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٦٦.

(٣) سورة الأنفال، آية: ١٦.

(٤) حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح ص ٢١٢، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن عرفة الدسوقي ٢/١٧٨-١٧٩، مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٤/١٩٨، والأم للإمام الشافعي ٤/١٦٩، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٩/٢٥٤، والمبدع في شرح المقنع، ابن مفلح ٣/٣١، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ٤/١٢٢.

(٥) منار السبيل في شرح الدليل، إبراهيم بن محمد ضويان ٢/٣٣٠، والكافي في فقه الإمام أحمد ٤/٢٧١.

(٦) سورة النور، آية: ٢٣.

(٧) سورة النور، آية: ٤.

والمراد بالمحصنات في الحديث: العفيفات، وقد وردت في القرآن الكريم بأربعة معان أحدها هذا[١].

والثاني: بمعنى الزوجات، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾[٢].

والثالث: بمعنى حرائر، كقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[٣].

والرابع: بمعنى الإسلام، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾[٤])[٥].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر والسؤال والجواب.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: اجتناب السبع الموبقات.

ثالثاً: من واجبات الداعية: البيان والإيضاح للأمور المهلكة وإبعاد المؤمنين عنها.

أولاً- من أساليب الدعوة: الأمر والسؤال والجواب:

قد ورد الأمر في الحديث من قوله ﷺ "اجتنبوا" والأمر من الأساليب الدعوية المهمة التي يستعين بها الداعية في إرشاد المدعو وحمله على فعل الأمر المدعو إليه، لما في ذلك من خير وصلاح له في الدنيا والآخرة، أما السؤال والجواب كأسلوب من أساليب الدعوة، فقد ورد في الحديث من قول الراوي: قالوا: يا رسول الله وما هن قال: "الشرك

---

(١) المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٧٦/٩، والمهذب للشيرازي ٢٧٢/٢، وشرح فتح القدير، ابن الهمام الحنفي ٣١٦/٥.

(٢) سورة النساء، آية: ٢٤.

(٣) سورة النساء، آية: ٢٥.

(٤) سورة النساء، آية: ٢٥.

(٥) لكن جاء في تفسير القرطبي ٢٣٦/٦-٢٣٧، عند قوله تعالى: "فإذا أحصن" قراءة عاصم وحمزة والكسائي بفتح الهمزة. الباقون نصها. فبالفتح معناه: أسلمن، وبالضم زوجن.

بالله... إلخ" (وقد كان السؤال والجواب من أبرز أساليبه ﷺ في التعليم، وذلك لإثارة انتباه السامعين، وتشويق نفوسهم إلى الجواب، وحضّهم على إعمال الفكر للجواب؛ ليكون جواب النبي ﷺ - إذا لم يستطيعوا الإجابة- أقرب إلى الفهم وأوقع في النفس)[1].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: اجتناب السبع الموبقات:

هذا ما أشار إليه نص الحديث من قوله ﷺ "اجتنبوا السبع الموبقات! قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال "الشرك بالله... إلخ".

قال ابن حجر في قوله ﷺ "اجتنبوا السبع الموبقات": (أي المهلكات، قال المهلب: سميت بذلك لأنها سبب لإهلاك مرتكبها. قلت: والمراد بالموبقة هنا الكبيرة...، ومن أحسن التعاريف التي قيلت في الكبيرة قول القرطبي في المفهم "كل ذنب أطلق عليه بنص كتاب أو سنة أو إجماع أنه كبيرة أو عظيم، أو أخبر فيه بشدة العقاب، أو علق عليه الحد، أو شدد النكير عليه فهو كبيرة" وعلى هذا فينبغي تتبع ما ورد فيه الوعيد أو اللعن أو الفسق من القرآن أو الأحاديث الصحيحية والحسنة، ويضم إلى ما ورد فيه التنصيص في القرآن والأحاديث الصحاح والحسان على أنه كبيرة)[2]، وهذا ما نص عليه سياق الحديث في ذكر "السبع الموبقات". وذلك في قوله ﷺ "الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات"، (وقد كان الشرك بالله من أعظم هذه الموبقات، لأن الله عز وجل أرسل رسله، وأنزل كتبه، وخلق السماوات والأرض ليعرف ويعبد ويوحد ويكون الدين كله لله، والطاعة كلها له، والدعوة له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[4]، فلما كان الشرك بالله منافياً بالذات لهذا المقصود،

---

(١) الرسول المعلم ﷺ وأساليبه في التعليم، عبدالفتاح أبو غده ص ٩٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١٢/١٨٩، ١٩١.

(٣) سورة الذاريات، آية: ٥٦.

(٤) سورة الحجر، آية: ٨٥.

كان أكبر الكبائر على الإطلاق، وحرَّم الله الجنة على كل مشرك ...، وأبى الله سبحانه أن يقبل من مشرك عملاً، أو يقبل فيه شفاعة أو يستجيب له في الآخرة دعوة، أو يقيل له فيها عثرة، فإن المشرك أجهل الجاهلين، حيث جعل له من خلقه نداً، وذلك غاية الجهل به، كما أنه غاية الظلم منه، وإن كان المشرك لم يظلم ربه، وإنما ظلم نفسه)[١]، أما السحر (فهو أعمال شيطانية محرمة تخل بالعقيدة أو تناقضها، لأنها لا تحصل إلا بأمور شركية، ولهذا قرنه الشارع بالشرك)[٢]، وقد ورد حديث السبع الموبقات برواية أخرى اقتصر فيها النبي ﷺ على ذكر الشرك والسحر من الموبقات فقال ﷺ ((اجْتَنِبُوا الْمُوبِقَاتِ: الشِّرْكُ، وَالسِّحْرُ))[٣] قال ابن حجر: (قال ابن مالك: ... واقتصر في هذا الحديث على ثنتين منها -أي الموبقات- تنبيهاً على أنهما أحق بالاجتناب)[٤] (فالسحر من تعليم الشياطين لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾[٥] وفيه دعوى علم الغيب، ودعوى مشاركة الله في ذلك، وهذا كفر وضلال، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾[٦] وإذا كان كذلك فلا شك أنه كفر وشرك؛ يناقض العقيدة)[٧] فمن أجل ذلك كان من الموبقات التي قرنت بالشرك، وقد ورد في الحديث ذكر "قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق" من الموبقات، (وقد جعل الله سبحانه جزاءَ قتل النفس المؤمنة عمداً الخلود في النار، وغضب الجبار، ولعنته وإعدد العذاب العظيم له)[٨] فقال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا

---

(١) الداء والدواء، ابن القيم، ١٩٦-١٩٧.

(٢) عقيدة التوحيد، صالح بن فوزان بن عبدالله الفوزان ص ١٠٠.

(٣) أخرجه البخاري، ٥٧٦٤.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ٢٤٣/١٠.

(٥) سورة البقرة، آية: ١٠٢.

(٦) سورة البقرة، آية: ١٠٢.

(٧) عقيدة التوحيد، صالح الفوزان، ص ١٠٠-١٠١.

(٨) الداء والدواء، ابن القيم، ٢٢٢.

﴿مُتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[١]، وقد رهب النبي ﷺ من ذلك فقال: ((لن يَزالَ المؤمنُ في فُسحةٍ من دِينه ما لم يُصِبْ دَماً حَراماً))[٢] قال ابن حجر في قوله ﷺ ("فسحة" أي سعة، وقوله ﷺ "من دينه" كذا للأكثر بكسر المهملة من الدين وفي رواية الكشميهني "من ذنبه" فمفهوم الأول أن يضيق عليه دينه، ففيه إشعار بالوعيد على قتل المؤمن متعمداً بما يتوعد به الكافر، ومفهوم الثاني أنه يصير في ضيق بسبب ذنبه، ففيه إشارة إلى استبعاد العفو عنه لاستمراره في الضيق المذكور. وقال ابن العربي: الفسحة في الدين سعة الأعمال الصالحة، حتى إذا جاء القتل ضاقت لأنها لا تفي بوزره، والفسحة في الذنب قبوله الغفران بالتوبة، حتى إذا جاء القتل ارتفع القبول، وحاصله أنه فسره على رأي ابن عمر في عدم قبول توبة القاتل)[٣]، وقد ورد عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: ((إنَّ من وَرْطاتِ الأمور التي لا مَخرَجَ لِمَن أوقعَ نَفْسَه فيها سفكَ الدَّم الحرام بغير حِلِّه))[٤]، (وذلك من أجل أن قتل النفس يتعلق به ثلاثة حقوق: حق الله وحق المقتول وحق للولي، فضلاً عن أنه من أقبح الظلم وأشده، وقد كان الظلم من أكبر الكبائر عند الله، وكانت درجته في العظمة بحسب مفسدته في نفسه)[٥] أما الربا (فجريمة اجتماعية لاستغلال الأغنياء حاجة الناس وضروراتهم...، والله يريد الإحسان ومواساة المحتاجين بالتعامل الشريف) [٦] (وقد وصف الله المرابي بأنه كفار أثيم، قال تعالى: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾[٧])[٨].

---

(١) سورة النساء، آية: ٩٣.

(٢) أخرجه البخاري، ٦٨٦٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١٩٥/١٢.

(٤) أخرجه البخاري، ٦٨٦٣.

(٥) انظر: الداء والدواء، ابن القيم، ٢٢١-٢٢٣.

(٦) فقه المعاملات، صالح الفوزان ص ٩٤.

(٧) سورة البقرة، آية: ٢٧٦.

(٨) الملخص الفقهي، صالح الفوزان، ٢٦/٢.

قال ابن كثير: (أي لا يحب كفور القلب أثيم القول والفعل، ولابد من مناسبة في ختم هذه الآية بهذه الصفة، وهي أن المرابي لا يرضى بما قسم الله له من الحلال، ولا يكتفي بما شرع له من التكسب المباح، فهو يسعى في أكل أموال الناس بالباطل، بأنواع المكاسب الخبيثة فهو جحود لما عليه من النعمة، ظلوم آثم بأكل أموال الناس بالباطل)[1]، فاستحق أن يكون فعله من الموبقات، وقد ورد أيضاً في الحديث اجتناب أكل مال اليتيم باعتبار أن ذلك كبيرة موبقة، وقد توعد الحق تبارك وتعالى أشد الوعيد في ذلك قائلاً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[2] قال ابن كثير: (أي: إذا أكلوا أموال اليتامى بلا سبب، فإنما يأكلون ناراً تتأجج في بطونهم يوم القيامة)[3]، ثم أعقب ﷺ في الحديث ذكر التولي يوم الزحف باعتباره كبيرة موبقة، لما يترتب على ذلك من مفاسد عظيمة، ذكرها ابن عثيمين قائلاً: (التولي عن صف القتال يوم الزحف...، من كبائر الذنوب، لأنه يتضمن مفسدتين: المفسدة الأولى كسر قلوب المسلمين، والمفسدة الثانية: تقوية الكفار على المسلمين، إذا انهزم بعضهم لاشك أنهم سوف يزدادون قوة على المسلمين، يكون لهم بسبب ذلك نشاط)[4]، (وقد توعد الحق تبارك وتعالى على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك)[5] قائلاً: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[6] قال ابن عثيمين: (وقد استثنى الحق تبارك وتعالى من ذلك

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١/٧١٥-٧١٦.

(٢) سورة النساء، آية: ١٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢/٢٢٢.

(٤) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين، ٢/١٧٠١.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤/٢٧.

(٦) سورة الأنفال، الآيتان: ١٥-١٦.

أمرين: فمن تولى لهذين الأمرين، متحيزاً إلى فئة، يعني: بأن يقال إن الفئة الفلانية قدحصرها العدو، وخطر عليها أن يكتسحها العدو، فانصرف لإنقاذهم فهذا لا بأس به، لأنه انتقل إلى ما هو أنفع. والثاني: المتحرف لقتال وهو المذكور أولاً في الآية "إلا متحرفاً لقتال" يعني مثلاً انصرف لإصلاح سلاحه أو ارتداء دروعه أو ما أشبه ذلك من مصلحة القتال فهذا لا بأس به)[١].

وكان من آخر الموبقات التي ذكرت في الحديث والتي أمر النبي ﷺ باجتنابها لعظم جرمها "قذف المحصنات المؤمنات الغافلات"، (وقد قام الإسلام على حفظ مصالح ضرورية، هي حفظ الدين والنفس والعرض والمال والعقل...، والمتأمل للنصوص الشرعية يجد أنها أولت ضرورة العرض اهتماماً خاصاً، حيث قُرن بين هذه الضرورة وضرورة الدم والمال في عدد من النصوص منها قوله ﷺ: ((فإن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم، بينكم حرام))[٢] ومن هذا المنطلق جاءت الشريعة بتقرير حد القذف حفاظاً على ضرورة العرض)[٣]، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٤] ثم أورد الحق تبارك وتعالى وعيداً شديداً في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٥] قال النووي: ("والمراد بالمحصنات" هنا العفائف، وبالغافلات الغافلات عن الفواحش وما قذفن به)[٦].

---

(١) شرح رياض الصالحين ١٧٠١/٢.

(٢) أخرجه البخاري ٦٧، ومسلم ١٦٧٩.

(٣) مقاصد الشريعة الإسلامية في المحافظة على ضرورة العرض ووسائلها من خلال محاربة الشائعات، د. سعد بن ناصر بن عبدالعزيز الشثري ص ٧-٨.

(٤) سورة النور، الآيتان: ٤، ٥.

(٥) سورة النور، آية: ٢٣.

(٦) شرح صحيح مسلم، النووي ١٥٠.

قال ابن حجر: (وتضمنت الآية الأولى بيان حد القذف، والثانية بيان كونه من الكبائر، بناء على أن كل ما توعد عليه باللعن أو العذاب أو شرع فيه حد، فهو كبيرة وهو المعتمد...، وقد انعقد الإجماع على أن حكم قذف المحصن من الرجال حكم قذف المحصنة من النساء)[1].

ثالثاً- من واجبات الداعية: البيان والإيضاح للأمور المهلكة وإبعاد المؤمنين عنها:

هذا ما ورد في الحديث من حرصه ﷺ على بيان الأمور المهلكة وأمره باجتنابها وذلك في قوله ﷺ "اجتنبوا الموبقات السبع... إلخ" وقد أفرد الإمام مسلم باباً في شفقته ﷺ على أمته، ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم، فعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَىٰ قَوْمَهُ. فَقَالَ: يَا قَوْمِ إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنَيَّ. وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ. فَالنَّجَاءَ. فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ. فَأَدْلَجُوا فَانْطَلَقُوا عَلَىٰ مُهْلَتِهِمْ. وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ. فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ. فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ. وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ))[2].

قال النووي: (في قوله ﷺ "لأني أنا النذير العريان" قال العلماء: أصله أن الرجل إذا أراد إنذار قومه وإعلامهم بما يوجب المخافة، نزع ثوبه وأشار به إليهم إذا كان بعيداً منهم، ليخبرهم بما دهمهم، وأكثر ما يفعل هذا ربيئة القوم وهو طليعتهم ورقيبهم قالوا: وإنما يفعل ذلك؛ لأنه أبين للناظر وأغرب وأشنع منظراً، فهو أبلغ في استحثاثهم في التأهب للعدو...، وقوله ﷺ "فالنجاء" أي انجوا النجاء أو اطلبوا النجاء)[3].

فعلى الداعية أن يقتدي بالنبي ﷺ في حرصه على بيان وإيضاح الأمور المهلكة وإبعاد المؤمنين عنها.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ١٢/١٨٨.

(٢) أخرجه البخاري ٦٤٨٢، ومسلم ٢٢٨٣.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ١٤١٨.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية بالتحذير:

ورد التحذير كأسلوب تربوي وتوجيهي على لسان النبي ﷺ في نص الحديث من قوله: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ، ....إلخ».

والتربية بالتحذير تعني التحرز من إتيان فعل أو امتناع عنه لكونه سببًا في غضب الله تعالى وعذابه أو سببًا في إلحاق ضرر بالأمة والمجتمع المسلم مما يدفع باتجاه الاستعداد والتأهب لتجنب حصول ذلك.

وقد ورد في كتاب الله تعالى آيات كثيرة تحذر من مغبة الوقوع في المحذور، كقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1][2].

والتحذير كأسلوب تربوي له شأو بعيد في إيقاف النفس عند غيها، خوفًا من مغبة وسوء عاقبة ما حذر منه؛ لذا كان لهذا الأسلوب أبلغ الأثر في تقويم الأنفس عند اعوجاجها، فضلاً عن حمايتها بسياج من الخوف يمنع من اقترابها من المحظور.

ثانيًا- التربية على اجتناب الكبائر:

على أهل التربية والتوجيه بذل كامل الوسع وإفراغ عظيم الجهد في استنقاذ المتربين والمتعلمين - بدافع الرحمة بهم - مما يهلكهم، مقتدين في ذلك بإمام الرحمة الأول، محمد ﷺ، حيث تراءى من نص الحديث اجتهاده ﷺ في تجنيب أمته الهلكة والعذاب من أمور سماها وحددها بعينها، وذلك في قوله ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ، ... الشِّرْكُ بِاللهِ، والسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بِالْحَقِّ، ...إلخ».

وحتى يُفرغ المربي عظيم الجهد، وكامل الوسع في استنقاذ المتربين مما يهلكهم، كان عليه أن يسأل نفسه، هل يحب أن يرى ولده أو والديه أو زوجه..، أمام عينيه

---

(١) سورة النور، الآية: ٦٣.

(٢) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية،د. زياد محمود العاني، ٢٤٩.

يعذبون بنار تُقطّع أجسادهم وتلتهمُ وجوههم ومحاسنهم حتى تهلكهم!!!، هل كان يقف أمام هذا المشهد - الذي يدمي قلبه - مكتوف الأيدي !!! هل كان يُقصِّر في استنقاذهم!!!، بالتأكيد لا... لا...، بل كان سيسارعُ إلى أن يضحي بنفسه من أجل ألا يمسهم في ذلك نصب ولا تعب.

فإن كان ذلك حاله في الدنيا، فعليه أن يجتهد في استنقاذهم من العذاب الأليم في الآخرة.

ومن هذا المنطلق وجب على القائمين على التربية والتوجيه التحذير من الوقوع في الكبائر.

ثالثًا: التربية بالسؤال والاستفهام:

لأهمية التربية بالسؤال والاستفهام حرص الصحابة ﷺ على السؤال عما يخفى عليهم من أمور دينهم، وهذا ما ترائى جليًا في حديث الباب من قول الراوي ﷺ: «قالوا: يارسول الله، وما هن؟، قال: ......إلخ».

فعلى المتربي والمتعلم أن يعلما أن كل إنسان في هذه الحياة له طاقات معينة وبالتالي فإن معارفه محدودة، ولن يحيط بكل شيء. ومن عرف أشياء غابت عنه أشياء أخرى كثيرة؛ لذا وجب على المتربين تربية أنفسهم على السؤال والاستفهام عما جهلوا، خاصة إن كان المسئول من أهل الخبرة والاختصاص. قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1][2].

❁ ❁ ❁

---

(١) سورة النحل، آية: ٤٣، سورة الأنبياء، آية: ٧.

(٢) التربية الذاتية، هاشم علي أحمد، ١٢٣ باختصار.

٢٨٧- باب تغليظ تحريم الربا

قَالَ اللّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المَسِّ ذَلِكَ بأنَّهُمْ قَالُوا إنَّمَا البَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأحَلَّ اللّهُ البَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأولئِكَ أصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ - إِلَى قَوْله تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾[البقرة: ٢٧٥- ٢٧٨].

وأما الأحاديث فكثيرة في الصحيح مشهورة، مِنْهَا حديث أَبي هريرة السابق في الباب قبله[١].

الحديث رقم (١٦١٧)

١٦١٧- وعن ابن مسعود رضي الله عنه قَالَ: لَعَنَ رسول الله ﷺ آكِلَ الرِّبَا وَمُوكِلَهُ. رواهُ مسلم[٢]، زاد الترمذيُّ[٣] وغيره: وَشَاهِدَيْهِ وَكَاتِبَهُ.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

مُوكِلُه: معطيه لمن يأخذه وإن لم يأكل منه[٤].

---

(١) برقم (١٦١٤).

(٢) برقم (١٠٥/١٥٩٧) وزاد: قال: (شباك راوي الحديث): قلتُ: وكاتبه وشاهديه؟ قال: إنما نحدِّثُ بما سمعنا). أورده المنذري في ترغيبه (٢٧٥٣).

(٣) برقم (١٢٠٦) وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. قلتُ: ثبتت هذه الزيادة عند مسلم من حديث جابر برقم (١٠٦/١٥٩٨) ولفظه: (وكاتبه وشاهديه، وهم سواء).

(٤) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني ٦٨/٢٢، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٢١٤/١.

الشرح الأدبي

إن الربا من السبع الموبقات التي أمر رسول الله ﷺ باجتنابها: لأنه تنمية لرأس المال بغير عمل مفيد، ولا إنجاز رشيد، وهو تعطيل لمدارك الإنسان، وإفساد للملكات الابتكار عنده، لأن آكل الربا لا يشارك في بناء المجتمع عن طريق إحياء موات الأرض، أو إقامة المصانع، أو تبني المشروعات العلمية، وإنما يعتمد على تكاثر الأموال تكاثراً غير طبيعي، حيث تتوالد وتتكاثر، ولا ينتفع أحد من زيادتها إلا "المرابي"، والمقترضون والمحتاجون يزدادون حاجة، وفقراً، والمرابي يزداد غنى وجحوداً وبطراً، والربا في اللغة: الزيادة، وشرعاً عقد على عوض مخصوص غير معلوم التماثل في معيار الشرع حالة العقد، أو مع تأخير في البدلين أو أحدهما كما قال الفقهاء، والبلاغة النبوية تكمن في التعبير عن المتعامل بالربا: بأنه: آكل الربا، فالمراد تعاطي المال الربوي بأي وجه سواء كان أكلاً أو غيره: وهو من الكبائر، التي شدد الإسلام في الزجر عنها، والحديث فيه تعميم العقوبة، وهي اللعن والطرد من رحمة الله، فكل من يشارك في إشاعة التعامل بالربا ملعون مطرود من رحمة ربه، وبعيد عن عفوه إلا إذا تاب وأرجع الحقوق إلى أصحابها، وشارك بجهده وفكره وماله وعرقه في تنمية ثروة بلاد الإسلام والمسلمين، ولذلك يستحق اللعن: آكل الربا، وهو الآخذ أو المعطي، وموكله: أي مطعمه لغيره، ولا ينجو الشاهدان على عقد الربا، وصفقة المترابين من هذا اللعن والطرد من رحمة الله، وكذلك كاتب العقد لأنه شارك في تنفيذ هذه الكبيرة وإشاعتها، ونشرها بين الناس. وقال العلماء: في ذلك تغليظ شديد: لأنه إذا لُعن الكاتب والشاهدان مع أنهما لا يصيبهما منه شيء: فَلأنْ يُلعن المباشر له من آخذ أو معط بالأولى.

فقه الحديث

يشتمل هذا الحديث على الأحكام الفقهية الآتية:

١- فيه دليل على حرمة الربا، إذ تضافرت أدلة الشرع على تحريمه، كتاباً، وسنة وإجماعاً[1]:

---

(١) المبسوط، أبو بكر السرخسي ٢٨١١/١٢، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن عرفة الدسوقي ٢٨/٣، والمهذب للشيرازي ٢٧٠/١، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٢٥/٤.

فمن القرآن الكريم: قول الله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾[(١)].

ومن السنة: حديث الباب.

ومن الإجماع: فقد أجمعت الأمة على حرمته، وأما ما حكي عن ابن عباس رضي الله عنهما من القول بإباحة ربا الفضل، فقد صح رجوعه عنه[(٢)].

ويكفي للتدليل على حرمة الربا أن الله تعالى قد ذكر في القرآن الكريم لآكله خمساً من العقوبات[(٣)]:

الأولى: التخبط: قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾[(٤)].

الثانية: المحق: قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾[(٥)] والمراد: الهلاك، والاستئصال وقيل: ذهاب البركة، والاستمتاع، حتى لا ينتفع به هو ولا ولده بعده.

الثالثة: الحرب، قال تعالى: ﴿فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[(٦)].

الرابعة: الكفر، قال تعالى: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[(٧)] وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾[(٨)] أي: كفار باستحلال الربا، أثيم فاجر بأكله.

الخامسة: الخلود في النار، قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[(٩)].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٧٥.

(٢) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن عرفة الدسوقي ٢٨/٣، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٥١٢/٣.

(٣) المبسوط، أبو بكر السرخسي ١١٠/١٢.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٧٥.

(٥) سورة البقرة، آية: ٢٧٦.

(٦) سورة البقرة، آية: ٢٧٩.

(٧) سورة البقرة، آية: ٢٧٨.

(٨) سورة البقرة، آية: ٢٧٦.

(٩) سورة البقرة، آية: ٢٧٥.

٢- وفيه دليل على تحريم كتابة الربا، والشهادة عليه، بدليل لعن رسول الله ﷺ شاهد الربا وكاتبه.

ولعل السبب في تحريم كتابة الربا والشهادة عليه، أن فيهما إعانة للآكل على الربا، ومحل التحريم إذا علم كل منهما أنه يكتب الربا، أو يشهد عليه، أما إذا لم يعلما ذلك فلا حرمة عليهما، ولا يدخلان في الوعيد[١].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الوعيد الشديد لآكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه.

ثانياً: من واجبات الداعية: بيان الحكمة من شدة الوعيد في تحريم الربا.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الوعيد الشديد لآكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه:

هذا ما ورد في الحديث من قول ابن مسعود رضي الله عنه "لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه" واللعن: (هو الطرد والإبعاد من رحمة الله)[٢] وقد توعد الله المتعامل بالربا بأشد الوعيد: فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾[٣]، قال ابن كثير: (أي لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخبط الشيطان له، وذلك أنه يقوم قياماً منكراً)[٤]، كما توعد الله سبحانه الذي يعود إلى أكل الربا بعد معرفة تحريمه بأنه من أصحاب النار خالداً فيها، قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾[٥]، كما أخبر الله سبحانه أنه يمحق بركة الربا، قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١١٠/٤، وفتح الباري، ابن حجر ٣١٤/٤، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٢٣٠/٥.

(٢) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين، ١٧٠٩/٢.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٧٥.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٧٠٩/١.

(٥) سورة البقرة، آية: ٢٧٥.

ٱلرِّبَوٰا۟﴾[1] أي: (يذهبه، إما بأن يذهب بالكلية من يد صاحبه، أو يحرمه بركة ماله فلا ينتفع به، بل يعذبه به في الدنيا ويعاقبه عليه يوم القيامة...)[2]، كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ﴾[3]، وقد شمل هذا الوعيد كلاً من آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه، وآكل الربا (أي آخذه وإن لم يأكل، وإنما خص بالأكل لأنه أعظم أنواع الانتفاع، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا﴾[4] وقوله "موكله" أي معطيه لمن يأخذه وإن لم يأكل، نظراً إلى أن الأكل هو الأغلب أو الأعظم)[5] في قوله "وشاهديه وكاتبه" قال النووي: (هذا تصريح بتحريم كتابة المبايعة بين المترابين والشهادة عليها، وفيه تحريم الإعانة على الباطل)[6].

ثانياً- من واجبات الداعية: بيان الحكمة من شدة الوعيد في تحريم الربا:

هذا ما يستفاد من نص الحديث، وقد شدد الحق تبارك وتعالى الوعيد في تحريم الربا (لما فيه من أكل أموال الناس بغير حق؛ لأن المرابي يأخذ منهم الربا من غير أن يستفيدوا شيئاً في مقابله، وأن فيه إضرارًا بالفقراء والمحتاجين بمضاعفة الديون عليهم عند عجزهم عن تسديدها، وأن فيه قطعاً للمعروف بن الناس، وسداً لباب القرض الحسن، وفتحاً لباب القرض بالفائدة التي تثقل كاهل الفقير، وفيه تعطيل للمكاسب والتجارات والحرف والصناعات، التي لا تنتظم مصالح العالم إلا بها، لأن المرابي إذا تحصل على زيادة ماله بواسطة الربا بدون تعب، فلن يلتمس طرقاً أخرى للكسب الشاق، والله تعالى جعل طريق تعامل الناس في معايشهم، قائماً على أن تكون استفادة

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٧٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٧١٣/١.

(٣) سورة الأنفال، آية:

(٤) سورة النساء، آية: ١٠.

(٥) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف، ١٢١٤/١.

(٦) شرح صحيح مسلم، النووي ١٠١٣.

كل واحد من الآخر، في مقابل عمل يقوم به نحوه أوعين يدفعها إليه، والربا خال عن ذلك؛ لأنه عبارة عن إعطاء المال مضاعفاً من طرف الآخر بدون مقابلة من عين ولا عمل)[١]، (فهو جريمة اجتماعية لاستغلال الأغنياء حاجة الناس وضروراتهم)[٢].

ثالثاً- من أساليب الدعوة: الترهيب:

(إن الحاجة إلى الترهيب ضرورة لازمة للدعاة والمحتسبين عند الأخذ بأيدي الناس إلى الخير، وإنقاذهم من التعرض للمعاصي المؤدية لسخط الله)[٣].

وقد ورد الترهيب كأسلوب دعوي في الحديث من قول ابن مسعود رضي الله عنه "لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا... إلخ" (والترهيب هو أسلوب قرآني يعالج النفس البشرية وحبها للأمن والسلامة، وإيثارها البعد عن الخوف والخطر، وذلك من خلال تخويفها وتهديدها...، والأصل في الترهيب أن يكون بالتخويف من غضب الله وعذابه في الآخرة)[٤] وهذا ما ورد في الحديث من ترهيبه صلى الله عليه وسلم من أكل الربا وقد أكد الحق تبارك وتعالى على ذلك فقال: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[٥] (وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، لمن استمر على تعاطي الربا بعد الإنذار)[٦].

(١) الملخص الفقهي، صالح بن فوزان، ٢/٢٧- ٢٨.

(٢) من فقه المعاملات، صالح بن فوزان، ٩٤.

(٣) الترهيب في الدعوة، د. زينب نياز، ٧٧.

(٤) فقه الدعوة إلى الله، د. علي عبدالحليم محمود، ١/٢٣٢.

(٥) سورة البقرة، آية: ٢٧٩.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١/٧١٦.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية بالترهيب:

الترهيب أسلوب تربوي وقائي، وقد رهّب النبي ﷺ من الربا، إلى حد اللعن والتنفير، كما ورد في نص الحديث من قول الراوي رضي الله عنه: «لَعَنَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ آكِلَ الرِّبَا...إلخ»، وما شده الترهيب في ذلك إلا لترهيب كل مسلم من أكل الربا والتعامل به، حتى يكون عيش الإنسان من الحلال وحتى يعيش المسلمون إخوة متضامنين، يعاون الغني منهم المحتاج، دون غرض، اللهم إلا رضوان الله عز وجل وابتغاء فضله ووجهه[1].

والترهيب كأسلوب تربوي تحتاجه النفس كلما شردت عن الجادة، فإذا أقيم عليها بحق، عادت إلى رشدها، وتركت غيها؛ لذا كان الترهيب من أجل الأساليب التي يجدر بدعاة التربية استخدامه إن اقتضته طبيعة الموقف التربوي.

ثانيًا- التربية على تحريم الربا:

في هذا الباب دعوة للقائمين على التربية والتوجيه أن يبينوا للناس حرمة التعامل بالربا، ومن الشواهد على ذلك ما ورد في بيان تحريم الربا في قول الراوي: «لَعَنَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ آكِلَ الرِّبَا...إلخ»، لذا وجب على المتربي والمتعلم أن يعلما بأن التعامل بالربا له آثار اجتماعية واقتصادية وأخلاقية خطيرة، لأنه يعمل على قتل كل مشاعر الشفقة في الإنسان، فالمرابي لا يتردد في تجريد المدين من أمواله، إذا كان في ذلك إضافة درهم إلى ألوفه.

فالمال في نظر الإسلام وديعة في يد صاحبه، وهو موظف لخير الجماعة، فليس له أن يتحين ساعة احتياجهم فيأخذ منهم أكثر مما أعطاهم[2].

وبذلك تنهار أخلاق المجتمع بسبب انعدام التعاون بين أفراده ... مما يؤدي حتمًا إلى تفسخ المجتمع، وشيوع الأنانية، والأثرة فيه، بدل التضحية والمحبة والإيثار[3].

والمتربي والمتعلم يجب أن يعلما أن الإسلام يرمي من تحريمه الربا إلى الحيلولة، دون

---

(١) انظر: الأخلاق في الإسلام، د. عبداللطيف محمد العبد، ٢٦٨.

(٢) انظر: روح الدين الإسلامي، عفيف عبدالفتاح طبارة، ٣٢٩.

(٣) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ٢/٩٨٧.

المحاباة لرأس المال على حساب الجمهور الكادح، ويسعى لتحقيق المساواة بين أفراد الأمة، فالمرابي بدلاً من أن يعمل عملاً مجديًا يصبح كالطفيلي يعيش من كد غيره[١].

فينهار بذلك اقتصاد المجتمع بسبب تلكؤ الدائن عن العمل، وإخلاده إلى الراحة والكسل.... طمعًا في ربح الفائدة، والإثقال على المدين بالالتزامات الربوية، ومن ثمَّ اعتبره الإسلام منكرًا اقتصاديًا، حيث يؤدي إلى انقسام المجتمع إلى طبقتين متنازعتين: طبقة المستعلين، والمتحكمين برؤوس أموالهم. وطبقة الفقراء المستضعفين الذين أكلت جهودهم وأتعابهم من غير حق[٢].

أما السقط الإيماني، فهو متمثل في الجهر بمحاربة الله ورسوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾[٣].

فآكل الربا وموكله وشاهداه وكاتبه، في حرب مع الله ورسوله لعصيانهم أوامرهما، وقبح فعلهم في ذلك دلل على سقط وضعف إيمانهم.

ومما لا شك فيه أن قيام دعاة التربية والتوجيه بغرس تحريم الربا في نفوس المتعلمين قد لا يكفي لتحقيق الثمرة المرجوة في ذلك، إلا إذا أوجدوا سبل القضاء على الربا في نفوس المتربين، طالبين منهم إقامتها قربة لربهم وطاعة لنبيهم.

وأهم هذه الوسائل التي يجب غرسها في نفوس المتربين والمتعلمين لمنع الربا، هي وسيلة القرض الحسن، وهو قرض بلا فائدة يرجى أجره من الله، وهو يساعد على تحقيق مبدأ التكافل الاجتماعي بين الأمة الإسلامية.

ومن هذه الوسائل فتح مؤسسات للزكاة حيث تدفع هذه المؤسسات للمديون المحتاج، أو الفقير الذي لا يملك، أو الغريب المنقطع... تدفع لهم قسطًا من المال يسد حاجتهم، ويحقق تكافلهم، ويرفع مستواهم[٤].

❁ ❁ ❁

---

(١) روح الدين الإسلامي، عفيف عبدالفتاح طبارة، ٣٣١.
(٢) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ٢/٩٨٧.
(٣) سورة البقرة، الآيتان: ٢٧٨ - ٢٧٩.
(٤) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ٩٨٧، ٩٨٨.

٢٨٨- باب تحريم الرياء

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾[البينة: ٥]، وقال تَعَالَى: ﴿لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾[البقرة: ٢٦٤]، وقال تَعَالَى: ﴿يُرَاءونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[النساء: ١٤٢].

الحديث رقم (١٦١٨)

١٦١٨ - وعن أَبي هريرة ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقولُ: ((**قَالَ الله تَعَالَى: أنَا أغْنَى الشُّرَكَاء عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**)). رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

هـذا الحـديث يرويـه رسـول الله ﷺ عـن ربـه: فهـو حـديث قدسـي، والحـديث القدسي ألفاظه من إنشاء المصطفى ﷺ، ومعناه يوحى إليه من قبل الله عز وجل، والرسول ﷺ يصوغه بعبارته العربية المبينة الواضحة، ويرويه عنه الصحابة الأجلاء باللفظ والمعنى، أو بالمعنى فقط، مع الحرص على عدم تبديل الدلالة المعنوية حين يتغير النسق اللفظي، أو تبدل العبارة من نسق إلى آخر.

والحديث في بنائه اللغوي، وصياغته الأدبية يتكون من جملتين تفيضان بالتوحيد، وترشدان المسلم إلى منابع العقيدة الخالصة والدين الخالص لله، وهي تتمثل في التوحيد وعدم الانزلاق إلى مهاوي الشرك، ولذلك تبدأ الجملة وهي اسمية بضمير المتكلم "أنا"،

---

(١) برقم (٢٩٨٥/٤٦). أورده المنذري في ترغيبه (٤٩) من رواية أبي هريرة التي أخرجها ابن ماجه، وابن خزيمة، والبيهقي. بلفظ: (انا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل لي عملاً أشرك فيه غيري، فانا منه بريء، وهو للذي أشرك).

والمتكلم هو الحي القيوم الذي لا إله إلا هو، قيوم السماوات والأرض، فهذا اللفظ المشع بهالات الوحدانية، لا يغني عنه سواه، ويلغي كل ما عداه، أنا (الله)، ثم يأتي تمام الجملة وهو الخبر في صيغة أفعل التفضيل، والمادة اللغوية هي مادة "الغنى والاستغناء" وهي تفيد التفرد والجلال، والكبرياء والكمال، وتأمل إشعاعات هذا التركيب الأسلوبي، ((أنا أغنى الشركاء عن الشرك))، فليس لله شريك، فهو وحده لا شريك له.

ومادة (شرك) تكررت في الحديث أربع مرات، وذلك للتنبيه إلى خطورة هذا الأمر، وسوء مصير الذي يتردى فيه، وقد ذكر الفعل أشرك وما يشتق منه مائة وثمانية وستين مرة في القرآن الكريم، منها تسع وأربعون آية ذكرت فيها مصطلحات المشرك والمشركة والمشركين والمشركات[1].

ومصطلح الشرك بالله، أو المشرك لم يعرف إلا بعد نزول القرآن الكريم، وهذا من مظاهر تأثير الإسلام في اللغة العربية ومصطلحاتها.

والجملة الثانية في الحديث: جملة شرطية، تتكون من مقدمة: وهي الشرط، ومن خاتمة وهي: الجواب والجزاء: فالشرط وهو العمل المشوب بالشرك، والجواب والجزاء هو أن الله يترك هذا المشرك وشركه، وهذا الجواب، الجزاء: كناية عن إحباط ثواب: المرائي، وحرمانه من أجره لما اقترفه من ترك الإخلاص في العمل، والرياء شرك خفي، وإن كان لا يقدح في أصل الإيمان، كما قال العلماء.

المضامين الدعوية[2]

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحث على إخلاص العمل لله تعالى.

ثانياً: من واجبات الداعية: حث المدعوين على إخلاص القول والعمل لله تعالى.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: ذمّ الرياء.

---

(١) انظر: التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن، ص٢٧٣-٢٧٦.

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٦١٨- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦١٩، ١٦٢٠).

رابعاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

خامساً: من موضوعات الدعوة: بيان عاقبة الرياء في الأعمال.

سادساً: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الحث على إخلاص العمل لله تعالى:

هذا ما يستفاد من نص الحديث، وقد أمر الحق تبارك وتعالى بذلك فقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾(١) وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۞ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾(٢) قال ابن كثير (أي: لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده، لا شريك له)(٣) وقال السعدي: (هذا تقرير للأمر بالإخلاص، وبيان أنه تعالى كما أنه له الكمال كله، وله التفضيل على عباده من جميع الوجوه، فكذلك له الدين الخالص، الصافي من جميع الشوائب فهو الدين الذي ارتضاه لنفسه، وارتضاه لصفوة خلقه وأمرهم به؛ لأنه متضمن للتأله لله في حبه، وخوفه، ورجائه، والإنابة إليه، في تحصيل مطالب عباده. وذلك الذي يصلح القلوب ويزكيها ويطهرها، دون الشرك به في شيء من العبادة. فإن الله بريء منه، وليس لله فيه شيء، فهو أغنى الشركاء عن الشرك...)(٤)، والإخلاص كما بينه ابن القيم هو: (تصفية العمل من كل شوب، أي لا يمازج عمله ما يشوبه من شوائب إرادات النفس: إما طلب التزين في قلوب الخلق، وإما طلب مدحهم، والهرب من ذمهم، أوطلب تعظيمهم، أو طلب أموالهم، أو خدمتهم ومحبتهم، وقضائهم حوائجه، أو غير ذلك من العمل والشوائب التي عَقدُ متفرقاتها: هو إرادة ما سوى الله جملة، كائناً ما كان)(٥).

---

(١) سورة البينة، آية: ٥.

(٢) سورة الزمر، آية: ٢ - ٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٨٤/٧.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٦٦٤.

(٥) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٣١٥/٢.

وفي ذلك قال ﷺ: ((إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ. وَإِنَّمَا لِكُلِ اِمْرِىءٍ مَا نَوَىٰ. فمَنْ كانتْ هجرتُهُ إلى الله ورسوله فهِجْرَتُهُ إلى الله ورسولِهِ، وَمَن كانت هجرتُهُ إلى دنيا يُصيبُها أو امرأةٍ ينْكِحُها، فهجرته إلى ما هَاجَرَ إليه))[1] قال ابن رجب: (واتفق العلماء على صحته وتلقيه بالقبول -أي حديث إنما الأعمال بالنية أو النيات- وبه صدَّر البخاري كتابه "الصحيح"، وأقامه مقام الخطبة له، إشارة منه إلى أن كل عمل لا يراد به وجه الله، فهو باطل، لا ثمرة له في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال عبدالرحمن بن مهدي: لو صنفتُ الأبواب، لجعلت حديث عمر في الأعمال بالنية في كل باب)[2].

(وقال الفضيل بن عياض في قوله تعالى ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[3] هو أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً، لم يقبل؛ وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص: أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[4])[5].

ثانياً- من واجبات الداعية: حث المدعوين على إخلاص القول والعمل لله تعالى:

هذا ما يستفاد من نص الحديث، فحري بالداعية أن يقتدي بالنبي ﷺ في حث المدعوين على إخلاص القول والعمل لله تعالى، فعن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه رضي الله عنه قال: ((كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَعودُني عامَ حَجَّةِ الوَداعِ من وَجَعٍ اشتدَّ بي، ... فقلتُ: يا رسولَ الله، أخَلَّفُ بعدَ أصحابي؟ قال: إنكَ لن تُخلَّفَ فتَعملَ عملاً تبتغي به وجه

---

(١) أخرجه البخاري ١، ٥٤، ٢٥٢٩، ومسلم ١٩٠٧.

(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٦١/١.

(٣) سورة الملك، آية: ٢.

(٤) سورة الكهف، آية: ١١٠.

(٥) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٣١٠/٢.

الله، إلاّ ازدَدْتَ به درجةً ورِفعة))[١] قال النووي: (وفي الحديث الحث على إرادة وجه الله تعالى بالأعمال)[٢].

وقال ﷺ: ((... ثَلاَثٌ لاَ يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُؤْمِنٍ: إِخْلاَصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالنَّصِيحَةُ لِوُلاَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ. فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ))[٣] قال ابن القيم: (أي لا يبقى فيه غلٌّ، ولا يحمل الغلَّ مع هذه الثلاثة؛ بل تنفي عنه غِلَّه، وتنقيه منه، وتخرجه عنه فإن القلب يغل على الشرك أعظم غل، وكذلك يغل على الغش، وعلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلالة؛ فهذه الثلاثة تملؤه غلاً ودغلاً، ودواء هذا الغل،و استخراج أخلاطه: بتجريد الإخلاص والنصح ومتابعة السنة)[٤].

وقد حث ابن القيم على الإخلاص التام لله وحده مبيناً عظيم الفضل والثواب قائلاً: (ترك الشهوات لله، وإن أنجى من عذاب الله، وأوجب الفوز برحمته؛ فذخائرُ الله، وكنوز البر، ولذة الأنس والشوق إليه، والفرحِ والابتهاج به، لا تحصل في قلب فيه غيره،وإن كان من أهل العبادة والزهد والعلم، فإن الله سبحانه أبى أن يجعل ذخائره في قلب فيه سواه، وهمته متعلقة بغيره، وإنما يودع ذخائره في قلب يرى الفقر غنىً مع الله، والغنى فقراً دون الله، والعز ذلاً دونه، والذُّل عزاً معه، والنعيم عذاباً دونه، والعذاب نعيماً معه، وبالجملة، فلا يرى الحياة إلا به ومعه، والموت والألم والهمَّ والغمَّ والحزن، إذا لم يكن معه، فهذا له جنَّتان: جَنَّة في الدنيا معجلة، وجنة يوم القيامة)[٥].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: ذَمُّ الرياء:

هذا ما يستفاد من نص الحديث، والرياء كما بينه ابن حجر: (هو إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدوا صاحبها...، وقال الغزالي: والمعنى طلب المنزلة في قلوب

---

(١) أخرجه البخاري ١٢٩٥، وأخرجه مسلم ١٦٢٨ واللفظ له.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ١٠٢٥.

(٣) ابن ماجه ٣٠٥٦، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٢٤٨٠).

(٤) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٣١١/٢.

(٥) الفوائد المشوقة إلى علم القرآن وعلم البيان، ابن القيم، تحقيق: محمد عثمان الخشت ٢٧٧.

الناس بأن يريهم الخصال المحمودة والمرائي هو العامل، وقال ابن عبدالسلام: الرياء أن يعمل العمل لغير الله)[١]، وقد ذم الحق تبارك وتعالى الرياء في جعله صفة للمنافقين فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾[٢].

قال السعدي: (يخبر تعالى عن المنافقين بما كانوا عليه، من قبيح الصفات، وشنائع السمات... ومن صفاتهم أنهم "يراءون الناس" أي: هذا الذي انطوت عليه سرائرهم وهذا مصدر أعمالهم، مراءاة الناس يقصدون رؤية الناس، وتعظيمهم، واحترامهم، ولا يخلصون لله. فلهذا "لا يذكرون الله إلا قليلاً" لامتلاء قلوبهم من الرياء)[٣]، وقال ﷺ مرهباً ومخوفاً من الرياء ((إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: يا رسول الله، وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء، إن الله تبارك وتعالى يقول يوم تجازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤن بأعمالكم في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء))[٤].

رابعاً- من أساليب الدعوة: التوكيد:

قد ورد التوكيد كأسلوب من أساليب الدعوة في الحديث من قوله ﷺ "إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد" (والتوكيد من الأساليب الدعوية المهمة في تقوية الكلام وإثبات صحته)[٥]، وهذا ما ورد في الحديث من تأكيده ﷺ على تحريم الرياء وذمه، وإنه سببٌ في إحباط العمل وزواله.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٣٤٤/١١.

(٢) سورة النساء، آية: ١٤٢-١٤٣.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ١٧٤.

(٤) أخرجه أحمد ٤٢٨/٥ رقم ٢٣٦٣٠، قال محققو المسند: حديث حسن ورجاله رجال الصحيح ٣٩/٣٩.

(٥) انظر: مجلة العلوم الشرعية، جامعة الإمام محمد بن سعود، العدد الأول، ص ٢٧٣.

خامساً- من موضوعات الدعوة: بيان عاقبة الرياء في الأعمال:

هذا ما أشار إليه نص الحديث في قوله تعالى "تركته وشركه" قال النووي: (ومعناه: أنا غني عن المشاركة وغيرها، فمن عمل شيئاً لي ولغيري لم أقبله، بل أتركه لذلك الغير، والمراد أن عمل المرائي باطل لا ثواب فيه ويأثم به)[1]، وهذا ما أكده النبي ﷺ أيضاً من نص الحديث في قوله "إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه، رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمته فعرفها، قال فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء! فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار... إلخ" قال النووي: (وفي الحديث دليل على تغليظ تحريم الرياء وشدة عقوبته)[2]، وقال ابن رجب: (وفي الحديث إنَّ معاوية لما بلغه هذا الحديث بكى حتى غشي عليه، فلما أفاق، قال: صدق الله ورسوله، قال الله عز وجل ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾[3])[4].

وقد سئل النبي ﷺ عن اختلاف نيات الناس في الجهاد وما يُقصَدُ به من الرِّياء، وإظهار الشجاعة والعصبيَّة، وغير ذلك: أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: ((مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كلمةُ اللّهِ هي العُلْيا فهوَ في سَبيلِ اللّهِ عزَّ وجلَّ))[5]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه: ((أنَّ رَجُلاً قَالَ يَا رَسُولَ الله رَجُلٌ يُرِيدُ الْجِهَادَ في سَبِيلِ الله وَهُوَ يَبْتَغِي عَرَضاً مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا؟ فقال النَّبيُّ ﷺ: لاَ أجْرَ لَهُ، فَأعْظَمَ ذَلِكَ النَّاسُ وَقَالُوا لِلرَّجُلِ: عُدْ لِرَسُولِ الله ﷺ فَلَعَلَّكَ لم تُفَهِّمْهُ، فقال يَارَسُولَ الله رَجُلٌ يُرِيدُ الْجِهَادَ في سَبِيلِ الله وَهُوَ يَبْتَغِي عَرَضاً مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا؟ قال: لاَ أجْرَ لَهُ، فَقَالُوا لِلرَّجُلِ عُدْ لِرَسُولِ الله ﷺ فقالَ لَهُ الثَّالِثَةَ فقالَ لَهُ لاَ أجْرَ لَهُ))[6].

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١٧١٧.

(٢) المرجع السابق ١٢٢٠.

(٣) سورة هود، الآيتان: ١٥-١٦.

(٤) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/٧٧.

(٥) أخرجه البخاري ٢٨١٠، ومسلم ١٩٠٤.

(٦) أخرجه أبو داود ٢٥١٦، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢١٩٦).

وقد ورد في نص الحديث الوعيد على من تعلم العلم لغير وجه الله، وذلك من قوله ﷺ "ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأتى به فعرفه نعمته فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت ولكنك تعلمت ليقال: عالم! وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، وقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار" وقد أكد النبي ﷺ على وعيد من تعلم العلم لغير وجه الله فقال: ((مَنْ تَعَلَّمَ عِلْماً مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ لا يَتَعَلَّمُهُ إلاَّ لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضاً مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - يَعني رِيحَهَا))[1].

ثم بين النبي ﷺ في نص الحديث عاقبة من تصدق رياءً فقال "ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال" إلى قوله "قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: جواد! فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار"، وقد حذر الحق تبارك وتعالى عباده المؤمنين من أن ينفقوا أموالهم رياءً فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾[2] قال ابن كثير: (أي لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى، كما تبطل صدقة من راءى بها الناس، فأظهر لهم أنه يريد وجه الله وإنما قصده مدحة الناس له، أو شهرته بالصفات الجميلة ليشكر بين الناس، أو يقال: إنه كريم ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية، مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى)[3].

وفي جملة ما سبق قال الذهبي في بيان عاقبة الرياء (فكم من رجل نطق بالحق، وأمر بالمعروف، فيسلط الله عليه من يؤذيه لسوء قصده وحبه للرئاسة الدينية، فهذا داءُ خفي سار في نفوس الفقهاء، كما أنه داءٌ سار في نفوس المنفقين من الأغنياء، وأرباب الوقوف، والتُّرب المُزَخْرَفة، وهو داء خفي يسري في نفوس الجند والأمراء والمجاهدين، فتراهم يلتقون العدو، ويصطدم الجمعان، وفي نفوس المجاهدين مُخبّآتٌ وكمائن من

---

(١) اخرجه أبو داود ٣٦٦٤، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣١١٢).

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٦٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١/٦٩٤.

الاختيال، وإظهار الشجاعة ليقال، والعجب، ولبس القراقل المذهبة، والخوذ المزخرفة، والعُدد المحلاة على نفوس متكبرة، وفرسان متجبرة، وينضاف إلى ذلك إخلالٌ بالصلاة وظلم للرعية، وشرب للمسكر، فأنى ينصرون؟ وكيف لا يخذلون؟ اللهم: فانصر دينك ووفق عبادك، فمن طلب العلم للعمل، كسره العلمُ، وبكى على نفسه، ومن طلب العلم للمدارس والإفتاء والفخر والرياء، تحامق، واختال، وازدرى بالناس، وأهلكه العجب، ومقتته الأنفس ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[1])[2].

سادساً- من أساليب الدعوة: الترهيب:

قد ورد الترهيب كأسلوب دعوي في الحديث من قوله ﷺ "ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار (والترهيب أسلوب مؤثر يستطيع الداعية من خلاله أن يتوغل في أعماق المدعو، لما فيه من وعد ووعيد تقشعر منه الأبدان، حيث جهنم ولهيبها وأنواع العذاب فيها جزاءً وفاقاً)[3] مما يحمل المدعو على سرعة الاستجابة والامتثال لأمر الله ورسوله، في تحري الإخلاص، والبعد عن الرياء، وجعل العمل كله لله.

---

(١) سورة الشمس، الآيتان: ٩-١٠.

(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ٢/٢٧٢٦-٢٧٢٧.

(٣) قواعد الدعوة الإسلامية، الهجاري ص ٤٥٠.

الحديث رقم (١٦١٩)

١٦١٩ - وعنه، قَالَ: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: ((إنَّ أولَ النَّاسِ يُقْضَى يَومَ القِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعْمَتَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ! فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ[١]. وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ القُرآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا. قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ العِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ القُرآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ[٢] لِيُقَالَ: عَالِمٌ! وَقَرَأْتَ القُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ؛ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأعْطَاهُ مِنْ أصْنَافِ المَالِ[٣]، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا. قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبيلٍ تُحِبُّ أنْ يُنْفَقَ فِيهَا إلاَّ أنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ. قَالَ: كَذَبْتَ، ولكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ[٤]: جَوَادٌ! فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى[٥] أُلْقِيَ فِي النَّارِ)). رواه مسلم[٦]. "جرئ" بفتح الجيم وكسر الراء وبالمد، أي: شجاع حاذق.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

هذا الحديث من الأحاديث التي تنبئ عن المستقبل والمصير، الذي ينتظر بعض الطوائف من الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا: وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وهم المراءون الذين تشوب أعمالهم بواعث الرياء والنفاق، فلا تسلم نياتهم من التعلق بثناء العباد، ومراءاة الناس.

---

(١) إلى هنا أورده المنذري في ترغيبه.

(٢) عند مسلم زيادة: (العلم).

(٣) عند مسلم زيادة: (كله).

(٤) عند مسلم زيادة: (هو).

(٥) (حتى) لا توجد عند مسلم.

(٦) برقم (١٩٠٥/١٥٢). أورده المنذري في ترغيبه (١٩٩٦) الشطر الأول منه، وأورده من رواية الترمذي بتمامه.

ولذلك يبدأ الحديث بأسلوب خبري مؤكد، فيقول رسول الله ﷺ: "إن أول الناس يقضي يوم القيامة عليه".

والجملة لم تتم حيث ينقصها خبر إن، وهو يبدأ من قوله: "رجل استشهد ... إلى نهاية الحديث" لأن كل ما بعد ذلك معطوف على هذا الخبر الذي بدأت به مشاهد المرائين يوم القيامة.

وفي هذه المشاهد الثلاث: مشهد المقاتل المرائي، والعالم المرائي، والمنفق المرائي، تتجلى المفارقة في المواقف، والحوارات، والأسئلة والأجوبة، وذلك من بواعث التفكير في مصير هؤلاء المرائين الذين تناقض مظهرهم مع مخبرهم، وتناقض فعلهم مع معتقدهم، وكشف الله زيفهم، وأظهر كذبهم، والحديث يفيض بالظواهر الأسلوبية التي تؤثر في المتلقي وتشده إلى التأمل والعظة والتفكر، ومن ذلك: الحوار بين هؤلاء المرائين وربهم، ومن خلال الحوار تتجلى المفارقة التي تجسد كذب هؤلاء ونفاقهم، والله يعلم السر وأخفى، والحوار جاء في صيغة السؤال والجواب لمزيد من الإقناع والتأثير، ويسيطر التكرار على أسلوب السرد وعرض المشاهد الثلاث: لتأكيد زيف هؤلاء، ولزجر غيرهم.

وتأمل أسرار تكرار جملة: "فأتي به فَعَرَّفَهُ نعمته فعرفها"، وتكرار السؤال في كل مشهد: "فما عملت فيها؟"، وقد تكررت هاتان الصيغتان ثلاث مرات في الحديث: في سياق كل مشهد.

وتأمل أسرار تكرار قوله: "فقد قيل" في كل مشهد وذلك لمزيد من الإدانة، وبأن المرائي قد حصل على مراده من ثناء الناس وشكرهم، ولكن حرم من نعمة الله ومن رضوانه، وكان مصيره جهنم وبئس القرار، وتأمل هذا المشهد المتكرر في كل موقف، مع العالم، ومع المقاتل، ومع المنفق، وهذا المشهد يوحي بالإهانة والإذلال في قوله: "ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار"، وتكررت هذه العبارة المصورة لحال هؤلاء المرائين ثلاث مرات: لتؤكد أن هذا المصير المحتوم أمر يقيني لا شك فيه.

والحذف من مظاهر بلاغة الأسلوب في هذا الحديث، ومن ذلك حذف الفاعل في قوله: "فعرفه نعمته": لأن الذي عرف هو الله، ولا ينصرف الذهن إلى سواه، وكذلك حذف فاعل: "أمر" لأنه لا يأمر بذلك إلا الله.

وفي سياق الشهادة المزعومة أتت النعمة مفردة، وفي سياق مشهد العلم، قال نعمه، بالجمع وفي ذلك إيماء إلى عظم العلم، وأن نعمته بمنزلة أعلى من غيره.

والعطف بالواو في بداية المشاهد الثلاث حيث قال: ورجل، ورجل ، ورجل، يدل على أن هذه النماذج المرائية: يحاسبون دفعة واحدة، ولا إشكال في ذلك كما يقول العلماء، فهو ممكن، والله سبحانه لا يشغله شأن عن شأن.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٦٢٠)

١٦٢٠ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أن نَاساً قَالُوا لَهُ: إنَّا نَدْخُلُ عَلَى سَلاَطِينِنَا[1] فَنَقُولُ لَهُمْ[2] بِخِلاَفِ مَا نَتَكَلَّمُ إِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِمْ؟ قَالَ (ابنُ عُمَرَ رضي الله عنهما)[3]: كُنَّا نَعُدُّ هَذَا نِفَاقًا (عَلَى عَهْدِ رسول الله ﷺ)[4]. رواه البخاريُّ[5].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

سلاطيننا: جمع سلطان: الملك أو الولي[6].

---

(١) لفظ البخاري: (سلطاننا)، وكذا عند الحميدي، والمنذري، والمثبت لفظ الطيالسي في المسند (٢٠٦٧). قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/ ١٧٠) في رواية الطيالسي، عن عاصم: (سلاطيننا) بصيغة الجمع.

(٢) أي: نثني عليهم.

(٣) هذا التفسير من المؤلف.

(٤) هذه الزيادة لا توجد عند البخاري. وهي عند الحميدي في جمعه، فتبعه عليه المنذري والنووي. وهذه الزيادة أخرجها الطيالسي في المسند (٢٠٦٧) قال: (قال العمريُّ (عندابن حجر في الفتح ١٣/ ١٧٠ قال عاصم، بدل: قال العمري، وقال محقق المسند: هكذا في النسخ، ولعل الصواب: قال العمري: قال عاصم) ثم ذكرها، ووقع في الأطراف للمزي (٦/ ٤٠، رقم ٧٤٢٧) ما نصه: (خ في الأحكام، عن أبي نُعيم، عن عاصم بن محمد بن زيد، عن أبيه به)، قال: ورواه معاذ بن معاذ، عن عاصم وقال في آخره: (فحدّثت به أخي عمر، فقال: إن أباك كان يزيد فيه: في عهد رسول الله ﷺ). قال الحافظ ابن حجر: وقال معاذ إلى آخره: لم يذكره أبو مسعود، فيحتملُ أن يكون نقله من كتاب خلف، ولم أره في شيء من الروايات التي وقعت لنا عن الفربري ولا عن غيره، عن البخاري. وقد قال الإسماعيلي عقب الزيادة المذكورة، ليس في حديث البخاري: (على عهد رسول الله ﷺ) انتهى. قلتُ: ذكر هذه الزيادة الحميدي في جمعه كما تقدم، ولا شكَّ أنه إما نقله عن نسخة من الجامع فيها هذه الزيادة، أو من خلف الواسطي كما توقعه الحافظ ابن حجر، لكن الحافظ لم يتطرق إلى وجود هذه الزيادة عند الحميدي في جمعه، والله أعلم.

(٥) برقم (٧١٧٨)، والسياق للحميدي في جمعه (٢/ ٢٧٨، رقم ١٤٣٣). أورده المنذري في ترغيبه (٤٣٤٨).

(٦) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (س ل ط ن).

نفاقًا: النفاق: إظهار الإيمان وإخفاء الكفر(١).

الشرح الأدبي

هذا الحديث محاورة بين عبدالله بن عمر رضي الله عنهما وبعض المسلمين حول قضية سلوكية لها أثرها في ضبط إيقاع التعامل والتفاعل بين الراعي والرعية: بين الحاكمين والمحكومين، وهي: ما المعيار الذي يحكم صدق القول أمام السلطان؟.

يبدأ الحديث بأسلوب التأكيد في خطاب جمع من الناس لابن عمر في قولهم: "إنا ندخل على سلاطيننا"، والتأكيد هنا يجعل من التناقض في القول أمام السلطان، ومن خلفه: حقيقة مؤكدة، والتعبير بالمضارع بأسلوب الجمع في قولهم: "ندخل"، وكذلك الجمع في سلاطيننا، إشارة إلى تكرار هذا السلوك: لأنه مستمر في ضوء دلالة الفعل المضارع الزمنية، وكذلك نستنبط هذه الدلالة من المضارعية في قولهم: "فنقول"، والعطف بالفاء يفصح عن التسرع في هذا القول الذي كان يعده الصحابة نفاقاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهم يمدحون السلطان في حضرته، ولكن يذمونه إذا خرجوا من عنده، وصيغة الجمع في قولهم: "إذا خرجنا من عندهم" توحي بتعدد المواقف أمام كثير من الولاة، وليس المقصود سلطاناً واحداً.

وإجابة ابن عمر رضي الله عنهما فيها احتراس، لأنه لم يجزم بأن ذلك نفاق قاطع، لأنه جعل رأيه وحكمه في إطار زمني حيث قال: "كنا نعدُ ذلك نفاقا"، ولم يقل هذا نفاق، وقوله: "على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم" يوحي بأن ذلك اجتهاد من ابن عمر: فيتوقف في موافقته أو مخالفته تخالف المجتهدين في الأحكام(٢). وذلك لأن مخاطبة الحكام، والنصيحة لهم، واجب على كل مسلم، ولكن ما وسيلة ذلك؟ وما السبل التي تؤدي إلى الاستجابة والعمل الصالح، وما أصدق هذه النصيحة التي قالها عمر بن عبيد واعظ المنصور: حين قال له المنصور: "عظني"، فقال: يا أمير المؤمنين: إن الله أعطاك الدنيا .

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن ف ق).

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان .

بأسرها: فاستر نفسك ببعضها: واذكر ليلة تمخَّضُ عن يوم لا ليلة بعده!!!، نسأل الله العون والسداد والإخلاص في القول والعمل.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٦١٨).

الحديث رقم (١٦٢١)

١٦٢١ - وعن جُندب بن عبد اللهِ بن سفيان رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النبيُّ ﷺ: ((مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ الله بِهِ، وَمَنْ يُرائِي يُرائِي اللهُ بِهِ)) متفق عَلَيْهِ[1].

ورواه مسلم[2] أيضاً من رواية ابن عباس رضي الله عنهما.

"سَمَّعَ" بتشديد الميم، ومعناه: أظهر عمله للناس رياءً.

"سَمَّعَ الله به" أي: فضحه يوم القيامة، ومعنى "مَنْ رَاءى" أي: من أظهر للناس العمل الصالح ليعظم عندهم، "رَاءى الله به" أي: أظهر سريرته على رؤوس الخلائق.

ترجمة الراوي:

جُنْدُب بن عبدالله بن سفيان: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٠٥٠).

الشرح الأدبي

إن البناء اللغوي في هذا الحديث يفصح عن معانيه وعن مقاصده، فالمبنى وعاء للمعنى، والألفاظ أجنحة المعاني، والحديث يحذر من الوقوع في شرك الرياء، ويتسم بالإيجاز ودقة الدلالة، فهو يتكون من جملتين شرطيتين: وهما متناسقتان في بنائهما، وكأن هذا التناسق اللغوي صورة من التناسق الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم، فلا بد أن يتوازن مظهره مع مخبره، وتستقيم أحواله، وتصلح أعماله، والجملة الأولى تبوح بالدلالات الكثيرة من خلال نسيجها اللغوي.

فصياغتها الشرطية تتفق مع دلالتها: فالجزاء من جنس العمل: لأن الجواب نتيجة للشرط ومحصلة له، وذلك متحقق ظاهر في قوله ﷺ "من سَمَّع سمَّعَ الله به".

والتضعيف في فعل الشرط وجواب الشرط: أضفى على الفعل "سمَّع"، دلالة مغايرة... ولكنها أكثر تأثيراً وأوسع دائرة، فالتضعيف في قوله: "سمَّع" يجعل من صاحب

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩٩) واللفظ له، ومسلم (٢٩٨٧/٤٨). أورده المنذري في ترغيبه (٣٢).

(٢) برقم (٢٩٨٦/٤٧).

السمع، مصدراً للصوت وللفعل، حيث يقوم بأفعال وأقوال من شأنها أن تشيع عمله بين الناس رغبة في ثنائهم عليه، طلباً للشهرة وجرياً وراء زخرف الحياة وعرضها، وهو لاه عن مكانة عمله عند ربه عز وجل، أما الفعل سَمِعَ بدون تضعيف: فيجعل من صاحب السمع مستقبلاً للكلام من مصدر خارجي، وفرق بين دلالة الفعلين حسب بنائهما اللغوي: وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، كما قال العلماء، فمعنى قوله: "سمَّع"، في ضوء ما سبق: أي من عمل سراً وأراد أن يسمع الناس بعمله فيثنوا عليه.

وسمَّع الله به: أي أعطاه الله ما يريد من متاع الدنيا: ولكن يحرمه من ثواب الآخرة: وقيل: فضحه يوم القيامة، والمشاكلة اللفظية تتجلى في قوله: "ومن يرائى يرائى الله به"، فدلالة الفعل في الشرط غير دلالتها في الجواب، أن العبد المرائى يظهر للناس العمل الصالح: وهو في غفلة عن مراقبة الله لسريرته واطلاعه على نيته، ولذلك يتفق الجواب في اللفظ مع الشرط: "يرائى الله به"، ولكن يختلف عنه في الدلالة: لأن الله لا يرائي، وقوله "به" يحدد التباين بين فعل العبد، وفعل الله عز وجل: والمراد من قوله: "يرائي الله به" أي يظهر سريرته على رءوس الخلائق: يوم القيامة، حيث يطلع الناس على ما حاول أن يخفيه عنهم في الدنيا، وقيل: يحتمل ذلك في الدنيا: حيث يطلع الله العباد على سريرته، ويعرفون عنه خلاف ما يظهر فلا ينال مراده، ولذلك جاء قوله: "يرائي الله به"، مطلقاً غير مقيد بزمن: الدنيا أو الآخرة.

المضامين الدعوية[1]

أولاً: من أساليب الدعوة: الشرط.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: عاقبة الرياء والتظاهر بالأعمال.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: التحذير.

أولاً- من أساليب الدعوة: الشرط:

قد اشتمل الشرط كأسلوب من أساليب الدعوة في الحديث على أداة الشرط المتمثلة في قوله ﷺ "من" وعلى فعل الشرط المتمثل في قوله ﷺ "سمع" وقول "يرائي"

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٦٢١- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٢٢).

وعلى جواب الشرط الشرط المتمثل في قوله ﷺ "سمع الله به" وقوله "يُرائي الله به"، والشرط من أساليب الدعوة المهمة في لفت انتباه المدعوين واستحضار أذهانهم لمعرفة جواب الشرط وما فيه من إرشاد.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: عاقبة الرياء والتظاهر بالأعمال:

إن الرياء من كبائر المهلكات، وسوء الأخلاق، به يكون مقت الله وغضبه، (وهو ترك الإخلاص في العمل بمراعاة غير الله فيه)[1]، (وأن يقصد فاعله اطلاع الناس على عبادته وكماله، فيحصل له منهم نحو مالٍ أو جاهٍ، أو ثناء)[2]، فيكون سبباً في إحباط الأعمال وسوء الجزاء، وهذا ما أكده نص الحديث في قوله ﷺ "من سمَّع سمَّع الله به ومن يرائي يرائي الله به" قال النووي: (قال العلماء معناه: من رايا بعمله وسمعه الناس ليكرموه ويعظموه ويعتقدوا خيره سمَّع الله به يوم القيامة الناس وفضحه، وقيل: معناه: من سمع بعيوبه وأذاعها أظهر الله عيوبه، وقيل: أسمعه المكروه، وقيل: أراه الله ثواب ذلك من غير أن يعطيه إياه ليكون حسرة عليه، وقيل: معناه: من أراد بعمله الناس أسمعه الله الناس وكان ذلك حظه منه)[3].

وقال ابن حجر: (قال الخطابي: معناه من عمل عملاً على غير إخلاص، وإنما يريد أن يراه الناس ويسمعوه، جوزي على ذلك بأن يشهره الله ويفضحه ويظهر ما كان يبطنه، وقيل من قصد بعمله الجاه والمنزلة عند الناس، ولم يرد به وجه الله، فإن الله يجعله حديثاً عند الناس الذين أراد نيل المنزلة عندهم ولا ثواب له في الآخرة، ومعنى يرائي يطلعهم على أنه فعل ذلك لهم لا لوجهه، ومنه قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[4] وقيل: المراد من قصد بعمله أن يسمعه

---

(١) التعريفات، الجرجاني، ٤٣/١.

(٢) الزواجر، ابن حجر الهيتمي، ٤٣/١.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ١٧١٧.

(٤) سورة هود، آية: ١٥.

الناس ويروه ليعظموه وتعلو منزلته عندهم حصل له ما قصد، وكان ذلك جزاءه على عمله؛ ولا يثاب عليه في الآخرة. وقيل المعنى، من سمع بعيوب الناس وأذاعها، أظهر الله عيوبه وأسمعه المكروه. وقيل المعنى من نسب إلى نفسه عملاً صالحاً لم يفعله، وادعى خيراً لم يصنعه، فإن الله يفضحه ويظهر كذبه، وقيل المعنى من يرائي الناس بعمله، أراه الله ثواب ذلك العمل وحرمه إياه. وقيل معنى سمع الله به، شهره أو ملأ أسماع الناس بسوء الثناء عليه في الدنيا أو في القيامة بما ينطوي عليه من خبث السريرة، قلت: ورد في عدة أحاديث التصريح بوقوع ذلك في الآخرة، فهو المعتمد)[١]، وما يؤيد ذلك حديث بشر بن عقربة رضي الله عنه الذي قال فيه ((إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: مَنْ قَامَ بِخُطْبَةٍ لا يَلْتَمِسُ بِهَا إِلاّ رِياءً وسمعة أَوْقَفَهُ الله عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ مَوْقِفَ رِياءٍ وَسُمْعَةٍ))[٢] وعنه ﷺ أنه قال: ((من أكل برَجُلٍ مُسلم أكلةً - وقال مرة: أَكلةً - فإن الله عزَّ وجلَّ يطعمه مثلها من جهنم، ومن اكتسى برجل مسلم ثوباً فإن الله عزَّ وجلَّ يكسوه مثله من جهنم، ومن قام برَجُلٍ مسلم مقام سمعة فإن الله عزَّ وجلَّ يقوم به مقام سمعة يوم القيامة))[٣]، وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: ((أن رجلاً أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يُقاتل ليذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ من يقاتل لتكون كلمة الله أعلى فهو في سبيل الله))[٤].

وفي ذلك بيان لسوء عاقبة الرياء والتظاهر بالأعمال، ولكن قد يكون من الأفضل في حق بعض الناس إظهار الأعمال وعدم الإخفاء بقصد الاقتداء بهم، وهذا ما بينه ابن حجر في قوله: (وفي الحديث استحباب إخفاء العمل الصالح، لكن قد يستحب إظهاره ممن يقتدى به على إرادته الاقتداء به، ويقدر ذلك بقدر الحاجة، قال ابن عبدالسلام:

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ١١/٣٤٤-٣٤٥.

(٢) أخرجه أحمد ٣/٥٠٠ رقم ١٦٠٧٣، وقال محققو المسند، إسناده حسن ٢٥/٤٧٥.

(٣) أخرجه أحمد ٤/٢٩٩ رقم ١٨٠١١، وقال محققو المسند، حديث حسن إسناد رجاله ثقات ٢٩/٥٣٩.

(٤) أخرجه البخاري ٢٨١٠، ومسلم ١٩٠٤.

يستثنى من استحباب إخفاء العمل من يظهره ليقتدى به أو لينتفع به ككتابة العلم...، قال الطبري: كان ابن عمر وابن مسعود رضي الله عنهم وجماعة من السلف يتهجدون في مساجدهم ويتظاهرون بمحاسن أعمالهم ليقتدى بهم، قال: فمن كان إماماً يستن بعمله، عالماً بما لله عليه، قاهراً لشيطانه، استوى ما ظهر من عمله وما خفي لصحة قصده، ومن كان بخلاف ذلك فالإخفاء في حقه أفضل)[1].

ثالثاً- من أساليب الدعوة: التحذير:

هذا ما ورد في الحديث من تحذيره ﷺ من الرياء وعدم الإخلاص والتظاهر بالأعمال، لما في ذلك من إحباطٍ للعمل وتضييع للثواب، فضلاً عن افتضاح الأمر في الدنيا والحسرة يوم القيامة، فالتحذير من الأساليب الدعوية المهمة التي تعين الداعية على إرشاد المدعوين، وحملهم على اجتناب ما فيه هلاك لهم في الدنيا والآخرة.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٣٤٥/١١.

الحديث رقم (١٦٢٢)

١٦٢٢ - وعن أَبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((**مَنْ تَعَلَّمَ عِلْماً مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ عز وجل لاَ يَتَعَلَّمُهُ إلاَّ لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضاً مِنَ الدُّنْيَا: لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ**)) يَعْنِي: رِيحَهَا. رواه أَبُو داود بإسنادٍ[1] صحيحٍ والأحاديث في الباب كثيرةٌ مشهورةٌ.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

ليصيب: ليحصلَ[2].

عَرَضًا: مَتاعُ الدنيا وحُطامُها[3].

الشرح الأدبي

حين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف نجد أنه يتكون من جملة واحدة، وهي جملة شرطية: تتماسك أطرافها، وتتجاذب كلماتها، ويشد بعضها بعضاً كالبنيان المرصوص، وكأنها جسد المؤمن لا ينهض ولا تستقيم حياته إلا إذا صحت الأعضاء، واكتمل البنيان، والحديث في بنائه وما يتمخض عنه هذا البناء اللغوي من مقاصد كأنه شمس من الهداية، والكلمات كواكبها، والأحرف أشعتها، والهداية هي الطاقة المنبعثة من هذه الشمس التي تشرق دائماً في أفق البيان المحمدي، والهدي النبوي.

---

(١) برقم (٣٦٦٤)، وتقدم برقم (١٣٩٣). وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٧٨)، وقال الحاكم (٨٥/١): هذا حديثٌ صحيحٌ سنده، ثقاتٌ رواته على شرط الشيخين ولم يخرجاه. أورده المنذري في ترغيبه (١٧٧).

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ص و ب).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ر ض).

ولنتأمل بناء الأسلوب في هذا الحديث الشريف، حيث يبدأ الحديث بأداة الشرط وفعل الشرط، ومتعلقات الشرط في قول رسول الله ﷺ "من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله عز وجل" والفائدة لم تحصل بعد، ولكن هذه المقدمة تنبئ عن البشرى في الجواب: لأن العلم المتحصل توج بشرف المقصد ونبل الغاية، فهو يبتغي به وجه الله عز وجل، وتحدث المفارقة الدلالية، والمفاجأة المثيرة، حيث تأتي جملة تفيد الشرط وتحصره: وهي قوله: "لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا"، فالعلم لم يعد خالصاً لوجه الله عز وجل، وإنما تحول المسار، وتغير المقصد: وهو تحصيل المكاسب الدنيوية من الثناء والمال والشهرة: وصيغة القصر، تؤكد هذا التوجه عند طالب العلم الذي يطلب عرض الدنيا. ويأتي جواب الشرط مكملاً لبنيان الحديث، ومفصحاً عن مصير هذا المرائي: الذي قال عنه رسول الله ﷺ في حديث سابق، "ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار"، وهنا يقول: "لم يجد عرف الجنة يوم القيامة": يعني ريحها، وإن عرفها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام، فلفظ "عرف الجنة" يفصح عن أن هذا المرائي بعيد عن الجنة قريب من النار، وبينه وبين الجنة مسيرة خمسمائة عام، وذلك كناية عن بعده عن رحمة الله. لأنه قصر طلبه على الحقير الفاني، واستبدل الأدنى بالذي هو خير.

المضامين الدعوية[1]

---

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية على الإخلاص لله وتحريم الرياء:

إن أسمى الصفات الروحية -والتي تبلغ بالمتربي منزلة رفيعة في ميزان الخلق الإنساني- صفة الإخلاص لله، بأن يأتي المتربي أعمالاً نقية، لا يشوبها رياء، قيامًا بالواجب، سواء في العبادات أو في سائر الأعمال، قاصدًا بذلك وجه الله ورضاه[1].

لذا وجب على دعاة التربية والتوجيه غرس الإخلاص لله في نفوس المتربين والمتعلمين، والتحذير من نواقضه، والتي من أعظمها الرياء، وهذا ما أكدته جملة أحاديث الباب في بيان إحباط العمل وثوابه بسبب الرياء، وذلك في قوله ﷺ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ..... مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ».، وقوله ﷺ: «إنَّ أول الناس يقضي يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتى به فعرّفه نعمته فعرفها قال: فما فعلت فيها قال: قاتلت فيك حتى استشهدت قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأنْ يقال جريء فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار....إلخ»، وقوله ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ لا يَتَعَلَّمُهُ إلاَّ لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وبذلك يكون الرياء من أخطر أمراض الباطن التي تُدهده حصن الإخلاص في نفوس المتربين؛ لذا وجب على المتربي والمتعلم أن يعلما أن: "أضر شيء على العبد، أن يعمل عملاً، أو يقول قولاً، لا يريد به وجه الله، جميل ظاهره، قبيح باطنه، يسرّ غير ما يعلن، ويظهر خلاف ما يبطن، يسبح ويهلل، ويقرأ القرآن، ويخطب، ويعلم، ويدعو إلى الله بلسانه، وقلبه غافل، وذاهل، وبغير الله مشغول، وعلى سواه معوّل ومتكل، وحسبه من الخير ثناء الجاهلين عليه، واستمالة قلوبهم إليه، إذا قرأ جوَّد، وإذا وعظ بكى، وإذا خطب أو درس لم يلحن، وجاء بالعجب العجاب، ولو أخلص في قلبه لكان الزعيم المطاع، والمصلح الحكيم، والمرشد العظيم، وإذا رأيته يصلي ظننته إسرافيل،

---

(١) روح الدين الإسلامي، عفيف طبارة، ١٩٨.

وإن أبصرته يتصدق حسبته ميكائيل، وإن لقيته صائمًا أو معتكفًا لم تشك في أنه جبريل، ولكنه الخادع المنافق، والكذاب المكار المزور، يقول بفيه ما ليس في قلبه، ويرائى الناس بما يعمله لريه"(١).

وقد بيّن ابن الجوزي: لدعاة التربية والتوجيه علاج هذا المرض إن وقع، في قلوب المتربين، فقال: "وعلاج هذا المرض في الجملة تحقيق معرفة الله سبحانه، فمن عرفه أفرد القصد له، ولم ير غيره، وأقام نفسه في مقام العابد الذليل للمعبود؛ لا في مقام معبود ممدوح، ورأى أن حصول الأجر إنما يكون بخالص العمل، فاحترس من تعب ضائع"(٢).

ثانيًا: التربية بالترهيب:

لقد حرم الإسلام الرياء تحريمًا شديدًا، وشدد النكير على من يتخلق به، واتبع في ذلك الترهيب كأسلوب تربوي في إبعاد نفس المتربي والمتعلم عن التخلق بمرذول صفته وشناعة قبحه، وهذا ما ترائى جليًا، في مجمل أحاديث الباب، حيث ابتداء الترهيب من الرياء ببيان أنه ينافي الإخلاص في العبادة لله عز وجل، ومن ثم إحباط العمل وضياع الأجر، وذلك في قوله ﷺ: «عن رب العزة: .... مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ».

ثم ثُنّى بالترهيب من الرياء في أحاديث الباب ببيان سوء العاقبة وشدة العذاب، وذلك في قوله ﷺ: «...ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّىٰ أُلْقِيَ فِي النَّارِ....إلخ»، وقوله ﷺ: «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهِ بِهِ ...إلخ»، وقوله ﷺ: «... لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وقد ورد الترهيب أخيرًا من الرياء ببيان أنه نفاق، وذلك في قول ابن عمر رضي الله عنه: «كُنَّا نَعُدُّ هذَا نِفاقًا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»، فالترهيب أحد الأساليب التربوية التي يقوم عليها المنهج الإسلامي حيث يتسق مع فطرة الإنسان التي جبل عليها من الخوف وترك الألم(٣). لذا وجب استعماله عند الحاجة في تربية النشء.

❁ ❁ ❁

---

(١) إصلاح المجتمع، محمد سالم البيحاني، ١٣.

(٢) ذم الهوى، ٣٥.

(٣) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ٣٩٤.

٢٨٩- باب مَا يتوهم أنَّه رياء وليس هُوَ رياء

الحديث رقم (١٦٢٣)

١٦٢٣ - عن أَبي ذرٍ رضي الله عنه قَالَ: قِيلَ لِرسولِ الله ﷺ: أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ الَّذي يَعْمَلُ العَمَلَ مِنَ الخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: ((تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى المُؤْمِنِ)). رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو ذر الغفاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦١).

الشرح الأدبي

هذا هو الحديث الوحيد في بابه، وهو باب ما يتوهم أنه رياء وليس هو رياء، وقد جاء عقب باب تحريم الرياء، والحديث ورد في صيغة حوارية يرويها أبو ذر الغفاري رضي الله عنه، والحوار الذي دار كان بين رسول الله ﷺ ورجل من الصحابة، لم يحدده أبو ذر، ولذلك بدأ الحديث بالفعل: "قيل" المبني للمجهول، "قيل لرسول الله ﷺ" فالسائل غير معلوم: لأن القضية المسؤول عنها ليست قضية شخصية، وليست حكماً محدداً يطلب السائل تحديد الموقف الشرعي منه، وإنما هي قضية عامة تحكم منهج المسلم، وتدفع اللبس والتوهم في كثير من المواقف والسلوكيات الحياتية والعبادية، وألسنة الخلق أقلام الحق، وتبدأ المحاورة باستفهام حقيقي "أرأيت الرجل...." والفعل رأى هنا يتجاوز دلالته البصرية والعلمية إلى أفق أشمل، فهو بمعنى أخبرني، فقد دل على علم رسول الله ﷺ ودل على حاجة السائل إلى ثمرة ذلك العلم، فالاستفهام هنا طلب يفصح عن مراد السائل معرفة الحقيقة.

وقوله: "الرجل" للتغليب: لأن المرأة ليست خارج هذه الدائرة، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾[2].

---

(١) برقم (٢٦٤٢/١٦٦).

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٩٥.

وتأمل التعبير بالفعل المضارع في قوله: "يعمل العمل من الخير"، والمضارع يوحي بالاستمرار وعدم الانقطاع، فعمل الخير يجب أن يكون ديدن المسلم طيلة حياته، وقوله "من الخير"، تقييد لتحديد نوعية العمل المفيد الذي يرضى الله عنه ورسوله، ويفيد المؤمنين، "والخير" كلمة موجزة جامعة لكل آفاق العمل الصالح ومساراته، ونتائجه.

وصيغة المضارع في قوله: "يحمده الناس عليه"، ترشد إلى استمرار التفاعل بين الذي يعمل صالحاً وبين من يعمل لصالحهم ابتغاء مرضاة الله عز وجل، فهم لا يجحدون فضله، ولا ينكرون عليه إنجازاته وإخلاصه، وقوله: "الناس" يوحي بأن العمل الصالح يجب أن يكون ذا ثمرة عامة يستفيد منها الناس وليس الأقارب فقط، أو الأبناء فقط، والتعبير بقوله: "يحمده الناس"، يعطي دلالة أعم وأشمل من قوله، "ويمدحه الناس"، فالحمد يكون بدافع الشكر والإخلاص والمحبة، أما المدح فقد يشوبه النفاق والرياء كما جاء في الحديث السابق الذي عده ابن عمر نفاقاً، والحمد في اللغة، الشكر والرضى، والجزاء وقضاء الحق، وتجيء إجابة رسول الله ﷺ مطمئنة مبشرة تزيل اللبس، وتدفع التوهم، وتفتح آفاق العمل الصالح الخالص لوجه الله أمام الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فيقول مشيراً باسم "الإشارة" الذي يفيد التعظيم، "تلك عاجل بشرى المؤمن" فمن أخلص لله تعالى، وقصد التقرب إليه ليس إلا: كما يقول محمد بن علان صديق الشافعي، أطلق الله الألسنة بالثناء عليه، فذلك علامة قبوله سبحانه لذلك العمل، قال تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ﴾[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من آداب المدعو: سؤال أهل العلم والفضل عما يشغله من أمور دينه.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: تبشير المؤمنين المخلصين.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: البشارة.

---

(١) سورة يونس، آية: ٦٤.

أولاً- من آداب المدعو: سؤال أهل العلم والفضل عما يشغله من أمور دينه:

هذا ما ورد في الحديث من قول أبي ذر رضي الله عنه: "قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت الرجل الذي يعمل العمل من الخير، ويحمده الناس عليه؟" فعلى المدعو أن يسأل أهل العلم والفضل عما يشغله من أمور، حتى يكون على بصيرة من أمر دينه فيعبد الله على علم، وخير دليل على ذلك قول ابن عباس رضي الله عنهما لهشام بن عامر عندما سأله عن وتر رسول الله ﷺ؟ فقال له: ((أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَىٰ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ بِوِتْرِ رَسُولِ اللّهِ ؟ قَالَ: مَنْ؟ قَالَ: عَائِشَةُ. فَأْتِهَا فَاسْأَلْهَا. ثُمَّ ائْتِنِي فَأَخْبِرْنِي بِرَدِّهَا عَلَيْكَ. -قال- فَانْطَلَقْتُ إِلَيْهَا... فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْبِئِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللّهِ . قَالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرآنَ؟ قُلْتُ: بَلَىٰ. قَالَتْ: فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللّهِ كَانَ الْقُرْآنَ. قَالَ فَهَمَمْتُ أَنْ أَقُومَ، وَلاَ أَسْأَلَ أَحَداً عن شيء حَتَّىٰ أَمُوتَ. ثُمَّ بَدَا لِي فَقُلْتُ: أَنْبِئِينِي عَنْ قِيَامِ رَسُولِ اللّهِ . فَقَالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾؟ قُلْتُ: بَلَىٰ. قَالَتْ: فَإِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ افْتَرَضَ قِيَامَ اللَّيْلِ فِي أَوَّلِ هذِهِ السُّورَةِ. فَقَامَ نَبِيُّ اللّهِ وَأَصْحَابُهُ حَوْلاً. وَأَمْسَكَ الله خَاتِمَتَهَا اثْنَيْ عَشَرَ شَهْراً فِي السَّمَاءِ. حَتَّى أَنْزَلَ الله، فِي آخِرِ هذِهِ السُّورَةِ، التَّخْفِيفَ. فَصَارَ قِيَامُ اللَّيْلِ تَطَوُّعاً بَعْدَ فَرِيضَةٍ. قَالَ: قُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْبِئِينِي عَنْ وِتْرِ رَسُولِ اللّهِ . فَقَالَتْ: كُنَّا نُعِدُّ لَهُ سِوَاكَهُ وَطَهُورَهُ. فَيَبْعَثُهُ الله مَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَهُ مِنَ اللَّيْلِ. فَيَتَسَوَّكُ وَيَتَوَضَّأُ وَيُصَلِّي تِسْعَ رَكَعَاتٍ. لاَ يَجْلِسُ فِيهَا إِلاَّ فِي الثَّامِنَةِ. فَيَذْكُرُ الله وَيَحْمَدُهُ وَيَدْعُوهُ. ثُمَّ يَنْهَضُ وَلاَ يُسَلِّمُ. ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي التَّاسِعَةَ. ثُمَّ يَقْعُدُ فَيَذْكُرُ الله وَيَحْمَدُهُ وَيَدْعُوهُ. ثُمَّ يُسَلِّمُ تَسْلِيماً يُسْمِعُنَا. ثُمَّ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ بَعْدَمَا يُسَلِّمُ وَهُوَ قَاعِدٌ. فَتِلْكَ إِحْدَىٰ عَشْرَةَ رَكْعَةً، يَا بُنَيَّ. فَلَمَّا سَنَّ نَبِيُّ اللّهِ، وَأَخَذَهُ اللَّحْمُ، أَوْتَرَ بِسَبْعٍ. وَصَنَعَ فِي الرَّكْعَتَيْنِ مِثْلَ صَنِيعِهِ الأَوَّلِ. فَتِلْكَ تِسْعٌ، يَا بُنَيَّ. وَكَانَ نَبِيُّ اللّهِ إِذَا صَلَّىٰ صَلاَةً أَحَبَّ أَنْ يُدَاوِمَ عَلَيْهَا. وَكَانَ إِذَا غَلَبَهُ نَوْمٌ أَوْ وَجَعٌ عَنْ قِيَامِ اللَّيْلِ صَلَّىٰ من النَّهَارِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً. وَلاَ أَعْلَمُ نَبِيَّ اللّهِ قَرَأَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ فِي لَيْلَةٍ. وَلاَ صَلَّى لَيْلَةً إِلَى الصُّبْحِ. وَلاَ صَامَ شَهْراً كَامِلاً غَيْرَ رَمَضَانَ قَالَ فَانْطَلَقْتُ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَحَدَّثْتُهُ بِحَدِيثِهَا. فَقَالَ: صَدَقَتْ: لَوْ كُنْتُ أَقْرَبُهَا أَوْ أَدْخُلُ عَلَيْهَا لأَتيتُهَا حَتَّى تُشَافِهَنِي.

به. قَالَ: قُلْتُ: لَوْ عَلِمْتُ أَنَّكَ مَا تَدْخُلُ عَلَيْهَا مَا حَدَّثْتُكَ حَدِيثَهَا))[١]، وفي ذلك قال النووي: (إنه يستحب للعالم إذا سئل عن شيء، ويعرف أن غيره أعلم منه به، أن يرشد السائل إليه، فإن الدين النصيحة)[٢]، فإذا كان هذا في حال العالم، وقد دل على من هو أعلم منه في المسألة، فمن باب أولى أن يسأل المدعو أهل العلم ليفيدوه بعلمهم ويرشدوه إلى الصواب، وليس أدل على ذلك من قصة موسى والخضر عليهما السلام.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: تبشير المؤمنين المخلصين:

هذا ما أشار إليه نص الحديث في قوله ﷺ "تلك عاجل بشرى المؤمن" قال النووي: (معناه هذه البشرى المعجلة له بالخير، وهي دليل على رضاء الله تعالى عنه ومحبته له، فيحببه إلى الخلق كما في الحديث من قوله ﷺ: ((ثمَّ يُوضعُ له القَبول في الأرض))[٣] هذا كله إذا حمده الناس من غير تعرض منه لحمدهم، وإلا فالتعرض مذموم)[٤].

قال ابن رجب: (وأما إذا عمل العمل لله خالصاً، ثم ألقى الله له الثناء الحسن في قلوب المؤمنين بذلك، ففرح بفضل الله ورحمته، واستبشر بذلك، لم يضرَّه ذلك)[٥]، قال ابن عثيمين: (لأن الناس إذا أثنوا على الإنسان خيراً؛ فهم شهداء الله في أرضه (ولهذا لما مرت جنازة من عند النبي ﷺ وأصحابه أثنوا عليه خيراً، قال: "وجبت" ثم مرت أخرى فأثنوا عليها شراً، قال: "وجبت"، فقالوا: يا رسول الله ما وجبت؟ قال:"أما الأول فوجبت له الجنة، وأما الثاني فوجبت له النار" أنتم شهداء الله في الأرض)[٦]. فهذا معنى قوله: "تلك عاجل بشرى المؤمن". والفرق بين هذا وبين الرياء: أن المرائي لا يعمل العمل، إلا لأجل الناس، ليراه الناس، فيكون في نيته شرك، شرك مع الله غيره، وأما هذا فنيته خالصة لله عز وجل، ولم يطرأ على باله أن يمدحه الناس أو يذموه)[٧].

---

(١) أخرجه مسلم، ٧٤٦.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ٥١١.

(٣) أخرجه البخاري ٧٣٨٥، ومسلم ٢٦٣٧.

(٤) شرح صحيح مسلم، للنووي ١٥٦٦.

(٥) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٨٣/١.

(٦) أخرجه البخاري ٢٤٩٩، ومسلم ٩٤٩.

(٧) شرح رياض الصالحين ١٧١٩/٢ – ١٧٢٠.

ثالثاً- من أساليب الدعوة: البشارة:

ذلك ما ورد في الحديث من قوله ﷺ "تلك عاجل بشرى المؤمن" والبشارة: (هي كل خبر صدق تتغيرُ به بشرةُ الوجه، ويستعمل في الخير أغلب)[1] وهي من صفات النبيين والمرسلين، قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[2] وقال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[3] وهي من صفة القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[4] والبشارة من الأساليب الدعوية المهمة في حث المدعو وحمله على سرعة الاستجابة للأمر المدعو إليه، لما لهذا الأسلوب من الوقع الحسن في قلوب المدعوين، حيث أفاد في نص الحديث أن الصدق والإخلاص في العمل لله وحده، هو باب إرضائه عز وجل في الدنيا والآخرة، أما الدنيا فيكون بحمد الناس له ووضع القبول له في الأرض، وأما الآخرة فيكون رضوان الله تعالى وجنته.

(١) التعريفات، الجرجاني، ص ٧٠.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢١٣.

(٣) سورة الأنعام، آية: ٤٨.

(٤) سورة البقرة، آية: ٩٧.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: من الأساليب التربوية: السؤال والاستفهام:

إن من عود نفسه على السؤال زادت ثقته بنفسه وشعر بالطمأنينة، والارتياح، لمعرفة الإجابة عما كان يجول بخاطره ويشغل ذهنه؛ لذا حرص الصحابة ﷺ على السؤال والاستفهام عما خفي عنهم.

وهذا ما أكده حديث الباب من سؤال الصحابة ﷺ للنبي ﷺ عما يتوهم أنه رياء وليس هو رياء، وذلك في قوله أبي ذر ﷺ: «أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ ...إلخ».

وفي السؤال والاستفهام مزايا تربوية عظيمة، منها توفير الجهد والوقت والمال، فضلاً عن تحصيل منفعة ودفع مضرة في أمور الدنيا والدين[1].

وفي ذلك قال أمية بن الصلت:

لا يذهبنَّ بك التفريط منتظرًا ... طول الأناة ولا يطمع بك العَجَلُ

فقد يزيد السؤال المرءَ تجربةً ... ويستريح إلى الأخبار من يسلُ

وليس ذو العلم بالتقوى كجاهلها ... ولا البصير كأعمى ما له بصرُ

فاستخبرِ الناس عمَّا أنت جاهلُهُ ... إذا عَمِيتَ فقد يجلو العمى الخبرُ[2]

وحتى يحقق هذا الأسلوب التربوي ثمرته، وجب على السائل أن يتأدب بآداب السؤال فلا يرفع صوتًا، ولا يقطع متكلمًا، ويراعى اختيار الألفاظ المناسبة من غير ما تكلف، ثم ينتظر الإجابة في تواضع واحترام وينصت لفهمها واستيعابها، وبذلك تحصل الفائدة التربوية في معرفة ما جهل المتربي[3].

---

(١) التربية الذاتية، هاشم علي أحمد، ١٢٥.

(٢) ديوان أمية بن أبي الصلت: جمع وتحقيق ودراسة عبدالحفيظ السهلي، ط٢، المطبعة التعاونية، دمشق، ١٣٩٤هـ، ص٤٣٦.

(٣) التربية الذاتية، هاشم علي أحمد، ١٢٥. أساليب الدعوة والتربية، د. محمود زياد، ٤٤٦.

ثانيًا: من الأساليب التربوية: الترغيب:

إن الترغيب أسلوب تربوي يعمل على دغدغة المطامع الإنسانية في اتجاه طرق الخير التي قد تدفع عن الإنسان الصوارف النفسية التي تصرفه عنه[1]، وقد استخدم النبي ﷺ هذا الأسلوب في حديث الباب بترغيبه في الإخلاص وبيان ثوابه العظيم، وذلك في قوله: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَىٰ الْمُؤْمِنِ».

ففي غزوة الخندق عندما أراد الرسول ﷺ أن يأتيه رجل من المسلمين بأخبار المشركين، قال حذيفة رضي الله عنه: لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الأَحْزَابِ، وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقَرٌّ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلاَ رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» فَسَكَتْنَا. فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ. ثُمَّ قَالَ: «أَلاَ رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ، جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» فَسَكَتْنَا. فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ. ثُمَّ قَالَ: «أَلاَ رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ، جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» فَسَكَتْنَا، فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ. فَقَالَ: «قُمْ. يَا حُذَيْفَةُ! فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ» فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا، إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي، أَنْ أَقُومَ. قَالَ: «اذْهَبْ. فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلاَ تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ»[2]، فقد كانت الليلة ليلة شديدة الرياح قاسية البرودة، وكانت تحتاج إلى همة عالية وقوة، لذلك تقدم الرسول ﷺ بالثواب على هذا العمل فقال لمن يفعل ما أراد: «جعله الله معي يوم القيامة»، ولم يأمر أحدًا ابتداءً بذلك، ومع رغبة الصحابة في الخير وشدة حرصهم عليه، ووعد الرسول ﷺ لهم بهذه المنزلة العظيمة، ومع ذلك لم يقم أحد حتى كرر ذلك ثلاث مرات، مما يدل على الوضع الصعب لحالة الطقس في ذلك اليوم من الرياح الشديدة والبرد القاسي، هنا احتاج الرسول ﷺ أن يأمر بوصفه أمير القوم الذي تجب طاعته رغم قسوة الأوضاع، وكلّف بهذا الأمر حذيفة رضي الله عنه، وكذلك فعل الرسول ﷺ في غزوة أحد عندما أحاط المشركون به وببعض أصحابه، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أُفْرِدَ يَوْمَ أُحُدٍ فِي سَبْعَةٍ مِنَ الأَنْصَارِ وَرَجُلَيْنِ مِنْ

---

(١) أساليب الدعوة والتربية، د. محمود زياد العاني، ٢٢٠.

(٢) أخرجه مسلم، ٣٣٤٣.

قُـريْشٍ. فَلَمَّـا رَهِقُـوهُ قَـالَ: «مَـنْ يَـرُدُّهُمْ عَنَّـا وَلَـهُ الْجَنَّـةُ، أَوْ هُـوَ رَفِيقِـي فِـي الْجَنَّـةِ؟»[1]... الحديث، وهكذا ينبغي على المربي أن يفعل في الثواب مع البالغين، وأما ما فرضه الله فرضًا فالثواب فيه ما وعد الله به عباده المتقين[2].



(١)أخرجه مسلم، ٣٣٤٤..

(٢) نحو تربية إسلامية راشدة، محمد شاكر الشريف، ١٤١، ١٤٢.

٢٩٠- باب تحريم النظر إلَى المرأة الأجنبية

والأمرد الحسن لغير حاجة شرعية

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿قُلْ لِلمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾[النور: ٣٠]، وقال تَعَالَى: ﴿إنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ والفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾[الإسراء: ٣٦]، وقال تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[غافر: ١٩]، وقال تَعَالَى: ﴿إنَّ رَبكَ لَبِالمِرْصَادِ﴾[الفجر: ١٤].

الحديث رقم (١٦٢٤)

١٦٢٤ - وعن أَبي هريرة ﷺ: أنَّ النبيَّ ﷺ، قَالَ: ((**كُتِبَ عَلَى ابْن آدمَ نَصِيبُهُ مِنَ الزِّنَا مُدْرِكُ ذَلِكَ لا مَحَالَةَ: العَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الاسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الكَلاَمُ، وَاليَدُ زِنَاهَا البَطْشُ، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الخُطَا، والقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الفَرْجُ أَوْ[١] يُكَذِّبُهُ**)). متفق عَلَيْهِ[٢]. هَذَا لفظ مسلمٍ، ورواية البخاري مختصرةٌ.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

مدرك ذلك لا مَحالة: لابد منه لكونه قدر عليه[٣].

البطش: الأخذ القوي الشديد[٤].

يصدق: يحقق[٥].

---

(١) لفظ مسلم بالواو فقط، وكذا عند أبي داود، والبخاري برقم (٦٢٤٣)، والمثبت لفظ البخاري برقم (٦٦١٢) وكذا عند الحميدي في جمعه (٣/٥، رقم ٢١٦٨) وتبعه عليه المنذري والمؤلف.

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٤٣)، ومسلم (٢١/٢٦٥٧) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٢٨٤٥).

(٣) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٦٦٢.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب ط ش).

(٥) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٦٦٣، والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية (ص د ق).

الشرح الأدبي

حين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف: نجد أنه يتضمن عدة ظواهر فنية وأسلوبية: حيث يتكون من مقدمة إجمالية: تتضمن جملة واحدة، ثم يأتي التفصيل في سبع جمل بعد ذلك، وكلها تصور موقف الإنسان من النظر إلى المرأة الأجنبية، ومراحل الطريق التي تؤدي بالإنسان إلى التردي والوقوع في مهاوي جريمة الزنا.

والجملة الأولى وهي: الجمل المفتاحية في علم التحرير الأدبي، ولها خصائص كثيرة، نراها تبدأ بالفعل المبني للمجهول، "كُتب على ابن آدم نصيبه من الزنى"، والبناء للمجهول لا يعني أن الفاعل مجهول: ولكنه معلوم وهو الله عز وجل، ولا يقدر الأمور غيره، فالفاعل محذوف للعلم به، ولأن معنى "كُتب" حتم وقدّر، ولا يستطيع ذلك بشر، وقوله "على ابن آدم"، فيه تعميم وإشارة إلى أن التعلق بالمرأة فطرة مركوزة في التكوين البشري، وعلى الإنسان تهذيبها، ولذلك يتضح هذا الأمر الفطري الحتمي في قول رسول الله ﷺ "مدرك ذلك لا محالة"، وهنا إيجاز بالحذف: والتقدير: "هو مدرك ذلك لا محالة": ولا يخفى أن صيغة اسم الفاعل مع مادة الإدراك، مع اسم الإشارة "ذلك" الذي يحدد الأمر، وقوله: "لا محالة": أي لابد منه ولا مفر من ذلك، كل هذه الإشارات اللغوية، والشفرات الأسلوبية تؤكد الأسرار التي يتضمنها قوله: "كتب على ابن آدم".

وتتوالى بعد ذلك ست جمل تمثل في مجموعها إشارات حمراء على طريق الخطيئة: فإذا تجاوزها الإنسان، ولم يلتفت إلى الخطر الكامن وراء أسوارها وقع في الهلاك.

ولنتأمل تناسق التكوين اللغوي في هذه الجمل: حيث تتكون كل منها: من مبتدأ أول: مفرد، ثم خبر جملة اسمية، تتكون من مبتدأ أو خبر، "العينان زناهما النظر"، وعلى هذا النسق تتكون باقي الجمل "والأذنان زناها الاستماع ... إلخ"، الحديث" وهذا التنسيق يماثل حرص من يرتكب مثل هذا على الترغيب والتشويق والإثارة والتخطيط، وترتيب الجوارح التي أسند إليها الزنا، من باب إطلاق اسم المسبب على السبب مجازًا، هذا الترتيب فيه إدراك لوظيفة كل جارحة، فالعينان من خلال النظر يؤديان إلى

الإعجاب، والإعجاب يرغب في الاستماع والمحادثة، والاستماع يقود إلى الكلام الجميل، وبعد ذلك يتم التقارب، ثم السعي والحركة إلى تصديق ذلك، أو الامتناع عنه، والجمل التي تصور عمل الجوارح كلها وردت في صيغة الجملة الاسمية، لأن ذلك يدل على ثبات هذه الغريزة في تلك الجوارح، أما القلب فهو قلب: ومتغير، لذلك جاءت صياغته في قالب الجملة الفعلية "يهوى ويتمنى" وختام الحديث يعد نتيجة لهذا التحرك البصري، والسمعي، واللساني، واليدوي، والتحرك الحسي، والشعور القلبي، والتصديق والتكذيب هنا على سبيل التشبيه: فإذا وقع ابن آدم في جريمة الزنا: فقد استجاب لرغباته الحسية، وغرائزه المادية، وإذا امتنع فقد كذَّب هذه المثيرات، وصان نفسه من براثن الشهوات.

فقه الحديث

يشتمل الحديث على الأحكام الفقهية الآتية:

١- إن قوله ﷺ: "مدرك ذلك لا محالة" فيه رد صريح على القدرية الذين يقولون: إن أفعال العباد غير مخلوقة فيهم، وأنهم المحدثون لها[١].

بل إنها مقدرة بتقدير العزيز العليم، على أن هذا التقدير ليس حجة للعبد بل هو معاقب على كسبه، ومثاب عليه[٢].

٢- إن النظر المحرم وإن سمى زنًا مجازًا، إلا أنه لا يترتب عليه حكم الزنا من إيجاب الحد، وإنما يجب الحد فقط في الزنا الحقيقي، وهذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما "ما رأيت شيئًا أشبه باللمم مما قاله أبو هريرة عن النبي ﷺ"[٣].

٣- إن قوله ﷺ "والأذنان زناهما الاستماع" يدل على أن صوت المرأة عورة وهو ما ذهب إليه الحنفية[٤] في قول مرجوح، والمالكية في المعتمد[٥]، والشافعية[٦] في مقابل

---

(١) اعتقاد أهل السنة ص ٦٢ لمحمد بن عبدالرحمن الخميس.

(٢) طرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ١٨٢/٨.

(٣) المرجع السابق ١٨٨/٨.

(٤) رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين ٤٣٧/١.

(٥) شرح الخرشي على مختصر خليل ٢٥٦/٣، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن عرفة الدسوقي ٢٢٩/٢.

(٦) حلية العلماء، القفال الشاشي ١١٣/٢.

الأصح، وأحمد[١] في رواية.

وذهب الحنفية[٢] في الراجح، والمالكية[٣] في قول، والشافعية[٤] في الأصح، وأحمد[٥] في رواية إلى أن صوت المرأة ليس بعورة، إذ لو كان عورة لما جاز سماع صوتها في شهادة ولا رواية[٦].

وإنما يكون سماع صوتها حرامًا إذا فعل ذلك بشهوة وتلذذ[٧].

٤- وقد يستدل بقوله ﷺ "والقلب يهوى ويتمنى" على تحريم تمني الزنا بالقلب، ولكن يعارضه ما صح وثبت من أن الخواطر، والوساوس معفو عنها وعلى ذلك فيحمل هذا على العزم على ذلك، والجزم به[٨].

٥- إذا قال شخص لآخر "زنت يدك" فهل يعد قاذفًا، ويجب عليه الحد أم لا؟

اختلف الفقهاء في ذلك على رأيين:

الرأي الأول: وهو للشافعي في قول[٩] ووجه عند الحنابلة[١٠] اقتصر عليه في المبدع[١١] أنه يعد قاذفًا، ويجب عليه الحد.

---

(١) الفروع، ابن مفلح ٢٦٠/٩.

(٢) رد المحتار على الدر المحتار ٤٣٧/١.

(٣) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن عرفة الدسوقي ٢٢٩/٢.

(٤) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٩٠/٣، وإعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ٢٦٠/٣، وحلية العلماء ١١٢/٢.

(٥) الفروع، ابن مفلح ٢٦٠/٩، واقتصر عليه في شرح منتهى الإرادات، منصور بن يوسف البهوتي.

(٦) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن عرفة الدسوقي ٢٢٩/٢، وحلية العلماء ١١٢/٢.

(٧) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن عرفة الدسوقي ٢٢٩/٢.

(٨) طرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ١٨٥/٨. والحديث عن ابي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا. "إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به" أخرجه البخاري ٦٦٦٤، ومسلم ١٢٧.

(٩) التنبيه للشيرازي ٢٤٣.

(١٠) الفروع، ابن مفلح ٩٢/٦، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ٢١٢/١٠.

(١١) المبدع في شرح المقنع، ابن مفلح ٩٢/٩.

الرأي الثاني: وهو للحنفية[١]، والمالكية[٢]، وبعض الشافعية[٣]، ووجه عند الحنابلة[٤] ويرون أنه لا يعد قاذفًا، ولا يجب عليه الحد.

واستدل للرأي الأول: بأن الأفعال إنما تضاف إلى الأيدي، كقوله عز وجل: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[٥] وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[٦]، وليس ذلك مقصورًا على جناية الأيدي دون غيرها من الأعضاء، فكأنه إذا جعل اليد زانية، صار الزنا وصفًا للذات[٧].

واستدل للرأي الثاني: بأن القائل "زنت يدك" كقوله "زنت عينك" والثاني لا يعد قذفًا بالاتفاق، فكذا الأول[٨].

والراجح: أن هذا اللفظ يعد من كنايات القذف، فإن قصد به القذف كان قاذفًا ويحد، وإلا فلا[٩].

المضامين الدعوية[١٠]

أولاً: من صفات الداعية: البيان والتوضيح.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: اجتناب الأمور المحرمة التي قد تؤدي إلى ارتكاب الفاحشة.

---

(١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٢٣/٥، ومختصر اختلاف العلماء للجصاص ٣١٦/٣.

(٢) مختصر اختلاف العلماء ٣١٦/٣.

(٣) التنبيه ٢٤٣.

(٤) الفروع، ابن مفلح ٩٢/٦، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ٢١٣/١٠.

(٥) سورة الشورى، آية: ٣٠.

(٦) سورة الحج، آية: ١٠.

(٧) طرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ١٨٩/٨.

(٨) المرجع السابق ١٨٩/٨.

(٩) مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٣٧٠/٣.

(١٠) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٦٢٤- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٢٥).

ثالثًا: من أهداف الدعوة: حماية العرض والمحافظة على سلامة ونظافة المجتمع.

رابعًا: من آداب المدعو: الحرص على تقوى الله، والبعد عن المحرمات:

أولاً- من صفات الداعية: البيان والتوضيح:

إن من أهم الصفات الرئيسة للداعية التي لا غنى له عنها البيان والتوضيح، فلقد أمر الله الأنبياء وأتباعهم أن يوضحوا الحق للناس[1]، قال تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[2] ومن ذلك ما جاء في الحديث من البيان والتوضيح لما يقترفه الإنسان من ذنوب تتعلق بجوارحه دون الفرج للتقليل منها قدر المستطاع، وأخذ الحذر منها ومن عواقبها، فقال ﷺ: "كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة، العينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطى..."، قال ابن علان: (قال السيوطي: معنى الحديث أن ابن آدم قدر عليه نصيبه من الزنا، فمنهم من يكون زناه حقيقيًا بإدخال الفرج في الفرج، ومنهم من يكون مجازيًا بالنظر المحرم ونحوه من المذكورات، فكلها أنواع من الزنا المجازي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه، أي: إما يحققه بالفرج أي بأن يحصل الإيلاج أولا بأن لا يحصل ذلك[3].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: اجتناب الأمور المحرمة التي قد تؤدي إلى ارتكاب الفاحشة:

إن بيان النبي ﷺ في الحديث للأمور التي تؤدي إلى ارتكاب الفاحشة، تحذيرٌ منها، حتى لا يقع الإنسان في المنهي عنه ولا يقترف محظورًا، ولذا كان تعبير القرآن: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾[4] قال القرطبي: (قال العلماء: قوله تعالى: "ولا تقربوا الزنا" أبلغ من أن يقول ولا تزنوا، فإن معناه لا تدنوا من الزنا[5]، وذلك كناية عن شدة النهي)[6]، قال

---

(١) فقه الدعوة، د. بسام العموش، ٢٧.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٦٦٢، ١٦٦٣.

(٤) سورة الإسراء، آية: ٣٢.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٥٣/١٠/٥.

(٦) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور ٩١/١٥/٦.

ابن عثيمين في شرحه لهذا الحديث: "فدل ذلك على الحذر من التعلق بالنساء، لا بأصواتهن، ولا بالرؤية إليهن، ولا بمسهن، ولا بالسعي لهنّ، ولا بغواية القلب لهن، كل ذلك من أنواع الزنا، والعياذ بالله، فليحذر الإنسان العاقل العفيف من أن يكون في هذه الأعضاء شيء يتعلق بالنساء، والواجب على الإنسان إذا أحس من نفسه بهذا أن يبتعد، لأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، والنظر سهم مسموم من سهام إبليس الملعون، قد ينظر المرء إلى امرأة، ولا تتعلق نفسه بها أول مرة، لكن في الثانية والثالثة حتى يكون قلبه معلقًا بها والعياذ بالله، ويصبح هيمان لا يذكر إلا هذه المرأة، إن قام ذكرها وإن قعد ذكرها، وإن نام ذكرها، وإن استيقظ ذكرها، فيحصل بهذا الشر والفتنة)[1].

وأول الأسباب وأعظمها للوقاية من ورود موارد التهلكة، غض البصر قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[2].

قال ابن كثير: (هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين، أن يغضُّوا من أبصارهم عمَّا حُرِّم عليهم، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه، وأن يغمضوا أبصارهم عن المحارم، فإن اتفق أن وقع البصر على محرَّم من غير قصد، فليصرف بصره سريعًا)[3].

لأن البصر كما يقول القرطبي: (هو الباب الأكبر إلى القلب، وأعمر طرق الحواس إليه، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته، ووجب التحذير منه، وغضه واجب عن جميع المحرمات، وكل ما تخشى الفتنة من أجله)[4].

﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ يقول ابن كثير: (أي لقلوبهم وأتقى لدينهم، كما قيل: من حفظ بصره أورثه الله نورًا في بصيرته، ويُروى في قلبه)[5].

---

(١) شرح رياض الصالحين ١٧٢٢/٢.

(٢) سورة النور، آية: ٣٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٧٢/٤.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٢٦/١٢/٦.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٧٣/٤.

وكما جاء القرآن آمرًا بغض البصر عن المحارم، كذلك جاءت السنة المطهرة بذلك تحث على غض البصر وحفظ الفرج[١].

إن الله عز وجل كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة: فزنا العين النظر، وزنا اللسان المنطق، والنفس تتمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك كله أو يكذبه.

قال ابن حجر: (قال ابن بطال: سمّى النظر والنطق زنا؛ لأنه يدعو إلى الزنا الحقيقي)[٢].

وقال ابن القيم: (فبدأ بزنى العين؛ لأنه أصل زنى اليد والرجل والقلب والفرج، ونبَّه بزنى اللسان بالكلام، وعن زنى الفم بالقبل، وجعل زنى الفرج مصدقًا لذلك إن حقق الفعل أو مكذبًا إن لم يحققه، وهذا الحديث من أبين الأشياء على أن العين تعصي بالنظر وأن ذلك زناها، ففيه ردٌّ على من أباح النظر مطلقًا)[٣].

ثالثًا- من أهداف الدعوة: حماية العرض والمحافظة على سلامة ونظافة المجتمع:

إن في تشديد الإسلام في اقتراف الفاحشة والإرشاد إلى البعد عن أسبابها ودواعيها صيانة للأعراض، وذلك بالابتعاد عن مسببات الفاحشة والتي أشير إليها في الحديث، "والاحتماء بسلطان الإيمان، فإن الإيمان قوة قاهرة غلابة أقوى من الغرائز والشهوات، وأقوى من سلطان العادات، وأقوى من كل المؤثرات، فالإيمان والمثل العُلى التي يعيش لها المؤمن تعلو به على الغرائز وسلطانها"[٤].

إن الإسلام لما أراد تطهير المجتمع من أوساخ الرذيلة وبراثن الخطيئة، ودعا إلى إشاعة النظافة الخلقية في المجتمعات، لم يقتصر على تحريم الفاحشة فحسب، بل حرم الأسباب المفضية إليها.

---

(١) انظر: "والذين هم لفروجهم حافظون"، خميس بن السعيد محمد، ٢٤٣-٢٤٦.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٣١/١١.

(٣) روضة المحبين ٨٤.

(٤) الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي، ص ٢١٧.

فمن قواعد الشرع المطهرة، أن الله سبحانه إذا حرم شيئًا، حرم الأسباب والطرق والوسائل المفضية إليه؛ تحقيقًا لتحريمه، ومنعًا من الوصول إليه، أو القرب من حماه، ووقاية من اكتساب الإثم، والوقوع في آثاره المضرة بالفرد والجماعة.

ولو حرَّم الله أمرًا، وأبيحت الوسائل الموصلة إليه، لكان ذلك نقضًا للتحريم، وحاشا شريعة رب العالمين من ذلك.

وفاحشة الزنا من أعظم الفواحش، وأقبحها وأشدها خطرًا وضررًا وعاقبةً على ضروريات الدين؛ ولهذا صار تحريم الزنى معلومًا من الدين بالضرورة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[1].

ولهذا حُرِّمت الأسباب الموصلة إليه من: السفور ووسائله، والتبرج ووسائله، والاختلاط ووسائله، وتشبه المرأة بالرجل، وتشبهها بالكافرات، وهكذا. من أسباب الرِّيبة، والفتنة، والفساد.

وتأمل هذا السر العظيم من أسرار التنزيل، وإعجاز القرآن الكريم، ذلك أن الله سبحانه لما ذكر في فاتحة سورة النور شناعة جريمة الزنى، وتحريمه تحريمًا غائيًا، ذكر سبحانه من فاتحتها إلى تمام ثلاث وثلاثين آية أربع عشرة وسيلة وقائية، تحجب هذه الفاحشة، وتقاوم وقوعها في مجتمع الطهر والعفاف، جماعة المسلمين. وهذه الوسائل الواقية: فعلية، وقولية، وإرادية، وهي:

١- تطهير الزناة والزواني بالعقوبة الحدية.

٢- التطهر باجتناب نكاح الزانية وإنكاح الزاني، إلا بعد التوبة ومعرفة الصدق فيها.

وهاتان وسيلتان واقيتان تتعلقان بالفعل.

٣- تطهير الألسنة عن رمي الناس بفاحشة الزنى، ومن قال ولا بينة، فيُشرع حد القذف في ظهره.

٤- تطهير لسان الزوج عن رمي زوجته بالزنا ولا بينة، وإلا فاللعان.

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٣٢.

٥- تطهير النفوس وحجب القلوب عن ظن السوء بمسلم بفعل الفاحشة.

٦- تطهير الإرادة وحجبها عن محبة إشاعة الفاحشة في المسلمين؛ لما في إشاعتها من إضعاف جانب من ينكرها، وتقوية جانب الفسقة والإباحيين.

ولهذا صار عذاب هذا الصنف أشد من غيره، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾[1].

ومحبة إشاعة الفاحشة تنتظم جميع الوسائل القبيحة إلى هذه الفاحشة، سواء كانت بالقول، أم بالفعل، أم بالإقرار، أو ترويج أسبابها، وهكذا.

وهذا الوعيد الشديد ينطبق على دعاة تحرير المرأة -في بلاد الإسلام- من الحجاب، والتخلص من الأوامر الشرعية الضابطة لها في عفتها، وحشمتها وحيائها.

٧- الوقاية العامة بتطهير النفس من الوساوس والخطرات، التي هي أولى خطوات الشيطان في نفوس المؤمنين ليوقعهم في الفاحشة، وهذا غاية في الوقاية من الفاحشة، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ﴾[2].

٨- مشروعية الاستئذان عند إرادة دخول البيوت، حتى لا يقع النظر على عورة من عورات أهل البيوت.

٩- تطهير العين من النظر المحرم إلى المرأة الأجنبية، أو منها إلى الرجل الأجنبي عنها.

١٠- تحريم إبداء المرأة زينتها للأجانب عنها.

١١- منع ما يحرك الرجل ويثيره، كضرب المرأة برجلها؛ ليسمع صوت خلخالها، فيجلب ذوي النفوس المريضة إليها.

١٢- الأمر بالاستعفاف لمن لا يجد ما يستطيع به الزواج، وفعل الأسباب.

والقرآن العظيم، والسنة المشرفة، مملوءان من تشريع الأسباب والتدابير الواقية من هذه الفاحشة في حق الرجال، وفي حق النساء.

---

(١) سورة النور، آية: ١٩.

(٢) سورة النور، آية: ٢١.

فمنها في حق الرجال مع الرجال: وجوب ستر عورة الرجل، فلا يجوز للرجل كشف عورته من السرة إلى الركبة.

ومنها: حجب نظر الرجل عن النساء الأجنبيات.

ومنها: حجب الرجل عن مجالسة المردان من الذكران، والنظر إليهم تلذذًا.

ومنها في حق النساء مع النساء:

ستر عورة المرأة عن المرأة.

يحرم على المرأة أن تنعت المرأة لزوجها.

ومن أعظم الأسباب والتدابير الواقية من الزنى: فرض الحجاب على نساء المسلمين، لما يحمله من حفظهن، وحياتهن في عفة وستر وتصون وحشمة وحياء، ومجافاة للخنا، وطرد لنواقضها من التبذل، والتسفل، وانتزاع الحياء[1].

رابعًا- من آداب المدعو: الحرص على تقوى الله، والبعد عن المحرمات:

جاء في الحديث بيان الزنا الحقيقي، قوله ﷺ: "ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه" وبيان الأسباب المؤدية إليه من إطلاق الإنسان العنان لجوارحه "العينان زناهما النظر والأذنان زناهما الاستماع..." وذلك تحذيرًا من التردي في مهاوي التهلكة، والحث على تقوى الله ومراقبته، والبعد عن المحرمات، وذلك بالابتعاد عن المثيرات كالنظر وغيره، والابتعاد عن أماكن الاختلاط والفجور، والتبرج والسفور، وعن مخالطة أصحاب الشهوات والمعرضين عن طاعة رب الأرض والسماوات، والعمل على تقوية الإيمان واستشعار مراقبة الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[2]، فهو سبحانه رقيب عليكم، شهيد على أعمالكم حيث أنتم، وأين كنتم من بر أو بحر، في ليل أو نهار، في البيوت أو القفار، الجميع في علمه على السواء، وتحت بصره وسمعه، فيسمع

---

(١) حراسة الفضيلة، بكر بن عبدالله أبو زيد ص ١٠٩-١١٢.

(٢) سورة الحديد، آية: ٤.

كلامكم ويرى مكانكم، ويعلم سركم ونجواكم[١] كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[٢] وقال: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾[٣]. وقال النبي ﷺ في بيان درجة الإحسان: ((أنْ تَعْبُدَ اللَّهِ كأنَّكَ تَراهُ، فإنْ لم تَكُنْ تَراهُ فإنَّهُ يراك))[٤]، فإذا ما استشعر القلب حلاوة الإيمان، والمراقبة، فإنه يستحي من مخالفة أمره وارتكاب نهيه، ولله در القائل:

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل ... خلوت ولكن قل عليّ رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما تخفى عنه يغيب[٥]

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٩/٨.

(٢) سورة هود، آية: ٥.

(٣) سورة الرعد، آية: ١٠.

(٤) أخرجه البخاري ٥٠، ومسلم ٨.

(٥) انظر: التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد، ص ٢٤٤، ٢٤٥.

الحديث رقم (١٦٢٥)

١٦٢٥ - وعن أَبي سعيد الخُدريِّ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، قَالَ: ((**إيّاكُمْ والجُلُوس فِي الطُّرُقَاتِ**)) قالوا: يَا رسولَ الله، مَا لَنَا مِنْ مَجَالِسِنَا بُدٌّ، نَتَحَدَّثُ فِيهَا. فَقَالَ رسولُ الله ﷺ: ((**فَإِذَا أَبَيْتُمْ إلاَّ المَجْلِسَ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ**)) قَالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ يَا رسولَ اللهِ؟ قَالَ: ((**غَضُّ البَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، والأمرُ بالمَعْرُوفِ، والنَّهيُ عنِ المُنْكَرِ**)) متفق عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٠).

غريب الألفاظ:

غَضُّ البصر: خَفْضُه وكفُّه[2].

كفُّ الأذى: مَنْعُهُ[3].

المعروف: اسم جامع لكل ما عُرف من طاعة الله والتقرب إليه من الإحسان إلى الناس، وكل ما ندب إليه الشرع[4].

المنكر: كل ما قبَّحه الشرعُ وكرِهَهُ[5].

الشرح الأدبي

يموج هذا الحديث بعدة ظواهر فنية وأسلوبية تساعد القارئ والمتلقي على فهم المعنى، واستنباط الدروس المستفادة من هذه المحاورة بين النبي ﷺ وأصحابه الذين

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٢٩)، ومسلم (٢١٢١)، والسياق للحميدي في جمعه (٤٣٥/٢، رقم ١٧٤٩)، وتقدم برقم (١٩٠). أورده المنذري في ترغيبه (٤٥٠٩).

(٢) الصحاح في (غ ض ض).

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ك ف ف).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ر ف).

(٥) المرجع السابق في (ن ك ر).

استمعوا إليه، وأول ظاهرة أسلوبية تتمثل في مفتتح الحديث: وهي: أسلوب التحذير، وهو تنبيه المخاطب إلى أمر مذموم ليجتنبه، وهذه الصيغة التحذيرية تتفق مع مضمون الحديث الشريف، لأنه يحذر من سلوكيات اجتماعية فصلها الحديث بعد ذلك.

وصيغة الحوار والسؤال والجواب: بين رسول الله ﷺ والحاضرين من أصحابه تضفي على الحديث صيغة التعليم والتوجيه والإقناع؛ وأسلوب الشرط: المتضمن للاستثناء في قوله: "فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه"، هذا الأسلوب يرشد إلى أن الجلوس في الطرقات ليس اختيارًا، ولكنه استثناء، ولظروف خاصة، وهو له شروط وآداب وسلوكيات لا بد أن تُتبع، وإلا فهو غير مباح، ويظل في دائرة التحذير التي بُدئ بها الحديث الشريف، والخطاب في الحديث، للصحابة، ولكل المسلمين في كل عصر لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ومن سمات البلاغة في هذا الحديث الإيجاز: فكل معلم من معالم حق الطريق في هذا الحديث يعد بابًا واسعًا، وأفقا رحبا من السلوكيات التي تجعل المجتمع آمنًا، والحرمات مصونة، والأعراض محمية.

ولنتأمل التناسق في البناء اللغوي لهذه المعالم الخمسة، فهي كلها مصادر ثلاثية مضافة إلى ما بعدها، وهي كلها حق الطريق، وهي: "غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر"، وتأمل الطباق بين قوله: "الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر"، وفي ذلك إرشاد إلى أن المسلم لا يكون سلبيًا بل يلتزم بالسلوكيات الصحيحة الثلاثة الواردة في أول هذه الحقوق، ثم يرشد غيره ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر، والمعروف والمنكر، كلمتان جامعتان لكل المأمورات والمنهيات، وهذا الإيجاز المفيد من أدق أسرار بلاغة الرسول الكريم ﷺ.

فقه الحديث

يشتمل هذان الحديثان على الأحكام الفقهية الآتية:

١- وجوب غض البصر عن النظر إلى العورات، وإلى جميع المحرمات، وكل ما يخشى الفتنة منه[1]، وقد قال النبي ﷺ لعلي ((لا تُتبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ، فإنَّما لَكَ

---

(١) شرح ابن بطال على صحيح البخاري ١٢/١١٠.

الأولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الآخِرَةُ))[١].

٢- وجوب كف الأذى، ويدخل في كف الأذى: اجتناب الغيبة، وظن السوء واحتقار بعض المارين، ومن الأذى أيضًا: تضييق الطريق على المارين، أو منع النساء من الخروج في أشغالهن بسبب قعود القاعدين في الطريق، أو أن يجلس بقرب باب دار إنسان يتأذى بذلك، أو حيث يكشف من أحوال النساء شيئًا يكرهونه[٢].

٣- وفيه لزوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووجوب رد السلام، إذ هو فرض بالإجماع، فإن كان السلام على واحد كان الرد فرض عين عليه، وإن كان على جماعة كان الرد فرض كفاية في حقهم، إذا رد أحدهم سقط الحرج عن الباقين[٣].

٤- وفيهما: كراهية الجلوس في الطرقات، لما فيه من التعرض للفتن، والإثم بمرور النساء، وقد يمتد نظر إليهن، أو فكر فيهن، أو سوء ظن بهن، إلى غير ذلك من الأمور التي يمكن تجنبها بعدم الجلوس في الطرقات[٤].

٥- وفيهما: الندب إلى لزوم المنازل التي يسلم لازمها من رؤية ما يكره رؤيته وسماع ما يجب عليه إنكاره، ومن معاونة مستغيث يلزمه إعانته، وذلك لأن رسول الله ﷺ إنما أذن في الجلوس بالأفنية، والطرق بعد نهيه عنه، لمن قام بالمعاني التي ذكرها رسول الله ﷺ[٥].

المضامين الدعوية[٦]

(١) أخرجه الترمذي ٢٧٧٧، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١٩٠٣.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ١٠٢/١٤، ١٤٢.

(٣) المرجع السابق ٣٢/١٤.

(٤) المرجع السابق ١٤٢/١٤.

(٥) شرح ابن بطال على صحيح البخاري ١١٠/١٢.

(٦) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٦٢٦)

١٦٢٦ - وعن أبي طلحة زيد بن سهل ﵁ قال: كُنَّا قُعُودًا بالأفْنِيَةِ نَتَحَدَّثُ (فِيهَا)[١] فَجَاءَ رسولُ اللهِ ﷺ فَقَامَ عَلَيْنَا، فَقَالَ: ((مَا لَكُمْ وَلِمَجَالِسِ الصُّعُدَاتِ؟ اجْتَنِبُوا مَجَالِسَ الصُّعُدَاتِ)) فقُلْنَا: إنَّمَا قَعَدْنَا لِغَيْرِ مَا بَأسٍ، قَعَدْنَا نَتَذَاكَرُ، وَنَتَحَدَّثُ. قَالَ: ((إمَّا لاَ فَأدُّوا حَقَّهَا: غَضُّ البَصَرِ، وَرَدُّ السَّلاَمِ، وَحُسْنُ الكَلاَمِ)). رواه مسلم[٢].

ترجمة الراوي:

أبو طلحة الأنصاري: وهو الصحابي الجليل زيد بن سهل بن الأسود بن حرام بن عمرو بن زيد، النَّجَّاري، الخزرجي، الأنصاري، المدني، صاحب رسول الله ﷺ، يكنى بأبي طلحة واشتهر بها وباسمه، وهو من فضلاء الصحابة، وهو زوج أم سليم بنت مِلْحان أم أنس بن مالك، وعقبه منها، روى عن النبي ﷺ، وروى له الجماعة، وكان قد ولد بالمدينة المنورة، ولما ظهر الإسلام كان من أكبر أنصاره، فكان أحد النقباء في بيعة العقبة، ولما هاجر رسول الله ﷺ والمسلمون إلى المدينة آخى رسول الله ﷺ بينه وبين أبي عبيدة بن الجراح، شهد بدرًا وأحدًا، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ فكان من الذين أبلوا بلاءً حسنًا، وسطر له التاريخ الإسلامي صفحات مضيئة، أوضحت أنه كان من الرماة المذكورين، والشجعان المعدودين من أصحاب رسول الله ﷺ ففي حنين قتل أبو طلحة يومئذ عشرين رجلاً وأخذ أسلابهم، وقبل حنين، في أحد كان يقي رسول الله ﷺ بنفسه ويرمي بين يديه، فأشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم فيقول أبو طلحة يا نبي الله بأبي أنت وأمي لا تُشرف يُصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك[٣] وما زال مجاهدًا في سبيل الله حتى مات، فعن أنس ﵁ أن أبا طلحة ﵁ قرأ القرآن ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً﴾[٤] فقال: أن تستنفروا شيوخًا وشبانًا،

---

(١) (فيها) لا توجد عند مسلم.

(٢) برقم (٢١٦١/٢).

(٣) أخرجه البخاري ٣٨١١.

(٤) سورة التوبة، آية: ٤١.

فقالوا: أبانا لقد غزوت مع النبي ﷺ حتى مات ومع أبي بكر وعمر، فنحن نغزو عنك، فأبى فركب البحر حتى مات، فلم يجدوا جزيرة يدفنوه إلا بعد سبعة أيام، قال فما تغير[1].

كان متحليًا بمكارم الأخلاق، وعنها حدث ولا حرج، فكان كريمًا معطاءً وقصة استضافته لضيف رسول الله ﷺ مشهورة مسجلة في الصحاح، فقال لامرأته ((ضيفُ رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئًا، قالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية، قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوِّميهم وتعالَيْ فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة ففعلت ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال: لقد عجب الله عز وجل أو ضحك من فلان وفلانة، فأنزل الله عز وجل ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[2]، [3] تصدق بحديقته البيْرحاء وكانت أحب أمواله إليه، فقال له رسول الله ﷺ بَخٍ بَخٍ، ذلك مال رابح، أو مال رايح))[4].

وكان شديد الحب لرسول الله ﷺ فقابله النبي ﷺ بحب لا نظير له، ففي حجة الوداع لما حلق النبي رأسه خصه بشعر شقه الأيمن ووزع الشق الآخر على الناس ((... ثم دعا أبا طلحة الأنصاري فأعطاه إياه ثم ناوله الشق الأيسر فقال احلق فحلقه فأعطاه أبا طلحة فقال: اقسمه بين الناس))[5] وكان النبي ﷺ يزوره في بيته ويداعب أولاده ومنهم أبو عمير، ويصلي في بيته، فعن أنس قال ((كان النبي ﷺ أحسن الناس خُلقا، وكان لي أخ يقال له: أبو عُمير، قال: أحسبه فطيمًا، وكان إذا جاء قال: يا أبا عمير ما فعل النُّغَيْر؟ نغير كان يلعب به، فربما حضر الصلاة وهو في بيتنا فيأمُرُ بالبِساط الذي تحته فيُكنس ويُنْضَح ثم يقوم، ونقوم خلفه، فيصلى بنا))[6].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢٥٤٩. وقال الحاكم: هذا صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٢) سورة الحشر، آية: ٩.

(٣) أخرجه البخاري ٤٨٨٩.

(٤) أخرجه البخاري، ٤٥٥٤.

(٥) أخرجه مسلم ٣١٥٥.

(٦) أخرجه البخاري ٦٢٠٣.

وكان أبو طلحة هو الذي حفر قبر النبي ﷺ، ولحده.

توفي أبو طلحة رضي الله عنه بالشام، وقيل بالمدينة سنة (٣٢) أو (٣٤)، وهو ابن سبعين سنة، وجزم ابن حجر والمدائني وغيرهما بأنه مات سنة (٥١هـ)[١].

غريب الألفاظ:

بالأفنية: جمع فناء: وهو حريم الدار ونحوها وما كان في جوانبها وقريبًا منها[٢].

الصعدات: جمع صُعُد وهي الطرق، وصُعُد جمع صعيد، وقيل: جمع صُعدة وهي فناء باب الدار وممرّ الناس بين يديه[٣].

لغير ما بأس: ما هنا زائدة، وبأس: مانع وحرج والمعنى: أن قعودنا لمباح لا لأمر فيه بأس شرعًا [٤].

الشرح الأدبي

ما أجمل هذا المشهد الواقعي، وما أصدق هذا الحوار بين رسول الله ﷺ وبعض أصحابه: حيث الإصغاء والاستجابة لتعاليم رسول الله ﷺ بعد حوار جميل واقتناع وتسليم واتباع لسنة المصطفى ﷺ.

---

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد (٣/٦٥٤-٥٠٧)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر (٨٢٥، ٨٢٦)، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (١٧٨/٦، ١٧٩)، الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي (٤٥٠، ٤٥١)، سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط (٢/٢٧-٣٤)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٧٩/٣)، (٣٤٥/٨، ٣٤٦)، تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٦٦٦/١)، السندي (٢٦٤/٢٦)، الأعلام، خير الدين الزركلي (٥٨/٣، ٥٩)، موسوعة عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك (٢٠٧٣/٣-٢٠٧٥).

(٢) شرح مسلم، النووي ١٣٥٤.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ص ع د).

(٤) انظر: شرح صحيح مسلم، النووي ١٣٥٤، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ب أ س)، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٦٦٤.

ويبدأ الحديث بالفعل "كنا" وكان فعل ماض ناقص، وهذا البدء بهذا الفعل يدل على أن الجلوس في الصعدات كان من باب العادة والإلف، وهو سلوك مضى وانتهى بعد توجيهات الرسول ﷺ، وإذا حدث فهو مؤطر بإعطاء الطريق حقها، والفعل "كنا" يفصح عن صيغة الحكاية التي اتسم بها الأسلوب في هذا الحديث.

والتعبير بقوله: "نتحدث فيها". تصوير لحال هؤلاء الصحابة وهم قعود بالصعدات، والجمع بين قولهم، "نتذاكر ونتحدث" ليس إسهابًا، ولكن لكل فعل دلالته، فقولهم: "نتذاكر" أي أنهم جادون يتذاكرون مسائل العلم، وقولهم: "نتحدث" يدل على أنهم يتكلمون في الأمور المباحة من أمورهم الدنيوية، فهم يجمعون بين العلم والأمور العامة، وقولهم "لغير ما بأس" يفصح عن طبيعة أحاديثهم التي لا تخوض في الأمور المنهي عنها؛ وقولهم: "فجاء... فقام علينا"، يوحي بالتأمل واستنكار ما يحدث.

وهذا الاستنكار جاء صريحًا في ذلك الاستفهام الإنكاري، "ما لكم ولمجالس الصعدات؟؟!!!".

واختيار لفظ "الصعدات" والعدول عن لفظ "الطرقات"، ليس من باب الترادف، ولكن لتحديد طبيعة المجلس، ونوع الضرر الناتج عنه: فالصعدات هي: الطرق أو الممرات التي يصعد منها أصحاب الدور لحوائجهم، ويأتي الإنكار أكثر صراحة في صيغة الأمر: حيث قال رسول الله ﷺ "اجتنبوا مجالس الصعدات".

وفي قوله: "إما لا فأدوا حقها"، إيجاز وبلاغة نابعة من سياق ومراعاة مقتض الحال، فبعد الحوار. والتفصيل أصدر الرسول أوامره الرشيدة في إيجاز بليغ، وأسلوب رقيق دقيق، وأوجز للإيحاء بسرعة الاستجابة للمحافظة على حقوق الطريق، وقد حذفت كان واسمها، وحذف الخبر الواقع بعد "لا" في قوله: "إما لا" والتقدير: إن كنتم لا تتركونها: فأدوا الطريق حقها، فالإيجاز هنا إيحاء بضرورة الإسراع والتنفيذ، وهذا الأسلوب الشرطي: يؤكد حتمية مراعاة آداب الطريق، وأداء حقها وهي: غض البصر، ورد السلام، وحسن الكلام، اتباعًا لأمر المصطفى ﷺ.

المضامين الدعوية

أولاً: من آداب الداعية: تفقد أحوال المدعوين وسؤالهم والوقوف على أحوالهم.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: أهمية الالتزام بآداب حق الطريق.

رابعًا: من أهداف الدعوة: تعليم المدعوين مراعاة الآداب الإسلامية للجلوس على الطرق.

أولاً- من آداب الداعية: تفقد أحوال المدعوين وسؤالهم والوقوف على أحوالهم:

جاء في الحديث الأنموذج التطبيقي لذلك والمثل الحي في تفقد النبي ﷺ في الحديث لصحابته "فجاء رسول الله ﷺ فقام علينا" أي وقف علينا[1] وتلك من آداب الداعية الناجح، فالدعوة لا تقف عند مجرد الخطب والمواعظ، وإنما يضاف إلى ذلك الدعوة الحركية التنفيذية، وذلك أن الطبيعة التنفيذية سر مشبوب لا مدى لقواه الهائلة، ومن شأنه هذا أن يجعل صاحبه حركة دائبة، لا يكف عن الدعوة، ولا يخمد عن العمل، يزور هذا ويدعو ذاك، ويتحدث إلى آخر، ويدور على الأندية والمجالس وغير ذلك، ويقف على أحوال الناس، فالداعية لا يخلد إلى راحة، ولا يركن إلى دعة، فراحته في تعبه، وسعادته في دعوته[2].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

ورد ذلك في الحديث "فقال: ما لكم ولمجالس الصعدات؟ اجتنبوا مجالس الصعدات، فقلنا: إنما قعدنا لغير ما بأس، قعدنا نتذاكر ونتحدث..." وأسلوب السؤال والجواب من الأساليب الدعوية ذات القيمة التأثيرية العالية، فالسؤال يجعل المدعوين في حالة استعداد فكري ونفسي لمعرفة الإجابة على الأسئلة المطروحة، وهذا الاستعداد أمر مهم جدًا لتلقف المعرفة واختزانها في الذاكرة، ثم لتطبيق إرشاداتها في السلوك، لذا ينبغي على الداعية أن يستثمر هذا الاستعداد إلى أقصى حد ممكن[3] وقد استخدم

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ١٦٦٤

(٢) تذكرة الدعاة، البهي الخولي، ص ٢٥٤.

(٣) انظر: فقه الدعوة إلى الله، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ص ٥٨، ٦٠.

القرآن أسلوب السؤال والجواب في كثير من آياته، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾[١] وقوله ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾[٢] وذلك استفهام تمهيدي للفت الأنظار والتنبيه إلى ما جاء في الجواب عنه[٣].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: أهمية الالتزام بآداب حق الطريق:

إن الإسلام كله أدب وذوق رفيعان، لم يصل إليهما، بل لم يعرفه بنو آدم من قبل أن يمن الله علينا بهذا الدين، وما كان لهم أن يكون لهم ذلك بغير تعليم العليم الخبير لهم وتربيته وتزكيته لهم، فالإسلام كله ناطق بهذه السمة في تعاليمه وأحكامه كلها[٤]، والتي منها ما شرعه الإسلام من آداب للطريق، والتي وردت في الحديث "فأدوا حقها: غض البصر ورد السلام وحسن الكلام"، قال القاضي عياض: (قد تبين من هذا معنى علة ما نهى عنه من الجلوس على الطرقات، من التعرض للفتن بحضور النساء، وخوف ما يلحق من ذلك من النظر إليهن والفتنة بسببهن، ومن التعرض لحقوق الله والمسلمين بما لا يلزم الإنسان إذا كان في بيته، وحيث ينفرد أو يشتغل بما يلزمه، ومن رؤية المناكر وتعطيل المعارف، فيجب على المسلم الأمر والنهي عند ذلك، فإن ترك ذلك، فقدتعرض لمعصية الله.

وكذلك هو يتعرض لمن يمر عليه ويسلم، وربما كثر ذلك عليه فيعجز عن رد السلام على كل مارٍ، ورده فرض، فيأثم، والمرء مأمور ألا يتعرض للفتن، ولا لإلزام نفسه ما لعله لا يقوم بحقه فيه، فندبهم النبي ﷺ إلى ترك هذا، فلما أعلموه أنه لابد لهم من ذلك، لما يقصده الإنسان بمجالسة جيرته وأصحابه في أفنية منازلهم، لترويح

---

(١) سورة الصف، آية: ١٠، ١١.

(٢) سورة النازعات، آية: ١٥.

(٣) انظر: تفسير النسفي المسمى مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي، ص ١٣١٨.

(٤) الأخلاق الفاضلة، د. عبدالله بن ضيف الله الرحيلي، ص ١٦٩.

قلوبهم وقضاء حوائجهم، والمباحثة عن أحوالهم. قال لهم: إن أبيتم إلا ذلك فأدوا الحقوق اللازمة لكم.

وفيه دليل، أن أمره عليه السلام لم يكن لهم على الوجوب، وإنما كان على طريق الترغيب والحض لما هو أولى، إذ لو فهموا منه الوجوب لم يراجعوه هذه المراجعة، وقد يحتج به من لا يرى الأوامر على الوجوب، وفيه حجة على وجوب رد السلام، وحجة على أن الماشي يسلم على القاعد.

وأما قوله: "وكف الأذى": فيحتمل أن يكف أذى الناس بعضهم عن بعض، وهو من نحو قوله: "والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" وقد يكون أن تكف أذاك عن المار فيه بألا تجلس حيث يضيق عليه الطريق، أو من يتأذى بجلوسك على باب منزله، أو طريق واردته، أو حيث يكشف عياله، أو ما يريد التستر به من حاله.

وقوله: "وحسن الكلام": ندب إلى حسن معاملة المسلمين بعضهم لبعض، وأن الجالس على الطريق يمر به العدد الكثير من الناس، فربما سألوه عن بعض شأنهم، ووجهة طرقهم، فيجب أن يتلقاهم بالجميل من الكلام، ولا يتلقاهم بالضجر وخشونة اللفظ، ولعل هذا من باب كف الأذى المتقدم[1].

قال ابن حجر: "وقد تبين من سياق الحديث، أن النهي عن ذلك للتنزيه لئلا يضعف الجالس عن أداء الحق الذي عليه، وأشار بغض البصر إلى السلامة من التعريض للفتنة بمن يمر من النساء وغيرهن، وبكف الأذى إلى السلامة من الاحتقار والغيبة ونحوها، وبرد السلام إلى إكرام المار، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى استعمال جميع ما يشرع وترك جميع ما لا يشرع[2].

إن طرقاتنا في حاجة إلى ما يزيل ما أصابها من قذارة حسية وأخلاقية.

لقدشرع إسلامنا آداب الطريق وألزمنا بها وأمرنا بإماطة الأذى عنها أيًا كان نوعه حسيًا كان أم أدبيًا. إن مما يدخل في أذى الطريق ما نراه ونسمعه في غدونا ورواحنا من

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم المسمى، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٤٤/٧.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١٣٥/٥.

مخالفات شرعية، وفوضى أخلاقية من سب للدين وقذف للمحصنات، وهتك للعورات، وعري فاضح، ومشاهد مرذولة، وشتم ولعن، وتضييق على المسلمين، ومعاكسات للفتيات، ونظرات خائنة، وغمز ولمز، وغيبة ونميمة، وإذلال للمسلمين، وأصوات عالية تضج بها المحلات والمقاهي ينبعث منها غناءٌ فاضح، دون محافظة على مشاعر الناس، ودون مراعاة لمريض يبحث عن الراحة!!

أليست كل هذه المخالفات تُعد أذى؟! أليس أصحاب هذه الجرائم يستحقون التأديب والتأنيب؟![1]

رابعًا- من أهداف الدعوة: تعليم المدعوين مراعاة الآداب الإسلامية للجلوس على الطرق:

إن تعليم المدعوين الآداب الإسلامية للجلوس على الطرق من الأهداف الدعوية التي لا يستهان بها، لذا أمر النبي ﷺ باستصحاب هذه الآداب وتطبيقها، ومن هذه الآداب ما جاء في الحديث "غض البصر ورد السلام وحسن الكلام" قال النووي: (ونحو ذلك من الأسباب التي لو خلا في بيته سلم منها، ويدخل في الأذى أن يضيق الطريق على المارين، أو يمتنع النساء ونحوهن من الخروج في أشغالهن بسبب قعود القاعدين في الطريق، أو يجلس بقرب باب دار إنسان يتأذى بذلك، أو حيث يكشف من أحوال الناس شيئًا يكرهونه)[2] وإن الالتزام بالآداب الإسلامية والتمسك بها سبب لرقي المجتمع وانتظامه وسعادته، ويتمثل فيها مدى انتصار الإنسان على النفس، وسرعته في الاستجابة، وقوته في الانقياد للأمر، مهما يكن مخالفًا للعادات، مصادمًا للشهوات[3].

لقد ضمنت السنة النبوية حقوق الطريق، وحقوق الطريق التي بينها رسول الله ﷺ هي: (غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، وأمرٌ بالمعروف ونهيٌ عن المنكر) وهذه الحقوق ليست من باب الحصر، وإنما هي بعضها، وقد بينت أحاديث أخر حقوقًا للطريق غير هذه، فعُلم أن المذكورات التي في الحديث ليست من باب الحصر.

---

(١) انظر: موسوعة الحقوق الإسلامية، سعد يوسف عزيز، ٣٣٢.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ١٣٥٤.

(٣) انظر: الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي، ص ٢٢٨، ٢٢٩.

أ-غض البصر: الأمر بغض البصر يشترك فيه الرجال والنساء على حد سواء، وذلك؛ لأن إطلاق البصر فيما يحرم يجلب عذاب القلب وألمه، وهو يظن أنه يروح عن نفسه ويبهج قلبه، ولكن هيهات. وأعظمهم عذابًا مدمنهم، وكماقال ابن تيمية: تعمد النظر يورث القلب علاقة يتعذب بها الإنسان، وإن قويت حتى صارت غرامًا وعشقًا زاد العذاب الأليم، سواء قدر أنه قادر على المحبوب أو عاجز عنه، فإن كان عاجزًا فهو في عذاب أليم من الحزن والهم والغم، وإن كان قادرًا فهو في عذاب أليم من خوف فراقه، ومن السعي في تأليفه وأسباب رضاه[1]. وأصل ذلك ومبدؤه من النظر، فلو أنه غض بصره لارتاحت نفسه وارتاح قلبه.

إن الشرع المطهر لم يغفل ما قد يقع من الناس بدون قصد منهم، بل أمر من نظر إلى امرأة أجنبية بدون قصد منه أن يصرف بصره عنها ولا يتمادى. قال جرير بن عبدالله ﵁: ((سألت رسول الله ﷺ عن نَظْرة الفُجاءة فأمرني أن أصرف بصري))[2]. ومعنى نظر الفجأة: أن يقع بصره على الأجنبية من غير قصد فلا إثم عليه في أول ذلك، ويجب عليه أن يصرف بصره في الحال، فإن صرف في الحال فلا إثم عليه، وإن استدام النظر أثم لهذا الحديث[3].

ب-كف الأذى: ومن حقوق الطريق، كف الأذى، وعدم إيذاء الناس في أبدانهم أو أعراضهم. وفي الحديث الذي رواه عبدالله بن عمرو ﵄، أن النبي ﷺ قال: ((المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده... الحديث))(٤). والحديث من جوامع كلمه ﷺ، فيشمل اللسان من تكلم بلسانه وآذى الناس في أعراضهم أو سبهم، ويشمل من أخرج لسانه استهزاء وسخرية. وكذا اليد فإن أذيتها لا تنحصر في الضرب، بل تتعداها إلى أمور أخر كالوشاة بالناس والسعي في الإضرار بهم عن طريق الكتابة، أو القتل ونحو

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٥٦/١٤، ١٥٧.

(٢) أخرجه مسلم ٢١٥٩.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي، ٤٠٣.

(٤) أخرجه البخاري ٢١٠، ومسلم ٤٠.

ذلك. بل إن من محاسن هذا الدين أن كان كف المرء شره وأذاه عن الناس صدقة يتصدق بها على نفسه. جاء ذلك صريحًا في حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم: ((أي العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله وجهادٌ في سبيله. قلت: فأي الرقاب أفضل. قال: أعلاها ثمنًا وأنفسها عند أهلها. قلت: فإن لم أفعل؟ قال: تعين صانعًا أو تصنع لأخرق. قال: فإن لم أفعل؟ قال: تدعُ الناس من الشر فإنها صدقةٌ تصدق بها عن نفسك)) وعند مسلم: ((تكف شرك عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك))[1].

ج- رد السلام: ومن حقوق الطريق: رد السلام، وهو واجب لقوله صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: ((خمس تجب للمسلم على أخيه رد السلام، وتشميت العاطس، وإجابة الدعوة، وعيادة المريض، واتباع الجنائز))[2]. وقد قصَّر في هذا الباب خلقٌ كثير، واقتصر سلامهم على المعرفة، فمن عرفوه سلموا عليه أو ردوا عليه سلامه، ومن لم يعرفوه لم يعيروه اهتمامًا. وهذا خللٌ ومخالفة للسنة.

د- وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: هذا باب عظيم الشأن والقدر، به كانت هذه الأمة خير الأمم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[3]. قال ابن كثير: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه من سره أن يكون من تلك الأمة فليؤد شرط الله فيها، رواه ابن جرير، ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾[4].

وبتركه يحل بهم العقاب، فقد روى الإمام أحمد في مسنده قال: ((قام أبوبكر رضي الله عنه فحمد الله عز وجل وأثنى عليه فقال: أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾[5] إلى آخر الآية، وإنكم تضعونها على

(١) أخرجه البخاري ٢٥١٨، ومسلم ٨٤.
(٢) أخرجه البخاري ١٢٤٠، ومسلم ٢١٦ واللفظ له.
(٣) سورة آل عمران، آية: ١١٠.
(٤) سورة المائدة، آية: ٧٩.
(٥) سورة المائدة، آية: ١٠٥.

غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الناس إذا رأوا المنكر، لا يغيروه، أوشك الله أن يعمهم بعقاب))[١].

وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فوائد عظيمة للأمة، منها: نجاة سفينة المجتمع من الهلاك والغرق، ومنها: قمع الباطل وأهله، ومنها: كثرة الخيرات والحد من الشرور، ومنها: استتباب الأمن، ومنها: نشر الفضيلة وقمع الرذيلة... إلخ.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس مقصورًا على جهةٍ معينة "كالهيئة مثلاً" أو أُناس معينين "كرجال الحسبة"، بل إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبٌ على كل أحد، كلٌ بحسب استطاعته. والحديث الوارد في ذلك عامٌ لم يخصص أحدًا من أحد. قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطيع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)). وينبغي عليه إرشاد السائل عن الطريق، وهدايته إليه، سواءٌ كان ضالاً أو أعمى، وجاء هذا الحق مصرحًا به في حديث أبي هريرة رضي الله عنه في قصة الذين سألوا النبي ﷺ عن حق الطريق قال: ((وإرشاد السبيل))[٢][٣]. وفي حديث آخر لأبي هريرة رضي الله عنه ما يبين أن هداية السبيل من الصدقات، قال: قال رسول الله ﷺ: ((ودل الطريق صدقة))[٤].

هـ- إزالة الأذى من الطريق: من الآداب المستحبة في الطريق؛ إزالة الأذى عن الطريق، بل هي من الإيمان: قال ﷺ: ((الإيمان بضعٌ وسبعون شعبة أو بضعٌ وستون شعبة، فأفضلها قولُ لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان))[٥].

---

(١) أخرجه أحمد ٢/١ رقم ١، وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين ١٧٨/١.

(٢) أخرجه مسلم ٤٩.

(٣) أخرجه أبو داود ٤٨١٥، وقال الألباني: حديث حسن صحيح (صحيح سنن أبي داود ٤٠٢١).

(٤) أخرجه البخاري ٢٨٩١.

(٥) أخرجه البخاري ٩، ومسلم ٣٥ واللفظ له.

وهي من الصدقات، وبسببها أُدخل رجلٌ الجنة. ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((كل سُلامي من الناس عليه صدقة... ثم قال: وتميط الأذى عن الطريق صدقة))[1]. وعنه أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: ((بينما رجل يمشي بطريق وجدغُصن شوك على الطريق فأخره، فشكر الله له فغفر له... الحديث)) وعند أبي داود: قال رسول الله ﷺ: ((نزع رجلٌ لم يعمل خيرًا قط غُصن شوك عن الطريق، إما كان في شجرة فقطعه وألقاه، وإما كان موضوعًا فأماطه، فشكر الله له بها فأدخله الجنة))[2][3].

و-حسن الكلام: قال النووي في شرح الحديث (وأما حسن الكلام فيدخل فيه حسن كلام الجالسين في الطرقات ونحوها في حديثهم بعضهم لبعض، فلا يكون فيه غيبة ولا نميمة ولا كذب ولا كلام ينقص المروءة، ونحو ذلك من الكلام المذموم، ويدخل فيه كلامهم للمار من رد السلام، ولطف جوابهم له، وهدايته للطريق وإرشاده لمصلحته ونحو ذلك[4].

وبهذا قد جمع الحديث آداب الطريق، نظمها ابن علان فقال:

آداب من يجلس في الطريق من قول طه خذه بالطريق

أفش السلام وأحسن الكلام عن ... مظلوم واللهفان غث رفيقي

ومُرْ بعرف وانه عن منكر وكف ... أذى وغض الطرف يا صديقي

وشمت العاطس إن يحمد أعن ... في الحمل وأكثر ذكر ذي التوفيق

ورد تسليمًا واهد حائرًا ... والزم تقى الديان بالتحقيق[5]

---

(١) أخرجه البخاري ٢٩٨٩، ومسلم ١٠٠٩ واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري ٦٥٤، ومسلم ١٩١٤ واللفظ له.

(٣) انظر: كتاب الآداب، فؤاد بن عبدالعزيز الشلهوب، ٣٠٤-٣٠٨.

(٤) انظر: شرح صحيح مسلم، النووي ١٣٥٥.

(٥) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٦٦٤.

الحديث رقم (١٦٢٧)

١٦٢٧ – وعن جرير ﷺ قَالَ: سألت رسول الله ﷺ عن نَظَرِ الفَجْأَةِ فَقَالَ: ((اصْرِفْ بَصَرَكَ)). رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

جرير بن عبدالله البجلي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٧١).

الشرح الأدبي

إن الإيجاز، والاختصار، وحذف فضول الكلام: يعد من شروط الفصاحة والبلاغة، لأنه يعبر عن المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة، وأسلوب النبي ﷺ، في أحاديثه الشريفة يجمع بين خاصيتي: البلاغة والإيجاز، فليست فيه ألفاظ زائدة على المعنى، لأن الزيادة اللفظية تعد عيبًا من عيوب فصاحة اللسان العربي، وخاصية الإيجاز في كلام المصطفى ﷺ، تعد صدى مضيئًا وترجمانًا بيانيًا صادقًا لقوله ﷺ: ((أوتيت جوامع الكلم))[2].

وهذا الحديث: تطبيق عملي للإيجاز والبلاغة النبوية، لأنه سؤال من جرير وهو ابن عبدالله البجلي الصحابي، حيث سأل رسول الله ﷺ عن أمر شائع يحدث للكثيرين وهو "نظر الفجأة"، ونظر الفجأة أي الذي يحدث بغتة من غير قصد، والدلالة اللغوية تفصح عن ذلك: فالفعل "فاجأه" معناه هجم عليه، والمفاجئ: يطلق على الأسد.

ولهذا السؤال دلالة لازمة له: وهي تفهم من سياق الحديث، وكأنه يريد أن يقول: هل عليَّ إثم وعقوبة؟ وكيف أنجو من ذلك وأحذره، وهو يأتي بغتة؟!

---

(١) برقم (٤٥/٢١٥٩)، واللفظ لأبي داود (٢١٤٨). أورده المنذري في ترغيبه (٢٨٤٧). تنبيه: الحديث أورده المنذري وعزاه إلى مسلم، وأبي داود، والترمذي واللفظ لأبي داود، ولما نقله النووي إلى هنا، أسقط المصدرين وبقي اللفظ لأبي داود.

(٢) أخرجه مسلم ٥٢٣.

وتأتي إجابة المصطفى ﷺ: موجزة مقنعة مريحة: تطمئن السائل، وتبدد قلقه وحيرته: حيث قال له: ولكل من يقع في مثل ذلك الموقف الحرج: "اصرف بصرك"، أي تحول ببصرك عن المنظور إليه من غير قصد؛ والمسكوت عنه الذي يفهم من موحيات هذا الأمر النبوي: هو: إنك إذا لم تصرف بصرك أثمت بدوام النظر لما يحرم النظر إليه.

ولم يقل : غض البصر: لأن الغض هو أمر بعدم النظر... أما في هذا الموقف فالرجل نظر، ولكنه "نظر الفجأة"، فلفظ غض لا يتناسب مع المقام والسياق، ولكل مقام مقال.

فقه الحديث

يشتمل هذا الحديث على الأحكام الفقهية الآتية:

١- وجوب غض البصر في جميع الأحوال، وذلك للحديث، ولقول الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾[١].

ويستثنى من وجوب الغض، ما إذا وجد غرض شرعي يبرر النظر[٢]، كما لو أراد أن يخطب هذه المرأة، أو يشهد عليها، أو يدخل معها في معاملة تجارية، حتى يتسنى له مطالبته بحقوق العقد، كما يستثنى من ذلك -أيضًا- حالة ما لو كان هذا الرجل طبيبًا معالجًا لهذه المرأة، فإنه يجوز له النظر إلى المواضع التي يحتاج إليها في ذلك، ولكن قيد العلماء ذلك بأن يكون ذلك بحضرة الزوج أو محرم[٣].

٢- وفيه دليل على أن النظر الواقع فجأة دون قصد وتعمد، لا يوجب إثمًا على الناظر لأن التكليف به خارج عن حدود الاستطاعة، أما ما يوجب الإثم فهو نظر التعمد أو ترك صرف البصر بعد نظر الفجأة[٤].

---

(١) سورة النور، من آية: ٣٠.

(٢) شرح معاني الآثار، الطحاوي ١٥/٣، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٣٨١/٢، وشرح صحيح مسلم، النووي ١٣٩/١٤، ومنار السبيل في شرح الدليل، إبراهيم بن محمد ضويان ١٢٢/٢.

(٣) منار السبيل في شرح الدليل، إبراهيم بن محمد ضويان ١٢٢/٢، ١٢٣، ١٢٨.

(٤) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٢٤١/٦، وشرح صحيح مسلم، النووي ١٣٩/١٤.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية غض البصر عن المحرمات.

ثالثًا: من آداب المدعو: صرف البصر عن نظرة الفجاءة.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

ورد هذا الأسلوب في الحديث في قول جرير رضي الله عنه: سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة، فقال: "اصرف بصرك" وأسلوب السؤال والجواب من الأساليب الدعوية المفيدة فهو من أساليب الأداء البياني، وله قيمة تأثيرية عظيمة لدى طارحي الأسئلة الذين يتلقون الإجابات على أسئلتهم ممن وجهوها لهم، فهم إذا تلقوا الجواب تلقفوه تلقفًا، لأن كل أبواب أفكارهم ونفوسهم متفتحة لتلقي الإجابة، ويختزنونها برغبة منبعثة من نفوسهم، ولا يجدون في نفوسهم أي عقبة تصرفها عن ذلك، ثم تدفعهم الرغبة إلى الحديث عما ثبت في أذهانهم من الأسئلة والأجوبة عليها في مجالس مختلفة، فيروونها كما جرت في مجلس السؤال والجواب[١]. وقد ورد ذلك في كتاب الله تعالى، مثل قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾[٢] وقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾[٣].

فينبغي على طالب العلم وراغب المعرفة أن يسأل عما لا يعلمه، وقد عد الإمام بدر الدين الغزي من آداب المتعلم السؤال فقال ومنها - من آداب المتعلم- أن لا يستحي من السؤال عما أشكل عليه، بل يستوضحه أكمل استيضاح، فمن رق وجهه رق علمه، ومن رق وجهه عند السؤال، ظهر نقصه عند اجتماع الرجال[٤].

---

(١) انظر: فقه الدعوة إلى الله، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ص ٥٨-٦٠.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٨٧.

(٣) سورة الكهف، آية: ٨٣.

(٤) الدر النضيد في أدب المفيد والمستفيد، بدر الدين محمد بن محمد الغزي ص ١٥١.

لقد صور لنا النبي ﷺ الجهل ووصفه بأنه مرض وأن الشفاء منه والتعافي عنه السؤال، فروى عن عطاء بن جابر رضي الله عنه ((خرجنا في سفر فأصاب رجلاً منا حَجَرٌ فشجه في رأسه ثم احتلم فسأل أصحابه، فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ قالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء، فاغتسل فمات، فلما قدمنا على النبي ﷺ أخبر بذلك فقال: قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذ لم يعلموا فإنما شفاء العي السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر أو يعصب - شك موسى- على جرحه خرقة ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده))[1].

والعيّ هو التحير في الكلام وعدم الضبط، ويطلق على الجهل، والمعنى أن الجهل داء وشفاؤها السؤال والتعلم[2].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: أهمية غض البصر عن المحرمات:

جاء في الحديث الأمر بصرف الأبصار وغضها عن المحرمات، فعن جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن نظرة الفجاءة فقال "اصرف بصرك" قال النووي: (ومعنى نظرة الفجاءة: أن يقع بصره على الأجنبية من غير قصد فلا إثم عليه في أول ذلك، ويجب عليه أن يصرف بصره في الحال، فإن صرف في الحال فلا إثم عليه، وإن استدام النظر أثم لهذا الحديث فإنه ﷺ أمره أن يصرف بصره، مع قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾[3] وفي هذه الآية أمر الله عز وجل بغض البصر، وصيانة الفرج، وقرن بينهما في معرض الأمر، وبدأ بالأمر بالغض، لأن العين رائدٌ للقلب.

فالواجب على المسلم أن يحرص على سلامة قلبه، ورضا ربه بغض بصره، فالنظرة سهم مسموم من سهام إبليس:

يا راميًا بسهام اللحظ مجتهدًا ... أنت القتيل بما ترمي فلا تصب

(١) أخرجه أبوداود ٣٣٦، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٢٥).

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ص ١٨٥.

(٣) سورة النور، آية: ٣٠.

وباعث الطرف يرتاد الشفاء له طوقه إنه يأتيه بالعطب[١]

لقد أمر الله تبارك وتعالى في القرآن والرسول ﷺ في السنة النبوية بصريح النصوص بغض الأبصار وحفظها، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٢].

وروي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((اضمنوا لي ستًا من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدُّوا إذا ائتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم))[٣].

وعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ((أردف رسول الله ﷺ الفضل بن عباس يوم النحر خلفه على عَجُزِ راحلته، وكان الفضل رجلاً وضيئًا، فوقف النبي ﷺ للناس يفتيهم وأقبلت امرأة من خثعم وضيئة تستفتي رسول الله ﷺ، فطفق الفضل ينظر إليها وأعجبه حسنها، فالتفت النبي ﷺ، والفضل ينظر إليها، فأخلف بيده فأخذ بذقن الفضل فعدل وجهه عن النظر إليها. فقالت: يا رسول الله! إن فريضة الله في

(١) انظر: التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد، ص ١٩٦، ١٩٧.

(٢) سورة النور، الآيتان: ٣٠، ٣١.

(٣) أخرجه أحمد ٣٢٣/٥ رقم ٢٢٧٥٧، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ٤١٧/٣٧.

الحج على عباده، أدركت أبي شيخًا كبيرًا لا يستطيع أن يستوي على الراحلة، فهل يقضي عنه أن أحج عنه؟ قال: نعم))[(١)].

وروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يُفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد، ولا تُفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد))[(٢)].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((ألا أدلكم على ما يكفر الله به الخطايا ويزيد به في الحسنات. قالوا: بلى يا رسول الله، قال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى هذه المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، ما منكم من رجل يخرج من بيته متطهرًا فيصلي مع المسلمين الصلاة ثم يجلس في المجلس ينتظر الصلاة الأخرى، إن الملائكة تقول: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه. فإذا قمتم إلى الصلاة فاعدلوا صفوفكم، وأقيموها وسدوا الفرج، فإني أراكم من وراء ظهري، فإن قال إمامكم: الله أكبر، فقولوا: الله أكبر، وإذا ركع فاركعوا، وإذا قال: سمع الله لمن حمده فقولوا: اللهم ربنا لك الحمد، وإن خير صفوف الرجال المقدم، وشرها المؤخر، وخير صفوف النساء المؤخر، وشرها المقدم. يا معشر النساء: إذا سجد الرجال فاغضضن أبصاركن، لا ترين عورات الرجال من ضيق الأزر))[(٣)].

إن غض البصر عن العورة التي يُنهى عن النظر إليها كالمرأة والأمرد الحسن، له ثلاث فوائد:

الأولى: حلاوة الإيمان ولذته والتي هي أطيب وأحلى مما تركه لله، فإن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه.

الثانية: نور القلب والفراسة، ولذلك ذكر الله عز وجل، عقب آيات غض البصر التي في سورة النور قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[(٤)] وذلك لأن الله عز وجل

---

(١) أخرجه البخاري ٦٢٢٨ واللفظ له، ومسلم ١٣٣٤.

(٢) أخرجه مسلم ٣٣٨.

(٣) أخرجه أحمد ٢٩٣/٣ رقم ١٤١٢٣، وقال محققو المسند: صحيح لغيره ٢٦/٢٢.

(٤) سورة النور، آية: ٣٥.

يجزي العبد على عمله بما هو من جنسه. فلما منع العبد نور بصره أن ينفذ إلى ما لا يحل، أطلق نور بصيرته وفتح عليه باب العلم والمعرفة.

الثالثة: قوة القلب وثباته وشجاعته، فيجعل الله له سلطان البصيرة مع سلطان الحجة.

- يبدل الله صاحبه نورًا يجد حلاوته في قلبه.
- فيه طاعة لله ورسوله يترتب عليها محبة توصله إلى الجنة.
- من أهم الصفات التي يتحلى بها المؤمن وتتولد من الحياء.
- فيه راحةٌ للنفس والبدن.
- يصون المحارم ويجنب الوقوع في الزلل.
- يجعل المجتمع المتحلي بهذه الصفة مجتمعًا آمنًا متحابًا.
- يصون المجتمع من انتشار الزنى.
- يضرُّ بالشيطان وأعوانه ويستجلب العفة[1].

ثالثًا- من آداب المدعو: صرف النظر عن نظرة الفجاءة:

وذلك ما جاء في منطوق الحديث، بصرف البصر عن نظرة الفجاءة فقال ﷺ لجرير عندما سأله عن نظرة الفجاءة "اصرف بصرك" يعني أدره يمينًا أو شمالاً حتى لا تنظر، فيستفاد من هذا الحديث تحريم نظر الرجل إلى المرأة، لكن إذا حصل هذا فجأة فإنه يعفى عنه لأنه بغير اختيار من الإنسان، لكن يجب عليه أن يصرف بصره[2]؛ وذلك من الآداب الواجب التأدب بها والتزامها من قبل المدعو، حفاظًا على قلبه من الفتنة، وجوارحه من المعصية، قال القرطبي: (البصر: هو الباب الأكبر إلى القلب، وأعمر طرق الحواس إليه، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته، ووجب التحذير منه، وغضه واجب عن جميع المحرمات، وكل ما يخشى الفتنة من أجله[3] قال بعض السلف: من حفظ بصره أورثه الله نورًا في بصيرته)[4].

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٣٠٧٦/٧.

(٢) انظر: شرح رياض الصالحين، الشيخ ابن عثيمين ١٧٢٤/٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٤٨/١٢/٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٨٣/٢.

وغض البصر دليل على عمران باطن المسلم بمراقبة الله عز وجل وتقواه، قال ابن حجر: (قال ابن دقيق العيد إنَّ التقوى سبب لغضِّ البصر وتحصين الفرج)[1] وهو سبب من أسباب الفراسة وملء القلب بالنور، ولذلك ذكر الله عز وجل عقب آيات غض البصر التي في سورة النور قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2] وذلك لأن الله عز وجل يجزي العبد على عمله بما هو من جنسه، فلما منع العبد نور بصره أن ينفذ إلى ما لا يحل، أطلق نور بصيرته وفتح عليه باب العلم والمعرفة[3]. قال شجاع بن شاة: (من عمر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وغض بصره عن المحارم، وكفَّ نفسه عن الشهوات، وأكل الحلال، لم تخطئ له فراسة)[4].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ١٠٩/٩.

(٢) سورة النور، آية: ٣٥.

(٣) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٣٠٧٦/٧.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٤٢٥/١٥.

الحديث رقم (١٦٢٨)

١٦٢٨ – وعن أُم سَلَمَة رضي الله عنها، قالت: كنتُ عِنْدَ رسول الله ﷺ، وعنده مَيْمُونَة، فَأقْبَلَ ابنُ أُمّ مَكْتُومٍ، وَذَلِكَ بَعْدَ أنْ أُمِرْنَا بالحِجَابِ فقَالَ النبيُّ ﷺ: ((احْتَجِبَا مِنْهُ)) فَقُلْنَا: يَا رسولَ اللهِ، ألَيْسَ هُوَ أعْمَى! لاَ يُبْصِرُنَا، وَلاَ يَعْرِفُنَا؟ فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ: ((أفَعَمْيَاوَانِ أنتُما ألَسْتُمَا تُبْصِرَانِهِ!؟)). رواه أبُو داود والترمذيُّ[1]، وقال: (حديث حسن صحيح).

ترجمة الراوي:

أم سلمة: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٨٢).

الشرح الأدبي

الطهر في معناه الأسمى يتجسد نورا ينبعث من بيوت النبي ﷺ ليعم الأمة، وينبعث شعاعا من أخلاق الطاهرات فيها ليضيء الطريق لكل المؤمنات على مر العصور، وهذا الحديث يحكي موقفا تعليميا يقوم على الحوار بين أمهات المؤمنين، ورسول ﷺ، وقد بدأ الحوار بأمر النبي ﷺ لزوجتيه بالاحتجاب عند دخول ابن أم مكتوم في قوله: (احتجبا منه) أمر باتخاذ ستر مانع من رويتهم له، ورؤيته لهم - لو فرض بأنه يبصر- وقولهن (ألَيْسَ هُوَ أعْمَى! لاَ يُبْصِرُنَا، وَلاَ يَعْرِفُنَا؟) استفهام تحقيق، وتثبيت تلوح منه أمارات التعجب من سر الأمر بالاحتجاب، ويؤكده توكيد جملة (هو أعمى) بجملة (لا يبصرنا) وهي توكيد معنوي لسابقتها لأنها بمعناها، وهو ما سوَّغ للفصل بين الجملتين بعدم الربط بواو العطف التي تقتضي المغايرة، والجملتان كالجملة الواحدة، ولا يعطف الشيء على نفسه، وقول النبي ﷺ (أفَعَمْيَاوَانِ أنتُما ألَسْتُمَا

---

(١) أخرجه أبو داود (٤١١٢)، والترمذي (٢٧٧٨) واللفظ له، وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٥٥٧٥)، وقال ابن الملقن في البدر المنير (٥١٢/٧): هذا الحديث صحيحٌ. وقال الحافظ ابن حجر في التلخيص (٢٢٤٩/٥): ليس في إسناده سوى نبهان مولى أمّ سلمة شيخ الزهريّ، وقد وثّق أهـ. والحديث ضعيف لجهالة نبهان مولى أم سلمة، وقال الإمام أحمد: نبهان روى حديثين عجيبين، وذكر منه هذا الحديث.

تُبْصِرَانِهِ!؟) استفهام ورد على أسلوب الحكيم لأنهما سألا عن حال الرجل الأعمى ،ولم يسألا عن أنفسهما ،فأجابهما بما ينبههما إلى أمر غفلا عنه وهو رؤيتهما له، وأن الأمر بالاحتجاب ليس لنظره هو فقط بل لنظرهما أيضا، والطباق بين قوله أفعمياوان، وبين قوله تبصرانه يؤكد المعنى، ويشير إلى أن سر الأمر بالاحتجاب أولا، والاستفهام ثانيا يرجع إلى رؤيتهما، وليس إلى رؤيته مما يوجب على المرأة المؤمنة غض بصرها من النظر إلى غير محارمها.

فقه الحديث

ويشتمل هذا الحديث على مسألة: حكم نظر المرأة إلى الرجل.

وقد اختلف الفقهاء في حكم هذه المسألة على رأيين:

الرأي الأول: وهو ما ذهب إليه الشافعي[1] في قول، والإمام أحمد[2] في رواية، ويريان أنه يحرم على المرأة أن تنظر إلى الرجل، كما يحرم على الرجل أن ينظر إلى المرأة.

الرأي الثاني: وهو ما ذهب إليه الحنفية[3]، والمالكية[4]، والشافعي[5] في قول، وأحمد[6] في رواية، ويرون أنه يجوز للمرأة أن تنظر من الرجل إلى ما ليس بعورة.

الأدلة:

أولاً: أدلة الرأي الأول: استدل أصحاب الرأي الأول على ما ذهبوا إليه من عدم جواز نظر المرأة إلى الرجل، بالكتاب، والسنة، والمعقول:

---

(١) روضة الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ٤٥٦/٢.

(٢) المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٩/١٥، مسألة رقم ٥٣٤٣، والكافي له كذلك ٩/٣.

(٣) المبسوط، أبو بكر السرخسي ٣٦٢/١٢، الهداية ٨٥/٤.

(٤) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن عرفة الدسوقي ٢٩٩/٢، وحاشية الصاوي على الشرح الصغير ٤٨٥/١.

(٥) روضة الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ٤٥٦/٢.

(٦) الكافي في فقه الإمام أحمد لابن قدامة ٩/٣.

١- فمن الكتاب: قول الله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾[١].

٢- ومن السنة: حديث الباب، وفيه أن رسول الله ﷺ قال لأم سلمة، وميمونة رضي الله عنهما حينما قالتا له: إنه - أي ابن أم مكتوم - أعمى، قال النبي ﷺ بعد ذلك: "أفعمياوان أنتما..." فكان ذلك دليلاً على عدم جواز نظر المرأة إلى الرجل حتى ولو كان أعمى.

٣- من المعقول: أما من المعقول، فلأن النساء أحد نوعي الآدميين، فحرم عليهن النظر إلى النوع الآخر، قياسًا على الرجال.

ويحققه أن المعنى المحرم للنظر هو خوف الفتنة، وهذا في المرأة أبلغ فإنها أشد شهوة، وأقل عقلاً، فتتسارع إليها الفتنة أكثر من الرجل[٢].

ثانيًا: دليل الرأي الثاني: واستدل أصحاب الرأي الثاني على ما ذهبوا إليه من جواز نظر المرأة إلى ما ليس بعورة من الرجل بالسنة:

١- حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ((ولقدْ رأيتُ رسولَ الله يقومُ على بابِ حُجْرَتي والحَبَشَةُ يلعبونَ بالحِرَابِ، ورسولُ الله يَسْتُرُني بردائِهِ لأَنْظُرَ إلى لَعِبِهِمْ بينَ أُذُنَيْهِ وعَاتِقِهِ ثم يقومُ من أَجْلِي حتَّى أكونَ أَنَا الَّتِي أَنْصَرِفُ، فاقْدُرُوا قَدْرَ الجاريةِ الحديثةِ السِّنِّ، حريصةً على اللهوِ))[٣].

مناقشة الاستدلال بالحديث: وقد ناقش المانعون الاستدلال بحديث عائشة من وجهين:

الوجه الأول: أنه ليس في حديث عائشة أنها نظرت إلى وجوههم، وأبدانهم، وإنما نظرت لعبهم، وحرابهم، ولا يلزم من ذلك تعمد النظر إلى البدن، وإن وقع بلا قصد صرفته في الحال[٤].

---

(١) سورة النور، آية: ٣١.

(٢) المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو مسألة رقم ٥٢٤٣، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٢٤٨/٦.

(٣) أخرجه البخاري ٤٥٤، ومسلم ٨٩٢ (١٨) واللفظ لمسلم.

(٤) طرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ١٩٢/٧.

الوجه الثاني: إن السيدة عائشة رضي الله عنها في هذه الواقعة كانت صغيرة السن غير مكلفة، أو لعل ذلك كان قبل نزول آية تحريم النظر[1].

٢- ما ثبت أن رسول الله ﷺ قال لفاطمة بنت قيس: ((اعْتَدِّي فِي بَيْتِ ابنِ أُمِّ مَكْتُومٍ فإِنَّهُ رَجُلٌ أعْمَى تَضَعِينَ ثِيَابَكِ فلا يَرَاك))[2].

مناقشة الاستدلال بالحديث: ويناقش ذلك، بأنه يمكن مكث المرأة في بيت الأعمى مع غض البصر منها، إذ لا ملازمة بين الاجتماع في البيت والنظر[3].

وقد ذهب بعض العلماء إلى الجمع بين الأدلة.

قال الشوكاني: (وقد جمع أبو داود بين الأحاديث، فجعل حديث أم سلمة مختصًا بأزواج النبي ﷺ وحديث فاطمة بنت قيس وما في معناه لجميع النساء[4]. قال الحافظ ابن حجر في التلخيص: قلت: وهذا جمع حسن، وبه جمع المنذري في حواشيه واستحسنه شيخنا انتهى[5]. وجمع [أي ابن حجر] في الفتح [أي فتح الباري][6] بأن الأمر بالاحتجاب من ابن أم مكتوم، لعلّه لكون الأعمى مظنة أن ينكشف منه شيء ولا يشعر به، فلا يستلزم عدم جواز النظر مطلقًا، قال: ويؤيد الجواز استمرار العمل على جواز خروج النساء إلى المساجد والأسواق والأسفار منتقبات لئلا يراهن الرجال، ولم يؤمر الرجال قط بالانتقاب لئلا يراهم النساء، فدل على مغايرة الحكم بين الطائفتين)[7].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحث على الالتزام بارتداء المرأة الحجاب.

---

(١) المرجع السابق ١٩٢/٧.

(٢) أخرجه مسلم ١٤٨٠.

(٣) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٢٤٨/٦.

(٤) سنن أبي داود، ص ٥٢٧ بعد الحديث ٤١١٢.

(٥) التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، ابن حجر العسقلاني ١٤٨/٣ والغالب على الظن أن شيخ ابن حجر في عبارته هذه هو ابن الملقن، انظر: البدر المنير ٥١٣/٧.

(٦) فتح الباري، ابن حجر ٣٣٧/٩ .

(٧) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٢٤٩/٦.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الحوار.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: الحفاظ على سلامة وطهارة المجتمع ونشر الحشمة.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الحث على الالتزام بارتداء المرأة الحجاب:

جاء في صريح الحديث، فعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: "كنت عند رسول الله ﷺ وعنده ميمونة، فأقبل ابن أم مكتوم، وذلك بعد أن أمرنا بالحجاب، فقال النبي ﷺ احتجبا منه".

إن حجاب المرأة من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة، وقد نص شيخ الإسلام ابن تيمية على وجوب احتجاب المرأة من الرجال الأجانب[1] وقد ساق الشيخ محمد الأمين الشنقيطي أدلة وجوب الحجاب من الكتاب والسنة، منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[2] وقال ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ﴾[3] وإذا علمت أن حكم آية الحجاب عام، ودلالة الآيات على احتجاب جميع بدن المرأة عن الرجال الأجانب، علمت أن القرآن دل على الحجاب[4] قال عبدالعزيز بن باز: (يا معشر المسلمين تأدبوا بتأديب الله، وامتثلوا أمر الله، وألزموا نساءكم الحجاب، الذي هو سبب الطهارة ووسيلة النجاة والسلامة؛ فالمرأة يجب أن تُصَان وتحفظ بما لا يجب مثله في الرجل، ولهذا خصت بالاحتجاب، وترك إبداء الزينة وترك التبرج، فيجب في حقها الاستتار باللباس والبيوت ما لا يجب في حق الرجل، لأن ظهور النساء سبب الفتنة والرجال قوامون عليهن)[5].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١١٠/١٢.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٥٩.

(٣) سورة النور، آية: ٣١.

(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي ٥٨٦/٦، ٥٨٧.

(٥) مجموعة رسائل في الحجاب والسفور، الشيخ عبدالعزيز بن باز، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ص ٧، ص ٢٦.

لقد فرض الله على كل امرأة أن تلتزم بالحجاب، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1].

وشروط الجلباب ثمانية كما ذكرها الألباني وهي:

أ- استيعاب جميع البدن "إلا ما استثنى"، وهناك من العلماء من خالف في هذه المسألة وهي كشف الوجه، أما إن كانت هناك فتنة ستحصل بكشف الوجه، فإن الألباني يرى وجوب الستر عندئذ.

ب- أن لا يكون زينة في نفسه.

ج- أن لا يكون صفيقًا لا يشفّ.

د- أن يكون فضفاضًا غير ضيق.

هـ- أن لا يكون مبخرًا مطيبًا.

و- أن لا يشبه لباس الرجل.

ز- أن لا يشبه لباس الكافرات.

ح- أن لا يكون لباس شهرة[2].

وترك لباس الشهرة: أي أن يكون اللباس غير مخالف لما اعتاده صلحاء الناس في البلد.

إن الإسلام أمر المرأة بالحجاب، وحرم عليها التبرج، وهو أن تظهر المرأة من جسدها ما حُرِّم عليها إظهاره، وذلك كإظهار عنقها وماكياج الوجه والساقين، وغير ذلك مما يراه الناس من مظاهر هذا التبرج الصارخ، الذي يثير كوامن الشباب وغرائزهم.

فعلى كل إنسان مسلم أن يمنع ابنته أوأخته أو زوجته أو من يعول من كل تهتّك وسفور، وخاصة في الأفراح المتفسخة من كل قيد، أو المتهاونة في كثير من تعاليم الإسلام.

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٥٩.

(٢) جلباب المرأة المسلمة، ص ٣٧.

ولقد تهاون أناسٌ فيهم خير كثير في أمر هذه الأفراح والليالي الملاح! وما استبان لهم شُنع فعلهم، ولا قُبح تهاونهم، إلا بعد أن سُجِّلت عليهم هذه السيئات التي جنوها من جرَّاء هذا التهاون واللامبالاة، فندموا أشد الندم، وتمنوا أن لو استقبلوا من أمرهم ما استدبروا، ليصلحوا ما جنوه على أنفسهم من تبعات الندم والأسف والأسى، وهم مع ذلك تائبون نادمون مستغفرون. والحاصل على كل من يعول امرأة أن يذب عنها هذا التبرج والسفور[١].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الحوار:

ورد الحوار في الحديث وذلك فيما دار بين النبي ﷺ وبين أم سلمة وميمونة رضي الله عنهما من حوار فقال النبي ﷺ "احتجبا منه، فقلنا: يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا، فقال النبي ﷺ أفعمياوان أنتما؟ ألستما تبصرانه" والحوار من أبرز الأساليب الدعوية، وأشدها تأثيرًا وأعظمها قيمة، (وديننا الإسلامي – ولله الحمد- منذ بدايته قام على الدعوة للتأمل والتفكر والحوار، والإسلام لم يدع إلى الحوار بين المسلمين فحسب، بل دعا للحوار بينهم وبين غيرهم من الأجناس الأخرى، وحثهم على أدب الحوار، هذا الأمر أحد العوامل المهمة في انتشار الإسلام من بداية عهده وإلى قيام الساعة[٢]، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[٣]، (والقرآن الكريم يكثر فيه الاعتماد على المناقشة والحوار، وللقرآن في ذلك أسلوب رائع عجيب، فهو إذ يناقش ويحاور يثير النظر إلى الأدلة، ويعرض لها، ويدع ثمارها ونتائجها مكشوفة، في تضاعيف الكلام، دون أي نص على هذه النتائج، بل يترك الربط والاستنتاج للسامع المتأمل)[٤].

---

(١) كتاب "والذين هم لفروجهم حافظون"، خميس السعيد محمد، ص ٢٨٥-٢٨٧.

(٢) الحوار آدابه وتطبيقاته في التربية الإسلامية، خالد محمد المغامسي، ص ٣.

(٣) سورة العنكبوت، آية: ٤٦.

(٤) منهج تربوي فريد في القرآن، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الفارابي، دمشق، بدون تاريخ، ص ٣٧، ٣٨.

ثالثًا- من أهداف الدعوة: الحفاظ على سلامة وطهارة المجتمع ونشر الحشمة:

إن ما جاء في الحديث من الأمر بالحجاب "احتجبا منه" لمن الأدلة الظاهرة على أن الحفاظ على المجتمع وسلامته وطهارته من أهداف الدعوة الرئيسة، فالحجاب يجعل المجتمع آمنًا متحابًا مصونًا من الرذائل والفواحش، تصان فيه المحارم ويجنب فيه الوقوع في الزلل[1] فللحجاب فضائل كثيرة لا تُنكر.

لقد تعبَّد الله نساء المؤمنين بفرض الحجاب عليهن، الساتر لجميع أبدانهن وزينتهن، أمام الرجال الأجانب عنهن، تعبدًا يثاب على فعله ويعاقب على تركه؛ ولهذا كان هتكه من الكبائر الموبقات، ويجر إلى الوقوع في كبائر أخرى، مثل: تعمّد إبداء شيء من البدن، وتعمّد إبداء شيء من الزينة المكتسبة، والاختلاط، وفتنة الآخرين، إلى غير ذلك من آفات هتك الحجاب.

فعلى نساء المؤمنين الاستجابة إلى الالتزام بما افترضه الله عليهن من الحجاب، والستر والعفة والحياء طاعة لله تعالى، وطاعةً لرسوله ﷺ، قال الله عز شأنه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[2]. كيف ومن وراء افتراضه حكم وأسرار عظيمة، وفضائل محمودة، وغايات ومصالح كبيرة، منها:

أ- حفظ العرض: الحجاب حِراسةٌ شرعية لحفظ الأعراض، ودفع أسباب الرِّيبة والفتن والفساد.

ب- طهارة القلوب: الحجاب داعية إلى طهارة قلوب المؤمنين والمؤمنات، وعمارتها بالتقوى، وتعظيم الحرمات. وصدق الله سبحانه: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾[3].

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٣٠٧٦/٧.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٣٦.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٥٣.

ج- مكارم الأخلاق: الحجاب داعية إلى توفير مكارم الأخلاق من العفة والاحتشام والحياء والغيرة، والحجب لمساويها من التلوث بالشائنات كالتبذل والتهتك والسُّفالة والفساد.

د- علامة على العفيفات: الحجاب علامة شرعية على الحرائر العفيفات في عفتهن وشرفهن، وبعدهن عن دنس الريبة والشك: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾[1]، وصلاح الظاهر دليل على صلاح الباطن، وإن العفاف تاج المرأة، وما رفرفت العفة على دار إلا أكسبتها الهناء.

ومما يستطرف ذكره هنا، أن النُّميري لما أنشد عند الحجاج قوله:

يُخَمِّرْنَ أطراف البنان من التُّقَى ويَخْرُجْن جنْح الليل مُعْتَجرات[2]

قال الحجاج: وهكذا المرأة الحرة المسلمة.

هـ- قطع الأطماع والخواطر الشيطانية: الحجاب وقاية اجتماعية من الأذى، وأمراض قلوب الرجال والنساء، فيقطع الأطماع الفاجرة، ويكف الأعين الخائنة، ويدفع أذى الرجل في عرضه، وأذى المرأة في عرضها ومحارمها، ووقاية من رمي المحصنات بالفواحش، وإذْباب قالة السوء، ودَنَس الريبة والشك، وغيرها من الخطرات الشيطانية.

ولبعضهم:

حُـورٌ حرائـر مـا هَمَمْـنَ بِرِيبَـةٍ كَظِبَـاءِ مَكَّـةَ صَـيْدُهنَّ حَـرامُ

و- حفظ الحياء، وهو مأخوذ من الحياة، فلا حياة بدونه، وهو خلق يودعه الله في النفوس التي أراد سبحانه تكريمها، فيبعث على الفضائل، ويدفع في وجوه الرذائل، وهو من خصائص الإنسان، وخصال الفطرة، وخلق الإسلام، والحياء شعبة من شعب الإيمان، وهو من محمود خصال العرب التي أقرها الإسلام ودعا إليها، قال عنترة العبسي:

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٥٩.

(٢) اعتجَرَ فلانٌ بالعمامة: لَفَّها على رأسه ورَدَّ طرفها على وجهه. انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ع ج ر).

وأَغُضُّ طَرْفِي إنْ بَدَتْ لي جارتيْ حتى يُواري جارتي مأواها

فآل مفعول الحياء إلى التحلي بالفضائل، وإلى سياج رادع، يصد النفس ويزجرها عن تطورها في الرذائل.

وما الحجاب إلا وسيلة فعالة لحفظ الحياء، وخلع الحجاب خلع للحياء.

ز- الحجاب يمنع نفوذ التبرج والسفور والاختلاط إلى مجتمعات أهل الإسلام.

ح- الحجاب حصانة ضد الزنا والإباحية، فلاتكون المرأة إناء لكل والغ.

ط- المرأة عورة، والحجاب ساتر لها، وهذا من التقوى، قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾[1]. قال عبدالرحمن بن أسلم في تفسير هذه الآية: (يتقي الله فيواري عورته فذاك لباس التقوى).

ي- حفظ الغيرة: الغيرة هي السياج المعنوي لحماية الحجاب، ودفع التبرج والسفور والاختلاط، والغيرة هي: ما ركّبه الله في العبد من قوة روحية تحمي المحارم والشرف والعفاف من كل مجرم وغادر، والغيرة في الإسلام خلق محمود، وجهاد مشروع؛ لقول النبي ﷺ: ((إن الله يغار، وإن المؤمن يغار، وإن غيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم عليه)) متفق عليه. ولقول النبي ﷺ: "من قتل دون أهله فهو شهيد" رواه الترمذي. وفي لفظ: "من مات دون عرضه فهو شهيد".

فالحجاب باعث عظيم على تنمية الغيرة على المحارم أن تنتهك، أو يُنال منها، وباعث على توارث هذا الخلق الرفيع في الأُسر والذراري: غيرة النساء على أعراضهن وشرفهن، وغيرة أوليائهن عليهن، وغيرة المؤمنين على محارم المؤمنين من أن تنال الحرمات، أو تخدش بما يجرح كرامتها، وعفتها وطهارتها، ولو بنظرة أجنبي إليها)[2].

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٢٦.

(٢) انظر: حراسة الفضيلة، بكر بن عبدالله أبو زيد، ص ٨٤-٨٨، ١٣١، ١٣٢.

الحديث رقم (١٦٢٩)

١٦٢٩ - وعن أَبي سعيد رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ، قَالَ: ((**لاَ يَنْظُرُ الرَّجُلُ إِلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ، وَلاَ المَرْأَةُ إِلَى عَوْرَةِ المَرْأَةِ، وَلاَ يُفْضِي الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، وَلاَ تُفْضِي المَرْأَةُ إِلَى المَرْأَةِ فِي الثَّوْبِ الواحِدِ**)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٠).

غريب الألفاظ:

عورة: كل أمر يستحيى منه، وما أوجب الشرع ستره من الإنسان[2].

يفضي: يصير، ويصل [3].

الشرح الأدبي

إن منابع الجمال الفني في الحديث النبوي تصدر عن توفيق الحق سبحانه وتعالى لحبيبه محمد ﷺ، وتنبع كذلك من توقيف ومصدر إلهي، لأنه لا ينطق عن الهوى، وفي تجليات التوقيف والتوفيق، تضيء النشأة النبوية التي أراد لها الله أن تكون في أصفى البيئات وأنقاها لغة وسلوكًا وقيمًا[4].

وهذا الحديث الشريف يُرْسي آدابًا وسلوكيات ربما يغفل عنها الكثير، فيقع في الإثم، وتنتشر في المجتمع العادات القبيحة، والسلوكيات الشاذة التي يروج لها أعداء الإسلام في كل عصر.

ويتكون الحديث من أربعة جمل.. وكلها وردت في صيغة النهي، أو أسلوب النفي المتضمن معنى النهي، ولكن النهي هو الإيقاع المسيطر عليها، لأن كل جملة تنهى عن

---

(١) برقم (٣٣٨/٧٤).

(٢) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٢٩٣.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ف ض و).

(٤) انظر: الحديث النبوي: رؤية فنية جمالية: د. صابر عبدالدايم.

محظور من المحظورات الشرعية، والأفعال في الحديث كلها مضارعة، وفي ذلك إشارة لغوية إلى أن النهي مستمر، لأن هذه السلوكيات يمكن أن تنشأ وتستمر، ولذلك كرر رسول الله ﷺ حرف النهي أو النفي، "لا" أربع مرات في الحديث، ولم يكتف بإيراده مرة واحدة في بداية الحديث.

وخاصية التكرار مسيطرة على الحديث لخطورة الأمر، وعدم انتباه الناس لهذه الخطورة المدمرة، فقد تكرر لفظ "الرجل" أربع مرات، وذلك للحث في كل مرة على اجتناب الأمر المنهي عنه، وقوله "الرجل" للتعميم والشمول: ويشمل النوع الصغير أو الكبير من الرجال، فالرجل لا ينظر إلى عورة الرجل، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد.

وكذلك كرر لفظ "المرأة" أربع مرات، فالمرأة لا تنظر إلى عورة المرأة، وكذلك لا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد، والتعبير بقوله: "تفضي" فيه دقة وبلاغة لأنه يصور طبيعة الموقف ونوعية الحدث المنهي عنه، "فالفضا" في اللغة: الشيء المختلط، ويقولون: أفضى المرأة: أي جعل مسلكيها واحداً فهي مفضاة، وقالوا: أفضى إلى المرأة أي: جامعها أو خلا بها: جامع أم لا.

وتكرار الفعل "يفضي" في الحديث فيه تنبيه إلى فساد هذا المسلك، وخطورته، وسوء عاقبته الوخيمة.

والحديث لم يخاطب أحدًا محددًا ولكنه جاء في صيغة الغائب: لأنه يرسي قواعد عامة، ويحذر من سلوكيات تنتشر بين الناس ولا يدركون خطورتها، ولم يأت الحديث في صيغة المخاطب احتراسًا من وقوع اللبس، وشبهة التعريض بأحد، وصونًا لسمع المسلم ومخاطبته بذلك: ترغيبًا له في الامتثال لأوامر الإسلام، واتباعًا لسنة المصطفى ﷺ.

فقه الحديث

يشتمل هذا الحديث على الأحكام الفقهية الآتية:

١- فيه تحريم نظر الرجل إلى عورة الرجل، ونظر المرأة إلى عورة المرأة.

وهذا مما لا خلاف فيه بين الفقهاء[١].

وقد نبه النبي ﷺ بنظر الرجل إلى عورة الرجل على نظره إلى عورة المرأة، وذلك بالتحريم أولى[٢]، ويستثنى من ذلك الأزواج، فإن لكل منهما النظر إلى عورة صاحبه جميعها، إلا الفرج نفسه ففيه خلاف، والأصح أنه مكروه[٣].

وأما نظر الرجل إلى محارمه، ونظرهن إليه: فالصحيح أنه يباح فيما فوق السرة وتحت الركبة.

وقيل: لا يحل إلا ما يظهر في حال الخدمة والتصرف[٤].

وكذلك يحرم على الرجل النظر إلى وجه الأمرد، إذا كان حسن الصورة، سواء أمن الفتنة، أو خافها، هذا هو المذهب الصحيح المختار عند المحققين العلماء، وقد نص عليه الشافعي، وحذاق أصحابه[٥] -رحمهم الله تعالى-، والدليل على ذلك أنه في معنى المرأة، فإنه يشتهى كما تشتهى، وصورته في الجمال كصورة المرأة، بل ربما كان كثير منهم أحسن صورة من كثير من النساء.

بل هم في التحريم أولى لمعنى آخر، وهو أنه يتمكن في حقهم من طرق الشر ما لا يتمكن من مثله في حق المرأة[٦].

وهذا الذي ذكر في المسائل السابقة من تحريم النظر فيما إذا لم يكن لحاجة.

أما إذا كانت هناك حاجة شرعية، كتطبيب، وشهادة، ونحو ذلك، جاز النظر، ولكن بغير شهوة[٧].

---

(١) المبسوط، أبو بكر السرخسي ١٤٦/١٠، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٢١٩/٩، وكفاية الطالب الرباني ٥٩٦، والإقناع للشربيني ٤٠٧/٢، ومنار السبيل في شرح الدليل، إبراهيم بن محمد ضويان ١٢٨/٢، ١٢٩.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ٣٠/٤.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ٣٠/٤، الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ٤٥١/١، والكافي في فقه الإمام أحمد ٨/٣، والمهذب للشيرازي ٣٥/٢.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي ٣١/٤.

(٥) شرح صحيح مسلم، النووي ٣١/٤، والفروع، ابن مفلح ١١١/٥ وفيه أن تكرار النظر إلى الأمرد محرم.

(٦) شرح صحيح مسلم، النووي ٣١/٤.

(٧) شرح صحيح مسلم، النووي ٣٢/٤، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٦٣/٨، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٤١/١١.

٢- قوله ﷺ "ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد، ولا تفضي المرأة... إلخ". فيه دليل على تحريم لمس عورة غيره، بأي موضع من بدنه[1]. ومعنى لا يفضي... إلخ: أي لا تصل بشرة أحدهما بالآخر[2].

وقد فصل المالكية في هذه المسألة تفصيلاً حسنًا فقالوا:

ولا يجوز أن يتلاصق رجلان بالغان، ولو شيخين، أقربين، ولا امرأتان كذلك في لحاف واحد.

أما غير البالغين: فإن لم يبلغا العشر، فلا حرج فيه، أما بعد بلوغ العشر فتكره الملاصقة دون حائل.

وأما تلاصق البالغ وغيره: فحرام في حق البالغ، ومكروه في حق غيره، والكراهة متعلقة بالولي، وقيل: يحرم على الولي أيضًا.

وهذا التفصيل في تلاصق الذكرين، أو تلاصق المرأتين، أما تلاصق ذكر وأنثى مع مناهزة الذكر فحرام[3].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: اجتناب النظر إلى العورات ولمسها.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: حفاظ الإسلام على طهارة المجتمع من أسباب الفواحش.

رابعًا: من أهداف الدعوة: الحث على التزام العفة وغض البصر عن المحرمات والتستر.

أولاً- من أساليب الدعوة: النهي:

تكرر أسلوب النهي في الحديث فقال ﷺ: "لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلا عورة المرأة، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد، ولا تفضي المرأة إلى

---

(١) المراجع السابقة، المواضع نفسها.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٦٣/٨.

(٣) كفاية الطالب الرباني ٣١٢/٢.

المرأة في الثوب الواحد" والنهي من أبرز الأساليب الدعوية وأكثرها استخدامًا وأعظمها تأثيرًا، لما فيه من بيان المخالفات وإظهار حكمها وحمل المدعو على اجتنابها وعدم الاقتراب منها، وقد استخدمه القرآن كثيرًا، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[1]، وقال ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَٰهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾[2].

والنهي يتضمن معنى الزجر إضافة إلى المنع والتحريم وغير ذلك، والنهي لا يكون إلا من الأعلى إلى الأسفل، فالنهي اقتضاء كف عن فعل على جهة استعداد[3].

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: اجتناب النظر إلى العورات ولمسها

وهذا ما جاء في صريح الحديث "لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل،ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد". قال القاضي عياض: (وقوله: "لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل والمرأة إلى عورة المرأة"، وفي الحديث الآخر" عُرية" مكان "عورة"، والمعنى واحد، أي العُرية العامة التي تُبدي العورة، ولا خلاف في تحريم النظر إلى العورة من الناس بعضهم إلى بعض وسترها عنهم، إلا الرجل مع زوجته أو أمه على كراهية بعض العلماء في ذلك، ولا خلاف في تحريم كشفها بمحضر الناس، واختلف في كشفها في الانفراد وحيث لا يراه أحد، ولا خلاف أن السوأتين من الرجل والمرأة عورةٌ، واختلف فيما بين الركبة إلى السرة من الرجل هل هي عور أم لا؟ ولا خلاف أن إبداءه لغير ضرورة قصدًا ليس من مكارم الأخلاق، ولا خلاف أن ذلك من المرأة عورة على النساء والرجال، وأن الحرَّة ما عدا وجهها وكفيها عورة على غير ذوي المحارم من الرجال، وسائر جسدها على المحارم عورة، ما عدا رأسها وشعرها وذراعيها وما فوق نحرها، وقيل: كفها عورة، وقال أبو بكر بن عبدالرحمن: كل شيء منها عورة حتى ظفرها. واختلف في حكمها مع

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٣٢.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٣٣.

(٣) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٤١/٤٠٤.

النساء، فقيل: جسدها كله عورة، فلا يرى النساء منها إلا ما يرى ذوو المحارم، وقيل: بل حكم النساء مع النساء حكم الرجال مع الرجال، إلا مع نساء أهل الذمة، فقيل: حكمُهن في النظر إلى أجساد المسلمات حكم الرجال لقوله تعالى: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾[(١)]، على خلاف بين المفسرين في معناه، وحكم المرأة فيما تراه من الرجل حكم الرجل فيما يراه من ذوي محارمه من النساء، وقد قيل: إن حكم المرأة فيما تراه من الرجل كحكم الرجل فيما يراه من المرأة، والأول أصح، وأما الأمة فالعورة منها ما تحت يديها، ولها أن تبدي رأسها ومعصميها، وقيل: حكمها حكم الرجال وعورتها من السُّرة إلى الركبة، وقيل: يكره لها كشف معصميها وساقيها وصدرها، وكان عمر يضربُ الإماء على تغطية رؤوسهن وقال: لا تشبهن بالحرائر[(٢)].

قال النووي: (وفيه دليل على تحريم نظر الرجل إلى عورة الرجل والمرأة إلى عورة المرأة وهذا حرام بالإجماع، ونبه ﷺ بنظر الرجل إلى عورة الرجل على نظره إلى عورة المرأة وذلك بالتحريم أولى، وفيه أيضًا دليل على تحريم لمس الرجل عورة غيره، بأي موضع من بدنه كان، وهذا متفق عليه، وهذا مما تعم به البلوى ويتساهل فيه كثير من الناس باجتماع الناس في الحمام وغيره، فيجب على الحاضر فيه أن يصون بصره ويده، وغيرها، عن عورة غيره، وأن يصون عورته عن بصر غيره، ويد غيره من قيم وغيره، ويجب عليه إذا رأى من يخل بشيء من هذا أن ينكر عليه)[(٣)]. قال الشيخ ابن عثيمين في شرح الحديث: (قوله "لا تنظر المرأة إلى عورة المرأة ولا الرجل إلى عورة الرجل ولا يفضي الرجل إلى الرجل في الثوب الواحد...".

هذا نهي للناظرة أن تنظر إلى عورة المنظورة، يعني لو انكشت عورة المرأة المنظورة بريح أو بقضاء حاجة أو ما أشبه ذلك؛ فإنه لا يحل للأخرى أن تنظر إلى عورتها وهي ما بين السرة والركبة، وكذلك الرجل لو انكشفت عورته بريح، أو لغير هذا من

---

(١) سورة النور، آية: ٣١.

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم المسمى، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ١٨٦/٢، ١٨٧.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي، ص ٣١٦.

الأسباب؛ فلا يحل للرجل أن ينظر إلى عورة الرجل، وهذا الحديث تشبث به بعض النساء، فقلن: إن المرأة لا يلزمها أن تستر من بدنها إلا ما بين السرة والركبة، وهذا فهم خاطئ، لأن النبي ﷺ لم يرخص للمرأة أن تقتصر على ثوب يستر ما بين السرة والركبة، وإنما نهى المرأة الأخرى أن تنظر إلى عورة المرأة، والفرق بين الأمرين ظاهر فالمرأة اللابسة يجب أن يكون لباسها ساترًا، وكان نساء الصحابة رضي الله عنهن، يسترن ما بين كعب القدم إلى كف اليد، كل هذا مستور، لكن لو قدر أن امرأة انكشفت عورتها لحاجة، أو انكشفت من ريح أو غير هذا؛ فإن المرأة لا تنظر إلى ما بين السرة والركبة بالنسبة للأخرى، وكذلك يقال للرجل لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل وهي ما بين السرة والركبة، وهذا بالنسبة للرجل يجوز له أن يكشف الصدر والكتف لأخيه، بدليل أن يجوز للإنسان الرجل أن يقتصر على الإزار كما في حديث الرجل الذي طلب من النبي ﷺ أن يزوجه الواهبة، وهي امرأة جاءت إلى الرسول ﷺ قالت: يا رسول الله وهبت نفسي لك، فصعد فيها النظر وصوبه ولم تطب نفسه بها، سكت، فجلست المرأة، ثم قال رجل من القوم: زوجنيها يا رسول الله. قال: ما معك من الصداق، قال: معي إزاري، قال سهل راوي الحديث: ليس له رداء، ما عليه إلا إزار فقط، فقال له الرسول ﷺ: إن أعطيتها إزارك بقيت بلا إزار وإن أبقيته لك لم يكن لها مهر، اطلب، ابحث، التمس ولو خاتمًا من حديد، فذهب يلتمس فلم يجد ولو خاتمًا من حديد، فإنه فقير، فقال: هل معك شيء من القرآن؟ قال: نعم سورة كذا وكذا، قال: زوجتكها بما معك من القرآن[1]، يعني علّمها الذي معك من القرآن وهذا هو مهرها. فالشاهد من هذا أن الرجل لا بأس أن يقتصر على لبس الإزار، أما المرأة فلا يمكن أن تقتصر على لبس الإزار، وليس هذا من عادة نساء الصحابة رضي الله عنهن والله الموفق)[2].

لذا ينبغي اجتناب مثل هذه الأمور الشائنة، فإنها إن كثرت وظهرت في مجتمع فليُتَورَّع منه، إذ أنه أصبح مجتمعًا منحلاً لا قيمة له[3].

---

(١) أخرجه البخاري ٥١٢١.

(٢) انظر: شرح رياض الصالحين، ١٧٢٤/٢، ١٧٢٥.

(٣) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين، ٥٢٨٣/١١.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: حفاظ الإسلام على طهارة المجتمع من أسباب الفواحش:

إنّ الإسلام إذا أراد القضاء على أي مرض إنما يأمر بالقضاء على جذوره وروافده ومسبباته، كما جاء في الحديث النهي عن تلك الأمور التي قد تؤدي إلى الفاحشة، فقال ﷺ "لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد" ونبه ﷺ بنظر الرجل إلى عورة الرجل على نظره إلى عورة المرأة وذلك بالتحريم أولى[1].

إن الزنا فعلة قبيحة متناهية في القبح، توجب النفرة عن صاحبه، والتفرقة بين الناس، فبئس الطريق طريقه، فإنه غصب للأبضاع، مؤدٍ إلى اختلاف أمر الأنساب وهيجان الفتن[2]، والإسلام عندما نهى عن الزنا لم ينه عنه فحسب، بل نهى عن كل ما يؤدي إليه، (فالإسلام إذا نهى عن شيء نهى عن أسبابه، ففي النهي عن الزنا النهي عنه وعن مقاربته ومخالطة أسبابه ودواعيه[3] فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[4] فالقرب المنهي عنه هو أقل الملامسة، وهو كناية عن شدة النهي عن ملابسة الزنا، وقريب من هذا المعنى قولهم: ما كاد يفعل[5].

إن الإسلام لما حرم الزنى حرم الأسباب المفضية إليه، إذ أن قاعدة الشرع المطهر أن الله سبحانه إذا حرم شيئًا، حرم الأسباب والطرق والوسائل المفضية إليه؛ تحقيقًا لتحريمه، ومنعًا من الوصول إليه، أو القرب من حماه، ووقاية من اكتساب الإثم، والوقوع في آثاره المضرة بالفردة والجماعة.

ولو حرم الله أمرًا، وأبيحت الوسائل الموصلة إليه؛ لكان ذلك نقضًا للتحريم، وحاشا شريعة رب العالمين من ذلك.

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ٣١٦.

(٢) انظر: محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ٢٢٧/١٠/٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٧٢/٥.

(٤) سورة الإسراء، آية: ٣٢.

(٥) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٩٠/١٥/٦.

وفاحشة الزنا من أعظم الفواحش، وأقبحها وأشدها خطرًا وضررًا وعاقبةً على ضروريات الدين؛ ولهذا صار تحريم الزنى معلومًا من الدين بالضرورة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾[1].

ولهذا حُرِّمت الأسباب الموصلة إليه من: السفور ووسائله، والتبرج ووسائله، والاختلاط ووسائله، وتشبه المرأة بالرجل، وتشبهها بالكافرات، وهكذا... من أسباب الرِّيبة، والفتنة، والفساد.

وتأمل هذا السِّر العظيم من أسرار التنزيل، وإعجاز القرآن الكريم، ذلك أن الله سبحانه لما ذكر في فاتحة سورة النور شناعة جريمة الزنى، وتحريمه تحريمًا غائيًا، ذكر سبحانه من فاتحتها إلى تمام ثلاث وثلاثين آية أربع عشرة وسيلة وقائية، تحجب هذه الفاحشة، وتقاوم وقوعها في مجتمع الطهر والعفاف، جماعة المسلمين. وهذه الوسائل الواقية: فعلية، وقولية، وإرادية، وهي:

أ- تطهير الزناة والزواني بالعقوبة الحدية.

ب- التطهر باجتناب نكاح الزانية وإنكاح الزاني، إلا بعد التوبة ومعرفة الصدق فيها.

وهاتان وسيلتان واقيتان تتعلقان بالفعل.

ج- تطهير الألسنة عن رمي الناس بفاحشة الزنى، ومن قال ولا بينة، فيُشرع حد القذف في ظهره.

د- تطهير لسان الزوج عن رمي زوجته بالزنا ولا بينة، وإلا فاللعان.

هـ- تطهير النفوس وحجب القلوب عن ظن السوء بمسلم بفعل الفاحشة.

و- تطهير الإرادة وحجبها عن محبة إشاعة الفاحشة في المسلمين؛ لما في إشاعتها من إضعاف جانب من ينكرها، وتقوية جانب الفسقة والإباحيين.

ولهذا صار عذاب هذا الصنف أشد من غيره، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾[2].

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٣٢.

(٢) سورة النور، آية: ١٩.

ومحبة إشاعة الفاحشة تنتظم جميع الوسائل القبيحة إلى هذه الفاحشة، سواء كانت بالقول، أم بالفعل، أم بالإقرار، أو ترويج أسبابها، وهكذا.

وهذا الوعيد الشديد ينطبق على دعاة تحرير المرأة -في بلاد الإسلام- من الحجاب، والتخلص من الأوامر الشرعية الضابطة لها في عفتها وحشمتها وحيائها.

ز- الوقاية العامة بتطهير النفس من الوساوس والخطرات، التي هي أولى خطوات الشيطان في نفوس المؤمنين ليوقعهم في الفاحشة، وهذا غاية في الوقاية من الفاحشة، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ ﴾[1].

ح- مشروعية الاستئذان عند إرادة دخول البيوت، حتى لا يقع النظر على عورة من عورات أهل البيوت.

ط- تطهير العين من النظر المحرم إلى المرأة الأجنبية، أو منها إلى الرجل الأجنبي عنها.

ي- تحريم إبداء المرأة زينتها للأجانب عنها.

ك- منع ما يحرك الرجل ويثيره، كضرب المرأة برجلها؛ ليسمع صوت خلخالها، فيجلب ذوي النفوس المريضة إليها.

ل- الأمر بالاستعفاف لمن لا يجد ما يستطيع به الزواج، وفعل الأسباب.

والقرآن العظيم، والسنة المشرفة، مملوءان من تشريع الأسباب والتدابير الواقية من هذه الفاحشة في حق الرجال، وفي حق النساء.

فمنها في حق الرجال مع الرجال: وجوب ستر عورة الرجل، فلا يجوز للرجل كشف عورته من السرة إلى الركبة.

ومنها: حجب نظر الرجل عن النساء الأجنبيات.

ومنها: حجب الرجل عن مجالسة المردان من الذكران، والنظر إليهم تلذذًا.

ومنها في حق النساء مع النساء:

ستر عورة المرأة عن المرأة.

---

(١) سورة النور، آية: ٢١.

يحرم على المرأة أن تنعت المرأة لزوجها.

ومن أعظم الأسباب والتدابير الواقية من الزنى: فرض الحجاب على نساء المسلمين، لما يحمله من حفظهن، وحياتهن في عفة وستر وتصون وحشمة وحياء، ومجافاة للخنا، وطرد لنواقضها من التبذل، والتسفل، وانتزاع الحياء[1].

رابعًا- من أهداف الدعوة: الحث على التزام العفة وغض البصر عن المحرمات والتستر:

إن من أهداف الدعوة الحث على الالتزام بالعفة في جميع المجالات والتي منها العفة في المجال الاجتماعي، فحرم الإسلام الفواحش والرذائل وما قرب إليها من قول أو عمل، كما جاء في الحديث "لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد" فحرم النظر ولمس المحرمات، كما جاء ذلك في كثير من النصوص، ومنها قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾[2] وذلك لون من ألوان شيوع العفة في المجتمع، والذي إذا شاعت في مجتمع كان مجتمعًا صالحًا نظيفًا من المفاسد والمآثم، تحفظ فيه الأعراض، وتكف الجوارح عما حرم الله[3]. إن ضمان وسلامة المجتمع وحفظه يقتضي مزيدًا من الحذر والحيطة، والبعد عن المعاصي ودواعيها[4].

---

(١) حراسة الفضيلة، بكر بن عبدالله أبو زيد، ١٠٩-١١٣.

(٢) سورة النور، آية: ٣٠، ٣١.

(٣) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٢٨٨٨/٧.

(٤) انظر: فقه السيرة النبوية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص ٢٥١.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية على العفة والبعد عن الفواحش:

إذا علم المتربي أن:

مَـنْ يُطْعِـم الـنَفْسَ مَـا تَـشْتَهي كَمَـنْ يُطْعِـمُ النَـار جَـزْلَ الحَطْـب

حرص على ألا يكون عبدًا لشهواته، وألا يسترسل مع كافة رغباته لما في اتباع الشهوات من إذلال النفس، وموت الشرف، والضعةُ والتسفُّل[1].

وإذا أيقن أهل التربية والتوجيه أن تربية النشء على البعد عن الفواحش، يحقق بداخلهم العفة التي تحيط إيمانهم وأخلاقهم بسياج من الأمن فتحفظهم كلما عتت عليهم أمواج الفتن، وظلمات الليل، اجتهدوا في ذلك أيما اجتهاد، واتبعوا كل أمر فيه حفظ العفة وصونها في نفوس الأبناء.

ومن شواهد التربية على العفة في أحاديث الباب أمر النبي ﷺ بغض البصر وحفظ الحواس مما يشينها، ومن هذه الشواهد قوله ﷺ: «قالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قالَ: غَضُّ الْبَصَرِ»، وقوله ﷺ: «اصْرِفْ بَصَرَكَ»، وقوله ﷺ: «وَلاَ يَنْظُرِ الرَّجُلُ إِلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ...إلخ».

ومما لا جدال فيه أن النظرة إلى المرأة الأجنبية سهم من سهام إبليس، فمن تركها مخافة الله أبدله الله إيمانًا يجد حلاوته في قلبه... ومما لاشك فيه أن النظرة التي تتبعها النظرة تؤدي إلى الانجذاب الشهواني نحو المرأة أو نحو الرجل، وهذا الانجذاب يتبعه الابتسامة، والابتسامة يتبعها السلام، والسلام يتبعه الكلام، والكلام قد يتبعه الموعد واللقاء، واللقاء يؤدي لا محالة إلى نتائج وخيمة لا تحمد عقباها!!!.

فقديمًا قال الشاعر:

كُـلُّ الْحَـوَادِثِ مَبْـدَاهَا مِـنَ النَّظَـرِ وَمُعْظَـمُ النَّـارِ مِـنْ مُسْتَـصْغَرِ الـشَّرَرِ

---

(١) رسائل في التربية والأخلاق والسلوك، محمد إبراهيم الحمد، ٤٦٢ بتصرف.

ويكفي النظرات الخائنة إلى المرأة ضررًا أنها تسد في الإنسان منافذ التفكير الصافي، وتشغله عن كثير من الواجبات، وتؤدي إلى حرمانه من بعض الطاعات كما تؤدي إلى تفسخ الأمة وانحلالها، وتجعل من الشباب المتفسخ المتميع... شباب لهو وعبث... يسيرون في الحياة بلا هدف ولا غاية ... بل هم أخطر ما يكونون على الأمن والاستقرار، وأضر ما يكون على الفضيلة والأخلاق!!"[1].

ومما يُدمي القلوب أن التفريط في غض البصر سيئة لا يكاد يخلو منها أحد إلا من رحم الله، وجاهد نفسه وهواه. والناس فيها بين مقل ومكثر؛ فالنظر إلى النساء الأجنبيات وإلى صورهن في الأفلام والمجلات والصحف؛ كل هذا قد جاءت الشريعة بتحريمه، إلا نظر الفجاءة الأولى[2]، ويكفي في ذلك ما ورد في أحاديث الباب.

وحتى يضع أهل التربية والتوجيه أيديهم على الجرح والدُمّل، ومن ثم علاج الداء، كان عليهم ما يلي:

١ - تقوية المراقبة لله تعالى في نفوس المتربين والمتعلمين، وذلك يكون كما قال ابن القيم: بدوام تعلم العبد وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه[3]، "وهي منزلة عالية جعلها النبي ﷺ أعلى مراتب الدين، فقال في حديث جبريل المشهور: «الإِحْسَان: أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ. فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[4].

وعن عبدالله بن معاوية الغاضري، أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثٌ من فَعَلَهُنَّ فَقَدْ طَعِمَ طَعْمَ الإيمانِ: من عَبَدَ الله وَحْدَهُ فإِنَّهُ لاَ إِلَهَ إلا الله، وأَعْطَى زكاةَ مالِهِ طَيِّبَةً بها نَفْسُهُ رافِدَةً في كُلِّ عامٍ، ولم يُعْطِ الهَرِمَةَ ولا الدَّرِنَة ولا الشَّرَطَ اللائمةَ ولا المريضةَ ولكن من أَوْسَطِ أموالِكُمْ، فإنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لم يَسْأَلْكُمْ خَيْرَهُ ولم يأمُرْكُمْ بِشَرِّهِ،

---

(١) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ٥٨٤/١.

(٢) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبدالعزيز بن ناصر الجليل، ١٢٦/١، ١٢٧.

(٣) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم، ٦٨/٢، بتصرف يسير.

(٤) أخرجه مسلم، ٥.

وزَكّى عَبْدٌ نَفْسَهُ»، فقالَ رجلٌ: ما تزكيةُ المرءِ نَفْسَهُ يا رسولَ اللّه، قالَ: «يَعْلَمُ أَنَّ اللّه مَعَهُ حيثُ ما كانَ»[١][٢].

٢ - تقوية الوازع الديني لدى المتربين والمتعلمين، وذلك يكون بربط الولد بالعقيدة الربانية، حيث حضور مجالس العلم والذكر، والمداومة على الفروض، وصلاة النفل، والمواظبة على تلاوة القرآن، والتهجد في الليل والناس نيام، والاستمرار على صيام المندوب والتطوع، والاستماع إلى أخبار الصحابة رضي الله عنهم والسلف، واستذكار الموت وما بعده، والارتباط بالرفقة الصالحة والجماعة المؤمنة، كل ذلك إذا فعله الشباب أو المتربي قوي في نفسه الوازع الديني، وتجنب مواطن الفساد، وابتعد عن الميوعة والتحلل، ووصل إلى قمة العفة والتسامي[٣].

٣ - بيان أن الإسلام لم يكن يومًا دين كبت ورهبنة، وإنه قد أوجد ما يسد على الشاب ضعفه ويُقوي عليه إيمانه في عدم النظر المحرم، وذلك بإقام سنة اللّه على طبيعة الأنفس بالزواج، فإن تعذر ذلك، وجب على أهل التربية والتوجيه بيان ماتتسامى به العفة، وذلك ما بينه علي الطنطاوي، في قوله: ضرورة أن يُنفسَ المتربي الشاب عن نفسه بجهد روحي أو عقلي أو قلبي أو جسدي ... يستنفد هذه القوة المدخرة، ويخرج هذه الطاقة المحبوسة ... بالالتجاء إلى اللّه والاستغراق في العبادة، أو بالانقطاع إلى العمل والانغماس في البحث، ... أو بالجهد الجسدي والإقبال على الرياضة، والعناية بالتربية الدينية أو البطولة الرياضية[٤].

٤ - بيان سوء عاقبة النظر المحرم من ضياع الإيمان وشؤم وحرارة المعصية، حيث قال ابن تيمية: "فإن أصر على النظر وعلى المباشرة صار كبيرة، وقد يكون الإصرار

---

(١) أخرجه البيهقي، ١٩٥/٤، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ١٠٤٦.

(٢) تربية الشباب، "الأهداف والوسائل"، محمد عبدالله الدويش، ٥٧، ٥٨.

(٣) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ٥٨٥/١.

(٤) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ٥٩٣/١.

على ذلك أعظم من قليل الفواحش فإن دوام النظر بالشهوة وما يتصل به من العشق والمعاشرة والمباشرة، قد يكون أعظم بكثير من فساد زنًا لا إصرار عليه"[١].

وقال ابن القيم: "والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان، فإن النظرة تولد الخَطْرة ثم تولد الخطرة فكرة، ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة، ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة فيقع الفعل ولابد ما لم يمنع منه مانع"[٢].

٥ - بيان حسن جزاء من ترك النظر الحرام من أجل الله: وذلك بيان تخليص القلب من ألم الحسرة، حيث قال الأصمعي: رأيت جارية كأنها مَهاة، فجعلت أنظر إليها، وأملأُ عيني من محاسنها، فقالت لي: يا هذا ما شأنك؟ قلت، وما عليك من النظر؟ فأنشأت تقول:

وَكُنْتَ مَتَى أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِدًا ... لِقلبكَ يَوْمًا أتْعَبَتْكَ المَنَاظِرُ

رَأَيْتَ الَّذِي لا كُلُّهُ أَنْتَ قَادِرٌ ... عَلَيْهِ وَلا عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرُ[٣]

لذا قال رجل لابن المبارك: أوصني فقال له: "اترك فضول النظر توفق للخشوع، واترك فضول الكلام توفق للحكمة، واترك فضول الطعام توفق للعبادة، واترك التجسس عن عيوب الناس توفق للاطلاع على عيوب نفسك، واترك الخوض في ذات الله تواق الشك والنفاق"[٤].

وكان من عظم الجزاء العاجل لغض البصر في الدنيا، نور القلب وانشراح الصدر، وجلاء البصيرة، ووضوح الرؤية، وجعل الإنسان أكثر إيمانًا، وأكثر يقينًا....، فالله تعالى يجزي العبد على عمله بما هو من جنسه، فلما منع العبد نور بصره أن ينفذ إلى ما لا يحل له، أطلق الله نور بصيرته، وفتح عليه باب العلم والمعرفة، وذلك فضلاً عن

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٥/٢٩٣.

(٢) الجواب الكافي، ٢٢٤.

(٣) الله أهل الثناء والمجد، د. ناصر بن مسفر الزهراني، ٥٣٥.

(٤) سلسلة أعلام المسلمين، محمد عثمان جمال، ١٨٨، نقلًا عن الفوائد التربوية من فتاوى ابن تيمية، جمع وشرح، أحمد يوسف الأنصاري، ص٣٩.

توريث صحة الفراسة، وتسهيل طرق العلم، وفتح أبوابه، وذلك بسبب نور القلب، فإنه إذا استنار ظهرت فيه حقائق المعلومات، وانكشفت له بسرعة، ونفذ من بعضها إلى بعض، وأيضًا توريث القلب قوة وثباتًا وشجاعة وسرورًا وفرحًا، وانشراحًا، وذلك لقهر عدوه بمخالفته، ومخالفة نفسه وهواه[1]، ولو حصرنا فوائد غض البصر لما وسع البحث لآلئه وجواهره، ولكن نختم القول بما ورد عن عنترة بن شداد، - وهو الذي لم يحكمه دين، لعل نفوس المتربين الشاردة عن غض البصر تستحي من شؤم ما تفعل - :

وَأَغُضّ طَرْفِي ما بَدَتْ لي جارَتي حتّى يُوَارِي جارتي مَأْوَاهَا

فأين كثير من المسلمين من هذا الخلق الرفيع، والأدب الجميل:

يا وجه عنترة العبسي معذرة إني أراك كسيف البال مكتئبًا
أراك تنكر قومًا كنت تعرفهم وتنكر الوجه والأخلاق والنسبا
كأنما لم تجد ما كنت تعهده ومن غيرةٍ وحياءٍ يبلغ السحبا
ذلك امرؤ جاهليٌّ ما رأى خلقًا من النبي ولم يستنطق الكتبا
لكنه العربي الشهم يمنعه حياؤه من صفات تحرق الأدبا[2]

ثانيًا: التربية بالترهيب:

لقد ترائى الترهيب كأسلوب تربوي في تنشئة المتربين والمتعلمين على البعد عن النظر المحرم، أو السمع المحرم أو اللمس أو المشي المحرم، وذلك في نص حديث الباب من قوله ﷺ: «كُتِبَ عَلَىٰ ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنَ الزِّنَى...إلخ».

حيث أثبت النبي ﷺ لفظ الزنا لكل نظرة حرام أو سمع أو لمس أو مشي أو تفكير بالقلب محرم، وإن كان هذا الإثبات للفظ الزنا مجازيًا -كما قال النووي[3]- وذلك لقوله ﷺ: «وَيُصَدِّقُ ذَٰلِكَ الْفَرْجُ أَوْ يُكَذِّبُهُ». إلا أن ذلك كافيًا لترهيب قلوب المتربين والناشئة من النظر أو السمع أو اللمس أو المشي أو التفكير بالقلب فيما حرمه الله.

---

(١) الله أهل الثناء والمجد، د. ناصر بن مسفر الزهراني، ٥٣٧، ٥٣٨.

(٢) المرجع السابق، ٥٤٠.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي، ١٤٧٣.

ومن هذا المنطلق نبين لدعاة التربية والتوجيه أن الترهيب كأسلوب تربوي يمثل القوة الصادة عن الانحراف إلى سبيل الشر التي ينهي عنها الإسلام، وذلك لأن إثارة المخاوف من سلوك سبيل ما، أو القيام بعمل ما، -كما ورد في أحاديث الباب من تحريم النظر إلى الأجنبية والأمرد الحسن لغير حاجة شرعية- من شأنها أن تقلل من اندفاع الإنسان نحو ذلك السبيل أو ذلك العمل[1].

لذا وجب على القائمين بالتربية والتوجيه عدم الغفلة عن استعمال الترهيب كأسلوب تربوي كلما اقتضته الحاجة.

ثالثًا: التربية الوقائية:

إن وقاية المتربي والمتعلم من ارتكاب المعاصي والرذائل، لمن أعظم الأعمال التربوية التي يناط بأهل التربية والتوجيه، القيام بها، حيث تعمل التربية الوقائية على تحصين الفرد وتحذيره فكريًا وسلوكيًا من بعض الأمور السلبية المستقبلية، أو الامتناع عن فعل ما، من شأنه أن يفضي إلى مفسدة أكبر منه[2].

وهذا ما فعله النبي ﷺ مع أمته حيث وقاهم من شر النظر المحرم، وذلك بعدم الجلوس في الطرقات، وذلك في قوله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطُّرُقَاتِ»..إلخ، وقوله ﷺ: «مَا لَكُمْ وَلِمَجَالِسِ الصُّعُدَاتِ؟ اجْتَنِبُوا مَجَالِسَ الصُّعُدَاتِ»، وقوله ﷺ: «..وَلاَ يُفْضِي الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، وَلاَ تُفْضِي الْمَرْأَةُ إِلَى الْمَرْأَةِ فِي الثَّوْبِ الْوَاحِدِ».

رابعًا: التربية على مراعاة آداب الطريق:

إن التربية الإسلامية تعمل على تهذيب أخلاق المسلم، وتنمية مشاعره الطيبة التي تراعى من خلالها الحرمات، وتصان الأعراض، وتحفظ الجوارح؛ لذا أوجب الإسلام أن يتأدب المسلم بآداب الطريق، التي بينها النبي ﷺ في حديث الباب في قوله: «....غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَىٰ، وَرَدُّ السَّلاَمِ، وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ».

---

(١) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني، ٢٥٠.

(٢) المرجع السابق، ٢٥٦.

فللناس أندية ومجالس يجتمعون فيها، ويتحدث بعضهم إلى بعض، وما جلس قوم في مكان لا يذكرون الله فيه إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة، ومن الأماكن التي يحضرها الخاصة والعامة، ويختلط الحابل فيها بالنابل، الطرقات العامة يسلكها الرجال والنساء، ويمر فيها الأشراف والسفهاء، فيظهر للعيان منكر وزور من القول والفعل، ويترك المعروف ولا يتجاسر على الأمر به، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾[1]، ومن أجل ذلك نهينا عن القعود حسمًا لمادة الشر، وسدًا لأبواب الفساد، ولئن كان في ذلك شيء من المصالح، فالقاعدة أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، وإن أبى أحد إلا القعود فلا حرج عليه إذا عرف حق الطريق، وقام به، وهو كما في الحديث خمسة أشياء: «غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ»[2]، لذا وجب على القائمين بالتربية والتوجيه غرس هذه الآداب والأخلاق في نفوس الناشئة حتى يستضيئوا بمعرفتها ويلتزموا بإقامتها.

خامسًا: السؤال والحوار:

إن من أجل الأساليب التربوية التي تزيل اللبس والغموض: السؤال والحوار.

فالإنسان بحاجة إلى أن يستفهم عن الأمور التي تخفى عليه، أو التي يحتاج فيها إلى مزيد من البيان والإيضاح حتى يكون على بصيرة وعلم، فها هو ذا، النووي، رجل العلم والعمل، والذي قيل فيه: "إنه كامل العقل، وقل مثله في الناس من كمل، وفق للعلم وسهل عليه، ويسر له وسير إليه"، يجهل ويلتبس عليه بادئ أمره ما يوجب الغسل، فيقول: ولما قرأت قول التنبيه: يجب الغسل من إيلاج الحشفة، كنت أظن أنها قرقرة الجوف، فقعدت مدة اغتسل منها بالماء البارد، حتى تشقق ظهري[3].

إذًا فإن كان هذا العالم الجليل -الذي شهد له العلماء بعلمه- قد غاب عنه أشياء وجهل أشياء، ولم يزلها إلا بالسؤال والاستفهام، فقد وجب على جموع المتربين والمتعلمين

---

(١) سورة ص، الآية: ٢٤.

(٢) إصلاح المجتمع، محمد سالم البيحاني، ١٤١، ١٤٢.

(٣) المنهج السوي في ترجمة النووي، السيوطي، ص٥٢، ٥٤.

السؤال والاستفهام والحوار من أجل كشف ما غاب عنهم، وعلم ما جُهل منهم، لذا أدرك الصحابة رضي الله عنهم أهمية ذلك، فحرصوا رجالاً ونساءً على السؤال والحوار مع معلم البشرية الأول محمد ﷺ، وهذا ما ترائى جليًا في أحاديث الباب من سؤال الصحابة رضي الله عنهم وحوارهم معه ﷺ حول آداب الطريق والنظر، وذلك في قولهم رضي الله عنهم: «...وما حق الطريق يا رسول الله؟!...إلخ»، وقول أمهات المؤمنين رضي الله عنهن: «... يَا رَسُول الله أَلَيْسَ هُوَ أَعْمَى لا يُبْصِرُنَا ، وَلاَ يَعْرِفُنَا؟ فَقَالَ النبي ﷺ -محاورًا لهما ومقنعًا لفكرهما-: «أَفَعَمْيَاوَانِ أَنْتُمَا أَلَسْتُمَا تُبْصِرَانِهِ؟!».



٢٩١- باب تحريم الخلوة بالأجنبية

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾[الأحزاب: ٥٣].

الحديث رقم (١٦٣٠)

١٦٣٠ - وعن عقبة بن عامر ﵁: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: ((**إيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ!**)) فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأنْصَارِ[1]: أفَرَأيْتَ الحَمْوَ؟ قَالَ: ((**الحَمْوُ المَوْتُ!**)). متفق عَلَيْهِ[2]. "الحَمْوُ" قريب الزوج كأخيه، وابن أخيه، وابن عمه.

ترجمة الراوي:

عقبة بن عامر الجهني: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٠١٤).

الشرح الأدبي

هذا هو الحديث الأول في باب تحريم الخلوة بالأجنبية، ويبدأ الحديث بصيغة لغوية تتفق مع المراد منه، وهو التحذير من الاختلاط الذي يؤدي إلى الفساد وانحلال الأخلاق، ولذلك يصوغ الرسول ﷺ هذا المعنى في أسلوب التحذير في قوله: "إياكم والدخول على النساء".

وضمير المخاطب المنفصل "إياكم" يتصدر الجملة ويتصدر الحديث: وهو الذي يتشكل منه التحذير اللغوي والمعنوي، والمخاطبون هم كل المسلمين، وفي مقدمتهم الذين حضروا هذه المحاورة من الصحابة رضوان الله عليهم، والمعنى المقصود هو: أحذركم أن تدخلوا على النساء، وإذا لم يستجب المسلمون للتحذير فالعقاب شديد، والعواقب وخيمة، فأسلوب التحذير تكمن خلفه نذر شديدة، ومعان سديدة يجب أن يحذر المسلم التعرض لآثارها وأخطارها.

---

(١) عندهما زيادة: (يا رسول الله).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٣٢)، ومسلم (٢٠/٢١٧٢) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٢٨٥٢).

والجزء الثاني من الحديث: هو سؤال من أحد الأنصار، ثم جواب من رسول الله ﷺ، والسؤال موجه إلى رسول الله ﷺ: "أفرأيت الحمو؟" والاستفسار هنا حقيقي ورأى هنا بمعنى علم، أي: ما حكم "الحمو" وهو قريب الزوج كأخيه وابن أخيه وابن عمه في الدخول على النساء، ولفظ "الحمو" ربما يوحي بالحماية، ولكنه هنا يوحي بالضرر، والأذى حيث يقول العرب: حمو الشمس: أي حرها، ويقولون: الحماة: عضلة الساق.

وإجابة رسول الله ﷺ تتسم بالإيجاز والإفادة والتحذير والمنع، حيث قال: "الحمو الموت"، وفي هذه العبارة تشبيه بليغ، حيث شبه الحمو بالموت، في حال الخلوة، فالخلوة بالأحماء مؤدية إلى الفتنة والهلاك، فجعل هذا كهلاك الموت.

فتأمل كيف أجاب رسول الله ﷺ السائل في إيجاز مبين، وبيان يشع بالمعاني والمقاصد الشريفة الجليلة، صونًا للحرمات، وحرصًا على جمال ما بين المسلمين من قربات وصلات.

فقه الحديث

ويشتمل هذا الحديث على الأحكام الفقهية الآتية:

١- تحريم الدخول على النساء، وهذا التحريم مقيد بقيدين:

أحدهما: ألا يكون الداخل زوجًا للمدخول عليها، ولا محرمًا، والمقصود بالمحرم هنا من حرم عليه نكاحها على التأبيد بسبب مباح لحرمتها.

فقولنا "على التأبيد" احتراز من أخت امرأته، وعمتها، وخالتها، ونحوهن ومن بنتها قبل الدخول بالأم.

وقولنا "بسبب مباح" احتراز من أم الموطوءة بشبهة، وبنتها، فإنها حرام على التأبيد، لكن لا بسبب مباح، فإن وطء الشبهة لا يوصف بحل ولا حرمة ولا غيرهما، لأنه ليس فعل مكلف.

وقولنا "لحرمتها" احتراز عن الملاعنة فهي حرام على التأبيد، لا لحرمتها بل للتغليظ.

ثانيهما: أن يتضمن الدخول الخلوة[1]، والمعنى في تحريم الخلوة بالأجنبية، أنه مظنة الوقوع في الفاحشة بتسويل الشيطان، فقد روى الترمذي عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ((لا تَلِجُوا على المغيَّباتِ فإنَّ الشَّيْطانَ يَجْرِي مِنْ أَحَدِكُمْ مَجْرَى الدَّمِ))[2].

٢- إن رسول الله ﷺ قال: "الحمو الموت"، وذلك لأن الخوف منه أكثر من غيره، وذلك لتمكنه من الوصول إلى المرأة، والخلوة بها، دون أن ينكر عليه، بخلاف الأجنبي.

والمراد بالحمو -هنا- أقارب الزوج غير آبائه وأبنائه، أما الآباء، والأبناء فمحارم لزوجته تجوز لهم الخلوة بها، ولا يوصفون بالموت وإنما المراد الأخ وابن الأخ والعم وابنه ونحوه ممن ليس بمحرم[3].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التحذير.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: اجتناب الدخول على النساء الأجنبيات.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الحذر من دخول أقارب الزوج على زوجته.

خامسًا: من أهداف الدعوة: الحفاظ على طهارة المجتمع من الفاحشة وأسبابها.

أولاً- من أساليب الدعوة: التحذير:

وذلك في قوله ﷺ "إياكم والدخول على النساء" أي احذروا أن تدخلوا على النساء الأجنبيات، وهذا تحذير بالغ[4]. وأسلوب التحذير من الأساليب الدعوية المفيدة،

---

(١) طرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ٣/٧.

(٢) أخرجه أحمد ٣٠٩/٣ رقم ١٤٣٢٤، وضعفه محققو المسند ٢٢٦/٢٢، ٢٢٧.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ١٥٤/١٤، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٤١/٤، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٢٤٤/٦، وفتح الباري، ابن حجر ٣٣١/٩، وشرح عمدة الأحكام ٤٤/٤.

(٤) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين ١٧٢٦/٢.

لما فيه من إيقاف المدعوين على مواطن الخطر، وإعلامهم بها، وتحذيرهم من الوقوع فيها، وحملهم على اجتنابها والابتعاد عنها(١).

ويمكن تعريف التحذير: بأنه التحرز من إتيان فعل أو امتناع عنه لكونه سببًا في غضب الله تعالى وعذابه، أو سببًا في إلحاق ضرر بالأمة والمجتمع المسلم، مما يدفع باتجاه الاستعداد والتأهب لتجنب حصول ذلك.

وقد ورد في كتاب الله تعالى آيات كثيرة تحذر من مغبة الوقوع في المحذور، فمما ورد من آيات تحذر من غضبه تعالى، على سبيل المثال التصريح بخطبة النساء وهنَّ في عدَّتهن، قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾(٢).

وقال أيضًا محذرًا من اتخاذ المشركين أولياء: ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٤).

وأما التحذير من فعل يسبب إلحاق ضرر بالأمة ومصالحها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾(٥).

ومنه تحذيره تعالى من المنافقين والتنبيه على خطرهم واعتبارهم العدو الأول بقوله: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾(٦).

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ص ١٦٦٦.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٣٥.

(٣) سورة آل عمران، آية: ٢٨.

(٤) سورة النور، آية: ٦٣.

(٥) سورة النساء، آية: ٧١.

(٦) سورة المنافقون، آية: ٤.

وقال محذرًا من فتنة الأزواج والأولاد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾(١).

ومثل ما ورد التحذير في القرآن الكريم كأسلوب تربوي، كذلك ورد على لسان الرسول ﷺ كأسلوب تربوي توجيهي، منه ما يتعلق بالتحذير من المعاصي واقتراف ما نهى الله تعالى عنه، ومنه ما ورد في التحذير مما يسبب في إلحاق الضرر بالأمة والمجتمع، وبصيغٍ مختلفة كالترهيب والوقاية، وبيان العقوبة المترتبة على عمل فعل أو تركه، والنصيحة وغيرها.

ويختلف التحذير عن الموعظة في كونه إنذارًا من خطر قادم، يتضمن وعيدًا وزجرًا ينتج عنه خوف ورهبة.

بينما الموعظة تذكير بفعل الخير والحق، على الوجه الذي يرقُّ له القلب محفوف بتلَطّف وتودُّد(٢).

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: اجتناب الدخول على النساء الأجنبيات:

جاء ذلك في صريح الحديث، فقال ﷺ "إياكم والدخول على النساء" أي الأجنبيات على وجه الخلوة بهن، أو هن مكشوفات، قال القرطبي: (وقوله "إياكم والدخول على المغيبات هذا تحذير شديد، ونهي وكيد، كما يقال إياك والأسد، وإياك والشر أي اتق ذلك واحذره(٣). قال النووي: (وفي ذلك تحريم الخلوة بالأجنبية(٤). وقد جاءت الآيات الدالة على تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية، وإن اضطر إلى الحديث معهن فليكن من وراء حجاب، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ﴾(٥) أي وكما نهيتكم عن الدخول عليهن كذلك لا تنظروا

---

(١) سورة التغابن، آية: ١٤.

(٢) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد العاني، ص ١٤٩، ١٥٠.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٥/٥٠٠، ٥٠١.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي ١٣٦٠.

(٥) سورة الأحزاب، آية: ٥٣.

إليهن بالكلية، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهم فلا ينظر إليهن، ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب، فذلك الذي أمرتكم به وشرعته لكم من الحجاب أطهر وأطيب"[1]. قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: (وإذا كان الخطاب لأزواج النبي ﷺ والصحابة، فلاشك أنهم خير أسوة في الآداب الكريمة، المقتضية للطهارة التامة، وعدم التدنس بأنجاس الريبة)[2].

ثالثًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

ورد ذلك في الحديث "فقال رجل من الأنصار: أفرأيت الحمو؟ قال: الحمو الموت" وأسلوب السؤال والجواب من أساليب الأداء البياني، والذي له قيمة تأثيرية عظيمة، لدى طارحي الأسئلة، الذين يتلقون الإجابات على أسئلتهم، فهم إذا تلقوا الجواب تلقفوه تلقفًا، لأن كل أبواب أفكارهم ونفوسهم متفتحة لتلقي الإجابة والنظر فيها بإمعان[3]، وقد ورد هذا الأسلوب في كثير من آيات القرآن مثل قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾[4] وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ﴾[5].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الحذر من دخول أقارب الزوج على زوجته:

جاء التصريح بهذا التحريم عامة وعلى أقارب الزوج خاصة فقال ﷺ: "إياكم والدخول على النساء، فقال رجل من الأنصار: أفرأيت الحمو؟ قال: الحمو الموت" قال القاضي عياض: (وقوله: "الحمو الموت" قال الإمام المازري: قال أبو عبيد: يقال فلتمت ولا تفعل هذا، قال ابن الأعرابي: وهي كلمة تقولها العرب كما تقول الأسد الموت أي لقاؤه مثل الموت. قال القاضي: يريد في هذا لما فيه من الغرر المؤدي إلى الموت فكذلك الخلو بالأحماء مؤدٍ إلى الفتنة والهلاك في الدين، فجعله كهلاك الموت، فأورد هذا مورد

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤٥٥/٦.

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي ٥٨٧/٦.

(٣) فقه الدعوة إلى الله، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ٥٨/٢، ٥٩.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٨٩.

(٥) سورة الأنفال، آية: ١.

التغليظ والتشديد، والأشبه أنه في غير أبي الزوج ومَنْ عدا المحارم منهم، بدليل ما روي عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((ألا لا يبيتن رجل عند امرأة ثيب إلا أن يكون ناكحًا أو ذا محرم))[1]. فقد فسر أن الحرج والمنع إنما هو لغير ذوي المحارم)[2]. وقال القرطبي: (وقوله "الحمو الموت" أي دخوله على زوجة أخيه يشبه الموت في الاستقباح والمفسدة، أي: فهو محرم معلوم التحريم، وإنما بالغ في الزجر عن ذلك وشبهه بالموت، لتسامح الناس في ذلك من جهة الزوج والزوجة لإلفهم لذلك، حتى كأنه ليس بأجنبي من المرأة عادة، وخرج هذا مخرج قول العرب: الأسد الموت والحرب الموت أي لقاؤه يفضي إلى الموت، وكذلك دخول الحمو على المرأة يفضي إلى موت الدِّين، أو إلى موتها بطلاقها عند غَيْرة الزوج، أو برجمها إن زنت معه)[3]. وهذا التحذير "الحمو الموت" كلمة من أبلغ ما يكون من التحذير، يعني كما أن الإنسان يفر من الموت فيجب أن يفر من دخول أقاربه على زوجته وأهله بلا محرم، وهذا يدل على التحذير الشديد، ودخول أقارب الزوج على بيت الزوج أخطر من دخول الأجانب، لأن هؤلاء يدخلون باعتبارهم أقارب فلا يستنكرهم أحد، وإذا وقفوا عند الباب يستأذنون لم ينكر عليهم أحد، لذلك كان حرامًا على الإنسان أن يمكن أخاه من الخلوة بزوجته[4].

خامسًا- من أهداف الدعوة: الحفاظ على طهارة المجتمع من الفاحشة وأسبابها:

إن الحفاظ على طهارة المجتمع لمن أسمى الأهداف الدعوية، لذا كانت النصوص الآمرة بالحجاب وغض الأبصار وحفظ الفروج، وحرمة الخلوة بالنساء الأجنبيات والدخول عليها كما جاء في الحديث "إياكم والدخول على النساء فقال رجل من الأنصار: أفرأيت الحمو؟ قال: الحمو الموت" وتلك المبالغة في أخذ الحيطة والحذر إنما شرعت، تزكية للنفوس، وتطهيرًا للمجتمع من أدران الفاحشة، والتردي في بؤرة الفساد

---

(١) أخرجه مسلم ٢١٧١.

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم المسمى، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٦٠/٧.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٥٠٢/٥.

(٤) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين، ١٧٢٦/٢.

والتحلل الخلقي، وتجنبًا للنفوس من أسباب الإغراء والغواية، وقد زاد الإسلام المرأة تزكية وطهرًا أن كلفها زيادة على الرجل بعدم إبداء الزينة لغير المحارم من الأقرباء، وفرض عليها الحجاب الشرعي، ليصون لها كرامتها، ويحفظها من النظرات الجارحة، والعيون الخائنة، ويدفع عنها مطامع المغرضين الفجار، والإسلام بهذا إنما يهدف إلى إقامة مجتمع نظيف، لا تهاج فيه الشهوات في كل لحظة ولا تستثار[1]. ولذلك نجد أن الإسلام يغرس في المجتمع خلق العفة والابتعاد عن المحرمات في جميع المجالات، فمثلاً في المجال الاقتصادي يقول الله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[2]. وفي المجال الاجتماعي قال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[3].

---

(١) روائع البيان، تفسير آيات الأحكام، محمد علي الصابوني، مكتبة الغزالي، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ٢/١٦٩.

(٢) سورة النساء، آية: ٦.

(٣) سورة النور، آية: ٣٣.

الحديث رقم (١٦٣١)

١٦٣١ - وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَالَ: ((**لاَ يَخْلُونَّ (أَحَدكُمْ)** [١] **بامْرَأَةٍ إلاَّ مَعَ ذِي مَحْرَمٍ**)). متفق عَلَيْهِ[٢].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

ذوم محرم: محرم المراة: من لا يحل له نكاحها من الأقارب كالأب والابن والأخ والعم ومن يجري مجراهم[٣].

الشرح الأدبي

حين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف: نجد التشديد والتحذير هو طابع الأسلوب في هذا الحديث: وذلك يتسق مع مناخ الحديث السابق، ومع الحكم الشرعي في هذه المسألة، فقوله في الحديث السابق: "الحمو الموت"، يمهد لما في هذا الحديث من نهي ونفي وتوكيد، فإذا كان قريب الزوج يحاكى الموت في خطورته، فما بالنا بالأجنبي الذي لا يراعى حرمة، ولا يحفظ عرْضًا: ويرد الحديث في صيغة الاستثناء المنقطع، وهذا الاستثناء يتضمن النهي القاطع مع التأكيد: مع إفادة استمرار النهي حيث عبر بصيغة المضارع.

وكل ذلك في قوله: "لا يخلون"، وقوله: أحدكم: يفيد العموم والخصوص: فلفظ أحد عام، ولكن الخطاب خصصه بكل من سمع الخطاب أو كلف به من المسلمين، وتنكير "امرأة" يوحي بالشمول: فأي امرأة في أي زمان؟ وأي مكان لا يحل للأجنبي

---

(١) عندهما بلفظ: (رجل) بدل: (أحدكم) والمثبت لفظ المنذري في ترغيبه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٠٦)، ومسلم (١٣٤١/٤٢٤)ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٢٨٥٣).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح ر م).

عنها الدخول عليها: إلا مع ذي محرم لها، وفي اللغة يقولون: رحم محرم "أي محرَّم تزوجها، وقيل: تحرم منه بحرمة: أي: تمنع. وتحمى بذمة، فالقاعدة هي عدم الخلوة بالمرأة، وعدم السفر معها، وعدم الدخول إليها، والاستثناء هو أن يكون ذلك جائزًا: لذي محرم، وهو الذي يحرم تزوجه من الرجال، وجاء التعليل البليغ الموجز في قوله ﷺ: «لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان»[1].

ووراء هذا التعبير ما وراءه من التفسيرات والدلالات والإشعاعات: وكلها تموج بالأخطار التي يحملها لفظ الشيطان، نعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۝ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾[2].

فقه الحديث

وفي هذا الحديث من الأحكام: حرمة خلوة الرجل بالمرأة الأجنبية عنه من غير ثالث معهما فهو حرام باتفاق العلماء، وكذا لو كان معهما من لا يستحي منه كصغره كابن سنتين وثلاث ونحو ذلك، فإن وجوده كالعدم. أما لو اجتمع رجل مع نسوة أجانب، فإن الصحيح جوازه[3].

وأما الخلوة بالأمرد الأجنبي الحسن، فكالمرأة، فتحرم الخلوة به حيث حرمت بالمرأة، إلا إذا كان في جمع من الرجال المصونين.

ويستثنى من ذلك كله مواضع الضرورة، كأن يجد رجل امرأة منقطعة في الطريق، ونحو ذلك فيباح له استصحابها، بل يلزمه ذلك إذا خاف عليها لو تركها، وهذا لا خلاف فيه، ويدل عليه حديث عائشة في قصة الإفك[4].

---

(١) أخرجه الترمذي ١١٧١، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي، ٩٣٤).

(٢) سورة المؤمنون، الآيتان: ٩٧، ٩٨.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ١٠٩/٩، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ١٥/٥.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي ١٠٩/٩. وحديث الإفك أخرجه البخاري ٤١٤١، ومسلم ٢٣٨٨.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: البعد عن الخلوة بالمرأة الأجنبية إلا مع ذي محرم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: أهمية اجتناب كافة الأسباب المؤدية إلى الفاحشة.

أولاً- من أساليب الدعوة: النهي:

ورد النهي في الحديث في قوله ﷺ "لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذي محرم" وأسلوب النهي من الأساليب التي لها قيمة تأثيرية عظيمة في نفوس المدعوين، وذلك لما فيه من إيقاف المدعوين على مواطن الخطر، ومزالق الردى، وتحذيرهم منها، وقد استخدم القرآن أسلوب النهي في كثير من آياته، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾[1] وقوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾[2].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: البعد عن الخلوة بالمرأة الأجنبية إلا مع ذي محرم:

لقد حرص الإسلام على سلامة المسلمين، بسد الطريق أمام الزنا ودواعيه، ومواجهة ذلك مواجهة حاسمة بمنع ما عدا المحارم من الخلوة بالمرأة ولو كانوا أقارب الزوج، إذ أن الخلوة المحرمة أول بواعث الزنا وألوان الشرور[3]، ولقد جاء في الحديث نهي رسول الله ﷺ عن خلوة الرجل بأجنبية عنه فقال ﷺ: "لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذي محرم" قال القاضي عياض: (وقوله "لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذي محرم" وذلك لأمن غلبة الشهوة والفتنة عليهما لحضور ذي المحرم لغيرته عليها وذبه عنها، وكذلك في السفر، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما يقول سمعت النبي ﷺ يخطب يقول: ((لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذي محرم ولا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم فقال

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٣٢.

(٢) سورة النور، آية: ٣١.

(٣) انظر: شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم، ص ٧٥٩.

رجل: يا رسول الله إن امرأتي خرجت حاجة وإني اكتتبت في غزوة كذا وكذا قال: انطلق فحج مع امرأتك))[١].

قال القاضي: (وقوله: فقام رجل فقال: يا رسول الله إن امرأتي خرجت حاجة وإني اكتتبت في غزوة كذا قال انطلق فحج مع امرأتك: فيه وجوب الحج على النساء وإلزام أزواجهن تركهن وندبهم إلى الخروج معهن، وأن ذلك أفضل من خروجه للغزو؛ لأن المعونة على أداء الفريضة مؤكدة وقد تكون فريضة في بعض الوجوه[٢]. وقال القرطبي: (وقوله للرجل انطلق فحج مع امرأتك. هو فسخ لما كان التزم من المضي للجهاد، ويدل على تأكد أمر صيانة النساء في الأسفار، وعلى أن الزوج أحق بالسفر مع زوجته من ذوي رحمها، ألا ترى أنه لم يسأله: هل لها محرم أم لا؟ ولأن الزوج يطلع من الزوجة على ما لا يطلع منها ذو المحرم فكان أولى، فإذن قوله ﷺ في الأحاديث: "إلا ومعها ذو محرم" إنما خرج خطابًا لمن لا زوج لها[٣].

قال النووي: (أي لا يقعدن رجل مع امرأة إلا ومعها ذو محرم، أما إذا خلا الأجنبي بالأجنبية من غير ثالث معهما فهو حرام باتفاق العلماء، وكذا لو كان معهما من لا يستحي منه لصغره كابن سنتين وثلاث ونحو ذلك فإن وجوده كالعدم، ولذا لو اجتمع رجال بامرأة أجنبية فهو حرام، بخلاف ما لو اجتمع رجل بنسوة أجانب، فإن الصحيح جوازه[٤] وتحريم الاختلاط وخلوة الرجل بالمرأة من ألوان حفاظ الإسلام على العفة في المجتمع الإسلامي، ولحفظ الأعراض والأنساب، وحراسة الفضيلة والبعد عن الرذائل، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ﴾[٥]. بل إنه من مبالغة الإسلام في الحفاظ على المرأة وصيانة كرامتها يأمر أن لا

---

(١) أخرجه مسلم ١٣٤١.

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم المسمى، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ج٤/٤٥٠، ٤٥١.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ج٣/٤٥٣.

(٤) شرح مسلم، النووي، ص ٨٤١.

(٥) سورة الأحزاب، آية: ٥٣.

تسافر امرأة بغير محرم، وإن أدى ذلك إلى تركه لفضائل الأعمال كالجهاد وغيره، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((سمعت النبي ﷺ يخطب يقول لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم، ولا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم، فقام رجل فقال: يا رسول الله إن امرأتي خرجت حاجة وإني اكتتبت في غزوة كذا وكذا، قال انطلق فَحُجَّ مع امرأتك))[١] قال النووي: (فيه تقديم الأهم من الأمور المتعارضة، لأنه لما تعارض سفره في الغزو وفي الحج معها، رجح الحج معها، لأن الغزو يقوم غيره في مقامه عنه بخلاف الحج معها)[٢].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: أهمية اجتناب كافة الأسباب المؤدية إلى الفاحشة:

الحديث مثل حيٌّ على ذلك، قال ﷺ "لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذي محرم" كما أمر بغض الأبصار ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾[٣] وفرض الحجاب فقال: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾[٤]، وذلك تطهيرًا للمجتمع من أدران الفاحشة، والتردي في بؤرة الفساد والتحلل الخلقي، وتجنبًا للنفوس من أسباب الإغراء والغواية[٥] ولذا جاءت آيات القرآن ناهية عن مجرد الاقتراب والتلبس بالأسباب المؤدية إلى الفاحشة، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾[٦] قال القرطبي: (قال العلماء: قوله "ولا تقربوا الزنا"[٧] أبلغ من أن يقول: ولا تزنوا، فإن معناه لا تدنوا من الزنا، والقرب المنهي عنه هو أقل الملابسة، وهو كناية عن شدة النهي عن ملابسة الزنا، وقريب من هذا المعنى قولهم: ما كاد يفعل)[٨].

إن السلامة في البعد عن كل ما يؤدي إلى المهالك أو يقرب منها، بل إن الإسلام ليأمر بالابتعاد عن الأمور التي قد يشتبه على المسلم حكمها، استبراءً للذمة والعرض،

---

(١) أخرجه مسلم ١٣٤١.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ٨٤١.

(٣) سورة النور، آية: ٣٠.

(٤) سورة النور، آية: ٣١.

(٥) روائع البيان، محمد علي الصابوني، ١٦٩/٢.

(٦) سورة الإسراء، آية: ٣٢.

(٧) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٥٣/١٠/٥.

(٨) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور ٩٠/١٥/٦.

وصيانة للنفس، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إن الحلال بين وإن الحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب))[1].

إن الخلوة بالأجنبية من أعظم الذرائع، وأقرب الطرق إلى اقتراف الفاحشة الكبرى.

إن خلوة الرجل بالمرأة الأجنبية مدرجة الهلاك، وداعية الإثم والفجور، وكيف لا يكون ذلك، والفرصة سانحة، وقد مهدت الخلوة لغريزة أن تستيقظ.

وإن من أعظم الشرور على الإطلاق خلوة الخطيب بمخطوبته، وإن فيها من المفاسد ما لا يعلمه إلا الله وحده، وعذر الناس في ذلك أنهم يثقون في بناتهم وأبنائهم، وكذبوا ورب الكعبة، كيف لا؟! وهم يتركونها بين ناب سبع أو ذئب، ولربما نهش عرضها، وتركها قنبلة موقوتة، تصطاد ضحاياها في الليالي الحمراء والسوداء.

وكم سمعنا عن هذا الوباء في المجتمع، فالحذر الحذر من الأوهام الكاذبة، والثقة مهما كانت قوية لابد أن تضبط بميزان الشرع[2].

("لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم" فتبًا لهؤلاء المستغربين وسحقًا لعبيد المدنية الزائفة، الذين أطلقوا لبناتهم ونسائهم العنان يسافرون دون محرم، ويخلون بالرجال الأجانب، مدَّعين أن الظروف تغيرت، وأن ما اكتسبته المرأة من التعليم، وما أخذته من الحرية، يجعلها موضع ثقة أبيها وزوجها، فما هذا إلا فكر خبيث، دَلَفَ إلينا ليفسد حياتنا، وما هي إلا حجج واهية، ينطق بها الشيطان على ألسنة هؤلاء الذين انعدمت عندهم غيرة الرجولة والشهامة، فضلاً عن كرامة المسلم ونخوته)[3].

---

(١) أخرجه البخاري ٥٢، ٢٠٥١، ومسلم ١٥٩٩.

(٢) "والذين هم لفروجهم حافظون"، خميس السعيد محمد، ٢٨٨.

(٣) عودة الحجاب، د. محمد إسماعيل المقدم ٤٩/٣.

الحديث رقم (١٦٣٢)

١٦٣٢ - وعن بُريدَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: ((حُرْمَةُ نِسَاءِ المُجَاهِدِينَ عَلَى القَاعِدِينَ كَحُرْمَةِ أُمَّهَاتِهِمْ، مَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ القَاعِدِيْنَ يَخْلُفُ رَجُلاً مِنَ المُجَاهِدِينَ فِي أهْلِهِ، فَيَخُونُهُ فِيهِمْ إلاَّ وَقَفَ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَأْخُذُ مِنْ حَسَنَاتِهِ مَا شَاءَ (حَتَّى يَرْضى)[١])) ثُمَّ التَفَتَ إِلَيْنَا رسولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: ((مَا ظَنُّكُمْ؟)). رواه مسلم[٢].

ترجمة الراوي:

بُريدة بن الحُصيب الأسلمي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٥٨١).

غريب الألفاظ:

يخلف رجلاً في أهله: يقوم بما كان يقوم به في أهله[٣].

الشرح الأدبي

هذا الحديث يؤكد حرمة نساء المجاهدين، وذلك لما للمجاهد من مآثر جليلة، ومكرمات نبيلة، فهو يسافر ويجود بنفسه وماله إعلاءً لراية الإسلام.

ولذلك يفيض هذا الحديث بكثير من الترغيب والترهيب، والإيحاءات والدلالات التي يتضمنها الأسلوب في هذا الحديث الشريف، وهو يتكون من ثلاثة أجزاء، تشكل رؤية متكاملة لموقف رسول الله ﷺ من حرمة نساء المجاهدين، ويأتي الجزء الأول مكونًا من طرفين: المشبه والمشبه به، مؤكدًا بذلك التشبيه حتمية المحافظة على حرمة نساء المجاهدين، والتشبيه هنا ليس من باب البلاغة اللفظية أو تزيين الكلام، وإنما هو تشبيه حالة بحالة: فنساء المجاهدين: حرمتهم: تشبه حرمة الأمهات في شرعيتها: وصيانتها، والوعيد الشديد لمن ينتهك هذه الحرمة.

---

(١) هذه الزيادة لا توجد عند مسلم، وهي عند المنذري في ترغيبه..

(٢) برقم (١٣٩/١٨٩٧)، و (١٤٠/١٨٩٧)، والسياق للحميدي في جمعه (٣٧٥/١، رقم ٦٠٣). أورده المنذري في ترغيبه (٣٥٥١).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (خ ل ف).

ومما يدل على ثبات هذه القاعدة ورودها في صيغة الجملة الاسمية التي لا تحصر داخل زمن محدد، ولا حدث معين، وإنما هي قاعدة مطلقة ثابتة، وتأمل الطباق بين قوله "المجاهدين، والقاعدين" وما يوحي به من عناء وتضحية ومشقة يتحملها المجاهدون، ومن راحة وتحمل للأمانة ورعاية النساء من قبل القاعدين عن الجهاد.

والجزء الثاني: جملة مطولة صيغت في أسلوب القصر.. للتأكيد على حق المجاهد في الحفاظ على نسائه، ولذلك قال في سياق توصيف عدم قيام القاعد بحسن الرعاية، وعدم صيانة الحرمات: قال: "فيخونه فيهم".

والوعيد يصوره رسول الله ﷺ في قوله: "إلا وقف له يوم القيامة، فيأخذ من حسناته ما شاء حتى يرضى".

والتعبير المضارع في قوله: "فيأخذ" فيه إيحاء باستمرار الأخذ، ويعضد هذا التفسير قوله: ما شاء: أي حسب رغبة المجاهد واختياره، وحتى تفيد الغاية، والفعل: "يرضى" يعلن عن الحرص على المجاهد الذي خانه القاعد في أهله، ويمكن أن تنفد حسنات ذلك الخائن، ولا تبقى له إلا سيئاته وفي صدارتها هذه الخيانة العظمى، والتعبير بقوله: "ثم التفت إلينا" يرشد إلى التأمل والتفكر والتدبر، لأن الرسول ﷺ بعد أن عرض هذه الصورة للمجاهد والقاعد الخائن يوم القيامة، أمهلهم وتركهم يفكرون في هذا المصير، ثم فاجأهم بالسؤال المثير: للتدبر والتفكر، والنظر والمراجعة، ما ظنكم؟ أي ما تظنون وقد أذن الله له في أخذ ما يرضيه من الحسنات: فهذا حكم الله، حتى لا يظن أحد أن هذا ليس من حق المجاهد، فالسؤال لنفي اللبس، ونفي التوهم.

فقه الحديث

يشتمل هذا الحديث على الأحكام الآتية:

١- بيان فضل الجهاد، والمجاهدين في سبيل الله تعالى، واهتمام رسول الله ﷺ بأمرهم.

٢- تحريم التعرض لنساء المجاهدين بريبة من نظر محرم، وخلوة، وحديث محرم وغير ذلك.

٣- الحث على بر نساء المجاهدين، والإحسان إليهن، وقضاء حوائجهن التي لا يترتب عليها مفسدة، ولا يتوصل بها إلى ريبة، ونحوها. حيث جعل رسول الله ﷺ حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم[١].

المضامين الدعوية

أولاً: من صفات الداعية: البيان والإيضاح للأمور التي حرمها الشرع.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من خيانة المجاهدين في سبيل الله في أهليهم.

ثالثًا: من واجبات الداعية: بيان جزاء خيانة المجاهدين في أهليهم يوم القيامة.

رابعًا: من أهداف الدعوة: الحث على العفة والخوف من الله والحفاظ على سلامة وطهارة المجتمع.

أولاً- من صفات الداعية: البيان والإيضاح للأمور التي حرمها الشرع:

إن من أبرز صفات الداعية البيان والتوضيح للمدعوين أمور دينهم، فلقد أمر الله تعالى الأنبياء وأتباعهم من الدعاة أن يوضحوا الحق للناس[٢] ويبلغوه إليهم بلاغًا مبينًا، قال تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[٣] وكفى بهذه الآية دليلاً على أنه مأخوذ على العلماء أن يبينوا الحق للناس وما علموه، وأن لا يكتموا منه شيئًا لغرض فاسد، من تسهيل على الظلمة، وتطييب لنفوسهم، استجلابًا لمسارهم، أو لجر منفعة وحطام دنيا، أو لتقية مما لا دليل عليه ولا أمارة، أو لبخل بالعلم وغيره أن ينسب إليه غيرهم[٤].

ومن هذه الأمور الواجب بيانها، الأمور التي حرمها الشرع، والتي منها ما ورد في الحديث من تحريم التعرض لنساء المجاهدين بوجه من وجوه الريب، وذلك أداءً لبعض

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١٣/٤٢، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٧/١٢٤.

(٢) فقه الدعوة، د. بسام العموش، ص ٢٦.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

(٤) الكشاف، الزمخشري، ص ٢١٠.

حق أزواجهن المجاهدين لنصر الله"[1] فقال ﷺ "حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم، ما من رجل من القاعدين يخلف رجلاً من المجاهدين في أهله فيخونه فيهم إلا وقف يوم القيامة، فيأخذ من حسناته ما شاء حتى يرضى".

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الترهيب من خيانة المجاهدين في سبيل الله في أهليهم:

جاء في الحديث الترهيب من خيانة المجاهدين في أهليهم فقال ﷺ "حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم وما من رجل من القاعدين يخلف رجلاً من المجاهدين في أهله فيخونه فيهم إلا وقف له يوم القيامة فيأخذ من عمله ما شاء، فما ظنكم". قال القرطبي: (قوله: "حرمة نساء المجاهدين كحرمة أمهاتهم" يعني أنه يجب على القاعدين، من احترامهم، والكف عن أذاهن، والتعرض لهن، ما يجب عليهم في أمهاتهم)[2]، وقال القاضي عياض: (وقوله في الذي يخون المجاهد في أهله أنه يأخذ من حسناته يوم القيامة ما شاء، فما ظنكم، يعني لما ترون في رغبته في أخذ حسناته والاستكثار منها في هذا المقام، أي لا يبقى له شيئًا منها إن أمكنه ذلك وأبيح له)[3].

وقال القرطبي في قوله "فما ظنكم" يعني أن المخون في أهله إذا مُكّن من أخذ حسنات الخائن لم يُبْق له منها شيئًا، ويكون مصيره إلى النار، وقد اقتصر على مفعولي الظن. وظهر من هذا الحديث أن خيانة الغازي في أهله أعظم من كل خيانة، لأن ما عداها لا يخير في أخذ كل الحسنات، وإنما يأخذ بكل خيانة قدرًا معلومًا من حسنات الخائن[4]. قال النووي: (هذا في شيئين: أحدهما: تحريم التعرض لهن بريبة من نظر محرم وخلوة وحديث محرم وغير ذلك، والثاني: في برهن والإحسان إليهن وقضاء

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٦٦٧.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٣/٧٣٢.

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم المسمى، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٦/٣١٩.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٣/٧٣٢.

حوائجهن التي لا يترتب عليها مفسدة ولا يتوصل بها إلى ريبة ونحوها"[1]. وقوله "فما ظنكم" فيه تهديد عظيم، قال الطيبي: قال في المظهر: أي فما ظنكم بالله مع هذه الخيانة؟ هل تشكون في هذه المجازاة أم لا؟ يعني إذا علمتم صدق ما أقول فاحذروا من الخيانة في نساء المجاهدين"[2] فإن خيانة المجاهدين في أهليهم أشد أنواع الخيانة، وليس مثلها خيانة، قال الإمام الذهبي: (والخيانة قبيحة في كل شيء، وبعضها شر من بعض، وليس من خانك في فلس كمن خانك في أهلك ومالك وارتكب العظائم"[3]. والخيانة من أكبر الكبائر، وصرح النبي ﷺ أن صاحبها معدود في أهل النار، فعن عياض بن حِمَارٍ المجَاشعي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في خطبته: ((... وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زَبْرَ[4] له، الذين هم فيكم تبعًا لا يتبعون أهلاً ولا مالاً، والخائن الذي لا يخفى له طمع، وإن دق إلا خانه، ورجل لا يصبح ولا يمسى إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك))[5].

ثالثًا- من واجبات الداعية: بيان جزاء خيانة المجاهدين في أهليهم يوم القيامة:

إن بيان الشر وجزائه للوقاية والحذر من الوقوع فيه، من مهام وواجبات الداعية، وهذا ليس ببدع من الدعوة، فقد فصل الله في القرآن ما حرمه على الناس ليحذروه، قال تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾[6] وقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[7] ومن الأمور الواجب بيانها ما جاء في الحديث من بيان جزاء خيانة المجاهدين في أهليهم يوم القيامة "ما من رجل من القاعدين يخلف رجلاً من

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١٢١٦.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٢٧٢/٧.

(٣) الكبائر ١٤١، ١٤٢.

(٤) لا زَبْر له: أي لا قوة له. انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية مادة: زَبَرهُ.

(٥) أخرجه مسلم ٢٨٦٥.

(٦) سورة الأنعام، آية: ١١٩.

(٧) سورة الأنعام، آية: ٥١.

المجاهدين في أهله، فيخونه فيهم إلا وقف له يوم القيامة فيأخذ من حسناته ما شاء حتى يرضى" غاية الأخذ، أي لا يمنع منه ولا يوقف عند حد دون ما يرضيه[1].

رابعًا- من أهداف الدعوة: الحث على العفة والخوف من الله والحفاظ على سلامة وطهارة المجتمع:

إنّ في العفة نظافة المجتمع من المفاسد والمآثم، وحفظ الأعراض وصلاح المجتمع[2]. لذا كان حث الإسلام على التخلق بالعفة، والتعلق بأسبابها، والبعد عن مزالق الشر وموارد التهلكة، حفاظًا على سلامة المجتمع وطهارة أفراده، لذا حرم الإسلام الاعتداء على الأعراض، وأشد ما يكون النهي في الاعتداء على أعراض المجاهدين الذين وهبوا نفسهم صيانة للدين ودفاعًا عن المسلمين، كما جاء في الحديث "حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم، ما من رجل من القاعدين يخلف رجلاً من المجاهدين في أهله فيخونه فيهم إلا وقف له يوم القيامة فيأخذ من حسناته ما شاء حتى يرضى، ثم التفت إلينا رسول الله ﷺ فقال: ما ظنكم؟ فالإسلام يهدف إلى إقامة مجتمع نظيف لا تهاج فيه الشهوات، يهدف إلى إقامة مجتمع طاهر من أدران الفاحشة، والتردي في بؤرة الفساد والتحلل الخلقي، تُجنب فيه النفوس من أسباب الإغراء والغواية[3].

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٦٦٧.

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٢٨٨٨/٧.

(٣) انظر: روائع البيان، تفسير آيات الأحكام، محمد علي الصابوني، ١٦٩/٢، ١٧٠.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية الوقائية:

إن الوقاية هي نوع من أنواع التحذير وهي تحصين الفرد وتحذيره فكريًا وسلوكيًا من بعض الأمور السلبية المستقبلية، أو الامتناع عن فعل ما، من شأنه أن يفضي إلى مفسدة أكبر منه....، وهذه التحذيرات والتوجيهات، قدمها الرسول ﷺ على هيئة نصائح وإرشادات تحمل في طياتها الخوف والإشفاق تجاه الفرد المسلم والمجتمع المسلم والدولة المسلمة، وهي بمثابة جرعة وقائية إن أخذت ستقي المجتمع من الأخطار المتوقعة والهلاك المحقق[1].

وهذا ما ترائى جليًا في أحاديث الباب من تحريم النبي ﷺ الخلوة بالمرأة الأجنبية، وذلك في قوله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ...إلخ»، وقوله: «لاَ يَخْلُونَّ أَحَدُكُمْ بِامْرَأَةٍ ... إلخ».

فمن أجل قطع الطريق على الشيطان ووساوس النفس، ووقاية الأفراد والمجتمع من السقوط في حَمْأة الرذيلة، تحت ضغط الهوى والشهوات. نهى النبي ﷺ عن الخلوة بالمرأة الأجنبية[2]، مما يؤكد أهمية التربية الوقائية لحماية النشء المسلم من مزالق الفتن وظلمات المعاصي.

ثانيًا: التربية بالسؤال والاستفهام:

حرص الصحابة ﷺ على سؤال النبي ﷺ لمعرفة كل ما جهل عنهم[3]، وهذا ما ترائى جليًا في حديث الباب من قول رجل من الأنصار «أفرأيت الحمو؟...إلخ».

فمن الواجب على المتربي أن يسأل عما غاب عنه،وأن يجتهد في ذلك من خلال سؤال أهل العلم وذوي الاختصاص.

---

(١) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني، ٢٥٦.

(٢) المرجع السابق، ٢٦٠.

(٣) التربية الذاتية من الكتاب والسنة، هاشم علي أحمد، ١٢٣.

ثالثًا: التربية بالترهيب:

يُعد الترهيب من أبرز وأهم الأساليب التربوية التي تساعد المربي والمعلم في مهامه التربوية على أكمل وجه وأحسن حال.

فبعد أن حذر النبي ﷺ - وهو المربي الأول - أمته من خطر الخلوة بالأجنبية، شدد ﷺ في النكير على ذلك، وعظم الإثم والذنب لمن سولت له نفسه الخلوة بالأجنبية، ويظهر ذلك في أحاديث الباب من قوله ﷺ: - بعد ما سئل عن خلوة قريب الزوج بالزوجة - «الحمو الموت»، وقوله ﷺ: «...مَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْقَاعِدِينَ يَخْلُفُ رَجُلاً مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي أَهْلِهِ، فَيَخُونُهُ فِيهِمْ إلاَّ وَقَفَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَأْخُذُ مِنْ حَسَنَاتِهِ مَا شَاءَ حَتَّى يَرْضَى....إلخ».

فقد بلغ الترهيب -كأسلوب تربوي- في هذا الحديث أشده، حيث أخبره النبي ﷺ أنه إذا خلف رجل أحد المجاهدين في أهله، كانت حرمة امرأة المجاهد، مثل حرمة أم من يخلفه، فإن خان مجاهدًا في أهله، عوقب من الله تعالى أشد العقاب، كما ورد في نص الحديث[1].

فالترهيب كأسلوب تربوي يثير عند المتربي عامل الخوف من سبل الشر التي ينهي عنها الإسلام[2]، والتي من أشرها الخلوة بالأجنبية، لذا وجب على دعاة التربية والتوجيه استخدام الترهيب كأسلوب تربوي فعّال في تقويم النشء وإصلاح أخلاق المتربي.



---

(١) الأخلاق في الإسلام، عبداللطيف محمد العبد، ٢٩١.

(٢) أصول التربية الإسلامية، خالد الحازمي، ٣٩٥.

٢٩٢- باب تحريم تشبه الرجال بالنساء
وتشبه النساء بالرجال في لباس وحركة وغير ذلك

الحديث رقم (١٦٣٣)

١٦٣٣ - عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَعَنَ رسُولُ اللهِ ﷺ الْمُخَنَّثِينَ مِنَ الرِّجَالِ، وَالْمُتَرَجِّلاَتِ مِنَ النِّسَاءِ.

وفي رواية[١]: لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بالنِّسَاءِ، والْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بالرِّجَالِ. رواه البخاري[٢].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

المخنثين من الرجال: من الخَنِث بمعنى التكسر والتثنّي والمراد بهم من يشبه خُلقه النساء في حركاته وكلماته[٣].

المترجلات من النساء: يعني اللاتي يتشبهن بالرجال في زيهم وهيئتهم[٤].

الشرح الأدبي

إن الله سبحانه وتعالى جعل لكل من الذكر والأنثى خصائص وسمات في الطبع والخلقة والتكوين الجسماني والشعوري، وكل مهيأ بجبلته وفطرته على ما خلقه الله عليه، ولذلك يشدد هذا الحديث النكير، ويغلظ القول ويتوعد كل من يحاول أن يحدث اضطرابا أو خللاً في هذا التوازن الإلهي الذي فطر خلقه عليه.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٨٨٦). أورده المنذري في ترغيبه (٣٠٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٨٥). أورده المنذري في ترغيبه (٣٠٥٨).

(٣) القاموس المحيط، مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي في (خ ن ث)، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٦٦٧.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ر ج ل).

وابن عباس ينقل ما سمعه من رسول الله بالمعنى: وتأتي عبارته واضحة لا لبس فيها ولا غموض، ولا التواء ولا تعقيد، وإنما هي كالشمس واضحة لكل ذي عينين.

والحديث كله جملة واحدة إخبارية: تبدأ بمادة اللعن، أي الطرد والابتعاد عن رحمة الله سبحانه والذي لعنهم: هو رسول الله ﷺ وكأنه دعا عليهم بالابتعاد عن رحمة الله وعفوه وفضله، ودعوته مستجابة، فالعقاب ثابت الوقوع، ومن هم الملعونون؟ : هم صنفان: المخنثون من الرجال، وهم الذين يتقمصون شخصية الأنثى في كلامهم وحركاتهم وملابسهم: فيصبح الواحد من هؤلاء مسخًا شائهًا، وأنموذجًا فاسدًا، والخنث في اللغة من فيه: انخثاث: أي تكسُّر وتثنٍّ في المشي والكلام.

وأما الصنف الثاني: فهو يتمثل في المترجلات من النساء، أي النساء اللائي يتشبهن بالرجال في تصرفاتهن، وأصواتهن، وملابسهن: وقد صدق في هؤلاء قول الشاعر د. حسن جاد:

من مجيري من اللذين اللواتي ... حِرْتُ فيهم بين الفتى والفتاة؟؟!!!!

والحديث في أسلوبه يقوم على المقابلة والمفارقة بين أنموذجين فاسدين خرجا عن الطبيعة البشرية المألوفة، فالمخنثون من الرجال: فقدوا سمات الرجولة، ولم يخلقوا للأنوثة، فيصبحون مادة للسخرية والاستهزاء ولا يتفيئون دورهم الرجولي في الحياة ولذلك يستحقون اللعن لأنهم أفسدوا الفطرة التي فطر الله الناس عليها، يقول الله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾(١). وهم بدَّلوا وغيروا: وأفسدوا!!!!

والطرف الثاني من المقابلة والمفارقة هو على النقيض، ويتمثل ذلك في النساء اللاتي فقدن الخصائص الأنوثية وأردن أن يتشبهن بالرجال، والتعبير بقوله: "المترجلات"، يوحي بالافتعال والتكلف فهن: يفتعلن الرجولة، ولكنهن لسن رجالاً، وهن بهذا الافتعال يعطلن دورهن المنوط بهن في الحياة: الأمومة، والرعاية، والحنو، وهن بذلك أفسدن وظيفتهن في الحياة، فصرن مدعاة للسخرية والإهانة، ويقعن فريسة للقلق والحيرة

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

والأمراض النفسية والسلوكية؛ والرواية الثانية تؤكد هذا اللعن، وتصرح بالتشبه، وهي في مفهومها مع الحديث الأول، تؤكد النهي عن هذا السلوك المشين الضار بالمتشبهين والمتشبهات وبكل من حولهم.

فقه الحديث

يشتمل هذان الحديثان[1] على الأحكام الآتية:

١- إنه يحرم[2] على الرجال التشبه بالنساء، ويحرم على النساء التشبه بالرجال وذلك لأن رسول الله ﷺ قد جعل عقوبة التشبه هي "اللعن" وهذه العقوبة الشديدة لا تكون إلا على فعل شيء محرم.

ولعل السر في هذا التحريم أن الإسلام أراد أن تكون طبيعة المرأة متميزة وأن يكون مظهرها صورة صادقة لهذه الطبيعة، كما أراد ذلك للرجل، فنهى كلاً منهما أن يتشبه بالآخر[3].

٢- إن تحريم التشبه إنما هو عام يشمل التشبه في الزي واللباس، والخضاب، والصوت، والصورة، والتكلم، وسائر الحركات، والسكنات، ولكن هذا التحريم مختص بمن تعمد التشبه، وأما من كان ذلك من أصل خلقته فإنه يؤمر بتكلف

---

(١) حديث (١٦٣٣، ١٦٣٤).

(٢) المبدع في شرح المقنع، ابن مفلح ٢/٢٧٥، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ٣/١٥٢، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢/٢٣٩، وشرح فتح القدير، ابن الهمام الحنفي ٧/٤٠٨، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، محمد بن عبدالرحمن المغربي ١/٢٠٩، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤/٣٨٥، ٣٩٦، على أن الأمانة العلمية تحتم علينا أن نذكر أن بعض الشافعية وبعض الحنابلة قد قال: إن التشبه مكروه وليس حرامًا ينظر في فقه الشافعية: المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٤/٣٩٦، وفي فقه الحنابلة: الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ٣/١٥٢، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢/٢٣٩.

(٣) فقه السنة، السيد سابق ٣/٤٩٢.

تركه، فإن لم يفعل مع قدرته عليه دخل في الحرمة، أما إذا كان ترك التشبه غير ممكن بالنسبة له فلا يلحقه اللوم، ولا يدخل في الحرمة[١].

المضامين الدعوية[٢]

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحث على الالتزام بتعاليم وأخلاق الإسلام في الأقوال والسلوك.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: خطر وجزاء تشبه الرجال بالنساء وتشبه النساء بالرجال.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: الحفاظ على مقومات الرجولة في المجتمع وحمايته من التردي والفساد الخلقي.

رابعًا: من أهداف الدعوة: الحفاظ على مقومات الأنوثة في النساء حماية للمجتمع من الفساد.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الحث على الالتزام بتعاليم وأخلاق الإسلام في الأقوال والسلوك:

إن أول ما يطالب به المسلم بعد إقراره بالوحدانية والانطواء تحت عباءة الإسلام الالتزام بتعاليم الإسلام وأخلاقه القولية والفعلية وامتثال أوامره واجتناب نواهيه وترك قبائح الذنوب وعدم التقصير في الأوامر والحقوق[٣]، والالتزام بالحدود التي حدها الله سبحانه وتعالى، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[٤] ومن ذلك تحريم تشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال فقال ابن عباس رضي الله عنهما: "لعن رسول الله ﷺ المخنثين

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ١٠/٣٣٢، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١١/١٠٥.

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٦٣٣- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٣٤).

(٣) موسوعة الآداب الإسلامية، عبدالله بن محمد المعتاز، ج١/١٥، ١٦.

(٤) سورة النساء، الآيتان: ١٣، ١٤.

من الرجال والمترجلات من النساء"، عن أبي هريرة ﷺ: "لعن رسول الله ﷺ الرجل يلبس لبسة المرأة والمرأة تلبس لبسة الرجل"[١] وذلك حماية للأخلاق، ونشرًا للفضيلة ومحاربة للرذيلة"[٢].

إن العبد المسلم ليشعر بالسعادة الكبرى إذا ما التزم بشرع الله تعالى وإن هذا الالتزام يدور بين أمر ونهي: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾[٣]، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط.

إن العبد المسلم المستقيم على شرع الله، إذا ما ذُكِرت أمامه الجنة ورغب فيها ألقى الدنيا وتبعاتها من فوق ظهره، وهرع إلى رب العالمين ليلحق بركب السائرين إلى الله، ولو أردنا أن نذكر أمثلة على ذلك لطال الحديث، وكذلك المسلم الذي رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً، إذا ما ذُكرت أمامه جهنم بأغلالها وسلاسلها وحميمها وزقومها انهمرت دموعه وارتجف قلبه وطال حزنه، وأشفق على نفسه فلا تجده بعد ذلك إلا صائمًا قائمًا. وهذه هي الثمرة الحقيقية للترغيب والترهيب، أن يُساق الإنسان إلى رب العالمين جل جلاله بمواعظ الخوف والرجاء.

واعلم أيها المسلم أن القلب الذي يتأثر بذكر الجنة والنار، والترغيب والترهيب عمومًا، وينقاد بذلك إلى طريق الاستقامة، هو القلب العامر بالإيمان، فسرعان ما ينقاد إلى الله تعالى إذا ما ذكر، ومن هنا نعرف السر الحقيقي في عزوف كثير من البشر عن سُبل الاستقامة الكاملة حسب الطاقة الحقيقية للإنسان، ذلك لأن القلوب قد امتُلئت بحب الدنيا وشهواتها، وركن الإنسان إلى هذه الحياة الزائلة، فإذا ما خوِّف أو رُغِّب ليلحق بقوافل السائرين إلى الله تعالى، وجد مئات المثبطات التي ارتضاها لنفسه وعاش في دائرتها، ولا يكفي لنجاة هذا الصنف دمعات عابرة، أو زفرات

---

(١) أبو داود ٤٥٨/٢، حديث ٤٠٩٨، والحاكم ٢١٥/٤، حديث ٧٤١٥، وقال: صحيح على شرط مسلم وسكت عنه الذهبي.

(٢) انظر: أخلاقنا، د. محمد ربيع محمد جوهري، ص ٩٤، ٩٥.

(٣) سورة الحشر، آية: ٧.

طائرة، أو تأوه أجوف لأنه سرعان ما يمر هذا الشعور الإيماني مرور الطيف في وهج الظهيرة، بل لابد من عودة كاملة إلى الله تعالى، ليتحقق للإنسان السمع والطاعة بكل حب وامتثال[١].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: خطر وجزاء تشبه الرجال بالنساء وتشبه النساء بالرجال:

إن تمرد الإنسان على الخلق التي فطره الله عليها وتشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال لمن الخطورة بمكان، فذلك جالب للعن والطرد من رحمة الله عز وجل، وفي ذلك وعيد شديد ولعن من رسول الله ﷺ أكيد والتشبه قد يكون في اللباس وقد يكون في الكلام وقد يكون في المشي ونحو ذلك فمتى تعاطى الرجل ما هو من خصائص النساء في مشيهن أو كلامهن أو لبسهن فقد دخل في اللعن أو متى تعاطت المرأة ما هو من خصائص الرجال في مشيهم أو كلامهم أو لباسهم فقد دخلت في اللعن[٢]. كما جاء في الحديث فعن ابن عباس رضي الله عنهما: "قال لعن رسول الله ﷺ المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء" وفي رواية "لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال" قال ابن حجر: (قال أبو محمد بن أبي جمرة: والحكمة في لعن من تشبه إخراجه الشيء عن الصفة التي وضعها عليه أحكم الحكماء -سبحانه وتعالى-[٣]) وذهب كثير من العلماء أن ذلك من الكبائر، قال الذهبي رحمه الله: إن تشبه الرجال بالنساء من الكبائر بدليل قول الرسول ﷺ "لعن الله المتشبهات من النساء بالرجال والمتشبهين من الرجال بالنساء" وقال إذا لبست المرأة زي الرجال فقد شابهتهم في لبسهم فتلحقها لعنة الله ورسوله ولزوجها إذا أمكنها من ذلك أي رضي به لأنه مأمور بتقويمها على طاعة الله ونهيها عن المعصية[٤] وذلك امتثالاً لقوله

---

(١) كتاب "والذين هم لفروجهم حافظون"، خميس بن السعيد محمد، ٦٣، ١٤.

(٢) انظر: كتاب الآداب، فؤاد الشلهوب، ٢٦٩.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٣٤٥/١، ٣٤٦.

(٤) الكبائر، الإمام الذهبي، ١٣٤، ١٣٥.

تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾[1] أي بتعليمهم وتأديبهم وأمرهم بطاعة ربهم ونهيهم عن معصيته[2].

ثالثًا- من أهداف الدعوة: الحفاظ على مقومات الرجولة في المجتمع وحمايته من التردي والفساد الخلقي:

إن في تغيير الفطرة التي طبع عليها الإنسان تغيير للفطرة التي فطر الله الناس عليها وسبب لكثرة الفواحش وسبب للطرد والإبعاد من رحمة الله وجلب لغضب الرب سبحانه وتعالى[3].

لقد أراد الإسلام أن تكون طبيعة الرجل متميزة وأن يكون مظهره صورة صادقة لهذه الطبيعة وفي ذلك حماية للمجتمع.

إن الميزان العادل الذي خلق الله عليه الخلق جعل للرجل صفاته الخاصة به حتى يتكامل مع المرأة حين يتزوج فتكون الذرية الصالحة التي تريد النماء للأمة، أما حين يتشبه الرجل بالنساء وتقل فيه صفات الرجولة فإن ذلك يؤدي إلى اختلال ميزان المجتمع حيث تكون جريمة اللواط التي تجلب الدمار والهلاك.

قال ابن تيمية: (إن الرجل المتشبه بالنساء يكتسب من أخلاقهن بحسب تشبهه، حتى يفضي به الأمر إلى التخنث المحض والتمكين من نفسه كأنه امرأة)[4]. وهذا أمر الله أعلم - سبب شدة الإنكار من النبي ﷺ حتى لعن فاعله.

رابعاً- من أهداف الدعوة: الحفاظ على مقومات الأنوثة في النساء حماية للمجتمع من الفساد والهلاك:

خلق الله الأنثى ذات صفات مناسبة لوظيفتها في الحياة فهي في ميزان الأمة تمثل الكفة الثانية وعليها أن تحتفظ بخصائصها حتى لا يطيش ميزان المجتمع، فإن فعلت

---

(١) سورة التحريم، آية: ٦.

(٢) الزواجر عن اقتراف الكبائر، ابن حجر الهيتمي، ١٤٥/١.

(٣) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٤٤٨١/١٠.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١١٧/٨.

وحافظت تكاملت مع زوجها فتم إرواء الشهوة الجنسية في الحلال وحصلت السكينة والمودة والرحمة.

أما إن تشبهت بالرجال وحملت صفاتهم فإنها حينئذ تفقد صفاتها الفطرية ومن ثم يجيء الشذوذ في السحاق ويتعرض المجتمع لفساد عريض حيث يفقد اتزانه (ويل للمطففين).

الحديث رقم (١٦٣٤)

١٦٣٤- وعن أَبي هريرة ﵁ قَالَ: لَعَنَ رَسُولُ الله ﷺ الرَّجُلَ يَلْبَسُ لِبْسَةَ المَرْأَةِ، والمَرْأَةَ تَلْبِسُ لِبْسَةَ الرَّجُلِ. رواه أَبُو داود[1] بإسناد صحيح.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

لبسة المرأة: على هيئة لبسها وحالها[2].

الشرح الأدبي

هذا الحديث يختلف عن الحديث السابق ولا يتعارض معه، والاختلاف في الصياغة، والنزوع إلى تحديد وجه المخالفة المستحقة للعن: وهو "اللباس"، وهذا التغيير في الصيغة ناشئ من اختلاف الراوين، فالحديث السابق يرويه ابن عباس وهذا الحديث يرويه أبو هريرة ﵁، ورواية ابن عباس ﵄ أعم وأشمل: ورواية أبي هريرة أكثر تخصيصًا وتحديدًا.

ويتكون هذا الحديث عن جملة واحدة... وهي إخبارية تمثل حكمًا صارمًا جازمًا، ولنتأمل البداية في الأحاديث الثلاثة حيث يبدأ كل حديث بقول الراوي: "لعن رسول الله ﷺ" فالاتفاق هنا حول عقوبة هؤلاء المخالفين لسنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلا، فالعقوبة التي تلحق بالذين يحولون سنة الله في خلقه هي: اللعن والطرد من رحمة الله عز وجل، والذي دعا عليهم بذلك هو المبعوث رحمة للعالمين، لأنهم لا يستحقون الرحمة ولا الشفقة، وصياغة الحديث هنا تتلائم مع المراد منه في المعنى ومع

---

(١) برقم (٤٠٩٨). وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٥٧٥١)، وقال الحاكم (١٩٤/٤): هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. أورده المنذري في ترغيبه (٣٠٥٩).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ل ب س).

الرسالة التعليمية التي يوجهها رسول الله إلى كل مسلم، بل إلى كل إنسان خلقه الله فسواه، وصوره فأحسن صورته، وجعله في أحسن تقويم، فقوله: "الرجل" ولم يقل "رجلاً"، لأن أل هنا إما للجنس، فيكون اللعن لجنس الرجال الذين يقعون في هذا الإثم، في أي مجتمع، وإما أن تكون أل للعهد، فيراد بالرجل أي "المعهود" بهذا السلوك، والذين يتخذه ديدنا وسمة شخصية تنحرف به عن مداره الطبيعي السوي وكذلك لفظ المرأة في اقترانه بأل.

وفي ضوء ذلك، يأتي موقع قوله: "يلبس لبسة المرأة"، حيث تصور هذه الجملة حال ذلك الرجل أو صفته الدائمة التي تقترن به، وهو يتمسك بها، ويصر عليها واللعنة تلاحقه أينما كان، وحينما حل لأنه متلبس بجريمته النكراء، وكذلك جملة: "تلبس لبسة الرجل"، تصور حال المرأة في تشبهها بالرجال، وفي إصرارها على هذا التبديل لخلق الله، وهذا التغيير لفطرة الله التي فطر الناس عليها.

وفي الحديث إيجاز بالحذف للاختصار، والإيحاء بالإسراع في العقوبة، وللتنبيه على أن العقوبة واحدة للجنسين: الرجل والمرأة.

وهذا الإيجاز الموحي في قوله: والمرأة، فهي معطوفة على الرجل، والتقدير.

ولعن رسول الله ﷺ المرأة تلبس لبسة الرجل، والمطابقة والمقابلة بين هذين الموقفين، وهذين السلوكيين المنحرفين، تدعو إلى مزيد من رفضهما والقضاء على من يحذو حذوهما، والعودة إلى الفطرة السوية التي فطر الله الناس عليها. ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

المضامين الدعوية[2]

---

(١) سورة الروم، آية: ٣٠.

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٦٣٥)

١٦٣٥- وعنه، قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: ((صِنْفَانِ مِنْ أهْلِ النَّارِ لَمْ أرَهُمَا: قَومٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأذْنَابِ البَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلاَتٌ مَائِلاَتٌ، رُؤُوسُهُنَّ كَأسْنِمَةِ البُخْتِ المائِلَةِ لاَ يَدْخُلْنَ الجَنَّةَ، وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا، وإنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكذَا)). رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

ابو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

سياط: جمع سوط وهو: ما يضرب به من جلد سواء أكان مضفورًا أم لم يكن[٢].

كاسيات عاريات: أي من نعمة الله وعاريات من شكرها، وقيل: معناه تستر بعض بدنها وتكشف بعضه إظهارًا لجمالها ونحوه، وقيل: تلبس ثوبًا رقيقًا يضف لون بدنها[٣].

مائلات: عن طاعة الله وما يلزمهن حفظه، وقيل: مائلات يمشين متبخترات مميلات لأكتافهن، وقيل: مائلات يمشطن المشطة المائلة وهي مشطة البغايا[٤].

مميلات: يعلمن غيرهن فعلهن المذموم، ووميلات يمشطن غيرهن تلك المشطة المائلة[٥].

كأسنمة: جمع سنام، وسنام كل شيء أعلاه[٦].

البخت: جمع بَختيٍّ: جمال طوال الأعناق، ومعنى رءوسهن كأسنمة البخت أي يكبرنها ويعظمنها بلف عمامة أو عصابة أو نحوها[٧].

---

(١) برقم (٢١٢٨/١٢٥). أورده المنذري في ترغيبه (٣٠٢٨).

(٢) المعجم الوسيط، محمع اللغة العربية في (س و ط).

(٣) رياض الصالحين، النووي ٥٦٥.

(٤) رياض الصالحين، النووي ٥٦٥، وشرح مسلم، النووي ١٣٤١.

(٥) انظر: شرح مسلم، النووي ١٣٤١.

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (س ن م).

(٧) رياض الصالحين، النووي ٥٦٥، شرح صحيح مسلم، النووي ١٣١٤، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب خ ت).

الشرح الأدبي

هذا الحديث من معجزات النبوة: لأنه إنباء عن أمور مستقبلية وقد حدثت، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى ذلك حين قال: "صنفان من أهل النار لم أرهما"، ونفى الرؤية البصرية هنا يثبت أن الرسول ﷺ لم يلتق هذين الصنفين، ولم يشهدها في زمانه، وقد تنبأ بوجودهما، وقد وقع هذا الصنفان، وهما موجودان في هذا الزمان. كما يقول صاحب دليل الفالحين؛ وقد كثرت أنواع هذين الصنفين في العصر الحديث: في زماننا هذا: في بلادنا وفي بلاد الغرب والشرق، والحديث فيه تشويق وبراعة استهلال: حيث أجمل القول ثم فصله بعد ذلك.

والتصوير الأدبي في الحديث يضع هذين الصنفين في دائرة الرفض حيث قال: "إنهما من أهل النار"، وحين نتأمل أطراف الصورة في كل من الصنفين: نرى الحديث يضعهما في أقبح هيئة منفرة، تدعو للاشمئزاز والنفور وأول ما يلفت النظر أن الإطار الزمني لهذه اللوحة التصويرية دنيوي، فليست تشتمل على مشاهد أخروية، ولكن صورة الآخرة في النار أكثر بشاعة ونفورًا، والحديث يقدم لوحة تلتقط جزئيات قبيحة تشكل العناصر اللازمة، فمن سلوك الظالم اتخذت صفة الضرب، والظلم قبيح قبحًا مطلقًا، ومع هذا فإنه يشبه سياط الظالم بأذناب البقر: وذلك لوجود الذنب خلف البقر، ولقربه من مكان التبرز، وهذه البشاعة الشكلية إيماءة إلى انحطاط إنسانية الظالم ودونيته[1].

ولنتأمل ما في الصورة الثانية من بلاغة وتصوير مطابق للحال، وللهيئة المادية والمعنوية، الخَلْقية، والخُلُقيّة، ففي قوله: "كاسيات عاريات" يجمع بين المتناقضين، وهذا التناقض في المظهر يصور تناقض الشخصية في مظهرها ومخبرها، فهي تمشي: مكسوة ولكنها عارية لأنها تلبس ملابس شفافة أو تستر بعض جسدها وتكشف البعض الآخر، أو أن هؤلاء النسوة:كاسيات من الثياب عاريات من فعل الخير،

---

(١) انظر: التصوير الفني في الحديث النبوي، د. أحمد ياسوف، ص ٧٢٢.

والحديث يحتمل كل هذه التفسيرات، ولنتأمل: المشاكلة اللفظية، والتماثل بين: مائلات ومميلات، أي أنهن: مائلات عن طاعة الله بما يلبسن، وبما يتكلمن وبما يقمن به من أفعال، ولا يكتفين بذلك بل يعلمن غيرهن فعلهن المذموم بالقول والفعل، وتزيين الرذيلة، واتباع المودة!!! والتشبيه في قوله: "كأسنمة البخت المائلة"، يوحي بالضخامة: والتشوه، والنفور، وتغيير الخلقة السوية، فالبخت هي: الإبل الخراسانية، وواحدها بخت، والسنام: من كل شيء: أعلاه.

وهذه الصورة المنفرة ليست مستحيلة الوقوع، ولكنها وجدت في العصر الحديث، في المجتمعات الغربية والشرقية التي نأت على الفطرة، وشوهت الصورة السوية التي خلق الله عليها المرأة في أحسن هيئة، وأجمل قوام.

وختام الحديث يكمل هذه الصورة، ويفصح عن مصير هذين الصنفين، فهما لا يدخلان الجنة ولا يجدن ريحها.

فقه الحديث

١- يشتمل هذا الحديث من الأحكام الفقهية على ذم هذين الصنفين: وهما أعوان الحاكم الذين يضربون الناس دون وجه حق والكاسيات العاريات[١] اللائي يلبسن ثيابًا رقاقًا تصفهن وتبدي محاسنهن[٢].

٢-إن إخبار الرسول ﷺ بأن هذين الصنفين من أهل النار إنما هو محمول: إما على المشيئة، وأن هذا جزاؤه، فإن عفا الله تعالى عنهما فهو أهل العفو والمغفرة، لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء[٣].

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١٧/١٩٠.

(٢) ولقوله ﷺ: "كاسيات عاريات، تأويلات أخرى غير هذا التأويل انظرها في تفسير القرطبي ١٢/٣١٠، وشرح صحيح مسلم، النووي ١٤/١٠٩، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٢/١١٩.

(٣) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ١٣/٢٠٤، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب سنة ١٣٨٧هـ، وشرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني ٤/٣٤١.

وإما على من استحل حرامًا من ذلك مع علمه بتحريمه، فيكون كافرًا مخلدًا في النار لا يدخل الجنة أبدًا.

وإما على أنه لا يدخل الجنة أول الأمر مع الفائزين، والله أعلم[١].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: إخبار النبي ﷺ عن صنفين من أهل النار.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من ظلم الناس وضربهم وجلدهم ظلمًا وعدوانًا.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من العرى والانحلال والسفور وإثارة الغرائز.

رابعًا: من أصناف المدعوين: النساء.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: بيان نعيم الجنة وريحها.

سادسًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

سابعًا: من أهداف الدعوة: الحث على عدم ظلم الناس.

ثامنًا: من أهداف الدعوة: الحث على الالتزام بالحشمة والوقار والحياء.

أولاً- من موضوعات الدعوة: إخبار النبي ﷺ عن صنفين من أهل النار:

جاء ذلك في الحديث في قوله ﷺ "صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا" قال النووي: (هذا الحديث من معجزات النبوة، فقد وقع هذا الصنفان، وهما موجودان[٢] وذلك أن من معجزات النبي ﷺ ودلائل نبوته ما أطلعه عليه الله من الغيوب الماضية والمستقبلة وإخباره عنها[٣]، وذلك من جملة معجزاته ﷺ المعلومة على القطع[٤]. والأحاديث في ذلك بحر لا يدرك قعره ولا ينزف غمره، منها ما

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١٩١/١٧.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ١٣٤١.

(٣) موسوعة نضرة النعيم في مكارم اخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٥٤٢/١.

(٤) كتاب الشفا، للقاضي عياض، ٣٢٩/١.

روي عن سفينة مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((الْخِلافَةُ فِي أُمَّتِي ثَلاثُونَ سَنَةً ، ثُمَّ مُلْكٌ بَعْدَ ذَلِكَ))[١] قال الحافظ ابن كثير: (وهكذا وقع سواء، فإن أبا بكر رضي الله عنه كانت خلافته سنتين وأربعة أشهر إلا عشر ليال، وكانت خلافة عمر عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام، وخلافة عثمان اثنتا عشرة سنة إلا اثني عشر يومًا، وكانت خلافة علي بن أبي طالب خمس سنين إلا شهرين، وتكميل الثلاثين بخلافة الحسن بن علي نحوًا من ستة أشهر حتى نزل عنها لمعاوية عام أربعين من الهجرة[٢].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الترهيب من ظلم الناس وضربهم وجلدهم ظلمًا وعدوانًا:

ورد ذلك حيث صرح النبي ﷺ أن من استمرأ ظلم الناس والاعتداء عليهم من أصناف النار البعيدين عن الجنة، فقال ﷺ: "صنفان من أهل النار لم أرهما، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس..." قال القرطبي: (وقوله: "صنفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم سياط كأذناب البقر..." أي: لم يوجد في عصره منهما أحدٌ؛ لطهارة أهل ذلك العصر الكريم. ويتضمَّن ذلك: أن ذينك الصنفين سيوجدان. وكذلك كان؛ فإنه خلف بعد تلك الأعصار قومٌ يلازمون السياط المؤلمة التي لايجوز أن يضرب بها في الحدود قصدًا لتعذيب الناس، فإن أمروا بإقامة حدّ أو تعزيرٍ؛ تعدوا المشروع في ذلك في الصفة والمقدار، وربما أفضى بهم الهوى، وما جُبلوا عليه من الظلم إلى هلاك المضروب، أو تعظيم عذابه. وهذا أحوال الشُّرط بالمغرب، والعوانية في هذه البلاد. وعلى الجملة: فهم سخط الله في الجملة عاقب الله بهم شرار خلقه غالبًا. نعوذ بالله من سخطه في الدنيا والآخرة[٣].

قال ابن علان: (والمراد يضربون بها الناس عدوانًا، أما الضرب لإقامة حد أو قصاص فلا يدخل في هذا الوعيد)[٤] وقال ابن عثيمين في قوله "قوم معهم سياط": (قال

---

(١) أخرجه أبو داود ٤٦٤٦، وقال الألباني: حسن صحيح (صحيح سنن أبي داود ٣٨٨٢).

(٢) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: أحمد أبو مسلم وآخرون ٢٠٤/٦، ٢٠٥.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ج٤٤٩/٥.

(٤) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٦٦٩.

العلماء: وهؤلاء هم الشرط الذين يضربون الناس بغير حق[1] وذلك من ألوان الفساد في الأرض والذي إن ظهر في مجتمع من المجتمعات كان معول هدم في المجتمع ودنا ما ينتظرهم من سخط الله وأليم عقابه[2]؛ لذا ينبغي على كل إنسان وكل إليه أمر أو كانت له سلطة على غيره أن يتقي الظلم والاعتداء على غيره قدر استطاعته، ورحم الله عمر بن عبدالعزيز حيث قال: (إذا دعتك قدرتك على ظلم الناس، فاذكر قدرة الله تعالى عليك، ونفاد ما تأتي إليهم وبقاء ما يأتون إليك)[3].

إن الظلم ظلمات يوم القيامة فعاقبته وخيمة وجزاؤه أليم وهو دافع إلى المعاصي وسفك الدماء واستحلال الحرمات، روي عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم))[4].

إن الظالم لن يفلت من جزائه بأي حال من الأحوال ولا يغرنه إمهال الله تعالى له، روي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[5]))[6]. وليحذر الظالم دعوة المظلوم عليه، فقد قال صلى الله عليه وسلم: ((واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب))[7].

إن للظلم مفاسده ومضاره التي لا تنكر في الدنيا والآخرة وله آثاره السلبية وعواقبه الوخيمة على الأفراد والمجتمعات، من هذه العواقب والمضار أن الظلم:

---

(١) شرح رياض الصالحين ج١٧٢٨/٢.

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين، ج٥٢٦٠/١١.

(٣) سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنووط ١٣١/٥.

(٤) أخرجه البخاري ٢٤٤٧، ومسلم ٢٥٧٨ واللفظ له.

(٥) سورة هود، آية: ١٠٢.

(٦) أخرجه البخاري ٤٦٨٦، ومسلم واللفظ له ٢٥٨٣.

(٧) أخرجه البخاري ١٤٩٦، ومسلم واللفظ له ١٩.

أ- يجلب غضب الرب وسخطه ويتسلط على الظالم بتشى أنواع العذاب.

ب- قبول دعاء المظلوم فيه.

ج- يخرب الديار وبسببه تنهار الدول.

د- تحاشي الخلق عن الظالم وبعدهم منه لخوفهم من بطشه.

هـ- معصيته متعدية للغير.

و- دليل على ظلمة القلب وقسوته.

ز- عدم الأخذ على يد الظالم يُفسد الأمة.

ح- يجلب كره الرسول ﷺ.

ط- صغار الظالم عند الله وذلته.

ي- الظالم يحرم شفاعة رسول الله ﷺ(١).

ك- الظلم يحمل صاحبه على وضع الشيء في غير موضعه، فيغضب في موضع الرضى، ويرضى في موضع الغضب، ويجهل في موضع الأناة، ويبخل في موضع البذل، ويبذل في موضع البخل، ويحجم في موضع الإقدام، ويقدم في موضع الإحجام، ويلين في موضع الشدة، ويشتد في موضع اللين، ويتواضع في موضع العزة، ويتكبر في موضع التواضع(٢).

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الترهيب من العرى والانحلال والسفور وإثارة الغرائز:

جاءت الإشارة إلى ذلك في قوله ﷺ "صنفان من أهل النار لم أرهما، ... ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا".

قال القرطبي: (وقوله: "ونساءٌ كاسيات، عاريات" قيل في هذا قولان:

أحدهما: أنهنَّ كاسيات بلباس الأثواب الرقاق الرفيعة التي لا تستر منهن حجم عورةٍ، أو تبدي من محاسنها - مع وجود الأثواب الساترة عليها- ما لا يحلُّ لها أن تبديه، كما تفعل البغايا المشتهرات بالفسق.

---

(١) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، د. صالح بن عبدالله بن حميد وآخرين ٤٩٢٦/١٠.

(٢) انظر: مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢٩٥/٢.

وثانيهما: أنهنَّ كاسيات من الثياب، عاريات من لباس التقوى؛ الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾(١).

قلتُ: ولا بُعد في إرادة القدر المشترك بين هذين النوعين؛ إذ كلٌّ واحدٍ منهم عروٌ، وإنما يختلفان بالإضافة.

وقوله: "مميلات مائلات" كذا جاءت الرواية في هاتين الكلمتين بتقديم: مميلات على مائلات، وكلاهما من الميل، بالياء باثنتين من تحتها. ومعنى ذلك: أنهن يملن في أنفسهنَّ تثنيًا ونعمةً، وتصنُّعًا ليملنِ إليهنَّ قلوب الرجال، فيميلون إليهنَّ، ويفتنَّهم. وعلى هذا: فكان حق مائلات أن يتقدم على مميلات؛ لأن ميلهن في أنفسهن مقدم على الوجود على إمالتهن. وصحَّ ذلك لأن الصفات المجتمعة لايلزم ترتيبها: ألا ترى أنها تعطف بالواو، والواو جامعة غير مترتبة، إلا أن الأحسن تقديم مائلات على مميلات؛ لأنه سببه كما سبق.

وقد أبعد أبو الوليد الوقشي حيث قال: إن صوابه "الماثلة" بالثاء المثلثة، يعني: الظاهرة، وقال: لا معنى للمائلة هنا. وتركُ هذا الصواب هو الصواب.

وقوله: "رؤسهنَّ كأسنمة البخت المائلة" أسنمة: جمع سنام، وسنام كلِّ شيء: أعلاه. والبخت: جمع بختيَّة. وهي ضربٌ من الإبل عظام الأجسام، عظام الأسنمة، شبَّه رؤسهنَّ بها لما رفعن من ضفائر شعورهنَّ على أوساط رؤوسهنَّ تزينًا، وتصنعًا، وقد يفعلن ذلك بما يكثِّرن به شعورهنَّ، والمائلة: الرواية بالياء، من الميل. يعني: أن أعلى السنام يميل لكثرة شحمه، شبَّه أعالي ما يرفعن من الشعر بذلك. وقال الوقشيُّ: صوابه بالثاء المثلثة أي: المرتفعة الظاهرة(٢).

قال النووي: (قوله "كاسيات عاريات" أي: تستر بعض بدنها وتكشف بعض إظهارًا بحالها ونحوه، وقيل معناه تلبس ثوبًا رقيقًا يصف لون بدنها)(٣). وقد تضافرت آيات

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٢٦.

(٢) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٥/٤٤٩-٤٥١.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ١٣٤١.

القرآن وأحاديث السنة النبوية على الترهيب والنهي عن التبرج والسفور وإثارة الغرائز، قال تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾[1] قال ابن كثير: (قال مجاهد بن جبر: وذلك أن المرأة فيهن كانت تخرج تمشي بين يدي الرجال، وقال قتادة: كانت لهن مشية وتكسر وتغنج فنهى الله تعالى المؤمنات عن ذلك إذا خرجن من بيوتهن[2] بل زيادة في الترهيب من العري والسفور يأمر النبي ﷺ بلعنة من كانت هذه سنتها، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: ((سَيَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي نِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ عَلَى رُؤوسِهِنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ، العنوهن فَإِنَّهُنَّ مَلْعُونَاتٌ))[3] قال السيوطي، قال ابن عبد البر (أراد النبي ﷺ النساء اللواتي يلبسن من الثياب الشيء الخفيف الذي يصف ولا يستر فهن كاسيات بالاسم عاريات في الحقيقة)[4].

رابعًا- من أصناف المدعوين: النساء:

وقد ضمن الحديث الحديث عن النساء وتحذيرهن من التبرج والسفور، وبيان الوعيد لمن ترتكب ذلك، فقال ﷺ "ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا" والنساء صنف من أصناف المدعوين لا يستهان به، لذا لابد من تكثيف النشاط لهداية النساء؛ لأن المرأة اليوم لا تزال في نظر عباد المال والشهوات وسيلة لتدمير الأخلاق وتجارة الرقيق الأبيض، وإن هداية المرأة للإسلام هو كسب لها، ومنع لأية آثار سلبية تتركها في المجتمع حينما تكون بلا هداية، وبهذا نفهم أن الدعوة في صفوف النساء هي أيضًا حماية للمجتمع وأخلاقه وشبابه[5].

ومن أهم ركائز الدعوة في الأوساط النسائية الدعوة إلى العفة والحجاب والبعد عن التبرج والسفور.

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٣٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤٨٢/٥.

(٣) رواه الطبراني في الصغير، برقم ١١٢٥، وقال الألباني في حجاب المرأة المسلمة، سنده صحيح، ٥٦.

(٤) تنوير الحوالك شرح موطأ مالك، جلال الدين السيوطي ١٠٣/٣.

(٥) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، الإمام شمس الدين بن القيم، ص ١٢٠.

إن الله تعالى قد حرم تبرج المرأة وأمرها بالعفة والحجاب، قال تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾[1].

والتبرج يعبر عنه وعن غيره من مظاهر الفساد بلفظ: التكشف، والتهتك، والعُري، والتحلل الخُلُقي، والإخلال بناموس الحياة، وداعية الإباحية: "الزنا".

وهو محرَّم في الشرائع السابقة، وهو في القانون الوضعي محرم على الورق وليس له نصيب من الواقع؛ لأنه ممنوع بعصا القانون.

أما في الإسلام فهو محرم بوازع الإيمان، ونفوذ سلطانه على قلوب أهل الإسلام طواعية لله تعالى ولرسوله ﷺ، وتحليًا بالعفة والفضيلة، وبعدًا عن الرذيلة، وانكفافًا عن الإثم، واحتسابًا للأجر والثواب، وخوفًا من أليم العقاب، فعلى نساء المسلمين، أن يتقين الله، فينتهين عما نهى الله عنه ورسوله ﷺ، حتى لا يُسهمن في نشر الفساد في المجتمع المسلم، وهدم الأسر والبيوت، وحلول الزنا، وحتى لا يكنّ سببًا في استجلاب العيون الخائنة، والقلوب المريضة إليهن، فيأثمن، ويؤثِّمن غيرهن.

والتبرج يكون بأمور:

يكون التبرج بخلع الحجاب، وإظهار المرأة شيئًا من بدنها أمام الرجال الأجانب عنها.

ويكون التبرج بتثني المرأة في مشيتها وتبخترها وترفلها وتكسرها أمام الرجال.

ويكون التبرج بالضرب بالأرجل؛ ليُعلم ما تخفي من زينتها، وهو أشد تحريكًا للشهوة من النظر إلى الزينة.

ويكون التبرج بالخضوع بالقول والملاينة بالكلام.

ويكون التبرج بالاختلاط بالرجال وملامسة أبدانهن أبدان الرجال، بالمصافحة والتزاحم في المراكب والممرات الضيقة ونحوها.

والنسوة المتبرجات هُنَّ: "المترجلات" و"المتشبهات" بالرجال أو بالنساء الكافرات.

---

(١) سورة النور، آية: ٣١.

والمترجلات يسميهن بعض الأوربيين باسم "الجنس الثالث".

والأدلة على تحريم التبرج آيات من كتاب الله، منها آيتان نصٌّ في النهي عن التبرج، وهما:

قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾[1].

وقول الله تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

وآيات ضرب الحجاب وفرضه على أمهات المؤمنين ونساء المؤمنين ونهيهن عن إبداء الزينة، نصوص قاطعة على تحريم التبرج والسفور.

ومن السنة: حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤوسهن كأسنمة البخت، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا".

وهذا نص فيه وعيد شديد، يدل على أن التبرج من الكبائر؛ لأن الكبيرة: كل ذنب توعد الله عليه بنار أو غضب أو لعنةٍ أو عذابٍ أو حرمانٍ من الجنة.

وقد أجمع المسلمون على تحريم التبرج، وبالإجماع العملي على عدم تبرج نساء المؤمنين في عصر النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى ستر أبدانهن وزينتهن.

وليحذر المسلم من بدايات التبرج في محارمه، وذلك بالتساهل في لباس بناته الصغيرات بأزياء لو كانت على بالغات لكانت فسقًا وفجورًا، مثل إلباسها القصير، والضيق، والبنطال، والشفاف الواصف لبشرتها، إلى غير ذلك من ألبسة أهل النار، كما تقدم في الحديث الصحيح، وفي هذا من الإلف للتبرج والسفور، وكسر حاجز النفرة، وزوال الحياء، ما لا يخفى. فليتق الله من ولاه الله الأمر[3].

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٣٣.

(٢) سورة النور، آية: ٦.

(٣) انظر: حراسة الفضيلة، بكر بن عبدالله أبو زيد، ١٠٣-١٠٨.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: بيان نعيم الجنة وريحها:

جاءت الإشارة إليه في الحديث في قوله ﷺ "لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا" قال ابن القيم: (وريح الجنة نوعان ريح يوجد في الدنيا تشمه الأرواح أحيانًا لا تدركه العباد، وريح يدرك بحاسبة الشم للأبدان كما تشم روائح الأزهار وغيرها، وهذا يشترك أهل الجنة في إدراكه في الآخرة من قرب وبعد، وأما في الدنيا فقد يدركه من شاء الله من أنبيائه ورسله[1]، وأوليائه، وقد صرح القرآن بأن نعيم الجنة يشمل ما لا يدخل ولا يطرأ على قلب بشر، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[2].

سادسًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

جاء الترهيب في الحديث واضحًا جليًا حيث رهب النبي ﷺ من ظلم الناس والاعتداء عليهم بغير حق ومن تبرج النساء وسفورهن بأن فاعل ذلك من أصناف النار، فقال ﷺ "صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيان عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا" والترهيب من الأساليب ذات القيمة التأثيرية العظيمة، والترهيب وعيد وتهديد بعقوبة تترتب على اقتراف إثم أو ذنب مما نهى الله عنه أو التهاون في أداء فريضة مما أمر الله به، أو هو تهديد من الله يقصد به تخويف عباده وإظهار صفة من صفات الجبروت والعظمة الإلهية ليكونوا دائمًا على حذر من ارتكاب الهفوات والآثام[3].

سابعًا: من أهداف الدعوة: الحث على عدم ظلم الناس:

جاءت النصوص مرهبة أشد الترهيب من ظلم الناس كما جاء في الحديث "صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون الناس..." فالظلم سبب

---

(١) فقه الدعوة، د. بسام العموش، ص ٧٤.

(٢) سورة السجدة، آية: ١٧.

(٣) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، د. عبدالرحمن النحلاوي ص ٢٥٧.

لوخيم العواقب، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ﴾[1] وهو سبب لانهيار القوى وتبدد الممالك، قال ابن تيمية: (إن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة، وعاقبة العدل كريمة، ومن المأثور أن الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة[2] وهو من صفات اللئام ولله در أبي العتاهية حين قال:

أما والله إن الظلم لؤم ... وما زال المسيء هو الظلوم
إلى ديان يوم الدين نمضي ... وعند الله تجتمع الخصوم
ستعلم في الحساب إذا التقينا ... غدًا عند الإله من الملوم[3]

إن محاربة الظلم وتمكين العدل ضرورة لإقامة الحق، وضمان العدل يشيع الطمأنينة وينشر الأمن، ويشد علاقة الأفراد بعضهم ببعض ويجعل الروابط بينهم قائمة على التوازن والانسجام والإخاء. ومن هنا نجد آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ مليئة بالدعوة للعدالة وإحقاق الحق محذرة من الظلم والبغي؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[4]. والعدل من أوصاف الرسل والأنبياء، قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾[5]. وإقامة العدل إحدى مهمات الرسول ووظائفه: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾[6].

والعدل الذي ينادي به الإسلام، عدل شامل يساوي بين الناس: ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾[7].

---

(١) سورة الشورى، آية: ٣٦.
(٢) مجموعة الفتاوى لابن تيمية، ج١٢/٦٢، ٦٣.
(٣) الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعمر القيام ١/١٨١.
(٤) سورة النحل، آية: ٩٠.
(٥) سورة الحديد، آية: ٢٥.
(٦) سورة الشورى، آية: ١٥.
(٧) سورة النساء، آية: ٥٨.

ولا تعتبر العداوة والشحناء التي تقوم للناس مبررًا لقيام الظلم أو ترك العدل؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1].

والعدل يوصف به الفرد كما يوصف به المجتمع، فالعدل في الأفراد هو إعطاء كل ذي حق حقه، والمجتمع العادل هو الذي من نظمه وقوانينه ما يسهل لكل فرد أن يصل إلى حقه[2].

ثامنًا- من اهداف الدعوة: الحث على الالتزام بالحشمة والوقار والحياء:

جاء في الحديث الترهيب من السفور ونفض لباس الحشمة والحياء، فقال ﷺ "صنفان من أهل النار لم أرهما ... ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا" فالإسلام يهدف إلى إقامة مجتمع نظيف لا تهاج فيه الشهوات في كل لحظة ولا تستثار، وإقامة مجتمعًا طاهرًا من أدران الفاحشة والتردي في بؤرة الفساد والتحلل الخلقي، تُجنب فيه النفوس من أسباب الإغراء والغواية، وقد زاد الإسلام المرأة تزكية وطهرًا أن كلفها زيادة على الرجل بعدم إبداء الزينة لغير المحارم وفرض عليها الحجاب الشرعية[3]، فقال تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾[4] فالتبرج والسفور تعرٍّ من التقوى وبعدًا عن الحياء، لذا كان وصف النبي ﷺ للمتبرجات بقوله "كاسيات عاريات" كاسيات عاريات من لباس التقوى، فهن كاسيات بالثياب عاريات من التقوى حقيقة ظاهرًا وباطنًا، حيث تبدي زينتها، ولا تبالي بمن ينظر إليها، بل ذلك مقصودهن، وذلك مشاهد في الوجود منهن، ولو كان عندهن شيء من التقوى لما فعلن ذلك[5].

---

(١) سورة المائدة، آية: ٨.

(٢) دراسات تربوية في الأحاديث النبوية، د. محمد لقمان الأعظمي، ٣٣١.

(٣) انظر: روائع البيان تفسير آيات الأحكام، محمد علي الصابوني، ١٦٩/٢.

(٤) سورة الأحزاب، آية: ٣١.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٦٠/١٢/٦.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية بالترهيب:

إن تشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال، منقصة وانتكاسة أخلاقية، يجب أن يترفع عنها كل مسلم ومسلمة، ولذا رهّب النبي ﷺ من هذا الفعل الشنيع فقد ورد في حديث الباب من قول ابن عباس رضي الله عنهما: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ المُخَنَّثِينَ مِنَ الرِّجَالِ، ... إلخ»، ومن قول أبي هريرة رضي الله عنه: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرجل يلبس لبسة المرأة ...إلخ»، واللعن هنا ورد كأسلوب تربوي غاية في ترهيب الأنفس من مغبة امتثال هذا الفعل الدنيء، "حيث إن الإسلام الحنيف يحافظ على فطرة الإنسان، رجلاً كان أو امرأة، فلا يصلح للرجل التخلق بصفات الأنثى، ولا يصلح للمرأة أن تتصف بصفات الرجل، فهذا تغيير لخلق الله عز وجل، سواء أكان في ملبس، أم في صوت أم في حركة"[1]، وقد ترائى من أحاديث الباب أن الترهيب كأسلوب تربوي لم يقف عند حد اللعن، بل تعدى إلى بيان شدة العذاب، كما ورد في قوله ﷺ: «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا..إلخ».

لذا وجب على دعاة التربية والتوجيه استخدام الترهيب كأسلوب تربوي إذا ما حادت النفس عن أمر الله ورسوله في ذلك، والتربية بالترهيب، لا تقف عند حد التغليظ في الموعظة، وبيان شدة وعيدها بالقول، بل تتعدى إذا اقتضى الأمر إلى الإيلام بالعقاب الجسدي، وإن اقتضى الأمر ذلك، وجب على القائمين بالتربية أن يعلموا أن الهدف من العقاب الجسدي ليس الانتقام والتشفي، وإنما التأديب والإصلاح، لما في ذلك من إنقاذ نفس المتربي من النار وعذاب الجبار، وبناء على ذلك كان العقاب في ظاهره القسوة وفي باطنه الرحمة بالمتربي.

وحتى يأتي العقاب -كأحد أشكال التربية بالترهيب- بثماره، وجب تجنب الأخطاء التربوية في ذلك، والتي من أهمها ما يلي:

---

(١) الأخلاق في الإسلام، د. عبداللطيف محمد العبد، ٢٨٦، ٢٨٧.

١- عدم التدرج في إيقاع العقاب على المتربي:

فالعقاب البدني لا يجرى كله على منوال واحد بل هو درجات، وأول درجاته إبراز أداة العقوبة كالعصا أو السوط، فإن ذلك مما يسهم في التربية ويحمل الصبي على السلوك الحميد المرغوب، ثم الإشارة بها والتهديد باستخدامها عند تكرار الخطأ، ثم الضرب الخفيف الذي يمكن أن يسبب ألمًا لكنه لا يضر، ولا ينبغي له أن يضرب كيفما اتفق في أي مكان من جسد الصبي، فإن ذلك يدل على هياج المربي وعدم اتزانه، مما ينذر بعواقب سيئة قد تترتب عليها كارثة للصبي، بل عليه أن يتريث ويختار المكان الذي يضرب فيه، فلا يضرب على العظام أو الأماكن الحساسة، ولا يكرر الضرب على مكان واحد، ولا يرفع يده عند الضرب حتى يرى بياض إبطه، بل تكون عضده مضمومة إلى جنبه، ولا يستخدم في ذلك عصا غليظة أو حديدة أو نحو ذلك[١].

قال ابن خلدون: وقد قال محمد بن أبي زيد في كتابه الذي ألفه في حكم المعلمين والمتعلمين: "لا ينبغي لمؤدب الصبيان أن يزيد في ضربهم إذا احتاجوا إليه على ثلاثة أسواط شيئًا، ومن كلام عمر رضي الله عنه: "من لم يؤدبه الشرع لا أدبه الله"، حرصًا على صون النفوس عن مذلة التأديب، وعلمًا بأن المقدار الذي عينه الشرع، لذلك أملك له، فإنه أعلم بمصلحته"[٢].

٢- إظهار الشفقة والرحمة بالمتربي المخطئ بعد عقابه:

حيث كان من الأخطار التي يقع فيها المربي في محاولة إشعار الصبي بشفقته عليه أن يقوم بمصالحته فور توقيع العقاب، وقد يعطيه بعض المال أو يشتري له بعض قطع الحلوى أو ما شابه ذلك، مما يضيع الثمرة المرجوة من العقاب[٣].

ثانيًا- تربية العفة في قلوب نساء المسلمين:

إن من أعظم الجرائم الخلقية التي ترتكب في حق عفة الشباب المسلم الغَضِّ، جريمةُ التبرج والسفور، لأن فتن النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات كانت وبحق أعظم معول لهدم التربية الخلقية في قلوب المتربين.

---

(١) نحو تربية إسلامية راشدة، محمد شاكر الشريف، ص٩٥، ٩٦.

(٢) مقدمة ابن خلدون، ٥٠٨.

(٣) نحو تربية إسلامية راشدة، محمد شاكر الشريف، ٩٥.

ونقول بكل شجن وألم إن الحسرة على هدم العفة في قلوب النشء والشباب، لا تعادلها حسرة، فالتربية على العفة صيانة للفرد والمجتمع وتنمية للقيم العليا بين الناس، وصيانة للأعراض، ولذا رهب النبي ﷺ من التبرج والسفور والتحلل الأخلاقي.

وذلك في قوله ﷺ من حديث الباب: «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا» -ثم ذكر ﷺ من هذين الصنفين-: «وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ، مُمِيلاَتٌ مَائِلاتٌ، رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لاَ يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ، وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا. وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا».

لذا وجب على أهل التربية والتوجيه غرس العفة في قلوب نساء المسلمين.



٢٩٣- باب النهي عن التشبه بالشيطان والكفار

الحديث رقم (١٦٣٦)

١٦٣٦- عن جابر رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **((لاَ تَأكُلُوا بِالشِّمَالِ، فَإنَّ الشَّيْطَانَ يَأكُلُ (ويَشربُ)[1] بِالشِّمَالِ))**. رواه مسلم[2].

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

إن للطعام آدابًا في الإسلام، ومن هذه الآداب: الأكل باليمين، تيمنًا وتبركًا واقتداءً برسول الله ﷺ، وبعدًا عن التشبه بالكفار والشيطان.

والحديث الشريف في بنائه اللغوي يتكون من جملتين الأولى فعلية وردت في صيغة النهي، والنهي هنا ليس موجهًا إلى فرد واحد، ولكنه موجه من رسول الله إلى الأمة الإسلامية كلها في كل العصور، وجميع البيئات وهذا النهي الممتد الشامل جاء موجزًا بليغًا صريحًا في هذه الجملة المتموجة بكثير من الدلالات، "لا تأكلوا بالشمال"، وأما الجملة الثانية فهي اسمية وردت في صيغة التأكيد، وهي تعليلية إقناعية: حيث تصدرتها الفاء التي تفصح عن السبب في النهي عن الأكل بالشمال، فإن الشيطان يأكل بالشمال ونلاحظ تكرار لفظ "الشمال" للتأكيد على النهي وللتذكير والتنبيه بأن الآكل بالشمال يتشبه بالشيطان، ويابئس هذا التشبه، ومن يكن الشيطان له قرينًا فساء قرينًا، والأولى أن نتشبه برسول الله ﷺ وقد كان ﷺ يحب التيامن في شأنه كله، وقال «ياغلامُ، سَمِّ الله، وكل بيمينك، وكل مما يَلِيك»[3].

---

(١) هذه الزيادة لا توجد عند مسلم في هذه الرواية، وإنما عنده برقم (٢٠٢٠/١٠٥) من حديث عبد الله بن عمر، كما في الحديث الذي بعد هذا.

(٢) برقم (٢٠١٩/١٠٤).

(٣) أخرجه البخاري ٥٣٧٦، ومسلم ٢٠٢٢.

والنهي في هذا الحديث الشريف: للتنزيه، وقيل للوجوب، لأن الشافعي يرى أن من أكل مما لا يليه وبشماله عالمًا بالنفي كان عاصيًا آثمًا، وقال ابن حجر: ويدل على وجوب الأكل باليمين ورود الوعيد في الأكل بالشمال. والله أعلم.

فقه الحديث

يشتمل هذان الحديثان على الأحكام التالية:

١- حكم الأكل والشرب بالشمال: وقد اختلف الفقهاء في حكم الأكل والشرب بالشمال على رأيين:

الرأي الأول: وهو ما ذهب إليه جمهور الفقهاء[1] ويرون أن الأكل والشرب بالشمال إنما هو مكروه، وليس محرمًا.

الرأي الثاني: وهو ما ذهب إليه الإمام ابن عبدالبر من المالكية[2]، وقول عند الحنابلة اختاره أبو موسى[3]، وابن حزم من الظاهرية[4] إلى أن الأكل بالشمال، والشرب بها إنما هما محرمان.

الأدلة:

أولاً: دليل الرأي الأول: استدل أصحاب الرأي الأول على ما ذهبوا إليه من كراهة الأكل والشرب بالشمال، بحمل النهي الوارد في الحديثين على الكراهة[5].

---

(١) شرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني ٣٦٤/٤، وكفاية الطالب الرباني ٦٠٧/٢، ٦٠٨، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٢٥٠/٣، وحاشية الشرواني على تحفة المحتاج ٤٣٨/٧، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٢٢١/٧، ٣٤٣/٩، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ٣٢٦/٨، ومنار السبيل في شرح الدليل، إبراهيم بن محمد ضويان ١٨٩/٢.

(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ١١٣/١١.

(٣) الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ٣٢٦/٨.

(٤) المحلى، ابن حزم ٤٢٤/٧.

(٥) شرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني ٣٦٤/٤.

ثانيًا: دليل الرأي الثاني: واستدل أصحاب الرأي الثاني القائل بتحريم الأكل والشرب بالشمال، بأن رسول الله ﷺ قد نهى عن الأكل والشرب بالشمال، والنهي حقيقة في التحريم، ولا يكون للكراهة إلا مجازًا مع وجود الصارف[١]، وهو غير موجود هنا.

ومما يدل على التحريم - أيضًا- ما جاء في صحيح مسلم عن سلمة بن الأكوع ((أَنَّ النبي ﷺ رأى رَجُلاً يأَكُل بِشِمَالِهِ. فَقَالَ: كُلْ بِيَمِينِكَ قَالَ: لاَ أَسْتَطِيعُ. قَالَ: لاَ اسْتَطَعْتَ فَمَا رَفَعَهَا إِلَىٰ فِيهِ بعد))[٢].

وما أخرجه الطبراني من حديث عقبة بن عامر أن النبي ﷺ رأى سبيعة الأسلمية تأكل بشمالها، فقال: أخذها داء غزة، فقال: إن بها قرحة قال: وإن، فمرت بغزة فأصابها طاعون فماتت[٣].

وقد أجيب على الاستدلال بهذين الحديثين بأن دعاء النبي ﷺ عليهما، ليس لأنهما تركا الأكل باليمين، وأكلا بالشمال، وإنما لقصدهما المخالفة كبرًا[٤].

الترجيح:

ولعل الراجح من هذين الرأيين هو أن الأكل بالشمال والشرب بها إنما هو مكروه، ومحل الكراهة إذا لم يكن لعذر، أما إذا وجد عذر يمنع من الأكل باليمين، ويحتم الأكل بالشمال من نحو مرض،أو جراحة، أو غير ذلك فلا كراهة[٥].

٢- وفي الحديثين أيضًا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في كل حال، حتى في حال الأكل.

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٤٢٢/٥.

(٢) أخرجه مسلم ٢٠٢١.

(٣) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين بن أبي بكر الهيثمي ٢/٥.

(٤) شرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني ٣٦٥/٤.

(٥) شرح صحيح مسلم، النووي ١٩١/١٣، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٤٢٢/٥، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ٣٢٦/٨.

٣- وفيهما استحباب تعليم الآكل آداب الأكل[1].

المضامين الدعوية[2]

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل التيمن في الأكل والشرب وعدم الأكل بالشمال أو الشرب بها.

ثانيًا: من آداب المدعو: الاستجابة لتوجيهات النبي ﷺ في آداب الأكل والشرب.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل التيمن في الأكل والشرب وعدم الأكل بالشمال أو الشرب بها:

ويظهر ذلك في حديث جابر رضي الله عنه "أن رسول الله ﷺ قال لا تأكلوا بالشمال، فإن الشيطان يأكل بالشمال" وحديث ابن عمر رضي الله عنهما "أن رسول الله ﷺ قال: "لا يأكلن أحدكم بشماله، ولا يشربن بها، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بها".

قال النووي: (فيه استحباب الأكل والشرب باليمين وكراهتهما بالشمال وقد زاد نافع الأخذ والإعطاء وهذا إذا لم يكن عذر، فإن كان عذر يمنع الأكل والشرب باليمين من مرض أو جراحة أو غير ذلك فلا كراهة في الشمال، وفيه أنه ينبغي اجتناب الأفعال التي تشبه أفعال الشياطين وأن للشياطين يدين)[3].

وقال ابن الجوزي: (لما جعلت الشمال للاستنجاء ومباشرة الأنجاس، واليمنى لتناول الغذاء، لم يصلح استعمال أحدهما في شغل الأخرى، لأنه حط لرتبة ذي الرتبة، ورفع للمحطوط، فمن خالف ما اقتضه الحكمة وافق الشيطان)[4].

ولفضل التيمين كان رسول الله ﷺ يعجبه التيمن في كل شيء فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((كان رسول الله يعجبه التيمُّنُ في شأنه كلِّهِ: في طهوره

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١٩١/١٣.

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٦٣٦- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٣٧).

(٣) شرح مسلم، النووي، ص ١٢٨٠.

(٤) كشف المشكل ٥٩٤/٢، ١٢٢٧ نقلاً عن كتاب الآداب، فؤاد عبدالعزيز الشلهوب، ص ١٥٧.

وترجله وتنعُّله))[1]. فاليمين تقدم في الأعمال الشريفة النظيفة والشمال تقدم في الأعمال الخسيسة المستقذرة.

ثانيًا- من آداب المدعو: الاستجابة لتوجيهات النبي ﷺ في آداب الأكل والشرب:

يستنبط هذا من عموم الحديثين. وقال رسول الله ﷺ: ((إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله))[2].

قال أبو العباس القرطبي: (قوله: "إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه، وإذا شرب فليشرب بها" هذا الأمر على جهة الندب؛ لأنه من باب تشريف اليمين على الشمال، وذلك لأنها أقوى في الغالب، وأسبق للأعمال، وأمكن في الأشغال. ثم هي مشتقةٌ من اليُمنِ، والبركة. وقد شرف الله تعالى أهل الجنة بأن نسبهم إليها، كما ذم أهل النار حين نسبهم إلى الشمال، فقال: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾[3]، وقال: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾[4]، وقال عكس هذا في أصحاب الشمال. وعلى الجملة: فاليمين وما نُسب إليها، واشتُق عنها محمودٌ لسانًا، وشرعًا، ودنيا، وآخرة. والشمال على النقيض من ذلك.

وإذا كان هذا، فمن الآداب المناسبة لمكارم الأخلاق، والسيرة الحسنة عند الفضلاء اختصاص اليمين بالأعمال الشريفة، والأحوال النظيفة، وإن احتيج في شيء منها إلى الاستعانة بالشمال فبحكم التبعية. وأما إزالة الأقذار، والأمور الخسيسة فبالشمال لما يناسبها من الحقارة، والاسترذال.

وقوله: "فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله" ظاهره أن من أكل بشماله تشبه بالشيطان في ذلك الفعل؛ إذ الشيطان بشماله يأكل وبها يشرب. ولقد أبعد وتعسَّف من أعاد الضمير في "شماله" على الآكل)[5].

---

(١) أخرجه البخاري ٤٢٦، ومسلم ٢٦٨.

(٢) أخرجه مسلم ٢٠٢٠.

(٣) سورة الواقعة، آية: ٨.

(٤) سورة الواقعة، الآيتان: ٩٠، ٩١.

(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٥/٢٩٦.

قال الطيبي: (قال التوربشتي: قوله: "فإن الشيطان يأكل بشماله" المعنى أنه يحمل أولياءه من الإنس على ذلك الصنيع ليضاد به عباد الله الصالحين، ثم إن من حق نعمة الله والقيام بشكره أن يكرم ولا يستهان بها، ومن حق الكرامة أن يتناول باليمين ويميز بها بين ما كان من النعمة وبين ما كان من الأذى. أقول: تحريره أن يقال: لا يأكلن أحدكم بشماله ولا يشربن بها؛ فإنكم إن فعلتم ذلك كنتم أولياء الشيطان؛ فإن الشيطان يحمل أولياءه من الإنس على ذلك)[1].

قال ابن عثيمين: (نهى النبي ﷺ عن الأكل والشرب باليد الشمال وعلل ذلك بأن هذا عمل الشيطان، الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله وقد نهينا عن اتباعه كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾[2] وهذا يدل على تحريم الأكل بالشمال، وتحريم الشرب بالشمال، وأن من أكل أو شرب بشماله، فإنه مشابهة للشيطان الذي هو عدونا وعدو الله عز وجل)[3].

فينبغي على المدعو التأسي بهدي النبي ﷺ والاستجابة لتوجيهاته في الأكل والشرب باليد اليمنى وعدم الأكل والشرب باليد اليسرى حتى يبتعد عن التشبه بأفعال الشيطان وأفعال الكفار الذين يقلدون زعيمهم الشيطان.

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

يظهر ذلك من عموم الحديثين حيث رهّب رسول الله ﷺ من الأكل والشرب باليد اليسرى وبين أن الشيطان يأكل ويشرب بيده اليسرى ومن اتبع الشيطان أو قلده وقع في المعاصي والذنوب وفي ذلك ترهيب من اتباع الشيطان وتقليده.

وأسلوب الترهيب فيه تخويف يحمل النفس وصاحبها على ترك المعاصي والآثام، واجتناب الجرائم والذنوب، وبيان ما أعده المولى جل وعلا من شديد العقاب وأليم العذاب لمن طغى وبغى وعاند وعصى.

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٣٨/٨.

(٢) سورة النور، آية: ٢١.

(٣) شرح رياض الصالحين ١٧٣١/٢.

ومن صور الترهيب التي ورد ذكرها في القرآن الكريم صورة نفسية مفزعة إذا تدبرها الإنسان يرتجف فؤاده وتضطرب نفسه، يبين من خلالها الكتاب العزيز وضع الغافلين اللاهين الدائمين على الذنوب والمعاصي المستمرين على مخالفة أمر الله تعالى ورسوله أتباع الشيطان يوم يتخلى عنهم وهم غير قادرين على فعل شيء أي شيء، يقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ﴾[1].

إنها صورة وموقف لا خزي بعده حين يتنصل الشيطان -لعنه الله وأخزاه- من أتباعه بهذه الطريقة في هذا اليوم الذي لا يستطيع العبد أن يعمل فيه ما يبعد عنه عقوبة المعصية والبعد عن الله[2].

فينبغي على الداعية الترهيب من مخالفة أحكام الله وهدي نبيه ﷺ واتباع الشيطان.

---

(١) سورة إبراهيم، آية: ٢٢.

(٢) انظر: قواعد الدعوة الإسلامية، د. حمدان الهجاري، ص ٥١٥-٥١٧.

الحديث رقم (١٦٣٧)

١٦٣٧ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ رسُولَ الله ﷺ، قَالَ: ((لاَ يَأكُلَنَّ أَحَدُكُمْ[١] بِشِمَالِهِ، وَلاَ يَشْرَبَنَّ بِهَا، فَإنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ وَيَشْرَبُ بِهَا)). رواه مسلم[٢].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث الشريف يتفق في مضمونه مع الحديث السابق: وهو النهي عن الأكل بالشمال، ولكن هذا الحديث يتسم بالزيادة في المبنى، وكذلك الزيادة في المعنى، فهنا ورد النهي عن الأكل بالشمال، وعن الشرب بها، لأن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بها، وهذه الزيادة لمنع اللبس فربما يتوهم بعض الناس أن النهي يتعلق بالأكل فقط، فيجيء هذا الحديث موضحًا أن النهي عام: عن الأقل أو الشرب بالشمال والنهي في هذا الحديث موجه إلى الفرد، وليس إلى الجماعة، وهو في الوقت نفسه يتضمن النهي الجمعي، لأن المراد: أن كل أحد منكم، فلفظ "أحد" يصدق على كل مسلم، ولذلك ورد هذا اللفظ مقترنًا بضمير المخاطب الدال على الجمع في قوله "أحدكم".

وجاء النهي في هذا الحديث مؤكدًا في موضعين في قوله: "لا يأكلن ولا يشربن"، وقيل أكد الفعل بالنون مبالغة في النهي، فهو بها مكروه كراهة شديدة، وتكرار الفعل يأكل، وكذلك الفعل يشرب، واقتران هذين الفعلين بالشمال يرشد إلى الإثم الشديد الذي يرتكبه من يقدم على ذلك ولأن الشمال تستعمل في إزالة القذارات في الاستنجاء: ويعلق بها من الميكروبات والجراثيم كائنات غير مرئية تلحق الأذى

---

(١) لفظ مسلم: (أحد منكم) والمثبت لفظ المنذري في ترغيبه.

(٢) برقم (٢٠٢٠/١٠٦). أورده المنذري في ترغيبه (٣١٣٠).

بالإنسان، حيث يتلوث الطعام، وتفسد الأمعاء، ويتعرض المسلم للأمراض الفتاكة، ومما يدل على أن الآكل بشماله آثم: ما جاء في صحيح مسلم ((أن النبي ﷺ رأى رجلا يأكل بشماله فقال: كل بيمينك قال: لا أستطيع، قال: "لا استطعت"، ما منعه إلا الكبر فما رفعها إلى فيه بعد))[1].

المضامين الدعوية[2]

---

(١) أخرجه مسلم، ٢٠٢١.

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٦٣٨)

١٦٣٨- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: ((**إنَّ اليَهُودَ وَالنَّصَارى لاَ يَصْبغُونَ، فَخَالِفُوهُمْ**)). متفق عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

لا يصبغون: المراد: خضاب شعر اللحية والرأس الأبيض بصفرة أو حمرة وأما السواد فمنهي عنه [٢].

الشرح الأدبي

هذا هو الحديث الثالث في باب النهي عن التشبه بالشيطان والكفار، والحديثان السابقان يتعلقان بعدم التشبه بالكفار والشياطين في عادات الطعام والشراب، وهذا الحديث ينقلنا إلى مجال آخر ولكنه في إطار العادات والأعراف والتقاليد الاجتماعية، وهو مظهر الإنسان العام، ومن ذلك: عدم ترك الشيب في الرأس أو اللحية، وإنما على المسلم أن يصبغه إما بصفرة أو حمرة، والمنهي عنه الصبغ بالسواد.

والحديث في بنائه اللغوي يتكون من جملتين واضحتين لا غموض فيهما، ولا مواربة، ولا التواء، وإنما البيان والوضوح مع الإيجاز والإفهام، والإقناع والإفحام، من سمات البيان النبوي البليغ، والجملة الأولى اسمية مؤكدة في إطار الأسلوب "الخبري"، الذي يساق للإخبار والإعلام عن شيء متحقق، وأداة التوكيد "إن" وهي حرف توكيد ونصب، وهي من النواسخ وكأن مجيئها في بناء هذه الجملة إشارة إلى ما يأمر به رسول الله ﷺ من نسخ ومحو عادات اليهود والنصارى في عدم الصبغ، والتميز بما يضفي

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦٢)، ومسلم (٨٠/٢١٠٣) ولفظهما سواء.

(٢) رياض الصالحين ٥٦٥.

على المسلم طابع الخصوصية وهو الصبغ بالصفرة أو الحمرة، وهذا النسخ اللغوي يجيء متوائمًا مع النسخ الفعلي وهو عدم التشبه باليهود والنصارى، ولو جاء التعبير بقوله: "كان اليهود والنصارى: لا يصبغون" لما أعطى هذا الإيحاء الدقيق العميق، وخبر إن: جملة فعلية مقترنة بالنفي وفعلها مضارع، وهذه الصيغة الزمنية تعطي دلالة الاستمرار، والنفي بـ"لا"، غير النفي بـ"لن"، لاختلاف دلالة الفعل في حالة الاقتران بأحد الأداتين.

والجملة الثانية جاءت في صيغة الأمر الصريح الموجز في قوله: "فخالفوهم"، والمعنى الملازم لهذه المخالفة: هو اخضبوا بما عدا السواد، وقال بعض العلماء: إن الخضاب بالسواد: منهي عنه على سبيل التحريم إلا في الجهاد لإرهاب العدو، فتأمل هذه العلة التي تفيد الاستعداد والقوة في مواجهة العدو بكل الوسائل حتى بملامح الوجه، والشكل الخارجي الذي يرهب العدو.

فقه الحديث

يشتمل هذان الحديثان على الأحكام الفقهية الآتية:

١-استحباب خضاب شيب الرجل والمرأة بصفرة أو حمرة، وهذا الحكم متفق عليه بين الفقهاء[1].

٢-أما تغيير الشيب بالسواد فقد ذهب الفقهاء[2] إلى جوازه في الجهاد لإرهاب العدو لما روى صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((إِنَّ أَحْسَنَ مَا اخْتَضَبْتُمْ بِهِ السَّوَادُ، أَرْغَبُ لِنِسَائِكُمْ فِيكُمْ، وَأَهْيَبُ لَكُمْ فِي صُدُورِ عَدُوِّكُمْ))[3].

---

(١) رد المحتار على الدر المختار، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٤٢٢/٦، وتاج الملوك، محمد بن أبي بكر الرازي ص ٢٢٧، حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، علي بن أحمد الصعيدي ٥٨٢/٢، وروضة الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ٢٧٦/١، وشرح العمدة ٢٣٧/١.

(٢) المبسوط، أبو بكر السرخسي ١٩٩/١٠، وحاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، علي بن احمد الصعيدي ٥٨٢/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٦٠/١.

(٣) ابن ماجه ٣٦٢٥ وضعّفه الألباني (ضعيف الجامع الصغير ١٣٧٥).

أما في غير الجهاد فقد اختلف الفقهاء في تغيير الخضاب بالسواد على ثلاثة آراء:

الرأي الأول: وهو ما ذهب إليه جمهور الفقهاء من الحنفية[١]، والمالكية[٢]، والحنابلة[٣] وبعض الشافعية[٤]، ويرون أن تغيير الشيب بالسواد مكروه.

وذلك لأنهم حملوا النهي الوارد عن الخضاب بالسواد على الكراهة.

الرأي الثاني: وهو ما ذهب إليه بعض الشافعية[٥]، ويرون أن الخضاب بالسواد حرام وقد استدلوا على ذلك بحديث جابر -الذي معنا- وفيه أن رسول الله ﷺ قال: "اجتنبوا السواد".

وبما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: ((يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ يَخْضِبُونَ بِالسَّوَادِ كَحَوَاصِلِ الحَمَامِ لاَ يَرِيحُونَ رَائِحَةَ الجَنَّةِ))[٦].

الرأي الثالث: وهو محكي عن إسحاق بن راهويه[٧]، ويفرق في ذلك بين الرجل والمرأة فيجيزه للمرأة كي تتزين به لزوجها، ولا يجيزه للرجل.

الترجيح:

بعد عرض آراء الفقهاء في المسألة أرى - والله أعلم- أن الرأي الراجح ما ذهب إليه جمهور الفقهاء من القول بكراهة تغيير الشيب بالسواد.

---

(١) رد المحتار على الدر المختار، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٤٢٢/٦ وفيه (ويكره السواد لغير الحرب).

(٢) حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، علي بن أحمد الصعيدي ٥٨٢/٢.

(٣) المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٦٧/١ وفيه: "ويكره الخضاب بالسواد، قيل: لأبي عبدالله: تكره الخضاب بالسواد؟ قال: إي والله.

(٤) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٦٠/٦، وكذا: شرح صحيح مسلم، النووي ٨٠/١٤.

(٥) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٦٠/١، وشرح صحيح مسلم، النووي ٨٠/١٤.

(٦) أخرجه أبو داود ٤٢١٢، وصححه الألباني (صحيح الجامع الصغير ٨٠٠).

(٧) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٦٢/١، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٦٧/١.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: مخالفة اليهود والنصارى في صبغ الشيب.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: حث المسلم على التميز في مظهره وعدم تقليد غير المسلمين.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "إن اليهود والنصارى لا يصبغون، فخالفوهم".

حيث أكد رسول الله ﷺ على عدم صبغ اليهود والنصارى، وأسلوب التوكيد من أساليب الدعوة التي يفيد منها الداعية في بيان الحقائق والتأكيد عليها مما يجعل المدعو يستجيب للدعوة.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: مخالفة اليهود والنصارى في صبغ الشيب:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم".

قال ابن تيمية: (فإنه يقتضي أن علة الأمر بهذه المخالفة: كونهم لا يصبغون، فالتقدير اصبغوا لأنهم لا يصبغون. وإذا كان علة الأمر بالفعل عدم فعلهم له دل على أن قصد المخالفة لهم ثابت بالشرع، وهو المطلوب.

ويوضح ذلك: أنه لو لم يكن لقصد مخالفتهم تأثير في الأمر بالصبغ لم يكن لذكرهم فائدة، ولا حسن تعقيبه به، وهذا وإن دل على مخالفتهم أمر مقصود للشرع، فذلك لا ينفي أن يكون في نفس الفعل الذي خولفوا فيه مصلحة مقصودة، مع قطع النظر عن مخالفتهم فإن هنا شيئين:

أحدهما: أن نفس المخالفة لهم في الهدى الظاهر مصلحة ومنفعة لعباد الله المؤمنين، لما في مخالفتهم من المجانبة والمباينة التي توجب المباعدة عن أعمال أهل الجحيم، وإنما يظهر بعض المصلحة في ذلك لمن تنور قلبه حتى رأى المغضوب عليهم من المرض الذي ضرره أشد من ضرر أمراض الأبدان.

والثاني: أن نفس ما هم عليه من الهدي، والخلق، قد يكون مضرًا، أو منقصًا، فينهى عنه ويؤمر بضده، لما فيه من المنفعة والكمال، وليس شيء من أمورهم إلا وهو:

إما مضر؛ أو ناقص، لأن ما بأيدهم من الأعمال المبتدعة والمنسوخة ونحوها: مضرة، وما بأيديهم -مما لم ينسخ أصله- فهو يقبل الزيادة والنقص فمخالفتهم فيه: بأن يشرع ما يحصله على وجه الكمال، ولا يتصور أن يكون شيء من أمورهم كاملاً قط، فإذا المخالفة لهم فيها منفعة وصلاح لنا في كل أمورهم، حتى ما هم عليه من إتقان بعض أمور دنياهم قد يكون مضرًا بأمر الآخرة، أو بما هو أهم منه من أمر الدنيا فالمخالفة فيه صلاح لنا"[1].

وبالجملة: فالكفر بمنزلة مرض القلب، وأشد، ومتى كان القلب مريضًا؛ لم يصح شيء من الأعضاء صحة مطلقة، وإنما الصلاح: أن لا تشبه مريض القلب في أموره وإن خفي عليك مرض ذلك العضو، لكن يكفيك أن فساد الأصل لا بد أن يؤثر في الفرع.

ومن ثم فقد تبين أن نفس مخالفتهم أمر مقصود للشارع في الجملة؛ ولهذا كان الإمام احمد بن حنبل وغيره من الأئمة يعللون الأمر بالصبغ بعلة المخالفة، قال حنبل: سمعت أبا عبدالله يقول: ما أحب لأحد إلا أن يغير الشيب، ولا يتشبه بأهل الكتاب لقول النبي ﷺ: ((غَيِّرُوا الشَيْبَ ولا تَشَبَّهُوا باليَهُودِ))[2][3].

ثالثًا- من أهداف الدعوة: حث المسلم على التميز في مظهره وعدم تقليد غير المسلمين:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم" وفي ذلك حث المسلم على التميز في مظهره وعدم تقليد غير المسلمين وذلك لأن الله بعث محمدًا ﷺ بالحكمة التي هي سنته، وهي الشرعة والمنهاج الذي شرعه له، فكان من هذه الحكمة أن شرع له من الأعمال والأقوال ما يباين سبيل المغضوب عليهم والضالين فأمر بمخالفتهم في الهدي الظاهر، وإن لم يظهر لكثير من الخلق في ذلك مفسدة لأمور منها:

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق د. ناصر بن عبدالكريم العقل١/١٩٧، ١٩٨.

(٢) أخرجه الترمذي ١٧٥٢ وصححه الألباني، (صحيح سنن الترمذي ١٤٣٣).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية ١/١٩٨ - ٢٠٠.

أن المشاركة في الهدي الظاهر تورث تناسبًا وتشاكلاً بين المتشابهين يقود إلى موافقة ما في الأخلاق والأعمال، وهذا أمر محسوس؛ فإن اللابس ثياب أهل العلم يجد من نفسه نوع انضمام إليهم، واللابس لثياب الجند المقاتلة -مثلاً- يجد من نفسه نوع تخلق بأخلاقهم متقاضيًا لذلك، إلا أن يمنعه مانع.

ومنها: أن المخالفة في الهدي الظاهر توجب مباينة ومفارقة توجب الانقطاع عن موجبات الغضب وأسباب الضلال، والانعطاف على أهل الهدى والرضوان، وتحقق ما قطع الله من الموالاة بين جنده المفلحين وأعدائه الخاسرين.

وكلما كان القلب أتم حياة وأعرف بالإسلام كان إحساسه بمفارقة اليهود والنصارى باطنًا وظاهرًا أتم وبعده عن أخلاقهم الموجودة في بعض المسلمين أشد.

ومنها: أن مشاركتهم في الهدي الظاهر، توجب الاختلاط الظاهر حتى يرتفع التميز ظاهرًا، بين المهديين المرضيين، وبين المغضوب عليهم والضالين، إلى غير ذلك من الأسباب الحكمية.

هذا إذا لم يكن ذلك الهدي الظاهر، إلا مباحًا محضًا لو تجرد عن مشابهتهم، فأما إن كان من موجبات كفرهم؛ كان شعبة من شعب الكفر فموافقتهم فيه موافقة في نوع من أنواع معاصيهم، فهذا أصل ينبغي أن يتفطن إليه[1].

ومن أجل ذلك كان حث المسلم عن التميز في مظهره وعدم تقليد اليهود والنصارى.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية، ١/٩٣، ٩٤.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية بالتنفير:

قد تحتاج التربية على ترك أمر ما، إلى تنفير المتربي عن القيام بالأمر المنهي عنه، لما في التنفير من خلق سياج نفسي في قلب المتربي يحول بينه وبين الفعل المنهي عنه.

وهذا الأسلوب في التربية قد تراءى جليًا في أحاديث الباب من تنفير النبي ﷺ لأمته من الأكل أو الشرب بالشمال، وذلك ببيان أن هذا الفعل المرذول تشبهًا بالشيطان، وذلك في قوله ﷺ: «لاَ تَأْكُلُوا بالشِّمَال، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بالشِّمَالِ»، وقوله ﷺ: «لاَ يَأْكُلَنَّ أَحَدُكُمْ بِشِمَالِهِ، وَلاَ يَشْرَبَنَّ بِهَا، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ، وَيَشْرَبُ بِهَا».

وذكر الشيطان هنا يكفي لتنفير النفس الطيبة، من التشبه بأفعال الشيطان وشؤم ودناءة تقليده.

وقد ورد التنفير أيضًا من التشبه بالكفار، وذلك في قوله ﷺ: «إِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ لاَ يَصْبُغُونَ. فَخَالِفُوهُمْ». فالتنفير أداة يحسن بالمربي استخدامها في تحقيق ثمرة استجابة المتربي لترك الأمر المنهي عنه، وقد عجت السنة النبوية ببيان هذا الأسلوب التربوي حتى يتدارك المربون والمعلمون عظم أهمية هذا الأسلوب في تربية النشء المسلم، ولعل أمثل الأدلة على ذلك تنفير النبي ﷺ للحسن بن علي رضي الله عنه من أكل الصدقة، وذلك في قوله: «كِخْ كِخْ» ليطرحها، ثم قال: «أَمَا شَعَرْتَ أَنَّا لاَ نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ»[1].

ثانيًا: التربية على استقلال الشخصية الإسلامية:

إن مما ينبغي أن يُعني به كل مربي، مراعاة استقلال شخصية المتربي والحفاظ عليها من كل ما يطمس ملامحها أو يزيل حسن سمتها.

فكما أن للإسلام جوهر وضيء، فإن له سمت ظاهر جميل، يخالف فيه كل من عاداه من اليهود والنصارى، وهذا ما يستفاد جليًا في حديث الباب من قوله ﷺ: «إِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ لاَ يَصْبُغُونَ. فَخَالِفُوهُمْ».

---

(١) أخرجه البخاري، ١٤٩١.

لذا وجب على دعاة التربية والتوجيه بيان أن التشبه بالكفار وتقليد الفساق في توافه الأمور، ومستهجن العادات، ومرذول الأخلاق؛ كتقليدهم في نحو الملبس، وقصات الشعر، وطريقة الأكل، ونحو ذلك، مما يوهن أمتهم، ويجعلهم عثرات تعترض طريق نهوضها، أو تجعله - على الأقل بطيئًا.

ومتى كثر في الناس أمثال هؤلاء الذين لا يميزون في محاكاتهم السيئة من الحسنة - أوشكت الأمة أن تفقد هدايتها، وتتجرد من معاني أصالتها وعزتها... وعلى المتربين والمتعلمين أن يعلموا أن الأمة العزيز هي التي تعرف مقدار ما تأخذ، ومقدار ما تعطي، ونوع ما تأخذ، ونوع ما تعطي، فنفرق بين محاكاة الأجنبي المحمود، ومحاكاة المنبوذة، سالكة بذلك طريقًا وسطًا، يكفل سعادة الأولى والآخرة[1].



(١) رسائل في التربية والأخلاق والسلوك، محمد إبراهيم الحمد، ٤٦٩.

٢٩٤- باب نهي الرجل والمرأة عن خضاب شعرهما بسواد

الحديث رقم (١٦٣٩)

١٦٣٩ - عن جابر ﷺ قَالَ: أُتِيَ بِأَبِي قُحَافَةَ (والد أبي بَكْرٍ الصِّدِّيق ﷺ)[١]، يَومَ فَتْحِ مَكَّةَ وَرَأْسُهُ وَلِحْيَتُهُ كَالثَّغَامَةِ بَيَاضاً. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((غَيِّرُوا هَذَا[٢] وَاجْتَنِبُوا السَّوَادَ)). رواه مسلم[٣].

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

الثَّغامة: نبت أبيض الزهر والثمر يشبه به الشيب، وقيل: هي شجرة تَبْيَضُّ كأنها الثلج[٤].

الشرح الأدبي

هذا هو الحديث الأوحد في باب نهي الرجل والمرأة عن خضاب شعرهما بسواد، والنهي للتحريم ولا يباح إلا للجهاد وإرهاب العدو كما قال العلماء، والحديث ليس قولاً وعظياً، وليس توجيهاً كلامياً، وإنما هو مشهد واقعي يُعلم فيه رسول الله صحابته والمسلمين أجمعين درساً من دروس النبوة، ومعياراً من معايير الشخصية الإسلامية وأول درس يتلقاه أبو قحافة ﷺ في الإسلام: هو ترك عادات المشركين والكفار، لأنه أسلم يوم فتح مكة، ورآه رسول الله ﷺ ورأسه ولحيته كالثغامة بياضًا، وقد مات في خلافة عمر ﷺ، وبناء الفعل للمجهول في قوله: "أتى بأبي قحافة": يرشد إلى أن الرجل

---

(١) هذا التفسير من المؤلف.

(٢) عند مسلم زيادة: (بشيء).

(٣) برقم (٢١٠٢/٧٩).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ث غ م).

لم يأت طواعية، أو لكبر سنه، وجملة: ورأسه ولحيته كالثغامة بياضاً تصور حاله وسمته وهيئته: لأن الجملة في موقع الحال: فهي في المقال حال، وفي الواقع تصوير لحال الرجل الكائن عليها.

وهذه الصورة الدقيقة البليغة المستمدة من البيئة تنبئ عن قيمة التصوير الأدبي في البلاغة النبوية، فالتصوير الأدبي في البيان النبوي، يجمع بين الجمال والجلال، وبين المهابة والحلاوة، وبين الإقناع والامتاع، يغذي العقول، ويمتع الأسماع[1].

وهذه الصورة التي قدمت هيئة أبي قحافة للمتلقي، كأنه ماثل للعيان، مشاهد لا تخطئه الأبصار، والمشبه به فيه غرابة لفظية، "كالثغامة"، وهذه الغرابة تتفق مع هيئة أبي قحافة رضي الله عنه التي استغربها رسول الله ﷺ فقال: "غيروا هذا، واجتنبوا السواد".

والثغامة: نبات أبيض الزهر يُشَبَّه به الشيب، حيث تبيض اللحية كأنها الثلج.

وورد النهي عن ذلك في صيغتين للأمر، حيث قال: "غيروا هذا، واجتنبوا السواد"، واسم الإشارة جاء لتحديد المشار إليه وهو الشيب الذي بدا كالثلج والثغامة بياضاً، وقيل الأمر في الفعلين للوجوب: فالتغير واجب، واجتناب السواد واجب، والله اعلم.

المضامين الدعوية

أولاً: تاريخ الدعوة: فتح مكة.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: اتباع هدي النبي ﷺ في تغيير لون بياض الشعر.

ثالثاً: من أساليب الدعوة: الأمر.

أولاً- تاريخ الدعوة: فتح مكة:

يظهر ذلك في قول جابر رضي الله عنه: "أُتي بأبي قحافة والد أبي بكر الصديق رضي الله عنهما يوم فتح مكة".

ولقد شهد العام الثامن للهجرة حدثاً هاماً كان بعيد الأثر في حياة الدعوة، ذلك هو فتح مكة الذي كان إيذاناً بانتهاء الوثنية في جزيرة العرب، والقضاء عليها، فما

---

(١) انظر: الحديث النبوي، رؤية فنية جمالية، د. صابر عبدالدايم.

كادت مكة تدخل في حوزة الإسلام، ويكسر رسول الله ﷺ الأصنام المنصوبة في جوف الكعبة، وينطلق صوت بلال بالأذان من فوق الكعبة حتى سارعت القبائل تعلن ولاءها، وتقدم وفودها إلى المدينة تبايع رسول الله ﷺ حتى عرف العام التاسع بعام الوفود. وهكذا ساد الإسلام أرجاء الجزيرة، وبدأت القبائل تنظم حياتها على ضوء تعاليم الإسلام، بما تتلقاه من توجيهات النبي ﷺ وتعليمه لها، وانطلق ولاته ﷺ إلى مواطن القبائل يقومون بأمور الحكم والقضاء والدعوة"[1].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: اتباع هدي النبي ﷺ في تغيير لون بياض الشعر:

يظهر ذلك في قوله ﷺ لأبي قحافة رضي الله عنه: "غيروا هذا واجتنبوا السواد".

قال القاضي عياض: (اختلف السلف من الصحابة والتابعين في الخضاب وفي جنسه، فرأى بعضهم أن ترك الخضاب أفضل، وبقاء الشيب أولى من تغييره. ورووا حديثاً في نهي النبي ﷺ عن تغيير الشيب، وأنه لم يغير هو شيبه ولا اختضب، وممن ذكر ذلك عنه علي، وعمر، وأُبي في آخرين، قال: فرأى آخرون: الخضاب أفضل وخضب جماعة من الخلفاء والصحابة والتابعين فمن بعدهم، واحتجوا بأمر النبي بالخضاب بالأحاديث التي ذكر مسلم وغيره في ذلك.

ثم اختلفوا: فكان أكثرهم يخضب بالصفرة، منهم علي وابن عمر وأبي هريرة، في آخرين، وكان منهم من يخضب بالحناء وبالكتم، ومنهم يصبغ بالزعفران، وكان منهم من يخضب بالسواد وذكر ذلك عن عمر، وعثمان، والحسن، والحسين، وعقبة بن عامر [ومحمد بن علي، وعلي بن عبدالله بن عباس، وعروة] وابن سيرين، وأبي بردة في آخرين، وروى عن عمر بن الخطاب أنه قال: هو [أرغب] للزوجة، وأهيب للعدو. وكان بعضهم لا يخضب، وبه أخذ مالك وذكره عن علي بن أبي طالب، قال: وتغيير السواد أحب إليّ.

قال الطبري: والصواب عندنا أن الآثار التي رويت عن النبي ﷺ بتغيير الشيب والنهي عن تغييره كلها صحاح، وليس فيها شيء يبطل ما خالفه، لكن بعضها عام

---

(١) تاريخ الدعوة، د. محمد إبراهيم الجيوشي، ص ١٣٨.

وبعضها خاص، فالمراد بأحاديث التغيير الخصوص مما كان مثل شيب أبي قحافة. فأما الشمط[1] ففيه النهي عن التغيير والبقاء على الشيب. واختلاف السلف في فعل الأمرين بحسب اختلاف أحوالهم في ذلك، مع أن الأمر والنهي في ذلك ليس على الوجوب للإجماع على هذا؛ ولهذا لم ينكر بعضهم على بعض خلافه في ذلك، ولا يصح أن يقال: إن أحدهما نسخ الآخر؛ لعدم دليل ذلك ومعرفة المتقدم من المتأخر من ذلك.

وقال غيره: الأمر في ذلك على وجهين وحالين:

أحدهما: عادة البلد، فمن كانت عادة موضعه ترك الصبغ أو الصبغ فخروجه عن المعتاد شهرة تقبح [وبلده].

والثاني: اختلاف الناس في حال شيبهم، فرب شيبة نقية هي أجمل منها مصبوغة، ومنهم من يستبشع منظر شيبه فالصبغ أولى به.

قال أهل العلم: وللخضاب فائدتان:

إحداهما: تنظيف الشعر مما يتعلق به مما يغير بياضه من الغبار والدخان ويسمج لونه.

والأخرى: مخالفة أهل الكتاب؛ لقوله ﷺ في الحديث ذلك كما تقدم، ويكون مخالفتهم لمعنيين: أحدهما: لئلا يعتقدوا التسنن بهم، كما قالوه في غير ذلك، وقد كان يجب موافقتهم حتى أمر بمخالفتهم. الثاني: إظهار الشبيبة والكهولة للأعداء وغيظ الكفار. وفيه -أيضاً- ما تقدم في حق النساء والمباعلة[2].

قال النووي: (ومذهبنا استحباب خضاب الشيب للرجل والمرأة بصفرة أو حمرة ويحرم خضابه بالسواد على الأصح. وقيل يكره تنزيهًا والمختار التحريم لقوله ﷺ: "اجتنبوا السواد" هذا مذهبنا)[3]. فينبغي اتباع هدي النبي ﷺ وتوجيهاته في تغيير لون

---

(١) الشمط: اختلاط الشيب بالشعر، وقيل: هو أن يعلو البياض في الشعر السواد، وقيل: هو اختلاط البياض بالسواد. انظر: لسان العرب، ابن منظور مادة شمط.

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم المسمى، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٦٢٤/٦-٦٢٦.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ١٣٢٨.

بياض الشعر. وقال العظيم آبادي: (والحديث يدل على ان الخضاب غير مختص باللحية وكراهة الخضاب بالسواد)[١].

وقال ابن عثمين: (ففي هذا دليل على أن الأفضل أن الإنسان يغير الشيب بصبغه، لكن بغير الأسود، إما بالأصفر كالحناء، أو بالأصفر الممزوج بالكتم، والكتم أسود فإذا مزج الأصفر بالأسود ظهر لون بني، فيصبغ الإنسان بالبني أو بالأصفر، كما أمر بذلك النبي ﷺ، ولولا المشقة والمؤونة على بعض الناس لكان يفعل ذلك، لكن مراعاة ومراقبة، ويخرج أسفل الشعر أبيض وأعلاه مصبوغاً.

وفي قوله "جنبوه السواد" دليل على أنه يمنع اللون الأسود، لأن السواد يعني أنه يعيد الإنسان شاباً، فكان مضادًا لفطرة الله عز وجل وسنته في خلقه، وأما بقية الأصباغ فلا بأس بها، إلا السواد، لأن النبي ﷺ نهى عنه[٢].

ثالثاً- من أساليب الدعوة: الأمر:

ويظهر ذلك في قوله ﷺ: "غيروا هذا واجتنبوا السواد"؛ حيث أمر بتغيير لون بياض الشعر واجتناب التغيير بالسواد. وأسلوب الأمر من أساليب الدعوة التي يستخدمها الداعية في بيان الحقائق للمدعوين وأمرهم بها مما يجعلهم يستجيبون لها.

---

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١٧٩٥.

(٢) شرح رياض الصالحين ٢/١٧٣٢.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية الجمالية:

لقد حث الإسلام المتربين على الاهتمام بالشكل الخارجي، والجمال الحسي، فضلاً عن اهتمامه بالجمال الروحي، وذلك ظاهر جلي في قوله ﷺ عندما رأى أبا قحافة والد أبي بكر الصديق وقد قدم عليه يوم فتح مكة ورأسه قد شاب شعرها فصار كالثغامة، وهو نبت أبيض الزهر، فقال ﷺ: «غَيِّرُوا هذَا، وَاجْتَنِبُوا السَّوَادَ»، وذلك حرص منه ﷺ على أن يظهر المسلم بمظهر جميل، دون إسراف في التجمل، فلا مانع من تخضيب الشعر الأبيض بأي لون خلا اللون الأسود؛ لأن ذلك فيه تدليس وغش، وتشبه بالشباب في حين أن صاحبه جاوز الشباب.

إن من الأمور المستحبة التي عنى بها الإسلام حسن هيئة المرء؛ لأنها مرتبطة بنظافته ارتباطًا وثيقًا، ومن نتائج ذلك اتسام المرء بالمنظر الجميل والهيئة الحسنة، إذا يهتم بتسريح شعره[1]. وما إلى ذلك من أنواع التجملات، ومنها تخضيب الشيب، حتى يبدو جميلاً مشرفًا، حتى يسر المرء إخوانه، ومن نظر إليه، لأن سرور الناظرين لا يتم إلا أن تقع أبصارهم على فراهة وحيوية ونشاط... فهذا هو الشائع في طباع الناس؛ أن يعجبوا بالحيوية والاستواء ويسروا، وأن ينفروا من الهزال والتشويه ويشمئزوا[2].

ثانيًا- التربية بالملاحظة:

وذلك أنه ﷺ لاحظ أبا قحافة، وأبدى تعليقه على هذه الملاحظة، فبمجرد أن رأى شيب شعره، فأمره بتغييره إلى لون آخر غير السواد؛ حتى يبدو جميلاً، وهذا من مهام المربي الرئيسية، أن يلاحظ كل تغير يطرأ على المتربين، فيأمر بتغييره إذا كان سيئًا، ويحث على الزيادة فيه إن كان حسنًا؛ وذلك إشارة إلى تفاعل المربي مع تلاميذه،

---

(١) موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية، د. مرزوق بن صنيتان بن تبناك وآخرون، ٢٥/٥٠.

(٢) القيم بين الإسلام والغرب، د. مانع محمد علي المانع، ص٤١، نقلًا عن الشيخ سيد قطب في ظلال القرآن.

وشعوره بهم، واهتمامه ورعايته لهم في كل أحوالهم؛ حتى يكون أمره مطاعًا، وكلامه مقنعًا بالنسبة لهم.

إن المنهج القويم للتربية الإسلامية لو أخذ به المربون لأصبح المتربون قرة عين لهم، ولبنة صالحة في بناء المجتمع، ولقد أوصى علماء التربية أن يكون المربي ملاحظًا لمن تعهد تربيته أينما توجه، فيلاحظه في نفسه ومزاجه العصبي، وفي كل شيء؛ ليكون رجلاً مؤمنًا نقيًا؛ له في القلوب احترام، وفي النفوس إجلال، وبين الناس مقام محمود، وما ذلك ببعيد؛ إن أحسنت تربيته، وقام على أمره وأدى ما عليه نحوه من حقوق ومسئوليات[1].



(١) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ص٧٥٠، ٧٥١ بتصرف.

٢٩٥- باب النهي عن القَزَع وَهُوَ حلق بعض الرأس دون بعض، وإباحة حَلقِهِ كُلّهِ للرجل دون المرأة

الحديث رقم (١٦٤٠)

١٦٤٠ - عن ابن عمر رضي الله عنهما، قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عن القَزَعِ. متفق عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

القزع: حلق بعض الشعر وترك بعضه متفرقًا مأخوذ من قطع السحاب الصغار المتفرقة[٢].

الشرح الأدبي

إن المسلم مطالب بأن يكون حسن الهيئة، حسن الصورة، نظيف الثياب، طاهر الإهاب، متسمًا بالوضاءة والإشراق.

وهذا الحديث يعنى بالصورة الحسية للمسلم، ومن مظاهر القبول والحسن، أن لا يحلق بعض الشعر ويترك بعضه في صورة مزرية غير مشذّبة ولا مهذبة، وجاء تصوير هذه الحالة في كلمة واحدة وهي "القزع"، حيث نهى رسول الله ﷺ عن ذلك.

وإذا تأملنا المدلول اللغوي لهذه الكلمة أدركنا سر نهي رسول الله ﷺ عن ذلك، فالقزع: قطع من السحاب، وهو جمع والمفرد منه: قزعة، ولذلك قالوا: في تفسير هذه الصورة البليغة القزع: أن يحلق رأس الصبي، وتترك مواضع متفرقة منه غير محلوقة، تشبيها بقزع السحاب؛ والقزع كذلك، ما يتحات من الصوف ويتناتف في الربيع، وهو أيضًا غثاء الوادي، ولغام الجمل على نخرته، والمقزع من الخيل: ما ننتف ناصيته حتى ترق، والخفيف الناصية خلقة، ومن ليس على شعره إلا شعرات متفرقات تطاير في

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٢٠)، ومسلم (٢١٢٠/١١٣) وهو جزء من الحديث.

(٢) معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٣٣٠.

الريح، فتأمل هذه الصور الموحية التي تموج بها كلمة واحدة قالها رسول الله ﷺ وهي القزع، ونهى عنها لأنها تؤدي إلى مثل هذه الصور المثيرة للسخرية والنفور، وتغيير خلق الله، وفي هذه الكلمة وحدها استعارة تصريحية حيث شبه رأس الصبي، أو رأس الذي يحلق رأسه ويترك بعضه غير محلوق، بقطع السحاب المتفرقة، أو بالعهن المنفوش، أو بلغام الجمل ونخرته، أو بناصية الفرس التي تنتف حتى ترق، وغير ذلك من هذه الصور التي تجسد هذا المنظر الغريب، وحذف المشبه وبقي المشبه به وهو القزع، وعلى ذلك الفعل من باب الاستعارة التصريحية الدالة.

فقه الحديث

في الحديث أنه يكره حلق بعض الرأس، وترك بعضه، وهو ما يعرف بالقزع وهو حكم متفق عليه بين الفقهاء[1].

والحكمة في كراهته، أنه يشوه الخلقة، وقيل هو زي أهل الشر، وقيل: لأنه زي اليهود[2].

ويكره حلق القفا لمن لم يحلق رأسه، ولم يحتج إليه لحجامة أو غيرها، لأنه من فعل المجوس، ومن تشبه بقوم فهو منهم[3].

---

(١) رد المحتار على الدر المختار، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٤٠٧/٦، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم بن مهنا النفراوي المصري ٣٠٦/٢، والقوانين الفقهية لابن جزي ٢٩٣/١، والمهذب ٢٤١/١، وروضة الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ٢٣٤/٣، والمبدع في شرح المقنع، ابن مفلح ١٠٥/١، والمحرر في الفقه ١١/١، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ١٢٧/١، والروض المربع شرح زاد المستقنع، البهوتي ٤٥/١.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ١٠١/١٤، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ١٥٤/١.

(٣) الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ١٢٧/١، والروض المربع شرح زاد المستقنع، البهوتي ٤٥/١.

المضامين الدعوية[1]

أولاً: من موضوعات الدعوة: أهمية تميز المسلم في مظهره وفي حلق شعره والالتزام بما ورد عنه ﷺ.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الأمر.

ثالثًا: من آداب الداعية: تفقد أحوال المدعوين وتوجيههم.

أولاً- من موضوعات الدعوة: أهمية تميز المسلم في مظهره وفي حلق شعره والالتزام بما ورد عنه ﷺ:

يظهر في قول ابن عمر رضي الله عنهما: "نهى رسول الله ﷺ عن القزع".

وفي قول ابن عمر رضي الله عنهما: "رأى رسول الله ﷺ صبيًا قد حلق بعض شعر رأسه وترك بعضه، فنهاهم عن ذلك وقال: احلقوه كله، أو اتركوه كله".

قال النووي: (وأجمع العلماء على كراهية القزع إذا كان في مواضع متفرقة إلا أن يكون لمداواة ونحوها وهي كراهة تنزيه، وكرهه مالك في الجارية والغلام مطلقًا وقال بعض أصحابه: لا بأس به في القصة والقفا للغلام ومذهبنا كراهته مطلقًا للرجل والمرأة لعموم الحديث. قال العلماء: والحكمة في كراهته أنه تشويه للخلق، وقيل: لأنه زي أهل الشر والشطارة وقيل لأنه زي اليهود[2]).

وقال ابن عثيمين: (نهى رسول الله ﷺ عن القزع والقزع أن يحلق بعض الرأس ويترك بعضه، سواء كان من جانب واحد أو من كل الجوانب، أو من فوق، ومن يمين، ومن شمال، ومن وراء، ومن أمام، المهم أنه إذا حلق بعضه وترك بعضه فهذا قزع وقد نهى عنه النبي ﷺ. وذكر حديث ابن عمر الآخر أن صبيًا أُتي به النبي ﷺ وقد حلق بعض رأسه وترك بعضه فقال: احلقوه كله أو اتركوه كله)[3].

فينبغي على المسلم الالتزام بما ورد عنه ﷺ في حلق الرأس كله أو تركه كله.

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٦٤٠- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٤١).

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ١٣٣٧.

(٣) شرح رياض الصالحين ١٧٣٣/٢.

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الأمر:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "احلقوه كله، أو اتركوه كله".

وأسلوب الأمر من أساليب الدعوة التي يستخدمها الداعية في بيان الحقائق للمدعوين ويحثهم على الاستجابة لها ويستخدم في ذلك أسلوب الأمر من أجل استشعارهم بأهمية الاستجابة للدعوة.

ثالثًا- من آداب الداعية: تفقد أحوال المدعوين وتوجيههم:

يظهر ذلك في قول ابن عمر رضي الله عنهما: "رأى رسول الله ﷺ صبيًا قد حلق بعض رأسه وترك بعضه، فنهاهم عن ذلك وقال:"احلقوه كله، أو اتركوه كله".

وفي ذلك تفقد منه ﷺ لأحوال المسلمين وتوجيههم إلى الخير والصالح. وتفقد أحوال المدعوين يترك أثره البارز في نفوسهم، وهو دليل على حسن خلق صاحبه وتواضعه، لذا فلا غرو أن يكون للنبي ﷺ من ذلك النصيب الأوفى، عن عثمان رضي الله عنه قال: ((إنا والله قد صحبنا رسول الله ﷺ في السفر والحضر، فكان يعود مرضانا، ويتبع جنائزنا، ويغزو معنا، ويواسينا بالقليل والكثير، وإن ناسًا يعلموني به، عسى أن لا يكون أحدهم رآه قط))[1][2]. وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يتفقدون أحوال المسلمين ويوجهوهم إلى ما فيه صالحهم اقتداء برسول الله ﷺ؛ فعن سالم بن عبدالله عن أبيه: ((أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ بَيْنَا هُوَ يَخْطُبُ النَّاسَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، دَخَلَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ. فَنَادَاهُ عُمَرُ أَيَّةُ سَاعَةٍ هذِهِ؟ فَقَالَ: إِنِّي شُغِلْتُ الْيَوْمَ. فَلَمْ أَنْقَلِبْ إِلَىٰ أَهْلِي حَتَّىٰ سَمِعْتُ النِّدَاءَ. فَلَمْ أَزِدْ عَلَىٰ أَنْ تَوَضَّأْتُ. قَالَ عُمَرُ: وَالْوُضُوءَ أَيْضًا وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ رَسُولَ اللّهِ كَانَ يَأْمُرُ بِالْغُسْلِ))[3].

قال النووي: (وفيه تفقد الإمام رعيته وأمرهم بمصالح دينهم والإنكار على مخالف السنة)[4].

فينبغي للداعية الاقتداء برسول الله ﷺ وصحابته الكرام رضي الله عنهم في تفقد أحوال المدعوين وتوجيههم إلى ما فيه صالح دينهم ودنياهم.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٧٠/١ رقم ٥٠٤ وقال محققو المسند: إسناده حسن ٥٣٢/١.

(٢) تربية الشباب الأهداف والوسائل، محمد عبدالله الدويش، ٢٠٦.

(٣) أخرجه البخاري برقم ٨٧٨، ومسلم برقم ٨٤٥.

(٤) شرح مسلم، النووي، ص ٥٥٦.

الحديث رقم (١٦٤١)

١٦٤١- وعنه، قَالَ: رأى رسُولُ اللهِ ﷺ صَبِيًّا قَدْ حُلِقَ بَعْضُ شَعْرِ رَأسِهِ وَتُرِكَ بَعْضُهُ، فَنَهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ، وقال: ((احْلِقُوهُ كُلَّهُ، أَوِ اتْرُكُوهُ كُلَّهُ)). رواه أَبُو داود بإسناد[1] صحيح عَلَى شرط البخاري ومسلم.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث الشريف: تفسير عملي للنهي عن القزع في الحديث السابق، وراوي الحديثين واحد وهو ابن عمر رضي الله عنهما فالنهي عن القزع مرتبط بموقف وهو رؤية رسول الله للصبي الذي حُلِقَ بعض رأسه وتُرِكَ بعضه، على غير تهذيب ولا تشذيب فصار كأنه الصوف المنتوف، أو السحاب المتفرق.

ولم يُسم الصبي في الحديث؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالنهي موجه إلى كل الآباء الذين يحرصون على حسن مظهر أبنائهم؛ وحتى لا يتعود الصبي على ذلك.

وقيل في تعليل النهي عن القزع؛ لأنه زي أهل الشر والشطارة أي اللصوصية، فالشطّار في اللغة هم اللصوص والسراق وقاطعوا الطريق، وقيل إن ذلك من سمت اليهود وزيهم.

والضمير في قوله: "فنهاهم" عن ذلك: يرجع إلى الآباء الذين يشرفون على حلاقة الأبناء، أو إلى الحلاقين الذين يقومون بالحلاقة أو إلى السيد الذي يملك الصبي الرقيق، في ذلك الزمن.

وقوله عن ذلك لمزيد من التحديد، واسم الإشارة هنا للبعيد إشارة إلى بعد هذا الفعل عن الفطرة السوية، والمظهر المتوازن الذي يجب أن يكون سمت كل مسلم.

---

(١) برقم (٤١٩٥). صحّحه ابن حبان (الإحسان ٤١٩٥)، وأخرجه مسلم (بعد حديث رقم ١١٣/ ٢١٢٠، بثلاثة أحاديث، بدون رقم) ولم يسق لفظه.

وصيغة الأمر التي تكررت مرتين في ختام الحديث في قوله "احلقوه كله أو اتركوه كله"، تعلن عن وجوب اتباع أمر رسول الله ﷺ: لأن القزع تشويه للخلقة، والله خلق الإنسان في أحسن تقويم، والمسلم لابد أن يحرص على حسن المظهر، ونظافة الثوب والبدن والمكان.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٦٤٢)

١٦٤٢- وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما: أنَّ النَّبيَّ ﷺ، أمْهَلَ آلَ جَعْفَر ثَلاَثًا[1]، ثُمَّ أتَاهُمْ فَقَالَ: ((لاَ تَبْكُوا عَلَى أخِي بَعْدَ اليَوْمِ)) ثُمَّ قَالَ: ((ادْعُوا لِي بَنِي أخِي)) فَجِيءَ بِنَا كَأنَّنَا[2] أفْرُخٌ، فَقَالَ: ((ادْعُوا لِي الحَلاَّقَ)) فَأمرَهُ، فَحَلَقَ رُؤُوسَنَا. رواه أَبُو داود بإسناد[3] صحيح عَلَى شرط البخاري ومسلم.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن جعفر بن أبي طالب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٩٩٨).

غريب الألفاظ:

أفرخ: جمع فرخ وهو ولد الطائر[4].

الشرح الأدبي

هذا الحديث مشهد من مشاهد السيرة النبوية العطرة المضيئة بجلائل الآثار، وجميل الأخبار، وهذا المشهد يرويه عبدالله بن جعفر رضي الله عنهما، وهو أحد الأبناء الذين واساهم رسول الله ﷺ، ورعاهم بعد موت أبيهم، جعفر أبي طالب رضي الله عنه الذي لقب "بذي الجناحين" لأنه أمسك الراية بعضديه بعد ما قطعت ذراعاه في غزوة مؤتة.

ويبدأ الحديث بالتأكيد على لسان عبدالله بن جعفر أن النبي ﷺ أمهل آل جعفر ثلاثًا: أي ثلاث ليالي أو ثلاثة أيام، وقوله: "ثلاثًا" على تقدير ثلاث ليال: لتغليب لفظ الليالي في هذا السياق الحزين لأن التعبير بالليل فيه إيحاء بالحزن أو غياب الضوء الذي يتواءم مع الجو النفسي المسيطر على هؤلاء الأبناء عقب استشهاد أبيهم؛ والتعبير بقوله: "ثم" يفيد الإمهال والتأني إلى أن تخف حدة الحزن، ولذلك ندرك السر في اختيار الفعل

---

(١) عند أبي داود زيادة: (أن يأتيهم).

(٢) لفظ أبي داود كما أشار إليه المحقق في الهامش: (كأنا).

(٣) برقم (٤١٩٢).

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ف ر خ).

"أمهل" وتفضيله على أي فعل مرادف يؤدي المعنى نفسه، ولكنه لا ينقل الجو النفسي المحيط بالموقف، والعطف بالفاء في قوله: فقال: يعلن عن حرص الرسول ﷺ على سرعة تجاوز لحظة الضعف والحزن، واللجوء إلى الصبر والاحتساب، ولذلك ورد النهي صريحًا مباشرًا إلى جميع آل جعفر في قوله. "لا تبكوا على أخي بعد اليوم"، وتأمل ما وراء كلمة "أخي" من معانٍ مشعة وأطياف تتماوج بالمحبة والأخوة والمودة القربى، وذلك لطمأنة أبناء ذلك الشهيد بأنهم في كنف أخي أبيهم وابن عمه وعمهم رسول الله ﷺ، والعطف بـ"ثم" في قوله: "ثم قال" يرشد إلى تمهل رسول الله ﷺ بعد أمره بعدم البكاء على أخيه جعفر رضي الله عنه حتى يترك مساحة لآله الحزانى لكي يتخلصوا من مثيرات الشجن، وملابسات الحزن.

وبعد أن وَعَوْا أمر الحبيب المصطفى ﷺ قال: "ادعوا لي بني أخي"، وقوله: "لي"، فيه إيناس وتلطف وكأنها دعوة شخصية خاصة لمزيد من الرعاية والإيناس والمواساة، وقوله: "بني أخي" يضاعف من الاطمئنان، ويدعو أبناءه للامتثال والكف عن البكاء، لأن أباهم مع الشهداء وهم عند ربهم أحياء يرزقون.

وتأمل دقة الصورة، وبلاغة التشبيه في قوله: "كأننا أفرخ" فهي صورة موحية دالة ناطقة مصورة لحال هؤلاء الأبناء فهم مازالوا صغارًا خائفين وجلين يتملكهم الحزن لموت أبيهم.

والمشهد المتحرك في ختام الحديث يجسده العطف بالفاءات المتتالية: "فقال ادعوا لي الحلاق، فأمره فحلق رؤسنا".

والأمر بحلق الرءوس فيه تنفيذ للسنة، وتنفيذ للنهي عن القزع لأنه حلق الرءوس جميعها وقيل أن الأمر بالحلق ليكون كالتفاؤل بإزالة الحزن وانجلاء الكرب.

فقه الحديث

وفي الحديث من الأحكام ما يأتي:

١- على الكبير من أقارب الأطفال أن يتولى أمرهم، وينظر في مصالحهم[1]، كما فعل رسول الله ﷺ مع أبناء جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه.

---

(١) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ١/١٥٥.

٢- وفي الحديث جواز حلق جميع الرأس، وهو ما ذهب إليه جمهور الفقهاء[١]، حتى إن ابن عبدالبر قد حكى الإجماع على ذلك فقال: (وقد أجمع العلماء على إباحة الحلق وكفى بهذا من حجة)[٢].

وذهب بعض المالكية[٣]، والإمام أحمد[٤] في رواية أن الحلق مكروه، واستدلوا على ذلك بما رواه الدارقطني أن رسول الله ﷺ قال: ((لا توضع النواصي إلا في حج أو عمرة))[٥].

ولما روي أن رسول الله ﷺ قال في الخوارج: "سيماهم التحليق"[٦] فجعل التحليق علامة لهم.

---

(١) رد المحتار على الدر المختار، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٤٠٧/٦، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم بن مهنا النفراوي المصري ٣٠٦/٢ وفيه (وقال الأجهوري: والقول بعدم الكراهة ولغير العمم أولى) والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٦٣/١، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين الخطيب ٣٩٧/٤، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٧٩/١ وفيه (ولا يكره لذكر حلق رأسه)، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٦٦/١، والمحرر ١١/١.

(٢) انظر: في نقل ذلك عن ابن عبدالبر، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٦٥/١.

(٣) الفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم بن مهنا النفراوي المصري ٣٠٦/٢ وفيه (قال القرطبي: كره مالك حلق الرأي لغير المتحلل في الإحرام) وأيضًا: القوانين الفقهية لابن جزي ٢٩٣/١.

(٤) المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٦٦/١، والمحرر ١١/١، والروض المربع شرح زاد المستقنع، البهوتي ٤٥/١.

(٥) أخرجه الدارقطني في الأفراد كما في المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ١٢٢/١ .

(٦) البخاري، كتاب التوحيد، باب قراءة الفاجر والمنافق، رقم ٧٥٦٢.

والراجح:

هو ما ذهب إليه الجمهور من جواز حلق جميع الرأس، أما ما استدل به القائلون بالكراهة فمحمول على الحلق بالموسى، أما بالمقراض فليس به بأس كما قال بذلك أحمد[1]. وهذا في حق الرجال أما حلق النساء فيدل عليه الحديث الآتي.

المضامين الدعوية[2]

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل مواساة أهل الميت والنهي عن البكاء والنياحة.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الأمر.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: حث النبي صلى الله عليه وسلم على حلق الرأس وعدم حلق البعض دون البعض.

خامسًا: من أصناف المدعوين: النساء.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: حث المرأة على عدم حلق شعرها.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه:

يظهر ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: "لا تبكوا على أخي بعد اليوم".

دل هذا الحديث على فضل جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه حيث وصفه صلى الله عليه وسلم بأنه أخيه. وفضائله رضي الله عنه كثيرة فهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحد السابقين إلى الإسلام وأخو علي شقيقه[3].

وقد عقد البخاري بابًا في الصحيح في فضائله فقال: (باب مناقب جعفر بن أبي طالب الهاشمي رضي الله عنه)[4]. وكذلك فعل مسلم فجمع في فضائله بعض الأحاديث فقال: (باب فضائل جعفر بن أبي طالب)[5].

---

(١) المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٦٥/١.

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٦٤٢- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٤٣).

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٩١.

(٤) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب رقم ١٠.

(٥) صحيح مسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب رقم ٤١.

قال الذهبي في ترجمته: جعفر بن أبي طالب: (السيد الشهيد، الكبير الشأن، علم المجاهدين، أبو عبدالله، ابن عم رسول الله ﷺ، عبد مناف بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي الهاشمي، أخو علي بن أبي طالب، وهو أسنُ من علي بعشر سنين.

هاجر الهجرتين، وهاجر من الحبشة إلى المدينة، فوافى المسلمين وهم على خيبر إثر أخذها، فأقام بالمدينة أشهرًا، ثم أمره رسول الله على جيش غزوة مؤتة بناحية الكرك، فاستشهد. وقد سُر رسول الله ﷺ كثيرًا بقدومه، وحزن والله لوفاته.

قال الشعبي: تزوج علي رضي الله عنه أسماء بنت عميس، فتفاخر ابناها محمد بن جعفر ومحمد بن أبي بكر. فقال كل منهما: أبي خير من أبيك. فقال علي: يا أسماء! اقضي بينهما. فقالت: ما رأيتُ شابًا كان خيرًا من جعفر، ولا كهلاً خيرًا من أبي بكر. فقال علي: ما تركت لنا شيئًا، ولو قلتِ غير هذا لمقتك. فقالت: والله إن ثلاثة أنت أخسهم لخيار.

وعن الشعبي، عن عبدالله بن جعفر قال: ما سألت عليًا شيئًا بحق جعفر إلا أعطانيه.

وعن أبي إسحاق، عن البراء: إن رسول الله ﷺ قال لجعفر: ((أشبهت خلقي وخلقي))[١].

وعن أبي هريرة قال: ((ما احتذى النعال ولا ركب المطايا بعد رسول الله ﷺ، أفضل من جعفر بن أبي طالب))[٢] يعني في الجود والكرم.

عن أبي هريرة قال: ((وكان أخير الناس للمسكين جعفر بن أبي طالب، كان ينقلب بنا فيطعمنا ما كان في بيته حتى إن كان ليخرج إلينا العكة التي ليس فيها شيء، فنشقها فنلعق ما فيها))[٣].

---

(١) أخرجه البخاري ٤٢٥١.

(٢) أخرجه أحمد ٤١٣/٢ رقم ٩٣٥٢، وقال محققو المسند: إسناده قوي على شرط البخاري ٢٠٦/١٥.

(٣) أخرجه البخاري ٣٧٠٨.

وعن الشعبي قال: لما رجع رسول الله ﷺ من خيبر، تلقاه جعفر، فالتزمه رسول الله ﷺ وقبل بين عينيه، وقال: ((ما أدري بأيهما أنا أفرح: بقدوم جعفر، أم بفتح خيبر))[1].

قال ابن إسحاق: وهو أول من عقر في الإسلام وقال:

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وباردٌ شرابها

والروم روم قد دنا عذابها علي إن لاقيتها ضرابها

وعن خالد بن سُمير قال: قدم علينا عبدالله بن رباح، فاجتمع إليه ناس، فقال: حدثنا أبو قتادة قال: بعث رسول الله ﷺ جيش الأمراء، وقال: عليكم زيد، فإن أصيب، فجعفر، فإن أصيب جعفر، فابن رواحة. فوثب جعفر، وقال: بأبي أنت وأمي! ما كنت أرهب أن تستعمل زيدًا عليّ. قال: امضوا، فإنك لا تدري أي ذلك خير، فانطلق الجيش فلبثوا ما شاء الله. ثم إن رسول الله ﷺ صعد المنبر، وأمر أن ينادى: الصلاة جامعة. قال ﷺ ألا أخبركم عن جيشكم هذا الغازي، إنهم انطلقوا فلقوا العدو، فأصيب زيدٌ شهيدًا، فاستغفروا له، ثم أخذ اللواء جعفر، فشد على الناس حتى قتل شهيدًا، اشهد له بالشهادة فاستغفرو له، ثم أخذه ابن رواحة، فأثبت قدميه حتى أصيب شهيدًا فاستغفروا له، ثم أخذ اللواء خالد، ولم يكن من الأمراء، هو أمر نفسه، فرفع رسول الله ﷺ أصبعيه وقال: اللهم هو سيف من سيوفك فانصره -فمن يومئذ سمي خالد سيف الله- ثم قال: انفروا فامددوا إخوانكم ولا يتخلفن أحد. فنفر الناس في حر شديد[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ ((رأيت جعفر بن أبي طالب ملكًا يطير مع الملائكة بجناحين))[3].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢١١/٣ رقم ٤٩٩٤ وقال: هذا حديث صحيح، إنما ظهر بمثل هذا الإسناد الصحيح مرسلًا. وقال الذهبي: هو الصواب.

(٢) أخرجه أحمد ٢٩٩/٥، ٣٠٠-٣٠١ برقم ٢٢٥٥١، ٢٢٥٦٦ وقال محققو المسند: صحيح لغيره ٢٥٧/٣٧، ٢٥٨.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢٠٩/٣ رقم ٤٩٨٨ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

قال الشعبي: كان ابنُ عمر إذا سلَّم على عبدالله بن جعفر قال: السلام عليك يا بن ذي الجناحين[١])[٢].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل مواساة أهل الميت والنهي عن البكاء والنياحة:

يظهر ذلك في قول عبدالله بن جعفر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ، أمهل آل جعفر ثلاثًا ثم آتاهم فقال: "لا تبكوا على أخي بعد اليوم، ثم قال: "ادعوا لي بني أخي" فجيء بنا كأننا أفرخ فقال:"ادعوا لي الحلاق".

فمجيء رسول الله ﷺ إلى آل جعفر بن أبي طالب يدل على حرصه على مواساته لهم وعلى حثهم على ترك البكاء والنياحة عليه.

وقد كان رسول الله ﷺ دائمًا حريصًا على مواساة من أصابته مصيبة في موت عزيز عليه وتصبيره وتوجيهه إلى ما فيه خيره. فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: ((أنَّ أمَّ الرُّبيِّع بنتَ البَراءُ وهي أمُّ حارثةَ بنِ سُراقةَ أتَتِ النبيَّ ﷺ فقالت: يا نبيَّ الله ألا تحدِّثني عن حارثةَ - وكانَ قُتلَ يومَ بَدْرٍ أصابَهُ سهمٌ غربٌ - فإن كان في الجنَّةِ صبَرتُ، وإن كان غيرَ ذلك اجتهَدْتُ عليهِ في البكاء. قال: يا أمَّ حارثةَ، إنها جنانٌ في الجنَّةِ، وإنَّ ابنكِ أصابَ الفِردَوسَ الأعلى))[٣].

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: ((جيء بأبي يومَ أحُدٍ قد مُثِّلَ به حتى وُضعَ بينَ يَدَيْ رسولِ اللهِ ﷺ وقد سُجِّيَ ثوبًا فذهبتُ أريدُ أن أكشفَ عنهُ فنهاني قَومي، ثمَّ ذَهبتُ أكشِفُ عنهُ فنهانِي قَومي، فأمَرَ رسولُ الله ﷺ فرُفِعَ، فسَمِعَ صوتَ صائحةٍ فقال: مَن هذهِ؟ فقالوا: ابنةُ عمروٍ - أو أختُ عمرو - قال: فلم تبكي؟ أو: لا تبكي، فما زالتِ الملائكةُ تُظلِّله بأجنحِتها حتى رُفِعَ))[٤].

قال النووي: (فقد حصل له من الكرامة هذا وغيره فلا ينبغي البكاء على مثل هذا وفي هذا تسلية لها)[٥].

---

(١) أخرجه البخاري ٣٧٠٩.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ١/٢٠٦-٢١٧.

(٣) أخرجه البخاري ٢٨٠٩.

(٤) أخرجه البخاري ١٢٩٣، ومسلم ٢٤٧١.

(٥) شرح صحيح مسلم، النووي ١٤٩٨.

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الأمر:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "ادعوا لي بني أخي" ... و"ادعوا لي الحلاق" حيث أمر بالإتيان بأبناء جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه والإتيان بالحلاق.

وأسلوب الأمر من الأساليب التي يستخدمها الداعية في دعوة المسلمين إلى أحكام دينهم مما يجعلهم يتسابقون لتحقيقها والوفاء بالمراد منها، دون تأخر أو تلكؤ ولا تراجع.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: حث النبي ﷺ على حلق الرأس وعدم حلق البعض دون البعض:

يظهر ذلك في قول عبدالله بن جعفر رضي الله عنهما قال ﷺ: "ادعوا لي الحلاق" فأمره فحلق رؤوسنا".

قال العظيم آبادي: (وإنما حلق رؤوسهم مع أن إبقاء الشعر أفضل إلا بعد فراغ أحد النسكين لما رأى من اشتغال أمهم أسماء بنت عميس عن ترجيل شعورهم بما أصابها من قتل زوجها في سبيل الله فأشفق عليهم من الوسخ والقمل. ذكره القاري، وفي الحديث دليل على جواز حلق الرأس جميعه)[1].

وقد ورد عن رسول الله ﷺ كثير من الأحاديث التي تحث على حلق جميع الشعر للذكر دون الأنثى منها عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ((نهى رسول الله ﷺ عن القَزَع))[2].

خامسًا- من أصناف المدعوين: النساء:

يظهر ذلك في قول علي رضي الله عنه: "نهى رسول الله ﷺ، أن تحلق المرأة رأسها".

فالدعوة في هذا الحديث أصناف المدعوين فيها: النساء: ولقد اهتم الإسلام بالنساء واعتبرهن شقائق الرجال وقد شملهن خطاب التكليف في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فالمرأة تحظى بدور كبير واحترام عال في الشريعة الإسلامية سواء كانت بنتًا أو زوجة أو

---

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ص ١٧٩٠.

(٢) أخرجه البخاري ٥٩٢١، ومسلم ٢١٢٠.

أمًا، فهي أم الرجال وأخت الرجال... ومربية الرجال وما دام الأمر كذلك فلابد أن يوجه الدعاة جهدًا كافيًا تجاه النساء فهن نصف المجتمع وهن راعيات الأطفال وهن المؤثرات على الأزواج والمحارم، وبالتالي فالعناية بالمرأة عناية بالدعوة نفسها[1].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: حث المرأة على عدم حلق شعرها:

يظهر ذلك في قول علي ﷺ: "نهى رسول الله ﷺ أن تحلق المرأة رأسها".

فالمرأة لا يجوز لها حلق رأسها من غير ضرورة عند الحنفية والمالكية لقول أبي موسى: ((إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ بَرِيءَ منَ الصالِقةِ والحالقةِ))[2] وروى أن النبي ﷺ نهى أن تحلق المرأة رأسها قال الحسن: هي مثله.

وأما إذا كان حلق المرأة شعرها لعذر أو وجع فلا بأس به عند الحنفية والحنابلة[3].

قال ابن حجر: (كما يحرم على المرأة الزيادة في شعر رأسها يحرم عليها حلق شعر رأسها بغير ضرورة)[4].

---

(١) انظر: فقه الدعوة، د. بسام العموش، ص ٧٣.

(٢) اخرجه البخاري ١٢٩٦، ومسلم ١٠٤.

(٣) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٩٦/١٨.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ٣٨٨/١٠.

الحديث رقم (١٦٤٣)

١٦٤٣- وعن عليٍّ ﷺ قَالَ: نَهَى رسُولُ اللهِ ﷺ أنْ تَحْلِقَ المَرْأةُ رَأسَهَا. رواه النسائيُّ[1].

ترجمة الراوي:

عليّ بن أبي طالب: تقدمت ترجمته في الحديث (٧٧٢).

الشرح الأدبي

هذا هو الحديث الأخير في باب النهي عن القزع، وهو حلق بعض الرأس دون بعض، وإباحة حلقه كله للرجل دون المرأة، والمرأة لها سمتها، ولها مظهرها الجمالي، ومن شروط الزوجة الصالحة كما قال رسول الله ﷺ: ((خير النساء التي إذا نظرت إليها سرتك، وإن أمرتها أطاعتك، وإن غبت عنها حفظتك))[2]، ومن كمال جمال المرأة الذي أنعم الله عليها به هو شعرها، فهو من مصادر زينتها، وحسنها ولذلك يكمن سر النهي الذي أصدره رسول الله وهو أن لا تحلق المرأة رأسها، وذلك حفاظًا لها على جمالها، وهيئتها الحسنة، وترغيبًا لزوجها حتى لا ينفر منها، ويميل إلى غيرها، والسر الآخر في هذا النهي: هو عدم التشبه بالرجال: لأن من عادة الرجل أن يحلق رأسه أو يقصر شعره، وإذ قلدت المرأة الرجل فهو لعنة الله ولعنة رسوله، والطرد من رحمة الله عز وجل.

والمسلمة مطالبة بالحفاظ على مظهرها الحسن، وأن لا تكون مثارًا للسخرية والاستهزاء، وحلق المرأة رأسها يثير النفور والاشمئزاز من الزوج والأهل والأبناء، والجيران والمجتمع بصفة عامة، وفيه تشبه بالكاهنات البوذيات لأنهن تحلقن رءوسهن

---

(١) النسائي في الكبرى (٩٢٥١)، وفي المجتبى (٥٠٤٩). وأخرجه الترمذي (٩١٤)، و (٩١٥) وقال: ولم يذكر فيه: (عن علي). وقال: حديث عليٍّ فيه اضطرابٌ، ورُوي هذا الحديث عن حماد بن سلمة، عن قتادة، عن عائشة.

(٢) أخرجه الطيالسي ٢٤٤٤، وقال محققه: حديث صحيح.

كلهن، ويمشين سافرات بهذه الصورة المنفرة، وقد نهانا رسول الله عن التشبه بالشياطين والكفار، نسأل الله الهداية والتوفيق والسداد.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية الجمالية:

إن من باب حرص الإسلام على الجانب الجمالي في شخصية المسلم، أن النبي ﷺ نهى عن القزع وهو حلق بعض الرأس دون الآخر؛ وذلك لما يسببه من تشويه شكل الإنسان الخارجي، وربما أثار ازدراء الآخرين، حين يرون بعض الشعر محلوقًا وبعضه طويلاً مرسلاً كما هو، ولهذا كان ﷺ عندما رأى صبيًا على هذه الحال: «احْلِقُوهُ كُلَّهُ، أو اتْرُكُوهُ كُلَّهُ»، ومن باب الحرص على جمال المرأة أيضًا فقد نهى النبي ﷺ أن تحلق المرأة رأسها، وقد كانت العرب تصنعه في الجاهلية، فمن مظاهر حزن المرأة على زوجها أنها كانت تحلق شعرها، وهذا لاشك يسيء إلى شكلها وجمالها، كما أنه لن يعيد الميت إلى الحياة، ولن يخفف الحزن عليه، إنما هو من مظاهر إيذاء الإنسان نفسه، وتشويه صورته، فضلاً عن تغيير خلق الله الذي جمّل صورته وخلقه في أحسن تقويم.

ولا شك أن المربين يحتاجون إلى أن يستلهموا هذا الجانب التربوي من أحاديثه ﷺ؛ خاصة مع شيوع الصيحات الحديثة التي تنحو منحى شاذًا من حلاقة بعض الشعر وترك الباقي، ويتبنى هذه الاتجاهات الشواذ من الغربيين ومن يقلدونهم من المسلمين، فعلى المربي أن يتعهد المتربين من هذه الناحية، فينهاهم عن التقليد الأعمى، ويذكرهم بهديه ﷺ في هذا الجانب.

كذلك فإن بعض النساء تقص شعرها، ظانة أن هذا من جمالها، ومتأسية في ذلك بأدعياء الإصلاح المحدثات، اللاتي يبرزن للناس بشعورهن مقصوصة، سافرات متبرجات، فهؤلاء ينبغي أن لا يكن قدوة للمسلمات وإنما يتوجب على المربين والمربيات توجيه الفتيات إلى سنة الرسول ﷺ، وترغيبهن فيها، وتحبيب الجمال الخلقي الطبيعي إليهن.

إن اهتمام المسلم بشكله الخارجي يجعله يظهر بالصورة اللائقة؛ نظيفًا، طاهرًا، جميلاً؛ فالمسلم يتجمل في ملبسه ومظهره دون غرور أو كبر؛ فلباسه ونعله حسن،

ورائحته طيبة، يتطهر ويتوضأ خمس مرات، استعدادًا وتجملاً للقاء ربه، مستجيبًا لأمر ربه، يأخذ الزينة عند كل مسجد، لهذا فالقيم الحضارية في الإسلام تعد المسلم الذي يحمل القيم الجمالية في باطنه وظاهره؛ ليظهر بالصورة اللائقة به"[1].

ثانيًا- التربية بالملاحظة والمتابعة:

من واجبات المربي الأساسية متابعة سلوك المتربين، وتقويمها أولاً بأول، فإن وجد من المتربي سلوكًا حسنًا شجعه على الزيادة فيه، وإن وجد مسلكًا سيئًا نهاه عن ذلك وبين مساوئه، مثلما فعل النبي ﷺ عندما رأى صبيًا حلق بعض شعر رأسه وترك الباقي، فقال: «احْلِقُوهُ كُلَّهُ ...»؛ وهذا ناشئ عن ملاحظته الدقيقة لسائر تصرفات الناشئة والمتلقين لرسالته من حوله؛ لأن سكوته على هذا التصرف إقرار له، ورضا عنه، هذا، ما لم يحدث، إنما أمر بحلق الشعر كله أو تركه كله، وكذلك فعل ﷺ مع أبناء جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما، حين مات أبوهم رضي الله عنه، فأمهلهم ثلاثة أيام، ثم أتى بالحلاّق فحلق شعرهم؛ نظرًا لطوله وإهماله بسبب وفاة أبيهم، وذلك اهتمام منه ﷺ بأهل الميت وأولاده الصغار، ومتابعة لأحوالهم، اقتضتها مهمته التربوية التي كلفه الله تعالى بها.

إن ملاحظة المتربي من أفضل أسس التربية وأظهرها؛ ذلك لأنه دائمًا موضوع تحت مجهر الملاحظة والملازمة، حيث المربي يرصد عليه جميع تحركاته وأقواله وأفعاله واتجاهاته... فإن رأى خيرًا أكرمه وشجعه عليه، وإن رأى منه شرًا نهاه عنه، وحذره منه، وبين له عواقبه الوخيمة، ونتائجه الخطيرة، وبمجرد أن يغفل المربي أو يتغافل عمن تعهد تربيته، فإنه سينزع لا محالة إلى الانحراف، ويتوجه -ولا شك- نحو الزيغ والانحلال، فعندئذ يكون هلاكه المحقق، ودماره المحتوم"[2].

ثالثًا- من الأساليب التربوية: التوجيه حسب الموقف:

ويظهر هذا الأسلوب في موقفين من أحاديث هذا الباب، الأول عندما رأى النبي ﷺ الصبي الذي حلق بعض شعر رأسه وترك الباقي، فاغتنم النبي ﷺ هذا

---

(١) القيم بين الإسلام والغرب، د. مانع محمد علي المانع، ص٤٢ بتصرف يسير.

(٢) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ص٧٢٩، ٧٣٠. بتصرف يسير.

الموقف، ونهى عن ذلك السلوك، وقال: «احْلِقُوهُ كُلَّهُ، أو اتْرُكُوهُ كُلَّهُ»، والموقف الثاني عندما مات جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وبعد موته بثلاثة أيام دعا النبي صلى الله عليه وسلم بالحلّاق ليحلق شعر أبنائه.

إن اختيار المواقف واغتنام فرصها والأوقات المناسبة يسهل عملية التربية، ويساعد على تحقيق الأهداف وغرس الفضائل، فإذا ظهر موقف خاطئ من شخص ووضح له ما وقع فيه من خطأ... فإن لذلك وقعًا على النفس وتأثيرًا في السلوك؛ لأنه يرى النتائج أمامه، ويعايشها في نفس اللحظة، وهذا ما يذهب إليه المهتمون بالتربية[1].



(١) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمين ص٢٧٨.

٢٩٦- باب تحريم وصل الشعر والوشم

والوشر وهو تحديد الأسنان

قال تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلا شَيْطَانًا مَرِيدًا لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾[النساء: ١١٧-١١٩].

الحديث رقم (١٦٤٤)

١٦٤٤ - وعن أسماءَ رضي الله عنها: أنَّ امْرَأَةً سَأَلَتِ النَّبيَّ ﷺ فَقَالَتْ: يا رسولَ اللَّهِ إنَّ ابْنَتِي أصَابَتْهَا الحَصْبَةُ، فَتَمَرَّقَ شَعْرُهَا، وإنّي زَوَّجْتُهَا، أفَأَصِلُ فِيهِ؟ فقالَ: ((لَعَنَ اللهُ الوَاصِلَةَ وَالمَوْصُولَةَ)) متفق عليه[1].

وفي روايةٍ[2]: ((الوَاصِلَةَ، والمُسْتَوْصِلَةَ)).

وعن عائشة رضي الله عنها نحوهُ. متفق عليه[3].

ترجمة الراوي:

أسماء بنت أبي بكر: تقدمته ترجمتها في الحديث رقم (٣٢٥).

غريب الألفاظ:

الحصبة: حمّى حادة طفحية معدية يصحبها زكام وسعال وغيرهما من علامات النزلة[4].

فتمرق شعرها: انتثر وسقط[5].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٤١) واللفظ له، ومسلم (٢١٢٢/١١٥). أورده المنذري في ترغيبه (٣١١١).

(٢) أخرجها البخاري (٥٩٣٦)، ومسلم (٢١٢٣/١١٨). أورده المنذري في ترغيبه (٣١١١).

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٣٤)، ومسلم (٢١٢٣/١١٧). أورده المنذري في ترغيبه (٣١١٥) بتمامه.

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ح ص ب).

(٥) رياض الصالحين، النووي ٥٦٧.

الواصلة: التي تصل شعرها أو شعر غيرها بشعر آخر[١].

الموصولة: التي يوصل شعرها[٢].

الشرح الأدبي

ما أصدق هذا الحوار بين رسول الله وإحدى النساء المسلمات، وهو حوار ينبئ عن حرص هذه المرأة على صواب ما تقدم عليه من سلوكيات حتى في أشد الأمور خصوصية، وهو: حرصها على جمال ابنتها، وتعويضها عما فقدته من مظاهر هذا الجمال: وهو سقوط شعرها، بشعر مستعار، وقبل أن تفعل ذلك، سألت رسول الله ﷺ عن حكم ذلك؛ ولأن هذا الموضوع قد يثير التساؤل عند كثير من الناس، بدأ الحديث بالتأكيد: في قوله الراوي: "أن امرأة"، والتأكيد هنا للإعلان عن صدق الخبر، ونزع الشك والتردد من نفس المتلقي، وجاء لفظ "امرأة" في صيغة النكرة، ولم يعرف: لأن اسم المرأة ليس ضروريًا، لأن الحكم عام، ويتعلق بقضية اجتماعية وشرعية عامة وشاملة، وتهم كل امرأة مسلمة، والعطف في قوله: "سألت فقالت" للتفسير أي تفسير السؤال.

والنداء في قول: المرأة: "يارسول الله": فيه إفصاح عن أن المرأة ترغب في معرفة الحكم الصحيح من نبي الإسلام، فالنداء فيه تعظيم وإذعان واستجابة لما سيقول رسول الله ﷺ، وقد تكرر التوكيد في كلام المرأة مرتين: حيث قالت: "إن ابنتي... وإني زوجتها..."، والتأكيد الأول: لتوثيق الإخبار عن المرض، والثاني لبيان السبب الذي من أجله تريد أن تصل شعرها الذي تمرق وسقط من الحصبة، وسؤال المرأة بعد هذين التوكيدين يمتزج بالعطف بالفاء الذي يفيد التتابع وحرص المرأة على وصل شعر ابنتها، وتأتي إجابة رسول الله بالنفي الضمني، حيث لم يقل: نعم أولا ، ولكن الإجابة كانت أبلغ وأعم وأشمل، فقد أصدر الرسول ﷺ حكمًا شرعيًا يظل منارة أمام كل سائلة

---

(١) رياض الصالحين، النووي ٥٦٧.

(٢) رياض الصالحين ٥٦٧.

وسائل: من المسلمات والمسلمين: حيث قال: لعن الله الواصلة والموصولة، أو المستوصلة، واللعن هو البعد عن رحمة الله، فالله يطرد من رحمته كل من تحترف هذه المهنة، وكل من يعمل لها ذلك، وكل من تسأل وتبحث عمن يعمل ذلك، (الواصلة، الموصولة، والمستوصلة).

فقه الحديث

وفي الحديثين من الأحكام ما يأتي:

١-وفي الحديث الأول تحريم الوصل، وقد مر في الحديث قبل الماضي.

٢-وفي الحديثين تحريم الوشم، لأن الله ورسوله لعنا الواشمة التي تفعل ذلك بغيرها، والمستوشمة التي تطلب ذلك، واللعن دليل الحرمة[1].

وهذا الحكم متفق عليه بين الفقهاء[2].

ولعل السبب من تحريم الوشم أنه عند غرز الإبرة في الجلد وحشوه كحلاً ينحبس الدم النجس فيه[3].

ومحل التحريم ما لم يتعين طريقًا للدواء، فإن تعين جاز[4].

وهل تجب إزالة الوشم أم لا؟

نص الشافعية على أنه تجب إزالته متى أمكن ذلك ولو بالجرح، ما لم يخف فوات عضو، أو منفعته، أو حدوث تشوه في عضو ظاهر، ففي هذه الحالة لا تجب إزالته وإنما

---

(١) كشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٨١/١.

(٢) رد المحتار على الدر المختار، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٣٣٠/١، وكفاية الطالب الرباني ٥٩٩/٢، والتاج والإكليل شرح مختصر خليل للحطاب، محمد بن يوسف المواق ١٩٧/١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٥٥/٩١، إعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ١٠٧/١، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٦٨/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٨١/١.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ١٠٦/١٢، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٣٦٩/٥.

(٤) حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، علي بن أحمد الصعيدي ٥٩٩/٢.

يجوز إبقاؤه، وتكفي التوبة من سقوط الإثم[١]، ويستوي في ذلك الرجل والمرأة.

وخالفهم في ذلك المالكية، فقالوا: لا يكلف صاحبه بإزالته، وإن وقع محرمًا[٢].

٣- وفي الحديث الثاني تحريم النمص، وهو إزالة شعر الحاجبين والوجه بالنماص وهو المنقاش، ونحوه، وهذا الحكم متفق عليه بين الفقهاء[٣].

ويستثنى من الحرمة إذا نبت للمرأة لحية، أو شارب، ففي هذه الحالة لا تحرم إزالته، بل يستحب[٤] ذلك بإذن الزوج وعلمه، وإلا فمتى خلا عن ذلك منع للتدليس[٥].

٤- وفي الحديث الثاني: تحريم التفليج، وأن تبرد المرأة من أسنانها لتباعد بعضها عن بعض[٦]، ومثله لو كانت الأسنان طويلة فتنشر منها حتى تقصر[٧].

ويعلق عليه "الوشر"، وهذا الحكم متفق عليه بين الفقهاء[٨].

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٣٦٩/٥.

(٢) حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، علي بن أحمد الصعيدي ٥٩٩/٢.

(٣) رد المحتار على الدر المختار، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٣٧٣/٦، وكفاية الطالب الرباني ٥٩٩/٢، والثمر الداني شرح رسالة أبي زيد القيرواني للأبي ٦٨٩/١، وفتح الباري، ابن حجر ٣٧٨/١٠، والفروع، ابن مفلح ١٠٨/١، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ١٢٦/١.

(٤) رد المحتار على الدر المختار، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٣٧٣/٦، وفتح الباري، ابن حجر ٣٧٨/١٠.

(٥) فتح الباري، ابن حجر ٣٧٨/١٠.

(٦) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٤٦/٣، ورد المحتار على الدر المختار، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٣٧٣/٦.

(٧) الفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم بن مهنا النفراوي المصري ٣١٤/٢.

(٨) رد المحتار على الدر المختار، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٣٧٣/٦، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم بن مهنا النفراوي المصري ٣١٤/٢، والثمر الداني للأبي ٦٨٩/١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٤٦/٣، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٦٨/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٨١/١.

ولعل السبب في تحريم التفليج هو ما فيه من التدليس والتغرير، وتغيير خلق الله، إذ إن هذا الأمر تفعله العجوز إظهارًا للصغر وحسن الأسنان لأن هذه الفرجة اللطيفة بين الأسنان تكون للبنات الصغار، فإذا عجزت المرأة كبرت سنها فتبردها بالمبرد[1].

ومحل تحريم التفليج هو أن يكون "للحسن" كما هو منطوق الحديث، ويفهم منه إذا لم يكن للحسن، بل كان لحاجة كعلاج، أو إصلاح عيب في السن، فلا بأس به[2].

المضامين الدعوية[3]

أولاً: من موضوعات الدعوة: الترهيب من وصل الشعر.

ثانيًا: من وسائل الدعوة: الخطبة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: أهمية إنكار المنكر والاحتساب على المخالفين.

رابعًا: من تاريخ الدعوة: هلاك بني إسرائيل بسبب المعاصي وعدم الإنكار على المخالفين.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: أهمية اتباع الهدي النبوي في عدم وصل الشعر.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الترهيب من وصل الشعر:

يظهر ذلك في قوله ﷺ لمن أرادت أن توصل شعر بنتها: "لعن الله الواصلة والموصولة".

ولعن الله: أي: الطرد والإبعاد من رحمته والإخراج من جواره تعالى[4]. وفي ذلك ترهيب من وصل الشعر. ولأن اللعن يكون لكبيرة.

قال النووي: (وهذا صريح في تحريم الوصل ولعن الواصلة والمستوصلة مطلقًا وهذا هو الظاهر المختار، وقد فصله أصحابنا فقالوا: إن وصلت شعرها بشعر آدمي فهو حرام بلا خلاف، سواء كان شعر رجل أو امرأة، وسواء شعر المحرم والزوج وغيرهما بلا

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١٤/١٠٦-١٠٧.

(٢) الثمر الداني ١/٦٨٩، وشرح صحيح مسلم، النووي ١٤/١٠٧.

(٣) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٦٤٤- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٤٥).

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢/٤١٥.

خلاف لعموم الأحاديث ولأنه يحرم الانتفاع بشعر الآدمي وسائر أجزائه لكرامته بل يدفن شعره وظفره وسائر أجزائه، وإن وصلته بشعر غير آدمي فإن كان شعرًا نجسًا وهو شعر الميتة وشعر ما لا يؤكل إذا انفصل في حياته فهو حرام أيضًا للحديث ولأنه حمل نجاسة في صلاته وغيرها عمدًا، وسواء في هذين النوعين المزوجة وغيرها من النساء والرجال، وأما الشعر الطاهر من غير الآدمي فإن لم يكن لها زوج ولا سيد فهو حرام أيضًا وإن كان فثلاثة أوجه: أحدهما: لا يجوز لظاهر الأحاديث، والثاني: لا يحرم وأصحها عندهم إن فعلته بإذن الزوج أو السيد جاز وإلا فهو حرام[1].

قال القاضي عياض: (واختلف العلماء في المسألة فقال مالك والطبري وكثيرون أو الأكثرون: الوصل ممنوع بكل شيء سواء وصلته بشعر أو صوف أو خرق.

وقال الليث بن سعد: النهي مختص بالوصل بالشعر ولا بأس بوصله بصوف أو خرق أو غيرها.

قال القاضي: (فأما ربط خيوط الحرير الملونة ونحوها مما لا يشبه الشعر فليس بمنهي عنه؛ لأنه ليس بوصل ولا هو في معنى مقصود الوصل وإنما هو للتجميل والتحسين قال وفي الحديث أن وصل الشعر من المعاصي الكبائر للعن فاعله، وفيه أن المعين على الحرام يشارك فاعله في الإثم كما أن المعاون في الطاعة يشارك في ثوابها[2].

وقال النووي: (أن الوصل حرام سواء كان لمعذورة أو عروس أو غيرهما)[3].

ثانيًا- من وسائل الدعوة: الخطبة:

يظهر ذلك في قول حميد بن عبدالرحمن: أنه سمع معاوية رضي الله عنه عام حج على المنبر وتناول قصة من شعر كانت في يد حرسي فقال: يا أهل المدينة أين علماؤكم؟ ... الحديث. فالخطبة وسيلة من وسائل الدعوة التي اهتم بها الإسلام اهتمامًا كبيرًا من بداية عهد رسول الله ﷺ حتى الآن. والخطبة وسيلة ممتازة للدعوة، للتبليغ، أو إيضاح

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم المسمى، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٦٥٢/٦.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ١٣٣٨.

(٣) المرجع السابق ١٣٣٨.

فكرة معينة ومن مرامي الخطبة، حمل المخاطب على الإذعان والتسليم وإثارة العواطف الجياشة في فؤاده نحو الفكرة التي يحملها الخطيب ويدعو إليها. فيتحمس لها ويتقدم لفدائها بالنفس والنفيس عند الحاجة(١).

فالله سبحانه وتعالى فرض على المسلمين الجهاد باللسان والجهاد بالسنان، والجهاد باللسان لا يكون إلا بالكلمة والقول الواضح والحجة البينة. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾(٢).

وكان حقًا على المسلمين أن يحملوا مواريث النبوة وأن يضطلعوا بأعباء الرسالة ويقودوا الناس إلى الله تعالى، ويوجهوهم إلى وجهة الحق والخير.

وهل بغير الكلمة أو بسوى الخطابة تصلح النفوس النافرة، وتنهض النفوس الفاترة وتقوى القلوب الخائرة، ويرفع الحق وينهزم الباطل ويقام العدل وترد المظالم(٣).

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: أهمية إنكار المنكر والاحتساب على المخالفين:

يظهر ذلك في فعل معاوية رضي الله عنه وقوله: "حيث تناول قُصة من شعر كانت في يد حرسي فقال: يا أهل المدينة أين علماؤكم؟ سمعت النبي صلى الله عليه وسلم ينهى عن مثل هذه".

قال النووي: (وفي حديث معاوية هذا اعتناء الخلفاء وسائر ولاة الأمور بإنكار المنكر وإشاعة إزالته وتوبيخ من أهمل إنكاره ممن توجه ذلك عليه)(٤).

فإن الفساد في المجتمعات قد يكبر ويتضاعف كما أبان القرآن الكريم هذه الحقيقة ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٥).

---

(١) الدعوة إلى الله، د. توفيق الواعي، ٢٧١.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٣.

(٣) الخطابة وإعداد الخطيب، د. توفيق الواعي، ص ٢٩.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي، ص ١٣٤٠.

(٥) سورة الروم، الآية: ٤١.

قال أبو العالية: (من عصى الله في الأرض فقد أفسد الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة)[١].

عندها تزداد مسؤولية الدعاة إلى الله والمحتسبين ليقوموا بواجبهم وينشطوا في مجال دعوتهم لينيروا للناس طريقهم ويردوهم إلى سبيل المتقين.

ولقد تفضل الله سبحانه وتعالى على هذه الأمة أنه مهما بلغ حجم المنكرات فيها فإنه سبحانه يغرس غرسًا يستعملهم في طاعته، ولا يضرهم خذلان المرجفين أوتأثير المخالفين.

قال ﷺ: ((لاَ يَزَالُ اللَّهُ يَغْرِسُ فِي هذَا الدِّينِ غَرْسًا يَسْتَعْمِلُهُمْ فِي طَاعَتِهِ))[٢]، وقال ﷺ: ((لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ. لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ. حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ))[٣].

هذه الطائفة التي تعنى باستصلاح الخلق، وإعادة الناس إلى منهج الله القويم، إلى صراطه المستقيم، هي الأمة المهتدية المفضلة على سائر الأمم ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[٤][٥].

فينبغي على المسلمين عامة وعلى العلماء خاصة الحرص على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ إذا ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على المخالفين كان ذلك سببًا في نزول عقاب الله تعالى للأمة.

فعن عبيد الله بن جرير، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي، هُمْ أَعَزُّ مِنْهُمْ وَأَمْنَعُ، لاَ يُغَيِّرُونَ، إِلاَّ عَمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ))[٦].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦/٣٢٠.

(٢) أخرجه أحمد ٤/٢٠٠ رقم ١٧٧٨٧، وقال محققو المسند: إسناده حسن ٢٩/٣٢٥.

(٣) أخرجه مسلم ١٩٢٠.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٥) انظر: حقيقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، د. حمد العمار، ص ١٧٩.

(٦) أخرجه ابن ماجة ٤٠٠٩، وحسنه الألباني، (صحيح سنن ابن ماجة ٣٢٣٨).

وهذا الحديث يبين صراحة أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب في عقاب الله تعالى.

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: ((مَثَلُ المُدْهن في حدودِ اللهِ والواقعِ فيها مَثَلُ قومٍ استهموا سفينةً فصار بعضُهم في أسفلِها وصار بعضُهم في أعلاها، فكان الذين في أسفلِها يَمرُّون بالماءِ على الذين في أعلاها، فتأذَّوا به، فأخذَ فأسًا فجعلَ يَنقُرُ أسفلَ السفينةِ، فأتَوهُ فقالوا: ما لك؟ قال: تأذيتم بي ولا بُدَّ لي منَ الماء، فإن أخذوا على يديهِ أنجوْهُ ونجَّوا أنفُسَهم، وإن تَركوهُ أهلَكوهُ وأهلَكوا أنفُسَهم))[١].

فهذا الحديث أيضًا صريح في أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب في هلاك الأمة جميعها"[٢].

وهذا يدل على أهمية إنكار المنكر والاحتساب على المخالفين.

رابعًا- من تاريخ الدعوة: هلاك بني إسرائيل بسبب المعاصي وعدم الإنكار على المخالفين:

يظهر ذلك في قوله معاوية رضي الله عنه: "سمعت النبي ﷺ ينهى عن مثل هذه، ويقول: "إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذها نساؤهم".

قال القاضي عياض: (قيل: يحتمل أنه كان محرمًا عليهم فعوقبوا باستعماله وهلكوا بسببه. وقيل: يحتمل أن الهلاك كان به وبغير مما ارتكبوه من المعاصي فعند ظهور ذلك فيهم هلكوا وفيه معاقبة العامة بظهور المنكر)[٣].

إن بني إسرائيل كانوا يرتكبون المعاصي ولا ينكر عليهم علماؤهم ارتكاب هذه المعاصي فكان ذلك سببًا في هلاكهم ولعنهم قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾[٤].

---

(١) أخرجه البخاري ٢٦٨٦.

(٢) انظر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، د. عبدالعزيز بن أحمد المسعود ١/٢٤٢ - ٢٤٤.

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم المسمى، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٦/٢٥٨.

(٤) سورة المائدة، الآيتان: ٧٨، ٧٩.

قال ابن كثير: (يخبر تعالى أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل من دهر طويل فيما أنزل على داود نبيه عليه السلام، وعلى لسان عيسى بن مريم عليه السلام بسبب عصيانهم لله واعتدائهم على خلقه، ثم بين حالهم فيما كانوا يعتمدونه في زمانهم فقال: "لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون" أي: كان لا ينهى أحد منهم أحدًا عن ارتكاب المآثم والمحارم، ثم ذمهم على ذلك ليحذر أن يركب مثل الذي ارتكبوا فقال: "لبئس ما كانوا يفعلون")[١].

وقد بالغ القرآن الكريم في ذم العلماء وأولى الأمر من بني إسرائيل على أن الله تعالى قد بوأهم مكانة مرموقة من إصلاح الأمة لكنهم قصروا عن أداء مسؤوليتهم، فكانوا يرون الناس حولهم يعصون الله، ويعتدون على غيرهم ولا يفرقون بين الحلال والحرام فلا يحاولون تغيير الوضع البتة[٢].

يقول تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[٣].

قال القرطبي: "قوله تعالى: (لولا ينهاهم الربانيون والأحبار) (لولا) بمعنى أفلا (ينهاهم) يزجرهم (الربانيون) علماء النصارى (والأحبار) علماء اليهود قاله الحسن. وقيل: الكل في اليهود؛ لأن هذه الآيات فيهم، ثم وبخ علماءهم على تركهم نهيهم فقال: (لبئس ما كانوا يصنعون) كما وبخ من يسارع في الإثم بقوله: (لبئس ما كانوا يعملون) ودلت الآية على أن تارك النهي عن المنكر كمرتكب المنكر، فالآية توبيخ للعلماء في ترك بالمعروف والنهي عن المنكر"[٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٦٠/٣.

(٢) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، السيد جلال الدين العمري ص ١٩٦.

(٣) سورة المائدة، الآيتان: ٦٢ - ٦٣.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٣٧/٦/٣.

وأخرج ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال في خطبته: (أيها الناس، إنما هلك من هلك قبلكم بركوبهم المعاصي، ولم ينههم الربانيون والأحبار، فلما تمادوا في المعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار أخذتهم العقوبات، فمروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، قبل أن ينزل بكم مثل الذي نزل بهم، واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقطع رزقًا ولا يقرب أجلاً)[١].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: أهمية اتباع الهدي النبوي في عدم وصل الشعر:

يظهر ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: "لعن الله الواصلة، والمستوصلة" فينبغي على نساء المسلمين أن يتبعن الهدي النبوي في عدم وصل الشعر حتى لا تحل بهن لعنة الله. أما قوله صلى الله عليه وسلم "إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذها نساؤهم".

قال ابن تيمية: فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن وصل الشعر: "أن بني إسرائيل هلكوا حين أحدثه نساؤهم" يحذر أمته مثل ذلك، ولهذا قال معاوية رضي الله عنه ((مَا كُنْتُ أُرَى أَنَّ أَحَدًا يَفْعَلُهُ إلاَّ الْيَهُودَ))[٢].

فما كان من زي اليهود، الذي لم يكن عليه المسلمون: إما أن يكون مما يعذبون عليه، أو مظنة لذلك، أو يكون تركه حسمًا لمادة ما عذبوا عليه لا سيما إذا لم يتميز ما هو الذي عذبوا عليه من غيره، فإنه يكون قد اشتبه المحظور بغيره، فيترك الجميع كما أن ما يخبرونا به لما اشتبه صدقه بكذبه: ترك الجميع[٣].

فيظهر من ذلك أهمية اتباع هدي النبي صلى الله عليه وسلم في عدم وصل الشعر.

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢٧٢/٥ - ٢٧٣.

(٢) أخرجه البخاري برقم ٣٤٨٨، ٥٩٣٨، ومسلم برقم ٢١٢٧.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية ٢٨٨/١، ٢٨٩.

الحديث رقم (١٦٤٥)

١٦٤٥- وعن حُميدِ بنِ عبدِ الرحْمانِ: أنَّهُ سَمِعَ مُعَاوِيَةَ رضي الله عنه، عامَ حَجَّ على المِنْبَرِ وَتَنَاوَلَ قُصَّةً مِنْ شَعْرٍ كَانَتْ فِي يَدِ حَرَسِيٍّ فَقَالَ: يَا أَهْلَ المَدِينَةِ أيْنَ عُلَمَاؤُكُمْ؟! سَمِعتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم، يَنْهَى عَنْ مِثْلِ هذِهِ، ويقُولُ: ((**إنَّمَا هَلَكَتْ بَنُو إسْرائِيلَ حِينَ اتَّخَذَهَا نِسَاؤُهُمْ**)). متفق عليه[1].

ترجمة الراوي:

معاوية بن أبي سفيان: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨١١).

غريب الألفاظ:

قصة من شعر: شعر الناصية[2].

حرسي: منسوب إلى الحرس وهو واحد الحراس[3].

الشرح الأدبي

هذا الحديث يبدأ بنقل الخبر في صيغة التوكيد عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وهو خليفة، حيث حج عام إحدى وخمسين من الهجرة، ويتنبه معاوية إلى وجود قصة من شعر، كانت في يد حرسي من حراس الأمير أو الخليفة، فأخذها ثم نبه المسلمين إلى حرمة ذلك، وجاء تنبيه معاوية وإنكاره في صيغتين "النداء والاستفهام الإنكاري"، في قوله "يا أهل المدينة: أين علماؤكم"، وهذا الاستفهام الإنكاري يوحي بأن العلماء ليس لهم دور في توجيه الناس؛ فالحديث في صياغته يتكون من موقف لمعاوية رضي الله عنه في مكان: وهو المسجد، ومن تصوير للحدث المرتبط بهذا الحوار: وهو وقوف معاوية على المنبر، ورؤيته للحارس وفي يده خصلة من الشعر، وينهي معاوية إنكاره لهذا السلوك

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦٨) واللفظ له، ومسلم (٢١٢٧/١٢٢). أورده المنذري في ترغيبه (٣١١٦).

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٥٩٦/٦.

(٣) المرجع السابق ٥٩٦/٦.

بالدليل الحاسم الجازم حيث يروي ما سمعه من رسول الله ﷺ ، وقال: "ينهى عن مثل هذه" ، أي عن كل سلوك يشبه ما عمله هذا الحارس، وفي قوله: "مثل هذه" إيجاز، وتحديد للمنكر الذي يجب أن يجتنبه الناس.

وجاء قول رسول الله ﷺ محصنًا بالتوكيد الذي يؤكد الحكم، ويؤكد الخبر الذي كان سببًا في هلاك بني إسرائيل وهو اتخاذ نسائهم للشعر المستعار، والتأكيد جاء بإن المقترنة بما، ويقال عن "ما" في هذا الاستعمال: إنها كافة ومكفوفة، وهي تفيد القصر، وكأن هذا التركيب اللغوي إيحاءً بإحباط عمل بني إسرائيل، وبأنه كان الطريق لهلاكهم، وقال العلماء: فيه حسن التحذير فإن السعيد من وعظ بغيره.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٦٤٦)

١٦٤٦- وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ رسُولَ الله ﷺ لَعَنَ الوَاصِلَةَ والمُسْتَوْصِلَةَ، والوَاشِمَةَ والمُسْتَوشِمَةَ. متفق عليه(١).

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

الواصلة: التي تصل شعرها أو شعر غيرها بشعر آخر(٢).

المستوصلة: التي تسأل من يفعل لها ذلك(٣).

الواشمة: وهي التي تشم وقيل هي التي يفعل بها الوشم(٤).

والمستوشمة: هي التي تطلب الوشم، وقيل: هي التي تفعله. والوشم: أن يغرز الجلد بإبرة ثم يُحْشى بكُحل أو نيلٍ، فيزرقّ أثره أو يخضرّ(٥).

الشرح الأدبي

هذا الحديث من كلام ابن عمر رضي الله عنهما رواية عن رسول الله ﷺ: وهو يتكون من جملة واحدة فعلية: وفعلها ماض "لعن" واللاعن: هو الله عز وجل: واللعن في اللغة: الطرد والبعد، فمعنى لعن الله ... أي: أبعدهم وطردهم من رحمته، واللعنة من الناس: من يلعنه الناس، واللعنة بضم العين كهمزة: الكثير اللعن للناس، والملعن، الشيطان، والممسوخ، والمشؤوم، والمسيب، وما يتخذ في المزارع كهيئة رجل، والمخزي المهلك، والتلعين: التعذيب.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٣٧)، ومسلم (٢١٢٤/١٩٩) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٣١١٢). السياق للمنذري في ترغيبه (٣١١٣).

(٢) رياض الصالحين، النووي ٥٦٧.

(٣) المرجع السابق.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ٣٨٥/١٠.

(٥) فتح الباري، ابن حجر ٣٨٥/١٠، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (و ش م).

وهذه المعاني اللغوية تتموج بكثير من الدلالات والإشعاعات التي تتطابق وتتوافق مع ما يعده الله من عذاب لهؤلاء الذين لعنوا، لتغييرهم خلق الله، وهم في الحديث أربعة أصناف: "الواصلة"، وهي اسم فاعل ترشد إلى من قام بالفعل، فهي التي تفعل الوصل، وهي التي تحترف هذه الحرفة في عصرنا وفي العصور السابقة، والصنف الثاني: "الموصولة"، وقد وردت هذه الكلمة الدالة على ذلك الصنف في صيغة اسم المفعول: أي أنها التي يقع عليها الفعل، وتقوم الواصلة بوصل الشعر لها، وفي رواية: والمستوصلة، وهي اسم فاعل من استوصل، وصيغة الافتعال أو الاستفعال فيها زيادة في المبنى، وتضفي زيادة على المعنى، وفي التي تبحث عن التي تقوم لها بوصل شعرها، وقيل هي طالبة فلعه بها أو بغيرها: أي تلعن عن ذلك وتقوم بالدعاية له.

والصنف الثالث: الواشمة: والوشم في اللغة: غرز الإبرة في البدن وذر النيلج عليه، ومن مشتقات الوشم كلمة الوشيمة، وهي: الشر والعداوة.

والصنف الرابع: المستوشمة: وهي طالبة فعل ذلك، والاستعانة بمن يقومون بهذا العمل وكل هذه الأصناف لعنها رسول الله ﷺ، كما روى ابن عمر، وساق روايته في إطار التأكيد الذي بدأ به الحديث الشريف.

المضامين الدعوية[1]

أولاً: من موضوعات الدعوة: الترهيب من وصل الشعر والوشم والنمص والفلج.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

ثالثًا: من أصناف المدعوين: النساء.

رابعًا: من آداب المدعو: الاستجابة لتوجيهات النبي ﷺ.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الترهيب من وصل الشعر والوشم والنمص والفلج:

يظهر ذلك في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: "أن رسول الله ﷺ لعن الواصلة والمستوصلة، والواشمة والمستوشمة. وحديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات، والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله".

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٦٤٦- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٤٧).

قال ابن حجر: (قال الخطابي: إنما ورد الوعيد الشديد في هذه الأشياء لما فيها من الغش والخداع، ولو رخص في شيء منها لكان وسيلة إلى استجازة غيرها من أنواع الغش، ولما فيها من تغيير الخلقة، وإلى ذلك الإشارة في حديث ابن مسعود بقوله (المغيرات خلق الله)[1].

قال القاضي عياض: (قال بعض علمائنا: وهذا المنهي عنه المتوعد على فعله فيما يكون باقيًا، فإنه من تغيير خلق الله، فأما ما لا يكون باقيًا كالكحل فلا بأس به للنساء والتزين به عند أهل العلم، وقد أجازه مالك للنساء، وكرهه للرجال، وكذلك أجاز أن توشي المرأة يديها بالحناء.

وقد سبق الكلام في الواصلة والمستوصلة. وقال النووي: (أما "الواشمة" بالشين المعجمة ففاعلة الوشم وهي أن تغرز إبرة أو مسلة أو نحوهما في ظهر الكف أو المعصم أو الشفة أو غير ذلك من بدن المرأة حتى يسيل الدم ثم تحشو ذلك الموضع بالكحل أو النورة فيخضر، وقديفعل ذلك بدارات ونقوش وقد تكثره وقد تقلله، وفاعلة هذا واشمة، وقد وشمت تشم وشمًا والمفعول بها موشومة، فإن طلبت فعل ذلك بها فهي مستوشمة وهو حرام على الفاعلة والمفعول بها باختيارها والطالبة له، وقد يفعل بالبنت وهي طفلة فتأثم الفاعلة ولا تأثم البنت لعدم تكليفها حينئذٍ.

قال أصحابنا: هذا الموضع الذي وشم يصير نجسًا فإن أمكن إزالته بالعلاج وجبت إزالته وإن لم يكن إلا بالجرح فإن خاف منه التلف أو فوات عضو أو منفعة عضو أو شيئًا فاحشًا في عضو ظاهر لم تجب إزالته، فإذا بان لم يبق عليه إثم وإن لم يخف شيئًا من ذلك ونحوه لزمه إزالته ويعصي بتأخيره، وسواء في هذا كله الرجل والمرأة والله أعلم.

وأما "النامصة" بالصاد المهملة فهي التي تزيل الشعر من الوجه والمتنمصة التي تطلب فعل ذلك بها، وهذا الفعل حرام إلا إذا نبتت للمرأة لحية أو شوارب فلا تحرم إزالتها بل يستحب عندنا. ومذهبنا ما قدمناه من استحباب إزالة اللحية والشارب والعنفقة وأن النهي إنما هو في الحواجب وما في أطراف الوجه. ورواه بعضهم المنتمصة بتقديم النون والمشهور تأخيرها، ويقال: للمنقاش منماص بكسر الميم.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٢٩٢/١٠.

وأما المتفلجات فبالفاء والجيم والمراد مفلجات الأسنان بأن تبرد ما بين أسنانها الثنايا والرباعيات وهو من الفلج بفتح الفاء واللام وهي فرجة بين الثنايا والرباعيات، وتفعل ذلك العجوز ومن قاربتها في السن إظهارًا للصغر وحسن الأسنان لأن هذه الفرجة اللطيفة بين الأسنان تكون للبنات الصغار فإذا عجزت المراة كبرت سنها وتوحشت فتبردها بالمبرد لتصير لطيفة حسنة المنظر وتوهم كونها صغيرة، ويقال له أيضًا: الوشر ومنه لعن الواشرة والمستوشرة، وهذا الفعل حرام على الفاعلة والمفعول بها لهذه الأحاديث؛ ولأنه تغيير لخلق الله تعالى ولأنه تزوير ولأنه تدليس.

وأما قوله: "المتفلجات للحسن" فمعناه يفعلن ذلك طلبًا للحسن، وفيه إشارة إلى أن الحرام هو المفعول لطلب الحسن، أما لو احتاجت إليه لعلاج أو عيب في السن ونحوه فلا بأس والله أعلم)[١].

قال تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾[٢].

قال القاسمي: (والمراد بقوله تعالى: "ولآمرنهم فليغيرن خلق الله": قال السيوطي: فيستدل بالآية على تحريم الخصاء والوشم وما يجري مجراه، من الوصل في الشعر والتفلج، وهو تفريق الأسنان، والتنمص وهو نتف الشعر من الوجه)[٣].

وقد ذهب الدكتور محمد رواس مذهبًا مخالفًا لآراء العلماء في هذين الحديثين وهو من المعاصرين.

فقال: يحرم وصل الشعر بوصلة تخفي عيوبه في معرض الخطبة للمرأة أو الرجل، لأنه غش، ويباح ذلك للمتزوجة، ويصبح واجبًا إذا طلبه الزوج، كما يباح للزينة من غير غش أما قوله ﷺ "لعن الله الواصلة والمستوصلة" فإنه محمول على حالة الغش[٤].

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١٣٣٩-١٣٤٠.

(٢) سورة النساء، الآيات: ١١٧-١١٩.

(٣) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ٤٨٣/٥/٣.

(٤) الموسوعة الفقهية الميسرة، د. محمد رواس قلعة جي ١٩٥٢/٢.

ويكره الوشم لما فيه من تعذيب النفس[١].

وتنمص المرأة: النمص الذي يغطي الأماكن المكشوفة من جسم الإنسان - كالوجه - له فائدة عظيمة، وهي أنه يمنع أشعة الشمس من السقوط مباشرة على الجلد، فتسقط عليه، لأن سقوطها المباشر على الجلد من أسباب حدوث سرطان الجلد، ولكن هذا النمص قد يفحش أحيانًا، فيشوه منظر الوجه، ولما كان الجمال أمرًا أساسيًا بالنسبة للمرأة فإنه يجوز لها إزالة ذلك النمص من وجهها بالنتف أو بمادة كيماوية أوغيرها، إذا طلب منها زوجها ذلك، أو إذا فحش النمص في وجهها، وشوَّه منظر وجهها، ما لم ترد بإزالته الغش لمن يريد الزواج منها، وإلى هذا يشير قوله رسول الله ﷺ "لعن الله النامصة والمتنمصة"[٢].

ويجوز للمرأة أن تزيل النمص الموجود في غير الأماكن المكشوفة من البدن، كالفخذين والظهر ونحو ذلك.

أما الشعر الخشن الذي ينبت في غير منابته في وجه المرأة فتجوز إزالته، كما لو امتد الحاجب إلى الجَبين، أو نبت لها شعر في موطن الشارب أو اللحية، لأن النهي جاء عن إزالة النمص وليس عن إزالة الشعر الخشن.

أما تنمص الرجل: لقد رُخص بالتنمص للمرأة لضرورة التزين -وهي مأمورة بالتزين لزوجها- أما الرجل فليس كذلك، ولهذا فإنه لا يرخص له بالتنمص -وهو إزالة الشعر الدقيق من الوجه- ولكن يرخص له بإزالة الشعر الخشن النابت في غير منابته من الوجه، كالشعر الذي قرب من العينين، والذي نبت أسفل الحلق إلى الصدر، ونحوهما.

ويحرم أيضًا وشر الأسنان وتفليجها لغير المتزوجين من الرجال والنساء وإن كان لا يعود، لما في ذلك من الغش، إذ كان العرب ولا يزالون يستدلون على ذكاء المرء إذا كانت أسنانه الأمامية مفلجة في الخلقة، وحديث رسول الله ﷺ ((لعن الله الواشمات والمستوشمات، والمتنمصات، والمفلّجات الأسنان للحسن، المغيرات خلق الله)) يُحمل على

---

(١) المرجع السابق ١٩٥١/٢.

(٢) المرجع السابق ٥٨٦/١-٥٨٧.

ذلك؛ لأن علة التحريم التي وردت في الحديث الشريف هي: تغيير ما خلق الله تعالى بقصد التحسين للغش، ولا يكون غشًا إلا إذا كان هذا التحسين موقتًا لا يلبث أن يزول. وهو مباح للمتزوجين، ويصير واجبًا إذا طلبه الزوج[١].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

يظهر ذلك في قول ابن عمر رضي الله عنهما، إن رسول الله ﷺ لعن الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة.

وقول ابن مسعود رضي الله عنه: "لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات، والمتفلجات للحسن".

ويظهر ذلك الترهيب من فعل هذه الأشياء أو المشاركة فيها باللعن واللعن ليكون إلا لارتكاب كبيرة والترهيب: هو التخويف للحمل على ترك فعل أو اعتقاد أو تصور[٢].

والترهيب ليس يأسًا أو قنوطًا أو رهبة تشل التفكير وإنما تحذير من الأخطاء ودلالة على الصواب، وترشيد للأعمال حتى تنطلق الطاقات القوية إلى الغاية بغير تعويق أو عقبات[٣].

ثالثًا- من أصناف المدعوين: النساء:

يظهر ذلك من عموم الحديثين حيث أن الدعوة موجهة إلى النساء.

ولقد بلغت المرأة في الإسلام منزلة عالية، لم تبلغها ملة ماضية ولم تدركها أمة تالية، إذ إن تكريم الإسلام للإنسان تشترك فيه المرأة والرجل على حد سواء، فهم أمام أحكام الله في الدنيا سواء كما أنهم أمام ثوابه وجزائه في الدار الآخرة سواء.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[٤] وقال عز من قائل: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾[٥] وقال جل ثناؤه: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى

---

(١) انظر: المرجع السابق ١٠٥٤/٢.

(٢) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ص ٣٩٣.

(٣) الدعوة إلى الله، د. توفيق الواعي، ص ٢١٤.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

(٥) سورة النساء، الآية: ٧.

عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[١] وقال سبحانه: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾[٣] وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾[٤] وقال جل ثناؤه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[٥] وقال عز وجل: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[٦].

وهذا التكريم الذي حظيت به المرأة في الإسلام لا يوجد له مثيل في أية ديانة أو ملة أو قانون غير الشريعة الإسلامية[٧]. فيتضح من ذلك أن النساء من أصناف المدعوين الذين اهتم بهم الإسلام ومن أجل ذلك على الدعاة إلى الله الاهتمام بالنساء والحرص على دعوتهم وتوجيههم إلى صحيح دينهم.

رابعًا- من آداب المدعو: الاستجابة لتوجيهات النبي ﷺ:

يستنبط ذلك من عموم الحديثين وذلك لأن رسول الله ﷺ إذا نهى عن شيء أو أمر بشيء ينبغي على المسلم أن يستجيب لتوجيهاته. ومن ذلك قول ابن مسعود رضي الله عنه: (ما

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٧١.

(٣) سورة الإسراء الآيتان: ٢٣، ٢٤.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٩٥.

(٥) سورة النحل، الآية: ٩٧.

(٦) سورة النساء، الآية: ١٢٤.

(٧) الإسلام أصوله ومبادئه، د. محمد بن عبدالله بن صالح السحيم، ط١، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، السعودية، ١٤٢١هـ، ص ٣٩، ٤٠.

لي لا ألعن من لعنه رسول الله ﷺ، وهو في كتاب الله). قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾(١).

قال ابن كثير: (أي مهما أمركم به فافعلوه، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر)(٢).

وقال ابن عاشور: "وهذه الآية جامعة للأمر باتباع ما يصدر من النبي ﷺ من قول وفعل فيندرج فيها جميع أدلة السنة"(٣).

فينبغي على المدعو أن يستجيب لأوامر النبي ﷺ وتوجيهاته.

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٦٧/٨.

(٣) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور ٨٧/٢٨/١١.

الحديث رقم (١٦٤٧)

١٦٤٧- وعن ابن مسعود ﷺ قال: لَعَنَ اللّهُ الوَاشِمَاتِ والمُسْتَوشِمَاتِ وَالمُتَنَمِّصَاتِ، والمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ، المُغَيِّرَاتِ خَلْقَ الله، فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَةٌ فِي ذَلِكَ فَقَالَ: وَمَا لِي لاَ أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَهُوَ فِي كِتَابِ اللهِ؟ قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[سورة الحشر: ٧]. متفق عليه[١].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

المتنمصات: جمع مُتَنَمِّصَة: التي تأخذ من شعر حاجب غيرها وترققه ليصير حسنًا، والمتنمصة التي تأمر من يفعل بها ذلك[٢].

المتفلجات: جمع متفلجة: التي تبرد من أسنانها ليتباعد بعضها عن بعض قليلاً وتحسنها وهو الوشر[٣].

الشرح الأدبي

هذا الحديث مثل الحديث السابق يرويه ابن مسعود بالمعنى أو بالإخبار عن رسول الله ﷺ ويبدأ الحديث بصيغة الفعل الماضي: "لعن الله الواشمات"، وصيغة الماضي تتجاوز إطارها الزمني، ولا تحصر داخل الزمن الفائت فقط، ولكنها تقيد الحكم الثابت القطعي الذي لا مجال للرجوع فيه إلا إذا تابت هؤلاء النسوة اللائي ذكرت أفعالهن في الحديث، والحديث هنا لم يأت بصيغة "الإفراد" مثل الأحاديث السابقة في

(١) أخرجه البخاري (٤٨٨٦)، ومسلم (١٢٠/٢١٢٥). السياق للمنذري في ترغيبه (٣١١٣). تنبيه: قد يكون المنذري اختصر هذا اللفظ من حديث البخاري بهذا الرقم.

(٢) رياض الصالحين، النووي ٥٦٨.

(٣) المرجع السابق.

هذا الموضوع، ولكنه جاء بصيغة جمع المؤنث السالم: ليفيد أن اللعن عام "لكل واشمة"، وأل في هذه الجموع للجنس، ومما يؤكد العقوبة أن الصيغة الاشتقاقية لهذه الأصناف وردت في صيغة اسم الفاعل، فهن القائمات بالفعل، أو المتصفات به أو الفاعلات له، والإيقاع الصوتي الذي يحدثه توافق الكلمات في نهاياتها "الواشمات والمستوشمات، والمتنمصات، والمتفلجات المغيرات... خلق الله".

هذا التوافق الصوتي مع التوافق الجمعي، مع التوافق الاشتقاقي، يوحي باتفاق كل هؤلاء على المخالفة والمعصية، ولذلك كان عبدالله ابن مسعود صارمًا وحازمًا في رده حين لامته إحدى النساء في هذا اللعن، وعبر عنه الراوي بقوله: في ذلك، واكتفى باسم الإشارة تنزيهًا لجو الحديث من هذه المفردة التي يجب أن يكون المسلم الصادق بمنجاة منها.

وقول ابن مسعود رضي الله عنه فيه إنكار منه على هذه المرأة في موقفها واعتراضها: حيث قال: "ومالي لا ألعن من لعنه رسول الله ﷺ".

والإيجاز مع الإنكار مع الإقناع في هذا الرد البليغ: فقوله "ومالي" جملة تامة مكونة من مبتدأ وخبر في صيغة الاستفهام والجملة بعدها في محل حال من المستتر في الخبر.

والاستشهاد بالقرآن الكريم من أقوى وسائل الإقناع في مثل هذه المواقف، وقد اقتنعت المرأة المعترضة.

المضامين الدعوية[1]

---

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: من الأساليب التربوية: التربية بالسؤال والجواب:

وقد كان السؤال موجهًا من المتعلم إلى المعلم، في موقف المرأة التي سألت رسول الله ﷺ عن ابنتها التي قرب زواجها، هل يحل لها أن تصل شعرها تزيينًا لها وتحبيبًا إلى زوجها، وقد اتسم سؤالها بالوضوح، وتبيان ملابسات الأمر، تقول: «إنَّ ابنتي أصابَتْها الحَصْبة فتمرَّقَ شَعرها، وإني زوَّجتُها أفأصِلُ فيه؟ فقال ﷺ: لعن الله الوَاصِلَةَ وَالمَوْصُولَةَ».

تلك هي طريقة احتياج المتربي إلى المعلومة، دون تلقيها من المربي مباشرة، وهذا أدعى إلى حرصه على العمل بها، وأقرب إلى تحصيلها بسرعة.

ذلك هو هدي الصحابة رضي الله عنهم في السؤال عمّا يجهلون، ولكنهم راعوا آداب السؤال، التي أكثر العلماء تعديدها، ومنها: "أن يتلطف السائل في سؤاله، ويحسن خطابه، ولا يستحي من السؤال عمّا أشكل عليه، بل يستوضحه أكمل استيضاح، فمن رقّ وجهه رقّ علمه، ومن رقّ وجهه عند السؤال نقصه عند اجتماع الرجال"[(1)].

ثانيًا: التربية بالترهيب:

تضمن هذا الباب طائفة كريمة من أحاديثه ﷺ، التي ترهب من بعض العادات، التي يُقصد بها التجمل الجسدي، مع أنها من المهلكات، التي توجب عقاب الله تعالى ولعنته، فمن هذه العادات: وصل الشعر القصير بشعر طويل، يقول ﷺ: «لعن الله الوَاصِلَةَ وَالمَوْصُولَةَ»، ومنها أيضًا الوشم، يقول ﷺ: «لَعَنَ اللّهُ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ»، ومن ذلك أيضًا التنمص وهو ترقيق الحواجب، والتفلج وهو المباعدة بين الأسنان بترقيق ما بينها بالمبرد، فهذا كله مما نهى النبي ﷺ عنه، ورهَّب منه.

إن مقصود ترهيبه ﷺ من هذه العادات الجاهلية هو تربية المؤمنات على الواقعية وعدم المغالاة في طلب الجمال الظاهري الجسدي الزائل، الذي كان الإسلام فيه

---

(١) آداب المتعلمين، د. أحمد عبدالله الباتلي، ص١٠٦.

واقعيًا، فالجمال الأساسي هو جمال الدين والخلق والجوهر، ولقد حث النبي ﷺ على اختيار الزوجة الدَّيِّنة، يقول ﷺ: «فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ»[1]، فليس هم المرأة المسلمة وغايتها أن تحسن شكلها وتترك الجوهر خاويًا لا روح فيه، كما أن هذه العادات من تصرفات الغانيات والبغايا في الجاهلية، ولهذا لعن النبي ﷺ من تقوم بهذه الأشياء.

كما أن هذه التصرفات من شأنها إفساد الجسد، وتعريضه للأمراض، فالوشم قد يؤدي إلى إصابة الجلد بالأمراض، فضلاً عن الألم الذي يسببه سواء كان بالوخز أم بالكي، وكلها من المهالك التي نهى الإسلام عن تعريض النفس لها، وكذلك المتنمصات اللائي يزججن حواجبهن، يعرضن أنفسهن للأمراض، الناشئة عن نتف الشعر من الجلد، وقد يسبب ذلك الكلف، وبقع الجلد، أما التفلج فقد يرذي الأسنان ويؤدي إلى كسرها، ولهذا نهى الإسلام عن مثل هذه الأشياء، وعن كل ما يسبب أذى النفس والجسد.

إن أسلوب الترهيب الذي استخدمه النبي ﷺ يؤدي دورًا مهمًا في تغيير سلوك المسلم؛ لأن الترهيب يحمل تخويفًا وتحذيرًا من عاقبة السلوك المتبع لدى المسلم.

والترهيب وعيد وتهديد بعقوبة، تترتب على اقتراف إثم أو اجتراح ذنب قد نهى الله عنه، ويقصد به التخويف، وإظهار صفة من صفات الجبروت والعظمة الإلهية ليكون الناس دائمًا على حذر من ارتكاب المعاصي والهفوات[2].

ثانيًا: التربية باستخدام الوسائل التعليمية:

لقد ظهر في هذا الباب استخدام وسيلتين تعليميتين، من خلال حديث معاوية رضي الله عنه، حين صعد على المنبر وتناول خصلة من الشعر، وقال: «إِنَّمَا هَلَكَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ حِينَ اتَّخَذَ هَذِهِ نِسَاؤُهُمْ». وأشار إلى هذه الخصلة من الشعر، يعني عندما فسد المجتمع في بني إسرائيل، وفشا فيه وصل الشعر، متهلكين بذلك الفطرة السليمة، وما جاءت به الرسل.

وفي هذا الحديث استخدم معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما وسيلتين:

---

(١) أخرجه مسلم، ٣٦٣٥.

(٢) أساليب الدعوة والتربية، زياد العاني، ص٢٥٠ بتصرف يسير.

أولاهما: أنه صعد على المنبر: وذلك بيان لأهمية المسجد في الخطابة وإلقاء التعاليم إلى الناس، والوارد في الحديث أنه ﷺ خطب وقال هذا الكلام في العام الذي حج فيه، ويبدو أنه قال ذلك في المسجد الحرام، وهذا يحتمل "شمولية التعليم لجميع أفراد المسلمين، على مختلف أعمارهم وصنائعهم ومستواهم التعليمي ومؤهلاتهم"[١].

الأمر الذي يؤدي إلى إيصال المعلومة إلى سائر أقطار الأرض، من خلال معرفة الحجاج بها.

ثانيهما: استخدام أسلوب التشبيه بضرب المثل؛ وذلك بإحضار خصلة من الشعر، والإشارة إليها دون حديث عن وصل الشعر، بل اكتفى بإبرازها للحضور، وقال لهم: إِنَّمَا هَلَكَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ حِينَ اتَّخَذَ هَٰذِهِ نِسَاؤُهُمْ»، وذلك لأن الصورة المحسوسة أقرب تصورًا وأسرع فهمًا، وأثبت بقاءً؛ لأنها تحدد الأبعاد، وتبرز الأجزاء، وتوضح منها ما يخفى، قد تراها بالعين، أو تتخيلها بالخاطر، أو تتحسسها باليد، أو تستوعبها الأذن، وقد يشترك كل أولئك في التقاطها، فترتسم واضحة المعالم، محددة الأجزاء[٢].

ثالثًا: من أهداف التربية الإسلامية: الامتثال لما نهى عنه النبي ﷺ:

ويبدو ذلك جليًا في قول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «لَعَنَ اللَّهُ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ ...»، وعندما سألته امرأة عن سر هذا اللعن، فأجابها أن هذا اقتداء وامتثال لما فعل النبي ﷺ حيث قال لها عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «وَمَا لِيَ لاَ أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟»، وذلك مبلغ لبعض الأصناف من الأمة.

ومن تمام الاقتداء به ﷺ أن يحب المرء ما يحبه ﷺ ويكره ما يكرهه، فما كان لعبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن يقبل هذا السلوك لمسلمة، وقد نهى عنه النبي ﷺ، وقد لعن رضي الله عنه من باب التذكير بخطر هذا السلوك وتحريمه على المؤمنات، وقد اتبع رضي الله عنه أسلوبًا تشويقيًا؛ حيث بدأ باللعن، استثارة لاهتمام الحضور، فإذا بامرأة تعاتبه في ذلك اللعن؛ ظنًا منها أنه إنما لعن على سبيل الدعاء ﷺ على الواشمات،

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ص٣٠٢.

(٢) التربية الإسلامية، محمد أحمد جاد صبح، ص١٢٥.

مجتهدًا بهذا الدعاء، فبيَّن لها عبدالله بن مسعود ﷺ علة اللعن بعد أن أثار اهتمامها وجعلها تسأل عن السبب، وهو أن النبي ﷺ لعنهن، فمن واجب الاقتداء به والامتثال لأوامره: أن نلعن من لعنه، وان نحب من أحب.

إن أقوى شاهد على صدق محبته ﷺ هو موافقة المحب لمحبوبه، وبدون هذه الموافقة يصير الحب دعوى كاذبة، وأكبر دليل على حبه ﷺ هو طاعته واتباعه؛ فالاتباع هو دليل المحبة الأول وشاهدها الأمثل، وهو شرط صحة هذه المحبة، وبدونه لا تتحقق المحبة الشرعية، ولا تتصور بمعناها الصحيح[1].



(١) محبة الرسول ﷺ بين الاتباع والابتداع، عبدالرؤوف محمد عثمان، ص٦٥، ٦٦.

٢٩٧- باب النهي عن نتف الشيب من اللحية والرأس وغيرهما، وعن نتف الأمرد شعر لحيته عند أول طلوعه

الحديث رقم (١٦٤٨)

١٦٤٨- عن عمرو بن شعيب، عن أبيهِ، عن جَدِّهِ رضي الله عنه، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، قال: ((**لا تَنْتِفُوا الشَّيْبَ؛ فَإِنَّهُ نُورُ المُسْلِمِ يَوْمَ القِيَامَةِ**)) حديث حسن، رواه أبو داود، والترمذي، والنسائيُّ[1] بأسانيد حسنة، قال الترمذي: (هو حديث حسن).

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٨).

الشرح الأدبي

إن دورة الإنسان الزمنية تتوالى وتتشكل حسب ظروفه الحياتية، وظروف الطقس والبيئة، وهو في كل دورة خاضع لتغيرات نفسية، واجتماعية، وفسيولوجية، وشعورية، وشكلية، وعليه أن يستجيب لمتطلبات كل مرحلة لأن هذه سنة الله في خلقه-كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾[2].

وهذا الحديث الشريف يعالج ما يمر به الإنسان من حالات التوتر والقلق حين يغزو الشيب مفرق رأسه، ويتذكر الآية الكريمة: ﴿رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٠٢)، والترمذي (٢٨٢١)، والنسائي في الكبرى (٩٢٨٥)، وفي المجتبى (٥٠٦٨). وليس عندهم بهذا اللفظ الذي أورده المؤلف، وإنما أخذ المؤلف أول لفظ الحديث من أبي داود، وهو قوله: (لا تنتفوا الشيب) وقوله: (فإنه نور المسلم) من الترمذي، وقوله: (يوم القيامة) من آخر الحديث عند أبي داود. أورده المنذري في ترغيبه (٣١٠٤) بلفظ أبي داود، ثمّ أورد الزيادة التي عند الترمذي. قلتُ: وبهذا اللفظ الذي أورده المؤلف أخرجه ابن حبان في صحيحه (الإحسان ٢٩٨٥) عن أبي هريرة. لعل نظر المؤلف انتقل في نقله عن الترغيب من حديث إلى حديث.

(٢) سورة الروم، الآية: ٥٤.

شَيْبًا﴾[1]. وينهى رسول الله ﷺ كل مسلم عن نتف الشيب، وهذا الحديث في بنائه اللغوي يتكون من جملتين: الأولى وردت في صيغة النهي الموجه إلى الجميع، فقال: "لا تنتفوا الشيب"، وضمير الرفع المتصل هنا: وهو "واو الجماعة"، يعود على المسلمين جميعًا حين يغزو الشيب رءوسهم ولحاهم؛ وذلك حفاظًا على وقارهم وهيبتهم في الدنيا، ولأنه سيكون نورًا لهم يوم القيامة.

ولذلك وردت الجملة الثانية في صيغة التأكيد "بإن"، وهي تعليل للنهى عن نتف الشيب، وفي هذه الجملة الاسمية المؤكدة صورة أدبية موحية بكثير من المعاني والوعود المبشرة لكل مسلم ينتهي عما نهاه الرسول عنه، فقد شبه رسول الله الشيب بأنه نور للمسلم يوم القيامة، وتشبيهه بالنور لأنه سبب خلاص المسلم من العذاب كما في الحديث القدسي.

وطرفا الصورة: أحدهما حسي ملموس مشاهد وهو الشيب والآخر المشبه به معنوي: وهو النور.

والنور يرمز إلى الهداية والنجاة، والبياض يوم القيامة من سمات المؤمنين والصادقين، والسواد في هذا اليوم من سمات الكافرين والكاذبين، يوم تبيض وجوه، وتسود وجوه، نسأل الله أن نكون من الذين يسعى نورهم بين أيديهم وبإيمانهم: يوم القيامة.

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه: كراهة نتف الشيب عند الأئمة الأربعة[2]، خلافًا

---

(١) سورة مريم، الآية: ٤.

(٢) حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح ٢٤٢/١، والقوانين الفقهية لابن جزي ٢٩٣، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم بن مهنا النفراوي المصري ٣٠٧/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٥٩/١، وروضة الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ٢٣٤/٣، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٦٦/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٧٧/١، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ١٢٣/١، والفروع، ابن مفلح ١٠٢/١.

للظاهرية[1] الذين قالوا بالحرمة، حملاً للنهي الوارد في الحديث على ظاهره، وهو احتمال لصاحب الفروع من الحنابلة[2].

ولا فرق في كراهة نتف الشيب بين نتفه من الرأس، أو اللحية، أو الشارب أو غير ذلك، ولا فرق في ذلك بين الرجل والمرأة[3].

وفي تعليل كراهة النتف بأنه "نور المسلم" ترغيب بليغ في إبقائه وترك التعرض لإزالته[4].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية عدم نتف الشيب وفضل ذلك يوم القيامة.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

أولاً- من أساليب الدعوة: النهي:

يظهر ذلك في قوله ﷺ "لا تنتفوا الشيب" حيث نهى ﷺ عن نتف الشيب.

وأسلوب النهي من أساليب الدعوة التي يستخدمها الداعية في نهي المدعوين عما يخالف أحكام الإسلام وآدابه وقد ورد استخدام النهي في كثير من آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[5] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[6].

---

(١) المحلى، ابن حزم ٤/٧٩.

(٢) الفروع، ابن مفلح ١/١٠٢.

(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١١/١٧١، وروضة الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ٣/٢٣٤.

(٤) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١/٣٥٩، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١١/١٧١.

(٥) سورة الأنعام، آية: ١٥٢.

(٦) سورة الإسراء، الآيتان: ٣٢، ٣٣.

ومن الأحاديث قال ﷺ: ((لا تَباغَضوا ولا تحاسدوا ولا تدابَروا، وكونوا عبادَ اللهِ إخوانًا، ولا يَحلُّ لمسلم أن يَهجُرَ أخاه فوقَ ثلاثةِ أيام))[1] ومنها قوله ﷺ ((لا تحلِفوا بآبائكم))[2].

فأسلوب النهي من أساليب الدعوة التي يستخدمها الداعية في النهي عن ما يخالف أحكام الدين وآدابه.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: أهمية عدم نتف الشيب وفضل ذلك يوم القيامة:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "لا تنتفوا الشيب فإنه نور المسلم يوم القيامة".

قال المباركفوري: (نهى عن نتف الشيب، أي الشعر الأبيض من اللحية أو الرأس، قال: إنه نور المسلم، الإضافة للاختصاص، أي وقاره المانع من الغرور بسبب انكسار النفس عن الشهوات، والفتور وهو المؤدي إلى نور الأعمال الصالحة فيصير نورًا في قبره، بين يديه في ظلمات حشره. قال ابن العربي: (إنما نهى عن النتف دون الخضب لأن فيه تغيير الخلقة عن أصلها، بخلاف الخضب فإنه لا يغير الخلقة على الناظر إليه)[3].

وقال ﷺ: ((لاَ تَنْتِفُوا الشَّيْبَ فَإِنَّهُ نُورُ الْمُسلِمِ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَشِيبُ شَيْبَةً فِي الإِسْلاَمِ إِلاَّ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِهَا حَسَنَةً، وَرَفَعَهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً))[4].

فالشيب كما تبين من أحاديث رسول الله ﷺ يكون نورًا للمسلم وسببًا في كرامته برفع حسناته وحط سيئاته فينبغي الالتزام بتوجيهات رسول الله ﷺ في عدم نتفه.

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "فإنه نور المسلم يوم القيامة".

قال العظيم آبادي: (أي سببًا للنور، وفي ذلك ترغيب بليغ في إبقاء الشيب وترك التعرض لإزالته)[5].

---

(١) أخرجه البخاري ٦٠٦٥، ومسلم ٢٥٥٩.

(٢) أخرجه البخاري ٦٦٤٨، ومسلم ١٦٤٦.

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٢١١٢/٢.

(٤) أخرجه أحمد ١٧٩/٢، رقم ٦٦٧٢، وقال محققو المسند: صحيح لغيره ٦٦٧٢/١١.

(٥) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي، ص ١٧٩٤.

والترغيب يقصد به كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه[1].

والأصل في الترغيب: أن يكون في نيل رضاء الله سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة والفوز فيها[2].

---

(١) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ص ٤٣٧.

(٢) الدعوة إلى الله، د. توفيق الواعي، ص ١٠٢.

الحديث رقم (١٦٤٩)

١٦٤٩- وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسولُ اللهِ ﷺ: ((مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

ام المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

رَدٌّ: مردود عليه[2].

الشرح الأدبي

يموج هذا الحديث بكثير من المعاني، وهو يتكون من كلمات قليلة، ولكن معانيه ممتدة وشاملة، فكل كلمة تشع بالمفاهيم والمقاصد المتعددة .

وصياغة الحديث تفصح عن منطق الثواب والعقاب، فهو جملة شرطية تتكون من شرط وجزاء، والأعمال كذلك منها ما هو مقبول ومنها ما هو مردود، وهي قسمان: عبادات ومعاملات، فأما العبادات: فما كان منها خارجًا عن حكم الله ورسوله ﷺ بالكلية فهو مردود على عامله، وأما المعاملات: كالعقود والفسوخ ونحوهما: فما كان منها مغيرًا للأوضاع الشرعية: مثل الأحكام المدنية المستخدمة والتي ليس لها أصل في أحكام الشريعة: فإنه مردود.

فالحديث كما قال العلماء: أصل عظيم من أصول الإسلام، وهو قاعدة عامة صارمة، وهو بمنطوقه يدل على أن كل عمل ليس عليه أمر الشارع فهو مردود، ويدل بمفهومه الذي تشع به الألفاظ على أن كل عمل عليه أمر الشارع فهو غير مردود.

---

(١) برقم (١٧١٨/١٨)، وتقدم برقم (١٦٩). أورده المنذري في ترغيبه (٧٤).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ر د د).

وكلمة أمر تحمل كل ما يتضمنه الدين والشرع من أوامر ونواه، ومن قواعد يجب اتباعها وقوله: "ليس عليه أمرنا"، إشارة إلى أن أعمال العاملين كلهم ينبغي أن تكون تحت أحكام الشريعة حاكمة عليها بأمرها ونهيها، وفي ضوء الصياغة اللغوية للحديث وهي: صيغة الجزاء والشرط تكون الثمرة النافعة لهذا الحديث البليغ الموجز، أن من كان عمله جاريًا تحت أحكام الشريعة موافقًا لها فهو مقبول، ومن كان خارجًا عن ذلك فهو مردود(١).

المضامين الدعوية(٢)

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/١٧٦-١٨١.

(٢) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (١٦٩)، والرواية المشار إليها "من أحدث في أمرنا".

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية بالتوجيه المباشر:

لقد استخدم النبي ﷺ هذا الأسلوب في نهي صحابته الكرام عن نتف الشيب، يقول ﷺ: «لا تنتفوا الشيب...»؛ وذلك لما فيه من تغيير لخلق الله تعالى، لأن الشيب من تكريم الله تعالى للإنسان؛ فهو دليل على الوقار، ولهذا نهى النبي ﷺ عن نتفه، وقد بشَّر ﷺ بأن هذا الشيب سيكون نورًا يوم القيامة.

وربما كان نتف الشيب سببًا في الإصابة بالمرض، وسقوط الشعر، وحدوث الألم لفروة الرأس واللحية، وهذا مما يحرص الإسلام على وقاية المسلمين منه.

والتوجيه المباشر وسيلة من وسائل العادة التعليمية التطبيقية، وهو طلب المربي المباشر والصريح من طلابه القيام بعمل معين[1].

ثانيًا- التربية على اتباع السنة:

ويبدو ذلك جليًا في نهيه ﷺ عن نتف الشيب، وذلك لأن الإسلام دين واقعي، لا يهرب فيه المسلم من واقعه، بل عليه أن يعيش ظروفه وسنه، دون محاولة للهروب أو التشبيه بالشباب حال الكبر، هكذا كانت سنة النبي ﷺ، وهكذا أمر صحابته الكرام، ونهاهم عن مخالفة ذلك.

ومن مظاهر الحث على اتباع السنة قوله ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»، أي: فهو مردود عليه، فواجب المسلم أن يتبع النبي ﷺ وسنته في أقواله وأفعاله وإقراره؛ ذلك هو شرط الإسلام الصحيح، يقول تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾[2].

فاتباع النبي ﷺ: هو الاقتداء به، واقتضاء آثاره والتأسي به، وذلك لأننا متعبدون باتباع الرسول ﷺ والتأسي به في أفعاله، وفي تركه، بأن نفعل صورة ما فعل على الوجه الذي فعل لأجل أنه فعل، وأن نترك مثل ما ترك على الوجه الذي ترك لأجل أنه ترك[3].

---

(١) أساليب الدعوة والتربية، زياد العاني، ص٢٨٤.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٣) محبة النبي ﷺ، عبدالرؤوف محمد عثمان، ص١٠٢، ١٠٣ بتصرف يسير.

ثالثًا- التربية بالترهيب:

وذلك في قوله ﷺ: «من عمل عملاً... فهو رد»، وذلك تخويف للمؤمنين من ابتداع ما لم يرد عن النبي بالتحريف في العبادة أو الزيادة أو النقصان؛ لأن ذلك كله غير مقبول عند الله تعالى، بل إن الله يعاقب على البدعة، يقول ﷺ: «كل بدعة ضلالة»[1]، وذلك حتى لا يدخل في الإسلام من التشريعات ما ليس منه، مثلما حدث في الديانات السابقة، التي ظل أبناؤها يحرفونها شيئًا فشيئًا، ويبتدعون فيها قليلاً قليلاً، حتى وصل الأمر بهم إلى تحريفها تمامًا، ووصلوا بتحريفهم إلى تحريف العقيدة نفسها.

والترهيب وعد وتهديد بعقوبة، تترتب على اقتراف إثم أو اجتراح ذنب قد نهى الله عنه، ... وهو تهديد من الله يقصد به لتخويف عباده، ... وهو العنصر الذي يمثل القوة الصادة عن الانحراف إلى سبيل الشر التي ينهى عنها الإسلام[2].

رابعًا- التربية بالترغيب:

وذلك في ترغيبه ﷺ في إبقاء الشيب وعدم نتفه من اللحية أو الرأس، يقول ﷺ: «لاَ تَنْتِفُوا الشَّيْبَ فَإِنَّهُ نُورُ الإِسْلاَمِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، فما أحرص المرء على هذا الشيب، وما أشد فرحه به إذا علم أن الله سيجعله نورًا يوم القيامة، وبهذا يصير الشيء المكروه والمنفور منه محبوبًا ومرغوبًا فيه؛ عن طريق إبراز صفة من صفات حسنه وجماله، لاسيما إذا كان هذا الجمال أخرويًا، نورانيًا يوم القيامة، وذلك ما يرتجيه المسلم من ربه، أن يحسن إليه في أخراه.

وقد استخدم ﷺ هذا الأسلوب، لأن النفس متى استرضت بشيء من المنافع العاجلة أو الآجلة، سكتت عن الإنسان الصوارفُ له عن طريق الخير، وغدا سهل الانقياد، وانفتحت نفسه للاقتناع به والتعلق الشديد بأسبابه[3].



---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجمعة، ٨٦٧.

(٢) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني، ص٢٥٠.

(٣) تربية الأبناء والبنات، خالد العك، ص١٨٦ بتصرف يسير.

٢٩٨- باب كراهة الاستنجاء باليمين

ومس الفرج باليمين من غير عذر

الحديث رقم (١٦٥٠)

١٦٥٠- وعن أبي قتادة ﷺ، عن النبيّ ﷺ، قال: ((**إذا بَالَ أَحَدُكُمْ، فَلاَ يَأخُذَنَّ ذَكَرَهُ بِيَمِينِهِ، وَلاَ يَسْتَنْجِ بِيَمِينِهِ، وَلاَ يَتَنَفَّسْ فِي الإنَاءِ**)). متفق عليه[1].

وفي الباب أحاديث كثيرة صحيحة.

ترجمة الراوي:

عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١).

الشرح الأدبي

إن للمسلم آداباً ومعالم تحكم منهجه الحياتي سلوكاً وقولاً، وعلاقات، ومراعاة للآداب الاجتماعية، والأعراف والتقاليد التي لا تتصادم مع ثوابت الإسلام، وهذا الحديث يرشد إلى أدق الأمور وأخفاها في حياة المسلم، وهي آداب التبول، والاستنجاء، وآداب الشراب والطعام، ويبدأ الحديث بجملة شرطية، وأداة الشرط "إذا" وفعل الشرط "بال" وجواب الشرط جملة: "فلا يأخذن أحدكم ذكره بيمينه) واختيار أداة الشرط هنا وهي: "إذا" يدل على تحقق فعل الشرط: وهو التبول، وهذا أمر ملازم لكل إنسان، بل لكل كائن، فلا تغني أداة عن "إذا" في هذا السياق.

وجواب الشرط: جاء مؤكداً بنون التوكيد الثقيلة، ومقترناً بلا الناهية، وفي ذلك تشديد على اجتناب هذا الأمر الكريه، لأن اليد اليمنى تستخدم في أمور كثيرة في الحياة، وكانت يد النبي ﷺ اليمين لطهوره وطعامه، وكانت يده اليسرى لخلائه، وما كان من أذى.

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٤) واللفظ له، ومسلم (٦٣/٢٦٧).

والجملتان الباقيتان معطوفتان على جواب الشرط "ولا يستنجى بيمينه، ولا يتنفس في الإناء"، ولكنهما خارج دائرة الشرط، والنفي فيهما بمعنى: النهي وقد كررت "لا" ثلاث مرات وهي تفيد النهي في المواضع الثلاث، وذلك للتأكيد على اجتناب هذه الأمور، لأن الاستنجاء باليمين يجلب القذارة للإنسان، وربما تعلق بيده اليمنى بعض الآثار النجسة والميكروبات المصاحبة لها فتتسرب إلى طعامه، فتفسد أمعاءه، وكذلك النهي عن التنفس في الإناء، لأن ذلك يمكن أن يلوث الماء، والطعام، ويكسبها رائحة كريهة، وينفر الذين يأكلون معه من أضيافه وأبنائه ونسائه، وبناته.

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه:

١- أنه يكره للمرء أن يمس ذكره بيمينه[١]، قال عثمان بن عفان ﵁ (ما تغنيت، ولا تمنيت، ولا مسست ذكري بيمني منذ بايعت رسول الله ﷺ).

وعن عمران بن الحصين ﵁ أنه قال: ما مسست ذكري بيميني منذ بايعت رسول الله ﷺ[٢].

كما يكره الاستنجاء باليمين، لما روت عائشة ﵂ ((كَانَتْ يَدُ رَسولِ الله ﷺ الْيُمْنَى لِطُهُورِهِ وَطَعَامِهِ، وكَانَتْ يَدُهُ اليُسْرَى لِخَلَائِهِ وَمَا كانَ مِنْ أذى))[٣].

وإن كان الظاهرية[٤]، وإمام الحرمين[٥] من الشافعية يرون حرمة الاستنجاء باليمين حملاً للنهي على ظاهره.

---

(١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٢٥٥/١، ورد المحتار على الدر المختار، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ٣٣٩/١، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٦٤/١، وشرح العمدة ١٥٢/١، والمبدع في شرح المقنع، ابن مفلح ٨٧/١، والروض المربع شرح زاد المستقنع، البهوتي ٣٧/١، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ١٠٣/١، وشرح عمدة الأحكام ٦٠/١.

(٢) الأوسط لابن المنذر ٣٣٩/١.

(٣) أخرجه أبو داود ٣٣، ٣٤، والبغوي في شرح السنة ١٨٢/١ وقال محققا شرح السنة: إسناده صحيح.

(٤) انظر في نسبة هذا الرأي إلى أهل الظاهر: سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، محمد بن إسماعيل الصنعاني ٧٧/١.

(٥) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ١٢٨/٢.

٢- وفي الحديث كراهة التنفس في الإناء إذا ما أراد أن يشرب[١]، فإن غلبه النفس نحى الإناء من فيه، وتنفس، ثم عاد إليه[٢].

والنهي عن التنفس في الإناء إنما هو من باب الأدب الراقي الذي يحرص عليه الإسلام، وذلك مخافة تقذيره، أو تغير رائحته، أو سقوط شيء فيه من الفم أو الأنف[٣].

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: التعليم.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: أهمية اتباع الهدي النبوي في قضاء الحاجة والشرب من الإناء.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: أهمية مراعاة النظافة وأسباب السلامة في حياة المسلم.

رابعاً: من أساليب الدعوة: النهي.

أولاً- من وسائل الدعوة: التعليم:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "إذا بال أحدكم، فلا يأخذن ذكره بيمينه، ولا يستنج بيمينه، ولا يتنفس في الإناء"؛ حيث علم رسول الله ﷺ أمته عدم مس الذكر باليد اليمنى، وعدم الاستنجاء بها، وعلمنا عدم التنفس في الإناء، والتعليم وسيلة من وسائل الدعوة التي يعلم بها الداعية المدعوين أحكام دينهم وآدابه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ولا يستطب بيمينه، وكان يأمر بثلاثة أحجار، وينهى عن الروث والرمة))[٤].

---

(١) القوانين الفقهية ٢٨٨، وشرح صحيح مسلم، النووي ١٦٠/٣، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٢٢٢/٧، ٣٤٤/٩.

(٢) القوانين الفقهية ٢٨٨.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ١٦٠/٣.

(٤) أخرجه أبو داود ٨، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٦).

ولاشك أن للعلم في الإسلام أهمية سامقة، ومنزلة عالية رفيعة ويتضح ذلك من اهتمام القرآن الكريم به، والحث عليه. والرفع من شأن أهله قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١] وقال تعالى موضحاً أن من يخشونه إنما هم العلماء: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[٢].

كما طلب سبحانه من الناس التزود من العلم وتحصيله فقال سبحانه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[٣].

وإذا ما نظرنا إلى سنة المصطفى ﷺ فإننا نجد الحث الكامل على العلم وتحصيله والثناء على أهله قال ﷺ: ((مَنْ يُرِدِ اللّهُ به خَيراً يُفَقِّهْهُ في الدِّين))[٤]، وقال ﷺ: ((نَضَّرَ اللّهُ امْرَءًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا، وَحَفِظَهَا وَبَلَّغَهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، ثَلاَثٌ لاَ يُغَلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلاَصُ الْعَمَلِ لِلّهِ، وَمُنَاصَحَةُ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومِ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ الدَّعْوَةَ تُحِيطُ مِنْ وَرَاءِهِمْ))[٥].

ومن مجمل تلك النصوص تتضح أهمية العلم، وتبرز قيمته وفائدته، وخاصة لدى الدعاة إلى الله الذين يقع عليهم عبء الدعوة إلى هذا الدين الحنيف وإبراز عقيدته الصحيحة التي يقوم عليها، وشريعته الكاملة التي يستند إليها، وأخلاقه ومبادئه ونظمه العظيمة التي يركن إليها[٦]. وكل ذلك يكون من خلال وسيلة التعليم. فبعد أن يتعلم الداعية العلم النافع يعمل به ويؤدي حقه بالنصح للمدعوين والإرشاد.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٩.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

(٣) سورة طه، الآية: ١١٤.

(٤) أخرجه البخاري ٧١، ومسلم ١٠٣٧.

(٥) أخرجه الترمذي ٢٦٥٨، وابن ماجة ٢٣٠، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢١٣٩، صحيح سنن ابن ماجة ١٨٧).

(٦) انظر: منهج الدعوة إلى الله، د. عبدالرحيم المغذوي، ص ١٠١-١٠٢.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: اهمية اتباع الهدي النبوي في قضاء الحاجة والشرب من الإناء:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "إذا بال أحدكم، فلا يأخذن ذكره بيمينه، ولا يتنفس في الإناء".

قال ابن عثيمين: (قال: "لا يستنج أحدكم بيمينه" يعني لا يمسك الذكر باليمين فيغسله، لأن اليد اليمنى مكرمة، ولهذا قال العلماء رحمهم الله اليمنى هي المقدمة إلا في مواضع الأذى. فاليسرى تقدم للأذى، واليمنى لما سواه وعلى هذا فيستنجي باليسار)[1].

وقوله ﷺ "ولا يتنفس في الإناء".

قال ابن حجر: (قال المهلب: النهي عن التنفس في الشرب كالنهي عن النفخ في الطعام والشراب، من أجل أنه قد يقع فيه شيء من الريق فيعافه الشارب ويتقذره. إذ كان التقذر في مثل ذلك عادة غالبة على طباع أكثر الناس، ومحل هذا إذا أكل وشرب مع غيره، وأما لو أكل وحده أو مع أهله أو من يعلم أنه لا يتقذر شيئاً مما يتناوله فلا بأس. قلت: والأولى تعميم المنع لأنه لا يؤمن مع ذلك أن تفضل فضلة أو يحصل التقذر من الإناء أو نحو ذلك. وقال ابن العربي: قال علماؤنا هو من مكارم الأخلاق، ولكن يحرم على الرجل أن يناول أخاه ما يتقذره، فإن فعله في خاصة نفسه ثم جاء غيره فناوله إياه فليعلمه، فإن لم يعلمه فهو غش والغش حرام)[2].

وقال ابن حجر: (ويحتمل أن تكون الحكمة التي ذكرها هنا أن الغالب من أخلاق المؤمنين التأسي بأفعال النبي ﷺ وقد كان إذا بال توضأ. فالمؤمن بصدد أن يفعل ذلك، فعلمه أدب الشرب مطلقاً لاستحضاره)[3].

فينبغي على المسلم اتباع هدي النبي ﷺ والتأدب بآدابه في الاستنجاء والشرب.

---

(١) شرح رياض الصالحين ٢/١٧٣٧.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١٠/٩٦.

(٣) المرجع السابق ١/٣٠٧.

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: أهمية مراعاة النظافة وأسباب السلامة في حياة المسلم:

يظهر ذلك في قوله ﷺ "إذا بال أحدكم، فلا يأخذن ذكره بيمينه ولا يستنج بيمينه" قال ابن حجر: (قيل: الحكمة في النهي لكون اليمين معدة للأكل بها فلو تعاطى ذلك لأمكن أن يتذكره في الأكل فيتأذى بذلك)[١].

وقوله ﷺ "لا يتنفس في الإناء"

قال ابن عثيمين: (لكن إذا تنفس لا يتنفس في الإناء، يزيل فمه عن الإناء ثم يتنفس، لأن التنفس بالإناء فيه ضرر على الشارب لأن النفس يكون صاعداً، والماء يكون نازلاً فيلتقيان فيحصل الشرق، وفيه أيضاً أذى لمن بعده؛ لأنه قد يخرج مع نفسه أمراض التي يسمونها "ميكروبات" فتكون في الماء فتؤثر على شرب من بعده؛ فلذلك نهى النبي ﷺ عن أن يتنفس في الإناء)[٢].

فيكون في ذلك مراعاة للنظافة وأسباب السلامة في حياة المسلم.

رابعاً- من أساليب الدعوة: النهي:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "... فلا يأخذن ذكره بيمينه، ولا يستنج بيمينه، ولا يتنفس في الإناء".

وأسلوب النهي من الأساليب الدعوية التي ورد استخدامها في الكتاب والسنة فينبغي على الداعية استخدامها في دعوته لنهي المدعوين عن ما يخالف أحكام الإسلام وآدابه.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ١/٣٠٦.

(٢) شرح رياض الصالحين ٢/١٧٣٧.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية بالتوجيه المباشر:

لقد وجه النبي ﷺ في حديث هذا الباب إلى أدب من آداب دخول الخلاء؛ وكذلك إلى آداب الطعام، مستخدمًا الأسلوب التوجيهي المباشر، بتوجيه التعليمات إلى المربين بطريقة صريحة، يقول ﷺ: «إِذَا بَالَ أَحَدُكُمْ فَلاَ يَأْخُذْ ذَكَرَهُ بِيَمِينِهِ» وهكذا في سائر توجيهاته ﷺ في هذا الحديث.

والتوجيه المباشر وسيلة تربوية ناجحة لتعديل السلوكيات السيئة نحو الأفضل، أو الأمر بإتيان الأفعال الحسنة والتزامها، وهو طلب المربي المباشر والصريح من طلابه القيام بعمل معين، وهو بمثابة ممارسة العمل للمتعلم أمام مربيه.. يرافقها تصحيح لأخطائه... وهكذا حتى يصبح هذا السلوك عادة مستحكمة لدى المتربي، يواظب عليها[(١)].

ثانيًا: التربية على التمسك بالسنة:

وذلك في التزام أمره ﷺ في آداب إتيان الخلاء، وآداب الطعام؛ فأما آداب إتيان الخلاء فمنها سنته ﷺ في عدم أخذ الذكر أو الاستجاء باليمين؛ لأن من السنة جعل اليد اليمنى للطعام والشراب، والأشياء الكريمة، بينما اليد اليسرى في الأشياء الكريهة، كدخول الخلاء وغير ذلك.

وأما آداب الطعام فمنها عدم التنفس في الإناء؛ لأن ذلك من هديه ﷺ، وقد نهى عن ذلك؛ لأن ذلك ربما أساء إلى الآخرين فتركوا هذا الطعام، واستاءوا من تناوله؛ وفي ذلك إسراف وتبذير نهى عنه الإسلام.

فاتباع الرسول ﷺ هو الاقتداء به، واقتفاء آثاره والتأسي به، وقد بحث الأصوليون في باب أفعاله ﷺ عن هذه المعاني؛ وذلك لأننا متعبدون باتباع الرسول ﷺ والتأسي به في أفعاله[(٢)].

---

(١) أساليب الدعوة والتربية، زياد العاني، ص٢٨٤ بتصرف.

(٢) محبة الرسول بين الاتباع والابتداع، عبدالرؤوف عثمان، ص١٠٢.

ثالثًا: التربية الصحية:

لقد ربى النبي ﷺ صحابته الكرام على ما يحفظ صحتهم وأبدانهم من الأمراض والآفات، ولذلك فقط أمر بكل سلوك يحفظ الصحة، ونهى عن كل مسلك يؤدي إلى المرض، ومنذ ذلك نهيه ﷺ عن أخذ الذَكَرِ والاستنجاء باليمين؛ يقول ﷺ: «وإذا بال أحدكم فلا يأخذ ذكره...»، وذلك لأن هذا المكان مظنة الجراثيم والنجاسة، فينبغي أن لا تمسه اليد اليمنى، التي يتناول بها الإنسان طعامه وشرابه، ولن يخلو الأمر حينها من إصابته بالمرض الذي يضعفه عن العمل والعبادة.

وفي الحديث نفسه ينهي النبي ﷺ عن التنفس في الإناء، وذلك من العادات السيئة في الطعام، وقد قال ابن القيم: "وأما النفخ في الشراب فإنه يكسبه من فم النافخ رائحة كريهة يعاف لأجلها، ولاسيما إن كان متغير الفم، وبالجملة فأنفاس النافخ تخالطه"[1].

وفي النهي عن الاستنجاء باليد اليمنى والتنفس في الإناء أيضًا رعاية للصحة عن طريق الوقاية من المرض قبل وقوعه، وذلك منهج نبوي، في تنبيه الصحابة الكرام إلى ما فيه الضرر قبل اقترافه وإتيانه.

إن السنة النبوية اهتمت اهتمامًا كبيرًا بالصحة والعافية، وتتير في الحياة الإنسانية بالإضافة إلى أن السنة بإجمالها كانت ترشد إلى المحافظة على الصحة، وتبعد الإنسان عن الوقوع في الأمراض والأسقام... فالصحة من نعم الله التي أعطاها للإنسان، فعليه أن ينشط بها وفيها، فيستغل وقت صحته ليعمل العمل الصالح، وينتج الإنتاج الطيب المبارك، كما عليه أن يحافظ على هذه الصحة، ولا يدخل على بدنه ما يفسدها، وسيسأل عن ذلك يوم القيامة[2].

وقد أولت التربية الإسلامية عنايتها بالجانب الجسمي للفرد من زاوية الوقاية من الأمراض وعلاجها... بل ويحثنا ديننا الحنيف على عمل الإجراءات اللازمة للوقاية من

---

(١) تربية الأولاد في الإسلام، د. أحمد مصطفى متولي، ص٥٠٤.

(٢) الإعجاز العلمي في السنة النبوية، د. صالح أحمد رضا، ص٤٦٩.

الأمراض قبل وقوعها، ففي النظافة وقاية ومنع لانتشار الأمراض، وفي غياب النظافة البدنية والبيئة تعرض للهلاك[1]، يقول تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[2].



(١) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد القاضي، ص٢٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

٢٩٩- باب كراهة المشي في نعل واحدة أو خف واحد لغير عذر وكراهة لبس النعل والخف قائماً لغير عذر

الحديث رقم (١٦٥١)

١٦٥١- عن أبي هريرة رضي الله عنه : أنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ ، قال: ((لاَيَمْشِ أحَدُكُمْ فِي نَعْلٍ وَاحِدَةٍ، لِيَنْعَلْهُمَا جَمِيعاً، أو لِيَخْلَعْهُمَا جَمِيعاً)) [١].

وفي رواية[٢]: ((أو لِيُحْفِهِمَا جَمِيعاً)). متفق عليه.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

ليحفهما : ليخلعها[٣].

الشرح الأدبي

على المسلم أن يكون حسن الهيئة، جميل المظهر، نظيف الثياب، مشرق الحياة، هاشاً باشاً، وأن لا يعرض نفسه لسخرية الآخرين، وللقيل والقال، وهذا الحديث يرشد المسلم إلى مراعاة السمت الطيب، واتباع المألوف لدى الناس في لباس النعل، والحديث يتكون من ثلاث جمل فعلية، وأفعالها مضارعة، والجملة الأولى تتصدرها "لا" الناهية، وهي أداة جزم، والجزم هو القطع: وكأن وظيفتها النحوية تتضافر مع وظيفتها الدلالية في الحديث الشريف فقول الرسول ﷺ: "لا يمس أحدكم في نعل واحدة"، فيه حزم وقطع بالانتهاء عن الإقدام على هذا الفعل المشين الذي يُشوِّه صورة المسلم، ويجعله مثار سخرية الآخرين، ولذلك جاء الفعل المنهي عنه مضارعاً إيحاءً باستمرار النهي عن هذا

---

(١) أخرجه البخاري (٥٨٥٦)، ومسلم واللفظ له (٦٨/٢٠٩٧).

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٥٥).

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٣٢٣/١٠.

السلوك المهين الذي يخالف المألوف لدى الناس، والجملتان الباقيتان: توضحان ما يجب على المسلم فعله حتى لا يكون سلوكه منفراً، وهذا التوضيح ارتبط بلام الأمر، والفعل المضارع المجزوم بلام الأمر حيث قال: "لينعلهما جميعاً، أو ليخلعهما جميعاً"، والضمير في الفعلين يعود على القدمين، وكرر لفظ "جميعاً" وهو حال في كلا الجملتين: أي في حال واحدة، ولنقتد برسول الله ﷺ في كل أمور حياتنا.

فرسول الله ﷺ هو القدوة الحسنة في كل مظاهر الحياة والعبادة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "إذا انتعل أحدكم فليبدأ باليمين، وإذا نزع فليبدأ بالشمال، لتكن اليمنى أولهما ينتعل، وآخرها ينزع"[١].

فقه الحديث

وفي الحديثين كراهة المشي في نعل واحدة، أو خف واحد، أو مداس واحد إلا لعذر[٢].

ولعل السبب في الكراهة أن النعال ونحوها شرعت لحماية الأرجل عما يكون في الأرض من شوك ونحوه، فإذا انفردت إحدى الرجلين احتاج الماشي أن يتوقى لإحدى رجليه ما لا يتوقى للأخرى، فيخرج بذلك عن سجية مشيه وربما تعثر وسقط على الأرض[٣].

كما قيل في سبب الكراهة: إن المشي في نعل واحد إنما هي مشية الشيطان[٤]. وقيل أيضاً: إن فيه تركاً للعدل بين الرجلين، والعدل مأمور به[٥].

---

(١) أخرجه أبو داود، ٤١٣٩، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود، ٣٤٨٦).

(٢) شرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني ٣١٧/٤، والتمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ١٧٧/١٨، والكافي لابن عبدالبر ٦١٤، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٩٤/٤، وإعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ٨٣/٢، وشرح صحيح مسلم، النووي ٧٤/١٤، والفروع، ابن مفلح ٣١٥/١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢٨٤/١.

(٣) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، محمد بن إسماعيل الصنعاني ١٥٧/٤، وفي المعنى ذاته: شرح صحيح مسلم، النووي ٧٤/٤، وإعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ٨٣/٢، وشرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني ٣٤٧/٤.

(٤) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، محمد بن إسماعيل الصنعاني ١٥٧/٤.

(٥) إعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ٨٣/٢.

وقيل أيضاً: حتى لا ينسب فاعل ذلك إلى اختلال الرأي، أو ضعفه[١].

المضامين الدعوية[٢]

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: أهمية اتباع الهدي النبوي في لبس النعلين أو خلعهما.

أولاً- من أساليب الدعوة: النهي:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "لا يمش أحدكم في نعل واحدة" وقوله ﷺ: "... فلا يمش في الأخرى حتى يصلحها". حيث نهى ﷺ عن المشي في نعل واحد.

وأسلوب النهي من أساليب الدعوة التي يستخدمها الداعية في النهي عن الأشياء التي تخالف أحكام وآداب الشريعة.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: أهمية اتباع الهدي النبوي في لبس النعلين أو خلعهما:

هذه الأحاديث في النعل وكراهة أن ينتعل الإنسان برجل واحدة أو يلبس خفاً برجل واحدة بل إما أن يحفيهما جميعاً، يعني لا يلبس في الرجلين شيئاً، وإما أن ينعلهما جميعاً.

ويظهر ذلك في حديث أبي هريرة: "أن رسول الله ﷺ قال: لا يمشي أحدكم في نعل واحدة لينعلهما جميعاً، أو ليخلعهما جميعاً". وفي رواية: "أو ليحفهما جميعا"[٣].

وعنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إذا انقطع شسع نعل أحدكم، فلا يمشي في الأخرى حتى يصلحها".

قال ابن حجر: (قال الخطابي: الحكمة في النهي أن النعل شرعت لوقاية الرجل عما يكون في الأرض من شوك أو نحوه، فإذا انفردت إحدى الرجلين احتاج الماشي أن يتوقى لإحدى رجليه ما لا يتوقى للأخرى فيخرج بذلك عن سجية مشيه، ولا يأمن مع ذلك من العثار. وقيل لأنه لم يعدل بين جوارحه، وربما نسب فاعل ذلك إلى اختلال الرأي أو

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٣٠٩/١٠.

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٦٥١- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٥٢، ١٦٥٣).

(٣) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين ١٧٣٨/٢.

ضعفه. وقال ابن العربي: قيل: العلة فيها أنها مشية الشيطان، وقيل: لأنها خارجة عن الاعتدال. وقال البيهقي: الكراهة فيه للشهرة فتمتد الأبصار لمن ترى ذلك منه. وقد ورد النهي عن الشهرة في اللباس. فكل شيء صير صاحبه شهرة فحقه أن يجتنب)[١].

قال النووي: (يكره المشي في نعل واحدة أو خف واحدة أو مداس واحد لا لعذر ودليله هذه الأحاديث التي ذكرها مسلم.

قال العلماء: وسببه أن ذلك تشويه ومثلة ومخالف للوقار، ولأن المنتعلة تصير أرفع من الأخرى فيعسر مشيه وربما كان سبباً للعثار، وهذه الآداب الثلاثة في المسائل الثلاث مجمع على استحبابها وأنها ليست واجبة، وإذا نقطع شسعه ونحوه فيخلعهما ولا يمشي في الأخرى وحدها حتى يصلحها وينعلها)[٢].

وقال ابن عثيمين: (ووجه ذلك: أن هذا الدين الإسلامي جاء بالعدل حتى في اللباس، لا تنعل إحدى الرجلين وتترك الأخرى، لأن هذا فيه جور على الرجل الثانية التي لم تنعل فلذلك نهى النبي ﷺ عن المشي في نعل)[٣].

ومن الآداب الإسلامية في لبس النعل: عدم لبسه والإنسان قائم، يظهر ذلك في حديث جابر رضي الله عنه: "أن رسول الله ﷺ نهى أن ينتعل الرجل قائماً".

قال العظيم آبادي: (قال الخطابي: إنما نهى عن لبس النعل قائماً لأن لبسها قاعداً أسهل عليه وأمكن له وربما كان ذلك سبباً لانقلابه إذا لبسها قائماً فأمر بالقعود له والاستعانة باليد فيه ليأمن غائلته)[٤].

وقال ابن عثيمين: ("أن النبي ﷺ نهى أن ينتعل الرجل قائماً" فهذا في نعل يحتاج إلى معالجة في إدخاله في الرجل، لأن الإنسان لو انتعل قائماً والنعل يحتاج إلى معالجة، فربما يسقط إذا رفع رجله ليصلح النعل. أما النعال المعروفة الآن؛ فلا بأس أن ينتعل الإنسان وهو قائم ولا يدخل ذلك في النهي، لأن نعالنا الموجودة يسهل خلعها ولبسها)[٥].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٣٢٢/١٠.

(٢) شرح مسلم، النووي، ص ١٣٢٦.

(٣) شرح رياض الصالحين ١٧٣٨/٢.

(٤) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي، ص ١٧٧٣.

(٥) شرح رياض الصالحين ١٧٣٨/٢، ١٧٣٩.

الحديث رقم (١٦٥٢)

١٦٥٢- وعنه، قال: سمعت رسولَ الله ﷺ، يقول: ((إذا انْقَطَعَ شِسْعُ (نَعْلِ)[١] أَحَدِكمْ، فَلاَ يَمْشِ فِي الأُخْرَى حَتَّى يُصْلِحَهَا)). رواهُ مسلم[٢].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

شسع نعل: أحد سيور النعل وهو الذي يُدخل بين الإصبعين ويدخل طرفه في الثقب الذي في صدر النعل المشدود في الزمام، والزمام السير الذي يعقد فيه الشسع[٣].

الشرح الأدبي

هذا الحديث الشريف فيه إرشاد للمسلم إلى عدم المشي في نعل واحدة كما ورد في الحديث السابق، وكأنه إجابة عن سؤال ينبثق من الحديث السابق، وماذا أعمل إذا انقطع شسع النعل، ويجيب رسول الله ﷺ في هذا الحديث عن هذا السؤال المتوقع ليعطي حَلا لهذا الإشكال.

والشسع في اللغة قبال النعل، والنعل كما قال صاحب المحكم، ما وقيت به القدم، ففي البخاري عن قتادة حدثنا أنس رضي الله عنه "أن نعلي النبي ﷺ كان لها قبالان"[٤]: والقبالان: تثنية القبال، وهو زمام النعل، وهو السير الذي يكون بين الإصبعين.

ويقال في اللغة: شسع النعل، أي انقطع شسعه، والشاسع هو: الرجل المنقطع الشسع.

---

(١) هذه الزيادة لا توجد عند مسلم، وهي عند النسائي في المجتبى (٥٣٧٠).

(٢) برقم (٦٩/٢٠٩٨).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ش س ع).

(٤) أخرجه البخاري، ٥٨٥٧، ٥٨٥٨.

والحديث يتكون من جملة لغوية واحدة، وهي جملة شرطية مكونة من أداة الشرط "إذا" وجملة فعل الشرط : "انقطع نعل أحدكم"، وجملة جواب الشرط: "فلا يمشي في الأخرى حتى يصلحها".

وأسلوب الشرط في هذا السياق مناسب ، لأن الحديث يثير مشكلة تحتاج إلى حل، فالرسول ﷺ ينهي عن أن يمشي المسلم في نعل واحدة، فماذا يفعل الإنسان إذا انقطع شسع نعله، فهذه هي المشكلة، التي تضمنها فعل الشرط، والأداة: "إذا"، وهي توحي بدلالتها بوقوع هذه المشكلة لأنها من مستلزمات الحركة في الحياة، فكل نعل لابد أن يبلى، كأي شيء في الحياة.

ويجيء الجواب حلاً لهذه المشكلة، وهو إصلاح النعل، ولذلك قال: "حتى يصلحها" و"حتى" للغاية، فتأمل بلاغة رسول الله ﷺ الواضحة المبينة التي تتجلى حتى في أقل الأمور شأناً، وأدقها خفاءً في بعض الأحيان، صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٦٥٣)

١٦٥٣- وعن جابر رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ نَهَى أنْ يَنْتَعِلَ الرَّجُلُ قَائِماً. رواه أبو داود[1] بإسناد حسن.

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

ما أحرص رسول الله ﷺ على أن يحتفظ المسلم بهيئته ووقاره، وما أكثر حرصه على احتفاظ المسلم بمعالم هويته، وخصائص شخصيته حتى في أدق الأمور التي يظن الناس أنها لا تمثل في حياتهم شيئاً ذا بال، ومنها طريقة لبس النعل.

وهذا الحديث الشريف الذي يرويه جابر بأسلوبه عن رسول الله ﷺ، ويتضمن النهي عن انتعال الرجل قائماً، ومعنى: "أن ينتعل"، أي يلبس النعل وهو قائم، وإذا كانت النعل ضيقة أو تحتاج لربط سيورها، كما هو موجود في العصر الحديث، فينثنى الرجل، ويصير حينئذ على هيئة قبيحة، وصورة مزرية، والفعل "نهى" يفيد النهي القاطع: لأنه إخبار بصيغة الفعل الماضي ولم يقترن الفعل هنا بلا الناهية، لأنها من الجوازم، والجزم من خصائص الفعل المضارع لأنه من أحوال الإعراب، والفعل الماضي مبني دائماً وجملة "أن ينتعل الرجل" مكونه من أن المصدرية الناصبة والفعل المضارع المنصوب بأن، و"الرجل" فاعل: والجملة يمكن أن تؤول بمصدر وهو الانتعال، ولكنها جاءت في هذه الصورة اللغوية لتوحي بالحركة والعناء والمشقة، ولتوحي كذلك باستمرار هذا الفعل: لأن المضارع يفيد الاستمرار، وكلمة "قائماً" حال حيث توضح حال الرجل المنتعل الذي لا يجلس وقت الانتعال: إذا كان يحتاج إلى ذلك، لضيق النعل، أو لربط وتثبيت السيور.

---

(١) برقم (٤١٣٥).

فالحديث على الرغم من إيجازه، ودلالته الواقعية، وإخباره عن مشهد مألوف فإنه تضمن بعض الظواهر الأسلوبية الموحية البليغة، ومن معاني المصاحبة، للانتعال في اللغة: الرجل الذليل يوطأ كما توطأ الأرض، والرسول ﷺ في نهيه عن الانتعال قائماً يبتعد بالمسلم وهو في هذه الهيئة عن شُبْهة الذلة والضعف والهوان، لأنه يثني ظهره، ويحني قامته، وربما يتعرض للسخرية والاستهزاء من قبل الآخرين.

فقه الحديث

في الحديث من الفقه: كراهة الانتعال قائماً[١]، للأحاديث التي تنهى عن ذلك وسبب النهي عن الانتعال واقفاً، هو أن اللبس قاعداً أسهل، إذ ربما كان ذلك سبباً لانقلابه، وسقوطه على الأرض إذا ما لبس قائماً، فأمر بالقعود لأنه أسهل، وأعون، وأسلم من المفسدة[٢].

وذهب المالكية[٣]، وبعض الحنابلة[٤] إلى القول بعدم الكراهة، وذلك لعدم صحة الأحاديث الواردة بالنهي، وعلى فرض صحتها، فإنها تحمل على من لا يمكنه القيام.

والأصح: حمل الأحاديث التي تنهى عن الانتعال قائماً على ما إذا كان فيه تعب ومشقة، أما إذا لم يكن فيه تعب ولا مشقة فلا بأس من القول بالجواز.

المضامين الدعوية[٥]

---

(١) روضة الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ٦٨/٢، ٦٩، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٩٦/٤، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢٨٥/١ وفيه "وصحح القاضي وغيره الكراهة، واختلف قوله أي الإمام أحمد - في صحة الأخبار".

(٢) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٣٩٦/٤، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٣٨٣/٥.

(٣) الفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم بن مهنا النفراوي المصري ٣١٥/٢، وفيه "ولا بأس من الانتعال لبس النعل حال كونه قائماً". كما يجوز لبسه جالساً. وأيضاً الكافي لابن عبدالبر ٦١٤.

(٤) كشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢٨٥/١ وفيه "ولا يكره الانتعال قائماً".

(٥) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٦٥١).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية الوقائية:

من باب حرص النبي ﷺ على سلامة صحابته الكرام وسائر أمته، فقد أمر بأن لا يمشي في نعل واحدة، يقول ﷺ: «لا يمشي أحدكم في نعل واحدة....»، ويقول: «إذا انقطع ..... فلا يمشي في الأخرى حتى يصلحها»؛ وذلك وقاية للمسلم من أن يلبس نعلاً ويترك الأخرى، فيمشي بواحدة، فيتعثر فيقع أو تزل قدمه فتتكسر، وهذا من المضار التي قد تسبب له نتائج سلبية على صحته، فقد يكسر عظمه على أثر سقوطه، وذلك مما يؤلمه، ويعطله عن حياته كلها.

وتكون التربية الوقائية، باتباع الهدي النبوي في سنن الفطرة والطعام والشراب والنوم واللباس والنكاح والعطاس والتثاؤب، ثم بتعريف المتربين ببعض القواعد الصحية، والنصائح الطبية على ألسنة الأطباء القدامى والحكماء السابقين؛ عساهم أن يتبعوها فيكونوا في مأمن من الإصابة بالعديد من الأمراض إلى ما شاء الله[1].

ثانيًا: التربية الجمالية:

ومما حرص عليه المربي الأول ﷺ، وحث على انتشاره بين المسلمين: الجانب الجمالي، والذي لا يتوقف على جمال المخبر وحده، بل أيضًا جمال المظهر؛ فالمسلم دائمًا عليه أن يحرص على مظهره الخارجي، من النظافة وجمال الثوب، وتصفيف الشعر، والتعطر، بقول ﷺ: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»[2]، ومن مظاهر الحرص على الجانب الجمالي قوله ﷺ: «لا يمشي أحدكم في نعل واحدة ...»، لأن ذلك من شأنه الإساءة إلى مظهر المسلم، وربما أدى إلى ازدراء الآخرين له، وذلك لسوء مشيته وتعثرها، لأن إحدى قدميه ستكون أخفض من الأخرى، فيظهر في مشيته، كأنه أعرج، وذلك مما ينال من هيبته ومكانته أمام الناس.

---

(١) تربية الأولاد في الإسلام، د. أحمد مصطفى متولي، ص٤٥١ بتصرف.

(٢) أخرجه مسلم، ٩١.

بل إن النبي ﷺ أمر من انقطع شسع نعله أن لا ينتعله حتى يخيطه يقول ﷺ: «إِذَا انْقَطَعَ شِسْعُ أَحَدِكُمْ، فَلاَ يَمْشِ فِي الأُخْرَىٰ حَتَّىٰ يُصْلِحَهَا». فليس الأمر مجرد حرص على لبس النعل، ولكن الأمر يتعدى ذلك إلى سلامة هذا النعل وعدم انقطاع شيء من سيوره التي تضمه إلى الرجل، وتوثق ربطه بها.

إن السعيد هو من يتطلع إلى ناحية الجمال في الحياة، إذا أظلمت الحياة، انتظر إشراقة الصباح، وإذا غربت الشمس انتظر شروقها، وإذا غاب القمر، فالنجوم تتلألأ، وحينئذ تخف وطأة الحياة، ويملأ التفاؤل حياة الإنسان[١].

ثالثًا: التربية بالتوجيه المباشر:

استخدم النبي ﷺ في أحاديث هذا الباب طريقة التوجيه المباشر؛ وذلك في قوله: «لا يمشي أحدكم في نعل واحدة...»، وقوله: «إذا انقطع نعل أحدكم...»، موجهًا صحابته الكرام إلى الهدي مباشرة، دون استخدام وسيلة أخرى، وذلك أنه يوجه إلى شيء من ضرورات الحياة الأساسية، وهو الاهتمام بالمظهر الخارجي، ورتق النعل المقطوع قبل لبسه، فالأمر لا يحتاج إلى استخدام وسيلة أخرى غير التوجيه المباشر.

ويرى المربون أن في أسلوب التوجيه.... مجالاً كبيرًا للمعلمين في تنشئة طلابهم على ما فيه خيرهم وصلاحهم وتوجيههم إلى ما فيه رقي مجتمعهم وأمتهم، ومن المفيد أن يبتعد المعلمون في نصحهم وعظاتهم عن أسلوب الأوامر والنواهي، وعليهم استخدام الذكاء واللباقة في النصح والإرشاد؛ حتى لا ينفروا المتعلمين[٢].

❁ ❁ ❁

(١) التربية الإسلامية، محمد أحمد جاد صبح، ص١٠٥.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات وآخرون، ص٨٤.

٣٠٠- باب النهي عن ترك النار في البيت عند النوم

ونحوه سواء كانت في سراج أو غيره

الحديث رقم (١٦٥٤)

١٦٥٤- عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ، قال: ((**لاَ تَتْرُكُوا النَّارَ فِي بُيُوتِكُمْ حِينَ تَنَامُونَ**)). متفق عليه[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

الشرح الأدبي

إن المصطفى ﷺ حريص على أمته، بالمؤمنين رءوف رحيم، وهو يرشد أمته إلى سبل النجاة من الشرور والأخطار في دنياهم وإلى مسالك الطاعة، وسبل الهداية التي تؤدي بهم إلى النجاة من النار في أخراهم، ولم تقتصر هدايته على المواعظ والخطب والوصايا، ولكنه كثيراً ما كان ينصح الناس ويدلهم على اتقاء الأخطار التي قد يتعرضون لها في بيوتهم، وطرقهم، وأعمالهم

ومن هذه الإرشادات العملية هذا الحديث الذي جاء في صيغة النهي، ولم يتوجه رسول الله ﷺ بالنهي إلى فرد واحد وإنما توجه بالنهي إلى جموع الأمة كلها، فقال: "لا تتركوا النار في بيوتكم، حين تنامون".

وجملة "حين تنامون" تقييد للنهي فإطفاء السراج المشتعل وقت النوم من طرق الوقاية والأمان: حتى لا تشتعل النيران في البيت، فتلحق الأذى والضرر بكل ما يحتويه البيت من أثاث، ومتاع، وحيوان، وطير، وأناس.

وإذا اتخذ الإنسان وسائل الأمان، وترك البيت مضيئاً بوسائل أخرى، كما هو حاصل في العصر الحديث، فلا خبر، ولفظ "النار" يحدد بأن المراد، عدم ترك المواقد مشتعلة،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٩٣)، ومسلم (٢٠١٥/١٠٠) ولفظهما سواء.

أو السرج التي لا أمان لها من غطاء زجاجي أو غيره، وفي حديث آخر يقول ﷺ: ((إن هذه النار إنما هي عدو لكم فإذا نمتم فأطفئوها عنكم))[١].

المضامين الدعوية[٢]

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: التحذير من ترك النار أثناء النوم.

ثالثاً: من أهداف الدعوة: الحث على الأخذ بأسباب السلامة والنجاة وحفظ الأنفس والأموال.

رابعاً: من أساليب الدعوة: التوكيد والأمر.

خامساً: من موضوعات الدعوة: أهمية الاستجابة لتوجيهات النبي ﷺ في إطفاء النار أثناء النوم وعدم تركها.

أولاً- من أساليب الدعوة: النهي:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "لا تتركوا النار في بيوتكم حين تنامون".

حيث نهى النبي ﷺ عن ترك النار في البيت وقت النوم.

وأسلوب النهي من الأساليب الدعوية التي يستخدمها الداعية في توجيه المدعوين إلى ترك ما يتنافى مع أحكام وآداب الدين وكذلك ما يكون فيه ضرر للمدعو أو لغيره فينهاه عنه حتى ينتبه إليه ويأخذ حذره وحيطته منه وينتهي عن فعله.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: التحذير من ترك النار أثناء النوم:

يظهر ذلك في حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: "لا تتركوا النار في بيوتكم حين تنامون".

وحديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: احترق بيت بالمدينة على أهله من الليل، فلما حدث رسول الله ﷺ بشأنه قال: "إن هذه النار عدو لكم، فإذا نمتم فأطفئوها".

---

(١) أخرجه البخاري، ٦٢٩٤.

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٦٥٤- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٥٥).

قال النووي: (قوله ﷺ: "لا تتركوا النار في بيوتكم حين تنامون" هذا عام تدخل فيه نار السراج وغيرها، وأما القناديل المعلقة في المساجد وغيرها فإن خيف حريق بسببها دخلت في الأمر بالإطفاء، وإن أمن ذلك كما في الغالب فالظاهر أنه لا بأس بها لانتفاء العلة)(١).

وقال ابن عثيمين: (النهي عن إبقاء النار ونحوها في البيت عند النوم ونحوه، وذلك أن النار كما وصفها النبي ﷺ في هذه الأحاديث عدو للإنسان، فإذا أبقاها الإنسان ونام. فربما تأتي الفويسقة - يعني الفأرة- فتتخسها ثم تشتعل كما هو الشأن فيما سبق، كانت السرج من النار توقد في الزمان الأول، بالودك، والسويت وشبهه، ثم صارت توقد بالجاز وكلها مواد سائلة، فإذا جاءت الفأرة وعبثت بها؛ انصب الذي في السراج وحصل الحريق، ولهذا أمر النبي ﷺ بإطفاء النار عند النوم لئلا يحصل الحريق، ولكن في الوقت الحاضر، ليس يوقد كما كان فيما سبق، فاليوم الكهرباء سالب وموجب، يحصل بها إيقاد اللمبة مثلاً فلو نام الإنسان وفي بيته لمبة موقدة فلا بأس؛ لأن العلة التي من أجلها نهى النبي ﷺ عن إبقاء النار غير موجودة في الكهرباء في الوقت الحاضر. نعم فيه أشياء تشبه ذلك كالدفايات؛ هذه لاشك أنها على خطر، ولا سيما إذا قربها الإنسان من فراشه، فإنه ينقلب أو ربما يمس هذه النار. فلهذا ينهى أن تبقى هذه الدفايات، موقدة إلا في مكان آمن، بعيداً عن الفراش، لئلا يحصل الحريق)(٢).

ثالثاً- من أهداف الدعوة: الحث على الأخذ بأسباب السلامة والنجاة وحفظ الأنفس والأموال:

يستنبط ذلك من عموم الحديثين فقد نهى رسول الله ﷺ عن ترك النار أثناء النوم وأمر بإطفائها وذلك من أجل الأخذ بأسباب السلامة والنجاة وحفظ الأنفس والأموال. قال ابن حجر: (قال ابن دقيق العيد: الأمر بإطفاء المصابيح فن حسن غريب ولو تتبع لحصل منه فوائد.

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١٢٧٩.

(٢) شرح رياض الصالحين ١٧٣٩، ١٧٤٠.

وقال ابن العربي: معنى كون النار عدواً لنا أنها تنافي أبداننا وأموالنا منافاة العدو، وإن كانت لنا بها منفعة، لكن لا يحصل إلا بواسطة، فأطلق أنها عدو لنا لوجود معنى العداوة. وقال القرطبي: الأمر والنهي في هذا الحديث للإرشاد، قال: وقد يكون للندب، وجزم النووي بأنه للإرشاد لكونه لمصلحة دنيوية، وتعقب بأنه قد يفضي إلى مصلحة دينية وهي حفظ النفس المحرم قتلها والمال المحرم تبذيره)[1].

وحفظ الأنفس والأموال من الأهداف الرئيسة في الدعوة إلى الله لأنهما من الضروريات الخمس التي أمرت الشريعة بحفظهم وحرمت عليهم ورتبت على ذلك جزاءات دنيوية وتوعدت بالعذاب الشديد يوم القيامة لمن لم ينله العقاب الدنيوي.

رابعاً- من أساليب الدعوة: التوكيد والأمر:

يظهر أسلوب التوكيد في قوله ﷺ: "إن هذه النار عدو لكم...".

وأسلوب التوكيد من أساليب الدعوة التي يستخدمها الداعية في التأكيد على الحقائق للمدعوين. ويظهر أسلوب الأمر في قوله ﷺ: "... فاطفئوها...".

وأسلوب الأمر من الأساليب التي يستخدمها الداعية في حث المدعوين على الالتزام بما دعا إليه من حقائق وآداب لأنها من تعاليم الدين وإنما يأمرهم بما فيه خيرهم وخير مجتمعهم من ما جاء من تعاليم الإسلام.

خامساً- من موضوعات الدعوة: أهمية الاستجابة لتوجيهات النبي ﷺ في إطفاء النار أثناء النوم وعدم تركها:

ويظهر ذلك في نهيه ﷺ عن ترك النار أثناء النوم في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: "لا تتركوا النار في بيوتكم حين تنامون".

وأمره بإطفائها في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: "إن هذه النار عدو لكم فإذا نمتم، فأطفئوها".

---

(١) انظر: فتح الباري، ابن حجر ١١/٨٨، والمفهم لما اشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٥/٢٨٠.

قال ابن حجر: (قال القرطبي: في هذه الأحاديث أن الواحد إذا بات ببيت ليس فيه غيره وفيه نار فعليه أن يطفئها قبل نومه أو يفعل بها ما يؤمن معه الاحتراق، وكذا إن كان في البيت جماعة فإنه يتعين على بعضهم وأحقهم بذلك آخرهم نوماً، فمن فرط في ذلك كان للسنة مخالفاً ولأدائها تاركاً)[1].

فيتضح من ذلك أهمية الاستجابة لتوجيهات النبي ﷺ في إطفاء النار أثناء النوم وعدم تركها.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ١١/٨٩.

الحديث رقم (١٦٥٥)

١٦٥٥- وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: احْتَرَقَ بَيْتٌ بالمَدِينَةِ عَلَى أهْلِهِ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا حُدِّثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بشَأنِهِم، قالَ: ((إنَّ هذِهِ النَّارَ[١] عَدُوٌّ لَكُمْ، فَإذا نِمْتُمْ، فَأطْفِئُوهَا[٢])) متفق عليه[٣].

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

الشرح الأدبي

هذا الحديث توضيح وتفصيل لما أجمل في الحديث السابق، والأحاديث النبوية بعضها يشرح بعضاً في نصوص كثيرة، فسبب النهي عن ترك النار في البيوت وقت النوم: كشف عنه الموقف والحدث في هذا الحديث الشريف: حيث يبدأ الحديث بتوصيف الحدث المأساوي في قول: أبي موسى الأشعري رضي الله عنه "احترق بيت بالمدينة على أهله من الليل".

وهذه الجملة الإخبارية تشخص الحدث وهو الاحتراق، وتحدد مكان الاحتراق وزمانه فهو بالمدينة، وحدث ليلاً والمحترق بيت ينام فيه أهله، فعناصر الحدث مكتملة، وهي كلها واقعية.

وقوله: "فلما حدث رسول الله بشأنهم" يرشد إلى أن الرسول ﷺ بلغة الخبر من كثيرين وليس من واحد، لأن الفعل مبني للمجهول في قوله: "حُدِّث بشأنهم"، والتركيز على ما حدث من احتراق لأهل المنزل حيث قال: "بشأنهم" ولم يقل بشأنه: فحياة المسلم لابد أن تُتَّخذ كل وسائل الوقاية لحمايتها، وتأتي نصيحة رسول الله ﷺ في أسلوب

---

(١) عندهما زيادة: (إنَّما هي) وهي لا توجد عند الحميدي في جمعه (٣٠٢/١، رقم ٤٤١) فتبعه عليه المؤلف.

(٢) عندهما زيادة: (عنكم).

(٣) أخرجه البخاري (٦٢٩٥)، ومسلم (٢٠١٦/١٠١)، وتقدم برقم (١٦١).

خبري محصَّن بالتوكيد، في سياق التحذير العام لكل المسلمين: فقال: "إن هذه النار عدو لكم".

وبلاغة الرسول ﷺ تتجلى في قوله: "عدو لكم"، حيث شخص النار، وأضفى عليها خصائص البشر وبث فيها الحياة من خلال وصفها بالعداوة، فهي العدو المهلك بسبب آثارها المهلكة القاتلة.

والنار عند العرب في مواضع كثيرة مرتبطة بالأذى والهلاك، ويقول رسول الله ﷺ: "إن شدة الحر من فيح جهنم"(١)، وشدة الحر وقت الهاجرة، تؤذي الإنسان والحيوان، فالناقة يصيبها الهزال، وتحتفر الظباء والثيران، كُنَّساً تتقي فيها لفح الهاجرة، وبعض الحيوانات تنزوي من أذى الرمضاء، كالضباب والجنادب، والحرباء، ولهيب الحر، يكاد يشوي اللحم، وبعض الملابس تكاد تشتعل لشدة لفح الهاجرة.

وهذه العداوة التي جعلها الرسول ﷺ صفة النار ليس مطلقة ولكنها تكون وقت عدم اتخاذ الوقاية من الأذى، وللنار عند العرب أسماء حسب الحاجة والمنفعة، ومنها نار الاستمطار، ونار التحالف، ونار الأهمية للحرب، ونار الحرس، ونار السعالى، ونار الأسد، ونار القرى، ونار السليم، ونار الوسم(٢).

والجملة الأخيرة في الحديث، تضيء الموقف وتوضح أن صفة العداوة ليست مطلقة فقد تكون النار نافعة كما عرفها العرب وحددوا أنواعها، ولكن ذلك يكون في اليقظة: أما عند النوم فهي: العدو المتربص المهلك، ولذلك جاء التحذير من النار في سياق الإخبار عن احتراق البيت، وهذا التحذير صيغ في قالب: الشرط والجواب وأداة الشرط: "إذا"، وهي تدل على التحقق: لأن النوم طبيعة بشرية، وكل الناس ينامون ويستيقظون، ولذلك نفهم سر جمال البيان النبوي وبلاغته، في قوله محذراً ومنبهاً كل المسلمين، بل وكل إنسان على وجه الأرض "فإذا نمتم فأطفئوها".

---

(١) أخرجه البخاري، ٥٣٦، ومسلم، ٦١٥.

(٢) انظر: المنظور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن، د. عودة خليل أبو عودة.

فقه الحديث

في الحديثين من الفقه الأمر بإطفاء النار قبل النوم، وهذا الأمر للإرشاد والاستحباب[١] وليس للوجوب، خلافاً لأهل الظاهر[٢].

وقد ذكر الحديث الثاني العلة في ذلك، وهي أن النار عدو للإنسان، فربما أتت النار على المنزل، وأحرقته.

من المتلزم بإطفاء النار؟ إذا بات الشخص منفرداً في بيت فيه نار فعليه أن يطفئها قبل نومه، أو يفعل بها ما يؤمن معه الاحتراق.

أما إذا كان في البيت جماعة، فإنه يتعين على بعضهم، وأحقهم بذلك آخرهم نوماً، فمن فرط في ذلك كان للسنة مخالفاً، ولأدائها تاركاً[٣].

المضامين الدعوية[٤]

(١) إعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ٢/٣٤١، وشرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني ٤/٣٨٣، وفتح الباري، ابن حجر ١١/٨٦.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١١/٨٧.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١١/٨٦.

(٤) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٦٥٦)

١٦٥٦- وعن جابر رضي الله عنه، عن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، قال: ((غَطُّوا الإنَاءَ، وَأَوْكِئُوا السِّقَاءَ، وَأَغْلِقُوا الأبْوَابَ[١]. وَأَطْفِئُوا السِّرَاجَ، فإنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يَحُلُّ سِقَاءً، وَلاَ يَفْتَحُ بَاباً، وَلاَ يَكْشِفُ إنَاءً. فإنْ لَمْ يَجِدْ أَحَدُكُمْ إلاَّ أنْ يَعْرُضَ عَلَى إنَائِهِ عُوداً، وَيَذْكُرَ اسْمَ اللهِ، فَلْيَفْعَل، فإنَّ الفُوَيْسِقَةَ تُضْرِمُ عَلَى أهْلِ البَيْتِ بَيْتَهُمْ)). رواه مسلم[٢].

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

أوكئوا السقاء: أي: اربطوا السقاء لئلا يدخلها شيء[٣].

السراج: المصباح[٤].

سقاء: كل ما يجعل فيه ما يُسقى[٥].

يعرض على إنائه عوداً: أي: يمد عليه خشبة عرضاً[٦].

الفويسقة: الفأرة[٧].

تضرم: تحرق[٨].

الشرح الأدبي

من جماليات الأداء الأسلوبي في الحديث النبوي الشريف:

---

(١) لفظ مسلم في هذه الرواية: (الباب) بالإفراد، وبلفظ الجمع عنده برقم (٢٠١٢/٩٧).

(٢) برقم (٢٠١٢/٩٦).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (و ك أ).

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (س ر ج).

(٥) المرجع السابق في (س ق ى).

(٦) شرح صحيح مسلم، النووي ١٢٧٧، والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ع ر ض).

(٧) رياض الصالحين ٥٧٠.

(٨) رياض الصالحين ٥٧٠.

هذا الحديث نصائح وإرشادات لكل مسلم؛ حتى يتقي النارَ وإيذاءها، وهو تحذيرات من كل خطر يداهم البيوت بسبب الإهمال في ترك السرج المشتعلة، والمواقد الملتهبة، ويبدأ الحديث بأربع جمل وردت في صيغة الأمر، وكلها مقترنة بواو الجماعة؛ فالأمر موجه إلى جموع الأمة، والجمل متناسقة في بنائها اللغوي؛ فالأفعال في بدايتها أفعال أمر، والفاعل في كل جملة هو واو الجماعة، والمفعول به من متعلقات ومستلزمات البيت، وختام الجمل يتسم بالإيقاع الصوتي، المتمثل في حرف المد المتواجد في كل كلمة، وكذلك السجع الموقع بين الجملة الأولى والثانية، وهذه الظواهر الأسلوبية لجذب الانتباه، وشد الأسماع؛ حتى يتنبه الناس، ويسهل عليهم حفظ هذه الأوامر، وتلك التوجيهات التي تتناغم كلماتها، ويقوى تأثيرها، وهي تَرِدُ على هذا النحو: غطوا الإناء، وأوكئوا السقاء، وأغلقوا الباب وأطفئوا السراج.

وتعليل هذه الأوامر يأتي في أسلوب التوكيد، وكذلك يتَّشِحُ بالبديع الذي يزين الكلام؛ والبديع هنا هو اللف والنشر غير المرتب؛ حيث قال رسول الله ﷺ مؤكداً نجاة المسلم الذي ينفذ الأوامر السابقة، من كل "خطر: "فإن الشيطان لا يحل سقاءً، ولا يفتح بابًا، ولا يكشف إناء"، فالسقاء، والإناء، والباب، وردوا في الجمل السابقة، ولكن ليس على الترتيب؛ حتى لا يكون الأمر تكلفاً، وتعمداً؛ ورسول الله ﷺ لا يتكلف في بيانه ولا أفعاله، وفي إطار أسلوب الشرط والجواب، يضع رسول الله ﷺ للمحتاجين الذين لا يجدون ما يحمون به متعلقاتهم من أعوان الشياطين فيقول: "ضعوا عوداً على كل إناء وسقاية، وسموا الله: فإن اسم الله الرحمن الرحيم، يحصن المسلم من الشرور"، وجملة الشرط والجواب في إطارها: أسلوب القصر لمزيد من بيان الحاجة، والعوز والفقر. والجملة الأخيرة" تعليل لاتخاذ الوقاية اللازمة، وتحذير من أخطار النار وهذا التعليل يأتي في أسلوب التوكيد إمعاناً في التحذير، حيث قال: "فإن الفويسقة تضرم على أهل البيت بيتهم"، واسم الفويسقة وهي "الفأرة" فيه استعارة مأخوذة من الفسق؛ لأنها من المؤذيات الخمس. وفي قوله: "تضرم": مجاز عقلي: حيث أسند الإضرام إلى الفويسقة، من بب الإسناد إلى السبب في الإحراق. والله أعلم.

فقه الحديث

يشتمل هذا الحديث على جمل من أنواع الخير والأدب الجامعة لمصالح الآخرة والدنيا[١]. من هذه الآداب ما يأتي:

١- تغطية الآنية، وربط الأسقية: والأمر بتغطية الإناء، وربط السقاء في الحديث للاستحباب والإرشاد، وقد ذكر العلماء لذلك فوائد منها:

أ- صيانتها من الشيطان، فإن الشيطان لا يكشف غطاء، ولا يحل وكاءً.

ب- صيانتها من الوباء الذي ينزل في ليلة من السنة، كما جاء في رواية مسلم أن رسول الله ﷺ قال: (في السنة ليلة ينزل فيها وباء لا يمر بإناء ليس عليه غطاء، أو سقاء ليس عليه وكاء إلا نزل فيه من ذلك الوباء)[٢].

ج- صيانتها من النجاسات والقاذورات، والحشرات، والهوام، فربما وقع شيء منها فيه، فيشربه وهو غافل، فيصيبه بذلك ضرر[٣].

وتغطية الآنية مطلوب، حتى إن الشخص إذا لم يجد شيئاً يغطي به إناءه، فإنه يضع عليه عوداً، ويذكر الله، كما هو منطوق الحديث[٤].

٢- غلق الأبواب: كما يستحب أن تغلق الأبواب للحديث، ولأن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً، ولما في غلق الأبواب من حراسة للنفس والمال من أهل الفساد[٥].

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١٣/١٨٥.

(٢) أخرجه مسلم ٢٠١٤.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ١٣/١٨٣، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٥/٤٣٣، غاية البيان في شرح زبد ابن رسلان لمحمد بن أحمد الرملي ص ٣٦، وإعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ٢/٣٤١، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١٠/١٤٢.

(٤) شرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني ٤/٣٨١. هذا وقد عمل بعضهم بالسنة في التغطية بعود، فأصبح وأفعى ملتفة على العود ولم تنزل الإناء، ولكن لا يعرض العود على الإناء، إلا مع ذكر الله، فإن السر الدافع هو اسم الله مع صدق النية. انظر: غاية البيان في شرح زبد ابن رسلان الرملي ٣٦.

(٥) شرح صحيح مسلم، النووي ١٣/١٨٥، وإعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ٢/٣٤١.

٣- إطفاء المصابيح والأسرجة: كما يستحب إطفاء المصابيح والأسرجة، وذلك خوفاً من الفويسقة -وهي الفأرة- أن تجر الفتيلة، فتحرق البيت[1].

أما القناديل المعلقة في المساجد، وغيرها -ويدخل فيه أدوات الإضاءة الحديثة- فإن خيف أن يؤدي عدم إطفائها إلى حريق دخلت في الأمر بالإطفاء. وإن أمن ذلك - كما هو الغالب -، فالظاهر أنه لا بأس بتركها لانتفاء العلة التي ذكرها رسول الله ﷺ في الحديث، وإذا انتفت العلة زال المنع لأن النبي ﷺ علل الأمر بالإطفاء في الحديث، بأن الفويسقة تضرم على أهل البيت بيتهم، فإذا انتفت العلة زال المنع[2].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الأمر.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: أهمية الأخذ بأسباب السلامة.

ثالثاً: من آداب الداعية: الخوف على المدعوين وإرشادهم إلى أسباب الأمن والسلامة.

رابعاً: من آداب المدعو: اتباع هدي النبي ﷺ في التماس أسباب النجاة والأمن.

أولاً- من أساليب الدعوة: الأمر:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "غطوا الإناء وأوكئوا السقاء، وأغلقوا الأبواب، وأطفئوا السراج...".

ويظهر من ذلك أمره ﷺ بفعل هذه الأشياء. وأسلوب الأمر من أساليب الدعوة التي يستخدمها الداعية في حث المدعوين إلى الاستجابة لدعوته وأمرهم بما ينفعهم في دنياهم وأُخراهم.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: أهمية الأخذ بأسباب السلامة

ذلك واضح في قوله ﷺ: "غطوا الإناء، وأوكئوا السقاء، وأغلقوا الأبواب، وأطفئوا السراج، فإن الشيطان لا يحل سقاء، ولا يفتح بابا... إلخ الحديث".

---

(١) إعانة الطالبين، عثمان بن محمد الدمياطي ٢٤١/٢، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من احاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٨٦/١.

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم، النووي ١٨٦/١٣، وفتح الباري، ابن حجر ٣٥٦/٦.

قال النووي: (هذا الحديث فيه جمل من أنواع الخير والأدب الجامعة لمصالح الآخرة والدنيا فأمر رسول الله ﷺ بهذه الآداب التي هي سبب للسلامة من إيذاء الشيطان، وجعل الله عز وجل هذه الأسباب أسباباً للسلامة من إيذائه، فلا يقدر على كشف إناء ولا حل سقاء ولا فتح باب ولا إيذاء صبي وغيره إن وجدت هذه الأسباب[١].

وهذا كما جاء في الحديث الصحيح: ((إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء))[٢] أي لا سلطان لنا على المبيت عند هؤلاء. وكذلك إذا قال الرجل عند جماع أهله: ((اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا))[٣] كان سبب سلامة المولود من ضرر الشيطان، وكذلك شبه هذا مما هو مشهور في الأحاديث الصحيحة، وفي هذا الحديث الحث على ذكر الله تعالى في كل المواضع ويلحق بها ما في معناها. قال أصحابنا: يستحب أن يذكر الله تعالى على كل ذي بال، وكذلك يحمد الله تعالى في أول كل أمر ذي بال للحديث الحسن المشهور[٤].

وقال ابن حجر: (قال ابن دقيق العيد: في الأمر بإغلاق الأبواب من المصالح الدينية والدنيوية حراسة الأنفس والأموال من أهل العبث والفساد ولا سيما الشياطين)[٥].

قال ابن القيم: وهذا مما لا تناله علوم الأطباء ومعارفهم، وقد عرفه من عرفه من عقلاء الناس بالتجربة[٦].

ثالثاً- من آداب الداعية: الخوف على المدعوين وإرشادهم إلى أسباب الأمن والسلامة:

يظهر ذلك في قوله ﷺ "غطوا الإناء، وأوكئوا السقاء، وأغلقوا الأبواب، وأطفئوا السراج، فإن الشيطان لا يحل سقاء، ولا يفتح باباً... إلخ" الحديث.

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١٢٧٨.

(٢) أخرجه مسلم ٢٠١٨.

(٣) أخرجه البخاري ١٤١، ومسلم ١٤٣٤.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي، ص ١٢٧٨.

(٥) فتح الباري، ابن حجر ١١/٩٠.

(٦) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ٤/٢٣٢.

ويظهر من ذلك خوفه ﷺ على المدعوين وإرشادهم إلى أسباب الأمن والسلامة وهذا ما ينبغي أن يحرص عليه الداعية ولا أدل على ذلك من هذا المثل الذي ضربه النبي ﷺ لأثر القيام بهذا الواجب الشرعي في حفظ المجتمع وسلامته ونجاته فعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: ((مَثَلُ القائمِ على حُدودِ اللهِ والواقعِ فيها كمَثَلِ قومٍ استَهَموا على سَفينةٍ فأصابَ بعضُهم أعلاها وبعضُهم أسفلَها، فكان الذين في أسفلِها إذا استَقوا مِنَ الماءِ مَرّوا على مَن فَوقَهُم، فقالوا: لو أنّا خَرَقْنا في نَصيبنا خَرقاً ولم نُؤذِ مَن فَوقَنا، فإن يَترُكوهم وما أرادوا هَلَكوا جميعاً، وإن أخَذوا على أيديهم نَجَوا ونجوا جميعاً))[1].

فينبغي على الداعية الخوف على المدعوين وإرشادهم إلى أسباب الأمن والسلامة حتى ينجو وينجو المجتمع.

رابعاً- من آداب المدعو: اتباع هدي النبي ﷺ في التماس أسباب النجاة والأمن:

يستنبط ذلك من عموم الحديث حيث أمر رسول الله ﷺ بهذه الأشياء حتى يحرص الناس على التماس أسباب النجاة والأمن.

قال القرطبي: (وقد تضمنت هذه الأحاديث: أن الله تعالى قد أطلع نبيه ﷺ على ما يكون في هذه الأوقات من المضار من جهة الشياطين، والفأر، والوباء. وقد أرشدنا النبي ﷺ إلى ما يتقى به ذلك فليبادر الإنسان إلى فعل تلك الأمور ذاكراً الله تعالى، ممتثلاً أمر نبيه ﷺ، وشاكراً لله تعالى على ما أرشدنا إليه وأعلمنا به، ولنبيه ﷺ على تبليغه، ونصحه. فمن فعل ذلك لم يصبه من شيء من ذلك ضرر بحول الله وقوته، وبركة امتثال أوامره ﷺ وجازاه عنا أفضل ما جازى نبياً عن أمته، فقد بلغ ونصح)[2].

قال ابن عثيمين: (وكذلك ينبغي للإنسان إذا نام أن يجافي الباب بمعنى يغلقه، وكذلك ينبغي إذا أراد أن ينام أن يغطي الإناء ولو بوضع عود عليه لأن في ذلك حماية له

---

(١) أخرجه البخاري ٢٤٩٣.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٢٨٢/٥.

من الشيطان)[1]. وقد أمر رسول الله ﷺ بالحرص على ما ينفع فقال: ((... احرص على ما ينفعك))[2].

وتغطية الأواني وإغلاق الأبواب وإطفاء السراج أثناء النوم من الأشياء التي تنفع الإنسان وتحفظه من التعرض للأذى وعبث الشيطان فينبغي أن يحرص على فعلها.

---

(١) شرح رياض الصالحين ٢/١٧٤٠.

(٢) أخرجه مسلم ٢٦٦٤.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية الوقائية:

لقد حرص النبي ﷺ: على أمته، فهو الرءوف الرحيم بهم، ولم يتوقف حرصه على أمته على عذاب الآخرة وحده، بل إنه أيضًا كان يحذرهم من ملمات الدنيا ومسبباتها، وفي هذا الباب يستخدم النبي ﷺ التربية الوقائية من خلال تحذيره من مضار النار، يقول ﷺ: «إن هذه النار عدو لكم...» وذلك لأن ترك النار موقدة في البيوت قد يؤدي إلى نشوب الحريق، وفي ذلك هلاك للأهل والمال.

وفي حديث آخر يأمر ﷺ بتغطية آنية الطعام وربط الأسقية وإغلاق الأبواب وإطفاء السراج، تحرزًا من وقوع الضرر، وأعظمه دخول الشيطان لعنه الله، وإيذاؤه للنائمين بالوسوسة وتغليب النوم لتفوت عليه صلاة الصبح، وفي تغطية الآنية والأسقية وقاية من سم الحيات، والحشرات، والكلاب، وغير ذلك مما يفسد الطعام والشراب، وفي إغلاق الباب أمان ووقاية من دخول الكلاب والذئاب واللصوص، وكذلك وقاية من خروج الأطفال ليلاً فلا يؤمن عليهم ذلك، وكذلك في إطفاء السراج أمان من وقوع الحريق، وضمان لنوم هادئ بعيدًا عن الإضاءة.

بل إن الوقاية تصل إلى حد بعيد، فإن لم يجد الإنسان غطاءً لإنائه فليضع عليه عودًا وليسم بسم الله، وذلك ليحفظه الله تعالى من المكروهات، لأن العبرة في الأمر بالأخذ بالسبب والاستعانة بالله تعالى؛ وقد قال ابن القيم: "وهذا مما لا تناله علوم الأطباء ومعارفهم، وقد عرفه من عرفه من عقلاء الناس بالتجربة:، وقال الليث ابن سعد: "وفي عرض العود عليه من الحكمة: أنه لا ينسى تخميره، بل يعتاده حتى بالعود، وفيه: أنه ربما أراد الدبيب أن يسقط فيه فيمر على العود، فيكون العود جسرًا له يمنعه من السقوط... فذكر الله عند تخمير الإناء يطرد عنه الشياطين، وإيكاؤه يطرد عنه الهوام، ولذلك أمر بذكر اسم الله في هذين الموضعين"[1].

---

(١) تربية الأولاد في الإسلام، د. أحمد مصطفى متولي ٥٠٥/٢.

ثانيًا: التربية بالعبرة:

من الأساليب التربوية المؤثرة في نفوس المتربين: التربية بالعبرة؛ وقد استخدم النبي ﷺ هذا الأسلوب عندما احترق بيت في المدينة على أهله من الليل، فبين النبي ﷺ لصحابته الكرام السبب في ذلك، وهو أنهم تركوا النار وناموا فشبت في البيت كله؛ حتى يعتبروا بحالهم، ولا يقعوا فيما وقعوا فيه من إهمال النار وتركها موقدة في الليل، ولاشك أن من رأى هذا الموقف وسمع مقولة النبي ﷺ سوف يعتبر بحال هؤلاء الذين احترق بيتهم، ثم يمسي مهتمًا بقول رسول الله ﷺ وتنفيذ أمره، يقول ﷺ: «إن هذه النار عدو لكم....».

إن المربي الماهر هو الذي يحسن كيف يستثمر الفرصة والحدث لتصحيح السلوكيات الخاطئة، وتقويم المعوج منها وتصويبه، وقد كانت هذه الطريقة من أبلغ وسائل التربية عند جماعة المسلمين الأولى، وأعمقها أثرًا فيها، ففي كل حدث درس، وفي كل درس عبرة لا تنسى[1].

ثالثًا: التربية بالتوجيه المباشر:

وذلك في أمره ﷺ المباشر بقوله: «فإذا نمتم فأطفئوها»، وقوله: «غطوا الإناء، وأوكئو السقا...»، وفي هذا الباب وجه النبي ﷺ أوامره ونواهيه إلى الصحابة، من أجل إتيان ما أمر به والانتهاء عما نهى عنه؛ وذلك لخطورة ما يأمرهم به وينهاهم عنه، فإنه يوجه إلى خطورة النار ووجوب اتقائها من قبل أهل البيت وساكنيه، كما ينهي عن تركها موقدة، ويبين خطورتها، وكذلك في باقي أوامره ﷺ بتغطية الآنية وإغلاق الأبواب، وإطفاء السراج، وكلها استخدم فيها النبي ﷺ أسلوب التوجيه المباشر.

ومن الآثار التربوية التي تترتب على التربية بأسلوب التوجيه: الابتعاد عن المضار والمنكرات والفواحش، وهو هدف أسمى تسعى التربية الإسلامية إلى تحقيقه، وبه

---

(١) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني، ص٢٨٤ بتصرف يسير.

يسمو المجتمع، ويسلك الجميع وفق منهج الله وشرعته، ويتوقف نجاح هذا الأسلوب على تخير وقت التوجيه[1]، مثلما فعل النبي ﷺ عقب احتراق أحد بيوت الأنصار، فوجه الصحابة إلى سبب الحريق، وهو ترك النار موقدة ليلاً.



(١) أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات الخطيب وآخرون، ص٨٤ بتصرف.

٣٠١- باب النهي عن التكلف

وهو فعل وقول ما لا مصلحة فيه بمشقة

قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾[ص: ٨٦].

الحديث رقم (١٦٥٧)

١٦٥٧- وعن عمر رضي الله عنه قال: نُهِينَا عَنِ التَّكَلُّفِ. رواه البخاريُّ[١].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

الشرح الأدبي

هذا الحديث من كلمات ابن عمر رضي الله عنهما، ولكنه يستمد معانيه من كلام رسول الله ﷺ، وصيغة الفعل "نهينا" ترشد إلى ذلك، فقوله: "نهينا" مبني للمفعول، ومقترن بـ"نا" الدالة على الجمع: وهي في موقع النائب عن الفاعل، فالنبي ﷺ موجه إلى الأمة الإسلامية كلها، وهو النهي عن التكلف، فَمَن الذي نهى عن ذلك؟، إنه رسول الله ﷺ اتباعاً لقول الله عز وجل: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[٢].

والسلوك المنهي عنه: هو: التكلف، وهو في اللغة: تَجَشُّمُ الشيء، والمتكلف: المتعرض لما لا يعينه: أي الذي يتكلف الأمور، ويُقْحِم نفسه فيما لا يطلب منه، ويقال: حملت هذا الشيء تكلفة إذا لم تطقه إلا تكلفاً.

والمسلم في منهجه ينأى عن التكلف في الأقوال والأفعال، وفي أداء العبادات، وفي التعامل مع الآخر، ومادة "كلف"، في اللغة، تدل على التغير والتلون، ومنه "الكلف"، وهو حمرة كدرة تعلو الوجه.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٩٣).

(٢) سورة الحشر، آية: ٧ .

وهو بتحريك اللام، الكَلَف، شيء يعلو الوجه كالسمسم، ولون من السواد والحمرة.

والكُلفة بالضم: لون الأكلف، أو حمرة كدرة، وما تكلفته من نائبةٍ أو حق.

ومن مظاهر التكلف المنهي عنها: المبالغة في الأحكام على الأشياء، والمبالغة في التصورات: رفضاً أو قبولاً، وتضخيم الأمور، والتهويل في استقبال أصداء الأحداث، وغير ذلك من هذه المظاهر، ومن مظاهر التكلف في الأقوال التي نهى عنها رسول الله ﷺ: (التنطع في الكلام، وكذلك التمطق، وكذلك التفيهق: وهو الكلام من أقصى الفم)، وقد أبدى رسول الله ﷺ رفضه للتكلف في المنطق، والمبالغة المقوتة في طريقة إخراج الحروف.

فعن أبي ثعلبة الخشنى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن أحبكم إليّ وأقربكم مني في الآخرة محاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم مني في الآخرة مساوئكم أخلاقاً الثرثارون المتفيهقون المتشدقون))[1].

المضامين الدعوية[2]

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحث على ترك التكلف.

ثانياً: من أساليب الدعوة: النداء.

ثالثاً: من آداب الداعية: أن لا يفتى ولا يتكلم إلا فيما يعلم.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الحث على ترك التكلف:

يظهر في قول ابن عمر رضي الله عنهما: نهينا عن التكلف. وكذلك حديث ابن مسعود رضي الله عنه: يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل به ومن لم يعلم ... إلخ"الحديث.

التكلف معناه: تكلف الشيء ومحاولة معرفته وإظهاره بمظهر العالم، وهو ليس كذلك، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾[3]، أي:

---

(١) أخرجه أحمد ١٩٢/٤ رقم ١٧٧٣٢، وقال محققو المسند: حديث حسن لغيره ٢٦٧/٢٩.

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٦٥٧- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٥٨).

(٣) سورة ص، آية: ٨٦.

لا أسألكم على ما جئت به من الوحى أجراً تعطونني إياه، وإنما أدلكم على الخير وأدعوكم إلى الله عز وجل وهكذا الرسل عليهم الصلاة والسلام كلهم يقولون لأصحابهم "قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين"، أى: من الشاقين عليهم، أو القائلين بلا علم، بل إنه ﷺ، كان يقول، ويؤيده الله على قوله بإقراره عليه، ثم حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، قال: "نهينا عن التكلف"، والناهي هو الرسول ﷺ، فإذا قال الصحابي، نهينا فإن هذا له حكم الرفع يعني كأنه قال: نهانا رسول الله ﷺ فعليه يكون هذا الناهي الرسول ﷺ "نهينا عن التكلف"، أن يتكلف الإنسان مالا علم له به ويحاول أن يظهر بمظهر العالم العارف، وليس كذلك[1].

وقال الزمخشري: قوله تعالى: "قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين" أي: المتصنعين الذين يتحلون بما ليسوا أهله، وما عرفتموني قط متصنعاً ولا مدعياً ما ليس عندي، حتى انتحل النبوة وأدّعى القرآن"[2]. قال القاسمي وفي الآية ذم التكلف[3].

وقال ابن عاشور: "وأخذ من قوله "وما أنا من المتكلفين"، أن ما جاء به الدين لا تكلف فيه، أى: لا مشقة في تكاليفه، وهو معنى سماحة الإسلام"[4]. "والمتتبع لرسالة الإسلام الغراء يجدها تمتاز باليسر والبساطة والمعقولية فتمتاز باليسر لأن مبادئها الأساسية ميسرة وميسورة، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[5]، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[6]، وقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[7].

فهذه النصوص تؤكد تأكيداً جازماً سماحة الإسلام في مبادئه، فلا يكلف الإنسان فوق طاقته، ولا يعمل من المسئوليات ما لا يستطيع حمله فوق استعداده وكل

---

(١) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين، ١٧٤٠/٢.

(٢) تفسير الكشاف ٩٣٢.

(٣) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ١٩٢/١٤/٨.

(٤) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور ٣٠٩/٣/٩.

(٥) سورة البقرة، آية: ١٨٥ .

(٦) سورة الحج، آية: ٧٨ .

(٧) سورة البقرة، آية: ٢٨٦ .

تكاليف الإسلام تدخل في حيز الإمكان البشري والطاقة الإنسانية، لكي لا يكون للإنسان عذراً أو حجة في التخلي عن أمر شرعي أو ارتكاب مخالفة إسلامية[1].

ثانياً- من أساليب الدعوة: النداء:

يظهر ذلك في قول عبدالله بن مسعود ﵁: "يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل".

وأسلوب النداء من أساليب الدعوة، التي يستخدمها الداعية في لفت انتباه المدعوين، وإشعارهم بتوجيه الدعوة لهم وحثهم على الامتثال لها.

ثالثاً- من آداب الداعية: أن لا يفتى ولا يتكلم إلا فيما يعلم:

يظهر ذلك في قول عبدالله بن مسعود ﵁: "يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم، فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم...".

فإذا نزلت بالداعية نازلة فإما أن يكون عالماً بالحق فيها أو غالباً على ظنه بحيث استفرغ وسعه في طلبه ومعرفته أو لا، فإن لم يكن عالماً بالحق فيها أو غالب على ظنه لم يحل له أن يفتي أو يتكلم بما لا يعلم، ومتى أقدم على ذلك فقد تعرض لعقوبة الله ودخل تحت قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[2]، فجعل القول عليه بلا علم أعظم المحرمات الأربع التي لا تباح بحال؛ ولهذا حصر التحريم فيها بصيغة الحصر[3].

وقال ﷺ: "من أُفتِي بفتيا غير ثبت فيها فإنما إثمه على الذي أفتاه"[4].

فإذا علم الداعية الحق أفتا به وإن لم يعلم قال: الله أعلم، أو لا أدري. قال ابن عباس ﵄: إذا ترك العالم "لا أدري" أصيبت مقاتله، وكذا قال علي بن حسين.

وقال مالك: كان يقال: إذا أغفل العالم "لا أدري" أصيبت مقاتله، وقال أيضاً كان رسول الله ﷺ إمام المسلمين، يُسأل عن الشيء فلا يجيب حتى يأتيه الوحى من السماء. وقال الشعبي: (لا أدري: نصف العلم)[5].

---

(١) أساليب الدعوة الإسلامية المعاصرة، د. حمدالعمار، ٢٠٥.

(٢) سورة الأعراف، آية: ٣٣ .

(٣) انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة ٨٧٧.

(٤) أخرجه ابن ماجه ٥٣، وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٤٧).

(٥) الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعمر القيام ٦١/٢.

وقال القاسم وابن سيرين: لأن يموت الرجل جاهلاً خير له من أن يقول مالا يعلم.

وقال مالك: عن القاسم بن محمد : إن من إكرام المرء لنفسه أن لا يقول إلا ما أحاط به علمه[١].

قال ابن عثيمين: قال ابن تيمية في كتابه "الفتوى الحموية": كانوا يقولون: "ما أفسد الدنيا والدين إلا أربعة: نصف متكلم، نصف فقيه، نصف نحوي، نصف طبيب".

أما نصف المتكلم: فإنه أفسد الأديان والعقائد، لأن أهل الكلام الذين ينالون من الكلام شيئاً لم يصلوا إلى غايته اغتروا به وأما أهل الكلام الذين وصلوا إلى غايته فقد عرفوا حقيقته ورجعوا إلى الحق.

ونصف فقيه: يفسد البلدان، لأنه يقضي بغير الحق، فيفسد البلدان فيعطي حق هذا لهذا، وهذا لهذا.

ونصف نحوي: لأنه يفسد اللسان، لأنه يظن أنه أدرك قواعد اللغة فيلحن فيفسد اللسان.

ونصف طبيب: فيفسد الأبدان، لأنه لا يعرف، فربما يصف دواء يكون داءً، وربما لا يصف الدواء فيهلك.

فالحاصل: أنه لا يجوز للإنسان أن يفتي إلا إذا جازت له الفتوى. ثم استدل ابن مسعود بقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾[٢]،[٣].

---

(١) المرجع السابق ٢/٦٥.

(٢) سورة ص، آية: ٨٦.

(٣) شرح رياض الصالحين ٢/١٧٤١.

الحديث رقم (١٦٥٨)

١٦٥٨- وعن مسروق، قال: دَخَلْنَا على عبدِ اللهِ بْنِ مَسعُودٍ رضي الله عنه فقال: يا أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ عَلِمَ شَيْئاً فَلْيَقُلْ بِهِ، وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ، فَلْيَقُلْ: اللهُ أعْلَمُ، فَإنَّ مِنَ العِلْمِ أنْ يَقُولَ لِمَا لاَ يَعْلَمُ: اللهُ أعْلَمُ. قالَ اللهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾. رواه البخاريُّ[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

الشرح الأدبي

إن كلمات هذا الحديث الشريف: من كلام عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه لفظاً، ولكن المعنى مستوحًى من كلام رسول الله ﷺ، ومن التعاليم الإلهية في القرآن الكريم: وهو توضيح وتفصيل لكلام ابن عمر رضي الله عنهما في الحديث السابق الذي تَكَوَّن من جملة واحدة.

وهذا الحديث يبدأ بالنداء: وحرف النداء "يا" للمنادي البعيد: لأنه ينادي الناس جميعاً؛ ليحثهم على الاهتمام بما يقول، والإصغاء إليه، وأركان النداء ثلاثة: المنادي: وهو ابن مسعود رضي الله عنه، والمنادى وهم الناس: والمنادى به: وهو المضمون الذي يريد توصيله للناس. وهذا المضمون أفصحت عنه الجملتان التاليتان اللتان صيغتا في قالب: الشرط والجواب، أو الشرط والجزاء: فالأولى تحث على عدم كتم العلم؛ حيث يقول: "من علم شيئاً فليقل به"، أي فليحدث به لإفادة الناس، في غير تكلف ولا مشقة ولا مبالغة ولا تهويل ولا كذب.

والجملة الثانية ترد في الصيغة نفسها: صيغة الشرط والجواب، ولكنها في مضمونها ضد مضمون الأولى، فبينهما تضاد ومقابلة في المعنى المراد، ومن لم يعلم

---

(١) برقم (٤٨٠٩).

فليقل: "الله أعلم"، وتحذر هذه الجملة من الإفتاء بغير علم، والتكلف في ادّعاء الصدق والمعرفة، وتجيء الجملة الأخيرة مؤكدة لمضمون الجملة الشرطية الثانية ومعللة لها تعليلاً يفصح عن المفارقة في التعبير والموقف فكيف يكون عدم العلم علماً؟؟!!، لأنه قال مؤكداً: "فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم"، والمفارقة هنا تضيء الموقف وتكشف عن السبب في جعل الإقرار بعدم العلم بأنه علم، لأنه أوكل الأمر إلى الذي يعلم السر وأخفى: إلى رب العالمين تبارك وتعالى.

وصيغة التفضيل في قوله: "الله أعلم"، تعلن عن ذلك، فليس في هذا الوجود أعلم من الله تعالى بكل ما في الكون من أسرار، وحقائق، وكائنات مرئية، وغير مرئية ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[١].

المضامين الدعوية[٢]

---

(١) سورة الملك، الآية: ٦٧.

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: من سمات المربي: عدم ادعاء العلم:

في حديث هذا الباب يرشد عبدالله بن مسعود رضي الله عنه المعلمين والمربين إلى ما تعلمه من كتاب الله تعالى، إلى عدم ادعاء العلم، ويقول رضي الله عنه: «ومن لم يعلم فليَقُل: اللَّهُ أعلم؛ فإن منَ العلم أن يقول: لا أعلم»، وفي ذلك إشارة إلى احترام العلم، والتحلي بالأمانة العلمية؛ ذلك بأن بعض المربين يستحيون حين يسألون عن سؤال لا يعرفون إجابته أن يقولوا: لا أعلم، حرصًا منهم على مكانتهم بين تلاميذهم، فيضطرون إلى الإفتاء بغير علم، فيقولون في العلم ما ليس منه، ويضلون المتعلمين ويسود بذلك الجهل، ويصد الناس عن مصادر العلم الركيزة.

يقول ابن جماعة: إذا سئل عما لم يعلمه فليقل: لا أعلمه؛ أو لا أدري؛ فمن العلم أن يقول: لا أعلم..... وقيل: ينبغي للعالم أن يورث أصحابه (لا أدري) لكثرة ما يقولها، وقول المسئول (لا أدري) لا يضع من قدره كما يظنه بعض الجهلة، بل يرفعه؛ لأنه دليل عظيم على عظم محله وقوة دينه وتقوى ربه وطهارة قلبه، وكمال معرفته وحسن تثبته[1].

ثانيًا: من مصادر التربية الإسلامية: القرآن الكريم:

لقد استدل عبدالله بن مسعود رضي الله عنه على ما قال من عدم الإفتاء بغير علم، بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾[2]؛ وذلك تأكيدًا على صحة كلامه، وتعضيدًا لما قال، وإشارة إلى مصدر كلامه، وهو القرآن الكريم، ولا يخفى على ذي بصيرة أن القرآن الكريم هو المصدر الأول للتربية الإسلامية، وقد جاءت تعاليمه مجملة أحيانًا ومفصلة أحيانًا أخرى، وما من مرب أو معلم إلا ويلزمه الاعتماد على هذا المصدر التربوي، والمعين القويم الذي لا ينضب.

---

(١) المرشد النفيس، د. محمد صالح علي جان، ص١٤٩ بتصرف يسير.

(٢) سورة ص، الآية: ٨٦.

إن المرجع التشريعي في معرفة ما هو من الاتجاه المرغوب فيه وما ليس من الاتجاه المرغوب فيه هو القرآن الكريم، بوصفه المصدر الرئيس لاستصدار الأحكام واستنباط المعايير التربوية لذلك؛ لأننا نبحث في أنماط السلوك ما يصلح منها ومالا يصلح من وجهة نظر الإسلام، مستمد من القرآن الكريم، ولذا فإن قواعد وأسس التربية الإسلامية وأهدافها وأحكامها بناءً على ذلك مستمدة من القرآن الكريم بصورة رئيسية؛ بوصفه المصدر الأول للتربية الإسلامية"[1].

ثالثًا: التربية بالتوجيه المباشر:

من خلال توجيه عبدالله بن مسعود رضي الله عنه الحديث والنصح إلى الناس، بقوله: «مَنْ عَلِمَ شيئًا، فليقلْ بهِ ....»، وفي ذلك إيضاح لفكرته والمراد من الناس بطريقة بسيطة وقريبة إلى الأفهام، حتى يتسنى للناس فهمه والعمل بما أمر به رضي الله عنه؛ وذلك لبساطة الفكرة وأهميتها، فلابد من توصيلها دون استخدام أسلوب تربوي آخر.

إن هذا الأسلوب الذي سلكه عبدالله بن مسعود في نصحه للناس اقتدى فيه بطريقة النبي صلى الله عليه وسلم في دعوة الناس وإصلاحهم لأنه "يعد أسلوب الأنبياء والرسل عامة، وهو من الأساليب المؤثرة في سلوك الصغار والكبار معًا.... ليسلك الجميع وفق منهج الله وشرعته"[2].



---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. أمين أبو لاوي، ص ٢٨.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات الخطيب وآخرون، ص٨٣، ٨٤ بتصرف.

٣٠٢- باب تحريم النياحة على الميت ولطم الخد وشق الجيب ونتف الشعر وحلقه والدعاء بالويل والثبور

الحديث رقم (١٦٥٩)

١٦٥٩- عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم: ((المَيِّتُ يُعَذَّبُ فِي قَبْرِهِ بِمَا نِيحَ عَلَيْهِ))[1].

وَفِي روايةٍ[2]: ((مَا نِيحَ عَلَيْهِ)). متفق عليه.

ترجمة الراوي:

عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١).

غريب الألفاظ:

نيح عليه: النواح: الصراخ والعويل في البكاء[3].

الشرح الأدبي

إن المسلم في استقباله للمآسي والمصائب يتسم برباطة الجأش، وتسليم الأمر لله، وإسلام الوجه لرب العالمين، واحتساب الأجر عند الله تعالى، والموت من أشد المصائب تأثيراً في الإنسان، والصبر هو الحصن الذي يحتمي به المؤمن من الجزع والفزع والهلع؛ والحديث هنا له منطوق ومفهوم، فمنطوقه يصرح بأن الميت يعذب في قبره بسبب نَوْح أهله عليه، أو يظل يعذب طيلة بكائهم عليه.

والمفهوم الذي يشع به المنطوق أو يوحي به هو، عدم الجزع، وعدم البكاء الشديد المرتبط بالصياح وعبارات الهلع والاعتراض على قضاء الله عز وجل، لأن الموت قضاء الله عز وجل وقدره، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[4].

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٩٢)، ومسلم (٩٢٧/١٧) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٥١٦٩).

(٢) أخرجه مسلم (بعد حديث (٩٢٧/١٧، بدون رقم). أورده المنذري في ترغيبه (٥١٦٩).

(٣) انظر: معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواس قلعة جي ٤٦١.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٣٤ .

قال الشاعر:

المَوْتُ بَينَ الخَلْقِ مُشْتَرَكُ لا سُوقَةٌ يَبقَى وَلا مَلِكُ

والحديث جملة واحدة اسمية: تبدأ بلفظ "الميت"، للتذكير بأن الذي مات يمكن أن يكون عذابه في القبر بسبب جزع أهله عليه، والنواح المرتبط بالصياح، والكلمات التي تخرج الإنسان عن دائرة الإيمان الصحيح ، والفعل "يعذب" مبني للمفعول، لأن المراد هو الإخبار عن العذاب، وليس المراد معرفة من يقوم بالعذاب؛ إذ أن عذاب القبر ثابت في الكتاب وفي صحيح السنة .

وللحديث تأويلات كثيرة وتفسيرات عديدة ذكرها العلماء، وكلها تثبت أن رسول الله ﷺ أوتي جوامع الكلم، وهو من أفصح العرب، والأولى بالمسلم: أن يتسلح بالصبر، وأن يسلم أمره إلى ربه، وأن يدعو للميت بالمغفرة والرضوان، وأن يكون عند استقبال خبر الموت، كما قال الشاعر:

قضاؤك يا إلهي لن يُردَّا وحكمك ما وجدنا منه بُدًّا

وما للناس في الأمر اختيار وما تأتي بشيء منك إدًّا

فنحن ودائع حفظت لحين وذي من شأنها أن تُستردًّا

وإن الموت غاية كل حي وما أحد بها قد نال خلدا

وما دمع العيون يرد رُزءًا ولا جزع القلوب يعيد رفدا

فتلك إرادة الرحمن فينا وما عرفت إرادته مردًّا[1]

فقه الحديث

يشتمل هذا الحديث على مسألة: (تعذيب الميت ببكاء أهله عليه)، إذ يدل الحديث بمنطوقه على تعذيب الميت بالنياحة عليه[2]، وبه قال بعض العلماء[3]، وقد نقل هذا

(١) من قصيدة إرادة الرحمن، د. صابر عبدالدايم، ديوان نبضات قلبية.

(٢) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، محمد بن إسماعيل الصنعاني ١١٦/٢.

(٣) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٢٠٧/٢، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٢١٤/٢.

الرأي عن عمر بن الخطاب،وابنه عبدالله، والمغيرة بن شعبة، وأبي موسى الأشعري وغيرهم[1] رضي الله عن الجميع.

وذهب جمهور الفقهاء[2] إلى القول بأن الميت لا يعذب بالبكاء والنياحة عليه، وذلك عملاً بقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[3]، وهو مروي عن عائشة رضي الله عنها[4].

وقد تأول الجمهور الأحاديث الدالة على تعذيب الميت ببكاء أهله عليه -مع الاعتراف بثبوتها- بأوجه منها:

١- إنه يعذب ببكاء أهله عليه إذا أوصى أن يبكى عليه، وينـاح بعد موته، لأنه سبب هذا النياح، وقد كان ذلك من عادة العرب، كقول طرفة بن العبد:

إذا مت فانعيني بما أنا أهله ... وشقي عليّ الجيب يا ابنة معبد

أما من بكى عليه أهله وناحوا عليه دون وصية منه، فلا يعذب ببكاهم ونوحهم[5].

---

(١) تهذيب سنن أبي داود لابن القيم المطبوع مع عون المعبود ٢٧٨/٨.

(٢) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٢٠٧/٢، وحاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح ٤٠٢، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، محمد بن عبدالرحمن المغربي ٢٤١/٢، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٧٤/٥، ومغني المحتاج ٣٥٦/١، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٢١٤/٢، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٦٣/٢.

(٣) سورة فاطر، آية: ١٨.

(٤) هذا وقد أنكرت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها على عمر بن الخطاب وابنه عبدالله رضي الله عنهما روايتهما لهذا الحديث، ووهمت فيه ابن عمر، والصواب أن إنكار السيدة عائشة لهذه الأحاديث، لا يصح، مع إمكان تأويل هذه الأحاديث، علاوة على ثبوت هذه الأحاديث فقد رواه عدد من الصحابة منهم عمر بن الخطاب وابنه عبدالله، وابنته حفصة، وصهيب والمغيرة بن شعبة. انظر في ذلك: تهذيب سنن أبي داود ٢٧٨/٨، وسبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، محمد بن إسماعيل الصنعاني ١١٦/٢.

(٥) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٧٤/٥، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٢٠٧/٢، والمغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٢١٤/٢، والفروع، ابن مفلح ٢٢٧/٢، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ٥٦٩/٢، وسبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، محمد بن إسماعيل الصنعاني ٢١٦/٢.

٢- إنه يعذب بنوح أهله عليه إذا كان من عادة أهله ذلك، ولم يوص بتركه، لأنه متى ظن وقوع النوح والبكاء، ولم يوص تركه فقد رضي به[(١)].

٣- وقيل: معناه، يعذب بسماع أهله، ويرق لهم، لما روي أن النبي ﷺ زجر امرأة عن البكاء على أبيها، وقال: "إن أحدكم إذا بكى استعبر له صويحبه، فيا عباد الله لا تعذبوا إخوانكم"[(٢)] وهذا التأويل ذهب إليه محمد بن جرير الطبري، وقال القاضي عياض: هو أولى الأقوال[(٣)].

٤- وقيل: إنه خاص بالكافر، وأن المؤمن لا يعذب بذنب غيره[(٤)]، أصلاً.

ولكن هذا التأويل بعيد، لأن الكافر لا يحمل عليه ذنب غيره عملاً بقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[(٥)].

هذا وقد جمع القرطبي بين حديث التعذيب والآية، بأن حال البرزخ يلحق بأحوال الدنيا، وقد جرى التعذيب فيها بسبب ذنب الغير، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾[(٦)].

فلا يعارض حديث التعذيب آية ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ لأن المراد بها الإخبار عن حال الآخرة[(٧)].

وأولى هذه التأويلات بالقبول، هو التأويل الأول، وهو ما عليه الجمهور[(٨)].

---

(١) هذا التأويل اختاره صاحب المحرر من الحنابلة. انظر: الفروع، ابن مفلح ٢/٢٢٧.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٥/ الحديث (١) من حديث قيلة بنت مخرمة.

(٣) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، محمد بن إسماعيل الصنعاني ٢/١١٦.

(٤) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، محمد بن إسماعيل الصنعاني ٢/١١٦، وتهذيب السنن، ابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي ٨/٣٧٨.

(٥) سورة فاطر، آية: ١٨.

(٦) سورة الأنفال، آية: ٢٥.

(٧) سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، محمد بن إسماعيل الصنعاني ٢/١١٦.

(٨) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٥/٢٧٤.

المضامين الدعوية[1]

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار، والترهيب، والشرط.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: التحذير من النياحة على الميت.

أولاً- من أساليب الدعوة: الإخبار، والترهيب، والشرط:

١- الإخبار: حيث جاء في الحديث "الميت يعذب في قبره بما نيح عليه "وأسلوب الإخبار من أساليب الدعوة الهامة حيث تقوم به الحجة على المدعوين في تعريفهم بالمأمورات والمنهيات، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾[2] وأمر الله نبيه بالإخبار والتبليغ فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾[3] قال السعدي: (هذا أمر من الله لرسوله محمد ﷺ بأعظم الأوامر وأجلها، وهو: التبليغ لما أنزل الله إليه. ويدخل في هذا الأمر كل أمر تلقته الأمة عنه ﷺ من العقائد والأعمال والأقوال والأحكام الشرعية والمطالب الإلهية فبلغ ﷺ أكمل تبليغ ودعا وأنذر وبشر ويسر، وعلم الجهال الأميين حتى صاروا من العلماء الربانيين فلم يبق خير إلا دل أمته عليه، ولا شر إلا حذرها عنه. وشهد له بالتبليغ أفاضل الأمة من الصحابة، فمن بعدهم من أئمة الدين ورجال المسلمين)[4].

٢- الترهيب: حيث جاء في الحديث "الميت يعذب في قبره بما نيح عليه" وقوله "فإنه يعذب بما نيح عليه يوم القيامة" وأسلوب الترهيب من أساليب الدعوة التي تخوف وتحذر من الوقوع في المخالفات الشرعية، والمحظورات الدينية (والترهيب هو التخويف للعمل على ترك فعل أو اعتقاد أو تصور ويقوم الترهيب على وعيد بعقوبة، أو حرمان منفعة،

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٦٥٩- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٦٢).

(٢) سورة الحشر، آية: ٧.

(٣) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٢٠١.

إذا لم يلتزم بما أمر به أو نهي عنه. والإنسان مفطور على الميل إلى كل ما يحقق له اللذة، وعازف عن كل ما يسبب له الألم، ولهذا العامل تأثير كبير في تربية الإنسان وتوجيه سلوكه من خلال الترغيب والترهيب)[١].

ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب الترهيب قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ۝ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ﴾[٢] وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾[٣].

٣- الشرط: حيث جاء في الحديث "من نيح عليه فإنه يعذب بما نيح عليه يوم القيامة" وأسلوب الشرط من أساليب الدعوة التي تلفت انتباه المدعو إلى الارتباط بين الشرط وجواب الشرط، مما يدلل على أن الجزاء من جنس العمل ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب الشرط قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[٤].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: التحذير من النياحة على الميت:

يتضح هذا من سياق الحديثين قال النووي: (واختلف العلماء في هذه الأحاديث فتأولها الجمهور على من وصى بأن يبكى عليه ويناح بعد موته فنفذت وصيته فهذا يعذب ببكاء أهله عليه ونوحهم لأنه بسببه ومنسوب إليه قالوا: فأما من بكى عليه أهله وناحوا عليه من غير وصية منه فلا يعذب لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[٥] وقيل الحديث محمول على من أوصى أو لم يوص لأنه أهمل وفرط في ترك

(١) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ٢٩٣.

(٢) سورة الدخان، آية: ٤٣-٤٦.

(٣) سورة النبأ، آية: ٢١، ٢٢.

(٤) سورة الكهف، آية: ١١٠.

(٥) سورة فاطر، آية: ١٨.

الوصية بعدم النياحة وأما من أوصى بعدم النياحة ونيح عليه فلا يعذب إذ لا صنع له ولا تفريط منه والصحيح ما عليه الجمهور)[1].

وقال ابن عثيمين: (هذا البكاء يعذب به الميت في قبره فيكون الإنسان الباكي النائح هو المتسبب لعذابه في قبره فالواجب على الإنسان أن يتصبر ويحتسب الأجر عند الله ويعلم أن عظم الثواب من عظم المصاب وأنه كلما عظمت المصيبة كثر الثواب)[2].

قال المازري: قوله ﷺ: "إنَّ الميِّتَ لَيُعَذَّبُ ببكاءِ أهله عليه" وفي حديث آخر: "بما نيح عليه". قال بعضُهم: الباءُ ها هنا باء الحال. والتقدير: يُعذَّبُ عند بكاء أهله عليه. أي: يحضرُ عذابه عند البكاء. وعلى هذا التأويل تكون قضية في عين[3]. وقيل: محمله على أنَّ الميت وصَّى بأن يُبكى عليه فعُذِّب إذ نفذت وصيتُه، ومن الإيصاء بهذا المعنى قول طرفة:

إذَا مُتُّ فانْعِيني بما أنا أَهلُه ... وشُقِّي عَلَيَّ الجيبَ يا ابنةَ مَعْبدِ

وقيل معنى: "يعذب ببكاء أهله". أي: أنَّ تلك الأفعال التي يعددها أهله مما يعدونها محاسن يعذب عليها من إيتام الوالدان وإخراب العمران على غير وجه يجوز.

وأما عائشة رضي الله عنها، فإنها تأولت ذلك على أنه كان في يهودية وأنه عليه السلام قال: "إنَّكُم لتبكُون عليها وإنَّها لتعذَّبُ في قبرها" وذكر عنها مسلم أيضاً: أنها لما أخبرت بقول عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: "إن الميت ليعذب في قبره ببكاء أهله عليه. قالت: وَهَلَ أبو عبدالرحمن إنما قال عليه السلام: "إنه ليعذب بخطيئته أو بذنبه وإن أهله ليبكون عليه الآن؟ قالت: وهل هو مثل قوله: إنَّ رسول الله ﷺ قام على القليب يوم بدرٍ -وفيه قتلى بدر من المشركين- فقال لهم ما قال: إنهم ليسمعون ما أقولُ وقد وَهَلَ إنما قال: إنهم ليعلمون أن ما كنت أقولُ لهم حق.

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي، ٥٩٨، ٥٩٩.

(٢) شرح رياض الصالحين ١٧٤٢/٢.

(٣) وأجمعوا كلهم على اختلاف مذاهبهم على أن المراد بالبكاء هنا البكاء بصوت نياحة لا مجرد دمع العين. (انظر كلام محققي المعلم بفوائد مسلم ٢٥٢/١).

قال المازري: اغتر بعضُ الناس بحديث القليب، فقال: إن الميت يسمعُ. وهذا غير صحيح عند أهلِ الأصول، لأن الحياة شرط في السمع فلا يسمعُ غير حي. وحمل ذلك بعض الناس على أنهم أعيدت إليهم الحياة حتى يسمعوا تقريعه عليه السلام لهم. وأما قولها: "وَهَلَ" فقال الهروي: يقال: وهل يهلُ. إذا ذهب وهمه إلى الشيء. ومنه قول ابن عمر: وهل أُنسي؟ يريد غلط. فأمَّا: وهلت من كذا أوهل، فمعناه: فزعت منه. وفي الحديث: "فقمنا وهلين". أي: فزعين[1].

وقال القاضي عياض: (وقيل: معناه: إنه يتعذب بسماع بكاء أهله ويرقُ لهم، وقد جاء هذا مفسراً في حديث قَيلة حين بكت عند ذكرها موت أبيها، فزجرها النبي ﷺ ثم قال: "إن أحدكم إذا بكى استعبر له صويحبه. فيا عباد الله، لا تعذبوا إخوانكم"، وإلى هذا نحا الطبري وغيره، وهو أولى ما يقال فيه لتفسير النبي ﷺ في هذا الحديث ما أبهمه في غيره، ويندفع به الاعتراض بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[2]، وذهب داود وطائفة إلى اعتقاد ظاهر الحديث، وأنه إنما يعذب بنوحهم عليه؛ لأنه أهمل نهيهم عنه قبل موته، وتأديبهم بذلك فيعذب بتفريطه في ذلك، وترك ما أمر الله به من قوله: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾[3]، فيندفع عنه الاعتراض بالآية على هذا، لكن في حق من أهمل ذلك وجهله من يخلفه. وحمل العلماء هذا الباب كله أنه في البكاء بالصوت والصراخ والنياحة لا في بكاء العين[4].

قال القرطبي: (قوله ﷺ: "إن الميت ليعذب ببكاء أهله" اختلف في معناه على أقوال: فأنكرته عائشة رضي الله عنها وصرَّحت بتخطئة الناقل أو نسيانه، وحملها على ذلك: أنها لم تسمعه كذلك، وأنه معارض بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[5] وهذا فيه

(١) المعلم بفوائد مسلم ٢٥٢/١، ٢٥٣.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٦٤.

(٣) سورة التحريم، آية: ٦.

(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم المسمى، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٣/٢٧١-٢٧٢.

(٥) سورة الأنعام، آية: ١٦٤.

نظر؛ أمَّا إنكارُها؛ ونسبةُ الخطأ لراويه فبعيدٌ، وغير بين، ولا واضح، وبيانُه من وجهين:

أحدهما: أن الرواة لهذا المعنى كثير؛ عمر، وابن عمر، والمغيرة بن شعبة، وقيلة بنت مخرمة. وهم جازمون بالرِّواية، فلا وجه لتخطئتهم، وإذا أقدم على رد خبر جماعة مثل هؤلاء مع إمكان حمله على محمل الصحيح فلأن يرد خبر راوٍ واحد أولى، فردّ خبرها أولى، على أن الصحيح: ألا يردَّ واحدٌ من تلك الأخبار، وينظر في معانيها.

وثانيهما: أنه لا معارضة بين ما روت هي ولا ما رووا هم، إذ كلُّ واحد منهم أخبر عما سمع وشاهد، وهما واقعتان مختلفتان، وأما استدلالها على رد ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1] فلا حجة فيه، ولا معارضة بين هذه الآية والحديث.

وقد اختلف العلماء فيه: فقيل: مَحْمله على ما إذا كان النوحُ من وصيته وسنته، كما كانت الجاهلية تفعل.

وقد جمع عبدالمطلب بناته عند موته وأمرهنَّ أن ينعينه ويندبنه ففعلن، وأنشدت كل واحدةٍ منهن شعراً تمدحه فيه، فلما فرغن قال آخر ما كلمهن: أحسنتنَّ، هكذا فانعينني، وإلى هذا نحا البخاري. وقيل: معناه: أن تلك الأفعال التي يُبكى بها الميت مما كانوا يفعلونه في الجاهلية: من قتل النفوس، وأخذ الأموال، وإخراب البلاد، وغير ذلك، فأهلُه يمدحونه بها، ويُعدِّدونها عليه، وهو يعذَّب لسببها. وعلى هذا تحمل رواية من رواه: "ببعض بكاء أهله" إذ ليس كل ما يعددونه من خصاله يكون مذموماً، فقد يكون من خصاله كرم، وإعتاق رقاب، وكشف كرب. وقد دل على صحة هذا التأويل حديث عبدالله بن رواحة، حيث أُغمي عليه، فجعلت أخته عمرة تبكي: واجبلاه، واكذا، واكذا، تعدد عليه، فأفاق، وقال لها: ما قلت شيئاً إلا قيل لي: أنت كذلك؟! فلما مات لم تبك عليه[2]. وذهب داود وطائفةٌ إلى اعتقاد ظاهر الحديث: وأنه

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١٦٤.

(٢) أخرجه البخاري ٤٢٦٧.

إنما يعذب بنوحهم؛ لأنه أهمل نهيهم عنه قبل موته وتأديبهم بذلك، فيعذب بتفريطه في ذلك، وبتركُ ماأمر الله تعالى به من قوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾[1] وقيل: معناه: أنه يعذب بسماع بكاء أهله لرقته لهم وشفقته عليهم؛ لما يصيبهم من أجله. وقد دلّ على صحة هذا المعنى حديث قيلة بنت مخرمة العنزية، وبكت على ابنها مات عند رسول الله ﷺ فقال لها، وأنكر عليها: "والذي نفس محمد بيده! إن أحدكم ليبكي فيستغفر له صويحبه، يا عباد الله! لاتعذبوا إخوانكم" ذكره أبو بكر بن أبي شيبة[2]، وهو حديث طويل مشهور، وهذا التأويل حسن جداً، ولعله أولى ما قيل في ذلك، والله أعلم. وسكوتُ ابن عمر عن عائشة حين قالت ما قالت ليس لشكه فيما رواه لا هو ولا أبوه عمر رضي الله عنهما فإنهما قد صرَّحا برفع ذلك إلى النبي ﷺ وإنما كان -والله تعالى أعلم- لأنه ظهر له: أن الحديث قابلٌ للتأويل، ولم يتعين له محمل، أو سكت محترماً لها عن أن يراجعها في ذلك المجلس، وفي ذلك الوقت، وأخَّر ذلك لوقت آخر، مع أنه لم ترهق إليه في ذلك الوقت حاجةٌ يعتدُّ بها، والله تعالى أعلم.

وقولها: "وَهَلَ أبو عبدالرحمن". قال أبو عبيد في "المصنف": قال أبوزيد: وهلت في الشيء، ووهلت عنه، أيهل، وهلا: [نسيت، وغلطت، ووهلت إلى الشيء أهل وهلاً] إذا ذهب وهمك إليه.

والقليب: البئر غير المطوية، وأما إنكار عائشة على ابن عمر سماع أهل القليب فمن قبيل ما تقدَّم، وذلك أنها أنكرت ما رواه الثقة الحافظ لأجل أنها ظنت أن ذلك معارضٌ بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾[4] ولا تعارضُ بينهما لوجهين:

---

(١) سورة التحريم، آية: ٦.

(٢) ذكره ابن حجر في الإصابة ١٧١/٨-١٧٣.

(٣) سورة فاطر، آية: ٢٢.

(٤) سورة النمل، آية: ٨٠.

أحدهما: أن الموتى في الآية إنما يراد بهم الكفار، فكأنهم موتى في قبورهم والسماع يراد به الفهم والإجابة هنا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾[1] وهذا كما سمّاهم صم وبكم وعمي، مع سلامة هذه الحواس منهم.

وثانيهما: أنا لو سلمنا أن الموتى في الآية على حقيقتهم؛ فلا تعارض بينها وبين أن بعض الموتى يسمعون في وقت ما، أو في حال ما، فإن تخصيص العموم ممكن وصحيح إذا وجد المخصص، وقد وُجد هنا، بدليل هذا الحديث، وحديث أبي طلحة الذي قال فيه النبي ﷺ في أهل بدر: ((والذي نفسي بيده! ما أنتم بأسمعَ لما أقولُ منهم))[2]، وبما في معناه. مثل قوله ﷺ في الميت: ((إنه ليسمع قرع النعال))[3]، بالمعلوم من سؤال الملكين للميت في قبره، وجوابه لهما، إلى غير ذلك ما لا يُنكر. فحديث ابن عمر صحيح النقل، وما تضمَّنه يقبله العقلُ، فلا طريق لتخطئته، والله تعالى أعلم. وأيضاً فقد رواه عمر عن النبي ﷺ فقال: ((ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم))[4] ورواية من روى: "إن الميت ليعذب ما نيح عليه" يشهد لما اخترناه في تأويل الحديث المتقدم. و"ما" هنا ظرفية، تقديره: مدة النياحة عليه، وما يُعذَّب بسببه مسكوتٌ عنه هنا، وهو ما تقدم، والله أعلم)[5].

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٣.

(٢) أخرجه البخاري ٣٩٧٦، ومسلم ٢٨٧٥.

(٣) أخرجه أحمد ٢/٣٤٧ رقم ٨٥٦٣ وقال محققو المسند: صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن، ١٤/٢٣٤.

(٤) أخرجه البخاري ١٣٧٤، ومسلم ٩٣٢.

(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٢/٥٨٠-٥٨٦ بتصرف.

الحديث رقم (١٦٦٠)

١٦٦٠- وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: ((لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ)). متفق عليه[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

الجيوب: من القميص ونحوه: ما يدخل منه الرأس عند لبسه[2].

الشرح الأدبي

هذا الحديث مبانيه تفصح عن معانيه، وهذه سمة أسلوبية وأدبية في بلاغة الحديث النبوي، فالحديث في منطوقه: يوضح الآثار الوخيمة لمن يجزع، ويفزع لوفاة من يحبه، ويحرص عليه في الحياة، وفي مفهومه: ينهي عن ظواهر الهلع التي تلقي المسلم خارج دائرة التسليم والانقياد والامتثال، وخارج دائرة خصائص الشخصية المسلمة، ومعالم تقليدها وسلوكها.

والحديث في بنائه اللغوي: يتضمن جملة واحدة، وبعدها جملتان معطوفتان على جزء من الجملة الأولى.

ويبدأ الحديث بصيغة النفي في قوله: "ليس منا من ضرب الخدود"، وأداة النفي هنا ليست حرفاً: ولكنها فعل ناسخ وهو "ليس": فهي تنسخ عمل المبتدأ والخبر؛ حيث ترفع المبتدأ وتنصب الخبر، وهذه الوظيفة النحوية الناسخة ترتبط بالدلالة الفعلية والإيحائية في الحديث: فكأن لهذا النسخ النحوي صدًى وإيحاء بنسخ عمل كل من يُقْدِم على هذه السلوكيات التي نهى الرسول ﷺ عنها، فكل من يقوم بهذه السلوكيات:

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٩٤) واللفظ له، ومسلم (١٠٣/١٦٦). أورده المنذري في ترغيبه (٥١٩٠).

(٢) لسان العرب، ابن منظور في (ج ي ب).

ينسخ الله تعالى عمله، ويحبط مساعيه، وفي قوله: "ليس منا: من ضرب الخدود"، تقديم خبر "ليس" على اسمها، حيث قدم "منا" وهو جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر، والتقدير: ليس كائناً بيننا، وليس من أهل هدينا، وهذا التقديم يرشد إلى أهمية الجماعة المسلمة، وإلى أهمية انتماء المسلم لهذه الأمة: فهي خير أمة أخرجت للناس، و"نا" وهي ضمير الجمع المتصل الدال على الأمة كلها، والمتكلم هو: رسول الله ﷺ؛ لأنه نبي الأمة، وهو حريص عليها، وبالمؤمنين رءوف رحيم، وفي ذلك إيحاء بأن كل مسلم عليه أن يتكلم باسم الأمة كلها، وانطلاقاً من هويتها ومن معالمها، ولا ينطلق من منظور شخصي، أو نزعة فردية والتعبير بالفعل الماضي في قوله: "ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية"، إيحاء بانقطاع هذه السلوكيات وعدم استمرارها: فهي أحداث فيما مضى من الزمن، ولا يجوز تكرارها؛ فالفعل الماضي يدل على حدث وقع في الزمن الماضي، وقيل إن الواو: بمعنى: أو فالقيام بأحد هذه التصرفات الجاهلة يؤدي بالإنسان المسلم إلى الخروج عن الهدي النبوي، والطريق الإسلامي الصحيح.

فقه الحديث

وفي الحديثين من الفقه ما يأتي:

إنه لا يجوز - أي يحرم[1]- شق الثياب، ولطم الخدود، وما أشبه ذلك من الصراخ، وخمش الوجه، وتسويده، ونتف الشعر، وحلقه، لما في ذلك من إظهار الجزع، وعدم الرضا بقضاء الله عز وجل، والسخط من فعله، ولما في الشق من إفساد المال بغير حاجة.

---

(١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٢/٢٠٧، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، محمد بن عبدالرحمن المغربي ٢/٢٤١، والمهذب للشيرازي ١/١٣٩، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٥/٢٧٣، الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين المرداوي ٢/٥٦٩، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢/١٦٣، ومنار السبيل في شرح الدليل، إبراهيم بن محمد ضويان ١/٧٣.

كما يحرم التعداد - أي تعداد المحاسن والمزايا، وإظهار الجزع، لأن ذلك يشبه التظلم من الظالم، وهو عدل من الله تعالى، لأن الله تعالى له أن يتصرف في خلقه بما شاء، لأنهم ملكه[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النفي.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: التحذير من أفعال الجاهلية.

أولاً- من أساليب الدعوة: النفي:

حيث جاء في الحديث "ليس منا من ضرب الخدود" وأسلوب النفي من أساليب الدعوة التي تبين للمدعو أهمية الأمر المنفي. قال المباركفوري: (وقوله: "ليس منا" أي ليس من أهل سنتنا وطريقتنا، وليس المراد به إخراجه عن الدين، ولكن فائدة إيراده بهذا اللفظ المبالغة في الردع عن الوقوع في مثل ذلك كما يقول الرجل لولده عند معاتبته لست منك ولست مني. أي ما أنت على طريقتي. وقيل المعنى: ليس على ديننا الكامل أي أنه خرج من فرع من فروع الدين وإن كان معه أصله)[2]. وقال ابن حجر: (ويظهر لي أن هذا النفي يفسره تبري رسول الله ﷺ ممن يفعل ذلك وأصل البراءة الانفصال من الشيء وكأنه توعده بأن لا يدخله في شفاعته مثلاً، والسبب فيما تضمنه ذلك النفي إنما هو عدم الرضا بالقضاء فإن وقع التصريح بالاستحلال مع العلم بالتحريم أو التسخط مثلاً بما وقع فلا مانع من حمل النفي على الإخراج من الدين)[3].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: التحذير من أفعال الجاهلية:

حيث جاء في الحديث "ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية" قال ابن حجر: (وخص لطم الخدود بذلك لكونه الغالب في ذلك وإلا فضرب

---

(١) كشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٦٣/٢.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٠٧٧/١.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١٩٥/٣.

بقية الوجه داخل في ذلك، و المراد بشق الجيوب أي الثوب وشقه: إكمال فتحه إلى آخره وهو من علامات التسخط، ودعوى الجاهلية هي النياحة ونحوها وكذا الندبة كقولهم: واجبلاه، وكذا الدعاء بالويل والثبور)[١].

وقال ابن علان: (والمراد ليس من أهل هدينا وطريقتنا من جمع هذه الأمور الثلاثة، واجتماعها غير شرط فيما ذكر، بل أحدها مقتضي للخروج عن الهدى والطريق)[٢].

وقال ابن عثيمين: (وهذه الأمور مما يفعله أهل الجاهلية إذا أصابتهم مصيبة شق جيبه، أو جعل يلطم خده، ينتف شعره أو يدعو بدعاء الجاهلية: يا ويلاه يا ثبوراه فتبرأ النبي ﷺ من هؤلاء لأن المؤمن مؤمن القلب بالله، مؤمن بقضاء الله، يعلم أنه لا يمكن أن تتغير الحال عما كان، وأن هذا أمر قضى وانتهى فلا فائدة من السخط والجزع فيجب على المسلم أن يصبر ويحتسب)[٣].

وفي تحذير النبي ﷺ من فِعْل هذه الأمور إنما لينبه المسلم إلى ضرورة مخالفة أهل الجاهلية فيما يفعلونه.

قال ابن تيمية: (وفيه التنبيه على مخالفتنا لأهل الكتاب. ودعوى الجاهلية: ندب الميت، وتكون دعوى الجاهلية في العصبية ومن ذلك ما جاء عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة. وقال: النائحة إذا لم تتب قبل موتها: تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب))[٤].

ذم في الحديث، من دعا بدعوى الجاهلية، وأخبر أن بعض أمر الجاهلية لا يتركه الناس كلهم، ذماً لمن لم يتركه، وهذا كله يقتضي: أن ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم، فهو مذموم في دين الإسلام، وإلا لم يكن في إضافة هذه المنكرات إلى

---

(١) المرجع السابق نفسه، ١٩٥/٣، ١٩٦.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٦٨٢.

(٣) شرح رياض الصالحين ١٧٤٢/٢.

(٤) أخرجه مسلم ٩٣٥.

الجاهلية ذم لها، ومعلوم أن إضافتها إلى الجاهلية خرج مخرج الذم، وهذا كقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾(١)، فإن في ذلك ذماً للتبرج، وذماً لحال الجاهلية الأولى، وذلك يقتضي المنع من مشابهتهم في الجملة.

ومنه: قوله لأبي ذر ﷺ لما عيّر رجلاً بأمه: ((إنك امرؤ فيك جاهلية))(٢) فإنه ذم ذلك لذلك الخلق، ولأخلاق الجاهلية التي لم يجيء بها الإسلام.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٣) فإنه إضافة الحمية إلى الجاهلية: اقتضى ذمها؛ فما كان من أخلاقهم وأفعالهم فهو كذلك.

ومن هذا: ما رواه البخاري في صحيحه، عن عبيد الله بن أبي زيد، أنه سمع ابن عباس قال: "ثلاث خلال من خلال الجاهلية: الطعن في الأنساب والنياحة. ونسيت الثالثة" قال سفيان: "ويقولون إنها الاستسقاء بالأنواء")(٤).

ومما يدل على حرص الرسول ﷺ في مخالفة أفعال الجاهلية والتحذير منها ما جاء عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: ((اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت))(٥) قال ابن تيمية: (فقوله: "هما بهم كفر" أي هاتان الخصلتان هما كفر قائم بالناس، فنفس الخصلتين كفر، حيث كانتا من أعمال الكفار، وهما قائمتان بالناس، لكن ليس كل من قام به شعبة من شعب الكفر يصير كافراً الكفر المطلق، حتى تقوم به حقيقة الكفر، كما أنه ليس كل من قام به شعبة من شعب الإيمان يصير مؤمناً، حتى يقوم به أصل الإيمان، وفرق بين

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٣٣.

(٢) أخرجه البخاري ٣٠، ومسلم ١٦٦١.

(٣) سورة الفتح، آية: ٢٦.

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم، ١/٢٣٥-٢٣٦.

(٥) أخرجه مسلم ٦٧.

الكفر المعرف باللام، كما في قوله ﷺ: ((ليس بين العبد وبين الكفر -أو الشرك- إلا ترك الصلاة))[١]، وبين كفر منكر في الإثبات[٢].

وقال القاضي عياض في شرحه لحديث أبي هريرة رضي الله عنه السابق: (وقوله: "اثنتان في الناس هما كفر: الطعن في الأنساب، والنياحة على الميت" أي من أعمال أهل الكفر وعادتهم وأخلاق الجاهلية، وهما خصلتان مذمومتان محرمتان في الشرع، وقد كان النبي ﷺ يأخذ على النساء في بيعتهن ألا ينحن، وقال: ((ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية))[٣]، وكذلك نهى النبي ﷺ عن السخرية واللمز والنبز والغيبة والقذف، وكل هذا من أعمال الجاهلية، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾[٤]، فعرَّف نعمته بالأنساب للتعارف والتواصل، فمن تسوَّر على قطعها والغمض فيها، فقد كفر نعمة ربه وخالف مراده، وكذلك أمر تعالى بالصبر وأثنى على الصابرين ووعدهم رحمته وصلاته ووصفهم بهدايته، وحتم الموت على عباده، فمن أبدى السخط والكراهة لقضاء ربه وفعل ما نهاه عنه فقد كفر نعمته فيما أعدَّ للصابرين من ثوابه وتشبه بمن كفر من الجاهلية[٥].

ولإعانة المسلم على مخالفة أفعال الجاهلية حث الشرع الحنيف على الصبر، ودعا إليه (فمن خُلِق المؤمن الصبر عند نزول المصائب، ومقابلتها بالرضا والتسليم إذ يقول كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[٦] ويقول: إن لله ما أخذ ولله ما أعطى، والصبر يخفف المصيبة؛ ويحلل صلدها[٧]، ويقتل جرثومتها.

---

(١) أخرجه مسلم ٨٢.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ٢٣٧/١.

(٣) أخرجه البخاري ١٢٩٤، ومسلم ١٠٣.

(٤) سورة الحجرات، آية: ١٣.

(٥) إكمال المعلم بفوائد مسلم المسمى، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٣٢٦/١.

(٦) سورة البقرة، آية: ١٥٦.

(٧) الصلد: الصلب الأملس الشديد.

وأما الجزع والهلع والسخط على ما قضى الله وقدّر، فليس من الإيمان في شيء وليس الذي يقوم به من حزب محمد ﷺ وصحبه.

فالذي ينخلع قلبه للمصيبة ولا يعرف الثبات والشجاعة في ملاقاة الإحن[1] وملاقاة المحن، بل يلطم الخدود، ويسخم[2] الوجوه، ويدق الصدور، ويشق الجيوب، ويمزق الثياب ويقطع الهندام، ويدعو بدعوى الجاهلية فيقول: واأبتاه، واأماه، واولداه، وازوجاه، واقريباه، وامصيبتاه، وادهيتاه، وامالاه، وابيتاه، ويقول كلمات يعترض بها على القدر؛ وينقد قضاءه – من كان كذلك فليس من المسلمين.

إنما المسلم الثابت الرزين الصابر المحتسب: الذي لا يدفعه الحزن إلى التسخط، بل يكون كما قال رسول الله ﷺ: حال وفاة إبراهيم ولده، جعلت عيناه تذرفان الدمع، فقال له عبدالرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله؟ فقال: "يا ابن عوف إنها رحمة"، ثم أتبعها بأخرى، وقال: "إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون"، فليتق الله رجالنا ونساؤنا فيما يصنعون وقت المصائب، وليعلم الأزواج الذين يسمحون لنسائهم بالنياحة والتعديد[3]، ولطم الخدود، ودق الطبول، أنهم شركاؤهن في الإثم، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾[4])[5].

---

(١) الإحن: جمع إحنة: الحقد والضغن.

(٢) يسخم: يسود.

(٣) التعديد: ذكر المناقب الحميدة.

(٤) سورة التحريم، آية: ٦.

(٥) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ٢٥، ٢٦.

الحديث رقم (١٦٦١)

١٦٦١- وَعَنْ أبي بُرْدَةَ، قال: وَجِعَ أبو مُوسَى[١]، فَغُشِيَ عَلَيْهِ، وَرَأسُهُ فِي حِجْرِ امْرَأَةٍ مِنْ أهْلِهِ، (فَأقْبَلَتْ تَصِيحُ بِرَنَّةٍ)[٢] فَلَمْ يَسْتَطِعْ أنْ يَرُدَّ عَلَيْهَا شَيْئاً، فَلَمَّا أفَاقَ قَالَ: أنَا بَرِيءٌ مِمَّنْ بَرِئَ مِنْهُ رسُولُ اللهِ ﷺ إنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ بَرِيءٌ مِنَ الصَّالِقَةِ، والحَالِقَةِ، والشَّاقَّةِ. متفق عليه[٣].

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

غريب الألفاظ:

رنّة: أي: صيحة[٤].

الصالقة: التي ترفع صوتها بالنياحة والندب[٥].

الحالقة: التي تحلق رأسها عند المصيبة[٦].

الشاقة: التي تشق ثوبها [٧].

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث ينبثق من مشهد واقعي يرويه: أبو بردة بن أبي موسى الأشعري، وذلك لإدانة الفزع والجزع عند وقوع المصيبة، ومبدأ الحديث بتصوير مشهد أبي موسى رضي الله عنه وهو مغشي عليه، وسرد ما حدث من امرأته من هلع وعدم امتثال وصبر.

---

(١) عندهما زيادة: (وجعًا)، وهي لا توجد عند المنذري فتبعه عليه المؤلف.

(٢) لفظ مسلم في هذه الرواية: (فصاحت امرأة من أهله)، والمثبت عند مسلم بعد حديث (١٠٤/١٦٧، بدون رقم) تبع المؤلف فيه المنذري في ترغيبه، وهذا لفظه.

(٣) أخرجه البخاري (١٢٩٦) تعليقًا، ومسلم (١٠٤/١٦٧) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٥١٩١).

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ر ن ن).

(٥) رياض الصالحين ٥٧١.

(٦) رياض الصالحين ٥٧١.

(٧) رياض الصالحين ٥٧١.

وقد صور العطفُ بالفاء سرعة توالي أحداث هذا المشهد الواقعي: ولنتأمل هذه الأفعال المتلاحقة "وجع أبو موسى، فغشي عليه، فأقبلت تصيح، فلم يستطع أن يرد، فلما أفاق قال".

إن هذا الإيقاع السريع ينقل لنا وقائع هذا المشهد الحزين في دقة بالغة، وكأننا نشاهد وقائعه أمامنا، والتعبير عن الصياح بقوله: "رنة" يجسد حالة الفزع من خلال حروف هذه الكلمة "رنة"، حيث لم يكتف بقوله "تصيح"، فصوت الراء شاق وعسير: كما قال علماء اللغة: وهو صوت مكرر، وهي من الأصوات المتوسطة من الشدة والرخاوة، وهي من الأصوات الجهرية، ومن صفاتها النطقية: تكرر طرف اللسان للحنك عند النطق بها، وكذلك حرف النون يتسق مع حالة الفزع: فهو صوت أسناني لثوي أنفي مجهور، والنون تشبه الحركة في قوة الوضوح السمعي، ولذلك هناك من يقول: إنها شبه حركة.

فالكلمة بما تضمنته من حرفي النون والراء، وتضعيف حرف النون: تجسد الحزن، وتعلن عن المبالغة فيه، وقوله: "أنا بريء ممن برئ منه رسول الله ﷺ" إعلان عن عدم رضاه عن هذا الهلع، وإقرار بذلك الإنكار، والتبرئ حتى لو كان متعلقا بامرأة من أهله ينام في حجرها.

والتأكيد في بداية الجملة الأخيرة "إن رسول الله بريء من.."، يرشد إلى أهمية هذا الخبر اليقيني الصادق، ويذكره بما ورد في الحديث السابق حيث قال رسول الله ﷺ: "ليس منا من لطم الخدود..."إلخ.

والجناس والسجع في قوله: "الصالقة والحالقة والشاقة"، يعطي إيقاعاً صوتياً مؤثراً: يشد الأذن، ويلفت الانتباه، ويوقظ الغافلين الذين يجرفهم تيار الحزن، ويغرقهم في طوفان المآسي والنكبات.

والصالقة: المرأة التي ترفع صوتها بالنياحة والندب وهي تعدد أوصاف الميت، مأخوذ: من الصلق: وهو الصوت الشديد، والحالقة: التي تحلق رأسها من شدة الحزن، والشاقة: اسم فاعل، وهي التي تشق ثوبها عند المصيبة.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: البراءة من أفعال الجاهلية.

ثالثاً: من آداب المدعو: الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل أبي موسى الأشعري رضي الله عنه:

حيث جاء في الحديث "فلم يستطع أن يرد عليهما شيئاً فلما أفاق قال: "أنا برئ ممن برئ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم" ولاشك أن لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه فضلاً كبيراً فلقد كان رضي الله عنه من أحسن الناس صوتاً بالقرآن قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لَقَدْ أُوتِيَ أَبُو مُوسَى مِزْماراً مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ))[1].

وقال ابن عبدالبر: (قدم أبو موسى مع إخوته في جماعة من الأشعريين ثم أسلم وهاجر إلى أرض الحبشة ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم مخاليف اليمن: زبيد وذواتها إلى الساحل، وولاه عمر رضي الله عنه البصرة في حين عزل المغيرة عنها إلى صدر من خلافة عثمان وسئل علي رضي الله عنه عن موضع أبي موسى من العلم فقال: صبغ في العلم صبغة)[2].

وقال ابن حجر: (وأبو موسى هو عبدالله قيس بن سليم بن حضار بن حرب مشهور باسمه وكنيته معاً، كان رضي الله عنه أحد الحكمين بصفين، وكان خفيف الجسم قصيراً نشطاً وكان عمر إذا رآه قال: ذكرنا ربنا يا أبا موسى وكان أبو موسى هو الذي فقه أهل البصرة وأقرأهم. قال الشعبي: انتهى العلم إلى ستة فذكره فيهم وعن الحسن قال: ما أتاها يعني البصرة راكب خير لأهلها منه يعني من أبي موسى. وقال ابن المدائني قضاة الأمة أربعة: عمر وعلي وأبو موسى وزيد بن ثابت. وقد مات رضي الله عنه سنة اثنتين وأربعين وقيل: أربع وأربعين وهو ابن نيف وستين)[3].

---

(١) أخرجه البخاري ٥٠٤٨، ومسلم ٧٩٣.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٤٣٢، ٤٣٣

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ٨٢٢.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: البراءة من افعال الجاهلية:

حيث جاء في الحديث "إن رسول الله برئ من الصالقة والحالقة والشاقة".

قال النووي: (والصالقة هي التي ترفع صوتها عند المصيبة والحالقة هي التي تحلق شعرها عند المصيبة، والشاقة التي تشق ثوبها عند المصيبة هذا هو المشهور الظاهر المعروف وأما دعوى الجاهلية فقد قال القاضي: هي النياحة والندب والدعاء بالويل وشبهه والمراد بالجاهلية ما كان في الفترة قبل الإسلام قال القاضي عياض: (وقوله: "أنا بريء ممن حلق" أي من فعلهن أو ما يستوجبهن من العقوبة أو من عهدة ما لزمني من بيانه وأصل البراءة الانفصال هذا كلام القاضي، ويجوز أن يراد به ظاهره وهو البراءة من فاعل هذه الأمور)[1].

وقال ابن علان: (ونص على البراءة ممن يفعل هذه الأمور عند المصيبة وذلك لما في فعلها من التبرم من القضاء الإلهي والتضجر منه وذلك سبب لإحباط الثواب وحلول العقاب)[2].

قال القرطبي: ("ودعوى الجاهلية" هنا هي: النياحة وندبة الميت، والدعاء بالويل، والنعي، وإطراء الميت بما لم يكن فيه، كما كانت الجاهلية تفعل، ويحتمل أن يراد بها: نداؤهم عند الهياج والقتال: يا بني فلان! مستنصراً بهم في الظلم والفساد، وقد جاء النهي عنها في حديث آخر وقال: ((دعوها فإنها منتنة))[3] وأمر بالانتماء إلى الإسلام فقال: ((ادعوا بدعوة المسلمين التي سمّاكم الله بها))[4] والأولى أليق بهذا الحديث لأنه قرنه بضرب الخدود وشق الجيوب.

وقوله: "أنا بريء ممن حلق وسلق وخرق" أصل البراءة: الانفصال عن الشيء والبينونة منه، ومنه: البراءة من العيوب والدين، ويُحتمل أن يريد به: أنه متبرِّئٌ من تصويب فعلهم

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١٥٩. وانظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم المسمى، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ١/٣٧٧.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٦٨٣.

(٣) أخرجه البخاري ٤٩٠٧، ومسلم ٢٥٨٤.

(٤) أخرجه الترمذي ٢٨٦٣ وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٢٩٨).

هذا، أو من العهدة اللازمة له في التبليغ. وحلق: أي شعره عند المصيبة، وسلق: أي: رفع صوته بها، ويقال بالسين والصاد، ومنه قوله تعالى: ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾[1]، ومنه قولهم: خطيب سلاق، وقال أبو زيد: السلق: الولولة بصوت شديد. وذكر عن ابن الأعرابي: أنه ضرب الوجه، والأول أصح وأعرف)[2].

وقال د. الحسيني هاشم: (وفي الحديث تنبيه الشرع النساء إلى أفعال الجاهلية، وتبرأة الرسول ﷺ ممن فعلت هذه الأفعال أو فعلها)[3].

والواجب على المسلم أن يبتعد عن الجزع والسخط حتى لا يقع في محظور من أفعال الجاهلية.

قال الماوردي: (ومن أسباب الجزع: تذكر المصاب حتى لا يتناساه، وتصوُّره حتى لا يعزب عنه، ولا يجد من التذكار سلْوة، ولا يخلط مع التصوّر تعزية. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تستفزوا الدموع بالتذكر. وقال الشاعر:

"ولا يبعث الأحزان مثل التذكر".

ومنها: الأسف وشدة الحسرة، فلا يرى من مصابه خلَفًا، ولا يجد لمفقوده بدلا، فيزاد بالأسف ولَهاً، وبالحسرة هَلعاً. ولذلك قال الله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[4]. وقال بعض الشعراء:

إذا بُليتَ فثق بالله وارض به ... إن الذي يكشف البلوى هو اللهُ
إذا قضى الله فاستسلم لقدرته ... ما لامرئ حيلةٌ فيما قضى اللهُ
اليأس يقطع أحياناً بصاحبه ... لا تيأسنَّ فإن الصانع اللهُ

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ١٩.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٣٠١/١، ٣٠٢.

(٣) شرح رياض الصالحين ٧٦٨.

(٤) سورة الحديد، آية: ٢٣.

ومنها: كثرة الشكوى، وبث الجزع، فقد قيل في قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً﴾[1]: إنه الصبر الذي لا شكوى فيه ولا بث. وحكى كعب الأحبار، أنه مكتوب في التوراة: من أصابته مصيبة فشكا إلى الناس، فإنما يشكو ربه. وحُكي أن أعرابية دخلت من البادية، فسمعت صُراخاً في دار، فقالت: ما هذا؟ فقيل لها: مات لهم إنسان. فقالت: ما أراهم إلا من ربهم يستغيثون، وبقضائه يتبرَّمون، وعن ثوابه يرغبون. وقد قيل في منثور الحكم: من ضاق قلبه اتسع لسانه. وأنشد بعض أهل العلم:

لا تُكثر الشكوى إلى الصديق ... وارجع إلى الخالق لا المخلوقِ

لا يخرج الغريقُ بالغريقِ

وقال بعض الشعراء:

لا تشكُ دهرك ما صَحَحْتَ به ... إن الغِنَى هو صحة الجِسْمْ

هبكَ الخليفةَ كنتَ منتفعاً ... بغضارة الدنيا مع السَّقَمِ

ومنها: اليأس من جبر مصابه، ودَرْك طِلابه، فيقترن بحزن الحادثة قنوط الإياس فلا يبقى معهما صبر، ولا يتسع لهما صَدْر. وقد قيل: المصيبة بالصبر أعظم المصيبتين.
وقال ابن الرومي:

اصبري أيتها النفس ... فإن الصبر أحجى

رُبَّما خاب رجاءٌ ... وأتى ما ليسَ يُرْجَى

وأنشدني بعض أهل العلم:

أتحسب أن البؤس للحر دائمٌ ... ولو دام شيء عدّه الناس في العَجَبْ

لقد عَرَّفتك الحادثاتُ ببؤسها ... وقد أَدَّبَتْ إن كان ينفعُك الأدبُ

ولو طلب الإنسان من صرف دهره ... دوامَ الذي يخشى لأعياه ما طلب

---

(١) سورة المعارج، آية: ٥.

ومنها: أن يَغْرَى بملاحظة من حيطت سلامته، وحُرِست نعمته، حتى التحف بالأمن والدعة، واستمتع بالثروة والسَّعة، ويرى أنه قد خُصَّ من بينهم بالرزية، بعد أن كان مساوياً، وأفرد بالحادثة بعد أن كان مكافياً، فلا يستطيع صبراً على بلوى، ولا يلزم شكراً على نُعْمَى، ولو قابل بهذه النظرة ملاحظة من شاركه في الرّزية، وساواه في الحادثة، لتكافأ الأمران، فهان عليه الصبر، وحان منه الفرج. وأنشدت لامرأة من العرب:

أيهـــا الإنـــسان صـــبراً	إن بعـــد العـــسر يـــسراً
كـــم رأينـــا اليـــومَ حُـــرًّا	لم يكـــن بـــالأمس حُـــرًّا
ملـــك الـــصبرَ فأضـــحى	مالكـــاً خـــيراً وشـــرًّا
اشـــرب الـــصبرَ وإن كـــا	ن مـــن الـــصبْر أمَـــرًّا[1]

ثالثاً- من آداب المدعو: الاقتداء بالنبي ﷺ:

حيث جاء في الحديث "فلما أفاق قال: أنا برئ ممن برئ منه رسول الله ﷺ" ولاشك أن هذا يدل على الاقتداء بالنبي في براءته ممن يفعل هذه الأمور، قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[2]

وبين الله تعالى أن في الاقتداء به واتباعه الهداية قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾[3].

(ولا يخفى أبداً أثر القدوة في التأثير فهي الصورة الحية للفكرة والتطبيق العملي للدعوة، والتوضيح الجلي للحجة، ولاشك أنها من أعظم أسباب بذر المحبة في القلوب ووجود القناعة في العقول وكثير من المدعوين ينتفعون بالسيرة، ولاسيما العامة وأرباب العلوم القاصرة فإنهم ينتفعون من السيرة والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة ما لا

---

(١) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ٢٨٦، ٢٨٧.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

(٣) سورة النور، آية: ٥٤.

ينتفعون من الأقوال التي قد لا يفهمونها والقدوة الحسنة مغنية عن كثير من أساليب الترغيب والتشويق وأسباب تحصيل المحبة كما أنها تعفي من الاستكثار من الاستدلال وإقامة الحجة والمناظرة والجدال إذ يتحقق من خلال القدوة الكثير من ذلك بشكل تلقائي وبصورة أعمق)[1].

(١) مقومات الداعية الناجح، د. علي عمر بادحدح، ٣٩-٤٠.

الحديث رقم (١٦٦٢)

١٦٦٢- وعن المغيرة بن شعبة ﷺ قال: سمعتُ رسُولَ اللهِ ﷺ يقولُ: ((مَنْ نِيحَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُعَذَّبُ بِمَا نِيحَ عَلَيهِ يَومَ القِيَامَةِ)). متفق عليه[1].

ترجمة الراوي:

المغيرة بن شعبة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٩٨).

غريب الألفاظ:

نيح عليه: النواح: الصراخ والعويل[2].

الشرح الأدبي

الحديث قصير يشير إلى ضرورة ضبط النفس عند المصيبة، وتقبُّلها بثبات، ورضا دون نياحة أو اعتراض يتسبب في إيذاء الحي بتحصيل الذنب، ويؤذي الميت بتعذيبه بالنياحة عليه وقد جاء هذا المعنى في ثوب الشرط الذي يربط النياحة على الميت بعذابه إشارة إلى التلازم الذي يهيب بأهل الميت أن يتجتنبوا ما يتسبب في عذاب فقيدهم، وقوله (من نيح عليه) من النوح وهو فعل الشرط، الذي يمثل موضع الخطأ، وقوله (فإنه يعذب) الفاء واقعة في جواب الشرط وبناء الفعل للمفعول يجعل العقل يذهب في تخيل المعذِّب كل مذهب من بين ملائكة العذاب، وقوله: (بما نيح) عليه الباء للسببية و ما مصدرية أي بسبب النوح عليه وقيل : أن ما ظرفية وقيل (ما) للمدة أي يعذب مدة النوح عليه، قال الطيبي الباء سببية وما مصدرية أي بسبب النياحة أو موصولة فالباء للآلة أي بما نيح به عليه مثل واجبلاه، وتقييد العذاب بيوم القيامة يزيد الوعيد هولا لشدة العذاب، وانعدام الناصر، والشفيع إلا من استحق الشفاعة.

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٩١)، ومسلم (٩٣٣/٢٨) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٥١٧٠).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن و ح).

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه: مسألة تعذيب الميت بنوح وبكاء أهله عليه، وقد مر بيان حكم هذه المسألة في الحديث رقم ١٦٥٧ فلا حاجة للتكرار.

المضامين الدعوية[١]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٦٥٩).

الحديث رقم (١٦٦٣)

١٦٦٣- وعن أُمِّ عَطِيَّةَ نُسَيْبَةَ - بِضَمِّ النون وفتحها- رضي الله عنها، قالت: أخَذَ علَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عِندَ البَيْعَةِ أنْ لاَ نَنُوحَ. متفق عليه[1].

ترجمة الراوي:

أم عطية الأنصارية: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٧٢٣).

غريب الألفاظ:

أن لا ننوح: أي: ترك النياحة من الصراخ والعويل في البكاء[2].

الشرح الأدبي

هذا الحديث الشريف ترويه: أم عطية رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ بالمعنى: وهو يتسم بالإيجاز الشديد لأنه إشارة إلى بيعة النساء، وتذكير بوصايا رسول الله ﷺ لهن، ومن هذه الوصايا الواجبة: عدم النوْح، ووجوبها يوحي به الفعل "أخذ" لأن أخذ العهد، هو الإلزام به، ويقولون في اللغة: من أخذ أَخْذَهم... أي من سار سيرتهم، وتخلق بخلائقهم، وتقديم الجار والمجرور، في قولها "علينا"، على الفاعل وهو: رسول الله ﷺ ليس للأهمية؛ ولكن للإلزام بالعهد؛ وحتى يكون ضمير المتكلمين الجمع "نا" مجاوراً للفعل "أخذ"، وملاصقا له، و"على" تفيد الاستعلاء، وتوحي بأن العهد بعدم النوح أصبح متمكناً منهم اتباعاً لتوجيهات رسول الله ﷺ وقولها: "عند البيعة" إشارة إلى بيعة النساء، وقد وردت في سورة الممتحنة تفاصيل هذه البيعة، وفي السيرة النبوية شرح لوقائعها وملابساتها، والنوح: هو: البكاء، واستبكاء الغير، وهو العواء من الذئب، حيث يقول العرب: ناح الرجل : أي بكى واستبكى غيره، والتناوح التقابل، ولذلك عُدَّ النواح من الكبائر، لأنه دعوة إلى انتشار الفزع والجزع، وعدم الامتثال والصبر.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٠٦)، ومسلم (٩٣٦/٣١) ولفظهما سواء.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن و ح).

وعلى المسلم أن يتأسى ويتمثل ويصبر، ولنتأمل ما تدعو إليه هذه الأبيات من صبر واحتساب عند استقبال النوائب:

ومـا دمـع العيـون يـرد رُزءًا	ولا جـزع القلـوب يعيـد نـدًا
وإن كـان الإلـه أصـاب قومـاً	وصـدع شملـهم والبيـت هـدًا
ومزقـت الـضلوع وأنَّ طفـل	فـداه القلـب لوقـد كـان يفـدى
وعـاد البيـت أنقاضـاً نـداها	وأهـل البيـت كـل زار لحـدا
وراح القلـب يبكـي فَقْـد طفـل	وحـرق كـل قلـب ذاق بعـدا
فقـد راحـوا إلى جنـات عـدن	وهـم ذهبـوا إلى الـرحمن وفـدا
وهـم شـهداء والـشهداء تحظـى	بـأسمى منـزلٍ يُعْطـى وأنـدى[1]

فقه الحديث

وفي الحديث دليل على تحريم النوح على الميت[2]، وهو رفع الصوت بالندب لما فيه من الجزع، وعدم الرضا بقضاء الله عز وجل، ولقول أبي سعيد الخدري ﵁ "لعن رسول الله ﷺ النائحة والمستمعة"[3].

وهو مذهب كافة العلماء، إلا ما يروى عن بعض المالكية[4] من أن النياحة ليست بحرام واستدلوا على ذلك بما أخرجه مسلم عن أم عطية قالت: لما نزلت هذه الآية: ﴿يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾[5] كان

---

(١) ديوان "الأعمال الكاملة"، شعر د. صابر عبدالدايم، والأبيات من قصيدة قيلت عزاء، لصديق فقد أهله إثر انهيار منزلهم عليهم، ١٩٦٨م.

(٢) كشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٦٣/٢، ومغني المحتاج ٣٥٦/١.

(٣) أخرجه أبو داود ٣١٢٨، والبغوي ١٥٣٦، وضعّفه محققا شرح السنة.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي ٢٤٨/٦/٣.

(٥) سورة الممتحنة، آية: ١٢.

منه النياحة، قالت: فقلت: يا رسول الله، إلا آل فلان، فإنه كانوا أسعدوني في الجاهلية فلابد لي من أن أسعدهم، فقال رسول الله ﷺ: إلا آل فلان[١].

ويجاب على ذلك: بأنه كان قبل مبايعة أم عطية رضي الله عنها على التوحيد وغيره مما ذكر في الآية[٢]، فقد قالت أم عطية: بايعنا رسول الله ﷺ وأخذ علينا فيما أخذ أن لا ننوح، فقالت امرأة من الأنصار: إن آل فلان أسعدوني في الجاهلية، وفيهم مأتم، فلا أبايعك حتى أسعدهم كما أسعدوني، فذهبت فأسعدتهم ثم رجعت، فبايعت النبي ﷺ[٣].

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: البيعة.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: النهي عن النياحة.

أولاً- من وسائل الدعوة: البيعة:

حيث جاء في الحديث "أخذ علينا رسول الله ﷺ عند البيعة" والبيعة وسيلة من وسائل الدعوة. قال ابن الأثير: (والبيعة المعاقدة والمعاهدة على الشيء كأن كل واحد منهما باع ما عنده من صاحبه وأعطاه خالصة نفسه وطاعته ودخيلة أمره)[٤].

وقد نص القرآن الكريم على وجوب الوفاء بالبيعة والمعاهدة فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾[٥] وقال سبحانه: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾[٦] وقال سبحانه: ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[٧]

---

(١) أخرجه مسلم ٩٣٧

(٢) الدين الخالص، محمود خطاب السبكي ٢٤٥/٧.

(٣) أخرجه البخاري ٤٨٩٢.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب ي ع).

(٥) سورة المائدة، آية: ١.

(٦) سورة الإسراء، آية: ٣٤.

(٧) سورة الأنعام، آية: ١٥٢.

ومدح الله الذين يوفون بعهدهم فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾(١) وقال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ ﴾(٢).

(لقد سمى الله تعالى مبايعات الصحابة ﵃ لرسول الله ﷺ عهداً وميثاقاً ومن صور مبايعات الرسول ﷺ لصاحبته بيعة العقبة الأولى والثانية، وبيعة الرضوان، وبيعة الإسلام وغيرها وقد وفّى الصحابة ﵃ بهذه المبايعات التي أعطوها لرسول الله ﷺ)(٣). وقد بين الله سبحانه رضاه عن الصحابة المبايعين تحت الشجرة، قال الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾(٤). ولم تكن البيعة كوسيلة من وسائل الدعوة للرجال فحسب، وإنما للنساء أيضاً قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٥).

ثانياً- من موضوعات الدعوة: النهي عن النياحة:

حيث جاء في الحديث "أخذ علينا رسول الله ﷺ عند البيعة أن لا ننوح" قال النووي: (فيه تحريم النوح وعظيم قبحه والاهتمام بإنكاره والزجر عنه لأنه مهيج للحزن ورافع للصبر، وفيه مخالفة التسليم للقضاء والإذعان لأمر الله تعالى)(٦).

---

(١) سورة الفتح، آية: ١٠.

(٢) سورة الرعد، آية: ٢٠.

(٣) العهد والميثاق في القرآن الكريم، د. ناصر بن سليمان العمر، ١٠٤.

(٤) سورة الفتح، آية: ١٨.

(٥) سورة الممتحنة، آية: ١٢.

(٦) شرح صحيح مسلم، النووي ص ٦٠٢.

قال القاضي عياض: (وفي قول أم عطية "أخذ علينا رسول الله ﷺ في البيعة أن لا نَنوح" دليل على تحريم ذلك وشدته، والمعنى في ذلك لأنه يستجلب الحزن، ويصد عن الصبر الذي أمر الله به، وحض عليه نبيه ﷺ)[١].

وقال القرطبي: (وقول أم عطية: "أخذ علينا رسول الله ﷺ ألا ننوح" دليل على تحريم النياحة، وتشديد المنع فيها، لأنها تستجلب الحزن، وتصد عن الصبر المحمود)[٢].

وقال ابن عثيمين: (وهذا الحديث يدل على تحريم النياحة والندب على الميت، والنياحة هي البكاء برنة حتى يكون كنوح الحمام وأما الندب: فهو أن يذكر محاسن الميت ويتأوه منها ويتوجع وقد برئ رسول الله ﷺ ممن تفعل ذلك)[٣].

وجاء في فقه السنة: (أجمع الفقهاء على أنه يجوز البكاء على الميت، إذا خلا من الصراخ والنوح، ففي الصحيح أن رسول الله ﷺ: بكى لموت ابنه إبراهيم وقال: "إن العين تدمع، والقلب يحزن. ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون)[٤].

وعن أبي موسى قال: لما أصيب عمر جعل صهيب يقول: واأخاه، فقال له عمر: يا صهيب أما علمت أن رسول الله ﷺ قال: ((إن الميت ليعذب ببكاء الحي))[٥] وعن المغيرة بن شعبة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من نيح عليه فإنه يعذب بما نيح عليه))[٦].

ومعنى الحديث، أن الميت يتألم ويسوءه نَوْح أهله عليه، فإنه يسمع بكاءهم وتعرض أعمالهم عليه، وليس معنى الحديث أنه يعذب ويعاقب بسبب بكاء أهله عليه؛ فإنه لا تزر وازرة وزر أخرى.

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم المسمى، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ٣٧٩/٣.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم ٥٨٩/٢.

(٣) شرح رياض الصالحين ١٧٤٥/٢.

(٤) أخرجه البخاري ١٣٠٣، ومسلم ٢٣١٥.

(٥) أخرجه البخاري ١٢٩٠، ومسلم ٩٢٧.

(٦) أخرجه البخاري ١٢٩١، ومسلم ٩٣٣.

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: أغمي على عبدالله بن رواحة، فجعلت أخته عمرة تبكي واجبلاه، واكذا، واكذا، تعدد عليه فقال حين أفاق: ما قلت شيئاً إلا قيل لي: أأنت كذلك[1].

والنياحة مأخوذة من النوح، وهو رفع الصوت بالبكاء. وقد جاءت الأحاديث مصرحة بتحريمها[2].

جاء في الموسوعة الفقهية: (النياحة لغة اسم من النوح، مصدر ناح ينوح نوحاً ونواحاً ونياحاً. وهي: البكاء بصوت عال، كالعويل. والنائحة: الباكية. وأصلُ التناوح: التقابل، ومنه تناوح الجبلين، أي تقابلهما، وإنما سُمّيت النساء النوائح نوائح لأن بعضهن يقابل بعضاً إذا نُحْن. وكان النساء في الجاهلية يقابل بعضهن بعضاً، فيبكين ويندبن الميت، فهذا هو النوح والنياحة. ويطلق على النساء اللواتي يجتمعن في مناحة نوائح ونُوّح ونَوْح وأنواح ونائحات. ونوح الحمامة: ما تبديه من سجعها على شكل النوح. واستناح الرجل كناح: بكى حتى استبكى غيره.

وفي الاصطلاح اختلفت عبارات الفقهاء في تعريف النيَاحة.

فعرفها الحنابلة بأنها: البكاء مع ندب الميت أي تعديد محاسنه. وقيل: هي البكاء مع صوت.

وحاصل كلام علماء المالكية أن النياحة عندهم هي البكاء إذا اجتمع معه أحد أمرين: صراخ أو كلام مكروه.

وعرفها أكثر فقهاء الشافعية وبعض المالكية بأنها: رفع الصوت بالندب ولو من غير بكاء، وقيل: مع البكاء.

وعرفها الحنابلة وبعض الشافعية بأنها رفع الصوت بالندب برنّةٍ أو بكلام مسجع.

وأما البكاء مصدر بكى، يُمد ويقصر، فيقال: بكى بكاءً وبكىً، وهو: خروج الدمع من العين سواء كان مع الصوت أو بدونه، وقيل: هو بالمد إذا كان الصوت

---

(١) أخرجه البخاري ٤٢٦٧.

(٢) فقه السنة، السيد سابق، ١/٥٠٥، ٥٠٦.

أغلب، ويقصر إذا كان الحزن أغلب. وقيل: هو بالقصر خروج الدمع فقط، وبالمد خروج الصوت نحيب، ومع الصياح عويل.

واستعمال الفقهاء للبكاء لا يخرج في معناه عما ذكر.

والصلة بين النياحة والبكاء هي أن البكاء أعم من النياحة عند من قصر معناها على البكاء مع رفع الصوت، أو على البكاء مع رفع الصوت بالندب، حيث تكون النياحة إحدى صور البكاء. وأما من جعل النياحة شاملة لرفع الصوت بالندب: سواء أكان معها بكاء أم لا، فإنها تكون أخص من البكاء من جهة وأعم من جهة أخرى.

وأما الرثاء: فالرثاء: هو الثناء على الميت بذكر صفاته الحميدة نثراً كان أوشعراً، والصلة بين الرثاء والنياحة أن الرثاء يقع على سبيل المدح ولا يكون بلفظ النداء.

وأما النياحة فتكون بتعديد محاسن الميت مع رفع الصوت بالبكاء أو بغير بكاء.

وأما التعزية: فأصل العزاء هو الصبر، وتعزية أهل البيت: تسليتهم وندبهم إلى الصبر، ووعظهم بما يزيل عنهم الحزن، فكل ما يجلب للمصاب صبراً يقال له تعزية.

والصلة بين التعزية والنياحة أن كلاً منهما كلام يقال بمناسبة الموت، ولكن مضمون كل منهما مختلف، وكذلك مقصودهما، قال جمهور العلماء: والأحاديث جاءت في تحريم النياحة مطلقاً، وبيان عظيم قبحها، والاهتمام بإنكارها، لأنها مهيجة للحزن ورافعة للصبر، وفيها مخالفة للتسليم للقضاء والإذعان لأمر الله تعالى، وقد أمر الله تعالى بالصبر، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1]. وهذا يتناول كل ما يطلق عليه اسم النياحة من رفع الصوت بالبكاء أو بتعديد محاسن الميت. ويؤيد ذلك أن بعض الصحابة كانوا ينكرون على النائحة أشد الإنكار، فقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع نواحة بالمدينة ليلاً، فأتى عليها فدخل ففرق النساء، فأدرك النائحة، فجعل يضربها بالدرة فوقع خمارها، فقالوا: شعرها يا أمير المؤمنين، فقال: أجل فلا حرمة لها[2].

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٥٣.

(٢) أثر عمر: "سمع نواحة في المدينة ...." أخرجه عبدالرزاق في المصنف ٣/٥٥٧-٥٥٨.

ذلك هو حكم النياحة عند جمهور الفقهاء، وهو التحريم من حيث الجملة)[١].

ومما يدل على النهي عن النياحة ما جاء عن يحيى بن سعيد قال: أخبرتني عمرةُ قالت: سمعت عائشة رضي الله عنها تقول: لما جاء قتل زيد بن حارثة، وجعفر، وعبدالله بن رواحة، جلس النبي ﷺ يُعرْف فيه الحزن، وأنا أطلع من شق الباب، فأتاه رجل فقال: يا رسول الله، إن نساء جعفر، وذكر بكاءهن، فأمره بأن ينهاهن، فذهب الرجل ثم أتى، فقال" قد نهيتهن، وذكر أنهن لم يطعنه، فأمره الثانية أن ينهاهن، فذهب ثم أتى، فقال: والله لقد غلبتني، أو غلبننا -الشك من محمد بن عبدالله بن حوشب- فزعمت: أن النبي ﷺ قال: فَاحْثُ في أفواههن التراب. فقلت: أرغم الله أنفك، فوالله ما أنت بفاعل، وما تركت رسول الله ﷺ من العناء[٢].

وعن أم عطية رضي الله عنها قالت: أخذ علينا النبي ﷺ عند البيعة أن لا ننوح فما وفت منا امرأة غير خمس نسوة، أم سُليم، وأم العلاء، وابنة أبي سبرة امرأة معاذ، وامرأتان. أو: ابنة أبي سبرة، وامرأة معاذ، وامرأة أخرى[٣].

---

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٤٢/٤٩-٥٣ بتصرف.

(٢) أخرجه البخاري ١٣٠٥، ومسلم ٩٣٥.

(٣) أخرجه البخاري ١٣٠٦، ومسلم ٩٣٦.

الحديث رقم (١٦٦٤)

١٦٦٤- وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، قال: أُغْمِيَ عَلَى عَبدِ اللهِ بْنِ رَوَاحَةَ رضي الله عنه، فَجَعَلَتْ أُخْتُهُ[١] تَبْكِي، وَتَقُولُ: وَاجَبَلاهُ، وَاكَذَا، وَاكَذَا: تُعَدِّدُ عَلَيْهِ. فقالَ حِينَ أفَاقَ: مَا قُلْتِ شَيْئاً إلاَّ قِيلَ لِي أَنْتَ كَذلِكَ؟!. رواه البخاري[٢].

ترجمة الراوي:

النعمان بن بشير: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٦٠).

غريب الألفاظ:

واجبلاه: أسلوب ندبة وهو النداء بـ (وا) أو (يا) مع إلحاق الألف في آخر الاسم لمد الصوت وزيادة الهاء بعده لإرادة بيانه (أي الألف) والغرض من الندبة: إظهار التوجع، والمراد: التوجع مما أصاب عبدالله بن رواحة رضي الله عنه[٣].

تُعدِّد عليه: تذكر مناقبه[٤].

الشرح الأدبي

إن حياة الصحابة الأخيار تعد كلها مشاهد مضيئة بالسلوكيات الإيجابية، والمشاهد الإيمانية التي يجب أن يحذو حذوها المسلمون في كل زمان، وفي كل مكان، فأصحاب رسول الله ﷺ كما أخبر الصادق الأمين كالنجوم في الهداية، بأيهم اقتدينا اهتدينا.

وهذا الحديث يحكي مشهداً واقعياً يسرد تفاصيله النعمان بن بشير الأنصاري رضي الله عنهما، حين شهد خاله عبدالله بن رواحة رضي الله عنه: وهو من شعراء الرسول ﷺ الذين نافحوا عن الإسلام بأشعاره القوية المؤثرة.

---

(١) عند البخاري زيادة: (عمرة)، وهي لا توجد عند المنذري فتبعه عليه المؤلف.

(٢) برقم (٤٢٦٧). أورده المنذري في ترغيبه (٥١٧١).

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١١/١٧٩، وفتح الباري، ابن حجر ٧/٦٥٦، وعمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني ١٨/٧٥ والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ن د ب).

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ع د د).

وتشارك في تصوير هذا المشهد الذي يفيض بالحكمة والموعظة الحسنة، عمرة بنت رواحة، أخت عبدالله بن رواحة، ولنتأمل ملامح هذا المشهد تأملاً إيمانياً وتأملاً أسلوبياً في ضوء يقيننا الثابت، وعقيدتنا الراسخة، فالحديث يبدأ بالفعل المبني للمفعول "أغمى"، ولم يذكر الحديث سبب الإغماء، لأن العبرة بالدرس المستفاد من استقبال الآخرين لهذا الحدث الجلل. والمصاب الأليم وليس المراد معرفة سبب ذلك الإغماء.

وقوله: "فجعلت أخته تبكي": إشارة إلى أنها ظلت تبكي طيلة مدة إغمائه؛ لأن "جعل" من أفعال الشروع فهي قد بدأت البكاء واستمرت وهي تبكي وتنوح: "واجبلاه"، واكذا، واكذا".

وهذه الصيغة من صيغ النداء وتسمى الندبة، والمندوب: هو المنادى المتفجع عليه، أو المتوجع منه، وإنما يتفجع على المندوب لفقده، وفقده قد يكون حقيقة، وقد يكون فقده حكماً[1]، كما جاء في هذا الحديث الشريف: لأن عبدالله بن رواحة رضي الله عنه لم يمت، وإنما هذا الأسلوب يكشف عن تفجع أخته وحزنها لمرضه، ولذلك قال: "تعدُّد عليه"، أي تعدد شمائله على طريق الجاهلية، وفي هذا التعبير إنكار لهذا المسلك من عمرة بنت رواحة رضي الله عنها.

وأسلوب القصر في قوله مخاطباً أخته في صيغة الاستنكار: "ما قلت شيئاً إلا قيل لي: أنت كذلك؟؟" هذا الأسلوب لتأكيد الخبر لأخته: أن كل ما قالته كانت سبباً في عذابه وتقريعه، ومواجهته بهذا السؤال الإنكاري: أنت كذلك، وحذفت همزة الاستفهام اختصاراً ولمزيد من التبكيت واللوم، وفي الحديث إيحاء بلوم عبدالله رضي الله عنه لأخته النائحة تلميحاً لا تصريحاً، حتى تتعظ كل من تنوح، وتكف عن هذا النواح.

فقه الحديث

في الحديث من الفقه تحريم النياحة على الميت، وقد مر بيان ذلك في الحديث رقم ١٦٦١.

---

(١) انظر: شرح قطر الندى، وبل الصدى، لابن هشام، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد.

وفيه أيضاً تعذيب الميت ببكاء أهله عليه، والمراد توبيخ الملائكة بما يندب أهله عليه[١]، كما روي من حديث أبي موسى مرفوعاً "الميت يعذب ببكاء الحي عليه، إذا قالت النائحة: واعضداه، واناصراه، واكاسباه، جبذ الميت، وقيل له: أنت عضدها؟! أنت ناصرها؟! أنت كاسبها؟![٢]، وقد مر بيان ذلك في الحديث رقم ١٦٥٧.

المضامين الدعوية[٣]

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل عبدالله بن رواحة رضي الله عنه.

ثانياً: من مهام الداعية: إخبار المدعوين بالأمور التي ينبغي عدم فعلها.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: الحث على الصبر وعدم الندب والنوح.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل عبدالله بن رواحة رضي الله عنه:

حيث جاء في الحديث "أغمي على عبدالله بن رواحة رضي الله عنه" وأما عن فضله فقد قال ابن عبدالبر: (وعبدالله بن رواحة بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي أحد النقباء، شهد العقبة وبدراً وأحداً والخندق والحديبية وعمرة القضاء والمشاهد كلها إلا الفتح وما بعده؛ لأنه قتل يوم مؤتة شهيداً. وهو أحد الأمراء في غزوة مؤتة وأحد الشعراء المحسنين الذين كانوا يردون الأذى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه وفي صاحبيه حسان بن ثابت وكعب بن مالك نزلت: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[٤] وجاء عن يحيى بن سعيد قال: كان عبدالله بن رواحة أول خارج إلى الغزو وآخر قافل)[٥]. ومما يدل على

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ١٥٥/٣، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ١٥٩/٤-١٦٠.

(٢) أخرجه أحمد ١٩٧١٦/٣٢، والترمذي ١١٠٣، وابن ماجه ١٥٩٤ واللفظ لأحمد. وقال محققو المسند: صحيح لغيره أهـ. وانظر تتمة تخريجه هناك.

(٣) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث - ١٦٦٤ - مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٦٨).

(٤) سورة الشعراء، آية: ٢٢٧.

(٥) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٣٩٦.

فضله ما جاء عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: ((لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ فِي الْيَوْمِ الْحَارِّ الشَّدِيدِ. حتى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَضَعُ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ. وَمَا فِي الْقَوْمِ أَحَدٌ صَائِمٌ إِلاَّ رَسُولُ اللَّهِ. وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ))[1].

وقال ابن الجوزي: (وعبدالله بن رواحة يكنى أبا محمد أحد النقباء الاثني عشر شهد العقبة مع السعبين واستخلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر الموعد، وبعثه سرية في ثلاثين إلى أسير بن رزام اليهودي بخيبر فقتله، وأرسله إلى خيبر خارصاً فلم يزل يخرص عليهم إلى أن قتل بمؤتة وعن عروة بن الزبير قال: لما تجهز الناس وتهيوؤا للخروج إلى مؤتة، قال المسلمون: صبحكم الله ودفع عنكم، فقال عبدالله بن رواحة:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة ... وضربة ذات فرع قذف الزَّبدا

أو طعنة بيدي حران مجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا)[2]

ثانياً- من مهام الداعية: إخبار المدعوين بالأمور التي ينبغي عدم فعلها:

حيث جاء في الحديث "ما من ميت يموت فيقوم باكيهم فيقول: "واجبلاه واسيداه أو نحو ذلك إلا وكل به ملكان يلهزانه أهكذا كنت؟" ولاشك أن من أولى مهام الداعية أن يخبر المدعوين عن الحقائق حتى تقوم عليهم الحجة بالإخبار والعلم بالشيء وقد أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبلغ ويخبر، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ﴾[3] وأمره بالبيان فقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[4].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: الحث على الصبر وعدم الندب والنوح:

يتضح هذا من سياق الحديثين[5] وفي هذا حث على الصبر وعدم الندب والنوح، قال الطيبي: (وقوله "قيل لي كذلك" أي لما قلت "واجبلاه" أي أنت كذا أي جبل كهف

---

(١) أخرجه البخاري ١٩٤٥، ومسلم ١١٢٢.

(٢) صفوة الصفوة ٢١٧/١.

(٣) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٤) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٥) رقم ١٦٦٤، ١٦٦٨.

يلجأون إليك على سبيل الوعيد والتهكم كما في قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾[١])[٢]. وقال المباركفوري: (وقوله "يلهزانه" أي يضربانه ويدفعانه، واللهز الضرب بجميع اليد في الصدر يقال لهزه بالرمح أي طعنه في الصدر وقول "أهكذا كنت" أي توبيخاً وتقريعاً)[٣]. وقد حث الشرع الحنيف على الصبر وعدم الجزع والسخط قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[٤].

قال الماوردي: (اعلم أن من حسن التوفيق، وأمارات السعادة، الصبر على الملمات، والثبات عند النوازل، وبه نزل الكتاب، وجاءت السنة. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٥] يعني اصبروا على ما افترض الله عليكم، وصابروا عدوكم. ورابطوا: فيه تأويلان. أحدهما: على الجهاد. والثاني: على انتظار الصلوات. فنزل الكتاب بتأكيد الصبر، فيما أمر به، وندب إليه، وجعله من عزائم التقوى، فيما افترضه وحث عليه. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الصبر مطية لاتكبو، والقناعة سيف لا ينبو. وقال عبدالحميد: لم أسمع أعجب من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو أن الصبر والشكر بعيران، ما باليت أيهما ركبت: وقال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أفضل العدة الصبر على الشدة. وقال بعض البلغاء: من خير خلالك، الصبر على اختلالك. وقيل في منثور الحكم: من أحب البقاء، فليعد للمصائب قلباً صبوراً. وقال بعض الحكماء: بالصبر على مواقع الكُره، تدرك الحظوظ. وقال عبيد ابن الأبرص:

---

(١) سورة الدخان، آية: ٤٩.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٤٠٦/٣.

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ١٠٧٩/١.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٥٥-١٥٧.

(٥) سورة آل عمران، آية: ٢٠٠.

صَبِّرِ النفسَ عندَ كلِّ مُلِمٍّ إنّ في الصبرِ حيلةَ المُحتالِ
لا تَضيقَنَّ في الأمور فقد تكْشَفُ غَمَّاؤها بغيرِ احتيالِ
رُبّ ما تجزعُ النفوسُ منَ الأمْرِ له فَرْجَةٌ كحلِّ العِقالِ

وقال ابن المقفع في كتاب اليتيمة: الصبرُ صبران، فاللئام أصبر أجساماً، والكرام أصبر نفوساً. وليس الصبر الممدوح صاحبه، أن يكون الرجل قوي الجسد على الكدّ والعمل، لأن هذا من صفات الحمير، ولكن أن يكون للنفس غلوباً، وللأمور متحمّلاً، ولجأشِه عند الحفاظ مرتبطاً.

واعلم أنه من صبر على حادثة، وتماسك في نكبة، إلا كان انكشافها وشيكاً، وكان الفرج منه قريباً.

أخبرني بعض أهل الأدب أن أبا أيوب الكاتب حُبس في السجن خمس عشرة سنة، حتى ضاقت حيلته، وقل صبره، فكتب إلى بعض إخوانه، يشكو له طول حبسه، فردّ عليه جوابَ رقعته بهذا:

صَبْراً أبا أيوب صَبْرَ مُبَرِّحٍ فإذا عجزتَ عن الخطوب فمنْ لها؟
إن الذي عقد الذي انعقدت له عُقَدُ المكاره فيك يَملِكُ حَلَّها
صَبْراً فإن الصبر يعقب راحة ولعلّها أن تنجلي ولعلّها

فأجابه أبو أيوب يقول:

صَبَّرتني ووعظتني وأنا لها وستنجلي بلْ لا أقول لعلّها
ويَحُلُّها من كان صاحبَ عَقْدِها كَرَماً به إذ كان يملكُ حَلَّها

فلم يلبث بعد ذلك في السجن إلا أياماً، حتى أطلق مُكَرَّماً.

وأنشد ابن دُريد عن أبي حاتم:

إذا اشتملت على اليأس القلوبُ وضاق لما به الصدرُ الرحيبُ
وأَوْطَنَتِ المكارهُ واطْمأنَّتْ وأرستْ في مكانتها الخطوبُ

ولم تــرَ لانكــشاف الــضُرّ وجهــاً ولا أغنـــى بحيلتـــه الأريـــبُ
أتـــاك علـــى قنـــوطٍ منـــك غـــوْثٌ يَمُـــنُّ بـــه اللطيـــفُ المـــستجيبُ
وكـــلُّ الحادثـــات إذا تناهـــت فموصـــول بهـــا الفـــرج القريـــبُ[١]

قال ابن مفلح: (فإذا علم العبد أنه وما يملكه لله سبحانه حقيقةً، لأنه أوجده من عَدَم ويعدمه أيضاً ويحفظه في حال وجوده، ولا يتصرف فيه العبد إلا بما يتاح له، وأن مرجعه إلى الله -ولابد- فرداً كما قال تعالى: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾[٢]. وقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[٣].

وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، كما قال عليه السلام، وكما قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[٤].

وأن الله لو شاء جعل مصيبته أعظم مما هي، وأنه إن صبر أخلف الله عليه أعظم من فوات مصيبته، وأن المصيبة لا تختص به فيتأسى بأهل المصائب، ومصيبة بعضها أعظم، وأن سرور الدنيا مع قلته وانقطاعه منغص.

وقد روي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لكل فرحة ترحة، وما ملئ بيت فرحاً إلا ملئ ترحاً.

وقال ابن سيرين: ما كان ضحك قط إلا كان بعده بكاء، وقد شاهد الناس من تغير الدنيا بأهلها في أسرع ما يكون العجائب.

---

(١) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٨٨.

(٢) سورة مريم، آية: ٨٠.

(٣) سورة الأنعام، آية: ٩٤.

(٤) سورة الحديد، آية: ٢٢-٢٣.

وقالت هند بنت النعمان بن المنذر: لقد رأيتنا ونحن من أعز الناس وأشدهم ملكاً، ثم لم تغب الشمس حتى رأيتنا ونحن من أقل الناس، وإنه حق على الله أن لا يملأ داراً حِبرةً إلا ملأها عبرة.

ثم قالت:

فبينا نسوسُ الناسَ والأمرُ أمرنا إذا نحن فيهم سُوقة نَتَنصَّفُ

فأُفٍّ لدنيا لا يدومُ نعيمُها تَقلُّبُ تاراتٍ بنا وتَصَرَّفُ

وعلم العبد أن الجزع لا يرد المصيبة بل هو مرض يزيدها، وأنه يسر عدوه ويسيء محبه، وإن فوات ثوابها بالجزع أعظم منها ومنه بيت الحمد الذي يبني له في الجنة على حمده واسترجاعه.

وفي البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً: ((يقول الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صَفِيَّه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة))(١).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((ما يصيب المسلمَ من وَصَب ولا نَصَب، ولا هم، ولا حزن، ولا أذى، ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله من خطاياه))(٢).

وعلم أن الذي ابتلاه أحكمُ الحاكمين وأرحمُ الراحمين ليمتحنَ صَبْرَهُ ويسمع تَضَرُّعه ويخوفه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَاهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٤).

قال الشيخ عبدالقادر: يا بني، المصيبةُ ما جاءت لتهلك، وإنما جاءت لتمتحنَ صبركَ وإيمانك، يا بني، القدر سَبُعٌ، والسبع لا يأكل الميتة؛ فالمصيبة كير العبد، فإما أن يخرج ذهباً أو خبثاً، كما قيل:

---

(١) أخرجه البخاري ٦٤٢٤، وأحمد ٤١٧/٢.

(٢) أخرجه البخاري ٥٦٤١، ومسلم ٢٥٧٣.

(٣) سورة المؤمنون، آية: ٧٦.

(٤) سورة الزخرف، آية: ٤٨.

سبكناه ونحسبه لجيناً فأبدى الكيرُ عن خبث الحديد

اللجين: الفضة.

وعلم أنه لولا المصائبُ لبطر العبد وبغى وطغى، فيحميه بها من ذلك، ويطهره مما فيه، فسبحان من يرحم ببلائه، ويبتلي بنعمائه كما قيل:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

وعلم أن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة والعكس بالعكس، ولهذا قال ﷺ: ((الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر))[1].

وقال: ((حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات))[2]. ومعلوم أن العاقل من احتمل مرارة ساعة لحلاوة الأبد، وذل ساعة لعز الأبد، هذا من لطف الله به حتى نظر في العواقب والغايات، والناس -إلا من عصم الله- آثروا العاجل لمشاهدته وضعف الإيمان.

وعلم أنه يُحبُّ ربه وأن المحب إن أسخطه فهو كاذب في محبته، ولهذا كان عمران بن حصين رضي الله عنه يقول في مرضه: أحبُه إليَّ أحبه إليه. وكذا أبو العالية، وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: إن الله إذا قضى قضاء أحب أن يرضى به.

فإذا علم العبد هذه الأمور ونظر فيها وتأمَّلها، صبر واحتسب، وحصل له من خير الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله سبحانه. والناسُ في هذا متفاوتون كغيره من الأمور[3].

---

(١) أخرجه مسلم ٢٩٥٦، والترمذي ٢٣٢٤، وابن حبان ٦٨٧.

(٢) أخرجه مسلم ٢٨٢٢، والترمذي ٢٥٥٩، وابن حبان ٧١٦.

(٣) الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعمر القيام ٢/١٧٧-١٨٣ بتصرف.

الحديث رقم (١٦٦٥)

١٦٦٥- وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: اشْتَكَى سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ رضي الله عنه شَكْوَى[1]، فَأَتَاهُ رسُولُ الله ﷺ، يَعُودُهُ مَعَ عَبدِ الرَّحمانِ بْنِ عَوفٍ، وَسَعْدِ بن أبي وقّاصٍ، وعبدِ اللّهِ بن مسعودٍ رضي الله عنهم. فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ، وَجَدَهُ فِي غَشْيَةٍ[2]، فَقالَ: ((اقَضَى[3]؟)) قالوا: لا يا رسول اللّهِ، فَبَكَى رسولُ اللّهِ ﷺ، فَلَمَّا رَأى القَوْمُ بُكَاءَ النَّبيِّ ﷺ بَكَوْا، قال: **((ألاَ تَسْمَعُونَ؟ إنَّ اللهَ لاَ يُعَذِّبُ بِدَمْعِ العَيْنِ، وَلاَ بِحُزْنِ القَلْبِ، وَلكِنْ يُعَذِّبُ بِهذَا))** - وَأشَارَ إلَى لِسَانِهِ- أو يَرْحَمُ)). متفق عليه[4].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

الغشية: الإغماء[5].

أقضي: أمات[6].

الشرح الأدبي

إن عيادة المريض من سمات المسلم في علاقته بالآخرين، اقتداء بالنبي ﷺ، واتباعاً لنهجه القديم، وسنته المباركة.

وفي هذا الحديث نتأمل مشهد الزائرين وهم من الصحابة الأخيار، وفي مقدمتهم النبي المختار ﷺ حيث ذهبوا يعودون سعد بن عبادة رضي الله عنه، في مرضه، والوفد الزائر،

---

(١) عندهما زيادة: (له).

(٢) هذا لفظ مسلم، ولفظ البخاري: (فوجده في غاشية أهله).

(٣) لفظ مسلم: (أقد قضى)، ولفظ البخاري: (قد قضى).

(٤) أخرجه البخاري (١٣٠٤)، ومسلم (٩٢٤/١٢)، وتقدم برقم (٩٢٦).

(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (خ ش ي).

(٦) المرجع السابق في (ق ض ي).

يتكون من رسول الله ﷺ، والذين معه وهم: عبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالله بن مسعود رضي الله عنهم.

وفدٌ يحوط به الإجلال والكمال، والبهاء والجمال، ويدثره نور الهيبة من الكبير المتعال.

ولغة الحديث تفصح عن مكانة الرسول ﷺ، وهو يتصدر هذا الوفد الكريم، حيث قال الراوي: "فلما دخل عليه وجده في غشيه" فقد أفرد الضمير في الفعلين "دخل عليه، ووجده"، مع أنهم دخلوا جميعًا، "ووجدوه جميعًا في غشية" أي: مغمى عليه من المرض، وجاء الضمير مفرداً إظهار لمكانة رسول الله ﷺ وللإخبار بأن الذين معه تابعون له، وأنه: متبوع وليس تابعاً أو فرداً في جماعة.

والعطف بالفاءات في كثير من جمل الحديث يرشد إلى تتابع مشاهد هذا الحدث، وتلهف رسول الله ﷺ إلى معرفة أخبار سعد بن عبادة رضي الله عنه والاطمئنان عليه، ولما أدرك رسول الله ﷺ بعد الحوار المؤثر بينه وبين الصحابة وأهل المريض: أن الأجل قد حان: بكى عظة واعتباراً وحزناً قلبياً على موت هذا الصحابي الجليل، وبكى الصحابة لما رأوا بكاء النبي ﷺ، وفي هذا إشارة إلى أنهم كانوا مدحرجين من البكاء وإظهار الحزن، خوفاً من لوم النبي ﷺ لهم، فالبكاء الذي يخلو من النواح والتفجع والدعاء بدعوى الجاهلية: من فطرة النفس الإنسانية؛ واستقبال الموت يثير في النفس كوامن الأشجان، ويجعلها تتضح بالأحزان، ولكن في ظل الصبر والامتثال، والتوازن والاعتدال، والرضا بما قدره الكبير المتعال، ولذلك جاء قوله "ألا تسمعون"، بمثابة استفتاح وتنبيه إلى أن التعبير عن الحزن جائز في صورة تخلو من الاستغاثة أو الندب، أو الاعتراض، أو التعديد.

ولذلك يختم الحديث بأسلوب التوكيد: حيث يصرح الرسول ﷺ بذلك مؤكداً بأن الله لا يعذب بدمع العين، ولا بحزن القلب، والعذاب يكون بحصائد الألسنة حين يصدر الإنسان كلمات الاعتراض والسخط، وهو في غمرة الأحزان ينسى رحمة الواحد الديان، والإشارة إلى اللسان، وفي هذه الصورة الحسية في قوله: "يعذب بهذا أو يرحم وأشار إلى لسانه"، تحمل كثيراً من الدلالات المتعددة التي يجب أن ينتبه لها كل مسلم:

وليستجب لقول رسول الله ﷺ حين سئل عن أسباب النجاة فقال: "أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك"[١]، ﷺ ، والله أعلم.

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه:

١- جواز الحزن على الميت، والبكاء عليه إذا لم يكن يصحبه نوح، أو شق جيب، أو لطم خد، أو سخط لأمر الله تعالى، كمايجوز البكاء بصوت إذا غلب على الباكي الحزن، ولم يبلغ الحد المنهي عنه، وهذا الحكم متفق عليه بين الفقهاء[٢].

والدليل على ذلك ما روت عائشة رضي الله عنها[٣] أن سعد بن معاذ لما مات حضره رسول الله ﷺ وأبوبكر، وعمر رضي الله عنهما فوالذي نفس محمد بيده إني لأعرف بكاء عمر من بكاء أبي بكر وأنا في حجرتي، وكانوا كما قال الله ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[٤][٥].

ففي تفريقها بين بكاء عمر وأبي بكر، وهي في الحجرة دليل على أنهما كانا يبكيان بصوت لشدة حزنهما على سعد رضي الله عنه ولم يقدرا على كتمه، ولكنه لم يبلغ إلى الحد المنهي، ولذلك لم ينكر عليهما النبي ﷺ[٦].

---

(١) أخرجه الترمذي، ٢٤٠٦، وصححه الألباني، (سلسلة الأحاديث الصحيحة، ٨٨٨).

(٢) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن نجيم ٢٠٧/٢، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، محمد بن عبدالرحمن المغربي ٢٤١/٢، وشرح الزرقاني على الموطأ، محمد بن عبدالباقي الزرقاني ٩٨/٢، والمهذب ١٣٩/١، والمجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٧٣/٥، والروض المربع شرح زاد المستقنع، البهوتي ٣٥٧/١، ومنار السبيل في شرح الدليل، إبراهيم بن محمد ضويان ١٧٣/١، وسبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام، محمد بن إسماعيل الصنعاني ١١٧/٢.

(٣) الفتح الرباني ١٤١/٧.

(٤) سورة الفتح، آية: ٢٩.

(٥) أخرجه أحمد ٢٥٠٩٧/٤٢ مطولاً في غزوة الخندق. وقال محققو المسند: ولمعظمه شواهد يصحّ بها أو يحسن أهـ. وانظر تتمة تخريجه هناك.

(٦) الدين الخالص ٢٤١/٧.

٢- وفي قوله: "ولكن يعذب بهذا" حرمة النياحة، والندب، وغير ذلك من مظاهر الجزع، وعدم الرضا بقضاء الله عز وجل، وقد مر بيان ذلك في الحديث رقم ١٦٦١.

المضامين الدعوية[1]

(١) تقدم شرح هذا الحديث برقم (٩٢٦).

الحديث رقم (١٦٦٦)

١٦٦٦- وعن أبي مالك الأشعري ﵁ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: ((النَّائِحَةُ إذا لَمْ تَتُبْ قَبلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَومَ القِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِربَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

ابو مالك الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٥).

غريب الألفاظ:

النائحة: أي التي تبكي وتنوح من النساء على الميت[2].

السربال: القميص[3].

القطران: دهن يدهن به الجمل الأجرب فيحترق لحدته وحرارته فيشتمل على لذع القطران وحرقته وإسراع النار في الجلد واللون الوحش ونتن الريح جزاء وفاقًا، فخصت بذلك الدرع؛ لأنها كانت تجرح بكلماتها المؤنقة قلب المصاب، وبلون القطران، لكونها كانت تلبس السواد في المآتم[4].

درعٌ من جرب: يصير جلدها أجرب حتى يكون جلدها كقميص على أعضائها، والدرع: قميص النساء[5].

الشرح الأدبي

حين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي والتصوير الأدبي في هذا الحديث الشريف نجده يتكون في بنائه اللغوي من جملة واحدة، تبدأ بقوله ﷺ: "النائحة" وهي مبتدأ، وجاء في صيغة اسم الفاعل، والبداية بهذا اللفظ لأهميته في الحديث: لأنه بؤرة

---

(١) برقم (٢٩/٩٣٤). أورده المنذري في ترغيبه (٥١٨١) بتمامه.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ن و ح).

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبدالرؤوف محمد المناوي ٦/٢٩٣.

(٤) المرجع السابق ٦/٢٩٣.

(٥) المرجع السابق ٦/٢٩٣.

الحديث، ومركز دلالته، ومجيئه في هيئة اسم الفاعل، إيحاء بأن هذه المرأة وكل مَنْ على شاكلتها من النساء تتعمد القيام بالنوْح، وتبالغ فيه، وتبكي وتستبكي غيرها، و"أل" هنا للجنس: أي: كل نائحة تقوم بهذا الفعل.

وخبر المبتدأ هو: جملة الشرط التي تستغرق باقي الحديث الشريف، وأداة الشرط: "إذا"، وهي للتحقق وسر العدول عن غيرها من أدوات الشرط والإتيان بها في هذا السياق: يوحي بتحقيق التوبة.

وفيه كذلك ترغيب من رسول الله ﷺ بالإقدام على التوبة قبل ساعة الاحتضار، وفيه كذلك إنذار بالعقاب الشديد "إذا لم تتب قبل موتها"، وهذه الجملة هي: فعل الشرط، وفيها إيجاز بالحذف في قوله: "قبل موتها"، والمراد "قبل الغرغرة"، وقيل: ظهور الآيات المانعة من قبول التوبة كما قال صاحب دليل الفالحين.

وجواب الشرط: جملة: "تقام يوم القيامة.... الخ الحديث"، وبناء الفعل للمفعول هنا يرشد إلى أن هذه النائحة وكل من على شاكلتها، تكون مسلوبة الإرادة، وتأتي يوم القيامة في هيئة تلفت أنظار الجميع، ويشاهدها الكل، حيث "تقام" حتى تكون عبرة لأولي الألباب، وقد عدل عن قوله تقوم إلى قوله: "تقام"، للإشعار بفقد الإرادة وللإيحاء بأن هذا القيام القسري يعد صورة من صور العذاب يوم القيامة.

وما أبشع هذه الصورة التي يؤول إليها مصير هذه النائحة: إنها تُكسَى بقميص أو درع من قطران، ودرع من جرب، واختيار القطران في هذا السياق لمناسبة الموقف، لأنه أسود منتن، وهو سريع الاشتعال، وهو سائل لزج يتحلل من شجر "الأبهل" ويطلى به الإبل وغيرها، وكذلك الجرب: داء معروف.

وفي رسم هذه الصورة المنفرة: إنذار لكل من لم تتب عن النوْح، وفيه كذلك سخرية وإهانة: حيث قال: "درع من جرب"، والدرع للوقاية. ولكن كيف يكون الجرب وقاية: وهو داء مهلك، والقطران: نار تشتعل في جسم هذه النائحة التي كانت تظن بأن زوجها أو قريبها الذي ناحت عليه: هو جبلها وهو سندها، وهو حاميها، فهل يستطيع الآن حمايتها من العذاب؟ وهل يخفف عنها العقاب؟ وما ربك بظلام للعبيد، والله أعلم.

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه تحريم النياحة، وذلك لأنه هذا الوعيد الشديد لا يكون إلا على فعل شيء محرم، وقد سبق بيان حكم ذلك، في الحديث رقم ١٦٦٣.

المضامين الدعوية[1]

أولاً: من موضوعات الدعوة: بيان عاقبة النائحة يوم القيامة.

ثانياً: من أساليب الدعوة: الترهيب.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: الحث على التوبة.

أولاً- من موضوعات الدعوة: بيان عاقبة النائحة يوم القيامة:

حيث جاء في الحديث "النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جَرَب"، وقوله ﷺ: "اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت"[2] وفي هذا بيان لعاقبة النائحة إذا لم تتب. قال النووي: (وفي الحديث دليل على تحريم النياحة، وهو مجمع عليه، وفيه صحة التوبة ما لم يمت المكلف ولم يصل إلى الغرغرة)[3].

وقال النووي -في بيان قوله ﷺ: "اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب والنياحة على الميت: - وفيه أقوال أصحها: أن معناه هما من أعمال الكفر وأخلاق الجاهلية، والثاني: أنه يؤدي إلى الكفر، والثالث: أنه كفر النعمة والإحسان، والرابع: أن ذلك في المستحل، وفي هذا الحديث تغليظ تحريم الطعن في النسب والنياحة)[4]، وأما ما جاء في عاقبة النائحة (فقوله: "عليها سربالٌ من قطران" أي أن الله تعالى يجازيها بلباس من قطران لأنها كانت تلبس الثياب السود وقوله "درع من جرب"

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث - ١٦٦٦- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٦٩).

(٢) أخرجه مسلم ١٢١.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ٦٠٢.

(٤) المرجع السابق ٢/ ٥٠.

يعني يسلط على أعضائها الجرب والحكة بحيث يغطي بدنها تغطية الدرع - وهو القميص- لأنها كانت تجرح بكلماتها المحرقة قلوب ذوي المصيبات. فهذا الحديث دل على بطلان ما كان عليه أهل الجاهلية من هذه الخصال الرديئة)[١].

وقال ابن علان: (وهذا الوعيد للنائحة إذا لم تتب من نوحها الذي هو من الكبائر قبل موتها وقبل الغرغرة وقبل ظهور الآيات المانعة من قبول التوبة كطلوع الشمس من مغربها إذ التوبة عند ذلك لا عبرة بها وقوله "من قطران" هو ما يتحلل من شجر الأبهل ويطلي به الإبل وغيرها ومن شأنه أنه يسرع فيه شعل النار وهو أسود منتن)[٢].

قال د. الحسيني هاشم: (من تعودت النياحة واتخذتها مهنة ولم ترجع عن ذلك بالتوبة ظهرت يوم القيامة، وعليها قميص من قطران، وكساء من جرب، كشفاً لما بدا منها وإظهاره في صورته الحقيقة)[٣].

هذا والواجب الامتناع عن النوح امتثالاً لأمر الشرع، وقد سبق التفريق بين النوح والبكاء؛ فالبكاء والدموع رحمة والنوح سخط وجزع على قضاء الله، وسبب لعذاب الميت خاصة إذا أوصى بالنوح عليه جاء عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه: إن ابناً لي قبض فأتنا، فأرسل يقرئ السلام، ويقول: إن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب. فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها، فقام ومعه: سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ورجالٌ، فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تتقعقع، قال: حسبته أنه قال: كأنها شن، ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول الله، ما هذا؟ فقال: ((هذا رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء))[٤].

---

(١) المسائل التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية، الإمام محمد بن عبدالوهاب، شرح محمود شكري الألوسي، تحقيق د. يوسف بن محمد السعيد، وكالة المطبوعات والبحث العلمي بوزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٧هـ، ص ٢٢٨.

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٦٨٤.

(٣) شرح رياض الصالحين ٧٦٩.

(٤) أخرجه البخاري ١٢٨٤، ومسلم ٩٢٣.

وعن عبدالله بن عبيدالله بن أبي مليكة قال: توفيت ابنة لعثمان رضي الله عنه بمكة، وجئنا لنشهدها، وحضرها ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهما، وإني لجالس بينهما، أو قال: جلست إلى أحدهما، ثم جاء الآخر فجلس إلى جنبي، فقال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما لعمرو بن عثمان، ألا تنهى عن البكاء؟ فإن رسول الله ﷺ قال: ((إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه))[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: صدرت مع عمر رضي الله عنه من مكة، حتى إذا كنا بالبيداء، إذا هو بركب تحتَ ظل سمرة، فقال: اذهب فانظر من هؤلاء الركب؟ قال: فنظرت، فإذا صهيب فأخبرته فقال: ادعه لي فرجعت إلى صهيب فقلت: ارتحل، فالحق أمير المؤمنين، فلما أصيب عمر، دخل صهيب يبكي، يقول: واأخاه، واصاحباه، فقال عمر رضي الله عنه: يا صهيب، أتبكي علي، وقد قال رسول الله ﷺ: ((إن الميت يعذب ببعض بكاء أهله عليه))[2].

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: ((جيء بأبي يوم أحد قد مثل به، حتى وضع بين يدي رسول الله ﷺ، وقد سُجِّي ثوباً، فذهبت أريد أن أكشف عنه، فنهاني قومي، ثم ذهبت أكشف عنه، فنهاني قومي، فأمر رسول الله ﷺ فرفع، فسمع صوت صائحة، فقال: "من هذه. فقالوا: ابنة عمرو، أو: أخت عمرو، قال: فلم تبكي؟ أو: لا تبكي، فما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رُفع))[3].

وعن عبدالله رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: ((ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية))[4].

ومن خلال هذه النصوص السابقة تتبين حرمة النوح وعاقبته فالواجب الكف عنه.

---

(١) أخرجه البخاري ١٢٨٦، ومسلم ٩٢٨.

(٢) أخرجه البخاري ١٢٨٧، ومسلم ٩٢٧.

(٣) أخرجه البخاري ١٢٩٣، ومسلم ٢٤٧١.

(٤) أخرجه البخاري ١٢٩٤، ومسلم ١٠٣.

ثانياً- من أساليب الدعوة: الترهيب:

يتضح هذا من سياق الحديثين حيث قال النبي ﷺ: "النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب" وقوله ﷺ: "اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب والنياحة على الميت" وأسلوب الترهيب من أساليب الدعوة التي تؤثر في نفس المدعو، وتحمله على ترك المحظورات الشرعية ذلك أن النفس البشرية بفطرتها تخاف الوعيد (والنفس البشرية بقدر ميلها لأساليب الترغيب لحرصها على ما ينفعها فإنها بحاجة إلى الترهيب لردعها عن غيها وانحرافها عن الطريق المستقيم؛ لأن الترهيب فيه تخويف يحمل النفس وصاحبها على ترك المعاصي والآثام واجتناب الجرائم والذنوب، وبيان ما أعده الله تعالى من شديد العقاب وأليم العذاب لمن طغى وبغى وعاند وعصى وإذا ما أحسن الداعية في عرض ما لديه فإنه بلا شك سيؤثر في المتلقين أكبر التأثير وأعظمه، لأن الإنسان لا يتحمل الزواجر مجرد سماع فكيف إذا كانت حقيقة)[1]. ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب الترهيب قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾[2].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: الحث على التوبة:

حيث جاء في الحديث "إذا لم تتب قبل موتها" وإذا كان الأمر كذلك ففي هذا الحديث حث على المبادرة إلى التوبة والإنابة إلى الله تعالى قال سبحانه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[3] قال السعدي: (قل يا أيها الرسول ومن قام مقامه من الدعاة لدين الله مخبراً للعباد عن ربهم لا تيأسوا من رحمة الله فتلقوا بأيديكم إلى التهلكة وتقولوا قد كثرت ذنوبنا فتبقون مصرين على العصيان ولكن اعرفوا ربكم بأسمائه الدالة على كرمه

---

(١) قواعد الدعوة الإسلامية، د. حمدان الهجاري، ٥١٥.

(٢) سورة إبراهيم، آية: ٥٠.

(٣) سورة الزمر، آية: ٥٣.

وجوده فهو غفور رحيم)[1]. وأمر الله بالتوبة فقال سبحانه: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2] وبين الله أن الذي يعرض عن التوبة ظالم فقال سبحانه: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[3] والتوبة هي رجوع العبد إلى الله.

قال ابن القيم: (وشرائط التوبة ثلاثة: الندم على ما سلف منه في الماضي، والإقلاع عنه في الحال، والعزم على أن لا يعاوده في المستقبل والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة فإنه في ذلك الوقت يندم ويقلع ويعزم فحينئذٍ يرجع إلى العبودية التي خلق لها، وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة)[4].

وفي موضع آخر قال: (والتوبة المقبولة الصحيحة لها علامات منها: أن يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبلها ومنها أنه لا يزال الخوف مصاحباً له لا يأمن مكر الله طرفة عين فخوفه مستمر إلى قبض روحه ومنها انخلاع قلبه وتقطعه ندماً وخوفاً، وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها وتقطعه وانخلاعه هذا هو حقيقة التوبة فذلك من آثار التوبة المقبولة فمن لم يجد ذلك في قلبه فليتهم توبته وليرجع إلى تصحيحها فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة وما أسهلها باللسان والدعوى وما عالج الصادق بشيء أشق عليه من التوبة الخالصة الصادقة)[5].

قال ابن قدامة: (الناس في التوبة أربع طبقات:

الطبقة الأولى: تائب يستقيم على التوبة إلى آخر عمره، ويتدارك ما فرَّط من أمره، ولا يحدّث نفسه بالعود إلى ذنوبه، إلا الزلات التي لا ينفك عنها البشر في العادات، فهذه هي الاستقامة في التوبة، وصاحبها هو السابق بالخيرات.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٦٧٣.

(٢) سورة النور، آية: ٣١.

(٣) سورة الحجرات، آية: ١١.

(٤) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٣٣٩/٣.

(٥) المرجع السابق نفسه ٣/٣٤٦-٣٤٨.

وتسمى هذه التوبة النصوح، وتسمى هذه النفس المطمئنة، وهؤلاء يختلفون، منهم من سكنت شهوته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها، ومنهم من تنازعه نفسه وهو مليء بمجاهدتها.

الطبقة الثانية: تائب قد سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وكبائر الفواحش، إلا أنه لا ينفك عن ذنوب تعتريه، لا عن عمد، ولكنه يبتلى بها في مجاري أحواله من غير أن يقدم عزماً على الإقدام عليها، وكلما أتى شيئاً منها لام نفسه، وندم وعزم على الاحتراز من أسبابها، فهذه هي النفس اللوَّامة، لأنها تلوم صاحبها على ما يستهدف له من الأحوال الذميمة، فهذه رتبة عالية أيضاً، وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى، وهي أغلب أحوال التائبين، لأن الشر معجون بطينة الآدمي، فقلما ينفك عنه، وإنما غاية سعيه أن يغلب خيرُه شرَّه، حتى يثقل ميزانه، فترجح حسناته، فأما أن تخلو كفة السيئات، فبعيد.

وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله سبحانه، إذ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ﴾[1].

الطبقة الثالثة: أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة، ثم تغلبه شهوته في بعض الذنوب، فيقدم عليها لعجزه عن قهر الشهوة، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات، وترك جملة من الذنوب مع القدرة عليها والشهوة لها، وإنما قهرته شهوة واحدة أو شهوتان، وهو يود لو أقدره الله على قمعها، وكفاه شرها، فإذا انتهت ندم، لكنه يعد نفسه بالتوبة عن ذلك الذنب، فهذه النفس تسمى بالمسؤولة، وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾[2] فأمر هذا من حيث مواظبته على الطاعات وكراهيته لما يتعاطاه مرجو لقوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ﴾[3] وعاقبته مخطرة من حيث تأخيره وتسويفه، فربما يختطف قبل التوبة، فإن

(١) سورة النجم، آية: ٣٢.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٠٢.

(٣) سورة التوبة، آية: ١٠٢.

الأعمال بالخواتيم، فعلى هذا يكن الخوف من الخاتمة، وكل نَفَسٍ يمكن أن يتصل به الموت، فتكون الخاتمة، فليراقب الأنفاس، وليحذر وقوع المحذور.

الطبقة الرابعة: أن يتوب ويجري مدة على الاستقامة، ثم يعود إلى الذنوب منهمكاً من غير أن يحدث نفسه بالتوبة، ومن غير أن يتأسف على فعله، فهذا من المصرين، وهذه النفس هي الأمارة بالسوء، ويخاف على هذا سوء الخاتمة.

فإن مات هذا على التوحيد، فإنه يرجى له الخلاص من النار، ولو بعد حين، ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفي لا يطلع عليه، إلا أن التعويل على هذا لا يصلح، فإن من قال: إن الله تعالى كريم، وخزانته واسعة، ومعصيتي لا تضره، ثم تراه يركب البحار في طلب دينار، فلو قيل له: فإذا كان الحق كريماً، فاجلس في بيتك لعله يرزقك، استجهل قائل هذا، وقال: إنما الأرزاق بالكسب، فيقال له: هكذا النجاة بالتقوى)[1].

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ٢٨٨ ، ٢٨٩.

الحديث رقم (١٦٦٧)

١٦٦٧- وعن أَسِيد بن أبي أَسِيدٍ التابِعِيِّ، عن امْرَأَةٍ مِنَ المُبَايعاتِ، قالت: كان فيما أخَذَ عَلَيْنَا رسُولُ اللهِ ﷺ، فِي المَعْرُوفِ الذي أخَذَ عَلَيْنَا أنْ لاَ نَعْصيَهُ فِيهِ: أنْ لا نَخْمِشَ وَجْهاً، وَلاَ نَدْعُوَ وَيْلاً، وَلاَ نَشُقَّ جَيْباً، وأنْ[1] لاَ نَنْشُرَ شَعْراً. رواه أبو داود[2] بإسناد حسن.

ترجمة الراوي:

أسيد بن أبي أسيد عن امرأة من المبايعات: هذه الصحابية لا تعرف إلا أن الراوي عنها أسَيد بن أبي أسَيد قال عنه المزي: أظنه غير البراد لواسمه: أسيد بن أبي أسيد البراد]، فإن البراد ليس له شيء عن الصحابة وإن يكنه فإن روايته عن المرأة منقطعة[3].

وهذه الصحابية من المبايعات اللاتي بايعن رسول الله ﷺ على ما جاء في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[4]. فكانت البيعة على العمل بأركان الإسلام وعلى فضائل الأخلاق وكرائم الشمائل وعلى ترك عادات الجاهلية من وأد البنات وتبرج الجاهلية الأولى والنياحة ونحو ذلك من سوء الآداب. لذا كان النبي ﷺ يمتحن بها من جاءه من المؤمنات المهاجرات، كما قالت عائشة: إن رسول الله ﷺ يمتحن بها من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية، فمن أقرّ بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ: قد بايعتك على ذلك[5].

---

(١) (أن) لا توجد عند أبي داود.

(٢) برقم (٣١٣١). أورده المنذري في ترغيبه (٥١٩٢).

(٣) تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٢٦٤/١) ووافقه الحافظ في التهذيب (١٧٤/١)، وينظر أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٤٢٠/٧)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٨٥١.

(٤) سورة الممتحنة، الآية: ١٢.

(٥) أخرجه البخاري (٤٨٩١)، ومسلم (١٨٦٦).

كما كان رسول الله ﷺ يتعاهد النساء بهذه البيعة يوم العيد[1]، بل كان ﷺ يبايع الرجال على ذلك ثم يقول: ((فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله، إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه))[2].

غريب الألفاظ:

لا نخمش وجهاً: لا نخدش[3].

ولا ندعو ويلاً: لا نقول عند المصيبة ووايلاه، والويلَ: الحزن والعذاب والهلاك[4].

جيباً: من القميص ونحوه: ما يدخل منه الرأس عند لبسه[5].

الشرح الأدبي

يتضمن هذا الحديث إشارة إلى بيعة النساء التي وردت في القرآن الكريم، وهي إشارة ترشد إلى أن الحديث فصَّل ما أجمله القرآن الكريم، فألفاظ النبوة منبعها القلب المتصل بجلال الخالق عز وجل، ورسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى، وحديثه الشريف في صلته القرآن، إما أن يُفصِّل مجملاً، أو يوضح مشكلاً، أو يخصص عاماً، أو يقيد مطلقاً.

وهنا: تفصيل لما أجمله القرآن في بيعة النساء: حيث أشارت هذه الصحابية إلى قوله عز وجل ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾[6]، وأوضحت أن من ذلك المعروف: هو أن لا نخمش وجهاً ... إلخ الحديث، ومن الظواهر الفنية والأسلوبية في هذا

---

(١) كما في صحيح البخاري ٩٧٩ ومسلم (٨٨٤) وينظر تفسير ابن كثير (٩٧/٨).

(٢) أخرجه البخاري (١٨) وسلم (١٧٠٩).

(٣) لسان العرب، ابن منظور في (خ م ش).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (و ي ل).

(٥) لسان العرب، ابن منظور في (ج ي ب).

(٦) سورة الممتحنة، الآية: ١٢.

الحديث، تكرار جملة: "أخذ علينا"، وهذا التكرار لتأكيد العهد، ولتنفيذ الوصية، حتى تكون البيعة صحيحة، وحتى يستغفر لهن الله، وكذلك تكرار "لا" النافية المسبوقة بأن الظاهرة، والمستترة، في الجمل الأربعة، يؤكد حرص النبي ﷺ كما تخبر هذه الصحابية على عدم تردي المؤمنات في مهاوي هذه السلوكيات المخالفة لسنة رسول الله ﷺ، ولما جاء في القرآن الكريم.

ومجيء الأفعال المنهي عنها في الجمل الأربع في صيغة المضارع: يعلن عن ضرورة استمرار الكف عن مثل هذه الأفعال، وتلك السلوكيات التي تلحق بصاحبها الويل والثبور، وتلقى به في أتون القلق واليأس من رحمة الله عز وجل.

وتناسق البناء في هذه الجمل، وتوازن الشكل اللغوي يوحي بضرورة توازن شخصية المسلم، وإحداث الإيقاع الصوتي في نهاية كل جملة دعوة للتنبُّه حيث الألف الممدودة، فالأفعال كلها مضارعة مبدوءة بالنون الدالة على الجمع: وهي من علامات الفعل المضارع، والفاعل مستتر في جميع الجمل، وكان هذا الاستتار الواجب في اللغة: إيحاء كذلك بوجوب التخلي عن هذه الأفعال المشينة التي تمثل مظاهر الجزع والفزع، واليأس من رحمة الله تعالى.

والمفعول به: اسم مفرد يتوالى في إيقاع صوتي مؤثر والإفراد هنا كأنه دعوة إلى عدم النوْح الجماعي، لأنه يعد اعتراضاً جماعياً على مشيئة الله تعالى وقدره، فإذا كان الفرد منهياً عن ذلك، فإن المجموع أولى بالنهي والترك، وكل هذه المؤثرات الأسلوبية، والظواهر الفنية للإيحاء يترك هذه الظواهر السلوكية (خمش الوجه، الدعاء بقولهم: ياويلاه، شق الجيب، نشر الشعر)، وقال سبحانه: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[1].

فقه الحديث

وفي الحديث تحريم مظاهر الجزع على الميت التي تدل على عدم الرضا بقضاء الله من نحو الصراخ والعويل، وخمش الوجوه ولطمها، وشق الجيوب، ونشر الشعر وغير

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١١١.

ذلك من أمور الجاهلية التي نهانا رسول الله ﷺ عنها بقوله: "ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية"، وقد مر بيان حكم هذا الأمر في الحديث رقم ١٦٦٠ وما بعده.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: مبايعة النساء.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: النهي عن أفعال الجاهلية والنوح.

أولاً- من موضوعات الدعوة: مبايعة النساء:

حيث جاء في الحديث "عن امرأة من المبايعات قالت: كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ في المعروف" وقد جاءت الإشارة إلى هذه المبايعة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] قال القرطبي: (لما فتح رسول الله ﷺ مكة جاء نساء أهل مكة يبايعنه فأمر أن يأخذ عليهن ألا يشركن وقد ذكر الله عز وجل ورسوله عليه الصلاة والسلام في صفة البيعة خصالاً شتى صرح فيهن بأركان النهي في الدين ولم يذكر أركان الأمر وهي ستة أيضاً: الشهادة والصلاة والزكاة والصيام والحج والاغتسال من الجنابة وذلك لأن النهي دائم في كل الأزمان، وكل الأحوال، فكان التنبيه على اشتراط الدائم آكد وقيل: إن هذه المناهي كان في النساء كثير من يرتكبها ولا يحجزهن عنها شرف النسب فخصت بالذكر لهذا). وفي مبايعة النساء جاء عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: كان المؤمنات إذا هاجرن إلى رسول الله ﷺ يمتحن بقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾[2] قالت عائشة: ((فَمَنْ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٤٢٧/٢٠.

(٢) سورة الممتحنة، آية: ١٢.

أَقَرَّ بِهَذَا من الـمؤمِنَاتِ فَقَدْ أَقَرَّ بالـمِحْنَةِ، وكَانَ رسولُ اللهِ ﷺ إذَا أَقْرَرْنَ بذلكَ من قَوْلِهِنَّ قالَ لَهُنَّ: انْطَلِقْنَ فَقَدْ بَايَعْتُكُنَّ))[١]. قال السعدي: (وهذه الشروط المذكورة في الآية تسمى "مبايعة النساء" اللاتي يبايعن على إقامة الواجبات المشتركة التي تجب على الذكور والإناث في جميع الأوقات فكان ﷺ إذا جاءته النساء يبايعنه والتزمن بهذه الشروط بايعهن وجبر قلوبهن واستغفر لهن الله فيما يحصل منهن من التقصير وأدخلهن في جملة المؤمنين)[٢].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: النهي عن أفعال الجاهلية والنوح:

حيث جاء في الحديث "أن لا نخمش وجهاً ولا ندعو ويلاً ولا نشق جيباً، وأن لا ننثر شعراً" ولا ريب أن كل هذه من أفعال الجاهلية عند وقوع المصيبة والبلاء. قال شرف الحق العظيم آبادي: (وقوله "أن لا نخمش" أي لا نخدش، والويل أن يقول عند المصيبة وايلاه والجيب هو ما يفتح من الثوب ليدخل فيه الرأس وهو الطوق في لغة العامة وقوله "أن لا ننثر شعراً" أي لا نفرق ولا ننشر شعراً)[٣] هذا والواجب البعد عن أفعال الجاهلية وما يقومون به؛ فعن أبي بن كعب أن رجلاً اعتزى بعزاء الجاهلية، فأَعَضَّه، ولم يَكنِه فنظر القوم إليه فقال للقوم: إني قد أرى الذي في أنفسكم، إني لم أستطع إلا أن أقول هذا إن رسول الله ﷺ أمرنا: ((إذا سمعتم من يعتزي بعزاء الجاهلية فأَعِضُّوه ولا تكنوا))[٤].

قال البغوي: (قوله: من تعزى بعزاء الجاهلية: أي انتسب وانتمى، كقولهم يا لفلان، ويا لبني فلان يقال عزوت الرجل وعزيته: إذا نسبته وكذلك كل شيء تنسبه إلى شيء وقوله "فأعضوه بهَن أبيه: الهن: الذّكر. أي قولوا له: اعضض ذكر أبيك، ولا تكنوا

---

(١) أخرجه مسلم ١٨٦٨، والبخاري ٥٢٨٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٧٩٥.

(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١٣٣٧.

(٤) أخرجه أحمد ١٣٦/٥ رقم ٢١٢٣٣ وقال محققو المسند: حديث حسن وهذا إسناد رجاله ثقات. ١٥٧/٣٥.

أي صرّحوا بلفظ الذّكر بدون كناية، وهذا دليل على شناعة التعزي بعزاء الجاهلية)(١).

قال ابن تيمية: (والسنة الجاهلية: كل عادة كانوا عليها، فإن السنة هي العادة، وهي الطريق التي تتكرر لنوع الناس، مما يعدونه عبادة، أو لا يعدونه عبادة، قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾(٢) وقال النبي ﷺ: ((لتتبعن سنن من كان قبلكم))(٣) والاتباع هو الاقتفاء والاستنان، فمن عمل بشيء من سننهم، فقد اتبع سنة جاهلية، وهذا نص عام يوجب تحريم متابعة كل شيء من سنن الجاهلية: في أعيادهم وغير أعيادهم، ولفظ: "الجاهلية" قد يكون اسماً للحال، وهو الغالب في الكتاب والسنة، وقد يكون اسماً لذي الحال.

فمن الأول: قول النبي ﷺ لأبي ذر: ((إنك امرؤ فيك جاهلية))(٤). وقول عمر: ((إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة))(٥) وقول عائشة: ((كان النكاح في الجاهلية على أربعة أنحاء))(٦) وقوله: ((يا رسول الله كنا في جاهلية وشر))(٧) أي في حال جاهلية أو طريقة جاهلية، أوعادة جاهلية ونحو ذلك.

فإن الجاهلية وإن كانت في الأصل صفة، لكنه غلب عليه الاستعمال حتى صار اسماً، ومعناه قريب من معنى المصدر، وأما الثاني فتقول: طائفة جاهلية، وشاعر جاهلي، وذلك نسبة إلى الجهل الذي هو عدم العلم، أو عدم اتباع العلم، فإن من لم يعلم الحق، فهو جاهل جهلاً بسيطاً، فإن اعتقد خلافه: فهو جاهل جهلاً مركباً، فإن قال

---

(١) شرح السنة، الإمام البغوي، شرح الحديث رقم ٣٥٤١، ١٢١/١٢.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٣٧.

(٣) أخرجه البخاري ٧٣٢٠، ومسلم ٢٦٦٩.

(٤) أخرجه البخاري ٣٠، ومسلم ١٦٦١.

(٥) أخرجه البخاري ٢٠٤٢، ومسلم ١٦٥٦.

(٦) أخرجه البخاري ٥١٢٧، وابو داود ٢٢٧٢.

(٧) أخرجه البخاري ٧٠٨٤، ومسلم ١٨٤٧.

خلاف الحق عالماً بالحق، أو غير عالم: فهو جاهل أيضاً، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾[١]، وقال النبي ﷺ: ((إذا كان أحدكم صائماً، فلا يرفث ولا يجهل))[٢].

ومن هذا قول بعض شعراء العرب:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وهذا كثير، وكذلك من عمل بخلاف الحق: فهو جاهل، وإن علم أنه مخالف للحق، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾[٣] قال أصحاب محمد ﷺ: كل من عمل سوءاً فهو جاهل.

وسبب ذلك: أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب، يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه، من قول أو فعل، فمتى صدر خلافه فلابد من غفلة القلب عنه، أو ضعفه في القلب بمقاومة ما يعارضه، وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم، فيصير جهلاً بهذا الاعتبار.

ومن هنا تعرف دخول الأعمال في مستحق الإيمان حقيقة لا مجازاً، وإن لم يكن كل من ترك شيئاً من الأعمال كافراً، ولا خارجاً عن أصل مسمى الإيمان، وكذلك اسم: العقل، ونحو ذلك من الأسماء.

ولهذا يسمي الله تعالى أصحاب هذه الأحوال: موتى، وعمياً، وصماً، وبكماً، وضالين، وجاهلين، ويصفهم بأنهم: لا يعقلون، ولا يسمعون.

ويصف المؤمنين: بأولى الألباب، وأولي النهى، وأنهم مهتدون، وأن لهم نوراً، وأنهم يسمعون ويعقلون.

فإذا تبين ذلك، فالناس قبل مبعث الرسول ﷺ كانوا في حال جاهلية منسوبة إلى الجهل، فإن ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال إنما أحدثه لهم جاهل، وإنما يفعله جاهل.

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٦٣.

(٢) أخرجه البخاري ١٨٩٤، ومسلم ١١٥١.

(٣) سور النساء، آية: ١٧.

وكذلك كل ما يخالف ما جاءت به المرسلون: من يهودية، ونصرانية؛ فهي جاهلية، وتلك كانت الجاهلية العامة، فأما بعد مبعث الرسول ﷺ قد تكون في مصر دون مصر، كما هي في دار الكفار، وقد تكون في شخص دون شخص، كالرجل قبل أن يسلم، فإنه في جاهلية، وإن كان في دار الإسلام.

فأما في زمان مطلق: فلا جاهلية بعد مبعث محمد ﷺ، فإنه لا تزال من أمته طائفة ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة.

والجاهلية المقيدة قد تقوم في بعض ديار المسلمين، وفي كثير من الأشخاص المسلمين، كما قال ﷺ: ((أربع من أمتي من أمر الجاهلية))[1] وقال لأبي ذر: ((إنك امرؤ فيك جاهلية))[2] ونحو ذلك[3].

والمسلم لكي يبعد عن أعمال الجاهلية عند المصيبة يجب أن يتحلى بالصبر ويلزم الرضا بقضاء الله.

قال ابن حبان: (الواجب على العاقل أن يوقن أن الأشياء كلها قد فُرغ منها، فمنها ما هو كائن لا محالة، وما لا يكون فلا حيلة للخلق في تكوينه فإن دفعه الوقت إلى حال شدة يجب أن يتزر بإزار له طرفان، أحدهما: الصبر، والآخر: الرضا، ليستوفي كمال الأجر لفعله ذلك، فكم من شِدّة قد صعُبت وتعذر زوالها على العالم بأسره، ثم فرج عنها السهل في أقل من لحظة.

وعن أبي إسحاق عن أبي الحجاج الأزدي قال: سألنا سلمان: ما الإيمان بالقدر؟ قال: إذا علم العبد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

وأنشدني الأبرش:

هَوِّن على نفسك من سعيها ... فليس ما قُدِّر مردود
وارْضَ بحكم الله في خلقه ... كل قضاء الله محمود

---

(١) أخرجه مسلم ٩٣٤.

(٢) أخرجه البخاري ٦٠٥٠، ومسلم ١٦٦١.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، ص ١/٢٥٤-٢٥٨ بتصرف.

وعن معمر قال: لما حاصر الحجاجُ ابنَ الزبير بمكة جعلت الحجارة تضرب الحائط، فقيل له: لا نأمن عليك أن يصيبك منها حجر، فقال ابن الزبير:

هون عليك، فإن الأمور بكفِّ الإله مقاديرها

وحدثنا سفيان بن مسعر: أن رجلاً ركب البحر، فكسر به، فوقع في جزيرة من جزائر البحر، فمكث فيها ثلاثاً لايرى أحداً، ولا يأكل طعاماً، ولا يشرب شراباً، فأيس من الحياة، فتمثَّل:

إذا شاب الغراب أتيتُ أهلي وصار القارُ كاللبن الحليب

فأجابه مجيب يقول:

عسى الكربُ الذي أمسيتَ فيه يكون وراءهُ فرج قريب

فنظر، فإذا سفينة في البحر، فلوَّح لهم، فأتوه، فحملوه، وأصاب معهم خيراً، ورجع إلى أهله سالماً.

وأنشد المنتصر بن بلال الأنصاري:

عسى فرج يأتي به الله؛ إنه له كلَّ يوم في خليقته أمرُ

عسى ما ترى أن لا يدوم، وأن ترى له فرجاً مما ألحّ به العُسْرُ

إذا اشتد عُسر فارْجُ يُسْراً؛ فإنه قضى الله أن العسر يتبعه اليسر[1]

---

(١) روضة العقلاء ١٥٧-١٥٩ بتصرف.

الحديث رقم (١٦٦٨)

١٦٦٨- وعن أبي موسى رضي الله عنه: أنَّ رسُولَ الله ﷺ، قال: ((مَا مِنْ مَيِّتٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ بَاكِيهِمْ[1] فَيَقُولُ: وَاجَبَلاَهُ، واسَيِّدَاهُ، او نَحْوَ ذلِكَ إلاَّ وُكِّلَ بِهِ مَلَكَانِ يَلْهَزَانِهِ: أهكَذَا كُنْتَ؟)). رواه الترمذيُّ[2]، وقال: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

غريب الألفاظ:

واجبلاه واسيداه: أسلوب ندبة وهو النداء بـ"وا" أو "يا" مع إلحاق الألف في ى خر الاسم لمد الصوت وزيادة الهاء بعه لإرادة بيانه "آي الألف" والغرض من الندبة: إظهار التوجع، والمراد التوجع من موت الذي يناح عليه[3].

يلهزانه: اللهز: الدفع بجمع اليد في الصدر[4].

الشرح الأدبي

حين نتأمل صياغة هذا الحديث الشريف: نجده يبدأ بحرف النفي "ما" وهذا البداية تشعر بأن ما في الحديث من جزع وفزع يقوم به الباكون يجب أن يكون منفياً من ذاكرتنا، وملغى من سلوكياتنا، "ومن" زائدة، في قوله: "ما من ميت"، وهي ليست مزيدة من باب الإطناب أو الإسهاب ولكنها فريدة لتأكيد استغراق النفي، أي أن

---

(١) لفظ الترمذي: (باكيه) والمثبت لفظ المنذري في ترغيبه.

(٢) برقم (١٠٠٣). وقال الحاكم (٤٧١/٢): هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الحافظ ابن حجر في التلخيص (١٤٠/٢): وشاهده في الصحيح عن النعمان بن بشير أهـ. وقد تقدم برقم (١٦٦٤). أورده المنذري في ترغيبه (٥١٧٤).

(٣) انظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ١٧٩/١١، وفتح الباري، ابن حجر ٧٥٦/٧، وعمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني ٧٥/١٨، والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٩١٠.

(٤) رياض الصالحين ٥٧٣.

النفي عام وشامل لكل باكٍ نواح، وأسلوب القصر يشمل صياغة الحديث: وطريقة النفي والاستثناء ، فـ"ما" النافية بدئ بها الحديث الشريف، و"إلا" : وردت في نهاية الحديث، وفي ذلك إيحاء بأن هذا السلوك الجزع محاصر، وله عقابه الشديد يوم القيامة، حيث المواجهة والتقريع، أهكذا كنت؟.

وتنكير لفظ "ميت" لإفادة العموم والشيوع، والاستقصاء، وحرف الجر، "من" يفيد ذلك، فلن ينجو ميت نيح عليه بالندبة والاستغاثة من هذا المصير: وهو اللهز والسخرية منه يوم القيامة؛ وقوله: "واجبلاه.." للإيحاء بأنه الحامي، ولكنه لا يحمي نفسه يوم القيامة حيث يجيء وعليه كالنائحة سربال من قطران، ودرع من جرب، وقوله: "واسيداه" اعتراف بسيادة الميت، واحتماء النائح به، وفي رواية، "واسنداه"، من السند، وكلاهما سلوك مرفوض، وغفلة عن رحمة العزيز الغفار القوي القهار.

وقوله: "يلهزانه"، تعبير يفيد شدة الأخذ ،وشدة التوبيخ، وإظهار ضعف هذا الذي كان يستغاث به ويندب بعد موته، ويقال له: "واجبلاه، واسيداه"، ولذلك تسأله الملائكة سؤالاً فيه تقريع وتبكيت، ومواجهة بالحقيقة "أهكذا كنت؟" كما يقولون؟ وفي الجملة: تقديم وتأخير، فأصلها أكنت هكذا؟ ولكن قدم خبر كان، "هكذا" للعناية به وللإسراع في مواجهته بالحقيقة.

فقه الحديث

وفي الحديث من الأحكام، توبيخ الميت، وتعذيبه بالبكاء عليه، وقد مر بيان هذا الحكم في الحديث رقم ١٦٦٠.

المضامين الدعوية[1]

---

(١) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (١٦٦٤).

الحديث رقم (١٦٦٩)

١٦٦٩- وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: **((اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ))**. رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

النّياحة: مهنة التي تنوح على الأموات، أي: تبكي وتُوَلْوِل[2].

الشرح الأدبي

هذا الحديث هو ختام باب النياحة على الميت، ومجيئه في ختام هذا الباب تذكير للناس بالحكم الشرعي على هذا السلوك الذي ينطلق من اعتراض على مشيئة الله تعالى وقدره، وكذلك الإقدام على جريمة "الطعن في النسب" مع علمه بصحته، فذلك كفر واضح.

والحديث في بنائه اللغوي يتكون من جملة واحدة صيغت في الأسلوب الخبري، ومكونه من مبتدأ مفرد، وهو: "اثنتان في الناس"، ومن خبر مفرد كذلك، مكون من جزأين، معطوف ومعطوف عليه، وهو "الطعن في النسب، والنياحة على الميت"، وبداية الحديث تعد براعة استهلال، وفيها تشويق وإثارة للسامع تجعله في تلهف لمعرفة هاتين الخصلتين: وفي هذا المنحى الأسلوبي تفصيل بعد الإجمال، وفيه كذلك إيجاز بالحذف، والتقدير خصلتان اثنتان، وقوله: "في الناس"، يفيد تمكن هاتين الخصلتين من طبيعة الناس، وأن الناس تضعف أمامهما؛ لأن "في" تفيد "الظرفية"، وفي ذلك تحذير

(١) برقم (٦٧/١٢١). أورده المنذري في ترغيبه (٥١٧٦).

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ن و ح).

من الانصياع إليهما، ودعوة لمقاومة هاتين الخصلتين، ويكفي في التحذير منهما أنهما يؤديان إلى الكفر والتعبير بـ"في" يرشد إلى أن المقاومة: لا بد أن تكون شديدة وصادقة وخالصة لوجه الله تعالى، وقوله: "في الناس" إشارة إلى أن هذا من الطبيعة البشرية المنحرفة التي يجب التصدي لها، والمسلم أولى من غيره بهذا التصدي وهذه المقاومة؛ حتى لا يؤول أمره إلى الكفران والخسران.

و"الكفر" بالضم: ضد الإيمان، وكفر نعمة الله: جحدها وسترها، والكفر: هو ستر الشيء، ومن معاني: الكافر، الليل، والسحاب المظلم، وهما يحجبان النور، وينشران الفزع، ويستران الأشياء.

والطعن في النسب: كفر: لأنه يحجب الحقيقة، وينكر الأنساب الصحيحة، ويشكك في الأرحام، وينشر الفتنة بين الأنام، وكذلك النياحة على الميت: كفر بنعمة الله الذي خلق الموت والحياة، وفيه اعتراض على قضاء الله تعالى وقدره، وعلى مشيئته في عباده التي لا رادَّ لها، فهو اللطيف الخبير.

فقه الحديث

وفي الحديث تغليظ تحريم الطعن في النسب، والنياحة على الميت ومعنى (هما بهم كفر) فيه أقوال أصحها ما يأتي:

١- إنه معناهما: أنهما من أعمال الكفر، وأخلاق الجاهلية.

٢- إنهما يؤديان إلى الكفر.

٣- إنهما من كفر النعمة، والإحسان.

٤- إن ذلك في المستحل لهما[١].

المضامين الدعوية[٢]

---

(١) شرح صحيح مسلم ٥/٥٧، نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٤/١٦٠.

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٦٦٦).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية بالترهيب:

لقد رهب النبي ﷺ من الجزع عند موت أحد الأحبة في كثير من أحاديث هذا الباب، لأن ذلك فيه تشبه بالجاهلية، حيث كانت النساء تنوح على الميت، ويندبن، ويشققن الجيوب ويلطمن الخدود، ويحلقن شعورهن، ويسوِّدن وجوههن، وما إلى ذلك من ضروب الجزع والجهل التي تزداد بازدياد أهمية الميت عند أهله، حتى جاء الإسلام، وأبطل هذه العادات، وكان لابد من استخدام أسلوب الترهيب في تخويف هؤلاء من المسلمين من عادات الجاهلية في الجنائز، يقول ﷺ: «الْمَيِّتُ يُعَذَّبُ فِي قَبْرِهِ بِمَا نِيحَ عَلَيْهِ»، ويقول ﷺ: «ليس منا من ضرب الخدود.....».

وكذلك كان في الجاهلية مهنة تمتهنها بعض النساء وهي النائحة، التي تندب الميت وتأتي بالمنظومات في رثائه وتلطم خدها، والنساء يفعلن مثلها، فرهَّب النبي ﷺ من تفعل هذه الفعلة، يقول ﷺ: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، ....». وذلك الجزاء من جنس عملها، حيث كان من جملة أعمالهن تلطيخ الوجه بالطين والسواد حزنًا على فقد الميت.

إن الانتهاء عن مثل تلك التصرفات لا يجدي مع أصحابها الإقناع الفكري المجرد، ولا تكفي لإصلاحهم وسيلة الترغيب، وإن أنجح علاجات الإصلاح بالنسبة لهم إنما هي وسيلة الترهيب، فهم يتأثرون بالمخاوف أكثر من تأثرهم بالمرغبات، وذلك لأنهم قد يكونون ممن يؤثرون اللذات العاجلة مهما كانت ضئيلة.... لكنهم إذا مثلت أمامهن المخاوف المحققة في نفوسهم تيقظوا وحذروا واستقاموا[1].

ثانيًا: التربية على اتباع سنة النبي ﷺ:

وذلك ما فعله أبو موسى الأشعري رضي الله عنه، «عندما مرض وغشي عليه، فصرخت زوجته وولولته، فلمّا أفاق ووجدها على هذه الحال قال: أنا بريئ ممن برئ منه رسول

---

(١) أساليب الدعوة والتربية، زياد العاني، ص٢٥١.

الله ﷺ»، وذلك تأسيًا واقتداءً بسنته ﷺ؛ حيث تبرأ ﷺ من التي ترفع صوتها بالنياحة، وكذلك التي تحلق شعرها وتشق ثوبها جزعًا على فراق الميت، لأن ذلك من علامات الجاهلية، وقد بعث النبي ﷺ لمحو هذه الكفريات من الأمة، وتعليمهم الصبر عند فقد الميت.

إن التأسي بالنبي ﷺ هو أن تفعل مثلما فعل على الوجه الذي فعله من وجوب أو ندب وأن نترك ما تركه، أو نهى عنه من محرم أو مكروه، كما يشتمل التأسي به التأدب بآدابه والتخلق بأخلاقه ﷺ وعلى ذلك فالتأسي والاقتداء شامل كافة أمور الدين؛ فإذا قال الرسول ﷺ قولاً قلنا مثل قوله، وإذا فعل فعلاً فعلنا مثله، وإذا ترك شيئًا تركناه فيما لم يكن خاصًا به، وإذا عظم شيئًا عظمناه، وإذا حضر شيئًا حضرناه، وإذا رضي لنا أمرًا رضينا به، وإذا وقف بنا عند حد وقفنا عنده ولم يكن لنا أن نتقدم عليه أو نتأخر عنه[1].

ثالثًا: التربية بالوصية:

ولأهمية هذا الأمر -الصبر عند المصيبة وفقد الأحبة- فإن النبي ﷺ نوَّع في أساليب تربية صحابته على التزامه، ومن هذه الأساليب أسلوب الوصية، يظهر ذلك في قول أم عطية رضي الله عنها، حيث قالت: أخذ علينا رسول الله ﷺ عند البيعة ألا ننوح، وقول: امرأة من المبايعات: وكان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ ...أن لا نعصيه فيه: أن لا نخمش وجهًا...، وكذلك نهى عن سائر مظاهر الجزع المنسوب إلى الجاهلية، لأن المسلم لا تنتهي عنده الحياة بالموت، بل هناك بعث وجنة ونار، وهو محاسب على كل ما يفعل من خير أو شر.

إن الوصية أشبه بالعهد الذي يؤخذ على الأفراد والجماعات، وهي قليلة التكرار، مما يجعلها بعيدة النسيان، لاسيما إذا صدرت من محب له في القلب مكانة وفي النفس قبول، كما أنها كثيرًا ما تقع طلبًا من الموصي وتركز على أمور جوهرية لها علاقة بطبيعة الموصي، ومحتملة الوقوع في المستقبل[2].

---

(١) محبة الرسول ﷺ، عبدالرؤوف محمد عثمان، ص١٢٤.

(٢) أساليب الدعوة والتربية، زياد العاني، ص٢٧٤.

رابعًا: التربية على الصبر عند الشدائد:

إن سائر أحاديث هذا الباب تلمح إلى قيمة الصبر، وربما صرحت به تصريحًا، وخاصة عند أشد المصائب على الإنسان، وهي فقد الأحبة بالموت، فقد نهى ﷺ عن الجزع وسائر صوره من شق الجيوب ولطم الخدود وحلق الشعر بالنسبة للنساء، والتلطخ بالطين حزنًا؛ لأن الصبر هو العلاج الأمثل لتلك المصيبة ولغيرها.

يقول الحسن بن وهب في فضل الصبر: أما الصبر فمصير كل ذي مصيبة، غير أن الحازم يقدم ذلك عند اللوعة طلبًا للمثوبة، والعاجز يؤخر ذلك إلى السلوة فيكون مغبون نصيب الصابرين، ولو أن الثواب الذي جعل الله لنا على الصبر كان على الجزع لكان ذلك أثقل علينا؛ لأن جزع الإنسان قليل وصبره طويل، والصبر في أوانه أيسر مؤونة من الجزع بعد السلوة، ومع هذا فإن سبيلنا من أنفسنا على ما ملكنا الله منها ألا نقول ولا نفعل ما كان لله مسخطًا، فأما ما يملكه الله من حسن عزاء النفس فلا نملكه من أنفسنا[1].

ولتسهيل المصيبة على المرء فعليه أن يستشعر ما تعلمه نفسه من نزول الفناء، وتقصي المسار، وأن للنفس آجالاً منصرمة ومددًا منقضية؛ إذ ليس للدنيا حال تدوم، ولا لمخلوق فيها بقاء... وأن النعم زائرة، وأنها لا محالة زائلة، وأن السرور بها إذا أقبلت مشوب بالحذر من فراقها إذا أدبرت، وأنها لا تفرح بإقبالها فرحًا، حتى تعصب بفراقها ترحًا، فعلى قدر السرور يكون الحزن، وقد قيل: المفروح به هو المحزون عليه[2].

خامسًا: التربية على ضبط النفس:

إن المسلم ينبغي أن يضبط نفسه في حالات المصائب، وفضلاً عن الصبر والاحتساب، وانتظار أجر الله على الصبر على المصائب، فإن المسلم له مظهر خارجي يتسم بضبط النفس، وصونها عن الانهيار، وما وراءه من التفوه بألفاظ النياحة والثكل، والتي يتخذها البعض طرائف ونكات تطلق على أهل الميت بعد ادمال جراح

---

(١) موسوعة مكارم الأخلاق، ٤٢/٣٣.

(٢) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ص٢٨١ - ٢٨٣.

الفراق، التي دفعتهم إلى الخروج عن القواعد والأعراف الإسلامية، التي تقتضي أن يكون المسلم هادئًا ما أمكنه، محافظًا على سكينته ووقاره ولهذا فقد روي أبو موسى الأشعري رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ أخذ علينا أن لا نخمش وجهًا، ولا ندعو ويلاً...»، وكل ذلك لأن المصيبة ستزول بمرور الزمن، ولهذا فينبغي أن لا تنسى المرء نفسه، ويتصرف على أنها نهاية العالم، مع أنه قد يأكل ويشرب ويضحك بعد أيام أو شهور من وقوع المصيبة.

إن المسلمين إذا أصابتهم مصيبة "لم يملكهم الغم والحزن، وانتقلوا عن ذلك إلى الإقبال على مَا يهمهم مِن الأمور، ولم يلهمهم التحرُّق على ما فات"[1]، يقول تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[2].



(١) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور ٤٠٩/٢٧/١١.

(٢) سورة الحديد، الآيتان: ٢٢، ٢٣.

٣٠٣- باب النَّهي عن إتيان الكُهّان والمنجِّمين
والعُرّاف وأصحاب الرمل والطوارق بالحصى وبالشعير ونحو ذلك

الحديث رقم (١٦٧٠)

١٦٧٠- عن عائشة رضي الله عنها، قالت: سأل رسُولَ اللهِ ﷺ أناسٌ عَنِ الكُهَّانِ، فَقَالَ: ((لَيْسُوا[١] بِشَيءٍ)) فَقَالُوا: يا رَسُولَ اللهِ إنَّهُمْ يُحَدِّثُونا أحْيَاناً بِشَيءٍ، فَيَكُونُ حَقّاً؟ فقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: ((تِلْكَ الكَلِمَةُ مِنَ الحَقِّ يَخْطَفُهَا الجِنِّيُّ فَيَقُرُّهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ، فَيَخْلِطُونَ مَعَهَا مِئَةَ كَذْبَةٍ)) متفق عليه[٢].

وفي رواية للبخاري[٣] عن عائشة رضي الله عنها: أنَّها سمعتْ رسُولَ اللهِ ﷺ يقولُ: ((إنَّ المَلائِكَةَ تَنْزِلُ فِي العَنَانِ - وَهُوَ السَّحَابُ - فَتَذْكُرُ الأمْرَ قُضِيَ فِي السَّماءِ، فَيَسْتَرِقُ الشَّيْطَانُ السَّمْعَ، فَيَسْمَعُهُ، فَيُوحِيَهُ إلَى الكُهَّانِ، فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مِئَةَ كَذْبَةٍ مِنْ عِنْدِ أنْفُسِهِمْ)).

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

الكهان: جمع كاهن: وهو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل[٤].

فيقرها في أذن وليه: يلقيها[٥].

---

(١) لفظ البخاري في هذه الرواية: (ليس) بالإفراد، والمثبت عنده برقم (٦٢١٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٦٢) واللفظ له، ومسلم (٢٢٢٨/١٢٣).

(٣) برقم (٣٢١٠).

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ك هـ ن).

(٥) رياض الصالحين ٥٧٣.

الشرح الأدبي

هذا الحديث يفتتح به النووي باب: النهي عن إتيان الكهان والمنجمين والعراف، وأصحاب الرمل والطوارق بالحصى وبالشعير وغير ذلك.

ويتسم الحديث بصيغة الحوار، والسؤال والجواب، وتلك السمة الأسلوبية إحدى سمات توصيل المعاني في البيان النبوي، وهي تبعث عن التشويق، وتكون ثمرتها الإقناع.

وأول ما يلفت النظر في الجملة الأولى: وهي من كلام عائشة رضي الله عنها: تقديم لفظ رسول الله ﷺ وهو مفعول به لأنه المسؤول، على لفظ "أناس" وهو الفاعل: وهذا التقديم لشرف رسول الله ﷺ، وتعظيمه، وتوقيره، ولأنه هو المؤثر والفاعل الحقيقي لأنه هو الذي يجيب ويفيد فهم يجهلون حقيقة أمر الكهان، والمصطفى ﷺ يعرف حقيقتهم .

والكهان: جمع كاهن: وهو من يخبر عن بعض المغيبات لأن له ولياً من الجن يخبره بما يسترقه من السمع من السماء، كما ورد في سورة الصافات، أو بما يطرأ ويكون في أقطار الأرض، وما خفى عنه من قرب أو بعد، وقول رسول الله ﷺ: "ليس بشيء" فيه تفنن في التعبير، وجمال في الصياغة، وسر ذلك أمران: وهما أنه جاء بالإجابة في صيغة المفرد وليس الجمع: فلم يقل: ليسوا بشيء، وإنما قال: "ليس بشيء"، والمراد أن كلام الكهان لا قيمة له لأن الكذب هو الغالب عليه، وزيادة الباء في قوله "بشيء"، تفيد الاستقصاء والتهوين والتحقير من شأن كلام الكهان، والتأكيد في قولهم: "إنهم يحدثونا"، يفيد إصرار هؤلاء الناس على أن للجن وللكهان أثراً وقوة مؤثرة، ولكن قولهم: "أحياناً" يدل على أن صدق الكهان والحق في كلامهم ليس دائماً ولا مطرداً.

وقول الرسول ﷺ "تلك الكلمة"، إشارة إلى أهمية الكلمة أو الكلام الذي يخطفه الشيطان: لأنه يفتن به الناس، ويكذب به عليهم، والكلمة: المراد بها الكلام، لأن الكلمة في اللغة قد يقصد منها مجموع الكلام كما قال ابن مالك، "وكلمة بها كلام قد يُؤمّ" والعطف بالفاء في قوله ﷺ (يخطفها، فيقرها، فيخلطون معها) يصور سرعة حركة "الجني" وسرعة توصيله الكلام إلى الكهان الذين يزعمون قول الصدق، والعلم بالغيب، وبئس ما يزعمون.

فقه الحديث

وفي الحديث: النهي عن إتيان الكهان، وتصديقهم فيما يقولون، وهو حرام بإجماع المسلمين(١).

ولعل السبب في النهي عن إتيان الكهان، هو أنهم يتكلمون في مغيبات قد يصادف بعضها الإجابة، فيخشى الفتنة على الإنسان بسبب ذلك، ولأنهم يلبسون على الناس كثيراً من أمور الشرع(٢).

والسبب في إصابة الكاهن في بعض الأحيان، هو أن الجني يلقى إليه الكلمة التي يسمعها استراقاً من الملائكة فيزيد عليها أكاذيب يقيسها على ما سمع، فربما أصاب نادراً، وخطؤه هو الغالب(٣).

ويجب على ولي الأمر من محتسب وغيره أن يمنع الناس من التكسب بالكهانة وينكر عليهم أشد النكير، بل ويؤدبه إذا أخذ مقابلاً لذلك، كما يؤدب المعطي(٤).

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانياً: من واجبات الداعية: البيان والإيضاح لحقائق الأمور.

ثانياً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: كذب الكهان وتلبيسهم للأمور.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

حيث جاء في الحديث "سأل رسول الله ﷺ أناس عن الكهان فقال: ليسوا بشيء" وأسلوب السؤال والجواب من أساليب الدعوة التي تساعد على توضيح وبيان

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ٢٢/٥، وفتح الباري، ابن حجر ٢١٩/١٠.

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١٤١/٣.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٢١٩/١٠.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي ٢٢/٥، وفتح الباري، ابن حجر ٢١٩/١٠.

الحقائق للمدعوين، وتفتح حواراً بين الداعية والمدعو (وللسؤال والجوب قيمة تأثيرية عظيمة لدى طارحي الأسئلة، الذين يتلقون الإجابات على أسئلتهم ممن وجهوها لهم، ولدى المستمعين الآخرين فطبيعة السائلين أن يطرحوا أسئلتهم عادة على من يحترمونه ويقدرونه ويثقون بعلمه وأمانته العلمية وبقدرته على فهم أسئلتهم فهماً دقيقاً فهم إذا تلقوا منه الجواب تلقفوه تلقفاً لأن كل أبواب أفكارهم ونفوسهم متفتحة لتلقي الإجابة منه)[1]. ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب السؤال والجواب قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ﴾[2] وقوله سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ﴾[3] وقوله جل شأنه: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾[4].

ثانياً- من واجبات الداعية: البيان والإيضاح لحقائق الأمور:

حيث جاء في الحديث "تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه فيخلطون معها مائة كذبة" والبيان والإيضاح لحقائق الأمور من أهم واجبات الداعية وقد بين النبي ﷺ في هذا الحديث ما يفعله الكهان قال ابن حجر: (قال الخطابي: بين ﷺ أن إصابة الكاهن أحياناً إنما هي لأن الجني يلقي إليه الكلمة التي يسمعها استراقاً من الملائكة فيزيد عليها أكاذيب يقيسها على ما سمع، فربما أصاب نادراً وخطؤه الغالب)[5].

وقال النووي: (وقوله "تلك الكلمة من الجني يخطفها" أي الكلمة المسموعة من الجن أو التي تصح مما نقلته الجن)[6].

---

(١) فقه الدعوة إلى الله تعالى، الشيخ عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ص ٥٨/١.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٢٢.

(٣) سورة الأنفال، آية: ١.

(٤) سورة الأحزاب، آية: ٦٣.

(٥) فتح الباري، ابن حجر ٢٣٠/١٠.

(٦) شرح صحيح مسلم، النووي .

ثالثاً- من أساليب الدعوة: التوكيد:

حيث جاء في الحديث "إن الملائكة تنزل في العنان..." وأسلوب التوكيد من أساليب الدعوة التي تقنع المدعو بما يقول الداعية، وتبين له مدى صدقه فيما يقول. جاء في البلاغة الواضحة: (وللمخاطب ثلاث حالات:

١-أن يكون خالي الذهن من الحكم، وفي هذه الحال يلقى إليه الخبر خالياً من أدوات التوكيد.

٢-أن يكون متردداً في الحكم طالباً أن يصل إلى اليقين في معرفته، وفي هذه الحال يحسن توكيده له ليتمكن من نفسه.

٣-أن يكون منكراً له، وفي هذه الحال يجب أن يؤكد الخبر بمؤكد أو أكثر على حسب إنكاره قوة وضعفاً)[١]. ومن صور استعمال القرآن لأسلوب التوكيد قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾[٢] وقوله جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾[٣].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: كذب الكهان وتلبيسهم للأمور:

حيث جاء في الحديث "فيخلطون معها مائة كذبة" وقوله "فيوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم". قال المازري: (وأما الكهان فهم قوم يزعمون: أنهم يعلمون الغيب بأمور تلقى في نفوسهم وقد أكذب الشرع من ادّعى علم الغيب ونهى عن تصديقهم.

وقد ذكر في كتاب مسلم عن النبي ﷺ وجه إصابة بعضهم. في بعض الأحايين، وأنه من استراق السمع يسترقه ولي الكاهن ويوصله إليه.

وأما التنجيم: فمن اعتقد اعتقاد كثير من الفلاسفة في كون الأفلاك فاعلة لما تحتها، وكل فلك يفعل فيما تحته، حتى ينتهي الأمر إلينا وسائر الحيوان والمعادن والنبات، ولا صنع للباري سبحانه وتعالى في ذلك؛ فإن ذلك مروق في الإسلام.

---

(١) البلاغة الواضحة، علي الجارم، ومصطفى أمين، ص ١٨٨.

(٢) سورة النبأ، آية: ٣١.

(٣) سورة الانفطار، آية: ١٣.

وأما قوله ﷺ: "يُقرُّها في أذن وليه قرَّ الدجاجة".

يقال: قررت الخبر في أذنه أقره قراً إذا أودعته. وقرَّ الطائر قريراً: صوّت، قاله بعضهم. وقال غيره: قرت الدجاجة قراً وقريراً.

وفي رواية الفربري عن البخاري: قر الدجاجة -بكسر القاف- وهو حكاية صوتها. قال الخطابي في غريبه: قرَّت تقِر قراً وقريراً، إذا رجَّعت فيه.

قيل: قرقرت قرقرةً، وقرَّ قريراً.

قال الشاعر:

وإن قَرْقَرتْ هاجَ الهوى قَرْ قَريرُها

وقال آخر:

صوتُ الشُّقِرَّاقِ إذْ قال قِرِرْ

فأظهر التخفيف على الحكاية.

قال: والمعنى أن الجنِّي يقذفُ بالكلمة إلى وليه الكاهن فيتسامع بها الشياطين كما تُؤذِّن الدجاجة بصوتها صواحباتها فتتجاوب.

قال: وفيه وجه آخر: وهو أن تكون الرواية: كقر الزجاجة. يدل عليه قول البخاري "فتقرُّها في أذنه كما تقرُّ القارورة". فذكر القارورة في هذه الرواية يدل على ثبوت الرواية بالزجاجة)[1].

قال القاضي عياض: (قوله: كنا نأتي الكهان، قال: "فلا تأتوا الكهان"، قالوا: كنا نتطير، قال: "ذلك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنكم": أي لا يصدنكم عما كنتم تريدون فعله. قيل: دل من هذا أن النبي ﷺ إنما نهى عن الطيرة أن تعتقد أن لها تأثيراً، ويصمم على العمل بها عمل أهل الجاهلية، وأن نفيه لها نفي لحكمها لا نفي لوجودها إذا كانت الجاهلية تعتقدها، وتدين بها، ويجدون تأثيرها مما يقع في أوهامهم وتصادف قدر الله وما أمر الكهان.

---

(١) المعلم بفوائد مسلم ٢/٢٧٥، ٢٧٩، ٢٨٠ بتصرف.

وقوله في الحديث الآخر: إنهم يحدثونا بالشيء فنجده حقاً، قال: "تلك الكلمة الحق يخطفها الجني، فيقذفها في أذن وليه ويزيد فيها مائة كذبة": كذا لهم، وهو الصواب. وفي رواية: "يحفظها"، والأول المحفوظ ونص كتاب الله، قال الله سبحانه: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾[1].

والكهانة كانت في العرب على أربعة ضروب[2]:

أحدهما: أن يكون له إنسان أي من الخير[3] فيخبره بما يسترق من السمع من السماء، وهذا القسم قد بطل منذ بعث الله محمداً ﷺ، كما نص الله تعالى في الكتاب[4].

الثاني: أن يخبره بما يطرأ في أقطار الأرض وما خفي عنه بما قرب أو بعد، وهذا لا يبعد وجوده ونفت هذا كله المعتزلة وبعض المتكلمين وأحالوه، ولا إحالة ولا بعد في وجود مثله، لكنهم يصدقون ويكذبون، والنهي عام في تصديقهم والسماع منهم.

الثالث: التخمين والخرز، وهذا يخلق الله منه لبعض الناس قوة ما لكن الكذب في هذا الباب أغلب.

ومن هذا الفن العرافة، وصاحبها عراف، وهو الذي يستدل على الأمور بأسباب ومقدمات يدعي معرفتها بها، وقد يعتضد بعض أهل هذا الفن في ذلك بالزجر والطرق والنجوم وأسباب معتادة وهذا الفن هي العيافة بالياء، وكلها ينطلق عليها اسم الكهانة عندهم، ويعلمها في أكثر كتبهم.

وقوله فيهم: "ليسوا على شيء" دليل على بطلان قولهم، وأنه لا صحة ولا حقيقة له، وفيه جواز الغلو في اللفظ وإطلاق مثل هذا اللفظ العام، والمراد به الخاص من أحوالهم

---

(١) سورة الصافات، آية: ١٠.

(٢) ما ذكره القاضي ثلاثة وليس أربعة ونص على هذا النووي. انظر: شرح صحيح مسلم، النووي ١٣٩٠.

(٣) المراد: أن يكون للإنسان ولي من الجن. انظر: شرح صحيح مسلم، النووي ١٣٩٠.

(٤) انظر: الآيات: ٦-١٠ من سورة الصافات، والآيتان: ٨، ٩ من سورة الجن.

لا ذواتهم؛ لأنهم أشياء بلا شك، ولا يعد هذا كذباً)[١]. قال النووي: (وهذه الأضرب كلها تسمى كهانة وقد أكذبهم كلهم الشرع، ونهى عن تصديقهم وإتيانهم والله أعلم)[٢].

قال القاضي عياض أيضاً: (وقوله: "فيقرها في أذن وليه فيخلطون معها مائة كذبة" قيل: إن معناه: أن الجني يقرها في أذن وليه الكاهن يسامع بها الشياطين، كما تؤذن الدجاجة بصوتها صواحبها، فيتجاوبن، وذلك من شأنهن قوله وأما ما ذكر عن الفربرى أنه رواه: "قر" بكسر القاف، فلم يضبطه عن الفربرى من جميع الطرق ولا عن غيره، ولا يصح الكسر فيه ولو صحت به الرواية، لكنه وضع في كتب بعض الشيوخ كما قال.

وقوله: "فيقذفها في أذن وليه": أي بلغتها، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾[٣]. قال نفطويه: أن يلقي الحق في قلب من يشاء، ويحتمل أن يكون معناه: أن يقول في أذن وليه ما لا يعلم، ولا حقيقة عنده منه إلا ما استرق من كلمة من قصة لا يدري شرحها وتمامها، قال الله تعالى: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾[٤]، أي يتخرصون ويقولون ما لا يعلمون.

وفي الحديث الآخر من رواية صالح عن الزهري: "يقرفون فيه ويزيدون فيه" بالذال، هذه رواية الجلودي وغيره، وهي بمعنى ما تقدم من التخوض، وقول ما لا يعلمون.

وفي رواية ابن ماهان من طريق الهوزني: "ويقرفون" بالراء، وكذا جاء بغير خلاف في رواية الأوزاعي ومعقل، ومعناه عندي: أن يكون من الخلط. قال صاحب العين: القرف: الخلط، أي يخلطون فيها من الكذب، كما قال ويزيدون)[٥].

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم المسمى، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ١٥٢/٧-١٥٤ بتصرف.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ١٣٩٠.

(٣) سورة سبأ، آية: ٤٨.

(٤) سورة سبأ، آية: ٥٣.

(٥) إكمال المعلم بفوائد مسلم المسمى، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ١٥٨/٧-١٥٩.

قال القرطبي: (والكهان: جمع كاهن، ككتَّاب: جمع كاتب، والكهانة ادِّعاء علم الغيب وإذا كان أمرهم كذلك فسؤالهم عن غيبٍ ليخبروا عنه حرام، وما يأخذون على ذلك حرام، ولا خلاف فيه، لأنه حلوان الكاهن المنهي عنه.

قال أبو عمر: ويجب على من ولي الحسبة أن يقيمهم من الأسواق، وينكر عليهم أشدَّ النكير، ولا يدع أحداً يأتيهم لذلك؛ وإن ظهر صدق بعضهم في بعض الأمور؛ فليس ذلك بالذي يخرجهم عن الكهانة، فإن تلك الكلمة إما خطفة جني، أو موافقة قدرٍ ليغتر به بعضُ الجهال، ولقد انخدم كثيرٌ من المنتسبين للفقه والدين، فجاؤوا إلى هؤلاء الكهنة والعرافين فبهرجوا عليهم بالمحال، واستخرجوا منهم الأموال، فحصلوا من أقوالهم على السَّراب، ومن أديانهم على الفساد، والضلال.

وقوله: "تلك الكلمة يخطفها الجني، فيقذفها في أذن وليه" أي: يرميها في أذنه، ويسمعه إياها. وفي الرواية الأخرى: "فيقرها في أذن وليه قرّ الدجاجة" أي: يضعها في أذنه. يقال: قررت الخبر في أذنه أقره قراً. ويصح أن يقال: ألقاها في أذنه بصوت. يقال: قرَّ الطائر: صوت. و"قرَّ الدجاجة" [بكسر القاف-حكاية: صوتها. قال الخطابي: قرَّت الدجاجة] تقرُّ قراً. وقريراً: إذا رجعت فيه.

قال: والمعنى أن الجني يقذف الكلمة إلى وليه الكاهن فيتسامع بها الشياطين، كما تؤذن الدجاجة بصوت صواحباتها فتتجاوب.

قلتُ: والأشبه بمساق الحديث أن يكون معناه: أن الجني يلقي إلى وليه تلك الكلمات بصوت خفي متراجع يُزَمزِمُه، ويُرَجِّعه له كما يلقيه الكهان للناس؛ فإنهم تُسمع لهم زمزمة، وإسجاع، وترجيع، على ما عُلم من حالهم بالمشاهدة والنقل. ولم يختلف أحدٌ من رواة مسلم أن الرواية في هذا اللفظ: قرَّ الدجاجة: يعني به الطائر المعروف. واختلف فيه عن البخاري. فقال بعض رواته: كقر الزجاجة بالزاي. قال الدارقطني: هو مما صحفوا فيه. والصواب: الدجاجة -بالدال-. وقيل: الصواب الزجاجة؛ بدليل ما قد رواه البخاري: فيقرُّها في أذنه؛ كما تُقِرُّ القارورة، وهي بمعنى الزجاجة. أي: كما يسمع صوت الزجاجة إذا حكت على شيء، أو إذا ألقي فيها ماء، أو شيء[1].

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، ابو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٥/٦٣٢-٦٣٤ بتصرف.

قال ابن حجر: (ومن أنواع الكهانة ما يتلقونه الكهان من الجن ومنها ما يخبر الجني به من يواليه ومنها ما يستند إلى ظن وتخمين وحدس ومنها ما يستند إلى التجربة والعادة فيستدل على الحادث بما وقع قبل ذلك ومن هذا القسم الأخير ما يضاهي السحر وكل ذلك مذموم شرعاً.

والكهانة: هي ادعاء علم الغيب كالإخبار بما سيقع في الأرض مع الاستناد إلى سبب والأصل فيها استراق الجني السمع من كلام الملائكة فيلقيه في أذن الكاهن، والكاهن لفظ يطلق على العراف والذي يضرب بالحصى والمنجم، ويطلق على من يقوم بأمر آخر ويسعى في قضاء حوائجه وقال الخطابي: الكهنة قوم لهم أذهان حادة ونفوس شريرة وطباع نارية فألفتهم الشياطين لما بينهم من التناسب في هذه الأمور ومساعدتهم بكل ما تصل إليه قدرتهم)[١].

وقال ابن حجر أيضاً: (وقوله في الحديث "فيخلطون معها مائة كذبة" هو دال على أن ذكر المائة للمبالغة لا لتعيين العدد)[٢].

وجاء في الموسوعة الفقهية الميسرة: (الكهانة هي الإخبار بالمغيبات. والكهانة على نوعين:

أ- كهانة مبنية على أسس علمية، وهي مشروعة، كالتكهن بنزول المطر غداً، أو بارتفاع درجات الحرارة، ونحو ذلك، وذلك بناء على دراسة الأحوال الجوية، وقد كان هذا في القديم يعتبر كفراً، لأنه لم يكن مبنياً على أسس علمية.

ب- كهانة مبنية على أسس غير علمية، كضرب الحصى، وقراءة الرمل، وقراءة الكف، والتنجيم، وإخبار الجن، ونحو ذلك.

حكمها: هذا النوع الثاني من الكهانة محرم، ويبنى على كونه محرماً ما يلي:

١- كل كسب يأتي من طريقه فهو كسب حرام، وقد نهى رسول الله ﷺ عن ثمن الكلب، ومهر البغي، وحلوان الكاهن[٣].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٢٢٧/١٠.

(٢) المرجع السابق نفسه ٢٣١/١٠.

(٣) أخرجه البخاري ٥٧٦١، ومسلم ١٥٦٧.

٢- ولا يجوز لمسلم أن يأتي كاهناً ليسأله عن أمر من أمور الغيب، لقوله ﷺ: ((من أتى كاهناً أو عَرَافاً فصدَّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد))[١].

٣- كفر الكاهن: الكاهن الذي يدعي علم الغيب من غير اعتماد على أسس علمية فإنه كافر، لأن الله تعالى أخبرنا أنه لا يظهر علمه لمخلوق إلا أن يكون معجزة لنبي، قال تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾[٢]، ولكنه لا يقام عليه حد الردة حتى يستتاب، فإن تاب وإلا قتل)[٣].

---

(١) أخرجه أحمد ٤٢٩/٢ رقم ٩٥٣٦، وقال محققو المسند: حديث حسن رجاله ثقات رجال الصحيح، ٣٣١/١٥.

(٢) سورة الجن، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

(٣) الموسوعة الفقهية الميسرة، د. محمد رواس قلعة جي ١٦٦١/٢-١٦٦٢.

الحديث رقم (١٦٧١)

١٦٧١- وعن صَفيَّةَ بِنتِ أبي عُبيدٍ، عن بعض أزواجِ النَّبيِّ ﷺ، ورَضِيَ اللَّهُ عنها، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: ((**مَنْ أتَى عَرَّافاً فَسَأَلَهُ عنْ شَيْءٍ (فَصَدَّقَهُ)** [١]، **لَمْ تُقبَلْ لَهُ صَلاةٌ أرْبَعِينَ يَوماً**)) رواه مسلم[٢].

ترجمة الراوي:

صفية بنت أبي عبيد: صفية هي بنت أبي عبيد بن مسعود الثقفية امرأة عبدالله بن عمر بن الخطاب، ذكرها ابن عبدالبر في الاستيعاب فجعلها من الصحابة، وقال ابن الأثير: أدركت النبي ﷺ ولا يصح لها سماع من النبي أ.هـ.

وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة: كأنها لم تميز إلا بعد الوفاة النبوية أ. هـ.

وترجم لها المزي في تهذيب الكمال، فذكر أنها روت عن ثلاث من أزواج النبي ﷺ هن: حفصة بنت عمر وعائشة وأم سلمة[٣].

غريب الألفاظ:

عَرَّافا: هو: المنجم أو الحازي الذي يدعي عِلم الغيب - وقد استأثر الله تعالى به[٤].

الشرح الأدبي

هذا الحديث يرسى قاعدة شرعية وهي عدم تصديق العرافين، لأن تصديقهم يحبط عمل الإنسان: وأول مظاهر الإحباط هو: عدم قبول صلاته أربعين يوماً،

---

(١) هذه الزيادة لا توجد عند مسلم، وهي عند المنذري في ترغيبه، وتبعه عليه المؤلف.

(٢) برقم (١٢٥/٢٢٣٠). أورده المنذري في ترغيبه (٤٤٧٥).

(٣) الطبقات الكبرى (٤٧٢/٨)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٩١٧، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (١٧٢/٧)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١٧٢٢، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (٥٤٦/٨)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٦٧٩/٤).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ر ف).

والحديث السابق جاء في أسلوب المحاورة، والسؤال والجواب، أما هذا الحديث فقد ورد في صيغة الجواب والشرط، وهذه الصيغة تفصح عن أن الجزاء من جنس العمل، فالناس مجزيون بأعمالهم: إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، والإيجاز هو: سمة الحديث، لأنه يتكون من جملة شرطية واحدة، وجملة: فعل الشرط تتضمن ثلاثة أفعال ماضية متوالية يجمع بينها: العطف بالفاء: وهو يصور تتابع الحركة، وسرعة الذهاب والسؤال والتصديق: ولنتأمل هذا الإيقاع الحركي المصور لهذا المشهد المتنامي: "من أتى عرافاً فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل صلاته.... الحديث".

وجواب الشرط: هو الجزاء الأوفى المناسب لهذا السلوك الشائن: حيث بدأ الجواب: بالنفي... "لم تقبل" والنفي هنا بـ"لم". وهي حرف نفي وقلب وجزم، فتصديق الكاهن في دائرة النفي، وواقع السائل المصدق قد تغير وانقلب إلى الضد من الرضا والقبول إلى الإحباط وعدم قبول صلاته أربعين يوماً، وهذا حكم جازم وقرار حاسم، والتنكير في قوله: "صلاة"، يفيد العموم حتى يشمل عدم القبول لجميع أنواع الصلوات: الفرض والنفل والتطوع، وجميع أنواع السنن. نعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ونسأله العون والسداد والهدى والرشاد.

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه حرمة إتيان العراف[1]، وهو من جملة أعمال الكهانة المنهي عنها في الحديث السابق رقم (١٦٧٠).

ولعل معنى عدم قبول صلاته، أنه لا ثواب عليها، وإن كانت مجزئة في سقوط الفرض عنه، ولا يحتاج معها إلى إعادة، شأنها في ذلك شأن الصلاة على الأرض المغصوبة، فهي مسقطة للقضاء، ولكن لا ثواب فيها[2].

---

(١) الفروع، ابن مفلح ١٧١/٦، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ١٦٩/٦، وشرح صحيح مسلم، النووي ٢٢٧/١٤، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٣٦٨/٧-٣٦٩.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ٢٢٧/١٤، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٣٦٨/٧، ٣٦٩.

والسبب في تحريم إتيان العراف، وبطلان أخذ الأجرة على ذلك، هو أن ذلك من باب أكل المال بالباطل، ويدخل في ذلك كل ما يمنع منه الشرع من الرجم بالغيب[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الشرط، والترهيب.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: حرمة إتيان العرافين.

ثالثاً: من أهداف الدعوة: التحذير من أنواع الشرك ومبطلات العمل الصالح.

أولاً- من أساليب الدعوة: الشرط، والترهيب:

١-الشرط: حيث جاء في الحديث "من أتى عرافاً فسأله..." وأسلوب الشرط من أساليب الدعوة التي تلفت انتباه المدعو وتشده إلى معرفة الجواب، وتربط للمدعو بين الشرط وجوابه فالجزاء من جنس العمل ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب الشرط قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[2] وقوله جل شأنه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[3].

٢-الترهيب: حيث جاء في الحديث "لم تقبل له صلاة أربعين يوماً" وأسلوب الترهيب من أساليب الدعوة التي تردع المدعو عن الوقوع في المخالفات الشرعية، والمحظورات الدينية (إن للترهيب أهمية كبيرة في الدعوة لأن هنالك بعضاً من الناس وأصنافاً منهم لا يجدي فيهم الترغيب والوعود الجميلة وإنما ينفع معهم التقريع والتعنيف وكسر حدة النفس ونتوئها وإعراضها عن الحق وإلزامها كلمة التقوى فكان الترهيب والتخويف مناسباً لذلك)[4]. ومن صور استعمال أسلوب الترهيب في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ

---

(١) شرح عمدة الأحكام لابن دقيق العيد ١٣٥/٣.

(٢) سورة الكهف، آية: ١١٠.

(٣) سورة طه، آية: ١٢٤.

(٤) وسائل الدعوة، د. عبدالرحيم المغذوي ١٩٤.

ٱلۡعَذَابِ﴾[١] وقوله جل شأنه: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ﴾[٢].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: حرمة إتيان العرافين:

حيث جاء في الحديث "من أتى عرافاً فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوماً". قال النووي: (وأما العراف فهو من جملة أنواع الكهان قال الخطابي وغيره: العراف هو الذي يتعاطى معرفة مكان المسروق ومكان الضالة ونحوهما، وأما عدم قبول صلاته فمعناه أنه لا ثواب له فيها وإن كانت مجزئة في سقوط الفرض عنه ولا يحتاج معها إلى إعادة)[٣].

وقال ابن عثيمين: (والكهان هم أناس من بني آدم لهم أولياء من الجن يخبرونهم بما يستمعون من الملائكة وأخبر النبي ﷺ أن هذا الحق الذي يقع يكون ممزوجاً بمائة كذبة. وهؤلاء الكهان يجب علينا أن نكذبهم وألا نصدقهم ومن أتاهم وسألهم وصدقهم فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ ومن هذا يتبين حرمة أن يأتي الإنسان الكهان فيصدقهم كمن أتى عرافاً فسأله لم تقبل له صلاة أربعين يوماً مجرد ما يسأل العراف ومنه الكهان لا تقبل له صلاة أربعين فعل يوماً فإن فقد كفر بما أنزل محمد ﷺ)[٤].

وقال ابن عثيمين أيضاً: (فالذي يصدق الكاهن في علم الغيب، وهو يعلم أنه لا يعلم الغيب إلا الله فهو كافر كفراً أكبر مخرجاً عن الملة، وإن كان جاهلاً ولا يعتقد أن القرآن فيه كذب فكفره كفر دون كفر.

ويؤخذ من الحديث: تحريم إتيان العراف وسؤاله، لما في إتيانهم وسؤالهم من المفاسد العظيمة، وهم في الغالب يأتون بأشياء كلها باطلة)[٥].

---

(١) سورة غافر، آية: ٤٦.

(٢) سورة المطففين، آية: ١٥، ١٦.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ١٣٩٢.

(٤) شرح رياض الصالحين ١٧٤٩/٢.

(٥) القول المفيد ٥٢/٢-٥٥ بتصرف.

وقال ابن باز: (فالواجب على المسلمين الحذر من ذلك والتواصي بتركه، والاعتماد على الله سبحانه، والتوكل عليه في كل الأمور، ولا بأس بتعاطي الرقى الشرعية والأدوية المباحة والعلاج عند الأطباء الذين يستعملون الكشف على المريض والتأكد من مرضه بالأسباب الحسية والمعقولة)[1].

قال عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني: (ومما ينبغي التنبيه عليه موضوع الادعاءات الكاذبة التي يقوم بها بعض مدّعي الاتصال بالجن، والافتراءات على الله التي يفترونها، فينسبون إلى الجن بعض علم الغيب، وينقلون عنهم كذباً يزعمونه من علم الغيب، ويتلاعبون بعقول السذج من النساء وصغار العقول. أو يدّعون قدرة الجن على النفع أو الضرر، والجن أنفسهم لا حول لهم ولا طَوْل، ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً إلا أن يشاء الله.

وقد بيَّن القرآن أن أهل الجاهلية الذين كانوا يعوذون برجال من الجن لم ينفعوهم شيئاً، بل زادوهم غياً وضلالاً، وبعداً عن الأمن الذي يرجونه منهم.

كما نددت الأحاديث الكثيرة بالذين يصدقون الكهنة والمنجمين، ويعتمدون عليهم، ويرجون نفعهم، أو يخشون ضرهم، باعتبار أن ذلك شرك بالله، وإثم عظيم.

فعن حفصة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: ((من أتى عرافاً فسأله عن شيء، لم تقبل له صلاة أربعين ليلة))[2].

فهؤلاء المنجمون والمنجمات، والمشعوذون والمشعوذات، والساحرون والساحرات، الذين ينسبون للجن النفع أو الضرر، ويتحدثون عنهم بالمغيبات إنهم -وإن صدقوا في بعض ما يخبرون به- كذابون دجالون، عصاة لله والرسول، يريدون أن يستولوا على المغفلين ضعفاء الإيمان، ليضللوهم، ويسلبوا لهم أموالهم بغير حق؛ فالاستعاذة لا تكون إلا بالله، والاستعانة لاتكون إلا بالله.

(١) إقامة البراهين على حكم من استغاث بغير الله أو صدّق الكهنة والعرافين، عبدالعزيز بن باز ص ٣٥.

(٢) أخرجه مسلم ٢٢٣٠.

وإن يكن للجن شيء من القوة المادية فيما بينهم، فقد صرفهم الله في مجرى العادات عن أن يكون لهم سلطان على الإنس في نفع أو ضر، إلا أن يشاء الله شيئاً من ذلك، ولعل تسلط بعضهم إنما يكون على من يستعيذ بهم، أو يتخوف منهم ويخشاهم، دون أن يلتجئ إلى الله مستعيذاً به من شرهم، ومن شر كل ذي شر)[1].

وجاء في الموسوعة الفقهية: (أجمع الفقهاء على أن التكهن والكهانة بمعنى ادعاء علم الغيب والاكتساب به حرام، كما أجمعوا على أن إتيان الكاهن للسؤال عن عواقب الأمور حرام، وأن التصديق بما يقوله: كفر، لما ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ))[2]، ونهى عن أكل ما اكتسبه بالكهانة، لأنه سحت، جاء عن طريق غير مشروع، كأجرة البغي، روى أبو مسعود الأنصاري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ ((نهى عن ثمن الكلب، ومهر البغي، وحلوان الكاهن))[3]، وهو ما يأخذه على كهانته، وتشمل الكهانة كل ادعاء بعلم الغيب الذي استأثر الله بعلمه، ويشمل اسم الكاهن: كل من يدعي ذلك من منجم وعراف وضراب بالحصباء ونحو ذلك.

وكان للعرب في الجاهلية كهانة قبل مبعث الرسول ﷺ، وكان لهم كهنة، فكان منهم من يزعم: أن تابعاً من الجن ورِئياً، يلقي إليه الأخبار.

ويروى أن الشياطين كانت تسترق السمع فتلقيه إلى الكهنة فتزيد فيه ما تزيده فيقبله الكفار منهم.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: تصعد الشياطين أفواجاً تسترق السمع فينفرد المارد منها فيعلو فيرمى بالشهاب فيصيب جبهته، أو جنبه حيث يشاء الله منه فيلتهب فيأتي أصحابه وهو يلهب فيقول: إنه كان من الأمر كذا وكذا فيذهب أولئك إلى إخوانهم من الكهنة فيزيدون عليه أضعافه من الكذب فيخبرونهم به، فإذا رأوا شيئاً مما قالوا

---

(١) العقيدة الإسلامية وأسسها ٢٩٣، ٢٩٤.

(٢) أخرجه أحمد ٤٢٩/٢ رقم ٩٥٣٦ وقال محققو المسند: حديث حسن رجاله ثقات رجال الصحيح، ٣٣١/١٥.

(٣) أخرجه البخاري ٥٧٦١، ومسلم ١٥٦٧.

قد كان، صدقوهم بما جاءوهم من الكذب[١]، فلما بعث النبي ﷺ وحرست السماء بطلت الكهانة بالقرآن الذي فرق الله به بين الحق والباطل، أطلع الله نبيه ﷺ بالوحي على ما يشاء من علم الغيوب التي عجزت الكهانة عن الإحاطة به وأغناه بالتنزيل، وأزهق أباطيل الكهانة.

وأبطل الإسلام الكهانة بأنواعها، وحرم مزاولتها وقرر أن الغيب لا يعلمه إلا الله، فقال عز من قائل: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[٢]. وأما حكم الكاهن من حيث الردة وعدمها وكذب مزاعم الكهنة أن الشياطين تأتي لهم بخبر السماء قال تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾[٣] وأما حكم الكاهن من حيث الردة وعدمها فقد قال الفقهاء: الكاهن يكفر بادعاء علم الغيب، لأنه يتعارض مع نص القرآن، قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[٤]، أي عالم الغيب هو الله وحده فلا يطلع عليه أحداً من خلقه إلا من ارتضاه للرسالة، فإنه يطلعه على ما يشاء في غيبه[٥].

ثالثاً- من أهداف الدعوة: التحذير من أنواع الشرك ومبطلات العمل الصالح:

يتضح هذا من سياق الحديث حيث جاء الإسلام لتنقية عقيدة المسلم من أنواع الشرك والضلالات الاعتقادية "لقد حرص الإسلام في كل تشريعاته على سلامة العقيدة في قلب المسلم ليكون دائماً وأبداً متصلاً بالله، معتمداً عليه، مقراً لله بالربوبية، مستعيناً به على شدائد الحياة لا يتوجه لغيره في دعاء، ولا يقر لسواه بأي تأثير، أو تحكم في قانون من قوانين الطبيعة التي خلقها الله تعالى وسيرها بعلمه

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١١/١٤.

(٢) سورة النمل، آية: ٦٥.

(٣) سورة الشعراء، الآيتان: ٢١١، ٢١٢.

(٤) سورة الجن، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

(٥) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٣٥/١٧٢-١٧٣.

وقدرته وإرادته فإن زعم إنسان أنه يعلم الغيب باتصاله بالكواكب، وتعظيمه لها أو اتصاله بالجن والشياطين، ويستطيع بذلك أن يؤثر في قوانين هذه الحياة يكون بذلك قد خالف شرعة الله التي أوضحها في كتابه أو تجاوز الحدود التي وضعت)[١].

وقال د. صالح الفوزان: (والكهانة والعرافة أعمال شيطانية محرمة تخل بالعقيدة أو تناقضها لأنها لا تحصل إلا بأمور شركية فمن ادعى علم الغيب ومشاركة الله عز وجل في شيء من ذلك بكهانة أو غيرها أو صدق من يدعي ذلك فقد جعل لله شريكاً فيما هو من خصائصه والكهانة لا تخلو من الشرك، لأنها تقرب إلى الشياطين بما يحبون، فهي شرك في الربوبية من حيث ادعاء مشاركة الله في علمه، وشرك في الألوهية من حيث التقرب إلى غير الله بشيء من العبادة)[٢].

قال القاضي عياض: (وفي الحديث قوله: "من أتى عرافاً فسأله عن شيء لن تقبل له صلاة أربعين يوماً" تقدم معنى العرافة، وأنه من الكهان. قال الهروي: العراف: الحاذي والمنجم الذي يدعي علم الغيب، وقد استأثر الله به.

وأما معاقبته بترك قبول صلاته، فمذهب أهل السنة: أن السيئات لا تبطل الحسنات ولا يحبطها شيء إلا الكفر، والمراد بهذا [القبول] -والله أعلم- قبول الرضى وتضعيف الأجر، ولا قبول الأداء وسقوط العهدة.

وأما اختصاصه بأربعين ليلة في قبول صلاته، وقد جاء مثل هذا في شارب الخمر[٣] - فمن أسرار الحكمة الشرعية، وقد جاء عدد الأربعين في تنقل أطوار الخلق في الرحم؛ من النطفة، والعلقة، والمضغة[٤]، وجاء الحد في قص الأظافر والشارب، وحلق العانة أربعون يوماً[٥]، فيحمل في شارب الخمر أنه ينتقل اللحم المتولد عما شرب من الخمر وتبدله بغيره.

---

(١) روائع البيان تفسير آيات الأحكام، الشيخ محمد علي الصابوني ١/٨٧.

(٢) عقيدة التوحيد، د. صالح الفوزان، ١٠١، ١٠٢.

(٣) جاء في الحديث "من شرب الخمر فسكر لم تقبل صلاته أربعين ليلة.." والحديث أخرجه أحمد في مسنده ٢/١٨٩ رقم ٦٧٧٣. وقال محققو المسند: صحيح لغيره، ١١/٣٨٦.

(٤) أخرجه البخاري ٣٢٠٨، ومسلم ٢٦٤٣.

(٥) أخرجه مسلم ٢٥٨.

وقد ذكر أهل التجارب أن السمن يظهر في الحيوان في أربعين يوماً. وكذلك المخلص أربعين يوماً يظهر بذلك تغيير طباعه عما كانت عليه وانتقال صفاته، ولذلك تغير نبات الشعر والأظفار في أربعين يوماً[1].

قال القرطبي: (وقوله: "من أتى عرافاً لم تُقبل له صلاة أربعين يوماً" العراف: هو الحازي والمنجِّم الذي يدعي الغيب، وهذا يدلُّ على: أن إتيان العرافين كبيرة، وظاهره أن صلاته في هذه الأربعين تحبط، وتبطل، وهو خارج على أصول الخوارج الفاسدة في تكفيرهم بالذنوب. وقد بيَّنا فساد هذا الأصل فيما تقدم. وأنه لا يحبط الأعمال إلا الردة، وأما غيرها فالحسنات تبطل السيئات كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[2] وهذا مذهبُ أهل السنة والجماعة، فليس معنى قوله: "لا تقبل له صلاة" أن تحبط، بل: إنما معناه -والله أعلم- أنها لا تقبل قبول الرضا، وتضعيف الأجر. لكنه إذا فعلها على شروطها الخاصة بها، فقد برئت ذمته من المطالبة بالصلاة، وتُقَصَّى عن عهدة الخطاب بها، ويفوته قبول المرضيِّ عنه، وإكرامه، وثوابه، ويتضح ذلك باعتبار ملوك الأرض. ولله المثل الأعلى، وذلك أن المُهدي: إما مردودٌ عليه، أو مقبول منه، والمقبول: إما مقرَّب مُكرَّم مثاب، وإما ليس كذلك. فالأول: هو المبعدُ المطرود، والثاني: هو المقبول القبول التام الكامل. والثالث: لا يصدق عليه أنه مثل الأول، فإنه لم ترد هديته. بل: قد التفت إليه، وقُبلت منه. لكنه لما لم يُثَبْ، ولم يُقرَّب صار كأنه غير مقبول منه؛ فيصدق عليه أنَّه لم يُقبل منه إذ لم يحصل له ثوابٌ ولا إكرام وتخصيصه ﷺ الأربعين بالذكر قد جاء في مواضع كثيرة من الشرع.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾[3] ومنه: توقيته ﷺ في قص الشارب، وتقليم الأظفار، وحلق العانة: ألا تترك أكثر من أربعين ليلة. فتخصيص هذه

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم المسمى، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ١٥٤/٧.

(٢) سورة هود، آية: ١١٤.

(٣) سورة البقرة، آية: ٥١.

المواضع بهذا العدد الخاص: هو سرٌّ من أسرار الشريعة لم يطَّلع عليه نصاً، غير أنه قد تتسم منه بعضُ علمائنا أمراً تسكن النفس إليه؛ وذلك: أنه قال: إن هذا العدد في هذه المواضع إنما خصَّ بالذكر لأنَّه مدَّة يكمل فيها ما ضربت له، فينتقل إلى غيره، ويحصل فيها تبدُّله، وبيانه بانتقال أطوار الخلقة، في كل أربعين منها يكمل فيها طورٌ، فينتقل عند انتهائه إلى غيره، كما قد نصَّ عليه في الحديث، وكذلك في الأربعين الميعادية: أمر بنو إسرائيل أن يكملوا تهيُّؤهم لسماع كلام الله، فكمل لهم ذلك عند انتهائها، ومثل ذلك في الأربعين الإخلاصية، وأما أربعون شارب الخمر فَلِيتبدَّل لحمُ شارب الخمر بغيره، ويؤيده أن أهل التجارب قالوا: إن السِّمن يظهر في الحيوان في أربعين يوماً، وقريبٌ من هذا الأربعون المضروبة لخصال الفطرة؛ لأنها عند انتهائها يكمل فحشها، واستقذارها، فينبغي أن تغير عن حالها. وأما أربعون إتيان العراف فلأنها -والله أعلم- المدة التي ينتهي إليها تأثير تلك المعصية في قلب فاعلها، وفي جوارحه، وعند انتهائها ينتهي ذلك التأثير. والله تعالى أعلم[1].

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٥/٦٣٥-٦٣٧.

الحديث رقم (١٦٧٢)

١٦٧٢- وعَنْ قَبِيصَةَ بنِ المُخَارِقِ ﵁ قال: سمعتُ رسُولَ الله ﷺ يقولُ: ((**العِيَافَةُ، وَالطِّيَرَةُ، والطَّرْقُ، مِنَ الجِبْتِ**)). رواه أبو داود[1] بإسناد حسن. وقال: (**الطَّرْقُ**) هُوَ الزَّجْرُ: أيْ زَجْرُ الطَّيْرِ وَهُوَ أنْ يَتَيَمَّنَ أو يَتَشَاءمَ بِطَيَرَانِهِ، فإنْ طَارَ إلَى جِهَةِ اليَمِينِ، تَيَمَّنَ، وإنْ طَارَ إلَى جِهَةِ اليَسَارِ، تَشَاءمَ. قال أبو داود: (**والعِيَافَةُ**): الخَطُّ.

ترجمة الراوي:

قبيصة بن المخارق: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٥٣٥).

غريب الألفاظ:

العيافة: أي الخطُّ[2].

الطيرة: التشاؤم بالشيء[3].

الطَّرْقُ: هو الزجر: أي زجر الطير وهو أن يتيمّن أو يتشاءم بطيرانه، فإن طار إلى جهة اليمين، تيمن، وإن طار إلى جهة اليسار، تشاءم[4].

الجبتُ: كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك[5].

الشرح الأدبي

هذا الحديث يتضمن الإشارة إلى ثلاثة من مظاهر الشرك: وهي: العيافة والطيرة والطرق، وإنها: كما قال رسول الله ﷺ "من الجبت".

ولكل لفظ من ألفاظ الأحاديث الأربعة دلالة تفصح عن المراد منه، وتقودنا إلى فهم السبب في إلحاق ﷺ الرسول هذه الأصناف الثلاثة بالكفر إن استحلَّ فاعلها ذلك، أو أنها من السحر والكهانة.

---

(١) برقم (٣٩٠٧)، وهو صحّحه ابن حبان (الإحسان ٦١٣١). أورده المنذري في ترغيبه (٤٤٨١، و ٤٥٣٨).

(٢) رياض الصالحين ٥٧٤.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ش أ م).

(٤) رياض الصالحين ٥٧٤.

(٥) رياض الصالحين ٥٧٤.

فما مدلول العيافة، إنها مأخوذة من قولنا: عافت الطير أي: استدارت على الشيء أو الماء أو الجيف، أو إذا حامت عليه تتردد ولا تمضي تريد الوقوع، ومن معانيها: الخط: لأن العَرْف هو الخط، وقال الجوهري في الصحاح: العيافة الخط، وهذا هو المراد بمعنى العيافة في الحديث، وقال الحربي: الخط: هو أن يخط ثلاثة خطوط ثم يضرب عليهن، بشعير أو نوى، ويقول يكون كذا، ويكون كذا، وهو ضرب من الكهانة، وهذا يقترب من المعنى اللغوي لأن قولهم: عافت الطير: أي حامت على الماء أو الجيف، تتردد ولا تمضي تريد الوقوع، فالذي يمارس العيافة والذي يصدقها، أشبه بمن يحوم حول الجيف ولا يحصد إلا البقايا النتنة من الحظوظ العاثرة. والطيرة: أي التطير والتشاؤم.

وذلك ينشأ من الطرق وهو زجر الطير الناشئ من التشاؤم أو التيمن بحركة الطير، وهذه عادة جاهلية ممقوتة، ولذلك نهى عنها رسول الله ﷺ كل مسلم وعدها من الجبت أي الكفر، لأنها من مظاهر الشرك التي يبرأ منها المسلم، ، ويتنزه عنها.

والجبت كما قال: الفيروز آبادى: الصنم، والكاهن، والسحر، والساحر، والذي لا خير فيه، وكل ما عُبد من دون الله تعالى.

فقه الحديث

وفي الحديث من الفقه تحريم العيافة وإبطالها[1]، وهي زجر الطير، والتفاؤل بأسمائها، وأصواتها وممرها، وقد كانت عادة العرب في الجاهلية فعل ذلك.

كما يدل هذا الحديث على تحريم الطيرة، وإبطالها، وهي التشاؤم بالشيء وأصله التطير بالسوانح، والبوارح من الطير والظباء، وغيرهما، وكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم فنفاه الشرع، وأبطله، ونهى عنه، وأخبر أنه ليس له تأثير في جلب نفع، أو دفع ضرر[2].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٢٠٠/٢٨، وشرح عمدة الأحكام ٧٣/٤، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٢٨٧/١٠.

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٢٨٧/١٠.

كما يدل هذا الحديث على النهي عن الطرق وتحريمهُ، وهو الخط في الرمل أو الضرب بالحصى الذي يفعله النساء[١]، فهذه الأمور كلها حرام، وأخذ العوض عليها حرام بالنص الصحيح في حلوان الكاهن[٢] على ما سيأتي في الحديث رقم (١٦٧٣).

المضامين الدعوية[٣]

أولاً: من مهام الداعية: البيان والإيضاح لأنواع الضلال والشرك.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: الحث على التوكل على الله والإيمان بالقضاء والقدر.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: بيان حكم علم النجوم.

رابعاً: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً- من مهام الداعية: البيان والإيضاح لأنواع الضلال والشرك:

حيث جاء في قوله: "العيافة والطيرة والطرق من الجبت" وقوله "من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر" ولا شك أن من أولى مهام الداعية البيان والإيضاح للمحظور والممنوع في الشريعة حتى يتجنبها المدعو، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٤] وأمر رسوله بالبلاغ فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[٥] وأمر المؤمنين باتباع أوامر الرسول ونواهيه قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[٦].

---

(١) المرجع السابق، الموضع نفسه.

(٢) روضة الطالبين وعمدة المفتين، الإمام النووي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض ٩/٣٤٦.

(٣) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٦٧٢- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٧٣).

(٤) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٥) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٦) سورة الحشر، آية: ٧.

فبيّن النبي ﷺ بعض أنواع الضلال التي يجب أن يبتعد عنها المسلم منها العيافة "والعيافة زجر الطير والتفاؤل والاعتبار في ذلك بأسمائها أو الطيرة هي التشاؤم بها، وقد تستعمل في التشاؤم بغير الطير من حيوان وغيره، وكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم فنفاه الشرع وأبطله ونهى عنه وأخبر أنه ليس له تأثير في جلب نفع أو دفع ضرر وبالجملة فزجر الطير هو التيمن والتشؤم بها والتفاؤل بطيرانها كالسانح والبارح وهو نوع من الكهانة. وأما الطرق: فهو الضرب بالحصى الذي يفعله النساء وقيل هو الخط في الرمل وقيل هو كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر وغير ذلك[1]".

ثانياً- من موضوعات الدعوة: الحث على التوكل على الله والإيمان بالقضاء والقدر:

حيث جاء في الحديث "العيافة والطيرة والزجر من الجبت" قال ابن علان: (وقوله "من الجبت" أي من الكفر إن استحل ذلك أو من السحر والكهانة وقد حذر منها وقيل تطلق على الصنم ومنه قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾[2] وتطلق على الكاهن والساحر ونحو ذلك من العراف والمنجم)[3].

ولاشك أن النهي عن هذه الأمور وبيان أنها من السحر والكهانة حث للمؤمن أن يحسن التوكل على الله وبهذا أمر الله، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[4] وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[5] وقال جل وعلا: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾[6] وبين الرسول الكريم في الحديث الصحيح أن السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ((هُمُ الَّذينَ لاَ يَسْتَرْقُونَ. وَلاَ

---

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١٦٦٩، ١٦٧٠.

(٢) سورة النساء، آية: ٥١.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان ١٦٨٩.

(٤) سورة المائدة، آية: ٢٣.

(٥) سورة الطلاق، آية: ٣.

(٦) سورة الفرقان، آية: ٥٨.

يَتَطَيَّرُونَ وَلاَ يَكْتَوُونَ. وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ))[١] وقال الإمام ابن القيم: (والتوكل نصف الدين، وهو أوسع المنازل وأجمعها، ولا تزال معمورة بالنازلين، لسعة متعلق التوكل، وكثرة حوائج العالمين. قال الإمام أحمد: التوكل علم القلب وقيل: هو الرضا بالمقدور وقال بشر الحافي يقول أحدهم: توكلت على الله، يكذب على الله، ولو توكل على الله رضي بما يفعل الله وسئل يحيى بن معاذ: متى يكون الرجل متوكلاً؟ فقال: إذا رضي بالله وكيلاً. قال ابن عطاء: التوكل أن لا يظهر فيك انزعاج إلى الأسباب مع شدة فاقتك إليها، ولا تزول عن حقيقة السكون إلى الحق مع وقوفك عليها)[٢].

قال د. يوسف القرضاوي: (إن المؤمن وحده هو الذي يغمره الإحساس بالرضا بعد كل قدر من أقدار الله.

المؤمن هو الذي يحسّ تلك الحالة النفسية التي تجعله مستريح الفؤاد، منشرح الصدر، غير متبرم ولا ضجر، ولا ساخط على نفسه، وعلى الكون والحياة والأحياء، ومنشأ ذلك رضاه عن وجوده الخاص في نفسه، وعن الوجود العام من حوله، ومبعث هذا وذاك رضاه عن مصدر الوجود كله، وينبوع هذا الرضا هو الإيمان بالله رب العالمين.

الرضا نعمة روحية جزيلة، هيهات أن يصل إليها جاحد بالله، أو شاكٍ فيه، أو مرتاب في جزاء الآخرة، إنما يصل إليها من قوي إيمانه بالله، وحسن اتصاله به. وقد خاطب الله رسوله ﷺ بقوله: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾[٣]. وامتن عليه بقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾[٤].

وأثنى الله تعالى على المؤمنين بقوله: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ﴾[٥].

---

(١) أخرجه البخاري ٢٧٠٥، ومسلم ٢٢٠.

(٢) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٢/٣٥٤.

(٣) سورة طه، آية: ١٣٠.

(٤) سورة الضحى، آية: ٥.

(٥) سورة البينة، آية: ٨.

المؤمن راض عن نفسه، أعني عن وجوده ومكانه في الكون، لأنه يعلم أنه ليس ذرة ضائعة، ولا كماً مهملاً، ولا شيئاً تافهاً، بل هو قبس من نور الله، ونفخة من روح الله، وخليفة في أرض الله.

وهو راضٍ عن ربه، لأنه آمن بكماله وجماله، وأيقن بعدله ورحمته، واطمأن إلى علمه وحكمته، أحاط سبحانه بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، ووسع كل شيء رحمة، لم يخلق شيئاً لهواً، ولم يترك شيئاً سدىً، له الملك، وله الحمد، نعمه عليه لا تعد، وفضله عليه لا يحد، فما به من نعمة فمن الله، وما أصابه من حسنة فمن الله، وما أصابه من سيئة فمن نفسه، يردد دائماً هذا الثناء الذي ردَّده من قبل أبونا إبراهيم خليل الرحمن: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾[1].

المؤمن موقن تمام اليقين أن تدبير الله له أفضل من تدبيره لنفسه، ورحمته تعالى به أعظم من رحمة أبويه به، ينظر في الأنفس والآفاق فيرى آثار برّه تعالى ورحمته، فيناجي ربه: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[2] فالخير بيديه، والشر ليس إليه، وما يظنه الناس شراً في الوجود ليس هو شراً في الحقيقة، وإذا كان لابد من تسميته شراً؛ فإنما هو شر جزئي خاص مغمور في جانب الخير الكلي العام، وهذا الشر الجزئي، أو الشر الموهوم اقتضاه التكافل بين أجزاء الوجود)[3].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: بيان حكم علم النجوم:

حيث جاء في الحديث "من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد" قال شرف الحق العظيم آبادي: (والمراد من أخذ وحصل وتعلم علماً من النجوم أو

---

(١) سورة الشعراء، آية: ٧٨، ٨٢.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٢٦.

(٣) الإيمان والحياة، ص ١١٠، ١١١.

مسألة من علمها اقتبس شعبة أي قطعة من السحر وقوله "زاد ما زاد" أي زاد اقتباس شعبة السحر ما زاد اقتباس علم النجوم.

قال الخطابي: علم النجوم المنهي عنه هو ما يدل عليه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي لم تقع كمجيء الأمطار وتغير الأسعار، وأما ما يعلم به أوقات الصلاة وجهة القبلة فغير داخل فيما نهى عنه. وفي شرح السنة: المنهي عنه من علوم النجوم ما يدعيه أهلها من معرفة الحوادث التي لم تقع وربما تقع في مستقبل الزمان فإن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾[1] وأما ما يدرك من طريق المشاهدة من علم النجوم الذي يعرف به الزوال وجهة القبلة فإنه غير داخل فيما نهى عنه قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[2] وقال: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[3] فأخبر الله تعالى أن النجوم طرق لمعرفة الأوقات والمسالك ولولاها لم يهتد الناس إلى استقبال الكعبة. روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: (تعلموا من النجوم ما تعرفون به القبلة والطريق ثم أمسكوا)[4].

وقال ابن عثيمين: (وعلم النجوم قسمان: الأول: علم التسيير: يعني علم سير النجوم يستدل به على الفصول وعلى طول النهار وقصره فهذا لا بأس به ولا حرج لأن الناس يهتدون به لمصالحهم.

الثاني: علم التأثير: أن يتخذ من علم النجوم سبباً يدعي به أن ما حصل في الأرض فإنه من سبب النجم كالذين يقولون في الجاهلية: مطرنا بنوء كذا وكذا وهذا محرم ولا يجوز اعتماده ومنه ما يسمونه الطالع (أي طالع هذا الولد وهذا محرم والذي صدق النجم فيه كمن صدق الكاهن)[5].

---

(١) سورة لقمان، آية: ٣٤.

(٢) سورة الأنعام، آية: ٩٧.

(٣) سورة النحل، آية: ١٦.

(٤) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١٦٦٩.

(٥) شرح رياض الصالحين ٢/١٧٤٨.

وقال د. صالح الفوزان: (وأما الكهانة وهي ادعاء علم الغيب، كالإخبار بما سيقع في الأرض مع الاستناد إلى سبب هو استراق السمع؛ حيث يسترق الجني الكلمة من كلام الملائكة، فيلقيها في أذن الكاهن، فيكذب معها مائة كذبة، فيصدقه الناس بسبب تلك الكلمة.

والله هو المتفرد بعلم الغيب؛ فمن ادعى مشاركته في شيء من ذلك بكهانة أو غيرها أو صدَّق من يدعي ذلك؛ فقد جعل لله شريكاً فيما هو من خصائصه، وهو مكذب لله ولرسوله.

وكثير من الكهانة المتعلقة بالشياطين لا تخلو من الشرك والتقرب إلى الوسائط التي يستعان بها على دعوى العلوم الغيبية.

فالكهانة شرك من جهة دعوى مشاركة الله في علمه الذي اختص به، ومن جهة التقرب إلى غير الله.

ومما يجب التنبيه عليه والتحذير منه أمر السحرة والكهان والمشعوذين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون؛ فبعضهم يظهر للناس بمظهر الطبيب الذي يداوي المرض، وهو في الحقيقة مفسد للعقائد؛ بحيث يأمر المريض أن يذبح لغير الله، أو يكتب له الطلاسم الشركية والتعاويذ الشيطانية. والبعض الآخر منهم يظهر بمظهر المخبر عن المغيبات وأماكن الأشياء المفقودة؛ بحيث يأتيه الجهال يسألونه عن الأشياء الضائعة، فيخبرهم عن أماكن وجودها، أو يحضرها لهم بواسطة الشياطين. والبعض الآخر منهم يظهر بمظهر الولي الذي له خوارق وكرامات؛ كدخول النار، وضرب نفسه بالسلاح، ومسك الحيات... وغير ذلك، وهو في الحقيقة دجال مشعوذ وولي للشيطان، وكل هذه الأصناف تريد الاحتيال والنصب لأكل أموال الناس وإفساد عقائدهم.

فيجب على المسلمين أن يحذروهم ويبتعدوا عنهم، ويجب على ولاة الأمور استتابة هؤلاء؛ فإن تابوا، وإلا؛ قتلوا لإراحة المسلمين من شرهم وفسادهم وتنفيذاً لحكم الله فيهم)[1].

---

(١) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد، د. صالح الفوزان ص ١١٦-١١٧.

جاء في الموسوعة الفقهية: (التنجيم مصدر نَجَّم يقال: نَجَّمت المال عليه إذا وزعته، كأنك فرضت أن يدفع عند طلوع كل نجم نصيباً، ثم صار متعارفاً في تقدير دفعه، بأي شيء قدرت ذلك. وكانت العرب تؤقت بطلوع النجوم لأنهم ما كانوا يعرفون الحساب. وإنما يحفظون أوقات السنة بالأنواء، وكانوا يسمون الوقت الذي يحل فيه الأداء نجماً لوقوعه في الأصل في الوقت الذي يطلع فيه النجم. واشتقوا منه فقالوا: نجّمتُ الدَّين بالتثقيل إذا جعلته نجوماً.

ويطلق التنجيم أيضاً على النظر في النجوم.

واصطلاحاً هو علم يعرف به الاستدلال بالتشكلات الفلكية على الحوادث السفلية. ولا يخرج استعمال الفقهاء له عن هذه المعاني.

والتنجيم بمعنى النظر في سير النجوم فقد قسم الفقهاء علم النجوم إلى قسمين:

الأول: حسابي: وهو تحديد أوائل الشهور بحساب سير النجوم. ويسمى من يمارس ذلك المنجم بالحساب.

ولا خلاف بين الفقهاء في جواز ممارسة التنجيم بهذا المعنى، وتعلم ما يعرف بمواقيت الصلاة والقبلة، بل ذهب جمهورهم إلى أن ذلك فرض كفاية. وجاء في حاشية ابن عابدين: والحسابي حق، وقد نطق به الكتاب في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾[1].

وأجاز الفقهاء الاعتماد عليه في دخول أوقات الصلاة وتحديد جهة القبلة.

وقالوا: إن حساب الأهلة، والخسوف والكسوف قطعي، فالله سبحانه وتعالى أجرى حركات الأفلاك وانتقالات الكواكب على نظام واحد دائم، وكذلك الفصول الأربعة. والعوائد إذا استمرت أفادت القطع، فينبغي الاعتماد عليه في أوقات الصلاة ونحوها، وفي جهة القبلة.

وفرقوا بين هذا، وبين ما ذهب إليه الأكثرون من عدم اعتبار حساب المنجمين في ثبوت هلال رمضان بأن الشارع نصب زوال الشمس سبباً لوجوب الظهر في قوله

---

(١) سورة الرحمن، آية: ٥.

عز وجل: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾[1] وكذلك بقية الأوقات، فمن علم شيئاً من ذلك لزمه حكمه. أما ثبوت هلال رمضان فقد علق الشارع وجوبه برؤية الهلال، فلم يجز الاعتماد على القواعد الفلكية، وإن كانت صحيحة في نفسها.

وذهب بعض الفقهاء إلى جواز إثبات دخول رمضان وخروجه بالحساب.

الثاني: استدلالي:

وقد عرف ابن عابدين هذا القسم بأنه علم يعرف به الاستدلال بالتشكلات الفلكية على الحوادث السفلية. وهذا القسم هو المنهي عنه إذا ادعى أصحابه أنهم يعلمون الغيب بأنفسهم منه، أو أن لها تأثيراً على الحوادث بذاتها، أما إذا أسند الحوادث لعادة أجراها الله تعالى عند الوقت الفلاني فلا يأثم بذلك لخبر: ((إذا أنشأت بحرية ثم تشاءمت فتلك غُدَيقة))[2] أي: كثيرة المطر. وهي كاستدلال الطبيب بالنبض على الصحة والمرض.

وقال ابن عابدين: إنما زجر عن ذلك لأسباب ثلاثة:

أ- أنه مضر بأكثر الخلق فإنه إذا ألقي إليهم أن هذه الآثار تحدث عقيب سير الكواكب وقع في نفوسهم أنها المؤثرة.

ب- أن أحكام النجوم تخمين محض. قال ابن عابدين: وقد كانت معجزة لإدريس عليه السلام فيما يحكى وقد اندرس.

ج- أنه لا فائدة فيه، فإن ما قدر كائن، والاحتراز عنه غير ممكن)[3].

رابعاً- من أساليب الدعوة: الترهيب:

حيث جاء في الحديث "العيافة والطيرة والطرق من الجبت" وقوله "من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد" وأسلوب الترهيب من أساليب الدعوة التي

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٧٨.

(٢) اخرجه مالك في الموطأ ١/١٩٢ بلاغاً وقال ابن عبدالبر هذا الحديث لا اعرفه بوجه من الوجوه في غير الموطأ إلا ما ذكره الشافعي في الأم.

(٣) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٤/٥٣-٥٤.

تكبح جماح النفس وتحذرها من الوقوع في المحظورات الشرعية (والترهيب هو التخويف للعمل على ترك فعل أو اعتقاد يلتزم بما أمر به، أو نهى عنه والإنسان مفطور على الإحساس باللذة والألم وهو بذلك ميال إلى كل ما يحقق له اللذة، وعازف عن كل ما يسبب له الألم ولهذا العامل تأثير كبير في تربية الإنسان وتوجيه سلوكه من خلال الترغيب والترهيب)[1].

(١) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي ٣٩٢.

الحديث رقم (١٦٧٣)

١٦٧٣- وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ الله ﷺ: ((مَنِ اقْتَبَسَ عِلْماً مِنَ النُّجُوم، اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ زَادَ ما زَادَ)). رواه أبو داود[1] بإسناد صحيح.

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

اقتبس علمًا: تَعلَّمَه[2].

شعبة: قطعة[3].

الشرح الأدبي

الحديث يوجه المسلمين إلى الانشغال بالنافع من العلوم التي تقرب من الله تعالى أو تحقق مصلحة شرعية، ودنيوية دون ما لا يعود على المسلم بطائل مما يتعلق بالتنجيم، والسحر، لأنه يضر ولا ينفع، وقوله (مَنِ اقْتَبَسَ عِلْماً مِنَ النُّجُوم) من اسم موصول متضمن معنى الشرط يربط أخذ علم النجوم بأخذ السحر، والمتأمل للتماثل بين فعل الشرط، وجزائه يدرك تشابه العاقبتين في انعدام الفائدة من تعلم العلمين، وأن الجزاء من جنس العمل، وإنما شبه النبي ﷺ علم النجوم بالسحر لأن حرمته منصوصة ونطق به التنزيل قال جل ذكره ﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ

---

(١) برقم (٣٩٠٥). أورده المنذري في ترغيبه (٤٤٨٠).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ق ب س).

(٣) المرجع السابق في (ش ع ب).

﴿أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾[البقرة١٠٢] وروى البخاري تعليقا عن قتادة قال خلق الله تعالى هذه النجوم لثلاث جعلها زينة للسماء ورجوما للشياطين وعلامات يهتدى بها فمن تأول فيها بغير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف ما لا يعلم، وقوله (زاد وما زاد) أي زاد من السحر ما زاد من النجوم، وهو توكيد للتلازم المفهوم من الشرط بين الفعل، والجزاء بما يؤكد زيادته من السحر كلما ازداد من علم النجوم.

فقه الحديث

في الحديث من الفقه تحريم علم النجوم[١]، وذلك لأن رسول الله ﷺ قد جعل من تعلم علماً من النجوم، كمن تعلم السحر، وتعلم السحر حرام فكذلك تعلم النجوم[٢].

على أنه ليس كل علم من علوم النجوم منهياً عنه، فالمنهي عنه ما يدعيه أهل التنجيم من علم الحوادث، والكوائن التي لم تقع، وستقع في المستقبل، ويزعمون أنهم يدركون معرفتها بسير الكواكب في مجاريها، واجتماعها، وافتراقها.

ولعل السبب في النهي عن هذا النوع من علوم النجوم أنه تعاطٍ لعلم قد استأثر الله تعالى به.

أما علم النجوم الذي يدرك بالمشاهدة أو بالأجهزة العلمية في الوقت الحاضر، كالذي يعرف به الزوال، وجهة القبلة، وكم مضى، وكم بقي، فغير داخل فيما نهى عنه[٣]، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾[٤]

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٩٣/٣٥، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٢٧٠/٧، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٢٨٥/١٠.

(٢) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٢٧٠/٧.

(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم ابادي ٢٨٥/١٠، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٢٧٠/٧-٢٧١.

(٤) سورة الأنعام، آية: ٩٧.

وقال: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾[1]. فأخبر الله تعالى أن النجوم طرق لمعرفة الأوقات والمسالك، ولولاها لم يهتد الناس إلى استقبال القبلة[2].

المضامين الدعوية[3]

(١) سورة النحل، آية: ١٦.

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٢٨٥/١٠.

(٣) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٦٧٤)

١٦٧٤- وعن مُعاوِيَةَ بنِ الحَكَمِ رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسُولَ اللهِ إنّي حديثُ عَهْدٍ بالجاهِلِيَّةِ، وَقَدْ جَاءَ اللهُ تَعَالَى بالإسْلاَمِ، وإنَّ مِنَّا رِجَالاً يَأْتُونَ الكُهَّانَ؟ قال: ((فَلاَ تَأتِهِمْ)) قُلْتُ: وَمِنَّا رِجَالٌ يَتَطَيَّرُونَ؟ قَالَ: ((ذَلِكَ شَيْءٌ يَجِدُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ، فَلاَ يَصُدُّهُمْ)) قُلْتُ: وَمِنَّا رِجَالٌ يَخُطُّونَ؟ قَالَ: ((كَانَ نَبِيٌّ مِنَ الأنْبِيَاءِ يَخُطُّ، فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ، فَذَاكَ)). رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

معاوية بن الحكم السُّلمي: تقدمت ترجمته في الحديث (٧٠١).

غريب الألفاظ:

الكُهّان: جمع كاهن: من يخبر بالغيب ادِّعاءً لعلمه[2].

يتطيّرون: يتشاءمون[3].

يخطُّون: الخط هو الذي يَخُطّه الحازي، وهو علمٌ قد تركه الناس، يأتي صاحب الحاجة إلى الحازي فيعطيه حُلوانًا، فيقول له اقْعُد حتى أخُطَّ لك، وبين يَدي الحازي غلام له معه ميلٌ، ثم يأتي إلى أرض رخوة فيخط فيها خطوطًا كثيرة بالعجلة لئلا يلحقلها العدد، ثم يرجع فيمحو منها على مهل خطين خطين، وغُلامه يقول للتفاؤل: ابني عيان أسرِعا البيان، فإن بقي خطان فهما علامة النجح، وإن بقي خطٌّ واحد فهو علامة الخيبة[4].

افق خطَّهُ: صادفه[5].

---

(١) برقم (٥٣٧/٣٣) ضمن حديث طويل، وقد تقدم برقم (٧٠١).

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (ك هـ ن).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ط ي ر).

(٤) المرجع السابق في (خ ط ط).

(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في (و ف ق).

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث يأتي نظمه البليغ في إطار محاورة صادقة مخلصة بين معاوية بن الحكم رضي الله عنه ورسول الله ﷺ، والغرض منها التعلم ومعرفة الحقيقة، لأن معاوية بن الحكم كان في ذلك الوقت كما قال: حديثُ عهد بجاهلية، وجاء بذلك في صيغة التوكيد للدلالة على أن عادات الجاهلية ما زالت تناوشه، وتحاول التغلب عليه، هو ومجموعة من الرجال الذين أخبر عنهم.

وإجابات رسول الله رضي الله عنه عليه تفصح عن سعة صدره ﷺ، وعن حلمه وحكمته وحسن موعظته فهو بالمؤمنين رءوف رحيم، والتأكيد بـ"قد" وهي للتحقيق والتأكيد في قوله "قد جاء الله تعالى بالإسلام" ينفي أي شبهة ترد على الظن بميل معاوية إلى تقاليد الجاهلية مرة أخرى، والتأكيد في قوله: "وإن منا رجالاً" ثلاث مرات في الحديث: يفيد أن بعض هؤلاء الرجال هم الذين يأتون الكهان، ويتطيرون ويخطون.

ولكن هذا البعض تتمكن منه هذه العادات والتقاليد الجاهلية: بدليل أنه قال في صيغة التوكيد: "وإن منا رجالاً"، وتكرار عبارة: "منا رجال" ثلاث مرات يرشد إلى أصناف هؤلاء الناس في ممارساتهم لأفعال الجاهلية.

وترتيب هذه المعتقدات، وتلك الممارسات: هو ترتيب حسب حجم المخالفة، واقترابها من الشرك أو ابتعادها عنه، فأول ظاهرة هي: إتيان الكهان، وهو من الشرك: ولذلك نهى عنه الرسول ﷺ نهي تحريم، في هذه الصيغة اللغوية الحاسمة الجازمة: "فلا تأتهم" والإجابة تشمل السائل وكل الذين أخبر عنهم.

والظاهرة الثانية: أقل في المخالفة: لأنها شعور يخالط النفس الإنسانية، وهو من الوساوس وأحاديث النفس وأوهام الصدور: وهي "التطير" ولذلك جاء تحديد الرسول ﷺ لهذا الأمر في غاية الدقة والبلاغة والخبرة بأحوال النفس الإنسانية، فقال: "ذلك شيء يجدونه في صدورهم"، ولكن يجب مقاومة أثر هذا التطير، ولا يبني عليه الإنسان أحكامًا، ولا مقاصد ولا وسائل ولا غايات.

والظاهرة الثالثة: وهي في دائرة المباح: إذا تمسك الإنسان بأصولها ومعالمها المعروفة، ولذلك قال في إيجاز وبلاغة: "كان نبي من الأنبياء يخط: فمن وافق خطه فذاك"، وفي الحديث إيجاز بالحذف، أي ومن لم يوافق خطه خط النبي في الأمم السابقة فليس ذاك بصحيح.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الخط: هو الذي يخطه الحازي: وهو علم قد تركه الناس. والله هو العليم الحكيم، وهو اللطيف الخبير.

فقه الحديث

في الحديث من الفقه تحريم إتيان الكهان، وقد سبق بيان ذلك في الحديث رقم (١٦٧٠).

وفيه أيضاً حرمة التطير، وبطلانه، وقد سبق بيان ذلك في الحديث رقم (١٦٧٢).

المضامين الدعوية[١]

---

(١) تقدم ذكرها في شرح الجزء الأخير من الحديث رقم (٧٠١).

الحديث رقم (١٦٧٥)

١٦٧٥- وعن أَبي مَسعودٍ البدريِّ ﷺ: أنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ نَهى عَنْ ثَمَنِ الكَلْبِ، وَمَهْرِ البَغِيِّ، وَحُلْوَانِ الكاهِنِ. متفق عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أبو مسعود البدري الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١٠).

غريب الألفاظ:

مهر البغي: هو ما تأخذه الزانية على الزنا[2].

وحُلْوان الكاهن: هو ما يعطاه على كهانته[3].

الشرح الأدبي

إن الإسلام أولى عنايته الكبرى بالمال، ولذلك دعا المسلم إلى العمل والسعي لاكتسابه، والمحافظة عليه من الضياع والتبذير، وحث كذلك على تنمية المال بالتجارة والصناعة لتكثير الثروة، وزيادة الدخل، وحذر الإسلام من سوء استخدام الأموال في الأغراض الدنيئة الضارة التي حرمها الشرع، مثل: الاتجار في الخمور والمخدرات، والاتجار بالأعراض، والكسب عن طريق الزنا، وإشاعة الخرافات، وتصديق الكهان، والاتجار فيما حرَّم الله شراءه وبيعه، مثل: الكلاب والخنازير وغير ذلك.

في ضوء هذه القيم الإسلامية نقرأ هذا الحديث الشريف، ونستشف بعض أسراره التعبيرية والأدبية وهو في إطار الأسلوب الخبري: إخبار من الراوي عن رسول الله ﷺ، ويتكون من جملة واحدة اسمية، مكونة من "أن" الناصبة المؤكدة الناسخة واسم إن

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٣٧)، ومسلم (١٥٦٧/٣٩) ولفظهما سواء.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ٩٩٧.

(٣) المرجع السابق ٩٩٧.

وهو: "رسول الله ﷺ"، وخبر إن وهو جملة فعلية "نهى عن..." الخ الحديث، ومجيء الحرف الناسخ المؤكد في صور الحديث فيه إيحاء بأن هذه الأعمال الثلاثة منسوخة وملغاة، فالمبنى اللغوي يفصح عن المعنى المراد، والحديث كله جملة اسمية، تضمنت في دائرتها جملة فعلية: وهي الخبر، ولكن هذا الفعل ثابت الحكم، وهو النهي الصارم الحاكم عن هذه السلوكيات المشينة، فالنهي قاطع ولا مجال فيه للجدال والمراء، ومجيء "النهي" في صيغة الزمن الماضي للإفادة بأنه حكم صدر من رسول الله ﷺ، ولا مجال للمراجعة أو التأويل.

والنهي عن ثمن الكلب لنجاسة عين الكلب، فلا يصح بيعه، وفي ذلك توجيه الناس لشراء ما ينفع، وكذلك توجيه لمن يربي الكلاب ويتاجر فيها؛ بأن ذلك عمل خاسر، ولابد أن يشغل الإنسان نفسه بما قصده ويفيده منه المسلمون في ظل التوجيهات الشرعية، والحاجات الاجتماعية.

وكذلك: "مهر البغي" ليس مهراً شرعياً؛ وإنما اللفظ من باب المشاكلة، والسخرية من هذا الذي يدفع الأموال الباهظة من أجل المتعة المحرمة، وإنما عليه أن يوجه هذا المال إلى الطريق الحلال حيث الزواج الشرعي، والمهر الحلال حتى لو كان قنطاراً، ولا يأخذ الإنسان منه شيئاً لأنه حلال.

"وحلوان الكاهن" ضياع للمال، وإهدار له في غير محله، وتشجيع لنشر الخرافات، والشعوذة والدجل. قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ﴾[1].

فقه الحديث

يشتمل هذا الحديث على الأحكام الفقهية الآتية:

١- تحريم ثمن الكلب: وهذا يدل على تحريم بيعه، وعدم حلّ ثمنه، وهذه المسألة مختلف فيها عند الفقهاء على ثلاثة آراء:

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٧.

الرأي الأول: وهو ما ذهب إليه جمهور الفقهاء، وهم المالكية في المشهور عندهم[١]، والشافعية[٢]، والحنابلة[٣]، والظاهرية[٤]، ويرون أنه لا يصح بيعه، ولا يحل ثمنه مطلقاً، سواء كان معلماً أو غير معلم، وسواء كان مما يجوز اقتناؤه أم لا.

ودليلهم حديث الباب، ففيه نهى رسول الله ﷺ عن ثمن الكلب، والنهي عن ثمنه يدل على عد جواز بيعه، وهو عام يشمل كل كلب، سواء كان مما يجوز اقتناؤه أم لا.

الرأي الثاني: وهو ما ذهب إليه الحنفية[٥]، ويرون جواز بيع الكلاب مطلقاً، سواء أكانت معلمة أم لا. واستدلوا على ذلك بأن الكلب مالٌ والدليل على ماليته أنه منتفع به حقيقة من الاصطياد والحراسة ونحوهما، وهذه منفعة مشروعة، ومن ثم كان مالاً فكان محلاً للبيع كالصقر والبازي، وغيرهما مما له نفع مشروع.

الرأي الثالث: وهو ما ذهب إليه بعض المالكية[٦] ويرون جواز بيع الكلب المأذون في اتخاذه ككلب الصيد ونحوه دون غيره.

واستدلوا على ذلك بما أخرجه النسائي من حديث جابر رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن ثمن الكلب والسنور إلا كلب الصيد[٧].

---

(١) الشرح الكبير للدردير وحاشية الدسوقي عليه ١١/٣، ومواهب الجليل شرح مختصر خليل، محمد بن عبدالرحمن المغربي ٢٦٧/٤.

(٢) المجموع شرح المهذب، الإمام النووي ٢٢٨/٩، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، شمس الدين بن حمزة الرملي ٣٩٢/٣.

(٣) المغني، ابن قدامة، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو ٢٧٨/٤، وزاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ٢٤٣/٤، والروض المربع شرح زاد المستقنع، البهوتي ٢٨/٢.

(٤) المحلى، ابن حزم ٦١٧/٩.

(٥) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين بن مسعود الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٣٠٠٦/٦، وشرح فتح القدير، ابن الهمام الحنفي ٨٢/١، وقد روى عن أبي يوسف أنه قال بحرمة بيع الكلب العقور للنهي عن اتخاذه. انظر: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين بن مسعود الكاساني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٣٠٠٦/٦.

(٦) مواهب الجليل شرح مختصر خليل، محمد بن عبدالرحمن المغربي ٢٦٧/٤، الشرح الكبير للدردير ١١/٣.

(٧) أخرجه النسائي ١٩٠/٧-١٩١، ٣٠٩ وقال النسائي: ليس هو بصحيح. وقال مرّة: منكر. وانظر تتمة تخريجه في مسند أحمد ١٤٦٥٢/٢٢.

فهذا الحديث قد استثنى كلب الصيد من عموم النهي عن بيع الكلب، ويقاس على كلب الصيد غيره مما أذن في اتخاذه ككلب حراسة الماشية والزرع ونحوه.

الترجيح:

بعد عرض الآراء في هذه المسألة أرى أن الرأي الراجح هو الرأي الثالث القائل بجواز بيع الكلب المأذون في اتخاذه ككلب الصيد والحراسة، ويلحق بها -الآن- الكلاب المدربة على استكشاف المجرمين، أو المواد المخدرة، أو خلاف ذلك من الأعمال التي يتم تدريب الكلاب عليها، وذلك لأنها منافع مشروعة، والقول بالترجيح ليس اعتماداً على ما ورد من أحاديث تستثني هذه الكلاب من النهي، وذلك لأنها أحاديث ضعيفة، وقد بالغ العلماء في ردها، وإنما اعتماداً على ما ورد في الترخيص في اتخاذها[1]، والله أعلم.

٢- تحريم مهر البغي، وحلوان الكاهن: ومهر البغي: هو ما تأخذه الزانية في مقابل زناها، وسمي مهراً، لكونه في صورته، وحلوان الكاهن: هو ما يعطاه نظير كهانته وهما حرام بإجماع المسلمين[2].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: اجتناب الكسب الحرام.

أولاً- من أساليب الدعوة: النهي:

حيث جاء في الحديث "أن رسول الله ﷺ نهى عن ثمن الكلب ومهر البغي وحلوان الكاهن" وأسلوب النهي من أساليب الدعوة التي تبين للمدعو خطورة المنهي عنه وضرورة اجتنابه والبعد عنه وقد أمر الله تعالى باتباع النبي ﷺ فيما أمر واجتناب ما نهى قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ

(١) د. حسن صلاح الصغير، صلاحية البيع للانتفاع به ص ٢٧٥.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ١٠/٢٣١.

ٱلْعِقَابِ﴾[١] قال السعدي: (وهذا شامل لأصول الدين وفروعه، وظاهره وباطنه، وأن ما جاء به الرسول ﷺ يتعين على العباد الأخذ به واتباعه، ولا تحل مخالفته، وأن نهي الرسول ﷺ على حكم الشيء كنص الله تعالى، لا رخصة لأحد ولا عذر له في تركه ولا يجوز تقديم قول أحد على قوله)[٢].

ثانياً- من موضوعات الدعوة: اجتناب الكسب الحرام:

يتضح هذا من سياق الحديث حيث نهى النبي ﷺ عن ثمن الكلب ومهر البغي وحلوان الكاهن. والواجب على المسلم الابتعاد عن الكسب الحرام ومواطنه، قال الإمام النووي: (أما مهر البغي فهو ما تأخذه الزانية على الزنا وسماه مهراً لكونه على صورته وهو حرام بإجماع المسلمين وأما حلوان الكاهن فهو ما يعطاه على كهانته. قال البغوي والقاضي عياض: أجمع المسلمون على تحريم حلوان الكاهن لأنه عوض عن محرم ولأنه أكل المال بالباطل. قال الخطابي: وحلوان العراف حرام والفرق بين الكاهن والعراف أن الكاهن إنما يتعاطى الأخبار عن الكائنات في مستقبل الزمان ويدعي معرفة الأسرار، والعراف هو الذي يدعي معرفة الشيء المسروق ومكان الضالة ونحوهما من الأمور)[٣].

قال القرطبي: (قوله: "نهى رسول الله ﷺ عن ثمن الكلب"، وفي الحديث الآخر: "وثمن الكلب خبيث" ظاهرٌ في تحريم بيع الكلاب كلها، ولاشك في تناول هذا العموم لغير المأذون فيه منها، لأنها إمَّا مضرةٌ؛ فيحرمُ اقتناؤها، فيحرم بيعها. وإما غير مضرة: فلا منفعة فيها. وأما المأذون في اتخاذها: فهل تناولها عمومُ هذا النهي أم لا؟ فذهب الشافعي، والأوزاعي، وأحمد: إلى تناوله لها. فقالوا: إن بيعها محرمٌ، ويفسخ إن وقع، ولا قيمة لما يقتل منها، واعتضد الشافعي لذلك: بأنها نجسة عنده. ورأى أبو حنيفة: أنه

(١) سورة الحشر، آية: ٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٧٨٩.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ٩٩٧.

لا يتناولها؛ لأن فيها منافع مباحة يجوز اتخاذها لأجلها، فتجوز المعاوضة عليها، ويجوز بيعها. وجلُّ مذهب مالك على جواز الاتخاذ، وكراهية البيع، ولا يفسخ إن وقع. وقد قيل عنه مثل قول الشافعي. وقال ابن القاسم: يكره للبائع، ويجوز للمشتري للضرورة. وكأنَّ مالكاً في المشهور: لما لم يكن الكلب عنده نجساً، وكان مأذوناً في اتخاذه لمنافعه الجائزة؛ كان حكمه حكم جميع المبيعات. لكن الشَّرع نهى عن بيعه تنزيهاً؛ لأنه ليس من مكارم الأخلاق. فإن قيل: فقد سوى النبي ﷺ بين ثمن الكلب، وبين مهر البغيِّ، وحلوان الكاهن في النهي عنها. والمهر والحلوان محرَّمان بالإجماع، فليكن ثمن الكلب كذلك.

فالجواب: إنا كذلك نقول. لكنه محمولٌ على الكلب الغير مأذون فيه. ولئن سلَّمنا: أنه متناول للكل، لكن هذا النهي -ها هنا- قُصد به القدرُ المشترك الذي بين التحريم والكراهة؛ إذ كلٌّ واحدٍ منهما منهيٌّ عنه. ثم تُؤخذ خصوصيةُ كل واحدٍ منهما من دليل آخر، كما قد اتفق هنا. فإنا إنما علمنا تحريم مهر البغي، وحلوان الكاهن بالإجماع، لا بمجرد النهي سلمنا ذلك، لكنا لا نسلم: أنه يلزم من الاشتراك في مجرد العطف الاشتراك في جميع الوجوه؛ إذ قد يعطف الأمر على النهي، والإيجاب على النفي. وإنما ذلك في محل مخصوصٍ، وقوله: "شر الكسب مهر البغي، وثمن الكلب، وكسب الحجام". "الكسب" في الأصل هو: مصدر. تقول: كسبتُ المال، أكسبه، كسباً. وقد وقع في هذا بعض الحديث موضع المكسوب، فإنه أخبر عنه بالثمن.

ومساق هذا الحديث يدلُّ: على صحة ما قلناه، من أنه لا تلزم المساواة في المعطوفات. ألا ترى: أنه شرَّك بين مهر البغي، وثمن الكلب، وكسب الحجام في "شر"، ثم إن نسبة الشر لمهر البغي كنسبته إلى كسب الحجَّام، مع أن مهر البغي حرامٌ بالاتفاق، وكسب الحجام مكروه. فقد صحَّ أن النبي ﷺ احتجم وأعطى الحجام أجره. قال ابن عباس: ولو كان حراماً لم يعطه[1]. وقد سأل رجل النبي ﷺ عن

---

(١) أخرجه البخاري ٢١٠٣ واللفظ له، ومسلم ١٢٠٢.

كسب الحجام، فنهاه، ثم سأله، فنهاه، ثم سأله فقال في الثالثة: "اعلفه ناضحك وأطعمه رقيقك"[١]، فلو كان حراماً لما أجاز له تملكه، ولا أن يدفع به حقاً واجباً عليه، وهو: نفقة الرقيق، فيكون "شرٌّ" في كسب الحجام بمعنى: ترك الأولى، والحضُّ على الورع. وهذا مثل ما تقدَّم من قوله: ((شر صفوف النساء أولها))[٢]. ويكون "شر" في مهر البغي على التحريم. وعلى هذا: فإمَّا أن يحمل لفظ: "شر" في صدر الحديث على قدر مشترك بين المحرَّم والمكروه، أو على أنَّ اللفظ المشترك قد يُراد به جميع متناولاته. وهذا كلُّه إذا تنزلنا: على أن كسب الحجام هو ما يأخذه أجرةً على نفس عمل الحجامة. فإن حملناه على ما يكتسبه من بيع الدم - فقد كانوا في الجاهلية يأكلونه، فلا يبعدُ أن يكونوا يشترونه للأكل- فيكون ثمنه حراماً. كما قد قال ﷺ: ((إن الله إذا حرم على قوم شيئاً؛ حرَّم عليهم ثمنه))[٣]. وقد جاء في بعض طرق هذا الحديث: "ثمن الدم حرام".

و"حلوان الكاهن" هو: ما يأخذه على تكهُّنه. يقال: حلوتُ الرجل، أحلوه: إذا أعطيته شيئاً يستحليه. كما يقال: عسلته، أعسله: إذا أطعمته عسلاً. ومنه: قيل للرشوة، ولما يأخذه الرَّجل من مهر ابنته حلواناً؛ لأنه كلها عطايا حلوة مستعذبة. وفيه ما يدلُّ: على تحريم ما يأخذه الحُسَّابُ، والمنجِّمون في الرَّمل، والخط، وغير ذلك. لأن ذلك كله تعاطي علم الغيب، فهي في معنى الكهانة. وما يُؤخذ على كل ذلك محرم بالإجماع.

و"قوله: "ثمن الكلب خبيث، وكسب الحجام خبيث" إن حملنا الكلب ها هنا على العموم كان الخبيث بمعنى المكروه تسويةً بينه وبين كسب الحجام. وقد تبين: أنه مكروهٌ. وإن حملناه على غير المأذون في اتخاذه؛ كان الخبيث بمعنى: الحرام[٤].

---

(١) أخرجه أبو داود ٣٤٢٢، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٩٢٠).

(٢) أخرجه مسلم ٤٤٠.

(٣) أخرجه أبوداود ٣٤٨٨، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢٩٧٨).

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٤/٤٤٤-٤٤٦.

وقال ابن عبدالبر: (قال أبو عمر: في هذا الحديث ما اتفق عليه، وفيه ما اختلف فيه؛ فأما مهر البغي، والبغي الزانية، ومهرها ما تأخذه على زناها، فمجتمع على تحريمه، تقول العرب: بغت المرأة، إذا زنت، تبغي بغاءً، فهي بغيٌّ، وهنَّ البغايا. قال الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾[1]. يعني زانية. وقال: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾[2]. يعني الزنى، وهو مصدر.

وأما حلوان الكاهن فمجتمع أيضاً على تحريمه. قال مالك: وهو ما يعطى للكاهن على كهانته. والحلوان في كلام العرب: الرشوة والعطية، تقول منه: حلوت الرجل حلواناً. إذا رشوته بشيء. قال أوس بن حجر:

كأنِّي حلَوْتُ الشِّعْرَ يومَ مدَحتُه ... صَفَا صَخرةٍ صَمَّاءَ يَبْسٍ بلالُها

وقال علقمة:

فمَن رجلٌ أحْلُو رَحلِي وناقَتِي ... يُبلِّغُ عنِّي الشِّعرَ إذْ مات قائِلُه

وأما ثمن الكلب فمختلف فيه، فظاهر هذا الحديث يشهد لصحة قول من نهى عنه وحرَّمه[3].

وإذا كان النبي ﷺ نهى عن ثمن الكلب ومهر البغي وحلوان الكاهن فذلك لكي يتعود المسلم على الكسب الحلال، ويبتعد عن الكسب الحرام وما فيه شبهة. قال القاسمي: (اعلم أن الحرام كله خبيث لكن بعضه أخبث من بعض، والحلال كله طيب، ولكن بعضه أطيب من بعض، وأصفى من بعض. ولذا كان الورع عن الحرام على درجات، فمنه الورع عن كل ما تحرمه فتاوى الفقهاء، ومنه الورع عما يتطرق إليه احتمال التحريم، ومنه ما لا شبهة في حله لكن يخاف منه أداؤه إلى محرم وهو ترك ما لا بأس به مخافة مما به بأس. ومنه ما لا يخاف منه أن يؤدي إلى ما به بأس ولكنه

---

(١) سورة مريم، آية: ٢٨.

(٢) سورة النور، آية: ٣٣.

(٣) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ص ١٧/٧٩، ٨٠.

يتناول لغير الله ولا على نية التقوي به على عبادة الله أو تتطرق إلى أسبابه المسهلة له كراهية أو معصية.

وقد حكي عن ابن سيرين أنه ترك لشريكه أربعة آلاف درهم لأنه حاك في قلبه شيء مع اتفاق العلماء على أنه لا بأس به. وكان لبعضهم مائة درهم على إنسان فحملها إليه فأخذ تسعة وتسعين وتورع عن استيفاء الكل خيفة الزيادة وكان بعضهم يتجر فكل ما يستوفيه يأخذه بنقصان حبة وما يعطيه يزنه بزيادة حبة، ومن ذلك الاحتراز عما يتسامح به الناس فإن ذلك حلال في الفتوى ولكن يخاف من فتح بابه أن ينجر إلى غيره وتألف النفس الاسترسال وتترك الورع، وبالجملة فكلما كان العبد أشد تشديداً على نفسه كان أخف ظهراً يوم القيامة وأبعد عن أن تترجح كفة سيئاته على كفة حسناته؛ وإذ علمت حقيقة الأمر فإليك الخيار فإن شئت فاستكثر من الاحتياط، وإن شئت فرخص، فلنفسك تحتاط، وعلى نفسك ترخص والسلام[١].

وقد حذر النبي ﷺ من الكسب الحرام فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لَيَأْتِيَنَّ على الناسِ زمانٌ لايُبالي المرءُ بما أخَذَ المالَ أمِن الحَلالِ أم مِنَ حرام))[٢] وقال ابن رجب الحنبلي: (أكل الحرام وشربه ولبسه والتغذي به سبب موجب لعدم إجابة الدعاء)[٣]. وقال ابن كثير: (والأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة)[٤].

وحذر الله تعالى من أكل المال بالباطل فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٥].

قال ابن كثير: (أي تعلمون بطلان ما تدعونه وتروجونه في كلامكم قال القرطبي:

---

(١) موعظة المؤمنين من إحياء علو الدين، جمال الدين القاسمي ص ١٣٢، ١٣٣.

(٢) أخرجه البخاري ٢٠٨٣.

(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ١/٢٧٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١/٢٠٥.

(٥) سورة البقرة، آية: ١٨٨.

أجمع أهل السنة على أن من أكل مالاً حراماً ولو ما يصدق عليه اسم المال فإنه يفسق)[١].

جاء في الموسوعة الفقهية: (إن طلب الحلال فرض على كل مسلم وقد أمر الله بالأكل من الطيبات فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾[٢] والحرام كله خبيث وبعضه أخبث من بعض، والكسب الخبيث هو أخذ مال الغير لا على وجه إذن الشرع فيدخل فيه القمار والخداع والغصب وجحد الحقوق وما لا تطيب نفس مالكه أو حرمته الشريعة وإن طابت به نفس مالكه كمهر البغي وحلوان الكاهن وأثمان الخمور والخنازير وغير ذلك، والواجب في الكسب الخبيث تفريغ الذمة والتخلص منه برده إلى أربابه إن علموا وإلا إلى الفقراء ويجب أن يمنع والي الحسبة الناس من الكسب الخبيث قال الماوردي (ويمنع من التكسب بالكهانة واللهو ويؤدب عليه الآخذ والمعطي)[٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٥٢١/١.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٧٢.

(٣) انظر: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ٢٤٤/٣٤-٢٤٦ بتصرف.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً - التربية العقدية:

إن سلامة العقيدة تحتاج إلى تطهير الفكر من الخرافات والبدع، ومن التصديق للسحرة والمشعوذين والمنجمين والاعتقاد في أوهامهم، ومن كل ما من شأنه الإشراك بالله وتقديس غيره تعالى[١].

وقد كان النبي ﷺ ينقي قلوب الصحابة رضي الله عنهم وجوارحهم من الشرك الجلي والخفي ويربيهم على التوحيد الخالص، ويعرفهم بربهم الذي خلقهم ورزقهم، حتى صار الصحابة الكرام أبر الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا[٢].

ومن الأمثلة في سيرة النبي ﷺ التي تبين هذه التربية العالية لهذه الأمة الغالية، أحاديث الباب التي نهت عن إتيان الكهان و المنجمين والعراف وأصحاب الرمل والطوارق بالحصى وبالشعير ونحو ذلك.

وهكذا سدَّ النبي ﷺ كل الذرائع إلى الشرك، ودعا إلى العقيدة الصحيحة.

فالواجب على القائمين على التربية والتوجيه والدعوة الاهتمام بتربية الناس على العقيدة الصحيحة والتنبيه الدائم لهم على ما يقعون فيه من أمور الشرك العلمية، والعملية لأن هذا هو هدي رسول الله ﷺ وما ربى عليه الصحابة الكرام[٣].

ثم الواجب على المربين كذلك أن يحثوا الطلاب على استشعار معاني العقيدة الصحيحة، وتذوق حلاوتها، حتى يكون لها أثر في حياتهم وواقعهم[٤].

ثانيًا - من أهداف التربية الإسلامية: تحرير القلب من التعلق بغير الله:

إن كثيرًا من أمراض الشبهات والشهوات ترتبط بتعلق القلب بغير الله فأولئك الذين يلجؤون للسحرة والكهنة ويصدقون المشعوذين، وأولئك الذين يسيطر عليهم التطير والتشاؤم وسائر الأساطير إنما أتوا من تعلق قلوبهم بغير الله تعالى.

---

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي، ص ٢٣.

(٢) التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد، ص ٨٧.

(٣) التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد، ص ٩٠.

(٤) المرجع السابق، ص ٩١.

وأصحاب الشهوات الذين فتنوا بها كذلك، فقلوبهم قد تعلقت بها واتجهت إليها وصارت هي قبلتهم.

لذا كان لابد في التربية من تنقية القلوب وتخليصها من التعلق بغير الله والتوجه لسواه، سواء كان ذلك شهوة أم شبهة[١].

وهذا الهدف واضح جلي في أحاديث الباب التي دعت إلى تحرر قلب المسلم من التعلق بغير الله، من الكهان والمنجمين والسحرة... وغيرهم ممن يدعون معرفة الغيب، والنفع والضر.

قال ابن تيمية: (وكل من علق قلبه بالمخلوقات أن ينصروه أو يرزقوه أو يهدوه خضع قلبه لهم وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك، وإن كان في الظاهر أميرًا لهم مدبرًا لهم متصرفًا بهم؛ فالعاقل ينظر إلى الحقائق لا إلى الظواهر؛ فالرجل إذا تعلق قلبه بامرأة ولو كانت مباحة له يبقى قلبه أسيرًا لها تحكم فيه وتتصرف بما تريد؛ وهو في الظاهر سيدها لأنه زوجها. وفي الحقيقة هو أسيرها ومملوكها لا سيما إذا درت بفقره إليها وعشقه لها، وأنه لا يعتاض عنها بغيرها؛ فإنها حينئذ تحكم فيه بحكم السيد القاهر الظالم في عبده المقهور؛ الذي لا يستطيع الخلاص منه... وهذا لعمري إذا كان قد استعبد قلبه صورة مباحة، فأما من استعبد قلبه صورة محرمة: امرأة أو صبيًا فهذا هو العذاب الذي لا يدان فيه، وهؤلاء من أعظم الناس عذابًا وأقلهم ثوابًا؛ فإن العاشق لصورة إذا بقي قلبه متعلقًا بها مستعبدًا لها اجتمع له من أنواع الشر والفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد، ولو سلم من فعل الفاحشة الكبرى، فدوام تعلق القلب بها بلا فعل الفاحشة أشد ضررًا عليه ممن يفعل ذنبًا ثم يتوب منه ويزول أثره من قلبه، وهؤلاء يشبهون بالسكارى والمجانين)[٢].

وقال ابن القيم حول حديث "من مات لا يشرك بالله" (فاعلم أن هذا النفي العام للشرك - أن لا يشرك بالله شيئًا البتة - لا يصدر من مُصر على معصية أبدًا، ولا يمكن

---

(١) تربية الشباب، محمد بن عبدالله الدويش، ص ٥٥.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٠/١٨٥-١٨٧.

مدمن الكبيرة والمصر على الصغيرة أن يصفو له التوحيد حتى لا يشرك بالله شيئًا، هذا من أعظم المحال ولا يلتفت إلى جدلي لا حظٌ له من أعمال القلوب، بل قلبه كالحجر أو أقسى يقول وما المانع؟ وما وجه الإحالة؟ ولو فرض ذلك واقعًا لم يلزم منه محال لذاته، فدع هذا القلب المفتون بجدله وجهله، واعلم أن الإصرار على المعصية يوجب من خوف القلب من غير الله، ورجائه لغير الله، وحبه لغير الله، وذله لغير الله، وتوكله على غير الله، ما يصير به منغمسًا في بحار الشرك، والحاكم في هذا ما يعلمه الإنسان من نفسه إن كان له عقل، فإن ذُلَّ المعصية لابد أن يقوم بالقلب فيورثه خوفًا من غير الله وذلك شرك، ويورثه محبة لغير الله، واستعانة بغيره من الأسباب التي توصله إلى غرضه؛ فيكون عمله لا بالله ولا لله، وهذا حقيقة الشرك، نعم قد يكون معه توحيد أبي جهل وعباد الأصنام، وهو توحيد الربوبية وهو الاعتراف بأنه لا خالق إلا الله، ولو أنجى هذا التوحيد وحده لأنجى عُبَّاد الأصنام، والشأن في توحيد الإلهية الذي هو الفارق بين المشركين والموحدين، والمقصود أن من لم يشرك بالله شيئًا يستحيل أن يلقى الله بقراب الأرض خطايا مصرًا عليها غير تائب منها، مع كمال توحيده الذي هو غاية الحب والخضوع والذل والخوف والرجاء للرب تعالى)[1][2].

ثالثًا - من أساليب التربية: الحوار والمناقشة:

استخدمت التربية الإسلامية أسلوب الحوار والمناقشة والذي له عدة فوائد تربوية كجذب الانتباه وشحذ الذهن وإعماله، وإبعاد المتعلمين عن الانقياد الأعمى، وتحقيق الإقناع والاقتناع العقلي، ثم تحقيق المغزى التربوي المراد تحقيقه من الموقف[3].

ويظهر هذه الأسلوب في هذا الباب في الحديث الذي روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حيث قالت: ((سأل رسول الله ﷺ، أناسًا عن الكهان، فقال: "ليسوا بشيء" فقالوا: يا رسول الله إنهم يحدثونا أحيانًا بشيء، فيكون حقًا؟ فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ١/٣٥٤-٣٥٥.

(٢) تربية الشباب، محمد بن عبدالله الدويش، ص ٥٦.

(٣) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي، ص ١٨٠.

"تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه، فيخلطون معها مائة كذبة")).

كذلك يظهر أسلوب الحوار والمناقشة في حواره ﷺ مع معاوية بن الحكم رضي الله عنه حين قال: ((قلت: يا رسول الله إني حديث عهد بالجاهلية، وقد جاء الله تعالى بالإسلام، وإن منا رجالاً يأتون الكهان؟ قال: "فلا تأتهم" قلت: ومنا رجال يتطيرون؟ قال: "ذلك شيء يجدونه في صدورهم، فلا يصدهم" قلت: ومنا رجال يخطون؟ قال: كان نبي من الأنبياء يخط، فمن وافق خطه فذاك)).

ولقد كان رسول الله ﷺ يستخدم أسلوب الحوار والمناقشة في إقناع أصحابه رضي الله عنهم وتعليمهم، من أجل ذلك شجع علماء المسلمين طلبتهم على المناقشة والمناظرة، وأوجبوا التمرن عليها، فقد نقد ابن خلدون الركود الذهني في بلاد المغرب في القرن الرابع عشر الميلادي، وعزاه لرداءة طرق التدريس، لأنها أهملت المناقشة والمناظرة في التعليم. وهو يرى أن المناظرة في المسائل العلمية تساعد على فهمها وعلى التعبير عنها، وينتقد سكوت الطلبة وعدم تكلمهم فيما عرفوا من العلوم، كما يأخذ عليهم العناية بالحفظ أكثر مما تقتضيه الحاجة ... ويرى الزرنوجي أن قضاء ساعة واحدة في المناقشة والمناظرة أجدى على المتعلم من مكث شهر كامل في الحفظ والتكرار[1].

وعلى المعلم أن يعود طلابه الحوار والمناقشة، ليشحذ أذهانهم ويقوي الحجة لديهم، ويعودهم الارتجال والمواجهة والثقة بالنفس كما عليه أن يكون واسع الصدر، فيرد على كل استفساراتهم وأسئلتهم بإجابات صحيحة ومناسبة لمستويات نموهم؛ حتى يكونوا على وعي واقتناع بما يلقيه عليهم، وحتى يفيدهم بذلك[2].

رابعًا – التربية بالترهيب:

أسلوب الترهيب أسلوب تربوي جيد لا يمكن الاستغناء عنه في مجال التربية، وهو من أساليب التربية الإسلامية المهمة[3].

---

(١) التربية الإسلامية وفلاسفتها، محمد عطية الأبراشي ص ٩٠.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي، ص ١٨٣.

(٣) انظر: أساليب التربية الإسلامية، عبدالرحمن البابطين، ص ٣٦.

وقد اعتمد الرسول ﷺ الترهيب كأسلوب تربوي لتصحيح مسار الإنسان وزجره عن كثير من السلوكيات الخاطئة والانحرافات السيئة من خلال ما أخبر به من وعيد وعذاب يرتقب المخالفين[١]، ويظهر الترهيب كأسلوب تربوي في هذا الباب في ترهيب النبي ﷺ من الذهاب إلى العرافين فقال: "من أتى عرافًا فصدقه، لم تقبل له صلاة أربعين يومًا".

ويلحق بالعراف كل من ادعى أمرًا من أمور الغيب فهو يندرج ضمن هذه المسميات لذا قال ابن تيمية: العراف اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يتكلمون في معرفة الأمور بهذه الطرق[٢].

كما رهب ﷺ من: "العيافة، والطير، والطرق، وقال: - عنها أنها - "من الجبت" كما رهب من التنجيم فقال: "من اقتبس علمًا من النجوم، اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد". والسحر من الكبائر.

فالترهيب أسلوب تربوي مفيد - خاصة مع الطفل - لأن الإنسان إذا علم نتيجة سلوكه وما يترتب عليه من عقاب تجنب هذا السلوك.

فالترهيب وسيلة تربوية يستخدم في التأديب وهو ما يسمى بالعقاب لكن له شروط يجب وضعها في الاعتبار عند عملية العقوبة منها:

أ - عد الإكثار منها خشية أن تصبح مألوفة فيقل تأثيرها.

ب - الحرص على أن تكون من نوع الخطأ ومناسبة لدرجة الخطورة، وبذا يكتسب العقاب صبغة الإصلاح لا مظهر التشفي والانتقام.

ج - استعمالها بهدوء ونزاهة حتى لا تخدش الكرامة ولا تؤلم النفس ولا تولد الحقد والكراهية.

د - مراعاة حساسية المعاقب[٣].

۞ ۞ ۞

---

(١) انظر: أساليب الدعوة والتربية، د. زياد محمود العاني، ٢٥١.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ١٧٣/٣٥.

(٣) آراء في التربية، محمد الناصف، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، د. ت، ص ٥٠.

٣٠٤- باب النهي عن التَّطَيُّرِ

فِيهِ الأحاديث السابقة في الباب قبله.

الحديث رقم (١٦٧٦)

١٦٧٦- وعن أنس رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: ((**لاَ عَدْوَى وَلاَ طِيَرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الفَألُ**)) قالُوا: وَمَا الفَألُ؟ قَالَ: ((**كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ**)). متفق عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

الطيرة: التشاؤم بالشيء[2].

الفأل: فيما يسر ويسوء والغالب السرور وقد فسره النبي صلى الله عليه وسلم بالكلمة الصالحة والحسنة الطيبة[3].

الشرح الأدبي

هذه محاورة موجزة بين النبي صلى الله عليه وسلم وبعض أصحابه وهي تتضمن الترهيب والترغيب، فأما الترهيب فتشع به بداية الحديث؛ حيث ينهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن استسلام المؤمن للأوهام المتمثلة في الطيرة والعدوى، ولذلك صاغ رفضه لهذين النوعين في أسلوب النفي، والأداة هي "لا" النافية للجنس، وذلك في جملتين، وفيهما إيجاز بالحذف حيث حذف خبر، "لا" النافية للجنس، في الجملتين والتقدير: لا عدوى مؤثرة أو فاعلة فعلها من غير إرادة الله عز وجل، ولا طيرة، تُجْبر الإنسان على اتباع طريق ما حَسَب رؤية السوانح والبوارح، وهذا من عادات الجاهلية.

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له (٥٧٧٦)، ومسلم (٢٢٢٤/١١٢).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ط ي ر).

(٣) المرجع السابق في (ف أ ل)، وشرح صحيح مسلم، النووي ١٣٨٨.

وقوله: "ويعجبني الفأل" أي الاستبشار والشيء الذي يعجبك لتفرح به اتباعاً.

وورود هذه الجملة في صيغة الفعل المضارع يوحي باستمرار هذا السلوك المحبب إلى رسول الله ﷺ، وعلى المسلمين الاقتداء برسولهم ﷺ، وهذا هو الترغيب الذي يتضمنه الحديث.

وفي الحديث تشويق وامتاع، وحوار وإقناع، حيث سأل الصحابة رضي الله عنهم رسول الله ﷺ في لهفة ومحبة: "وما الفأل"، فقال رسول الله ﷺ: كلمة طيبة، أي الفأل كلمة طيبة، يسمعها الإنسان من أخيه، أو يقولها لأخيه، أو ينصح بها المسلمين، والكلمة هنا ليس المراد بها المفردة اللغوية، ولكنها جملة الكلام الطيب النافع، وما أعظم التصوير القرآني لهذه الكلمة الطيبة حيث يقول الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[1].

فقه الحديث

تشتمل هذه الأحاديث على الأحكام الآتية:

١- تحريم التطير "التشاؤم"[2]: وفي ذلك إبطال لما كان عليه أهل الجاهلية إذ كانوا يتطيرون بالسوانح والبوارح، فينفرون الظباء والطيور، فإن أخذت ذات اليمين تبركوا به، ومضوا في سفرهم وحوائجهم، وإن أخذت ذات الشمال رجعوا عن سفرهم وحاجتهم

---

(١) سورة إبراهيم، الآيتان: ٢٤، ٢٥ .

(٢) رد المحتار على الدر المختار، محمد أمين بن عمر عابدين، تحقيق: علي محمد معوض ١٦٦/٢، وكفاية الطالب الرباني ٦٤٤/٢، والفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم بن مهنا النفراوي المصري ٣٤٢/٢، وفتح الباري، ابن حجر ٦٢/٦، وشرح صحيح مسلم، النووي ٢١٨/١٤، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن قاسم ٢٩/٢٨، وكشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد ٢١١/٦.

وتشاءموا بها[١]، فنهاهم رسول الله ﷺ عن ذلك وقال "لا طيرة"، وأمرهم بالتوكل على الله، لأنه لا حكم إلا حكمه، ولا يعلم الغيب غيره[٢].

أما قول رسول الله ﷺ: "وإن كان الشؤم في شيء ففي الدار والمرأة والفرس" ففيه أقوال:

الأول: إنه على ظاهره وأن هذه الأشياء قد تكون سبباً في الشؤم، فيجري الله تعالى الشؤم عند وجودها بقدره.

وليس معنى ذلك اعتقاد أن الطيرة تضر قطعاً على نحو ما كان يفعل أهل الجاهلية وإنما معناه أن هذه الثلاثة أكثر ما يتشاءم الناس بها لملازمتهم إياها، فمن وقع في نفسه شيء من ذلك، فقد أباح الشرع له أن يتركه، ويستبدل به غيره مما تطيب به نفسه، ويسكن إليه خاطره، ولم يلزمه الشرع أن يقيم في موضع يكرهه، أو مع امرأة يكرهها، بل قد فسح له في ترك ذلك كله مع اعتقاد أن الله تعالى هو الفعال لما يريد.

الثاني: وقال الخطابي وآخرون: هو في معنى الاستثناء من الطيرة، أي الطيرة، منهي عنها، إلا أن يكون له دار يكره سكناها، أو امرأة يكره صحبتها، أو فرس أو خادم، فليفارق الجميع بالبيع ونحوه، وطلاق المرأة.

الثالث: وقيل شؤم الدار ضيقها، وسوء جيرانها، وأذاهم، وقيل: بعدها عن المسجد. وشؤم المرأة عدم ولادتها، وسلاطة لسانها، وتعرضها للريب، وشؤم الفرس ألا يغزى عليها، وشؤم الخادم سوء خلقه، وقلة تعهده لما فوض إليه[٣].

٢- استحباب الفأل: والفأل هو الكلمة الطيبة، كما لو خرج شخص إلى السفر وسمع "يا سالم أو يا غانم" أو كمن ذهب إلى عيادة مريض، وسمع "يا عافية"[٤].

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ٢١٨/١٤، ٢١٩.

(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ١٩٥/٢٤.

(٣) طرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ٤٠٧/٨-٤٠٨، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث الأخيار، محمد بن علي الشوكاني ٣٨/٤.

(٤) الفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم بن مهنا النفراوي المصري ٣٤٢/٢، وشرح صحيح مسلم، النووي ٢٢٠/١٤، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٢٩٥/١٠.

وإنما كان الفأل مستحباً لأنه حسن ظن بالله، وقد جعل الله تعالى من الفطرة محبة ذلك[١].

ومحل استحباب الفأل إذا لم يقصده، أما إذا قصد سماع الفأل ليعمل على ما يسمع من خير أو شر، فلا يجوز، لأنه من الأزلام المحرمة التي كانت تفعلها الجاهلية[٢].

المضامين الدعوية[٣]

أولاً: من أساليب الدعوة: النفي.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: النهي عن التطير.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: بيان الأمور التي يكون فيها الشؤم.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: الحث على التفاؤل في الأمور.

خامساً: من واجبات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم.

سادساً: من أهداف الدعوة: تعميق معاني التوكل على الله في كافة الأمور.

أولاً- من أساليب الدعوة: النفي:

حيث جاء في الحديث "لا عدوى ولا طيرة" وقوله "أن النبي ﷺ كان لا يتطير" وأسلوب النفي من أساليب الدعوة التي تقنع المدعو حيث يفيد النفي القطع والجزم للأمر ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب النفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾[٤] وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾[٥]. وفي الأحاديث نفى رسول الله ﷺ الطيرة والتشاؤم، وبين أن المؤمن متوكل على الله في كل أحواله.

---

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ٢٩٣/١٠.

(٢) الفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، أحمد بن غنيم بن مهنا النفراوي المصري ٣٤٢/٢.

(٣) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٦٧٦- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٦٧٧، ١٦٧٨، ١٦٧٩).

(٤) سورة الأعراف، آية: ٤٠.

(٥) سورة مريم، آية: ٦٠.

ثانياً- من موضوعات الدعوة: النهي عن التطير:

حيث جاء في الحديث قوله ﷺ "لا عدوى ولا طيرة" وما جاء أيضاً "أن النبي ﷺ كان لا يتطير" وهذه الأحاديث بمجموعها تدل على النهي عن التطير والتشاؤم.

قال المازري: (جاء في بعض الطرق: "ولا طيرة وخيرها الفأل. قيل: يا رسول الله: وما الفأل؟ قال: الكلمة الطيبة الصالحة يسمعها أحدكم".

وفي بعض طرقه: "الشؤم في الدار والمرأة والفرس".

وفي طريق آخر: "إن كان الشؤم في شيء ففي الفرس والمسكن والمرأة".

وفي طريق آخر: "إن كان في شيء ففي الرَّبْع والخادم والفرس".

وفي أخرى "يا رسول الله أموراً كنا نصنعها في الجاهلية كُنا نأتي الكهان. قال: فلا تأتوا الكهان. قال: قلت كنا نتطير: قال: ذلك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنكم".

وفي بعض طرقه: "ومنا رجال يخطُّون".

قال: "كان نبي من الأنبياء يخطُّ فمن وافق خطَّه فذاك".

وقد اضطرب الناس فيما ذكر عن أبي هريرة رضي الله عنه من الحديثين اللذين أُسقِط أحدهما؛ فقال بعض أصحابنا: "لا يورد ممرض على مصح" منسوخ بقوله: "لا عدوى".

وقال آخرون: ليس بينهما تنافٍ فيفتقر إلى النسخ، ولكن نفي العدوى وهي اعتقاد كون بعض الأمراض تفعلُ في غيرها بطبيعتها.

وإما أن تكون سبباً بخلق الباري عز وجل عندها مرضاً ما وردت عليه فلم ينفه؛ فإنما نهى أن يورد الممرض على المصح، لئلا تمرض الصحاح من قِبلِ الله جلَّت قدرته عند ورود المرضى، فتكون المرضى كالسبب فيها.

وقال آخرون: إنما المراد بهذا الاحتياط على اعتقاد الناس، لئلا يتشاءم بالإبل المريضة، ويعتقد أنه أمرضت إبله فيأثم في هذا الاعتقاد.

وقال آخرون: إنما ذلك للتأذي بمشاهدة المرضى، وما قد يكون فيها من رائحة تُؤذي؛ وهو المراد بما وقع في الأحاديث فإنه أذى.

وقال بعض أصحابنا في هذا: إن كانت مندوحة عن مخالطة من يتأذى كُرِه للوارد وإلا فلا، وكذا في أهل الجذام إذا تأذى الناسُ بمخالطتهم في البئر، فإن كان لهم مندوحة بماء آخر ينصرفون إليه، أُمِروا أن ينصرفوا إليه رفعاً للضرر عن هؤلاء، وإن لم يكن لهم مندوحة بماء آخر ينصرفون إليه قيل للآخرين: أوجدوهم العوض وإلا فيشاركونكم؛ لأن كل ذي مالٍ أحق بماله.

وقوله ﷺ: "لا عدوى" تفسيره: أن العرب كانت تعتقد أن المرض يعدي وينتقل إلى الصحيح؛ فأنكر النبي ﷺ اعتقادهم.

والطِّيرة: مأخوذة مما كانوا يعتادونه في الطير ويعتقدونه في البوارح والسوانح. وكان لهم في التشاؤم والتَّيامن طريقة معروفة. وقيل منها أخذ اسم الطيرة.

وقال بعضهم: فإن الفأل رجوع إلى قول مسموع وأمر محسوس يحسن معناه في العقول؛ فيخيل للنفس مثل وقوع ذلك المعنى، وتحسين الظن بالله عز وجل ورجاء الخير منه بأدنى سبب لا يقبح.

والطِّيرة: أخذ المعاني من أمور غير محسوسة ولا معقولة، ولا معنى يشعر العقل بما يتوقع من ذلك، فلهذا فارقت الفأل بأنها لا تقع إلا على توقع أمر مكروه، والفأل يقع على ما يحب ويكره، والمستحسن منه ما يحب وما يكره يتقي فألاً كان، وهو أحد قسمي الفأل أو طيرة هكذا قال بعضهم[1].

هذا ولا يتنافى ما ورد من نفي العدوى مع ما جاء في حديث المجذوم الذي كان في وفد ثقيف وأرد أن يبايع النبي ﷺ فأرسل إليه ﷺ: ((إنا قد بايعناك فارجع))[2].

قال القرطبي: (وقوله ﷺ للمجذوم: "اذهب فقد بايعناك" ولم يأخذ بيده عند المبايعة، تخفيفٌ عن المجذوم والناس؛ لئلا يشقَّ عليه الاقتحام معهم، فيتأذى هو في نفسه، ويتأذى به الناس.

---

(١) المعلم بفوائد مسلم ٢/٢٧١-٢٧٣.

(٢) أخرجه مسلم ٢٢٣١.

وقد جاء عنه في الصحيح أنه قال: ((فر من المجذوم كما تفرُّ من الأسد))[1]. وهذا الخطاب إنما هو لمن يجدُ في نفسه نفرة طبيعية لا يقدر على الانتزاع منها، فأمره بالفرار لئلا يتشوش عليه ويغلبه وهمُه. وليس ذلك خوفاً لعدوى، فقد قال ﷺ ((لا عدوى))[2]. وقال للأعرابي: ((فمن أعدى الأول))[3].

ويُفيد هذا الحديث: إباحة مباعدة أهل الأسقام الفادحة، المستكرهة إذا لم يؤدّ ذلك إلى إضاعتهم، وإهمالهم. والله تعالى أعلم)[4].

جاء في فتح الملهم: (قوله: "لا عدوى" العدوى: أن يتعدى مرض المريض إلى غيره، والأحاديث في هذا الباب مختلفة، فمنها ما يفهم منه نفي العدوى، مثل هذا الحديث، ومنها ما يشعر بكونها مؤثرة في درجة الأسباب.

وقد اختلفت أقوال العلماء في الجمع بين هذه الأحاديث، واستقصى الحافظ في الفتح هذه الأقوال كلها، ومن جملتها ما هو المعروف فيما بين أكثر الشرّاح أن الأصل نفي العدوى، وإنّما نهى عن إيراد الممرض على المصحّ، وأمر بالفرار من المجذوم، لأن الصحيح إن مرض بعد مخالطته للمريض، فإنه إنما يمرض بتقدير الله تعالى، ولكنه يتخيّل أنه مرض بسبب العدوى، فيفسد اعتقاده، ومن أجل هذا نهى عن الوقوع فيما يؤدي إلى فساد الاعتقاد.

والموقف الراجح في باب العدوى ما ذكره الحافظ في الفتح عن البيهقي وابن الصلاح وغيره، قال البيهقي: ما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: "لا عدوى" فهو على الوجه الذي كانوا يعتقدونه في الجاهلية من إضافة الفعل إلى غير الله تعالى، وقد يجعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح من به شيء من هذه العيوب سبباً لحدوث ذلك. قال الحافظ بعد نقل كلامه: وتبعه على ذلك ابن الصلاح في الجمع بين الحديثين ومن بعده وطائفة ممن قبله.

---

(١) أخرجه البخاري ٥٧٠٧.

(٢) أخرجه البخاري ٥٧٥٧، ومسلم ٢٢٢٤.

(٣) أخرجه البخاري ٥٧١٧، ومسلم ٢٢٢٠.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ٤/٧٥، ٧٦.

فالحاصل أنه لو ثبت طبياً أن جراثيم بعض الأمراض تنتقل من جسم إلى جسم آخر، فإن ذلك لا ينافي ما ورد في حديث الباب من نفي العدوى، فإنّ المنفيّ هو كون هذا الشيء مؤثراً بذاته، دون أن يخلقه الله تعالى، ولاشك في أن هذا الاعتقاد شرك وكفر. أما الاعتقاد بأن انتقال الجراثيم ربما يسبب المرض، كما تسببه الأشياء الضارة الأخرى وأن كل ذلك موقوف على مشيئة الله تعالى وتقديره، بحيث أنه إن لم يشأ الله تعالى ذلك لم تنتقل الجراثيم، أو انتقلت فلم تسبّب المرض، فهذا اعتقاد صحيح لامانع منه شرعاً، وليس ذلك بمخالف لحديث الباب. وبما أن العادة جرت بانتقال بعض الأمراض من جسد إلى جسد آخر، كالجذام والطاعون، فإن النبي ﷺ أمر بالحذر منه في درجة اختيار الأسباب والتدابير الوقائية، فإن اختيارها لا ينافي التوكل وعقيدة التقدير ما دام الإنسان معتقداً بأن تأثير الأسباب ليس ذاتياً، وإنما هو موقوف على مشيئة الله تعالى قائلاً: "ثقة بالله وتوكلاً عليه"، وذلك للتنبيه على أن هذا المرض وإن كان يعدي في العادة، ولكن تعديته موقوفة على تقدير الله تعالى وليس ذلك بتأثيره الذاتي.

وقوله "لا طيرة" هي: التشاؤم وهو مصدر "تطيّر" كما أن الحيرة مصدر "تحيّر" وقال بعض أهل اللغة: لم يجيء من المصادر هكذا غير هاتين.

وأصل التطيّر أنهم كانوا في الجاهلية يعتمدون على الطير، فإذا خرج أحدهم لأمر، فإن رأى الطير طار يمنة تيمن به واستمر في عمله، وإن رآه طار يُسرة تشاءم به ورجع وربما كان أحدهم يهيّج الطير ليطير فيعتمدها، وكانوا يسمّون الطائر الذي يطير إلى اليمين: "سانحاً"، والذي يطير إلى اليسار يسمونه: "بارحاً" فكانوا يتيمنون بالسائح ويتشاءمون بالبارح، ثم استعيرت كلمة التطير لكل تشاؤم، سواء كان بسبب الطير أو بغيره، ومنه ما جاء في القرآن الكريم: ﴿يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾[1] و﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾[2]. فجاء الشرع فأراح المسلمين من جميع هذه التوهمات[3].

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٣١.

(٢) سورة يس، آية: ١٨.

(٣) تكملة فتح الملهم، محمد تقي العثماني، ١٠/٣٢٣-٣٢٧ بتصرف.

وقال النووي: (والتطير: التشاؤم وأصله الشيء المكروه من قول أو فعل أو مرئي، وكانوا يتطيرون بالسوانح والبوارح فينفرون الظباء والطيور فإن أخذت ذات اليمين تبركوا به ومضوا في سفرهم وحوائجهم، وإن أخذت ذات الشمال رجعوا عن سفرهم وحاجتهم وتشاءموا منها فكانت تصدهم في كثير من الأوقات عن مصالحهم فنفى الشرع ذلك وأبطله ونهى عنه وأخبر أنه ليس له تأثير بنفع ولا ضر فهذا معنى قوله "لا طيرة" وأما قوله في حديث آخر "الطيرة شرك" أي اعتقاد أنها تنفع أو تضر إذا عملوا بمقتضاها معتقدين تأثيرها فهو شرك لأنهم جعلوا لها أثراً في الفعل والإيجاد)[1].

قال ابن حجر: (وأصل التطير أنهم كانوا في الجاهلية يعتمدون على الطير فإذا خرج أحدهم لأمر فإن رأى الطير طار يمنة يتيمن به واستمر، وإن رآه طار يسرة تشاءم به ورجع. وقد كان بعض عقلاء الجاهلية ينكر التطير ويتمدح بتركه قال شاعر منهم:

الزجر والطير والكهان كلهم مضلون ودون الغيب أقفال

وقال آخر:

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع

وقد جعل الله ذلك شركاً لاعتقادهم أن ذلك يجلب نفعاً أو يدفع ضراً، فكأنهم أشركوه مع الله تعالى)[2].

وقال الماوردي: (اعلم أنه ليس شيء أضر بالرأي، ولا أفسد للتدبير من اعتقاد الطيرة، ومن ظن أن خوار بقرة، أو نعيق غراب، يرد قضاء، أو يدفع مقدوراً فقد جهل، واعلم أنه قلما يخلو من الطيرة أحد، لا سيما من عارضته المقادير في إرادته، وصده القضاء عن طلبته، فهو يرجو واليأس عليه أغلب، ويأمل والخوف إليه أقرب، فإذا عاقه القضاء، وخانه الرجاء، جعل الطيرة عُذْر خيبته وغفل عن قضاء الله ومشيئته)[3].

---

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١٣٨٨.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٢٢٣/١٠، ٢٢٤.

(٣) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ٣٠٣، ٣٠٤.

وقال أبو عمر بن عبدالبر: (أصل التطير واشتقاقه عند أهل العلم باللغة والسير والأخبار هو مأخوذ من زجر الطير ومروره سانحاً أو بارحاً[١] منه اشتقوا التطير ثم استعملوا ذلك في كل شيء من الحيوان وغير الحيوان فتطيروا من الأعور والأعضب[٢] والأبتر، وكذلك إذا رأوا الغراب أوغيره من الطير يتفلى أو ينتف ولإيمان العرب بالطيرة عقدوا الرتائم[٣] واستعملوا القداح بالآمر والناهي والمتربص، وكانوا يشتقون الأسماء الكريهة مما يكرهون، وإذا غلب عليهم الإشفاق تطيروا وتشاءموا، وإذا غلب عليهم الرجاء والسرور تفاءلوا فقال لهم رسول الله ﷺ "لاطيرة" ولا "شؤم" فعرفهم أن ذلك إنما هو شيء من طريق الاتفاق ليرفع عن المتوقع ما يتوقعه من ذلك كله، ويعلمه أن ذلك ليس يناله منه إلا ما كتب له)[٤].

جاء في الموسوعة الفقهية: (وأصل التطير: أن العرب كانوا في الجاهلية إذا خرج أحدهم لأمر قصد إلى عش الطائر، فيهيجه، فإذا طار الطير يمنة تيمن به، ومضى في الأمر، ويسمونه "السانح". أما إذا طار يسرة تشاءم به، ورجع عما عزم عليه، وكانوا يسمونه "البارح". فأبطل الإسلام ذلك ونهى عنه، وأرجع الأمر إلى سنن الله الثابتة، وإلى قدره المحيط، ومسيئته المطلقة، جاء في الأثر الصحيح: ((من ردته الطيرة من حاجة فقد أشرك))[٥].

وأما حكمه التكليفي: فإن اعتقد المكلف أن الذي شاهده من حال الطير موجب لما ظنه، مؤثر فيه، فقد كفر. لما في ذلك من التشريك في تدبير الأمور. أما إذا علم أن الله سبحانه وتعالى هو المتصرف والمدبر وحده، ولكنه في نفسه يجد شيئاً من الخوف

---

(١) السانح: ما مرَّ من الطير والوحش بين يديك من جهة يسارك إلى يمينك، والعرب تتيمن به، لأنه أمكن للرمي والصيد، والبارح: ما مرَّ من يمينك إلى يسارك، والعرب تتطير به؛ لأنه لا يمكنك أن ترميه حتى تنحرف. لسان العرب، ابن منظور (ب ر ح، س ن ح).

(٢) الأعضب: المكسور القرن، ويكون العضب في الأذن أيضاً، إلا أنه في القرن أكثر. لسان العرب، ابن منظور في (ع ض ب).

(٣) الرتائم: جمع رتيمة، وهي خيط يشد في الإصبع لتستذكر به الحاجة. لسان العرب، ابن منظور في (ر ت م).

(٤) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ٢٣/١٩٠، ١٩١.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده ٢/٢٢٠ رقم ٧٠٤٥، وقال محققو المسند: حديث حسن، ١١/٦٢٣.

من الشر، لأن التجارب عنده قضت أن صوتاً من أصوات الطير، أو حالاً من حالاته يرادفه مكروه، فإن وطّن نفسه على ذلك فقد أساء، وإن استعاذ بالله من الشر، وسأله الخير ومضى متوكلاً على الله، فلا يضره ما وجد في نفسه من ذلك، وإلا فيؤاخذ. لحديث معاوية بن حكم. قال: قلت: ((يا رسول الله: منا رجال يتطيرون. قال: ذلك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدنهم))[1].

هذا وقد اتفق أهل التوحيد على تحريم التطير، ونفي تأثيره في حدوث الخير أو الشر، لما في ذلك من الإشراك بالله في تدبير الأمور. والنصوص في النهي عن ذلك كثيرة، منها: حديث: ((لا عدوى، ولا طيرة، ولاهامة، ولا صفر))[2])[3].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: بيان الأمور التي يكون فيها الشؤم:

حيث جاء في الحديث قوله ﷺ "وإن كان الشؤم في شيء، ففي الدار والمرأة والفرس".

قال المازري: (وأما ما ذكره: الشؤم في الدار والمرأة والفرس؛ فإن مالكاً أخذ هذا الحديث على ظاهره ولم يتأوله؛ فذكر في كتاب الجامع من المستخرجة: أنه قال: رب دار سكنها قوم فهلكوا وآخرون بعدهم فهلكوا، وأشار إلى حمل الحديث على ظاهره.

وقال غيره؛ فإن هذا محمله على أن المراد به أن قدر الله تعالى ربما اتفق بما يكره عند سكن الدار، فيصير ذلك كالسبب فيتسامح في إضافة الشؤم إليه مجازا واتساعاً.

قالوا: وقد قال في بعض طرق مسلم: إن يكن الشؤم؛ وهذا لفظ ينافي القطع.

ويكون محمله: إن يكن الشؤم حقاً؛ فهذه الثلاث أحق به، بمعنى: أن النفوس يقع فيها التشاؤم لهذه أكثر مما يقع بغيرها.

---

(١) أخرجه مسلم ٥٣٧.

(٢) أخرجه البخاري ٥٧٧٥، ومسلم ٢٢٢٠.

(٣) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٢/١٨٣.

وقد وقع في بعض الأحاديث. أنه ﷺ لما شكى إليه في بعض الديار ذهاب الأهل و المال؛ فقال: ((دعوها ذميمة))(١).

وقد اعترض بعض أهل العلم في هذا الموضع بأن قال؛ فإنه ﷺ: نهى عن الفرار من بلد الطاعون، وأباح الفرار من هذه الدار؛ فما الفرق؟

قيل: قال بعض أهل العلم: إن الجامع لهذه الفصول كلها ثلاثة أقسام:

فأحد الأقسام ما لم يقع التأذي به، ولا طردت عادتهم فيه خاصة ولا عامة نادرة ولا متكررة؛ فهذا لا يصغي إليه. والشرع أنكر الالتفات إليه وهو الطيرة؛ لأن لقُيا الغراب في بعض الأسفار ليس فيه إعلام ولا إشعار بما يكره، أو يختار، لا على جهة الندور ولا التكرار؛ فلهذا قال ﷺ: "لا طيرة".

والقسم الثاني: مما يقع به الضرر، ولكنه يعم ولا يخص ويندر ولا يتكرر كالوباء؛ فإن هذا لا يقدم عليه احتياطاً ولا يفر منه لعدم أن يكون وصل الضرر إلى الغير على الندور والتكرار.

والقسم الثالث: سبب يخص ولا يعم ويلحق منه الضرر كالديار؛ فإن ضررها مختص بسكناها وقد ذهب فيها أهله وماله على حسب ما قال الشاكي للنبي ﷺ فهذا يباح له الفرار. فهذا التقسيم الذي قسمه بعض العلماء يشير إلى الفروق بين هذه المسائل بعضها من بعض)(٢).

وقال القاضي عياض: (وقد عارض بعض الملحدة هذا الحديث بقوله: "لا طيرة". قال القتبي: وهذا تعسف، ووجهه: أن هذا الحديث مخصوص بحديث الشؤم، كأنه قال: لا طيرة إلا في هذه الثلاثة، والطيرة على من تطير. كان أهل الجاهلية يقولون ذلك، فنهاهم النبي ﷺ عن الطيرة، فلم ينتهوا فبقيت في هذه الثلاثة الأشياء.

وقد روى أبو هريرة عنه ﷺ: "الطيرة على من تطير، وإن يكن في شيء ففي المرأة والدار والفرس"، وهذا يعضد قول من قال(٣): إنه على الاستثناء، وقد جاء في حديث

---

(١) أخرجه أبو داود ٣٩٢٤ وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٣٢٢).

(٢) المعلم بفوائد مسلم٢/٢٧٣-٢٧٤.

(٣) الخطابي في معالم السنن ٤/٢٢٣٧.

آخر: ((لا شؤم))[1]، وقيل: معناه: أن هذه الأشياء مما يطول التعذب بها وكراهة أمرها، وذلك لملازمتها بالسكنة والصحبة، وإن دفع الإنسان ذلك عن اعتقاده، فكلامه ﷺ بذلك بمعنى الأمر بفراق ذلك وزوال التعذب به، كما قال: ((اتركوها ذميمة))[2].

قال الخطابي: معنى هذا الحديث: إبطال مذهبهم في التطير بالسوانح والبوارح، إلا أنه قال: إن كانت لأحدكم دار يكره سكناها، وامرأة يكره صحبتها، أو فرس لا تعجبه ارتباطه – فليفارقه، بأن ينتقل عن الدار، ويبيع الفرس، ويفارق المرأة وكان مجرى هذا الكلام عن استثناء الشيء من غير جنسه، وتسهل الخروج من كلام إلى غيره.

وقد قيل: شؤم الدار ضيقها [سوء جارها]، وشؤم الفرس ألا يغزى عليها وشؤم المرأة ألا تلد.

وقد يكون الشؤم هنا على غير المفهوم منه من معنى التطير، لكن بمعنى قلة الموافقة وسوء الطباع، كما جاء في الحديث الآخر: "سعادة ابن آدم في ثلاثة، وشقوة ابن آدم في ثلاثة: فمن سعادته: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والمركب الصالح. ومن شقاوته: المسكن السوء، والمرأة السوء، والمركب السوء[3])[4].

قال ابن عبدالبر: وأما قوله في هذا الحديث "الشؤم في الدار والمرأة والفرس" فهو عندنا على غير ظاهره، وسنقول فيه بحول الله وعونه لا شريك له، وكان ابن مسعود يقول: إن كان الشؤم في شيء فهو فيما بين اللحيين -يعني اللسان- وما شيء أحوج إلى سجن طويل من اللسان.

قال أبو عمر: ونقول في معنى حديث هذا الباب بما نراه يوافق الصواب إن شاء الله.

فقوله ﷺ: "لا طيرة". نفيٌ عن التشاؤم والتطير بشيء من الأشياء، وهذا القول أشبه شيء بأصول شريعته ﷺ من حديث الشؤم.

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٨٢٤ وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٢٦٤).

(٢) أخرجه أبو داود ٣٩٢٤، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٣٢٢).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ١٦٨/١ رقم ١٤٤٥، وقال محققو المسند: حديث صحيح، ٥٥/٣.

(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم المسمى، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل ١٥٠/٧، ١٥١.

فإن قال قائل: قد روى زهير بن معاوية، عن عتبة بن حميد، قال: حدثني عبيد الله ابن أبي بكر، أنه سمع أنساً يقول: قال رسول الله ﷺ: ((لا طيرة، والطيرة على من تطير، وإن تكن في شيء، ففي المرأة، والدار، والفرس)). وقال: هذا يوجب أن تكون الطيرة في الدار، والمرأة، والفرس، لمن تطير. قيل له، وبالله التوفيق: لو كان كما ظننت لكان هذا الحديث ينفي بعضه بعضاً؛ لأن قوله: "لا طيرة". نفي لها، وقوله: "والطيرة على من تطير". إيجاب لها، وهذا محال أن يظن بالنبي ﷺ مثل هذا من النفي والإثبات في شيء واحد، ووقتٍ واحد، ولكن المعنى في ذلك نفي الطيرة بقوله: "لا طيرة". وأما قوله: "والطيرة على من تطير". فمعناه: إثم الطيرة على من تطير بعد علمه بنهي رسول الله ﷺ عن الطيرة. وقوله فيها: "إنها شرك، وما منا إلا...، ولكن الله يذهبه بالتوكل". فمعنى هذا الحديث عندنا، والله أعلم، أن من تطير فقد أثم، وإثمه على نفسه في تطيره؛ لترك التوكل وصريح الإيمان؛ لا أنه يكون ما تطير به على نفسه في الحقيقة، لأنه لا طيرة حقيقة، ولا شيء إلا ما شاء الله في سابق علمه.

والذي أقولُ به في هذا الباب، تسليم الأمر لله عز وجل، وترك القطع على الله بالشؤم في شيء؛ لأن أخبار الآحاد لا يُقطع على عينها، وإنما توجب العمل فقط، قال الله تبارك اسمه: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[2]. فما قد خط في اللوح المحفوظ لم يكن منه بد، وليست البقاع ولا الأنفس بصانعة شيئاً من ذلك، والله أعلم، وإياه أسأل السلامة من الزلل في القول والعمل برحمته.

وقد كان من العرب قومٌ لا يتطيرون ولا يرون الطيرة شيئاً.

ذكر الأصمعي أن النابغة خرج مع زبان بن سيار يُريدان الغزو، فبينما هما في منهل يُريدان الرحلة إذ نظر النابغة فإذا على ثوبه جرادة، فقال: جرادة تجرد، وذاتُ ألوانٍ! فتطير وقال: لا أذهب في هذا الوجه. ونهض زبان، فلما رجع من تلك الغزوة سالماً غانماً أنشأ يقول:

(١) سورة التوبة، آية: ٥١.

(٢) سورة الحديد، آية: ٢٢.

تَخَبَّر طَيره فيها زِيَادٌ لتُخْبِرَه وما فيها خَبِيرُ
أقامَ كأنَّ لُقْمَانَ بنَ عادٍ أشارَ له بحِكْمَتِه مُشِيرُ
تعلَّم أنَّه لا طِيرَ إلا على مُتَطَيِّرٍ وهُو الثُّبُورُ
بلى شيءٌ يُوافِقُ بعضَ شيءٍ أحَايِيناً وباطِلُه كثيرُ

فهذا زبَّانُ بنُ سيار، وهو أحد دهاة العرب وساداتهم، لم يرد ذلك شيئاً، وقال: إنه اتفاقٌ وباطله كثير. وممن كان لا يرى الطيرة شيئاً من العرب ويُوصي بتركها، الحارث بن حلزة، والمرقش السدوسي كان أيضاً ممن لا يتطير، وهو القائل:

ولقد غَدَوْتُ وكنتُ لا أغْدُوا على واقٍ وحاتمْ
فإذا الأشائم كالأيا مِنِ والأيَامِنُ كالأشَائمْ
وكذاكَ لا خَيْرٌ ولا شرٌ على أحَدٍ بدائمْ

الواقِ: الصُّرَدُ[١]، والحاتِمُ: الغُرَابُ.

وكانت عائشة رضي الله عنها تنكر حديث الشؤم وتقول: إنما حكاه رسول الله ﷺ عن أهل الجاهلية وأقوالهم، وكانت تنفي الطيرة ولا تعتقد شيئاً منها، حتى قالت لنسوة كنَّ يكرهن الابتناء بأزواجهن في شوال: ما تزوجني رسول الله ﷺ إلا في شوال، وما دخل بي إلا في شوال، فمن كان أحظى مني عنده؟ وكانت تستحبُّ أن يدخلن على أزواجهن في شوال[٢].

وعن قتادة، عن أبي حسان، أن رجلين دخلا على عائشة، وقالا: إن أبا هريرة يحدث أن النبي ﷺ قال: "إنما الطيرة في المرأة، والدار، والدابة". فطارت شِقة منها في السماء، وشقة في الأرض، ثم قالت: كذب، والذي أنزل الفرقان على أبي القاسم، من حدث عنه بهذا، ولكن رسول الله ﷺ كان يقول: "كان أهل الجاهلية يقولون:

---

(١) الصرد: طائر أكبر من العصفور، ضخم الرأس والمنقار، يصيد صغار الحشرات، وربما صاد العصفور، وكانوا يتشاءمون به. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية (ص ر د).

(٢) أخرجه مسلم ١٤٢٣، والترمذي ١٠٩٣، والنسائي ٣٢٣٦، ٣٣٧٧، وابن ماجه ١٩٩٠.

الطيرة في المرأة، والدار، والدابة". ثم قرأت عائشة: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾[1].

قال أبو عمر: أما قول عائشة رضي الله عنها في أبوهريرة: كذب، والذي أنزل الفرقان. فإن العرب تقول: كذبت. بمعنى: غلطت فيما قدَّرت، وأوهمت فيما قلت، ولم تظن حقاً. ونحو هذا، وذلك معروفٌ من كلامهم، موجودٌ في أشعارهم كثيراً، قال أبو طالب:

كذَبْتُم وبيتِ اللهِ نتْرُكُ مَكَّة ... ونظْعَنُ إلا أمْرُكُم في بَلابِلِ

كذَبْتُم وبيتِ اللهِ نُبْزَى محمداً ... ولما نُطاعِنْ دُونَه ونُنَاضِلِ

ونُسلِمُه حتى نُصَرَّعُ حولَه ... ونَذْهَلَ عن أبْنَائِنا والحَلائِلِ

وقال بعضُ شعراء همدان:

كذَبتم وبيتِ الله لا تأْخُذُونها ... مُراغَمَةً ما دامَ للسيفِ قائِمُ

ألا ترى أن هذا ليس من باب الكذب الذي هو ضد الصدق؟ وإنما هو من باب الغلط وظن ما ليس بصحيح؛ وذلك أن قريشاً زعموا أنهم يخرجون بني هاشم من مكة إن لم يتركوا جوار محمد ﷺ، فقال لهم أبو طالب: كذبتم. أي: غلطتم فيما قلتم وظننتم. وكذلك معنى قول الهمداني، وهذا مشهور من كلام العرب.

ومن هذا ما ذكره الحسن بن علي الحلواني، قال: حدثنا عارم، قال: حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب، قال: سألتُ سعيد بن جبير عن الرجل يأذن لعبده في التزويج: بيدِ مَن الطلاقُ؟ قال: بيدِ العبد. قلت: إن جابر بن زيد يقول: بيد السيد قال: كذب جابرٌ. يريد غلط جابرٌ وأخطأ. والله أعلم.

وقد يحتمل أن يكون قول رسول الله ﷺ: "الشؤم في ثلاثة: في الدار، والمرأة، والفرس". كان في أول الإسلام خبراً عما كانت تعتقد العرب في جاهليتها على ما قالت عائشة، ثم نسخ ذلك وأبطله القرآن والسنن.

وأما قوله ﷺ للقوم في قصة الدار: ((اتركوها ذميمة))[2]. فذلك، والله أعلم، لما رآه منهم، وأنه قد كان رسخ في قلوبهم مما كانوا عليه في جاهليتهم، وقد

(١) سورة الحديد، آية: ٢٢.

(٢) أخرجه أبو داود ٣٩٢٤، وحسنه الألباني (صحيح سنن ابي داود ٣٣٢٢).

كان ﷺ رؤوفاً بالمؤمنين يأخذ عفوهم شيئاً شيئاً، وهكذا كان نزول الفرائض والسنن حتى استحكم الإسلام وكَمَل، والحمد لله، ثم بيّن رسول الله ﷺ بعد ذلك لأولئك الذين قال لهم: "اتركوها ذميمة". ولغيرهم ولسائر أمته، الصحيح بقوله: "لا طيرة". و"لا عدوى". والله أعلم[1].

وقال النووي: (معناه: قد يحصل الشؤم في هذه الثلاثة، وقال الخطابي وكثيرون: هو في معنى الاستثناء من الطيرة أي الطيرة منهي عنها إلا أن يكون له دار يكره سكناها، أو امرأة يكره صحبتها أو فرس أو خادم فليفارق الجميع بالبيع ونحوه وطلاق المرأة وقال آخرون: شؤم الدار ضيقها وسوء جيرانها أذاهم، وشؤم المرأة عدم ولادتها وسلاطة لسانها وتعرضها للريب، وشؤم الفرس أن لا يغزى عليها وقيل: حرانها وغلاء ثمنها وقيل: المراد بالشؤم هنا عدم الموافقة[2]).

وقال الطيبي: (قال القاضي: والمعنى أن الشؤم لو كان له وجود في شيء لكان في هذه الأشياء فإنها أقبل الأشياء لها، لكن لا وجود له فيها فلا وجود له أصلاً. فعلى هذا الشؤم في الأحاديث المستشهد بها محمول على الكراهية التي سببها ما في الأشياء من مخالفة الشرع أو الطبع فشؤمها عدم موافقتها له شرعاً أو طبعاً)[3].

وقال ابن حجر: (قال ابن العربي: والحصر فيها بالنسبة إلى العادة لا بالنسبة إلى الخلقة وقال غيره إنما خصت بالذكر لطول ملازمتها. قال القرطبي: ولا يظن به أنه يحمله على ما كانت الجاهلية تعتقده بناء على أن ذلك يضر وينفع بذاته فإن ذلك خطا وإنما عني أن هذه الأشياء هي أكثر ما يتطير به الناس فمن وقع في نفسه شيء أبيح له أن يتركه ويستبدل به غيره قال المازري: إن يكن الشؤم حقاً فهذه الثلاث أحق به بمعنى أن النفوس يقع فيها التشاؤم بهذه أكثر مما يقع بغيرها وسئل مالك عن هذا فقال: كم من دار سكنها ناس فهلكوا. قال ابن العربي: لم يرد مالك إضافة الشؤم

---

(١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ٢٣/١٩٢-٢٠٠ بتصرف.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ١٣٨٩.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٨/٣٢١.

إلى الدار، وإنما هو عبارة عن جري العادة فيها فأشار إلى أنه ينبغي للمرء الخروج منها صيانة لاعتقاده عن التعلق بالباطل. وهذا التأويل أولى وهو نظير الأمر بالفرار من المجذوم مع صحة نفي العدوى والمراد بذلك حسم المادة وسد الذريعة لئلا يوافق شيء من ذلك القدر فيعتقد من وقع له ذلك من العدوى أو من الطيرة فيقع في اعتقاد ما نهى عن اعتقاده فأشير إلى اجتناب مثل ذلك والطريق فيمن وقع له ذلك في الدار مثلاً أن يبادر إلى التحول منها لأنه متى استمر فيها ربما حمله ذلك على اعتقاد صحة الطيرة والتشاؤم)[1].

رابعاً- من موضوعات الدعوة: الحث على التفاؤل في الأمور:

حيث جاء في الحديث "ويعجبني الفأل قالوا: وما الفأل؟ قال كلمة طيبة. وجاء في الحديث أيضاً "ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: أحسنها الفأل".

قال النووي: (والفأل: فسره النبي ﷺ بالكلمة الصالحة والحسنة الطيبة قال العلماء: يكون الفأل فيما يسر وفيما يسوء والغالب في السرور، والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء. قال العلماء: وإنما أحب ﷺ الفأل لأن الإنسان إذا أمل فائدة الله تعالى وفضله عند سبب قوي أو ضعيف فهو على خير في الحال، وإن غلط في جهة الرجاء فالرجاء له خير وأما إذا قطع رجاءه وأمله من الله تعالى فإن ذلك شر له، والطيرة فيها سوء الظن وتوقع البلاء)[2]. وقال الطيبي: (وكان ﷺ يحب الاسم الحسن وهذا بيان لتفاؤله ﷺ لأنه لم يتجاوز عن ذلك)[3]. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: ((أنَّ النبيَّ كان يُعْجِبُهُ إذا خَرَجَ لِحَاجَته أنْ يَسْمَعَ يَا رَاشِدُ يَا نَجِيحُ))[4].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ((أن النبي ﷺ سمع صوتاً فأعجبه فقال: قد أخذنا فألك من فيك))[5].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٧٢/٦، ٧٣.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ١٣٨٨.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، الطيبي ٣١٨/٨.

(٤) أخرجه الترمذي ١٦١٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٣١٦).

(٥) أخرجه أبو داود ٣٩١٧، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٣١٧).

وقال الإمام الماوردي: (وأما الفأل ففيه تقوية للعزم، وباعث على الجد، ومعونة على الظفر، فقد تفاءل ﷺ في غزواته وحروبه وينبغي لمن تفاءل أن يتأول الفأل بأحسن تأويلاته، ولا يجعل لسوء الظن على نفسه سبيلاً روي أن يوسف عليه السلام شكا إلى الله تعالى طول الحبس فأوحى الله إليه: يا يوسف أنت حبست نفسك حين قلت: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾[1] ولو قلت: العافية أحب إلي لعوفيت. وحُكي أن المُؤَمَّل بن أُمَيْل الشاعر لما قال يوم الحيرة:

شف المؤمل يوم الحيرة النظر ليت المؤمل لم يخلق له بصر

عمي، فأتاه آتٍ في منامه فقال له هذا ما طلبت)[2].

جاء في الموسوعة الفقهية: (والتفاؤل مباح بل حسن إذا كان متعيناً للخير، كأن يسمع المريض يا سالم، فينشرح لذلك صدره.

ولا خلاف بين الفقهاء في جواز التفاؤل بالكلمة الحسنة من غير قصد، كأن يسمع المريض يا سالم، أو يسمع طالب الضالة يا واجد فتستريح نفسه لذلك.

وكان النبي عليه الصلاة والسلام يعجبه: أن يسمع يا راشد يا نجيح إذا خرج لحاجته. وكان لا يتطير من شيء، وكان إذا بعث عاملاً سأل عن اسمه فإذا أعجبه اسمه فرح به ورئي بشر ذلك في وجهه، وإذا دخل قرية سأل عن اسمها فإن أعجبه اسمها فرح ورئي بشر ذلك في وجهه وإن كره اسمها رئي كراهية ذلك في وجهه.

وإنما كان يعجبه الفأل، لأنه تنشرح له النفس وتستبشر بقضاء الحاجة فيحسن الظن بالله. بخلاف الطيرة فإنها من أعمال أهل الشرك حيث كانوا يعتقدون حصول الضرر بما يتطير به.

والتفاؤل المباح: أن يسمع الرجل الكلمة الطيبة من غير قصد، أو يسمي ولده اسماً حسناً فيفرح عند سماعه.

---

(١) سورة يوسف، آية: ٣٣.

(٢) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ٣٠٥.

أما أخذ الفأل من المصحف، كأن يفتحه فيتفاءل ببعض الآيات في أول الصفحة، أو يتفاءل بضرب الرمل، فيتفاءل ببعض رموزه فحرام)[١].

وقال الماوردي: (ينبغي لمن مُني بالتطير أن يصرف عنه نفسه دواعي الخيبة وذرائع الحرمان، ولا يجعل للشيطان سلطاناً في نقض عزائمه، ومعارضة خالقه، ويعلم أن قضاء الله تعالى عليه غالبٌ، وأن رزقه له طالب، إلا أن الحركة سببٌ، فلا يثنيه عنها ما لا يضير مخلوقاً ولا يدفع مقدوراً، وليمض في عزائمه واثقاً بالله تعالى إن أعطى، وراضياً به وإن منع)[٢].

خامساً- من واجبات الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم:

حيث جاء في الحديث "ولا ترد مسلماً فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك" حيث أرشد النبي ﷺ إلى ما يفعله المسلم تجاه الطيرة قال شرف الحق العظيم آبادي: (ولا تمنع الطيرة مسلماً من المضي في حاجته فإن ذلك ليس من شأن المسلم بل شأنه أن يتوكل على الله تعالى في جميع أموره ويمضي في سبيله فإنه لا يأتي بالأمور الحسنة الشاملة إلا الله ولا يدفع الأمور المكروهة الكافلة للنعمة والمعصية إلا الله ولا حول على دفع السيئات ولا قوة على تحصيل الحسنات إلا بالله)[٣].

وهذا واجب الداعية دائماً أن يوجه المدعوين إلى الخير لأنه حريص عليهم وعلى مصلحتهم وفائدتهم قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٤].

قال ابن القيم: (التطير إنما يضر من أشفق منه وخاف، وأما من لم يبال به ولم يعبأ به شيئاً لم يضره ألبتة، ولا سيما إن قال عند رؤية ما يتطير به أو سماعه: اللهم لا طير

---

(١) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية ١٣/٧٧، ٧٨.

(٢) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: مصطفى السقا ٣٠٢.

(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي ١٦٧٤.

(٤) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك، اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يذهب بالسيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك. وذلك لأن الطيرة بابٌ من أبواب الشرك وإلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته، وهذا يعظم شأنه على من أتبعها نفسه واشتغل بها وأكثر العناية بها فتكون إليه أسرع من السيل إلى منحدره، وتفتحت له أبواب الوساوس فيما يسمعه ويراه ويعطاه فيفتح له الشيطان فيها من المناسبات البعيدة والقريبة في اللفظ والمعنى ما يُفسد عليه دينه وينكد عليه عيشه فإذا سمع كلمة سفرجل، أو أُهدي إليه تطير به، وقال: سفر وجلاء، وإذا رأى ياسميناً أو أهدي إليه أو سمع اسمه تطير به وقال: يأس ومَيْن، وإذا خرج من داره فاستقبله أعور أو أشل أو أعمى أو صاحب آفة تطير به وتشاءم بيومه، وعلى هذا فإن المتطير متعب القلب، منكد الصدر، كاسف البال سيء الخلق يتخوف من كل ما يراه ويسمعه فيصير أشد الناس وجلاً وأنكدهم عيشاً، وأضيقهم صدراً، وأحزنهم قلباً، وكم قد حرم نفسه بذلك من حظ ومنعها من رزق وقطع عليها من فائدة. وأما من لم يلتفت إليها ولم يلقِ إليها باله، ولم يشغل نفسه بها ولا فكره، فإن ذلك يذهب عنه ويضمحل. وقد شفى النبي ﷺ أمته في الطيرة حيث سئل عنها فقال: "ذلك شيء يجده أحدكم فلا يصدنه")[١].

سادساً- من أهداف الدعوة: تعميق معاني التوكل على الله في كافة الأمور:

يتضح هذا من سياق الأحاديث قال ابن القيم: (والمؤمن لا يتطير فإن التطير شرك، ولا يصده ما سمع عن مقصده وحاجته بل يتوكل على الله ويثق به، ويدفع شر التطير عنه بالتوكل وإن صاحب الهمة والعزيمة لا يتقيد بشيء من التطير ولا يصرف إليه همته وإذا سمع ما يسره استبشر وقوى رجاؤه وحسن ظنه وحمد الله وسأله إتمامه واستعان به على حصوله، وإذا سمع ما يسوؤه استعاذ بالله ووثق به وتوكل عليه ولجأ إليه والتجأ إلى التوحيد)[٢].

وقال ابن رجب: (وحقيقة التوكل هو صدق اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها، وكِلَة الأمور كلها إليه

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ابن القيم ٢/ ٢٣٠-٢٣٤ بتصرف.

(٢) مدارج السالكين في شرح منازل السائرين، ابن القيم ٣/ ٣٧٣، ٣٧٤.

وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه. قال الحسن: (إن توكل العبد على ربه أن يعلم أن الله هو ثقته. وقال سعيد بن جبير: التوكل جماع الإيمان، واعلم أن تحقيق التوكل لا ينافي السعي في الأسباب التي قدر الله سبحانه المقدورات بها، وجرت سنته في خلقه بذلك)[1].

قال القرطبي: (والتوكل لغة: هو إظهارُ العجز عن أمرٍ ما، والاعتماد فيه على الغير. والاسم: التكلان، يقال منه: اتكلتُ عليه في أمري. وأصله: إوتكلتُ، قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها، ثم أُبدل منها التاء، وأُدغمت في تاء الافتعال، ويقال: وكّلته بأمر كذا توكيلاً. والاسم: الوكالة بكسر الواو وفتحها.

واختلفَ العلماءُ في التوكلُ، وفيمن يستحق اسم المتوكل على الله، فقالت طائفةٌ: لا يستحقه إلا من لم يخالط قلبه خوف غير الله من سبع أو غيره، وحتى يترك السعي في طلب الرزق؛ لضمان الله تعالى.

وقال عامَّة الفقهاء: إن التوكل على الله تعالى هو الثقة بالله، والإيقانُ بأنَّ قضاءه ماضٍ، واتباعُ سنة نبيه في السعي فيما لابد منه من الأسباب من مطعم ومشرب، وتحرزٍ من عدو، وإعداد الأسلحة واستعمال ما تقتضيه سنة الله تعالى المعتادة، وإلى هذا ذهب محققو المتصوفة؛ لكنه لا يستحق اسم المتوكل عندهم مع الطمأنينة إلى تلك الأسباب والالتفات إليها بالقلوب، فإنها لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضراً، بل السببُ والمسبّبُ فِعل الله تعالى، والكلُّ منه وبمشيئته، ومتى وقع من المتوكل ركونٌ إلى تلك الأسباب فقد انسلخَ عن ذلك الاسم.

ثم المتوكلون على حالين:

الحال الأول: حال المتمكن في التوكل، فلا يلتفتُ إلى شيء من تلك الأسباب بقلبه، ولا يتعاطها إلا بحُكم الأمر.

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس ٢/٤٩٧، ٤٩٨.

الحال الثاني: حال غيرم المتمكّن؛ وهو الذي يقعُ له الالتفاتُ إلى الأسباب أحياناً، غير أنه يدفعُها عن نفسه بالطرق العلمية، والبراهين القطيعة، والأذواق الحالية، فلا يزالُ كذلك إلى أن يرَقِّيَهُ اللّهُ بجوده إلى مقام المتكمنِّنين، ويُلحِقه بدرجات العارفين)[1].

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو وآخرين ١/٤٦٧، ٤٦٨.

الحديث رقم (١٦٧٧)

١٦٧٧- وعن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ : ((لا عَدْوَى وَلاَ طِيَرَةَ. (وإنْ كَانَ الشُّؤمُ فِي شَيْءٍ فَفِي الدَّارِ، وَالمَرْأَةِ، والفَرَسِ) [١])). متفق عَلَيْهِ[٢].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣).

غريب الألفاظ:

الطِّيَرَة: التشاؤُم[٣].

الشؤم: ما يُكره ويخاف عاقبته[٤].

الشرح الأدبي

يبدأ الحديث بما بدأ به الحديث السابق: وهو نفي العدوى، ونفي التطير، في صيغة "لا" النافية للجنس، وتكرار "لا" يؤكد هذا النفي لجنس العدوى ولجنس التطير، مهما تغيرت الأسماء، وتغيرت البيئات، ولكن رسول الله ﷺ حذر من مخالطة المرضى من باب الوقاية، لأن كثيراً من الأمراض تنتشر بالمخالطة، ولكن محكومة بالمشيئة الإلهية، بدليل أن بعض الناس يصاب، وبعضهم ينجو، وهم يعيشون في مناخ واحد، وبيئة واحدة.

والجزء الثاني من الحديث جاء في صيغة الشرط والجواب، "وإن كان الشؤم في شيء: ففي الدار والمرأة والفرس"، ونلاحظ أن أداة الشرط هي: "إن"، وليست: "إذا"، لأن "إن": تفيد الشك ولا تفيد التحقق: فهي احتمالية: وعلى هذا فإن الشؤم ليس قاعدة

---

(١) قوله: (وإن كان الشؤم) إلى آخره لفظ البخاري برقم (٥٠٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٩٤، و ٥٧٥٣) واللفظ له، ومسلم (٢٢٢٥/١١٦).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ط ي ر).

(٤) المرجع السابق في (ش أ م).

مطردة، ولكن الفأل هو المطلوب، وهو التبشير عن طريق الكلم الطيب، وجواب الشرط جملة اسمية مقترنة بالفاء وجوباً وهو قوله: "ففي الدار والمرأة والفرس"، والتقدير: فهو موجود في دار الإنسان، وفي امرأته، وفي فرسه.

في ظل ظروف خاصة، إذا كانت الدار ضيقة قليلة المرافق، وإذا كانت الدابة قَطُوفًا بطيئة غير ذلول فإن ضربتها أتعبتك، وإن تركتها لم تلحق أصحابك، وكذلك المرأة تكون شؤماً: إذا ساءتك حين تراها، أو كانت تحمل لسانها عليك.

وقال بعضهم: شؤم المرأة إذا كانت غير ولود، وشؤم الفرس إذا لم يغز عليها، وشؤم الدار: جار السوء.

وحديث رسول الله ﷺ في غاية الإيجاز فألفاظه قليلة، ولكنها تموج بالمعاني والاحتمالات، والتفسيرات التي لا تنتهي، ولكنها تتعدد وتتنوع بتعدد البيئات وتنوع الحالات التي تمر بالناس في كل زمان وكل مكان، وهم يخوضون عُبَاب الحياة في صحبة نسائهم ودوابهم وديارهم، والله أعلم.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٦٧٨)

١٦٧٨- وعن بُرَيْدَةَ رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ كَانَ لا يَتَطَيَّرُ. رواه أبُو داود[1] بإسناد صحيح.

ترجمة الراوي:

بُريدة بن الحُصيب الأسلمي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٥٨١).

غريب الألفاظ:

يتطيَّر: يتشاءَم.

الشرح الأدبي

هذا الحديث قبسة من أنوار الشمائل المحمدية، وهالة من أشعة أخلاق الرسول ﷺ، وقد صيغ الحديث في جملة إخبارية واحدة تبدأ بالتأكيد وتوثيق الخبر الصادق، وقدم لفظ النبي ﷺ حيث جاء بعد التوكيد اسماً "لأن" في وظيفته النحوية، وأما الخبر فيتكون من جملتين فعليتين: جملة: كان واسمها المستتر: والتقدير كان هو...، وجملة لا يتطير... وهي خبر كان، والجملتان تعدان جملة واحدة وهي خبر "إن"، وتأمل مجيء قوله "كان" وهي فعل ناسخ ناقص، والفعل المنفي "يتطير"، ومجيئه في صيغة المضارع، فالحدث وهو عدم التطير له صفة الاستمرار، والفعل الناسخ... في ظل دلالته النحوية، له دلالة إيحائية في الحديث تنبثق من سياقه: وهي نسخ التطير، والإعلان عن عدم وجوده ولا وجود لآثاره في حياة النبي ﷺ، وكان ﷺ، في ظل هذا السلوك المرتبط بمشيئة الله تعالى وقدرته، وإسلام الوجه لله تعالى والإذعان لعظمته، أعظم مهيب في النفوس كما قال الماوردي: حتى ارتاعت رسل كسرى من هيبته، وكان صلوات الله وسلامه عليه محبوباً استحكمت محبة طلاقته في النفوس، حتى لم يَقْلُهُ مصاحب، ولم يتباعد منه مقارب، وكان أحب إلى أصحابه من الآباء والأبناء وشرب الماء البارد على الظمأ، ﷺ.

المضامين الدعوية[2]

---

(١) برقم (٣٩٢٠) وهو جزء من حديث.

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٦٧٦).

الحديث رقم (١٦٧٩)

١٦٧٩- وعن عُروة بن عامر رضي الله عنه قال: ذُكِرَتِ الطِّيَرَةُ عِنْدَ رَسولِ اللهِ ﷺ، فقالَ: ((أحْسَنُهَا الفَألُ. وَلاَ تَرُدُّ مُسْلِماً فإذا رَأى أحَدُكُمْ ما يَكْرَهُ، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ لاَ يَأتِي بالحَسَنَاتِ إلاَّ أنْتَ، وَلاَ يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إلاَّ أنْتَ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ بِكَ)) حديث صحيحٌ، رواه أبو داود[1] بإسناد صحيح.

ترجمة الراوي:

عروة بن عامر: هو عروة بن عامر القرشي ويقال: الجهني المكيّ. مختلف في صحبته روى عن النبي ﷺ وعن عبدالله بن عباس ورفاعة بن عبيد "وهو مختلف في صحبته كذلك". روى عنه عمرو بن دينار وحبيب بن أبي ثابت وغيرهما.

قال ابن حجر في الإصابة: وأخرج أبو داود له في السنن [أي هذا الحديث]: ما يشعر بأنه عنده صحابي.

وقال في التهذيب: أثبت غير واحد له صحبة وشك فيه بعضهم، وروايته عن بعض الصحابة لا تمنع أن يكون صحابياً. والظاهر أن رواية حبيب عنه منقطعة. وقال في الإصابة: حبيب كثير الإرسال[2].

الشرح الأدبي

حين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف نجده فياضاً بكثير من الأسرار التعبيرية التي توصل المعنى، وتحدد المقاصد المتغياه من توجيهات المصطفى

---

(١) برقم (٣٩١٩). قال العراقي في تخريج الإحياء (١١٩) أخرجه ابن أبي شيبة، وأبو نعيم في اليوم والليلة، والبيهقي في الدعوات من حديث عروة بن عامر مرسلاً، ورجاله ثقات. وفي اليوم والليلة لابن السني عن عقبة بن عامر، فجعله مسندًا. تنبيه: صحّح المؤلف إسناد الحديث على أنَّ عروة بن عامر عنده صحابيٌّ، واختلف فيه، والصواب أن الحديث مرسلٌ.

(٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٤/٢٦)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ٩٠٥، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (١٥٧/٥)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٩٥/٣).

الكريم ﷺ، فالحديث يبدأ بالفعل المبني للمجهول: "ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ"، وهذه الصيغة توحي بأن المراد ليس معرفة القائل... وإنما معرفة الموقف الصحيح من هذه الظاهرة التي استحكمت في النفوس.. وهي من آثار الجاهلية.

وهذا الموقف حدده رسول الله ﷺ في هذا التعبير الجميل المرغب الذي جاء فور سماعه بهذا الأمر، "فقال": والعطف بالفاء هنا يوحي بسرعة القول منعاً للفتنة، وحرصاً على توضيح الأمر وتأمل هذا البيان النبوي الراشد، "أحسنها الفأل"، والفأل هو الثقة في رحمة الله تعالى حتى في أشد الأوقات كمدا وضيقا، ففي الفأل حسن الظن بالله عز وجل، وأما الطيرة: ففيها سوء الظن بالله، وتوقع البلاء، والتعبير الذي جاء في صيغة أفعل التفضيل له ما يقابله وهو مفهوم العبارة التي يقابل منطوقها، وهو "أسوأها التشاؤم"، وكأن الفأل والتشاؤم ينبعان من مصدر واحد وهو إحساس النفس الإنسانية، ومدى صلتها بالله، كما قال سبحانه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾[1].

والإيجاز الذي يتضمن الحكم الصارم في قوله: "ولا ترد مسلماً"، فالنفي هنا بمعنى النهي: لأن شأن المسلم أن لا يرجع عما عزم عليه، والتعبير بالمضارع يوحي بالاستمرار، وأن ذلك من خلق المسلم الملازم له.

وصيغة الشرط والجواب في قوله: "وإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل" تشخص المشكلة، وتضع الحل والدواء، وهو يتمثل في الدعاء الذي ورد في ختام الحديث، والأمر في قوله: "فليقل" للوجوب، حتى لا يقع المسلم فريسة للظنون والأوهام، وتأمل الصيغ الثلاثة للدعاء، إنها وردت في أسلوب القصر، وهذا الأسلوب يؤكد أنه لا يُصرِّف الأشياء إلا الله، ولا يقدر الأمور إلا الله، وتأمل تكرار قوله "أنت"، وذلك لبيان حرص المؤمن على التوكل على الله، وتأمل كذلك دقة الاختيار في قوله: "لا يأتي بالحسنات"، "ولا يدفع بالسيئات"، ففي مجال الحسنات، آثر التعبير بقوله: "يأتي" لأن

(١) سورة الشمس، الآيتان: ٧، ٨.

الإيتاء: إعطاء وفضل وإحسان، أما في مجال السيئات: فالأنسب هو الدفع أملاً في تجنب السيئات والنجاة منها، ولذلك عدل رسول الله ﷺ عن قوله: "ولا يأتي بالسيئات إلا أنت ..." إلى قوله: "ولا يدفع" تأدباً مع الله، واستبشاراً وأملاً في تجنب السيئات، ومضاعفة الحسنات.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٦٧٦).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً - التربية بالتفاؤل:

التفاؤل بالحياة حياة جديدة، وسعادة حقيقية ينعم بها الإنسان، فمن تفاءل في أمور حياته ملك قوة لا تقهر، وسار بخطى حثيثة لتحقيق مستقبل أفضل[(١)].

وقد كان رسول الله ﷺ يقول: "لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل" قالوا: وما الفأل، قال: "كلمة طيبة".

وقال ﷺ: "لا عدوى ولا طيرة، وإن كان الشؤم في شيء ففي الدار، والمرأة، والفرس" وكان ﷺ لا يتطير، وعندما ذكرت عنده الطيرة قال: "أحسنها الفأل. ولا ترد مسلمًا فإذا رأى أحدكم ما يكره، فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك" وكان يبعث في النفوس الأمل والراحة، ويغمرها بالدعة والطمأنينة، ويزيل عنها الغم والحزن، ويقتل فيها اليأس والقنوط، ويحي فيها روح التفاؤل والعمل.

وكان إذا دخل على مريض قال له: ((لا بأس، طهور إن شاء الله))[(٢)] ذلك أن النفوس المتعبة المريضة، القلقة الخائفة، المتشائمة المتطيرة، المرتبكة المترددة، الخائرة الحائرة، يصعب على المربي تربيتها وقيادتها، مثل ما يصعب عليها أن تؤدي دورًا فاعلاً وإيجابيًا تنفع به نفسها، أو تنفع به غيرها.

لذلك حرص رسول الله ﷺ على أن تكون أمته دائمة البِشْرِ إيجابية التفكير، نشطة وصحيحة، قوية وشجاعة، متفائلة ومتطلعة، مطمئنة إلى طريقها واثقة من نفسها، حتى يستطيع أن يبني فيها معالي الأمور، وصفات الكمال، ويبني بها أمة كريمة ودولة عظيمة[(٣)].

---

(١) موسوعة القيم العربية والإسلامية، ١٥/١٤ المقدمة.

(٢) أخرجه البخاري ٣٦١٦.

(٣) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد محمود العاني، ص ٢٢٩، ٢٣٠.

ثانيًا - التربية العقدية:

إن التطير هو التشاؤم بالطيور والأسماء والألفاظ والبقاع والأشخاص وغير ذلك، فإذا عزم شخص على أمر من أمور الدين أو الدنيا، فرأى أو سمع ما يكره، أثر فيه ذلك أحد أمرين: إما الرجوع عما كان عازمًا عليه تطيرًا وتأثرًا بما رأى أو سمع، فيعلق قلبه بذلك المكروه، ويؤثر ذلك على إيمانه، ويخل بتوحيده وتوكله على الله، وإما أن يرجع عما عزم عليه، ولكن يبقى في قلبه أثر ذلك التطير من الحزن والألم والهم والوساوس والضعف.

فيجب على من وجد شيئًا من ذلك في نفسه أن يجاهدها على دفعه، ويستعين بالله، ويتوكل عليه، ويمضي في شأنه ويقول: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك[1].

والطيرة باب من الشرك منافية للتوكل لما فيه من الاعتماد والالتفات إلى غير الله تعالى، حيث إن المتطير الذي أحجم عما كان قد اعتزمه بسبب ما رآه أو سمعه، اعتقد بعمله هذا أنه يمكنه أن يرد قضاء الله وقدره، وهذا خلاف التوكل المأمور به وهو أن يثق المسلم بالله عز وجل ويعلم أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لن يصيبه إلا ما كتبه الله له وقدره[2].

وقد جاءت أحاديث الباب محذرة من التطير والتشاؤم ومرغبة في التفاؤل والتوكل.

وقد قال ﷺ: ((الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، ومَا مِنَّا إلا، ولكِنْ يُذْهِبُه اللَّهُ بالتَّوَكُّلِ))[3].

قال الخطابي: (قوله "وما منا إلا" معناه إلا يعتريه التطير وسبق إلى قلبه الكراهة فيه، فحذف اختصارًا للكلام واعتمادًا على فهم السامع وقال محمد بن إسماعيل: كان سليمان بن حرب ينكر هذا ويقول: هذا الحرف ليس من قول رسول الله ﷺ وكأنه قول ابن مسعود رضي الله عنه)[4].

---

(١) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، د. صالح بن فوزان عبدالله الفوزان، ص ١١٧، ١١٨.

(٢) المسائل والرسائل المرويّة عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة، تحقيق: د. عبدالإله بن سلمان بن سالم الأحمدي، ص ٢/١٢٥.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ٣٨٩/١ رقم ٣٦٨٧، وقال محققو المسند: إسناده صحيح.

(٤) معالم السنن مع سنن ابي داود ٤/٢٣٠.

وقال ابن القيم: (وهو الصواب فإن الطيرة نوع من الشرك، كما هو في أثر مرفوع: "من ردته الطيرة من حاجة فقد أشرك" قالوا: يا رسول الله: ما كفارة ذلك قال: "أن يقول أحدهم، اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك)[1].

وفي صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي أنه قال لرسول الله ﷺ: منا أناس يتطيرون فقال: ((ذَلِكَ شَيْءٌ يَجِدُهُ أَحَدُكُمْ فِي نَفْسِهِ، فَلاَ يَصُدَّنَّكُمْ))[2] فأخبر أن تأذيه وتشاؤمه بالتطير إنما هو في نفسه وعقيدته لا في المتطير به فوهمه وخوفه وإشراكه هو الذي يطيره ويصده، لا ما رآه وسمعه، فأوضح ﷺ لأمته الأمر وبين لهم فساد الطير ليعلموا أن الله سبحانه لم يجعل لهم عليها علامة ولا فيها دلالة، ولا نصبها سببًا لما يخافونه ويحذرونه لتطمئن قلوبهم وتسكن نفوسهم إلى وحدانيته تعالى التي أرسل بها رسله وأنزل بها كتبه، وخلق لأجلها السموات والأرض وعمر الدارين الجنة والنار، فبسبب التوحيد ومن أجله جعل الجنة دار التوحيد وموجباته وحقوقه والنار دار الشرك ولوازمه وموجباته فقطع ﷺ علق الشرك من قلوبهم، لئلا يبقى فيها علقة منها ولا يلتبسوا بعمل من أعمال أهل النار البتة[3].

فعلى المربين تحذير الناس من التطير والتشاؤم، وحثهم على التوكل على الله، لأن الطيرة لا تضر من كرهها ومشى في طريقه أما من لم يخلص في توكله على الله، واسترسل مع الشيطان في ذلك، فيعاقب بالوقوع فيما يكره، لأنه أعرض عن واجبه بالإيمان بالله[4].

۞ ۞ ۞

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٢/٢٢٠ رقم ٧٠٤٥، وقال محققو المسند: حديث حسن.

(٢) أخرجه مسلم ٥٣٧ بلفظ: (ومنا أناس يتطيرون فقال: ذاك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدنهم" قال ابن الصباح: "فلا يصدنكم".

(٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ابن القيم ٢/٢٣٤.

(٤) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، د. صالح الفوزان، ص ١٢١.



فهرس المحتويات



فهرس المحتويات

الموضـــــــــــوع	الصفحة

الموضـــــــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة